

تاريخ الآداب العربية

الجزء الثالث

العصر العبّاسي

فهرسة أثناء النشر: إعداد الشئون الفنية

اسم الكتاب: تاريخ الآداب العربية، العصر العباسي ج(٣)

اسم المؤلف: محمد أسامة

تصنيف الكتاب: تاريخ أدبي

القاهرة. دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

عدد الصفحات: ٥٦٢

رقم الإيداع ٨٧٦٥ / ٢٠٢٤

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٣٧٧-٩٩٨-٨٩٣-١



تحقيق علمي وتدقيق لغوي: أ/ حسن الحضري.

تصميم الغلاف: منى الموجي

التنسيق الداخلي: محمد أسامة

رقم الطبعة: الطبعة الأولى

المدير العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع- مصر- بورسعيد

جوال: ٠٠٢٠١٢١١١٣٢٨٧٩

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com



حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت؛ إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدِّمة

الحمد لله الذي وهبنا الإسلام دينًا، ورزقنا القرآن منهجًا وسبيلًا، وجعل منه لنا ضياءً منيرًا، وشرفنا بحمل رسالته، والعناية بلغته؛ والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ قد أدَّى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وتركها على محبَّة واضحة، أما بعد:

فهذا هو الجزء الثالث من سلسلة كتاب "تاريخ الآداب العربية"، بعدما فرغنا من الجزء الأول الذي اختصصنا به العصر الجاهلي، والجزء الثاني الذي اختصصنا به "عصر صدر الإسلام" و"العصر الأموي"؛ تلك الحقبة التي تلت البعثة النبوية المباركة، واستمرت قرابة قرن ونصف من الزمان؛ ليأتي دور الحديث عن الحقبة العباسية التي بدأت من قيام الخلافة العباسية عام (١٣٢هـ / ٧٥٠م)، واستمرت حتى انهيار الدولة العباسية وسقوط بغداد على يد جيوش هولاكو المغولي عام (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)؛ وهي مدة طويلة امتدت إلى ما يربو على خمسة قرون.

وتعتبر تلك المدة هي الحقبة الذهبية للمسلمين في تاريخهم؛ حيث بلغوا فيها من الازدهار ورفق الحضارة والنمو العلمي والثقافي قدرًا عظيمًا لم يعرف العرب مثله من قبل، ونظرًا إلى طول تلك الحقبة فقد قسَّمها المؤرخون إلى عدة أقسام؛ فقسَّمها مؤرِّخو السياسة إلى قسمين: العصر العباسي الأول الذي امتد نحو قرن من قيام الدولة العباسية، والعصر العباسي الثاني الذي امتد بعد ذلك حتى سقوط بغداد، وقام ذلك التقسيم على اعتبارات سياسية وأحداث فارقة سنمر عليها بإيجاز لاحقًا إن شاء الله، أما مؤرِّخو الأدب فقد اختلفوا في تقسيم هذا العصر؛ فمنهم من قسمه إلى عصرين تماشيًا مع التقسيم السياسي، ومنهم من قسمه إلى ثلاثة عصور، ومنهم من قسمه إلى أربعة؛ وذلك كله وفق اعتبارات أدبية مختلفة.

وقد شهدت تلك الحقبة الطويلة من تاريخ المسلمين تطوراتٍ وأحداثاً شتى، على الصعيد السياسي والاجتماعي الذي اختلف كثيراً عما سبق تلك الحقبة من عصور؛ حيث امتزج العرب بالموالي من الفرس والترك وغيرهم، فإذا كانت الدولة الأموية عربية الطبع والصبغة، وكان للعرب وللثقافة العربية المرتبة الأولى؛ فقد اختلف الأمر في العصر العباسي بعدما صار الموالي والمولدون عنصراً رئيساً في الدولة وفي المجتمع، ونتج عن هذا الامتزاج نتائج كثيرة، منها المحمود ومنها المذموم، وتداخلت الثقافات اليونانية والفارسية والرومية مع الثقافة العربية، فكان ذلك مزجاً رائعاً استفادت منه الثقافة العربية ذاتها وزادها رفعة وتطوراً، وأكسبها ميزات جديدة أدت إلى تطور وازدهار في شتى العلوم والمعارف؛ بفضل كثرة العلماء، ونشاط الترجمة والتدوين، واهتمام الخلفاء العباسيين بالعلم والثقافة، فنشطت الحركة العملية والثقافية وتطورت تطوراً كبيراً.

وكان من الطبيعي أن تُلقى هذه التغيرات السياسية والاجتماعية وما حدث من تطور علمي وازدهار ثقافي؛ بظلالها على الأدب العربي الذي عاش في تلك الأعصر العباسية عهده الذهبي، ولم يتأثر سلباً بما حدث من فتن وقلقل وتضعُّع للخلافة العباسية في عصرها الثاني، فاكتمل الشعور جوانب ثقافية جديدة مع دخول المولدين في زمرة الشعراء، وتأثر الشعراء بما حدث حولهم من تغير كبير في المجتمع، مما تطور النثر تطوراً عظيماً؛ حيث انصهرت في قالبه كل تلك المناحي الثقافية والفكرية وما شملت من علوم ومعارف، أضفت على النثر آفاقاً جديدة لم تكن معروفة من قبل.

وسفنتح هذا الجزء بنبذة عن أحواله السياسية والاقتصادية، وسنخصص باباً لشرح التطور والازدهار الثقافي، ثم نتناول الشعر بخصائصه وسماته وتطوره، مع أبرز الشعراء على مر عصوره التي تنقسم إليها مدة الخلافة العباسية، ثم نتناول بعده النثر بكل أقسامه وفروعه، راجين أن نقدم رؤية شاملة عن الأدب العربي في تلك الحقبة الطويلة.



الباب الرابع

الأدب في العصر العباسي



العصر العباسي

(تعريفه وعصوره وأثره وأحواله السياسية والاجتماعية)

تعريفه:

يُطلق العصر العباسي على تلك الحقبة الزمنية التي بدأت بقيام الدولة العباسية عام (١٣٢هـ / ٧٥٠م) على أنقاض الدولة الأموية، وانتهت بسقوط مدينة بغداد حاضرة الخلافة، على يد المغول بقيادة هولاكو، وانتهاء الدولة العباسية بشكل نهائي عام (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، وهي حقبة طويلة من التاريخ الإسلامي، تعدّت خمسة قرون (٥٢٤ عامًا)، وقد سُميت بالعصر العباسي نسبة إلى بني العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، الذين آلت إليهم الخلافة في تلك الحقبة؛ حيث تعاقب عليها من بني العباس سبعة وثلاثون خليفة، وقد بدأت الدعوة العباسية عام (١٠٠هـ / ٧١٨م)، على يد محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب، بينما كانت الدولة الأموية في أوج عنفوانها، إلا أنها كانت دعوة سرّية، وقد انتشر أتباعها في خراسان التي كانت مجالاً لانتشارها، ولمّا تُوفّي محمد خلفه على إمامة الدعوة ولده إبراهيم؛ الذي أخذ يرتّب أتباعه وينظّم دعوته، وانتهاز فرصة القلاقل السياسية التي حدثت في أواخر عصر الدولة الأموية، فأعلن الدعوة، إلا أنّه قُبِضَ عليه وقُتِل، ومع ذلك فقد أخذت جيوش الدعوة العباسية بقيادة أبي مسلم الخراساني تجتاح أقاليم الدولة الأموية في خراسان وفارس والعراق، حتى تمكّنت من هزيمة الجيش الأموي في معركة الزاب عام (١٣٢هـ / ٧٥٠م) بين العراق والشام، وعلى أثرها فرّ مروان ابن محمد آخر خلفاء بني أمية، وما لبث أن قُتِل، وبويع في الكوفة أبو العباس السفاح أخو الإمام إبراهيم كأوّل خلفاء بني العباس، وفيما يلي شرح لملامح الحياة السياسية والاجتماعية في تلك الحقبة الطويلة.

الأحوال السياسية:

نظرًا إلى طول تلك الحقبة وتعيّنها الخمسة قرون -بخلاف العصر الأموي وعصر صدر الإسلام اللذين امتدّا نحو قرن ونصف فقط- فقد دخلت الدولة العباسية خلال تلك الحقبة الطويلة في عدّة أطوار ومراحل، ولهذا قسّم المؤرّخون العصر العباسي إلى عصرين رئيسيّين:

العصر العباسي الأول:

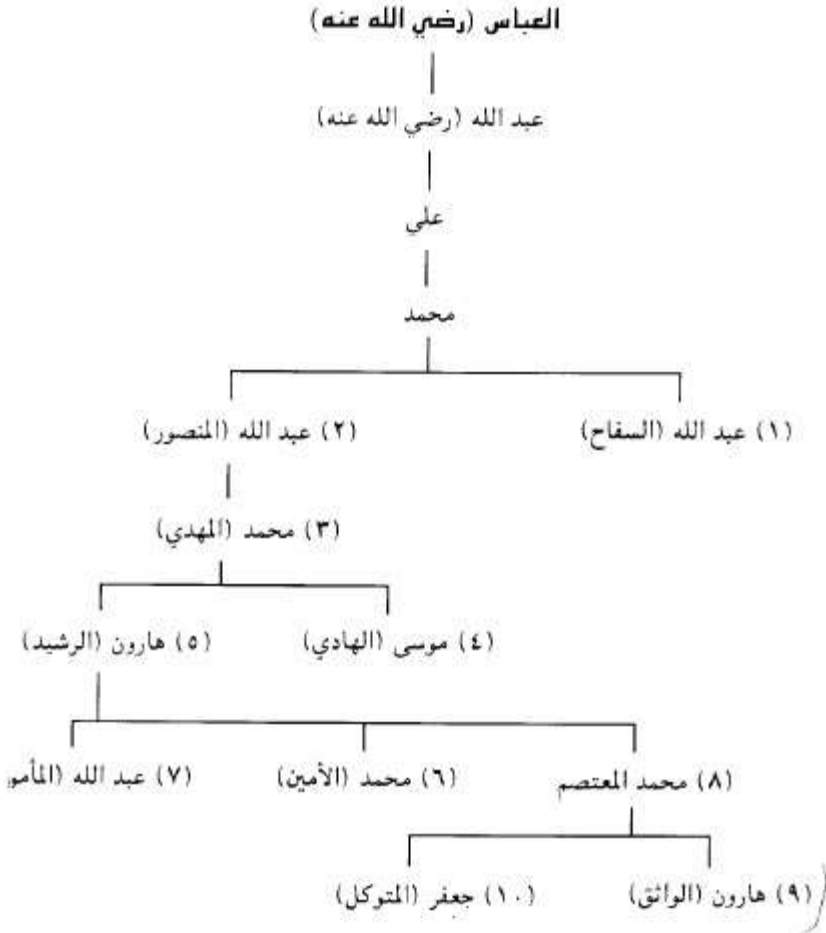
ويبدأ من قيام الدولة العباسية عام (١٣٢هـ / ٧٥٠م) حتى عام (٢٤٧هـ / ٨٦١م)، وقد حكم في هذه المدة عشرة من الخلفاء العبّاسيين؛ هم: أبو العبّاس السّقّاح، وأبو جعفر المنصور، والمهدي، والهادي، وهارون الرشيد، والأمين، والمأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكّل؛ وانتهى هذا العصر بمقتل المتوكّل على يد الجند الأتراك، وقد شهد هذا العصر قوة الخلافة وازدهارها، ومن أبرز ملامحه السياسية:

(١) قوة السلطة المركزية: عُرِفَت الخلافة العباسية في ذلك العصر بالقوّة والزهو؛ حيث كان للخلفاء العبّاسيين كامل الهيبة والسلطة والنفوذ، وكانت لهم الكلمة العليا على العالم الإسلامي كاملاً باستثناء المغرب والأندلس، وقد أطاعهم جميع الأمراء والقادة والولاة، وكان الخلفاء أقوياء يسوسون أمور دولتهم ويقودون الجيوش ويفرضون الطاعة على الجميع، فمهمهم أبو جعفر المنصور ثاني خلفائهم؛ الذي اتّصف بالحزم والعزم والدهاء، وكان قويّاً ثابت الجأش، وكذلك حفيده هارون الرّشيد الذي بلغت الدولة في عهده أوج عظمتها، وكان على قدرٍ من العزة والمنعة والحزم، وولده المأمون الذي بلغت النهضة العلمية في عهده ذروتها، وكذلك أخوه المعتصم الذي كان قويّاً شجاعاً ذا بأس شديد، واستمرّ حالهم على ذلك حتى مقتل المتوكّل عام (٢٤٧هـ / ٨٦١م)، فتسلّط القادة العسكريون على الخلافة وضعفت منذ ذلك الحين.

خلفاء عصر القوة

م	الخليفة	اللقب	فترة الحكم
١	أبو العباس عبد الله بن محمد	السفاح	١٣٢-١٣٦هـ/٧٤٩-٧٥٣م
٢	أبو جعفر عبد الله بن محمد	المنصور	١٣٧-١٥٨هـ/٧٥٣-٧٧٤م
٣	محمد بن عبد الله بن محمد	المهدي	١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٤-٧٨٥م
٤	موسى بن محمد بن عبد الله	الهادي	١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م
٥	هارون بن محمد بن عبد الله	الرشيد	١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م
٦	محمد بن هارون بن محمد	الأمين	١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٨-٨١٣م
٧	عبد الله بن هارون بن محمد	المأمون	١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م
٨	محمد بن هارون بن محمد	المعتصم	٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤١م
٩	هارون بن محمد بن هارون	الواثق	٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤١-٨٤٦م
١٠	جعفر بن محمد بن هارون	المستعز	٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦-٨٦١م

خلفاء العصر العباسي الأول



(٢) غلبة العنصر الفارسي: كانت الدولة الأموية دولة عربية خالصة، وكان قوامها وعماد دولتها من العرب، فظهر منهم الأمراء والقادة والولاة، وكان الموالي فيها في منزلة الطبقة الثانية، فلمّا ظهرت الدولة الدعوة العباسية، ناصرها الفرس نكاية ببني أمية وبالعرب، فكانوا قوامها وعتادها وجيشها، فمال إليهم العباسيون واستعملوهم، وفي المقابل ضعف سلطان العرب في هذه الدولة؛ إذ انصرف عنهم العبّاسيون بسبب انغماس العرب في العصبية

القبليّة، وما جرّه ذلك الولاء القبلي على الدولة الأمويّة من نزاعات وشقاق ومشكلات.

وقد تبارى الفرس في خدمة الدولة، وظهرت منهم كفاءات متعدّدة في الإدارة والسياسة، وكان الفرس أصحاب حضارة عريقة منذ القدم، فعملوا على إدخال تلك الحضارة في الحضارة العربيّة، واشتهرت عدة أسر فارسيّة معروفة عملت في بلاط الخلفاء العباسيين؛ ومن هؤلاء: أسرة البرامكة، وبنو سهل، وبنو طاهر؛ ومن أبرز مظاهر التأثير بالعنصر الفارسي استحداث منصب الوزارة؛ الذي أخذه العباسيون عن الفرس، ولم يكن هذا المنصب معروفاً في العصور السابقة، ولكن كان هناك رجال ومساعدون للخليفة، وأهل شورى يقومون مقام الوزارة، قبل أن يستحدث العباسيون هذا المنصب رسمياً، وقد غلب الفرس على منصب الوزارة، وكان أوّل من تولّى هذا المنصب أبو سلمة الخلال أحد دعاةهم، ومن أشهر من تولّى الوزارة منهم خالد البرمكي في عهد المنصور، وابنه يحيى في عهد هارون الرشيد، وكان هناك نوعان من الوزراء: وزير التنفيذ (المكلّف بتنفيذ أوامر الخليفة)، ووزير التفويض (الذي يكلفه الخليفة بإدارة بعض شؤون دولته نيابةً عنه)، مفوضاً له بعض صلاحيّاته في التولية والعزل.

ولم تكن الوزارة المظهر الوحيد من مظاهر التأثير بالعنصر الفارسي؛ إذ احتجب الخلفاء العباسيون عن العامة، واتخذوا منصباً جديداً هو منصب الحاجب؛ الذي يشرف على التشريعات وأمور الخلافة، وينظّم الداخلين على بلاط الخليفة، فلا يدخل أحد إلا بإذنه.

بل إن التقاليد الفارسية ظهرت أيضاً على أزياء وطبقات ومراتب العمّال وموظفي الدولة، وفي كثير من مظاهر النظم السياسيّة والإداريّة والتشريعات والدواوين التي توسع العباسيون في اقتباس أنظمتها من الفرس، صحيح أن عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه- قد اقتبس نظام الدواوين عن الروم والفرس في خلافته، إلا أنّه مع قدوم الدولة العباسية وغلبة الموالي عليها؛ توسّع العباسيون في اقتباس أنظمتها من الفرس، فلم تعد مجرّد دفاتر للإحصاء والحساب وكتابة

الرسائل؛ بل توسّعت فيها النظم الإدارية والسياسية، فكان هناك ديوان خاص لشؤون الخلافة، ودواوين أخرى للخراج والجند والشرطة والبريد، وديوان للرسائل، وديوان التوقيع الخاص بالنظر في المظالم المرفوعة، وديوان خاص للزنادقة لتعقّبهم، وديوان الخبر؛ الذي كان يُعني بتعقّب أخبار ما يجري في سائر الولايات حتى يتم إبلاغها للخليفة، وكان لكل ولاية ديوانها الخاص^١.

وبناء على ذلك فقد ضعف سلطان العرب في هذه الدولة إلى حد بعيد، وتلاشى نفوذ القبائل بانصراف العباسيين عنهم إلى الفرس، إلا أن ضعف سلطان العرب لا يعني اختفاء نفوذهم تمامًا؛ فقد ظهر من العرب عدد من القادة والفرسان الذين خدموا الدولة العباسية؛ مثل: معن بن زائدة، ويزيد بن مزيد الشيباني وآخرين، وإنّما الذي تلاشي تمامًا هو نفوذ القبائل، فقد زال سلطان العرب على سائر الفئات في الدولة، وتحوّلوا إلى مجرد عنصرٍ من العناصر المشاركة فيها.

وقد بقي العنصر الفارسي مسيطرًا على الخلافة وبارزًا فيها حتى أواخر عهد الخليفة المأمون، ثم جاء أخوه المعتصم؛ الذي رغب عن الفرس، فبدأ يُقصيهم من السلطة، ويميل إلى العنصر التركي، فاستكثر من الجند الأتراك وبدأ في تنحية الفرس؛ لضعف ثقته بهم، والسبب في ذلك أن الفرس رغم كفاءتهم الإدارية والسياسية؛ فقد حاولوا أكثر من مرة الاستحواذ على الخلافة، عن طريق الاستئثار بمجالسة الخليفة، كما ظهر فيهم ما عُرف بالشعبوية (العصبية الفارسية)، فتعدّدت المؤامرات منهم، وقد أدى هذا إلى أن بطش الخلفاء بالعديد منهم في أكثر من مناسبة، وكان أشهر من تم البطش بهم هم أسرة البرامكة، الذين كانوا في عزّة ومنعة، وبيدهم شؤون الدولة، إلى أن نكهم الخليفة هارون الرشيد عام (١٨٧هـ / ٨٠٢م)، فصار يُضرب بنكبتهم المثل، وقد أدّت تلك الأحداث إلى أن تخلّى الخلفاء العباسيون عن الفرس بعد قرابة قرن

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ١٩ - ٢٦)، دار المعارف، القاهرة- مصر، ط ٢٥، ٢٠١٩م.

من قيام دولتهم، ومالوا إلى العنصر التركي، وضعف العنصر الفارسي منذ ذلك الحين بعدما فقدوا سطوتهم.

(٣) ظهور الإمارات وانقسام العالم الإسلامي: بخلاف عصر الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية الذين حافظوا على وحدة العالم الإسلامي سياسيًا؛ فقد كان اتساع الدولة العباسية وامتدادها إلى أطراف نائية، عائقًا أمام الخلفاء العباسيين للحفاظ على تلك الوحدة، ففشلوا في الإبقاء على العالم الإسلامي دولة موحدة كما كانت؛ إذ سرعان ما انفصلت الأندلس عن سلطان الخلافة؛ حيث فرَّ إليها الأمير الأموي عبدالرحمن بن معاوية (الداخل)، وأسس فيها إمارة أموية مستقلة عن سلطان الخلافة عام (١٣٨هـ / ٧٥٥م)، مجددًا ملك آبائه فيها، ثم ما لبث أن انفصل المغرب الأقصى كذلك عام (١٧٣هـ / ٧٨٨م)، وتكوّنت فيه إمارة علوية أسسها إدريس بن عبد الله، من نسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفشل العباسيون في استعادة نفوذهم في تلك البقاع النائية، واكتفوا فقط بإنشاء إمارات شبه مستقلة على أطراف دولتهم، ومنحوها حكمًا ذاتيًا حتى يضمنوا ولاءهم، ويوقفوا نزيف انفلات الولايات من الخلافة؛ مثل: الأغالبة في تونس، والزياديين في اليمن، والطاهريين في خراسان؛ فكانت تلك الإمارات موالية للعباسيين.

(٤) ثورات الشيعة والخوارج: رأينا في العصر الأموي ما واجهه الخلفاء من معارضة سياسية عنيفة، سواء من الخوارج الذين أنكروا التوريث ورأوا الخلافة شورى، أو من الشيعة الذين رأوا الخلافة حقًا لآل البيت، أو من الزبيريين الذي رأوا الخلافة حقًا لقريش، وقد نجح الأمويون في البطش بجميع الأحزاب السياسية المعارضة لهم، بعدما خاضوا معهم عدة معارك حامية، إلا أنه رغم انتصارهم فإن تلك الثورات السياسية قد أضعفتهم فيما بعد حتى أدت إلى زوال دولتهم، ولما آلت الخلافة إلى بني العباس؛

واجهوا أوّل عهدهم معارضة سياسية شرسة لكنّهم نجحوا في التغلّب على معارضتهم وثبتت الأمور لهم.

وكان الحزب العلوي (الطالبي) ومن والاهم من الشيعة هم أكبر الأحزاب السياسية المعارضة للعباسيين، وكانوا يرون أن العباسيين خدعوه، وأنّهم أحقّ بالأمر منهم، فتعدّدت ثوراتهم ضد الخليفة أبي جعفر المنصور والهادي وهارون الرشيد والمأمون، ودارت بينهم وبين العباسيين وقائع حامية، إلا أن جيوش الخلافة تمكّنت من إخماد جميع ثوراتهم، باستثناء ثورة إدريس بن عبد الله؛ الذي فرّ إلى المغرب، مؤسسًا إمارته الإدريسية العلوية، محقّقًا للطالبيين بعضًا من حلمهم في الحكم.

أما الخوارج فقد ضعفوا وقلّ أثرهم، صحيح أنه قد تعدّدت ثوراتهم في هذا العصر في عدّة بلاد وأزمنة مختلفة، ولكن لم تعد لهم تلك السطوة وذلك الخطر الذي رأيناه في العصر الأموي؛ فقد نجح الخلفاء العباسيون في القضاء على ثوراتهم دون جهد كبير، وعلى الجملة فلم يكن للخوارج أثر كبير لا في الحياة العامة ولا في الأحوال السياسية، بخلاف الشيعة الذين تركوا أثرًا كبيرًا في الحياة السياسية والحياة العامة وتعدّدت طوائفهم؛ حيث انقسموا إلى عدة فئات ومذاهب؛ من بينها: الزيدية والإمامية والإسماعيلية والاثنا عشرية والكيسانية، وكان لكلّ فئة من هؤلاء إمام من آل البيت يوالونه ويقدمونه.

(٥) توقّف الفتوحات: بخلاف ما كان عليه الأمر من نشاط الفتوحات في عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي؛ فقد توقّفت الفتوحات تقريبًا في العصر العباسي، باستثناء ما كان على جبهة الروم البيزنطيين لأنّها كانت قريبة من حاضرة الخلافة؛ إذ افتتح المسلمون مناطق واسعة من بلاد الأناضول، وعدّة حصون فيها؛ مثل: حصن هرقله وعمورية، وخاضوا مع الرّوم البيزنطيين عدة معارك كان النصر غالبًا للمسلمين، وكان الخلفاء العباسيون يقودون الجيوش بأنفسهم أحيانًا، بالإضافة إلى فتوحات حدثت

في جزيرة صقلية، قام بها الأغلبية نواب العباسيين في تونس، وبعض الفتوح المحدودة في مناطق حدودية أخرى.

ولعلّ توقف الفتوحات في هذا العصر على غير تلك الجبهة، لم يكن راجعاً إلى تقصير الخلفاء العباسيين، ولكنه كان راجعاً إلى انشغال الخلافة بتعقّب الثورات المتوالية المعارضة لها وإخمادها، والتي لم تتوقّف وتيرتها حتى في أوج قوة وازدهار الخلافة، فضلاً عن اتساع الدولة واعتماد العباسيين على سياسة إنشاء إمارات ذاتية الحكم موالية لها على أطراف دولة الخلافة؛ ضماناً لهم لكي لا تنفصل تلك المناطق النائية عن سلطانها، مثلما حدث مع المغرب الأقصى والأندلس، ورغم بقاء تلك الإمارات في حوزة الخلافة، فإن الخلافة لم يعد لها سلطان مباشر عليها، وكل هذا أضعف من وتيرة الفتوحات، على أن هذا لم يحدّ من انتشار الإسلام خارج حدود الدولة الإسلامية عن طريق التجار والدعاة؛ إذ انتشر الإسلام في أواسط أفريقيا وبلاد السودان والهند ومناطق نائية في آسيا.

(٦) **حاضرة الخلافة:** لما ولي أبو العباس السفاح الخلافة -وهو أوّل الخلفاء العباسيين- اتخذ من الكوفة حاضرة لحكمه، ثم ما لبث أن انتقل إلى الأنبار وجعلها عاصمته، فلمّا خلفه أخوه أبو جعفر المنصور رغب في تشييد مدينة جديدة تكون عاصمة الدولة الجديدة، فقام ببناء مدينة بغداد، واختار موقعها على ضفاف نهر دجلة، وجلب لها ما وسعه من البنّائين والعُمّال والصُنّاع، وقد أتمّ بناءها عام (١٤٦هـ/ ٧٦٣م) وجعلها مقرّ حكمه، وقد بالغ في تزيينها وفخامتها، فجعلها آيةً في الرّوعة والفخامة، وأصبحت عاصمة الدنيا، وصارت بجانب أهميّتها السياسية قبلة للعلماء والأدباء وأرباب الفنون والصناعات، وقد ظلّت عاصمة الخلافة حتى نهاية الدولة العباسية. وقد قام الخليفة المعتصم بتشيد مدينة سامراء على مسافة من بغداد عام (٢٢١هـ/ ٨٣٥م)، وانتقل إليها وجعلها حاضرة ملكه وعاصمة خلافته بدلاً من بغداد؛ حتى يفصل جنده الأتراك عن العامة بعد أن كثرت الشكاوي ضدهم، وسمّاها الخليفة هذه المدينة "سُرّ من رأى"، أما بغداد فلم تفقد أهميّتها

السياسية والثقافية، وظلَّت تملؤ الدنيا، وما لبثت أن اضطربت أوضاع الخلافة وتناقصت سامراء فغادرها الخلفاء العباسيون إلى بغداد التي عادت من جديدٍ مقرًّا للخلافة واستمرت حتى نهاية الخلافة العباسية.

العصر العباسي الثاني:

وهو العصر الذي بدأ بمقتل المتوكل وخلافة ابنه المنتصر عام (٢٤٧هـ/ ٨٦١م)، وانتهى بسقوط الدولة العباسية، وسقوط بغداد على يد المغول، وموت آخر خلفائهم المستعصم عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م). وقد ضعفت الدولة العباسية في هذا العصر، وضعف خلفاؤها، وقد مرَّت الخلافة آنذاك بأربعة أطوار رئيسية، تعاقب فيها على الخلافة سبعة وعشرون خليفة، ويمكن إجمال هذه الأطوار كما يأتي:

(١) سيطرة الجند الأتراك: ويبدأ هذا الدور منذ مصرع المتوكل عام (٢٤٧هـ/ ٨٦١م) حتى سيطرة بني بويه على الخلافة عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، وقد حكم في تلك المدة كلٌّ من: المنتصر، والمستعين، والمعز، والمهتدي، والمعتمد، والمعتمد، والمكتفي، والمقتدر، والقاهر، والراضي، والمتقي، والمستكفي؛ الذي عزل بعد سيطرة بني بويه على الخلافة بأربعين يومًا، وفي هذه المدة اضطربت أحوال الخلافة وقلَّت هيبتها، وعلا نفوذ القادة الأتراك حتى تسلَّطوا على الخلفاء، ومن أبرز الملامح السياسية آنذاك:

١- تسلط القادة الأتراك على الخلفاء: حيث صارت إلى هؤلاء الجند مقاليد الحكم فعليًّا، وصار الخليفة ألعوبةً في أيديهم، وبعدما كانوا تابعين للخليفة يحلفون له ولطاعته؛ صار هو من يحلف لهم ويطيعهم، فساءت أحوال الخلفاء في هذا العصر؛ حيث كان القادة الأتراك سيَّي السيرة، يخلعونهم ويولَّونهم ويقتلونهم ويسبِّون معاملتهم إذا ما تأخرت أعطيائهم ولم تُنفَّذ مطالبهم، وقد قاموا بخلع المستعين ثم قتله، وقاموا بتعذيب المعتزِّ تعذيبًا شديدًا حتى خلعوه وقتلوه، وكذلك اجتروا على قتل المهتدي والمقتدر،

وقاموا بسمل أعين القاهر والمتقي، على أن الخلفاء العباسيين ظلُّوا يتمتَّعون ببعض النفوذ إلى عهد الخليفة القاهر؛ إذ سيطر بعده الأتراك على الخلافة سيطرة تامة.

والسَّبب في تسلُّط القادة الأتراك هو أن المعتصم -لضعف ثقته بالفرس- استكثر من استقدام هؤلاء الجند؛ لما عرفوا به من الجلد والبأس، ومنحهم رواتب عالية؛ ظنًّا منه أنهم أفضل من الفرس الذين تعدَّدت المؤامرات منهم، ولما جاء بعده ولده الواثق؛ قام بتوسيع صلاحياتهم وسلَّمهم معظم أمور دولته، وكان هذا خطأ فادحًا من شأنه أن يضع الخلافة تحت سيطرتهم، وقد تبارى الأتراك في خدمة الخلفاء أوَّل الأمر وساهموا في قيادة الجيوش والقضاء على بعض الثورات، بيد أنه لما توسَّع نفوذهم على هذا النحو؛ هابهـم الخليفة المتوكِّل، فرغب في إقصائهم، فقتلوه، وتملَّكوا أمور الخلافة بعده، فكثُر الفساد واضطربت الأحوال.

وفي عهد الخليفة المعتمد تحسَّنت أحوال الخلافة نوعًا ما، واستعادت شيئًا من هيبتها وقوتها؛ وذلك بفضل أخيه ووليِّ عهده أبي أحمد الموفق؛ الذي ساس الأمور وقاد الجيوش، فأطاعه الأتراك وكفُّوا مؤقَّتًا عن تسلُّطهم على الخلفاء، ولما توفِّي الموفق والمعتمد؛ جاء المعتضد بن الموفق، وكان ذا حزم وسياسة كأبيه، ثم تلاه ولده المكتفي بن المعتضد، فلمَّا مات المكتفي خلفه أخوه المقتدر، وكان صبيًّا، فعاد الضعف، وعاد الأتراك إلى التسلُّط على الخلفاء.

٢- فساد السلطة: كان من الطبيعي حين يتسلَّط الجند على الحكم، ويتدخلون في أمور السياسة؛ أن تفسد الأوضاع وتضطرب الأمور وتدهور هيبة الحكم؛ فالجند يصلحون لقيادة الجيوش والحياة العسكرية، ولا يصلحون للإدارة السياسية، وكان الأتراك غلاظًا قساة طغاة سيئي السيرة، وعليه فقد كثر الفساد في السلطة، وانغمس من انغمس من الخلفاء في اللهو والترف، وصار الوزراء ورؤساء الدواوين همُّهم الأول اختلاس وجمع الأموال والاستحواذ على الأراضي والضِّياع والممتلكات، حتى فُتيت خزانة

الدولة بسبب السلب واختلاس الأموال، واضطرب الخراج، وعظمت الجباية، وكثرت الرشاوي حتى كان يبذلها من أراد أن يُؤلى منصبًا في الوزارة أو الولاية، ولا أدلّ على فساد كثير من الوزراء وكبار الكُتّاب وإمعانهم في اختلاس وجمع المال، من قيام بعض الخلفاء بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم أثناء عزلهم؛ حيث اكتُشِف أن منهم من زادت أملاكه وثرواته زيادات مهولة إبان ولايتهم، قد بلغت أرقامًا هائلة، فضلًا عن تدخل النساء في السلطة، كما حدث مع الجارية شغب أم الخليفة المقتدر؛ التي انتهزت فرصة صغر سن ولدها، فتدخلت في شؤون الدولة، وكانت تُنيب عنها جواربها، وتُسند إليهن بعض المهام في الدولة، وكلُّها شواهد تدل على ضعف وفساد الخلافة وتدهور مكانتها.

٣- ثورات الزنج والقرامطة: اشتدّت الثورات الداخلية في هذا العصر بنحو أشد ممّا كانت عليه في العصر الأول؛ بسبب ضعف الخلافة، وكان من أعظم هذه الثورات خطرًا ثورة الزنج التي اشتعلت في جنوب العراق، وتهدّد أنصارها البصرة، ورؤّعوا الناس وعاثوا في الأرض فسادًا، فتصدّى لقتالهم أبو أحمد الموفق وليّ عهد الخلافة لأخيه المعتمد، وكانت أوضاع الخلافة قد تحسّنت في عهده نوعًا ما، فدخل معهم في معارك حامية، حتى حقّق عليهم عدّة انتصارات، وقضى عليهم قضاء مُبرمًا عام ٢٧٠هـ / ٨٨٣م، وكان نصرًا عظيمًا أعاد للخلافة بعض هيبتها، على أنه ما إن فرغ العباسيون من ثورة الزنج، حتى ظهرت ثورة أخرى عُرفت بثورة القرامطة، التي اشتدّ خطرها في البحرين وجنوب العراق، وتهدّدوا البصرة والكوفة والشام، فتصدّى لهم الخليفة المعتضد وأبعدهم عن العراق، ومن بعده ولده المكتفي الذي حقّق عليهم عدّة انتصارات فأبعدهم عن الشام، بيد أنه ما إن مات المكتفي حتى اضطربت أوضاع الخلافة من جديد، فاستفحل خطر القرامطة مجددًا، وهزموا جيوش الخلافة العباسية، واقتحموا البصرة، وأكثروا من القتل والسلب والسبي والتخريب، وكان من كوارثهم أنّهم اقتحموا مكة عام



(٣١٧هـ / ٩٢٩م) في موسم الحج وارتكبوا بحق الحُجَّاج مذبحة مروّعة، وانتهكوا حرمة الكعبة، وقاموا باقتلاع الحجر الأسود من مكانه، وأخذوه معهم ولم يرُدُّوه إلا بعد نحو اثنين وعشرين عامًا، ولم تنتهِ ثورتهم إلا عام (٤٧٠هـ / ١٠٧٧م)، بعد نحو قرنين من الترويع والمعارك.

ومن الجدير بالذكر أنَّ زعماء تلك الفئات المنحرفة الضالّة من الزنج ثم القرامطة، قد ادَّعوا كذبًا وافتراء ولاءهم لآل البيت ونسبهم فيهم، ممّا يدل على أن اتخاذ التَّشْيُّع والانتساب إلى آل البيت قد صار وسيلةً لبلوغ مآربهم الخبيثة، وكذلك فعل الفاطميون الذين انتسبوا إلى آل البيت من أجل السلطة، فبسطوا نفوذهم على المغرب ومصر والشام والحجاز، وادَّعوا خلافة منوثة لخلافة العباسيين.

٤- استقلال الولايات عن الخلافة: سبق التنبيه على أن الخلافة العباسية حتى وهي في أوج عنفوانها فشلت في الحفاظ على وحدة الأمة؛ إذ انفصلت عنها الأندلس وبلاد المغرب الأقصى، إلا أن قوة الخلافة المركزية قد حدّت من هذه الظاهرة عند مغرب الدولة فقط، وظلّت الدولة العباسية قويّة متماسكة من القيروان في المغرب الأدنى، حتى حدود خراسان والمشرق، وقاموا بإنشاء إمارات ذاتيّة الحكم على حدودها كانت موالية لهم.

على أنه ما إن بدأ العصر العباسي الثاني، وتدهورت أمور الخلافة، وتسلّط الأتراك عليها، حتى ضعفت الدولة ضعفًا شديدًا، وطمع الولاة في الاستقلال بولاياتهم، فخرجت كلّ من خراسان وفارس وبلاد المشرق ومصر والشام والحجاز والجزيرة الفراتية عن حوزة الخلافة، ونشأت عدة دول مستقلة؛ مثل: الدولة الزيدية، والدولة الصفارية، والدولة السامانية في بلاد المشرق، والدولة الحمدانية في حلب والموصل والجزيرة، والدولة الطولونية والإخشيدية في مصر والحجاز، وظهرت الدولة العبيدية (الفاطمية) في المغرب، ولم يتبقّ لبني العباس من الحكم المباشر إلا العراق والجزيرة العربية، على ما فيها من ثورات وفتن، صحيح أن تلك الدول باستثناء الفاطميين والزيديين كانت تدين بالولاء الاسمي

للخلافة العباسية، لكنهم في الحقيقة كانوا مستقلين بإماراتهم وولاياتهم، وليس للخليفة عليهم أي نفوذ أو سلطان، باستثناء تقديم اسمه في الخطبة.

(٢) سيطرة البويهيين الشيعة: وتبدأ هذه الفترة بدخول بني بويه بغداد عام (٣٣٤هـ / ٩٤٥م)، وتمتد حتى زوال دولتهم في العراق عام (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م)، وقد تعاقب على الخلافة حينها المستكفي الذي خلع بعد سيطرتهم على بغداد بأربعين يوماً، ثم المطيع والطائع والقادر، بالإضافة إلى خمس وعشرين سنة من حكم القائم، وفي هذه المدة كانت الخلافة قد فقدت كامل سلطتها السياسية؛ إذ أن العراق وقتها كانت تحت سيادة البويهيين فعلياً، الذين أنشؤوا دولةً حكمت فارس والعراق، وكان الخليفة مجرد سلطة رمزية ليس له إلا الاسم في الخطبة، وبعض الممتلكات الخاصة.

وكانت مدة حكم بني بويه تصاحبها اضطرابات وقلقل ونزاعات، وقد ظهرت آنذاك عدة إمارات؛ كإمارة الحمدانيين في حلب والموصل، وإمارة الغزنويين في خراسان وخوازم وبلاد السند، فضلاً عن تعاظم قوة الفاطميين الذين حكموا المغرب العربي وأخذوا مصر والشام والحجاز واليمن، وأعلنوا خلافتهم المناوئة للعباسيين، واتخذوا من القاهرة في مصر حاضرةً لملكهم، وكذلك فعل الأمويون في الأندلس، ومن أبرز الملامح السياسية في تلك المدة:

- فقد الخلافة لسلطتها السياسية بشكل تام، وبقاؤها فقط مظهرًا دينيًا رمزيًا، ليس للخلفاء فيه أي نفوذ أو سلطة، وكان بنو بويه متصلتين على الخلافة.

- اضطراب الأوضاع السياسية في تلك المدة؛ نظرًا إلى أن أغلب الدول التي عاصرتها كانت متصارعة فيما بينها.

- غلبة الروم على الثغور حتى مالت كفتهم على المسلمين، فاستعادوا عدة حصون وثغور، وأغاروا على عدة بلاد في الشام والجزيرة، وأكثروا من السلب

والنهب والقتل، منتهزين ما حلَّ في الجبهة الإسلامية الداخلية من اضطراب وضعف وتمزُّق.

- غلبة التشيُّع؛ حيث كان البويهيون والفاطميون من طوائف الشيعة، بينما كانت الدولة الغزنوية في السند دولة سُنيَّة.
- فقدَّ العرب في تلك الفترة سُلطانهم ونفوذهم؛ إذ إن حكام تلك الإمارات التي ظهرت في عصر بني بويه، كانوا من الموالى من الترك والفرس، باستثناء الحمدانيين فهُم عرب.

(٣) سيطرة السلاجقة: وتبدأ تلك المدة من دخول السلاجقة بغداد بقيادة السلطان طُغرلبيك السلجوقي عام (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م)، وقضائه على مُلك بني بويه فيها، حتى زوال سلطان السلاجقة عن العراق عام (٥٤٧هـ / ١١٥٢م)، وقد تعاقب على الخلافة في تلك المدة كلُّ من: القائم -في النصف الثاني من خلافته- والمقتدي والمستظهر والمسترشد والراشد والمقتفي -في النصف الأول- من خلفته، وفي تلك المدة ظلَّت الخلافة العباسية رمزية، وليس لها سلطة في الواقع؛ وإنَّما خضعت تحت سيطرة السلاجقة، وقد تعاقب على حكم السلاجقة: السلطان طُغرلبيك المؤسِّس، ثم ابن أخيه ألب أرسلان، ثم ولده مَلِكُشَاه بن ألب أرسلان؛ وكانت الدولة السلجوقية في عزَّة ومنعة، حتى إذا مات مَلِكُشَاه؛ اضطربت أمورهم ودبَّ النزاع في دولتهم، ومن أبرز الملامح السياسية في تلك المدة:

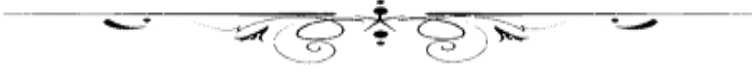
- تحسُّن أوضاع الخلافة قليلاً؛ حيث كان السلاجقة أرقَّ جانبًا من البويهيين في التعامل مع الخلفاء، ولكن هذا التحسُّن كان على الصعيد الإنساني فقط، أما على الصعيد السياسي فقد ظلَّت الخلافة بلا نفوذ ولا سلطة سياسية، مثلما كانت الحال في عهد البويهيين.

ورغم وقوع الخلافة تحت سيطرة السَّلاجقة؛ فإن الخلفاء العباسيين شرعوا منذ عهد المسترشد في استعادة بصيص من النفوذ السياسي، وبدأت تكون لهم بعض الكلمة، منتهزين ما حلَّ بالسلاجقة من ضعف بعد موت ثالث سلاطينهم مَلِكُشاه، وقد أدَّى هذا إلى نزاع بينهم وبين السلاجقة، وقد تحقَّقت غاية الخلفاء في الاستقلال في عهد المقتفي؛ الذي انتهز فرصة موت السلطان مسعود آخر سلاطينهم في العراق، فطرد الحامية السلجوقية من بغداد، واستعاد سيطرة الخلافة فعليًّا.

- تحسَّن أوضاع العالم الإسلامي إلى حدٍّ ما؛ حيث سيطر السلاجقة على معظم بلاد المشرق، وبسطوا سلطانهم على فارس وخراسان والشام، وقضوا على جميع تلك الإمارات المتنازعة، فتوحَّد معظم المشرق الإسلامي تحت زعامتهم، كما نجحوا في طرد الفاطميين من الشام والحجاز واليمن، وأعادوا الخطبة في الحرمين باسم العباسيين.

- تحسَّن الأوضاع على جبهة الروم، وكان الروم قد انتهزوا فرصة ما حلَّ بالجبهة الإسلامية من تفكُّك وتمزُّق في عهد بني بويه، فأغاروا على الثغور الإسلامية، وتوغَّلوا في البلاد، واحتلُّوا بعض المدن والثغور المهمة، إلا أن ظهور السلاجقة قد حدَّ من أطماعهم، وما لبث أن حاربهم السلطان السلجوقي ألب أرسلان، وانتصر عليهم في معركة ملاذكرد عام (٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) انتصارًا عظيمًا، فتقهقر الروم وخسروا معظم بلادهم في الأناضول، وكوَّن السلاجقة في بلاد الأناضول إمارة جديدة عُرفت باسم سلاجقة الروم.

- انخفاض حدَّة التشيُّع؛ حيث كان السلاجقة سنَّة، وزالت أغلب الدول الشيعية التي رافقت عصر بني بويه، وضعف الفاطميون في مصر، وتمَّ القضاء على ثورة القرامطة، فانخفض التيّار الشيعي في تلك البلاد، وعادت السنَّة لتسيطر على العالم الإسلامي من جديد.



- ثورة الباطنية: ظهر في عهد السلاجقة نفرٌ عُرفوا بالباطنية، وكانوا على قدرٍ من الانحراف والتطُّرف على شاكلة الزنج والقرامطة، حتى إنَّهم قد تسبَّروا هم أيضًا بالتَّشيع والدعوة لآل البيت من أجل تحقيق مطامعهم الخبيثة، ونظرًا إلى ما حلَّ بالسلاجقة من ضعف واضطراب بعد موت مَلِكُشاه؛ فقد انتشرت دعوتهم، وبسطوا نفوذهم على مناطق واسعة من بلاد فارس، وكانوا يكثرُّون من القتل غيلة، وقد حاربهم السلاجقة في غير مناسبة، وحققوا عليهم بعض النصر، لكنهم لم ينجحوا في القضاء عليهم قضاء مُبرِّمًا، ولقي المسلمون منهم شرًّا عظيمًا.

- الحروب الصليبية: نظرًا إلى ما حلَّ بالسلاجقة من ضعف ونزاعات بعد موت مَلِكُشاه؛ فقد عاد التَّمزُّق إلى العالم الإسلامي، ونشأت على أطراف الدولة السلجوقية الكبرى عدة إمارات وأتابكيَّات مستقلَّة، كان يغلب عليها النزاع والضعف، وقد انتهز نصارى أوربَّا ذلك الضعف، وكانوا يحلمون باستعادة القدس من يد المسلمين، فأعدُّوا عدة حملات عُرفت بالحملات الصليبية، ونجحوا في احتلال القدس عام (٤٩١هـ / ١٠٩٧م)، وأخذوا معها سائر الساحل الشامي، ونشأ بعدها ما عُرف بالحروب الصليبية، التي استمرَّت زهاء قرنين من الزمان، وقد هبَّ المسلمون للدفاع عن بلادهم واستعادة القدس، وجرت بين المسلمين والصليبيين عدة معارك برز فيها عدد من المجاهدين؛ مثل: شرف الدولة مودود، وعماد الدين زنكي، وولده نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، الذي استعاد القدس عام (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) وطرد الصليبيين منها، ومع هذا لم ينته الوجود الصليبي وبقي حتى عام (٦٩٠هـ / ١٢٩١م)، حينما نجح المسلمون بقيادة السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون في استعادة مدينة عكا آخر قواعد الصليبيين في الشام، وتُعتبر الحروب الصليبية من الصفحات المشرقة من

صفحات الجهاد الإسلامي، والتي تركت أثرًا سياسيًا ودينيًا بارزًا، وكان للشعر دور في مرافقة تلك الأحداث ووصفها كما سنرى.

ومن الجدير بالذكر أن الفتوحات الإسلامية التي توقفت في العصر العباسي الأول قد عادت للظهور والنشاط مجددًا في العصر العباسي الثاني، رغم ضعف الخلافة؛ حيث قامت على أطراف العالم الإسلامي عدّة دول وإمارات عُيّنت بتوسيع رقعتها عن طريق الفتوحات من جهتها؛ فقامت الدولة الغزنوية وبعدها الدولة الغورية بعدة فتوحات في الهند، وقام أنصار دولة المرابطين في المغرب بعدة فتوحات في أواسط أفريقيا وبلاد السودان، وقام السلاجقة بفتوحات واسعة في الأناضول.

(٤) **الطور الأخير:** ويبدأ من نجاح الخليفة المقتفي في طرد السلاجقة من بغداد، واستعادة سيطرة الخلافة فعليًا على العراق عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م، حتى سقوط بغداد على يد المغول بقيادة هولاكو عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، ومقتل آخر خلفائهم المستعصم، وقد تعاقب على الخلافة في هذه المرحلة كلٌّ من: المقتفي، والمستنجد، والمستضيء، والناصر، والظاهر، والمستنصر، والمستعصم.

وفي هذه المدة كان العبّاسيون قد استعادوا سُلطتهم الفعلية وأخذوا يمارسون نفوذهم واستبدؤوا بالعراق، ولم يتسلّط عليهم أحد أو يسيطر على سلطانهم، إلا أن استعادة العباسيين لسُلطتهم الفعلية لم تنف عنهم ما حل بخلافتهم من ضعف؛ إذ إن سلطانهم الفعلي لم يتجاوز العراق، بينما انفصلت عنهم سائر الولايات والبلدان؛ مثل: الدولة الزنكية في الشام، والدولة الفاطمية التي قضى عليها صلاح الدين الأيوبي، والدولة الأيوبية في مصر والشام والحجاز واليمن، والدولة الرسولية في اليمن، ودولة السلاجقة التي لفظت أنفاسها على يد الخوارزميين، والدولة الغوريّة في السند والهند؛ التي حلت محل الغزنويين، والدولة الخورازميّة في فارس وخراسان والمشرق، وكانت تلك الإمارات تدين

بالولاء للخليفة العباسي، ولكنَّه كان ولاء اسميًّا فقط مقتصرًا على الدعاء والخطبة؛ إذ إنَّها كانت مستقلة بشكل تام، وليس للخليفة أي سلطان عليها سوى منح الولاية وإرسال الرايات والخُلع، كتقليد رسمي دأب عليه المسلمون ولكن لم يكن له أثرٌ في الواقع.

ورغم الضعف فقد بقيت الخلافة العباسية على هذا الحال نحو قرن من الزمان، لم تحدث فيها على الصعيد الداخلي أحداث ذات شأن، بينما كان العالم الإسلامي حولها يمر بالعديد من الأحداث الصاخبة والمتوالية، وسبب بقائها رغم ضعفها تلك المدة الطويلة؛ هو أنها لم تتعرَّض لاختبار أو غزو خارجي تختبر فيه قوَّتها وصلابتها، حتى اجتاحت المغول بغداد عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) بقيادة هولاكو المغولي الذي قتل آخر خلفاء العباسيين وهو المستعصم بالله، فسقطت بذلك الدولة العباسية، وانتهى العصر العباسي بعدما دام مدة أربت على خمسة قرون؛ ليبدأ بعدها عصر جديد هو عصر الدول والإمارات (التركيَّة)!

١ انظر في ذلك كتاب: تهذيب البداية والنهاية لابن كثير، إعداد: عبد الحليم إبراهيم عبدالحليم، دار السلام، دار السلام، السعودية، ط٢، ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م.

م	الخليفة	اللقب	مدة الخلافة
١١	محمد بن جعفر المنوكل	المنتصر	٢٤٧-٢٤٨هـ/٨٦١-٨٦٢م
١٢	أحمد بن محمد المعتصم	المستعين	٢٤٨-٢٥٢هـ/٨٦٢-٨٦٦م
١٣	محمد بن جعفر المنوكل	المعتز	٢٥٢-٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٦٨م
١٤	محمد بن هارون الواثق	المهتدي	٢٥٥-٢٥٦هـ/٨٦٨-٨٦٩م
١٥	أحمد بن جعفر المنوكل	المعتد	٢٥٦-٢٧٩هـ/٨٦٩-٨٩٢م
١٦	أحمد بن طلحة بن جعفر	المعتضد	٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠١م
١٧	علي بن أحمد المعتضد	المكتفي	٢٨٩-٢٩٥هـ/٩٠١-٩٠٧م
١٨	جعفر بن أحمد المعتضد	المقتدر	٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٧-٩٣٢م
١٩	محمد بن أحمد المعتضد	القاهر	٣٢٠-٣٢٢هـ/٩٣٢-٩٣٣م
٢٠	محمد بن جعفر المقتدر	الراضي	٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٣-٩٤٠م
٢١	إبراهيم بن جعفر المقتدر	المتقي	٣٢٩-٣٣٣هـ/٩٤٠-٩٤٤م
٢٢	عبد الله بن علي المكتفي	المستكفي	٣٣٣-٣٣٤هـ/٩٤٤-٩٤٥م
٢٣	الفضل بن جعفر المقتدر	الطبيع	٣٣٤-٣٦٣هـ/٩٤٥-٩٧٣م
٢٤	عبد الكريم بن الفضل المطيع	الطائع	٣٦٣-٣٨١هـ/٩٧٣-٩٩١م
٢٥	أحمد بن إسحاق بن المقتدر	القادر	٣٨١-٤٢٢هـ/٩٩١-١٠٣٠م
٢٦	عبد الله بن أحمد القادر	القائم	٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣٠-١٠٧٤م

م	الخليفة	اللقب	مدة الخلافة
٢٧	عبد الله بن محمد بن القائم	المقتدي	٤٦٧-٤٨٧هـ/١٠٧٤-١٠٩٤م
٢٨	أحمد بن عبد الله المقتدي	المستظهر	٤٨٧-٥١٢هـ/١٠٩٤-١١١٨م
٢٩	الفضل بن أحمد المستظهر	المسترشد	٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٤م
٣٠	منصور بن الفضل المسترشد	الراشد	٥٢٩-٥٣٠هـ/١١٣٤-١١٣٥م
٣١	محمد بن أحمد المستظهر	المقتفي	٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٥-١١٦٠م
٣٢	يوسف بن محمد المقتفي	المستنجد	٥٥٥-٥٦٦هـ/١١٦٠-١١٧٠م
٣٣	الحسن بن يوسف المستنجد	المستضيء	٥٦٦-٥٧٥هـ/١١٧٠-١١٧٩م
٣٤	أحمد بن الحسن المستضيء	الناصر	٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٧٩-١٢٢٥م
٣٥	محمد بن أحمد الناصر	الظاهر	٦٢٢-٦٢٣هـ/١٢٢٥-١٢٢٦م
٣٦	منصور بن محمد الظاهر	المستنصر	٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م
٣٧	عبد الله بن منصور المستنصر	المستعصم	٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م

الأحوال الاجتماعية:

تغيّرت ملامح الحياة الاجتماعية مع بدء العصر العباسي إلى حدٍّ بعيد، فلم يكن قيام الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية مجرد تغيير سياسي؛ بل كان انقلاباً سياسياً واجتماعياً وفكرياً وثقافياً؛ إذ كانت الدولة الأموية دولة عربية خالصة، شجّعت الآداب الجاهلية، وظلّت إلى حدٍّ ما متمسكة بالطابع البدوي، رغم التطوّر والمدنيّة واختلاط العرب بالعجم، فلمّا جاء العصر العباسي؛ كان الفرس هم قوامها وعتادها، وهم سواد جمهورها الذي ناصر دعوتها، حتى وصلت إلى الحكم، واستعملهم العباسيون في مختلف الأعمال والوظائف، وقد أبدوا كفاءةً ومهارةً في الإدارة، وجهدوا في نقل طباعهم وثقافتهم إلى الحياة



العامة، فتطَبَّعت الدولة بطباع الفرس إلى حدٍّ بعيدٍ، وتراجع الطابع العربي ليتحوَّل من طابعٍ سائدٍ إلى مجرد عنصر من العناصر المؤثِّرة في الحياة العامة، وما لبث أن قام أبو جعفر المنصور بتشييد مدينة بغداد على مشارف بلاد فارس، فجعلها حاضرة الدنيا، وتقاطر إليها الناس من كل فجٍّ وصوب، من عرب وفُرس وروم وأتراك وزنج وبربر؛ بُغية الارتزاق والكسب والعلم والصناعة وخلاف ذلك، فحدث بين كل تلك الفئات مزجٌ رائعٌ ألقى بآثاره على الحياة الاجتماعية العامة، ورغم أن ذاك الامتزاج تولَّد عنه صراع بين تلك الفئات في بعض الأحيان، فإنَّه على الجملة ساهم في خلق مظاهر وملامح لحياةٍ وطباعٍ جديدةٍ، ومهَّد لانتشار التَّمُدُّن وانحسار الطابع البدوي في البادية، وكان من آثار هذا الامتزاج آثار إيجابية تمثَّلت في الازدهار الفكري والعلمي وترقيق الطباع وانطلاق الفكر، ولكن كانت له كذلك آثار سلبية مثل انتشار المجون والشُّعبوية والزَّندقة، فوجد الناس أنفُسهم في حياةٍ جديدةٍ ومظاهرٍ مستحدثةٍ، ونستطيع إيجاز مظاهر الحياة الاجتماعية الجديدة في العصر العباسي إلى ما يلي:

١- التَّمُدُّن واختلاط العرب بالموالي:

نتج عن احتكاك العرب بالعجم والموالي -ولا سيَّما الفرس- اقتباس العرب أمورًا كثيرة من أوجه الحضارة المادية وأساليب الفكر، وقد شرع البدو في التَّخَلِّي عن سُكَى البادية والدَّهَاب إلى الحواضر، وقد شُغِفوا بما رأوه من ترفٍ ونعيم وتطوُّر حضاري ومدني، ممَّا أدَّى إلى انحسار الطابع البدوي واقتصاره على البادية، وتزوَّج العرب بنساء العجم من فارسيات وتركيات وروميات؛ وظهر جرَّاء هذا التزاوج والاختلاط ظهور طبقة جديدة من المجتمع؛ هي طبقة المولَّدين، وكان لهم أثر كبير على الحياة الاجتماعية، ودور بارز فيها، وكان بهم ميلٌ إلى خَوولتهم، وظهرت طباع جديدة بدت آثارها على المجتمع في التَّائِق في الملبس والمأكَل والمشرب والسلوك، كما استوعب الفرس الحضارة العربية إلى

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٣٧/٢)، نور القلم، ١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م.

حدي بعيد، فاستقوا منها الكثير من العلوم والمعارف والطبائع، وتعرّبوا تعرّباً كاملاً، فأصبحت اللغة العربية لغتهم، وربّما انتسبوا وتكنّوا بأسماء عربية، وظهر منهم اللغويون والشعراء والكُتّاب، ومنهم من صار يُنافس العرب في البلاغة، فصارت العُروبة لغتهم وتاريخهم وطابعاً فيهم، وكلّها عوامل أدّت إلى ازدهار الحياة المدنيّة بشكل أكبر مما كانت عليه في العصر الأموي، بعدما اطلّعت كلّ أمةٍ على ما لدى غيرها من ثقافة وعلوم وحضارة؛ بل عرف المجتمع العربي بعض الأعياد والمناسبات الفارسية؛ مثل: عيد النيروز (رأس السنة الفارسية ٢١ مارس)، فصارت مناسبات يحتفل بها العامة والخاصة.

وكان من آثار هذا الاختلاط تضاؤل العصبية القبلية بين العرب؛ بذهاب سلطان القبائل، وتضاؤل أثر العرب الخُلص بعدما كان العرب في معظمهم بدوًا رُحَلًا، يحملون معهم طباعهم وعصبيتهم، على أنّه من الآثار السلبية لانتشار التمدّن ونزول البدو إلى الحضر "ضياع الكثير من محامدهم الأولى من الفطرة والشجاعة والنجدة، وانتشار بعض مساوئ المدينة كالشُّراب والانغماس في اللذات"؛ ولكن كان لسكناهم الحضر أيضًا بعض الحسنات مثل "اتساع العمران، واستبحار العلم، وازدهار الفن، وكثرة الأسفار التي سهّلت معرفة بعض الأمم بعضًا"^٢.

٢- الحرية العقائدية وانطلاق الفكر:

كان من آثار هذا الامتزاج الذي حدث بين العرب والموالي، ما رافقه من حرية وانطلاق للفكر، وكان من الطبيعي مع اختلاف عناصر المجتمع أن تختلف الأفكار والآراء؛ حيث شجّع الخلفاء العباسيون هذا النوع من حرّيّة العقيدة والمذاهب وانطلاق الفكر، إلا ما يمسّ الدولة من جانبها السياسي، وقد بلغت تلك الحرية ذروتها في عهد الخليفة المأمون؛ الذي كان شغوفًا بالعلم وإطلاق الفكر، وكان يحبي المناظرات وأساليب الجدل بين رجاله، وكان فيه ميلٌ إلى

^١ انظر: المصدر السابق (٢/ ٣٩).

^٢ انظر: المصدر السابق.



التَّشْيُّع، وآمَنَ بفكر المعتزلة، وكان وزيره يحيى بن أكثم سُنِّيًّا، والقاضي أحمد ابن أبي دؤاد معتزليًّا، وقد أدَّى هذا إلى رواج أفكار ومذاهب عقائدية مختلفة في المجتمع، واشتعال الجدل والمناظرات بينها، وظهور التَّسامح بين أصحابها، وربَّما ترافق أصحاب المذاهب والعقائد المختلفة؛ مثلما كان بين الشَّريف الرُّضي وأبي إسحاق الصَّابي الكاتب، وربَّما تواجد في بيت الأسرة الواحدة بين الإخوة أفكار مختلفة.

وكان من آثار انطلاق تلك الحرية ظهور الكثير من المذاهب الكلامية؛ التي كان أشهرها تيار الاعتزال؛ الذي إن كان قد نشأ في أواخر العصر الأموي على يد واصل بن عطاء؛ فقد تطوَّر وازدهر في العصر العبَّاسي، وكثر أنصاره، ونبغ منهم عددٌ كبير من الأعلام والكتَّاب والقضاة؛ مثل: الجاحظ، وابن أبي دؤاد، وبشر ابن المعتمر؛ وكان للمعتزلة دور كبير في إثراء الحياة الجدلية والكلامية، وقد تأثَّروا كذلك بتطوُّر العلوم والمعارف وفي مقدمتها الفلسفة، وكانوا يكثرُّون من الجدل، وعاشوا في عصرٍ كلٍّ من: الخليفة المأمون والمعتصم والواثق عصرهم الذهبي.

٣- مظاهر اللُّهو والمجون:

انتشر اللُّهو والبذخ في المجتمع؛ بسبب شيوع حياة الترف، وتدقُّق الأموال من الولايات على خزينة الدولة، فقد انتعش الخراج حتى كان يُدر على الدولة مبالغ طائلة، وصلت ذروتها في عهد الرشيد والمأمون والمعتصم، وقد بالغ الخلفاء العبَّاسيون في تشييد المدن والقصور الفاخرة والفخمة، والمبالغة في الزينة، وإنشاء الحمامات والدُّور والبساتين، فها هو الخليفة أبو جعفر المنصور يقوم بتشيد مدينة بغداد، وإنشاء ضاحية الرصافة في الجانب الشرقي منها، وهذا المعتصم يقوم ببناء مدينة سامراء، كما بالغ المتوكل في إنشاء الدُّور والقصور؛ مثل قصر الجعفرية أو المتوكِّلِيَّة، بالإضافة إلى قصر المعشوق الذي بناه الخليفة المعتمد، وقصر الثُّريا الذي بناه الخليفة المعتضد، وكانوا يجلبون إلى تلك القصور والأبنية ما يسعهم من مظاهر الزينة والفخامة والجوهر.

وقد ظهر هذا الترف على المجتمع في الدور المزخرفة والثياب الفاخرة والأنيقة، ورُقِيّ المطاعم والمشارب التي تأثرت كثيرًا بطباع الفرس وأساليهم، وكذلك الاستكثار من الزعفران والطيب والعطور والأزهار، فضلًا عن شيوع الغناء والموسيقى والتفنن فيها؛ حيث أقبلت فئات كثيرة على سماع الغناء وتعلّمه، وأقبل عليه الخلفاء وعلية القوم وعموم الناس، وظهر العديد من المغنين وأصحاب الطرب؛ مثل: إبراهيم الموصلي وولده إسحاق، بالإضافة إلى انتشار الألعاب ومظاهر الترويح عن النفس مثل: الرّد والشرطرنج والصولجان (كرة الخيل) والصيد وركوب الخيل.

على أن مظاهر اللهو والترف لم تقتصر على ذلك فقط؛ بل تعدّته إلى انتشار المجون والخلاعة ومظاهر التهنّك والانحلال والإباحية وانتشار الخمر، ولذلك كثرت الأديرة التي تقدّم الخمر، وكثرت كذلك الحانات والملاهي، وكان هناك رجال معروفون بالمجون وهناك، وظهرت دُورٌ مختلفة معروفة بالمجون واللهو؛ مثل: "دار مطيع بن إياس في الكوفة، ودار بشّار في البصرة، ودار أبي نواس في بغداد"، كما أباح عدد من فقهاء العراق بعض أنواع الأنبذة ما لم تكن مُخمّرة، فانتشر شربها بين الخلفاء والأعيان وبعض العامة، وقد ساهم في انتشار مظاهر الانحلال وتلك المفسدات والردائل عدّة أمور؛ من بينها:

١- ضعف الوازع الديني لدى كثيرٍ من المولّدين من أبناء الفرس؛ الذين شجّعوا على انتشار مثل تلك المفسدات ومظاهر الرذيلة، التي كان منها الغزل المذكور؛ الذي انتشر انتشارًا واسعًا فيهم.

٢- اختلاط عناصر المجتمع ببعضها، واختلاط العرب بالأمم الأخرى من العجم؛ مما أتاح وجود عناصر شتى من الديانات والأعراق التي كانت تسمح بتلك الأمور.

٣- إطلاق الخلفاء العباسيين عنان الحرّية بإسرافٍ في المجتمع فيما لا يخص السياسية، فانتشرت تلك المظاهر من الانحلال والمفسدات.

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٦٩).

على أن هذا لا يعني أن المجتمع كُله كان في ترفٍ ولهوٍ ونعيمٍ؛ بل كانت هناك فئات من المجتمع بعيدة كُلُّ البُعد عن مظاهر اللهو والبذخ، تعاني ما تعانيه من الفقر والبؤس والشقاء والضنك وضيق العيش؛ وهؤلاء هم الجمهور.

٤- الجواري والرقيق:

كثر الجواري في هذا العصر كثرةً مفرطة، وانتشرت تجارة الجواري والرقيق والخصيان في مختلف أقاليم العالم الإسلامي، وكثرت كذلك دور النخاسة والأماكن المعروفة ببيع الرقيق، وأصبح للجواري أثر كبير في المجتمع حتى علا بعضهن منازل الحرائر، وكان تجَّار الجواري يَعْتَنُون بتأديبهن وتثقيفهن وتعليمهن مختلف صنوف العلم والمعارف والآداب، وكذلك فنون الرقص والغناء، ويحفظونهنَّ الأشعار؛ وذلك حتَّى يعلو ثَمَنُهنَّ، فكنَّ يُعْرَضْنَ للبيع بأثمانٍ باهظة، الواحدة بقدر جمالها وعِلْمها وأدبها وما تُتْقِنه من أصناف الفنون والمعارف، ومنهن من كُنَّ يُتَّخَذْنَ لإحياء الملاحى والغناء في المراقص والحانات، ممَّا زاد شغف وولوع عموم الرجال بهنَّ، وإقبالهم على تلك الدور والحانات؛ لِما كُنَّ يُبْدِيْنه من رِقَّةٍ وتلطُّفٍ وظرفٍ وعذوبة في الحديث.

وكُنَّ من أجناس مختلفة؛ من فارسيات وأرمينيات وتركيات وروميات، فصار لطبقة الجواري أثرٌ كبير في الحياة الاجتماعية في العصر العباسي، ويكفي استدلالاً على مظاهر علوِّ أثرهن في المجتمع؛ أنَّ معظم الخلفاء العباسيين كانوا أبناء إماء؛ مثل أبي جعفر المنصور، وهارون الرشيد، والمأمون، والواثق وغيرهم، بعدما كان لا يُستخْلَف غير أبناء الحرائر، فضلاً عن ذهاب معظم أشعار الغزل للجواري، وكانت دور الخلفاء وقصورهم مليئةً بالجواري والقينات، مثلما كان حال هارون الرشيد الذي كان قصره مليئاً بالجواري وزويت عنه معهنَّ قصصٌ شتى، ولكثيرٍ من الشعراء معهنَّ أخبار عديدة.

٥- الشُّعوبية:

كان من آثار العصبية العربيّة وسياسة الأمويين في تقديم العرب على الموالي من الفرس وسواهم؛ ظهور ما يُعرف بالشعوبية -أي: العصبية الفارسيّة- كردّ فعل ظهر بوضوح ضد العصبية العربيّة، منذ بداية عصر الدولة العباسية وسيادة الفرس، وتعني الشُّعوبية تلك التّزعة التي تقوم بمفاخرة الفرس على العرب باعتبارهم أصحاب حضارة عريقة وثقافة ورقيّ، بينما كان العرب حفاة زُعاة غِلَظًا غارقين في البداوة وخشونة الطبع ولا حضارة لهم.

ولم تكن المشكلة في مفاخرة هؤلاء الفرس بحضارتهم وثقافتهم الفارسية؛ فإنّ الإسلام لم يمنع هذا؛ ولكن المشكلة كانت في المبالغة والمفاخرة على العرب، استنادًا إلى عظمة حضارتهم القديمة مقارنة بالعرب الذين -من وجهة نظرهم- لا حضارة لهم، وليس لهم فضلٌ ولا علمٌ ولا مدنيّة ولا درايةٌ بالمعارف، وأنّ الفرس متفوّقون عليهم في كل شيء؛ وهذه عصبية ممقوتة نهى عنها الإسلام الذي ساوى بين الناس، وأمر بهدم الفوارق العرقيّة والقبليّة.

وقد سادت الشعوبية في الأوساط العامة، وأخذوا يبثّون أفكارهم الخبيثة في تفضيل العجم على العرب، والمبالغة في تحقير العرب والازدراء بمنزلتهم، وأخذ يروج لهذه الأفكار عدد من رؤاد هذه التّزعة المتطرّفة، وكان منهم شعراء وأدباء وكتاب معروفون؛ مثل: أبي عبيدة اللّغوي، وعَلان الفارسي، والكاظم سهل ابن هارون مشرف خزائن بيت الحكمة زمن المأمون، والشاعر بشّار بن برد، والشاعر أبي نواس؛ وإن كان بعض الشُّعوبيين قد قصروا شعوبيّتهم على مطالبتهم بالمساواة بين العرب والعجم وهو نهج معتدل؛ فإنّ على الجهة الأخرى كان هناك من خرج عن نهج الاعتدال هذا، وأخذ يشنّ على العرب حربًا ثقافيّة ضارية، وتم تصنيف العديد من الكتب التي اعتزموا فيها تسجيل مثالب العرب وقبائلهم، والحثّ من قدرهم، والطعن في تراثهم وحضارتهم.

^١ انظر: تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٥١)، دار الفكر، بيروت- لبنان، ١٤٢٢هـ- ٢٠١١م؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٧٧).

وقد أدى انتشار تلك الأفكار الخبيثة، التي حملتها تلك الكتب، إلى لفت انتباهه العديد من المثقفين العرب، ومن كانت فيهم نخوة أصيلة وروح عربيّة، فاعتزموا الرد على تلك الأفكار؛ مثل الجاحظ الذي قام بتأليف عددٍ من الكتب، أبرزها كتاب "البيان والتبيين"، وجمع فيه قدرًا من خطب العرب ورسائلهم وأقوالهم، مبيّنًا ما بلغه العرب من رقيّ وفصاحة وقُدرة على الخطابة، ردّ فيه على مزاعم الفرس بأنّهم أخطب من العرب، مفصّلًا في كتابه عن قدرٍ هائل من الثقافة العربيّة وما فيها من قيم بديعة، وكذلك كان في كتابه "الحيوان" الذي جاء فيه بملامح تُفصح عن الثقافة العربيّة، كما ردّ على الشُعوبيّة في عدد من رسائله، وجاء بعده ابن قُتيبة الدينوري؛ الذي ألّف عدة مؤلفات عن الثقافة العربيّة؛ من بينها: "الشعر والشعراء" و"أدب الكاتب"، ودافع عن العرب في كتابه "تفضيل العرب"، بالإضافة إلى كتابه الشهير "عيون الأخبار" الذي جمع فيه بين الثقافة العربيّة والثقافات الأعجميّة الأخرى كالفارسيّة والهنديّة واليونانيّة، وهو كتاب ضخّم قسّمه إلى فصول وأبواب، تحدّث فيها عن تراث العرب والعديد من تقاليدهم وطبائعهم وأخبارهم، وكان لهذا الكتاب دور بارز في إخماد نار الشُعوبيّة وإضعافها، وما لبث أن أخذ هذا التيّار في الضعف بزوال سلطان الفرس أوّلًا وانحيار نفوذهم، منذ عهد الخليفة المعتصم الذي أحل محلّهم الجند الأتراك، ثم بما بذله أدباء العرب ومن كانت فيه نخوة عربيّة أصيلة ثانيًا، من جهود في الرد عليهم عن طريق مؤلفاتهم وكتبهم.

٦- الزندقة:

الزّندقة هي عقيدة منحرفة شاعت في العصر العباسي، جاء بها الفرس تأثّرًا ببعض العقائد المجوسية القديمة، وبعض أفكار "ماني" أحد دعاة في القرن الثالث الميلادي، الذي اخترع تعاليم مزج فيها بين المجوسية والبوذية والنصرانية، وكانت تنصّ على تعدّد الآلهة وقدسيّة النار وتناسخ الأرواح، وتعتمد إلى الطعن في ثوابت الدّين والتشكيك فيه.

وقد اقترنت الزندقة بمظاهر الانحراف العقائدي، وبعض الأفعال المخلة، واقترنت كذلك بالمجون وأعمال الفسق، حتى توسّع مفهوم الزندقة عند الناس، ليشمل كل من ساءت سيرته وجاهر بالمعاصي، وظهر في أفعاله وأقواله بعض الانحراف، وإن لم يجهر الكفر أو بالعقيدة المانوية؛ وقد شاعت الزندقة في الأوساط العباسية ذيوًعًا كبيرًا، واعتنقها كثيرٌ ممّن ضعف لديهم الوازع الديني، وأخذ الخليفة المهدي يتعقّبهم ويشدّد في ملاحقتهم، وأسّس لهم ديوانًا خاصًا من أجل مطاردتهم وتعقّبهم، وكان يقتل كل من يقع في يده منهم، ومشى على نهجه ولده الهادي، ثم هارون الرشيد والمأمون.

وهناك الكثيرون ممّن عُرفوا بالزندقة وقُتلوا بها، وكان أوّل من قُتل بتهمة الزندقة هو الأديب عبد الله ابن المقفّع، وممّن عُرف بالزندقة وقُتل بها كلّ من: حمّاد عجرد، وحفص بن أبي وردة، ويونس بن أبي فروة، وعلي بن الخليل، وابن الزُّبرقان، وبشار بن برد، وصالح بن عبد القدوس، وعمارة بن حمزة، ويزيد ابن الفيض، وجميل بن محفوظ، ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد الحارثي، ووالبة ابن الحباب وآخرون^١.

على أنه رغم اعترافنا بشيوع الزندقة فإنّه كان هناك أيضًا جانبٌ يعتمد إلى المبالغة والتضخيم من أمر انتشارها؛ حيث أصبحت الزندقة المبرّر أو الوسيلة التي تُبرّر قتل الخصم لخصمه، فإذا أراد الخليفة أن يقتل معارضًا من معارضيه؛ قتله ثمّ اتّهمه بالزندقة أمام الناس؛ كمبرّرٍ للقتل؛ من أجل إسكات الرأي العام، وإذا أراد أحد أن يشي بشخص ويسعى به عند الخليفة اتّهمه بالزندقة، وهناك من أعلام الأدب الذين قُتلوا بتهمة الزندقة رغم عدم ثبوتها، ورجحان براءتهم؛ مثل: ابن المقفّع؛ الذي كان أوّل من قُتل بتهمة الزندقة رغم أنه كان فاضلاً حسن الأدب والسيرة، وليس في كتاباته التي انتهت إلينا ما يدل على زندقته، والأرجح أنّه قُتل لخلاف مع الخليفة أبي جعفر المنصور، وأنّ تهمة

^١ انظر: تاريخ أداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٥٠).

الزندقة كانت تهمة ظاهرية ليس إلا؛ بل إن بشار بن برد على ما عُرف عنه من قُبْح ولهو ومجون وسوء سيرة؛ وُجد من يدافع عنه وينفي تلك التُّهمة، وكذلك صالح بن عبد القدوس الذي كان أحد الشعراء المعروفين بالحكمة، واستمر شيوع الزندقة زمنًا طويلاً والخلفاء العباسيون يتعقَّبون الزنادقة وكل من اعتنقها وأُتهم بها؛ مثل: أبي عيسى الورَّاق، وتلميذه أبي الحسن الرواندي، وكذلك الطبيب الشهير أبي بكر بن زكريا الرازي!

وعلى الجملة فإنه يتَّضح لنا أن اختلاط العرب بالموالي، ودخول الفرس في عالم الثقافة العربية؛ كان له بعض الآثار الإيجابية كتطوُّر واقتباس أساليب الفكر والاطلاع على الثقافات المختلفة، لكنَّه جرَّ أيضًا من جهة أخرى بعض المفاصد الاجتماعية، كما نرى في الشُّعبوية والزَّندقة وشيوع المجون والتَّهتُّك والخلاعة والخمر.

٧- طبقات المجتمع:

لم يكن المجتمع كُلُّه على درجة واحدة في النعيم والترف؛ بل تدرَّج إلى طبقات متباينة؛ فالطبقة الأولى كانت طبقة الخلفاء ومن يليهم من الوزراء والقادة والولاة ورؤساء الدواوين، ثم طبقة الأعيان من التُّجَّار والإقطاعيين وعموم الكُتَّاب والشعراء المتَّصلين بالخلفاء، ثم طبقة عموم الموظفين والجند وأصحاب المزارع وهم الطبقة الوسطى، ثم الطبقة الفقيرة من أصحاب الأعمال الحرفية الصغيرة؛ الذين يكدحون ويعملون من أجل قوتِ يومهم، ثم طبقة الخدم والعبيد، بالإضافة إلى أهل الذِّمَّة.

وكان للطبقة الأولى من الخلفاء ومن يليهم من الوزراء والولاة؛ النصيب الأوفر من حياة الترف والنعيم، ثم الطبقة التي تليها، ثم التي تليها، حتى إذا وصلنا إلى عموم الشعب؛ نجدهم بعيدين كل البعد عن مظاهر النِّعيم والتُّرف، وآخر ما يرجونه هو الدخول على الحانات والملاهي من أجل السَّمر وسماع غناء الجواري.

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٧٤-٨٣)، (٤/ ٩١-١٠٣)، دار المعارف، القاهرة- مصر، ط١٨، ٢٠١٩م.

وكثير من الشعراء المتكسّبين الذين كانوا يتردّدون على الخلفاء يمدحونهم بغية الكسب؛ قد خلّفوا أموالاً طائلة؛ فهذا سلم الخاسر (ت: ١٨٦هـ / ٨٠٢م) خلّف ثروة قدرها خمسون ألف دينار، ومئة وخمسون ألف درهم، غير الضياع، وهذا مروان بن أبي حفصة خلّف ثروة من كثرة جوائزه تبلغ مئة ألف دينار، ومثلهما أبو نواس، والعباس بن الأحنف، ومسلم بن الوليد، وأبو تمّام، والبحري؛ ويدل ثراء هؤلاء الشعراء -وهم الطبقة الثانية- على مدى البذخ والتّرف، وإذا كانت تلك حالهم وهم الطبقة الثانية، فكيف برجال الطبقة الأولى من الخلفاء والوزراء والولاة ورؤساء الدواوين؟!

وكان سبب ثراء طبقة الوزراء والولاة ورجال الدولة المقرّبين؛ هو ما يتقاضونه من رواتب ضخمة، وما يحرزونه من الضياع والممتلكات، وكان الخلفاء بدورهم يتمتّعون بالأموال المتدقّقة عليهم من الخراج وسائر الولايات، فينفقون ويبنون، بيد أن هذا لم يؤثّر كثيرًا على أحوال الدولة الاقتصادية؛ نظرًا إلى أن أموال الخارج كانت تتدفّق كالسّيل على خزينة الخلافة، وكانت مصادر الإنفاق تخرج إلى وجهاتها في البناء والجيش ورواتب العلماء وسائر المرافق، فلم تتأثّر الخزنة كثيرًا بما كان يأخذه أولئك الوزراء والولاة ورؤساء الدواوين، حتى إذا اضطربت أوضاع الخلافة في العصر العباسي الثاني، وانفصلت عن الخلافة سائر الولايات التابعة لها، التي امتنعت عن بذل الخراج؛ انخفض حجم الأموال المتدقّقة على خزينة الدولة، ومع هذا لم يتوقّف جشع أولئك في النهب والسلب، وزاد من طمعهم ما حل بالخلافة من تدهور واضطراب سياسي بسبب سيطرة الجند الأتراك، فأمعنوا في الأخذ والسلب حتى فנית خزينة الخلافة، وظهرت الطبقية في هذا العصر، فرغم اضطراب الأوضاع الاقتصادية نجد أن الطبقة العليا من الخلفاء والوزراء ورؤساء الدواوين قد زاد ثراؤهم زيادة فاحشة، بينما زادت الطبقة الفقيرة فقرًا؛ بسبب ما حرّموه من نصيبهم في الخراج، والتوزيع الجائر للمال.

^١ انظر: تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٥٣).

وما لبث أن سيطر بنو بويه على الخلافة وبسطوا سلطانهم على بغداد ثم قسّموا ممتلكات العراق وأراضيه بين أمرائهم وأعيان دولتهم، فظهر نظام الإقطاع، وما رافقه من فسادٍ وتعطُّلٍ للخراج، فزاد الكساد.

٨- الزُّهْد والتَّصَوُّف:

قد يتوهَّم البعض من حديثنا عن شيوع اللهو والتَّرف وانتشار المجون والخمر ومظاهر التَّهْتِك والخلاعة، فضلاً عن شيوع الشُّعوبية والزندقة؛ أن المجتمع المسلم في العصر العباسي كان كلُّه على هذه الشاكلة، وأنَّه مليءٌ بمظاهر الفسق والمجون والخلاعة، وهذا غير صحيح على الإطلاق، صحيح أن مظاهر الانحلال والتَّهْتِك قد انتشرت، لكنَّها لم تعمُّ كل طوائف المجتمع؛ فقد شاع التَّرف فعلاً لكن الطبقات العليا هي من استأثرت بمعظم مظاهره في هذا العصر، كما أنَّ الزندقة رغم انتشارها كانت قاصرةً على فئاتٍ معيّنة ومعظمهم من الفرس، وكذلك كانت الحال مع الشُّعوبية والمجون، وإن كانت الحانات والأزقة وأديرة الخمر منتشرةً في البلاد، ويتدبَّد عليها من يتربَّد؛ فقد كان إلى جانبها كذلك تتواجد المساجد ودور الوعظ وحلقات العلم والفقه؛ إذ كانت معظم فئات المجتمع محافظةً على الدِّين، متمسكةً بفرائضه وشعائره وما يتوافق معه من عادات وتقاليد، رافضة ما انتشر من مظاهر البذخ والمجون والزندقة.

ومن مظاهر هذا التَّيار المحافظ الذي شكَّل غالبية طوائف المجتمع: نشوء تيار ديني عُرف بالزُّهْد، وأنصاره من أهل التقوى والصلاح الذين زهدوا في ملذَّات الدُّنيا ومُتَمِّع الحياة، وتفرَّغوا للعبادة والدِّين والوعظ والتَّنسُّك، وكانت مساجد بغداد عامرةً بأمثالهم، ومن هؤلاء: سُفيان الثوري (ت: ١٦١هـ)، وعبدالله ابن المبارك (ت: ١٨١هـ)، وسُفيان بن عيينة (ت: ١٩٨هـ)، وأبو العتاهية الشاعر المعروف، وكان منهم من يدخل على الخلفاء فيعظونهم.

وكانت نشأة هذا التيار لعاملين رئيسين: الدافع الديني، وهو عامل قديم، وأما العامل الثاني فكان ردَّ فعل على انتشار مظاهر البذخ واللهو والمجون، وكان لهؤلاء الزُّهَّاد أثر كبير على الحياة الاجتماعية في العصر العباسي.

وبجانب تيار الزُّهد نشأ تيار آخر موازٍ عرف بالتَّصوُّف، وهو تيار كان أكثر عمقًا وانعزالًا عن تيار الزُّهد؛ إذ إنَّ عُموم الزُّهَّاد قد زهدوا في الدنيا بالفعل، وانصرفوا عن نعيمها، لكنَّهم لم يعتزلوا الحياة العامة بشكلٍ مطلقٍ، ولم ينقطعوا عن عُموم الناس، أما المتصوِّفون فقد انقطعوا بشكلٍ شبه مطلق عن الدنيا واعتزلوا الناس، وكرَّسوا حياتهم وكلَّ أيامهم للعبادة فقط، ومن أشهر من عُرِف بالتَّصوُّف إبراهيم بن أدهم البلخي (ت: ١٦٠هـ)، وهو أقدم من انتهى إلينا ذكرهم، ومنهم كذلك: رابعة العدوية البصرية (ت: ١٨٠هـ)، ومعروف الكرخي (ت: ٢٠٠هـ)، وشقيق بن إبراهيم الأزدي (ت: ٢٠٥هـ)، وبشر بن الحارث الحافي الخراساني (ت: ٢٢٧هـ)، وما لبث أن زاد تيار التَّصوُّف في العصر العباسي الثاني، ومن أشهر أعلامه آنذاك: يحيى بن معاذ (ت: ٢٥٨هـ)، وأبو يزيد طيفور ابن عيسى (ت: ٢٦١هـ)، وأبو حمزة البغدادي (ت: ٢٦٩هـ)، والجُنيد بن محمد الحزَّاز (ت: ٢٩٧هـ)، والحسين بن منصور الحلاج (ت: ٣٠٩هـ)، وذو النون المصري (ت: ٢٤٥هـ)١ وفي أواخر العصر العباسي ظهر الشاعر عمر ابن الفارض (ت: ٦٣٢هـ)، ومحيي الدين ابن العربي (ت: ٦٣٨هـ). وكان لهؤلاء أثارٌ شتَّى من الخطب والوعظ والقصص والشعر والرسائل، على نحو ما نرى في أشعار الحلاج وابن الفارض، وكان لابن عربي ديوان شعر وديوان رسائل كذلك، وكان لكل واحدٍ من أئمة المتصوِّفة كثيرٌ من الأتباع والمريدين.

وقد اختلف في منشأ اسم الصوفية؛ فقيل: هو مشتقٌّ من الصوف وهو الرداء الغالب على هؤلاء لما فيهم من تقشُّف؛ وقيل: بل اشتقَّ من أهل الصُّفَّة -أي المقعد- وهو وصف اتَّصف به بعض أصحاب رسول الله ﷺ ممن كانوا شديدي

١ انظر: فهرس طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمن محمد السلمي (٤٩٨-٥٠٢)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

الفقر، ولا بيت لهم يأوون إليه؛ وقبل: بل اشتق من كلمة الصفاء؛ وقيل في ذلك أقاويل كثيرة!

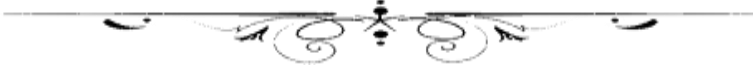
وكانت نشأة التصوف في البداية إسلامية خالصة، وقد مثل فعلاً جانباً خصباً من الجوانب الروحية الإسلامية، إلا أنه مع نموه وتطوره رافقته بعض مظاهر الانحراف عن الدين الحنيف، وتأثر ببعض الأفكار الأجنبية الدخيلة، كما أن بعض شيوخ التصوف قد بالغوا في تصوفهم حتى انحرفوا عن فطرته السليمة، وعن أصل الدين الحنيف، وكانت لهم شطحات أخذت عليهم، فتعقّبهم أولو الأمر؛ مثل الحلاج الذي شطح في أفكاره ومعتقداته فأتهم بالإلحاد والجنون وقتله الخليفة المقتدر عام (٣٠٩هـ / ٩٢١م)، ولكن إن كان بعض المتصوفة قد بالغوا في انحرافهم؛ فقد كان هناك آخرون قد اعتدلوا في أفكارهم ولم يبالغوا في تصوفهم، وكان لهم دور اجتماعي تمثّل في نشر التدين بين الناس، ودور آخر في نشر الدعوة خارج حدود الإسلام، وكانت لهم نزعة إنسانية وروحية عالية، ومنهم من لم يمنعه انعزاله من الجهاد فرابط على الثغور وجاهد في سبيل الله^١. وكان تيار التصوف على الجملة أكثر عمقاً، وسرعان ما وصل إلى النضج مع مرور الوقت في العصر العباسي الثاني، فكان للمتصوفة طرقهم وطقوسهم الخاصة، فأكثرُوا من الإشارات والترهيب والترغيب، وتعمّقوا في فكرة الفناء والمعرفة الإلهية ووحدة الوجود والعشق الإلهي^٢، حتّى صارت تلك الموضوعات والأفكار مصدراً للبحث والحوار والجدل.

والخلاصة أن شيوع تيار الزهد -وكذلك التصوف- كان من ضمن مظاهر التدين في العصر العباسي، وهو ما يدفع فكرة أن المجتمع كلّهُ كان فاسقاً ماجناً، فإذا كانت الخلاعة ومظاهر المجون والتّرف واللهو والخمر قد انتشرت في

١ انظر: تاريخ التصوف الإسلامي، عبد الرحمن بدوي (ص٥ - ١٤)، وكالة دار المطبوعات، ط١، ١٩٧٥م.

٢ انظر: المصدر السابق (ص٢٣ - ٦٢).

٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (١٠٦ / ٤ - ١١٤).



هذا العصر؛ فقد كان في وجهه تيّار آخر متديّن تجسّد في مظاهر الوعظ والإرشاد والزهد والتصوف.

مظاهر الحضارة الإسلامية

(مظاهر الحياة العلمية والعقلية والثقافية في العصر العباسي)

عوامل ازدهار الحضارة الإسلامية:

يُعتبر العصر العباسي هو العصر الذهبي للحضارة الإسلامية؛ فقد بلغت فيه أقصى درجاتها من العلوم والمعرفة والتَّطوُّر والازدهار في شتَّى العلوم والمعارف، فكثُر العلماء وكثُر طلاب العلم ونشطت الترجمة وأساليب النقل، وازدهر التأليف والتدوين، وانتشرت الكتب، وبُنيت المكتبات العامة والخاصة، ونشطت الدراسات والأبحاث والمعامل والاختراعات والاكتشافات، فتطوَّرت العلوم الدينية كالفقه والتفسير والأحاديث، والعلوم اللغوية كالنحو والعروض ورواية الشعر، والعلوم العقلية كالفلسفة والمنطق والتاريخ والجغرافيا، والعلوم التطبيقية كالطب والهندسة والفلك والصيدلة والكيمياء وعلوم الطبيعة (الفيزياء)، وكانت البعثات الأوربية تفد على بلاد المسلمين من أجل النقل والاستفادة من علوم المسلمين.

وقد انقسمت العلوم والمعارف في العصر العباسي إلى صنفين: العلوم الأصيلة وهي العلوم النابعة من داخل المجتمع المسلم، وهي في معظمها العلوم الشرعية واللسانية، والعلوم الدَّخيلة وهي التي اقتبسها المسلمون من الأمم المجاورة من زُبدة المعارف لدى الآشوريين والبابليين والفينقيين والقبط والهنود والفرس واليونان والروم، وذلك عن طريق النقل والترجمة، ومن أبرزها علوم المنطق والفلسفة وما أضافه العرب إلى علمهم في الفلك والطب والهندسة والجغرافيا! وقد شَيَّد أبو جعفر المنصور مدينة بغداد وأتمَّ بناءها عام (١٤٦هـ / ٧٦٣م)، ولم يكن طموحه قاصراً على مجرد أن تصبح بغداد عاصمته السياسية أو حاضرة ملكه؛ بل كان يريد أن يجعلها حاضرة الدنيا وآية العلم ومدينة الفنون

١ انظر: تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢٠ - ٢١).

والمعارف، وقد تمَّ له ذلك فعلاً؛ إذ جعلها قبلة العلماء وطلبة العلم، وموئلاً للازدهار العلمي والفكري، وصارت لها من الناحية الثقافية منزلة عليا حتى طغت أهميتها على سائر البلدان والحواضر الإسلامية كالكوفة ودمشق والفسطاط، متفوّقة عليها في جميع العلوم والمعارف بحيث لم يكن لسائر البلاد ذكر كبير، باستثناء البصرة التي احتفظت بالدراسات اللغوية بسبب قُربها من البادية، والمدينة المنورة التي احتفظت ببعض الدراسات الإسلامية نظراً إلى أهميتها الدينية.

وترجع أسباب النهضة العلمية في العصر العباسي إلى عدة أسباب؛ من بينها:

١- اهتمام الخلفاء والحكام بالعلم والمعرفة:

من أبرز مزايا الخلفاء العباسيين اهتمامهم البالغ بالعلم والفكر ورعاية العلماء، وتشجيعهم الحركة العلمية والثقافية، والحق إن رائد هذا الاتجاه هو الخليفة أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس؛ الذي يُعتبر مؤسساً حقيقياً لها، فقد صارت بغداد بأهميتها السياسية من جهة، وبموقعها الجغرافي الرابط بين الشرق والغرب من جهة أخرى، ووقوعها على الطرق الرابطة بين الأمصار الإسلامية؛ قبلة للعلم والمعرفة، وكان يؤمُّها العلماء وطلبة العلم من كل فجٍّ وصوب، فإمّا سكنوا فيها وإمّا أقاموا فيها مدّة من أجل المشاركة في الحياة العلمية والثقافية.

وكان المهدي ابن المنصور من أكثر الخلفاء مكافأة للعلماء، وقد سار ابنه هارون الرشيد على سنّة أبيه وجده، وقد بلغت تلك الحركة العلمية ذروتها في عهده بعدما اعتنى بالعلم والعلماء عناية فائقة، ويقال: إنه وصل الأصمعي اللغوي يوماً بمئة ألف درهم، وكان وزراؤه البرامكة قد عُرِفوا بالجود والكرم، وتقرّئهم للعلماء والأدباء، ورعايتهم للحركة العلمية والأدبية وإغداقهم عليها حتى تركوا في هذا المجال أثراً طيّباً، ثم زاد المأمون على أبيه الرشيد، وكان المأمون قد تربّى على العلم والتعمُّق فيه، فأطلق حرية الفكر وشجّع المناظرات الكلامية والجدل، وكان يقرب العلماء ويصلهم؛ مثل النضر بن شميل الذي وصله بخمسين ألف

درهم قبل خلافته، وكان طاهر بن الحسين أمير خراسان زمن المأمون قد وصل
أبا عبيد القاسم بن سلام بثلاثين ألف درهم، وأجرى له ولده عبد الله بن طاهر
من بعده عشرة آلاف درهم كل شهر، كما وصل الأمين معلّمه علي بن المبارك
يومًا بثلاثمئة ألف درهم.^١

وكان وزراء الخلفاء وقضاتهم وحاشيتهم يسرون على نهجهم في العناية بالعلم
والعلماء؛ مثل محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواقف، والقاضي
أحمد بن أبي دؤاد، وإبراهيم الصولي، وابن العميد الكاتب وزير ركن الدولة ابن
بويه.

وكان الخلفاء حريصين على تأديب أولادهم على يد هؤلاء العلماء والمؤدّبين؛ مثل
المفضّل الضبيّ العالم في اللغة والشعر؛ الذي حظي عند المنصور وكان مُعلِّمًا
لولده المهدي، وأبي سعيد المؤدّب مُعلِّم الهادي، وأبي عبيدة الراوي مؤدّب هارون
الرشيد، وكذلك الكسائي مُعلِّم هارون الرّشيد وولديه الأمين والمأمون، وعلي ابن
المبارك مؤدّب الأمين، والفرّاء اللغوي مؤدّب ولديّ المأمون، وأبي جعفر بن ناصح
مؤدّب المنتصر والمعتز ابني المتوكل، وكان من أواخر المؤدّبين ثعلب والمبرّد اللذين
أدّبا عبد الله ابن المعتز، وبعدها بدأت العجمة تتفشّى بين العرب، وضعفت
السليقة العربية، وزادت سيطرة العجم -ولا سيّما الجند الأتراك- على الخلفاء
فضعفت الخلافة وذهبت هيبتها السياسية وانخفضت بعدها أهميّة عمل
المؤدّبين.^٢

إلا أنه رغم الضعف السياسي وما حل بالخلافة من اضطراب وتدهور؛ فقد ظل
الخلفاء العباسيون على اهتمامهم بالعلم والعلماء وحركة المعرفة والفكر،
وكانوا يخصّصون رواتب وصلاّاتٍ لأكابر العلماء؛ مثل نفطويه اللغوي، وأبي
العباس المبرّد الذي حظي عند المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان وقائده محمد ابن

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ١٠٠).

^٢ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١/ ٢٨ - ٢٩)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، ٢٠٠٩م.

عبد الله بن طاهر، وكانوا يجزلون له الصِّلة والعطاء، وتلميذه الرَّجَّاج الذي جعل له الخليفة المعتضد راتبًا مع الفقهاء وراتبًا مع العلماء وراتبًا مع الندماء، فبلغ راتبه من الدولة ثلاثمائة دينار شهريًّا، وكان المقتدر يُجري على أبي بكر ابن دُرَيْد العالم اللغوي خمسين دينارًا كل شهر، وكذلك كان يفعل الموفق وليُّ عهد المعتمد؛ الذي كان يُجري على العلماء رواتبَ شهرية، ومن شأن هذه الاهتمامات التي بالغ فيها الخلفاء ووزراؤهم وقادتهم، وإمعانهم في الإغداق على العلماء؛ أن تنشط الحركة العلمية ويزيد التشجيع عليها، ويدل اهتمام الخلفاء في العصر العباسي الثاني على أن العناية بالحركة العلمية والثقافية لم ترتبط بالوضع السياسي؛ إذ إنه رغم الضعف السياسي الذي عانت منه الخلافة العباسية في عصرها الثاني؛ فإنَّ بغداد قد ظلت مع ذلك قِبلةً للعلم والعلماء يؤمُّونها من كل فج وصوب، وكانت المساجد وحلقات العلم مليئةً بالعلماء وطلاب العلم، وكانت الحركة العلمية والفكرية لا تزال نشطة بما شهدته من عناية بالتأليف ونشاط ساحة المناظرات والجدل والتعليم.

حتى الإمارات والدويلات التي قامت على أطراف الدولة العباسية؛ رغم تناحرها ونزاعاتها قد اهتم حكامها بالعلم من باب التنافس فيما بينها؛ مثلما فعل الصفاريون والسامانيون حكام بلاد فارس والمشرق، وكذلك الطولونيون والأخشيديون حكام مصر والشام ومن بعدهم الفاطميون، وكذلك الحمدانيون حكام حلب والموصل؛ حيث عُرف عن الأمير سيف الدولة الحمداني تقريبه للعلماء والكتّاب والأدباء، فكان مجلسه حافلًا بهم؛ بل إن البويهيين الذين سيطروا على بغداد وعلى الخلافة العباسية زمنًا؛ عُرف عنهم اهتمامهم بالعلم والحركة الثقافية، حتى إنهم كانوا لا يستوزرون إلا كاتبًا أو أديبًا.

وشهد هذا العصر عددًا غفيرًا من العلماء الذين حظوا عند الخلفاء في بغداد وفي سائر الإمارات؛ مثل الجاحظ الذي أهداه محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق خمسة آلاف دينار مكافأة له على تأليفه كتاب الحيوان، وأهداه كذلك القاضي ابن دؤاد مبلغًا مماثلًا لقاء تأليفه كتاب البيان

والتبيين؛ ومثل محمد بن جرير الطبري صاحب كتاب التاريخ الشهير وكتاب تفسير القرآن الكريم، وقد جُمع كُلُّ منهما في مجلّدات ضخمة، والمؤرخ المسعودي صاحب كتاب مروج الذهب في التاريخ، وابن قتيبة الدينوري وآخرين. وهكذا ظلت الحركة العلمية نشطة في بغداد وعموم سائر العالم الإسلامي في العصر العباسي؛ بفضل اهتمام الخلفاء ورجالهم ووزرائهم، وكذلك حكام الإمارات المستقلّة في مختلف البلدان.

٢- كثرة أماكن التعليم؛

كثرت الأماكن التي كان تُقدِّمُ العلم ويفد عليها العلماء والطلبة، وتشهد ما تشهده من حلقات العلم وما فيها من الدروس والمناظرات والجدل، وكان لذلك دور بارز في تثقيف المسلمين وتشجيع حركة العلم، وكان أوّل أماكن العلم آنذاك المساجد، ولا سيّما جامع المنصور؛ الذي شُيّد مع بناء بغداد، وجامع الرصافة الذي يُنسب إلى الخليفة المهدي في بغداد أيضًا، وكذلك سائر مساجد الحواضر الإسلامية، ممّا يشير إلى أن المساجد لم تكن فقط دُورًا للعبادة والصلاة؛ بل لعبت دورها في إثراء المعرفة وتدريس مختلف أنواع العلوم، وكذلك كانت منازل العلماء منارات للعلم والنقل والرواية؛ مثل دار محمد بن الحسن الشيباني (ت: ١٨٩هـ / ٨٠٤م)، وهارون بن محمد الضبي (ت: ٣٣٥ / ٩٤٦م)، وأبي عبد الله المرزباني (ت: ٣٨٤هـ / ٩٩٤)؛ وكذلك انتشرت مجالس العلم في الضواحي والطرقات والأسواق التي يلتقي فيها العامة والخاصة؛ مثل سوق المربد من ضواحي البصرة، فصارت كلها منتديات علميّة، وكانت مجالس الرشيد - وكذلك ولده المأمون - مليئة بالعلم والعلماء وأصحاب المناظرات والجدل، وانتشرت الكتاتيب التي كانت تُعلِّم الناشئ مبادئ القراءة والكتابة والدّين واللغة، وهي بمنزلة المدارس اليوم، فكان انتشار أماكن العلم والتعلُّم وعدم اقتصرها على

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٤ / ١١٨ - ١٢١).
^٢ انظر: الحضارة الإسلامية، طه عبد المقصود أبو عبّية (١ / ٣٧ - ٤١)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

مواضع مُعَيَّنة؛ من بين مظاهر عناية المسلمين بالمعرفة وازدهار الحركة العلمية في العصر العباسي.

٣- اختلاط الثقافات الأجنبية مع العربية:

كان من أبرز أسباب النهضة العلمية التي ازدهرت في العصر العباسي؛ ما جرى من امتزاج ثقافي كبير بين العرب وسائر الشعوب المختلفة؛ سواء أكان هذا الاختلاط اختلاطاً اجتماعياً ومباشراً مثل ما حدث مع الفرس والسيّريان والقبط، أم عن طريق الترجمة ونقل العلوم والمعارف كما حدث مع الإغريق واليونانيين، صحيح أن هذا المزج بين العرب وسائر شعوب الموالى قد بدأ منذ العصر الأموي، إلا أنه لم يكن قد بلغ درجة النضج بعد؛ نظراً إلى أن الدولة الأموية كانت عربيّة الطبع، وكان الموالى رغم سعة عيشهم يشعرون أنهم طبقة ثانية، فضغف ولاؤهم للدولة وقلّ أثرهم فيها، فلمّا جاءت الدولة العباسية بسطت لهم يدها، فامتزجوا مع العرب امتزاجاً ثقافياً واجتماعياً رائعاً، ورغم ما رافق هذا الامتزاج من بعض المفاصد الاجتماعية مثل الشعبية والمجون والزندقة؛ فإنه على جانب آخر كانت له آثار ثقافية وعلمية طيّبة؛ حيث اطلّع العرب على علوم ومعارف وثقافات هذه الأمم ولا سيّما الفرس، فاستفادوا وأضافوا من علمها إلى علمهم ولا سيّما في العلوم التطبيقية وتخطيط المدن والزراعة وضبط الدواوين، وكذلك كانت حال العرب مع السيّريان والقبط ومن دخل في عهدهم من سائر شعوب العجم.

ويُعتبر الفرس من كان لهم نصيب الأسد في هذا الامتزاج؛ فقد كانوا عتاد الدعوة العباسية وقوامها وجيشها، وما لبثوا أن أقبلوا على العربية يتعلّمونها حتى حذقوها وتعربّوا تعربّاً كاملاً، حتى إنّ عدداً كبيراً من العلماء المسلمين في ذلك العصر كانوا من أصول فارسية لكنهم دخلوا في نطاق العرب، وكان تعربّ الفرس وإقبالهم على تعلّم العربية دافعاً لهم لكي ينقلوا ثقافتهم وعلومهم ومعارفهم إلى الحضارة العربية، وكان البرامكة وزراء هارون الرشيد ممّن ساهموا في ذلك الصنيع الذي أدّى إلى إثراء حركة المعرفة بشكل كبير، فصارت



الثقافة الإسلامية متعدّدة العناصر بعدما كانت كانت قاصرةً في معظمها في العصر الأموي على عنصر الثقافة العربية.

وكان للحضارة الإغريقية والرومية أثر في الحضارة الإسلامية، صحيح أنهم لم يختلطوا بالعرب اختلاطاً كما حدث مع الفرس، ولكن اتصال وامتزاج الثقافات هنا تمّ عن طريق النقل والترجمة؛ إذ نقل العرب من تلك الحضارات علومًا ومعارفَ شتّى.

٤- نشاط حركة التدوين والترجمة:

لم يكن التدوين معروفًا بشكل منتظم قبل العصر العباسي؛ إذ كان العرب يميلون إلى الرواية والنقل الشفهي لأخبارهم ومعارفهم في العصر الجاهلي، ومع بدء العصر الإسلامي جرت عاداتهم تلك مع الحديث النبوي وأخبار الرسول ﷺ، بحيث لم يُدوّن غير القرآن الكريم بهدف حفظه من الضياع، وفي العصر الأموي مع ظهور الحزبية السياسية وانتشار الأحاديث الموضوعة على النبي ﷺ تم تدوين الأحاديث النبوية في عهد عمر بن عبد العزيز، بالإضافة إلى بعض عمليّات التدوين الفرديّة التي حدثت في العهد الأموي، ممّا لا يدخل في النطاق التدوين العام.

وكان العرب يكتبون على الرقاع والحجارة والجلود، وكان يستعملون الورق الصيني أو القراطيس المصنوعة من البردي في مصر، وكان قليلًا نادرًا، حتى جاءت الدولة العباسية فقام خالد بن برمك وزير الخليفة السفاح بتغيير لفائف الجلد إلى الكتب، ثم أشار الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي بصناعته، فتم إنشاء مصنع للورق في بغداد وصار الورق متوفّرًا، فشاعت الكتابة في بغداد وسائر البلاد الإسلامية، وأتخذ الناس الصحف والكتب بعدما اتّفتحت لهم وسائل التأليف والكتابة من الأقلام والأحبار والأوراق والقراطيس؛ ونشط التدوين في سائر المعارف منذ ذلك الحين، وانتشرت الكتب حتى امتلأت بها المكتبات والدُّور وحفلت بكنوز العلم والمعرفة.

١ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (٢٣٩ - ٢٤٠).

ومع نشاط التدوين نشطت الترجمة؛ حيث أكبَّ المسلمون مع بدء العصر العباسي على ترجمة الكتب الأجنبية ونقل ما فيها من معارف وعلوم، صحيح أن إرهاصات التَّرجمة قد ظهرت في العصر الأموي إلا أنها كانت محاولات فردية، ولم تحدث بشكلٍ منظم إلا مع بدء العصر العباسي، بتشجيع من الخليفة أبي جعفر المنصور الذي كان أول من قام برعاية حركة الترجمة، فنقل العرب عدة معارف عن اليونانية والفارسية والسريانية واللاتينية واليونانية والهندية، ووصلت حركة الترجمة ذروتها في عصر الرشيد الذي كان شغوفًا بالعلم والمعرفة، وأولى بالترجمة عناية خاصة، وأبدى اهتمامًا بنقل علوم الروم واليونان، وكان يجزل العطاء للمترجمين، وكان لوزرائه البرامكة دور كبير في العناية بالترجمة، وسار ولده المأمون على نهجه وكان محبًا للعلوم والمعرفة، فاعتنى بالنقل والترجمة ودعم المترجمين وخصص لعملهم مالا وفيرا، وبلغت الترجمة ذروة نشاطها في عهده، حتى إنه أرسل إلى ملك الروم يطلب نقل ما لديه من كتب ومعرفة؛ واعتنى بالترجمة والنقل أيضًا عددٌ من الوزراء ورجال الخلفاء مثل الزيات وعلي بن يحيى المنجم.

وكان ممَّا نُقِلَ من الهندية إلى الفارسية ثم إلى العربية كتاب "كليلة ودمنة" الذي ترجمه الأديب عبد الله ابن المقفع، وكان من أوائل ما تم ترجمته في هذا العصر بأسلوب دقيقٍ مُتقن، وكذلك كتاب السندهند في الفلك، وأرسططاليس في المنطق؛ وتُرجمت كتب سقراط وأفلاطون وأرسطو وأبقراط وأرخميدس وبطليموس، ونقل العرب والمسلمون علوم الفلسفة والطب والموسيقى والمنطق والفلك عن اليونان، وعلوم النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى عن الفرس، والطب والعقاقير والموسيقى والأقاصيص من الهنود، والفلاحة والطلاسم من الأنباط والكلدان، والكيمياء والطب من القبط؛ ومن أشهر مَنْ عُرِفوا بالترجمة في العصر العباسي الحجاج بن يوسف بن مطر، والطبيب

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (١١٣ / ٣).

^٢ انظر: المصدر السابق (١١٠ - ١١١).



الشهير يوحنا بن ماسويه، وقسطا بن لوقا البعلبيكي، ويحيى بن البطريق، وحنين بن إسحاق العبادي، ويعقوب بن إسحاق الكندي، ومحمد بن الجهم البرمكي، وعمر بن الفرخان، ومحمد وأحمد والحسن أولاد موسى بن شاكر^١.

وأخذت عملية الترجمة تزداد دقةً وحرفيةً مع مرور الوقت؛ حيث لم تكن الترجمة حرفيةً فقط؛ بل كانت ترجمةً بالفهم والمعنى في كثير من الأحيان، وكان لحركة الترجمة أثرٌ كبير في نهضة تلك العلوم فيما بعد؛ إذ حوت الحضارة الإسلامية كل ما حوته الحضارات الفارسية والرومية والفارسية والهندية والأشورية والقبطية، فتطوّرت تلك العلوم على يد علماء المسلمين وحقّقوا فيها انجازات رائعة كما سنرى في الصفحات اللاحقة.

٥- انتشار المكتبات العامة والخاصة:

نظرًا إلى كثرة الكتب والمصنّفات والمجلّدات فقد احتاج الناس إلى عمل خزائن لها، انتشرت في بغداد وسائر الأمصار، وهذه الخزائن هي التي عُرفت بالمكتبات العامة، وقام الخليفة العباسي هارون الرشيد بإنشاء بيت الحكمة أو دار الحكمة في بغداد، والتي أصبحت خزانة لنفائس الكتب وكنوز المعرفة، وضمت ما لا يُحصى منها، وكان لها دور واسع في انتشار العلم وتشجيع المعرفة، وواصلت ذروة نشاطها في عهد الخليفة المأمون بن الرشيد الذي زاد عليها وأنشأ فيها قسمًا لترجمة العلوم والإشراف على البحث العلمي، واعتنى بخزنتها ومشرفيها، فصارت لبيت الحكمة دورٌ عظيم في إثراء المعرفة والثقافة العربية وتيسير العلوم والمعارف، ولم يقتصر دورها على كونها خزانة للكتب؛ بل كان لها دور بارز في أعمال الترجمة والنقل والحركة العلمية داخل وخارج بغداد، وتعاقب عليها عددٌ كبير من العلماء والمؤلفين على مرّ العصور للعمل فيها؛ مثل: سهل بن هارون (ت: ٢١٥هـ)، ومحمد بن موسى الخوازمي (ت: ٢٣٦هـ) ويوحنا بن ماسويه (ت: ٢٤٣هـ)؛ حيث تُرجمت منها وإليها العديد من كتب الفلسفة والطب والصيدلة

^١ انظر: تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٢٢ - ٣١).

والرياضيات والفلك، وكانت تلك المكتبة قبلة للعلماء وطلبة العلم والنسّاحين، وظلّت نشطة حتى مع اضطراب أوضاع بغداد السياسية، وبقيت قائمة حتى اجتياح المغول بغداد عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، فقاموا بتدميرها وإلقاء كتبها في نهر دجلة، فضاع الكثير من مؤلفات وعلوم الثقافة الإسلامية التي لم تكن قد تمّ نسّخها في مكتبات أخرى، وهي كتب لا تُقدّر بثمن^١.

وبخلاف بيت الحكمة نجد العديد من المكتبات العامة التي انتشرت في ربوع العالم الإسلامي؛ مثل دار العلم التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي في القاهرة بمصر، ودار كتب عضد الدولة البويهّي في شيراز، ودار علم سابور نسبة إلى مؤسسها سابور بن أزدشير وزير بهاء الدولة ابن عضد الدولة البويهّي؛ التي كان لها دور في تيسير المطالعة والمساهمة في تحصيل العلم، وكان المؤلفون لشئى أنواع المعرفة يرسلون مؤلفاتهم إليها لتقييمها، وقد بلغ عدد مجلداتها نحو عشرة آلاف مجلد^٢.

ولم تكن المكتبات العامة فقط هي المؤثرة في إثراء الفكر والمعرفة؛ فقد عُرف بعض القادة والوزراء والأمراء بشغفهم باقتناء الكتب وتجميعها في دُورهم الخاصة، فظهر أيضًا ما عُرف بالمكتبات الخاصة؛ مثل مكتبة إسحاق ابن سليمان العباسي، ومكتبة يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد، ومكتبة الواقدي المؤرخ المشهور، ومكتبة علي بن يحيى المنجّم نديم الخلفاء من زمن المتوكل حتى المعتمد، ومكتبة جعفر بن محمد بن حمدان الموصلّي، ومكتبة الفتح بن خاقان نديم المتوكل^٣.

وقد أدّى انتشار المكتبات العامة والخاصة على هذا النحو إلى انتشار مهنة الوراقة؛ حيث اهتمّ الورّاقون ببيع وشراء الكتب والاتجار فيها ونشرها، ونشطوا كذلك في نسخ الكتب وتصديرها خارج بغداد، حتى إنّ العلماء والمؤلفين كانوا

^١ انظر: الحضارة الإسلامية، طه عبد المقصود أبو عبيّة (١/ ٤٣ - ٤٧).

^٢ انظر: المصدر السابق.

^٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ١٠٣) و(٤/ ١٢٤ - ١٢٥).

يَتَّخِذُونَ لَهُمْ وِرَاقِينَ لِنَسْخِ كُتُبِهِمْ وَعِلْمِهِمْ^١، وَمِنَ الْوِرَاقِينَ مَنْ أَنْشَأَ دُكَاكِينَ لِحَاثِرَافِ تِلْكَ الْمِهْنَةِ، فَأُتِيحَ لِأُولَئِكَ الْإِطْلَاعُ عَلَى الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ؛ لِكَثْرَةِ مَا كَانَ يَقُومُونَ بِهِ مِنَ النُّقْلِ وَالنَّسْخِ.

وَكُلُّ ذَلِكَ نَتِجَ عَنْ اهْتِمَامِ الْخُلَفَاءِ وَالْحُكَّامِ بِالْمَعْرِفَةِ، وَانْتِشَارِ أَمَاكِنِ التَّعَلُّمِ، وَنَشَاطِ حَرَكَةِ التَّدْوِينِ وَالتَّرْجُمَةِ، وَاخْتِلَاطِ الثَّقَافَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ بِالثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ الَّتِي كَانَ لَهَا دَوْرٌ بَارِزٌ فِي إِثْرَاءِ حَرَكَةِ الْمَعْرِفَةِ، حَتَّى صَارَ هَذَا الْعَصْرُ هُوَ الْعَصْرُ الذَّهَبِيُّ لِلْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَعُرِفَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ السَّفَرِ وَالتَّنَقُّلِ بَيْنَ الدِّيَارِ وَالْبُلْدَانِ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ.

وَقَدْ كَثُرَتِ الْكُتُبُ وَالْمَجْلَدَاتُ فِي تِلْكَ الْمَكْتَبَاتِ، وَمَا قَامَ بِهِ الْمَغُولُ مِنْ اجْتِيَاكِ بَغْدَادَ وَتَدْمِيرِهِمْ لِمَكْتَبَةِ دَارِ الْحِكْمَةِ وَالْقَائِمِ لِكُتُبِهَا فِي النَّهْرِ؛ كَانَ خَسَارَةً حَضَارِيَّةً وَعِلْمِيَّةً فَادِحَةً؛ فَقَدْ ذَهَبَ صَنِيعُهُمُ الْهَمْجِي هَذَا بِالْقِسْمِ الْكَبِيرِ مِنَ التَّرَاثِ وَمَعَارِفِ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَانَتْ كُتُبٌ كَثِيرَةٌ فِي دَارِ الْحِكْمَةِ وَغَيْرِهَا غَيْرَ مَنْسُوخَةٍ فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى؛ فَقَدْ كَانَ نَسْخُ الْكُتُبِ -عَلَى نَشَاطِهِ- أَمْرًا صَعْبًا؛ نَظَرًا إِلَى اعْتِمَادِهِ عَلَى الْكِتَابَةِ الْيَدَوِيَّةِ لِعَدَمِ ظُهُورِ الْمَطَابَعِ آنَ ذَاكَ، وَقَدْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى اخْتِفَاءِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْكُتُبِ بَعْدَ اجْتِيَاكِ الْمَغُولِ لِبَغْدَادَ وَتَدْمِيرِهِمْ لِلْمَكْتَبَةِ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا مَا تَمَّ نَسْخُهُ وَتَصْدِيرُهُ إِلَى غَيْرِهَا، وَلَا أَدْلَ عَلَى عِظَمِ تِلْكَ الْخَسَارَةِ مِنْ أَنَّ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْكُتَّابِ وَالْمُؤَلِّفِينَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ ابْنُ النَّدِيمِ وَعَدَّدَ أَسْمَاءَ مُؤَلِّفَاتِهِمْ فِي كِتَابِهِ الْفَهْرَسْتِ الشَّهِيرِ، قَدْ بَلَغَ عَدَدُ مُؤَلِّفَاتِ بَعْضِهِمُ الْعِشْرَاتِ مِنَ الْكُتُبِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ تَصِلْنَا مِنْ مُؤَلِّفَاتِهِمُ الْعَدِيدَةِ إِلَّا أَعْدَادٌ قَلِيلَةٌ، وَرَبَّمَا وَصَلْنَا مُؤَلِّفَ وَاحِدٍ أَوْ اثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَةَ فَقَطْ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يَصِلْنَا شَيْءٌ مِنْ مُؤَلِّفَاتِهِمْ رَغْمَ وَجُودِ أَسْمَائِهِمْ فِي كِتَابِ الْفَهْرَسْتِ، مِمَّا يَدُلُّ بِالْفِعْلِ عَلَى مَدَى الْخَسَارَةِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي خَسَرَتْهَا الثَّقَافَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِضِيَاعِ الْقِسْمِ الْكَبِيرِ مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ وَالْمَصْنُفَاتِ.

^١ انظر: الحضارة الإسلامية، طه عبد المقصود أبو عبيدة (١/ ٤١).

وقد تطوّرت جميع العلوم والمعارف، سواء العلوم الشرعية التي شملت الفقه والتفسير والحديث وعلوم القرآن، وكذلك علوم اللغة والأدب والنقد، بالإضافة إلى العلوم التطبيقية في الهندسة والطب والفلك والموسيقى والصيدلة وعلوم الطبيعيات (الفيزياء)، انتهاء بالعلوم العقلية والنظرية مثل الفلسفة والمنطق والتاريخ، وحقّق فيها المسلمون إنجازات رائعة، وكثر العلماء في كل مجال، ومن أبرز آثار معارف المسلمين في العصر العباسي ما يلي:

أولاً: العلوم الدينية والشرعية!

نشطت العلوم الدينية والشرعية في هذا العصر؛ نظرًا إلى نشاط الدعوة والوعظ والإرشاد وكثرة العلماء من الفقهاء والمفسرين والمحدثين، وكانت المساجد ودور العلماء، حتى الأزقة عامرة بحلقات العلم الشرعي والمناظرات والحديث، وكان علم الفقه هو أكثر العلوم الدينيّة تطوُّرًا وازدهارًا؛ تأثّرًا بحالة التطوُّر الفكري والعلمي الذي مرّ به المجتمع، وقد وصل إلى مرحلة النضج والكمال، وكثرت طرق البحث في المسألة الفقهية الواحدة، وهو ما أفضى في النهاية إلى ظهور علم أصول الفقه؛ وهو العلم الذي يضع القواعد الأصولية لاستنباط الأحكام الشرعية من أدلّتها، ويبحث في كيفية الاستفادة منها للتعامل وإصدار الحكم أو الفتوى، وبناء عليه تعدّدت المذاهب الإسلامية وتشعّبت طرقها وظهرت المذاهب السنيّة الأربعة الشهيرة؛ وهي: المذهب الحنفي المنسوب للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي (ت: ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م)، ومن تلامذته: أبو يوسف يعقوب الأنصاري، ومحمد بن الحسن الشيباني، وقد نما مذهبه وانتشر في مختلف الأقطار؛ والمذهب المالكي لصاحبه الإمام مالك بن أنس إمام المدينة المنورة (ت: ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م)، وقد انتشر مذهبه في وطنه الأم الحجاز، وذاع في عدة بلاد؛ والمذهب الشافعي لمؤسّسه الإمام محمد بن إدريس الشافعي تلميذ مالك (ت: ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م)، وقد أخذ الفقه الحنفي عن طريق محمد ابن

^١ انظر: المصدر السابق (١/ ٥٢ - ١٨٥).

الحسن الشيباني، ثم اهتدى إلى تأسيس مذهب جديد نُسب إليه، وقد ذاع أَوَّلًا في العراق، فلمَّا انتقل إلى مصر عدل عن كثير من أفكاره حتى انقسم مذهبه إلى مذهبين؛ قديم وجديد، بيَّد أن آراءه في مصر كانت أكثر انتشارًا وقبولًا؛ باعتبار أنَّها آخر ما اهتدى إليه؛ وظهر المذهب الحنبلي لمؤسِّسه أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ / ٨٥٥م)، وكان من ملازمي الشافعي، وأخذ عنه وعن غيره الفقه، وقد تعدَّدت تلامذته الذين دوَّنوا مذهبه؛ مثل: ولديه صالح وعبد الله، وأبي القاسم الخرقى؛ ويُضاف إلى هذه المذاهب مذهب خامس؛ هو المذهب الظاهري الذي نشأ على يد داود الظاهري (٢٧٠هـ / ٨٨٣م)، واعتمد على الأخذ بظاهر النصوص، وقد شاع مذهبه لكن لم يبلغ درجة المذاهب الأخرى في الانتشار والتوسُّع.

وبخلاف هؤلاء أصحاب المذاهب الخمسة فقد اشتهر عددٌ من الفقهاء مثل الأوزاعي، وابن أبي ليلى، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، والليث بن سعد، وعبد الله بن المبارك، وابن جرير الطبري؛ وكانت لهم آراؤهم ومذاهبهم، إلا أن مذاهبهم لم تعش وقتًا طويلًا بسبب عدم قيام تلامذتهم بتدوينها، فاندثرت ولم يبق منهم غير بعض الآثار والفتاوي.

وبجوار علم الفقه نشط علم آخر هو علم الكلام؛ وهو علم يتضمَّن البحث عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية للردِّ على المبتدعة والمنحرفين، وقد بزر هذا العلم بسبب ظهور مجموعة من الفرق والمذاهب المخالفة لمذهب أهل السُّنَّة والجماعة؛ مثل: القدرية والجهمية والمرجئة والجبرية، فضلًا عن مذاهب الشيعة وطوائف الخوارج المختلفة، غير أن أهم تلك الفرق على الإطلاق وأكثرها أثرًا على الحياة الدينية والأدبيَّة والعامة كانت فرقة المعتزلة؛ التي أسَّسها واصل ابن عطاء أواخر العصر الأموي حينما اختلف مع الحسن البصري في مسألة مرتكب الكبيرة، وما لبث أن اعتزله وأصحابه فعُرفوا بالمعتزلة، ودان بهذا المذهب عدد كبير؛ منهم: عمرو بن عبيد البصري، وأبو الهذيل العلاف، وأبو إسحاق البصري المعروف بالنظام، وبشر بن المعتمر الذي أشاعه في بغداد،

والأديب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وابن أبي دؤاد القاضي؛ وقد امتاز المعتزلة بقدرتهم الفائقة على المناظرة وإثبات الحجة؛ بسبب إمعانهم في تأويل النصوص، واستعمال العقل، وعدم الوقوف على النص، وإغراقهم في الخوض في الصفات الإلهية وإثارة الجدل حولها.

ووصل مذهب الاعتزال إلى أوج مكانته وانتشاره في عهد الخليفة المأمون؛ الذي تأثر بأفكارهم وجعل الاعتزال مذهباً رسمياً للدولة، وأيد معتقدهم الباطل بمسألة خلق القرآن، وظلَّ مذهباً رسمياً للدولة في عهد المعتصم ثم الواثق، إلى أن جاء المتوكل فأبطل فكرة خلق القرآن، ونجَّى المعتزلة عن مجلسه وانتصر للسُّنة، ثم بدأ تيار الاعتزال بعد ذلك يضعف مع ظهور القرن الرابع الهجري؛ إذ انشقَّ عنهم بعض أعلامهم مثل أبي الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ) الذي عمل على دحض آرائهم، مستعملاً أسلوبهم في الرد عليهم، فكان هذا إيذاناً بضعف مذهب الاعتزال وانخفاض أثره، وقد ظهر على يد أبي الحسن الأشعري مذهب جديد هو مذهب الأشاعرة، وهو أقرب المذاهب الكلامية إلى السُّنة والجماعة، قبل أن يرجع عنه أيضاً إلى مذهب السُّنة، ولكن أتباعه لم يرجعوا عمّاً رجع عنه.

واعتنى العلماء بالقرآن الكريم وما تعلّق به من علوم، ومن أبرز علوم القرآن الكريم ما عُرف بعلم القراءات؛ الذي يُعني بأداء القرآن الكريم أداءً صحيحاً، وقد أخذ بالتواتر عن أصحاب رسول الله ﷺ، وأشهرها سبع قراءات جمعها ابن مجاهد العامري في كتاب "السبعة في القراءات" موضحاً أصولها وقواعدها؛ وكذلك علم التجويد ورسم المصحف وعلامات الوقف والابتداء، واشتغل في تلك العلوم عددٌ كبير من العلماء مثل أبي مزاحم الخاقاني، وأبي حاتم السجستاني، والكسائي النحوي، ويحيى بن زياد الفراء وغيرهم.

وتطوّر علم تفسير القرآن الكريم وتعدّدت مدارس في مكة والمدينة والعراق وبغداد، وقد صنّف عدد من العلماء عدة مصنفات في التفسير؛ مثل سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وقد انقسم مفسرو القرآن الكريم إلى عدة مذاهب؛

أما المذهب الأول فاقْتَصَرَ في تفسيره على المأثور من صحيح حديث النَّبِيِّ ﷺ، وأشهر كتب التفسير في هذا المذهب هو كتاب "جامع البيان في تفسير القرآن" للإمام محمد بن جرير الطبري، وهو من أَجَلِ كتب التفسير وأغزرها مادة، واستغرق تأليفه سبع سنين؛ وأما المذهب الثاني فلم يكتفِ بالمأثور وأقوال السَّلف؛ وإنَّما تعداه إلى الاجتهاد والرأي، فعُرِفَ بتفسير الرأي، وسار في هذا الاتجاه طائفة من المعتزلة؛ وأما المذهب الثالث فربط تفسير القرآن بالأحكام الفقهية الواردة فيه، واشتغل فيه عدد من الفقهاء، ومن مصنفات هذا المذهب: كتاب "أحكام القرآن" للإمام الشافعي، ومصنفات أخرى بهذا الاسم لداود الظاهري وأبي بكر الرازي وآخرين.

ورغم أن القرآن الكريم سهل اللفظ والفهم؛ فإنَّ ضعف السليقة العربية وعدم إتقان بعض الأعاجم والمولدين للعربية؛ جعل فهم بعض ألفاظ القرآن صعبًا عليهم، فاهتمَّ بعض الفقهاء بتفسير مدلول المفردات واشتقاقها، ومن أشهر ما صُنِّفَ في ذلك: كتاب "معاني القرآن" للفراء يحيى بن زياد، وكتاب "معاني القرآن" للزجاج إبراهيم بن السرى البغدادي، ومن المصنَّفات ما اهتم بتفسير ما كان غريبًا من ألفاظ القرآن ومعانيه؛ مثل كتاب "غريب القرآن" لابن دُرَيْد، وهناك من صنَّف كتبًا في متشابهات القرآن، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وإعجاز القرآن وفضائله، وما ورد فيه من أمثال.

ونشط كذلك علم الحديث؛ وهو العلم الذي يُعنى بدراسة أحاديث النَّبِيِّ ﷺ والتَّدقيق في مسانيدِها ورواتها ومدى صَحَّتْها؛ حيث تم تصنيف الأحاديث من حيث عدد المسانيد والرُّواه واتِّصال السند ومدى الصِّحَّة، فصارت لِأَحَادِيث النَّبِيِّ ﷺ قواعد وأصول وتصنيف، فمنها الصحيح والحسن والضعيف والموضوع، ومنها الغريب والعزيز والمتواتر، ومنها المتَّصلة والمرسلة، ونشأت بخصوص الحديث عدة علوم مثل علم الجرح والتعديل؛ الباحث في أحوال الرواة، وعلم تاريخ الرواة؛ المختص بالتَّعريف برواة الأحاديث، وصُنِّفَت كتب عديدة في معرفة الصحابة وطبقات الرواة والناسخ والمنسوخ، وقد عني علماء

السُّنَّة والحديث النبوي بالبحث في اتصال السُّنَد، ودراسة سير الرواة، وصنَّفوا في ذلك الكتب؛ ومن هؤلاء: الأوزاعي، وعبد الله بن المبارك، وسفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، ويحيى بن معين البغدادي صاحب كتابي "معرفة الرجال" و"التاريخ والعلل"، والواقدي صاحب كتاب "الطبقات"، وهناك من اهتم بجمع الأحاديث المرسلة والضعيفة وغريب الأحاديث.

وقد سبق التنبيه على أن صحابة النَّبِيِّ ﷺ فضَّلوا نقل الأحاديث النبوية بالرواية ولم يتم تدوينها، باستثناء بعض المحاولات الفردية، حتى كثُر الخلط وتعدَّدت الأحزاب السياسية وأخذ بعض المنحرفين يدَّلسون في حديث النَّبِيِّ ﷺ ويضعون أحاديث باطلة، ولمَّا انتبه لذلك علماء أهل السُّنَّة قاموا على الفور بتدوين أحاديث النَّبِيِّ ﷺ في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز.

وفي العصر العباسي اشتهر كتاب "الموطَّأ" للإمام مالك، وعدة مؤلفات مبكرة، ولكن أهمها على الإطلاق كان كتاب "المسند" الشهير الذي وضعه الإمام أحمد ابن حنبل وجمع ما يسعه من أحاديث النَّبِيِّ ﷺ، مقسِّمًا إيَّاهَا أبوابًا حسب أسماء الرواة، ولمَّا انتهت مرحلة جمع وتدوين أحداث النَّبِيِّ ﷺ جاءت مرحلة التدقيق والتنقيح، فظهرت كتب الصحاح، وأهمها على الإطلاق "الجامع الصحيح" للإمام البخاري (ت: ٢٥٦هـ / ٨٦٩م)، و"الجامع الصحيح" للإمام مسلم (ت: ٢٦١هـ / ٨٧٤م)؛ حيث اشترطا الصِّحَّة في جمع أحاديث النَّبِيِّ ﷺ واستبعدا الأحاديث والأخبار الضعيفة، وقد تمَّت مراجعتهما مرارًا، وأجمعت الأُمَّة على أنهما أصح كتابين بعد كتاب الله تعالى.

وتلَّهما في الأهمية كتب السنن الأربعة: لأبي داود السجستاني، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وتأتي في المرتبة الثانية من الأهمية والصِّحَّة؛ كونها شملت بعض الأحاديث النبوية الضعيفة مع الإشارة والتنبيه عليها، وقد اعتمدت كتب الصِّحاح والسنن على تصنيف الأحداث النبوية وفق الأبواب الفقهية، ويأتي في المرتبة الثالثة كتاب "المسند" للإمام أحمد بن حنبل؛ الذي حوى بعض الأخبار الضعيفة ولكنه استبعد الأحاديث المنكرة وشديدة

الضعف، فضلاً عن مصنفات أخرى عديدة كانت هذه أشهرها، وكان علماء الحديث يجتهدون في السفر عبر البلدان لجمع ما يسعهم من أحاديث النَّبِيِّ ﷺ وتدوينها والبحث فيها.

وكلُّها مظاهر يُستدلُّ منها على العناية الفائقة التي رافقت العلوم الدينية والشرعية بجميع فروعها وأصنافها، وتدل على مدى تطور وازدهار العلوم المتعلِّقة بالدين، ومدى نشاط حركات الدعوة والإرشاد والوعظ، وما بذله علماء الدين والفقه والحديث من جهودٍ جبَّارة لحفظ الدين الإسلامي وخدمته.

ثانياً: العلوم الأدبية واللغوية:

عني علماء المسلمين في تلك الحقبة باللغة العربية وعلومها عناية فائقة، ولأسباب عدة؛ من بينها: اهتمامهم بالقرآن وضرورة شرح وفهم معانيه، وكذلك اهتمامهم بعموم التراث العربي شعراً ونثراً، فضلاً عن مقاومة شيوع اللحن على ألسنة المستعربين، وقد زاد حدَّةً في العصر العباسي مع اختلاط العرب بالعجم. وكانت البصرة هي منبع الدراسات اللغوية والأدبية؛ وذلك لقربها من مواطن البادية وقوة اتصالها بها، فكانت نقطة الوصل بين البدو والحضر، فكثرت فيها الدراسات اللغوية والأدبية، وظهر فيها عدد من علماء اللغة الذين اعتنوا بوضع ضوابطها وقواعدها، وقد تعدَّدت مجالات العلماء في هذا المجال؛ فمنهم من غلب عليه النحو فاشتغل به واختصَّ بالدراسات اللغوية، ومنهم من غلب عليه الشعر فاشتغل بروايته واختصَّ بالدراسات الأدبية، وهناك من جمع بين الأمرين.

وقد نشط علم النحو نشاطاً واسعاً، وهو العلم الباحث في قواعد اللغة العربية وحركاتها، بالإضافة إلى علم الصرف الخاص بتصريف واشتقاق الأفعال، فوضعت قوانين اللغة العربية وقواعدها وأسسها وأصولها، ومن أشهر علماء اللغة العربية الذين اشتغلوا بالنحو: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٠هـ/ ٧٨٦م)؛ وهو الذي قام بوضع العلامات المعروفة لحركات الضم والفتح

والكسر، ملغياً بذلك نقات أبي الأسود الدؤلي التي كانت تعبر عن تلك الحركات؛ لاختلاطها مع نقات الحروف التي وضعها نصر بن عاصم، والخليل هو صاحب أوّل معجم في اللغة العربية والمعروف بكتاب العين، كما كان الخليل أول من قام بتأسيس علم العروض الشعري الذي ينظم أوزان الشعر وتفعيلات أبياته، معتمداً على ما انتهى إليه من أشعار القدماء، فصنّفت أشعارهم على طريقته بستّة عشر وزناً رئيساً أسماها بحوراً، وله بذلك الفضل في بقاء الشعر العربي حتى اليوم، فلولا ذلك العلم لاندثر الشعر العربي وذهب.

وقد انقسم النحو العربي إلى مدرستين رئيسيتين: المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية، فمن أبرز أعلام المدرسة البصرية: هارون بن موسى؛ وهو يهودي أسلم واشتغل بالأدب وضبط حركات النحو، وعيسى بن عمر الثقفي (ت: ١٤٩هـ/ ٧٦٦م)، ويونس بن حبيب (ت: ١٨٢هـ/ ٧٩٨م)، وسيبويه صاحب أقدم مؤلف في النحو انتهى إلينا (ت: ١٨٠هـ/ ٧٩٦م)، والنضر بن شميل (ت: ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م)، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت: ٢١٣هـ/ ٨٢٨م)، والأخفش (ت: ٢١٥هـ/ ٨٣٠م)، وأبو عثمان المازني (ت: ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م)، وأبو العباس المبرد (ت: ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م)، وأبو بكر ابن دريد (ت: ٣٢١هـ/ ٩٣٣م)، ومن أبرز أعلام المدرسة الكوفية في اللغة: علي بن حمزة الكسائي (ت: ١٨٩/ ٨٠٤م)، ويحيى بن زياد الفراء (ت: ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)، وابن الأعرابي (ت: ٢٣١هـ/ ٨٤٥م)، وأبو العباس أحمد بن يحيى الكوفي المعروف بثعلب (ت: ٢٩١هـ/ ٩٠٣م)، ونفطويه (ت: ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م).

وما لبث أن ألقى هذا التنافس بين الكوفة والبصرة بظلاله على بغداد فاشتهر فيها عدد من علماء اللغة مثل: أبي عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م)، وأبي إسحاق الزجاج تلميذ المبرد (ت: ٣١١هـ/ ٩٢٣م)، وأبي الفتح عثمان بن جني (ت: ٣٩٢هـ/ ١٠٠١م) صاحب كتاب الخصائص!

^١ انظر: تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ١٢٢ - ٢٠٩).
^٢ انظر: الحضارة الإسلامية، طه عبد المقصود أبو عبيّة (١/ ١٨٩ - ١٩٦).

ومن علماء اللغة كذلك: أبو بكر محمد بن الأنباري تلميذ ثعلب (ت: ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م)، وابن ولاد (٣٣٢هـ/ ٩٤٣م)، وأبو جعفر النحاس (ت: ٣٣٨هـ)، وأبو القاسم الزجاجي (ت: ٣٣٩هـ) تلامذة الزجاج، وأبو علي القالي (ت: ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)، وابن خالويه (ت: ٣٧١هـ/ ٩٨١م).

وبين المدرسة الكوفية والمدرسة البصرية اختلافات عديدة في قواعد النحو وقوانين الاشتقاق واللغة، فكانت المدرسة البصرية تميل إلى الأخذ بالسمع عن البدو قبل القياس؛ بسبب قرب البصرة من مواطن البادية، وقوة اتصالهم بالبدو، وكانوا يرون التمسك بالنص كما سُمع من البدو عن غير تحكيم لقاعدة، وكان البدو كثيرًا ما يفدون على البصرة، وكان سوق المريد لا يزال على ما هو عليه من توافد العرب للبيع وال شراء وإلقاء القصائد والخطب، أما المدرسة الكوفية فإنها نظرًا إلى بُعد الكوفة عن مواطن البدو فكانت تعتمد على القياس المنطقي أولًا قبل السمع، وقد كانت مدرسة البصرة أرسخ قدمًا وأسبق في الظهور والثقة وسعة العلم؛ نظرًا إلى قوة اتصالها بالأعراب وأهل البادية، إلا أن ميل الخلفاء العباسيين للمدرسة الكوفية مهّد لها وقواها في منافسة البصرة؛ وفيما يلي بعض نماذج الخلاف بين مذهب أهل الكوفة والبصرة في اللغة؟

وجه الخلاف	المذهب الكوفي	المذهب البصري
اشتقاق الاسم	الاسم مشتق من الوسم (العلامة)	الاسم مشتق من السمو (العلو)
المبتدأ والخبر	المبتدأ مرفوع بالخبر والخبر مرفوع بالمبتدأ	المبتدأ مرفوع بالابتداء والخبر مرفوع بالمبتدأ
المفعول به	المفعول به منصوب	الفاعل مرفوع بالفعل،

^١ انظر: تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٢٠٢ - ٢٠٤) و(٢/ ٣٣٦).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٤٨ - ٥٠).

^٣ انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (٢/ ٢٠٥)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٥٠).

والمفعول به منصوب بالفعل أيضًا	بالفاعل	
فعلان ماضيان لا يتصرفان	اسمان	نعم وبئس
لا يجوز	يجوز	بناء اسم التفضيل من السواد والبياض على أفعل (أبيض أو أشد بياضًا)
الفعل مشتق من المصدر	المصدر مشتق من الفعل	اشتقاق المصدر والفعل
مبني على الصم وموضعه النصب لأنه مفعول به	معرب مرفوع بغير تنوين	الاسم المنادى المفرد
مبني على السكون	معرب مجزوم	فعل الأمر
حرف جر يُنصب الفعل المضارع بعدها بحرف النصب "أن" المضمرة	حرف نصب تنصب الفعل المضارع بعدها	حتى
معربة في مكانين	معربة في مكان واحد	الأسماء الستة
لا يضمن	يتضمن	تضمن الخبر ضميرًا إن كان اسمها مختصًا
يجوز	لا يجوز	تقديم خبر "ليس" عليها
لا يجوز	يجوز	تقديم الاستثناء أول الكلام
لا يجوز	يجوز	قول (الخمسة عشرة درهمًا) بدلًا من (الخمسة عشر درهمًا)

كما حدث تطور كبير في ألفاظ اللغة العربية؛ بسبب اختلاط العرب بالعجم والموالي، وأيضًا بسبب تطور وازدهار العلوم، فظهرت ألفاظ علمية وفلسفية وأخرى أعجمية؛ فمن أمثلة الألفاظ العلمية الدخيلة (الصيدلة، التشريح، الجراحة، التوليد، البلغم، ترياق، التشنج، السرطان، البواسير، الطفرة)، كما ضُمَّت العربية بعض الألفاظ الأعجمية مما ترجم اسمه من أسماء العقاقير والأمراض والأدوات من لغاتها بلفظها ومعناها من اللغة اليونانية والفارسية؛ واعتنى عدد من علماء اللغة بتدوين ألفاظ اللغة وكتابتها، ممَّا مهَّد لظهور المعاجم اللغوية.

وكان العصر العباسي إبداعًا بظهور ما عُرف بالمعاجم اللغوية، وكان أوَّل مُعجم مرتَّب كُتِب له الظهور هو "كتاب العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي؛ حيث قام بترتيب مفرداته على أساس صوتي وفق مخارج الحروف، وقد زاد عليه بعد ذلك عدد من العلماء الذين أتوا بعده، ومن أشهر المعاجم اللغوية: كتاب "جمهرة اللغة" لابن دريد، و"تهذيب اللغة" لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، و"المحيط" للصاحب بن عباد، وكتابا "المجمل" و"مقاييس اللغة" لابن فارس؛ وكان أوَّلهما مختصرًا والآخر مفصَّلًا؛ بالإضافة إلى كتاب "الصِّحاح" لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، وقد لَخَّصه محمد بن أبي بكر الرَّاзи أحد علماء القرن الثامن الهجري في كتاب أسماه "مختار الصحاح"، وكتاب "الجامع في اللغة" لأبي عبد الله القزاز (ت: ٤١٣هـ).^١

ونشطت كذلك رواية الشعر القديم واختص به عدد الرواة وعلماء اللغة الذين غلبت عليهم رواية الشعر، وأغلبهم من علماء الكوفة والبصرة، وكانت روايات علماء البصرة أقرب وأعظم ثقة من علماء الكوفة، ومن أشهرهم: أبو عمرو ابن العلاء (ت: ١٥٤هـ / ٧٧٠م) أحد القراء السبعة، وأبو زيد القرشي، وأبو عبيدة المثني، وأبو زيد الأنصاري (ت: ٢١٥هـ / ٨٣٠م)، وعبد الملك الأصبغي (ت: ٢١٦هـ /

^١ انظر: تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٣٤ - ٣٥).

^٢ انظر: الحضارة الإسلامية، طه عبد المقصود أبو عبيدة (١/ ٢٠٠ - ٢٠٣).

^٣ انظر: تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٣٣٨ - ٣٤٢).

٨٣١م)، ومحمد بن سلام الجمعي (٢٣٢هـ / ٨٤٦م)، وأبو سعيد السكري (ت: ٢٧٥هـ / ٨٨٨م)؛ ومن علماء الكوفة ورواتهم: المفضل بن محمد الضبي، وأبو عمرو الشيباني، وابن الأعرابي، وأبو عبيد القاسم بن سلام؛ ومن أشهر رواة بغداد: أبو يوسف يعقوب بن السكيت (ت: ٢٤٤هـ / ٨٥٨م).

ويضاف إليهم كذلك حماد الراوية وتلميذه خلف الأحمر، إلا أنَّهما كانا كثيرَي الوضع والانتحال، فلا يُعتد بروايتهما.

ومع بدء التدوين ونشاطه؛ تم تدوين ما وراه هؤلاء من أشعار، وأشهر ما صُنِّف من كتبهم: "المعلقات السبع" لحماد الراوية، و"المفضليات" للمفضل الضبي، و"الأصمعيات" للأصمعي؛ ويُعتَبَر كلُّ من المفضليات والأصمعيات من أوثق مصادر الشعر الجاهلي والمخضرم، بالإضافة إلى "جمهرة أشعار العرب" لأبي زيد القرشي، و"طبقات فحول الشعراء" لابن سلام، و"ديوان الحماسة" لأبي تمام، و"منتهى الطلب في أشعار العرب" لابن ميمون؛ وقد ساهم هذا في حفظ القديم من أشعار القدامى من الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين، ووضع حدٍّ لقضية الانتحال واختلاط صحيح الشعر الجاهلي بالمنحول بسبب تدليس بعض الرواة غير الثقة كحماد الراوية وخلف الأحمر، ولكن لم يتمكن أحد من نزع القصائد المنحولة من دواوين الشعراء القدامى من الجاهليين والمخضرمين، فلا يعتد إلا ما كان من الرواة الثقات.

ولم يكن الشعر وحده هو ما اعتنى الرواة بنقله؛ فقد اهتموا أيضًا بنقل جميع التراث الأدبي القديم من الخطب والأمثال والحكم والقصص القديمة، كما فعل المفضل الضبي في كتابه "أمثال العرب"، وأبو علي القالي في كتابه "الأمالي"، ونقل الطبري في تاريخه العديد من الخطب والرسائل التي انتهت إليه، ومن أشهر الكتب في هذا المجال كتاب "مجمع الأمثال" لأبي الفضل الميداني أحد أدباء القرن السادس الهجري؛ حيث جمع في كتابه ما انتهى إليه من أمثال العرب وكلامهم في الجاهلية والإسلام، وأضاف إليها بعض أقوال العجم.

وتطورت كذلك علوم البلاغة؛ حيث اعتنى عدد من العماء بشرحها، وقام بتعريفها بعض الكتّاب مثل الجاحظ، وقسموها إلى ثلاثة فروع: المعاني والبيان والبديع، وتبحروا في وصف وشرح أساليب البلاغة كالتشبيه والاستعارة والكناية وسواها من أساليب التراكيب والمعاني والبديع، وظهر مع هذا علم جديد هو علم النقد؛ حيث انتقل علماء اللغة والأدب من مرحلة النقل والرواية إلى مرحلة النقد وبيان المحاسن والعيوب، وأول من فعل هذا هو محمد بن سلام الجمحي في كتابه "طبقات فحول الشعراء"؛ الذي عرض فيه بعضاً من أشعار الجاهليين والمقدمين، مقسِّماً إياهم إلى طبقات، وكان في عرضه لأشعارهم بعض النقد، ورغم أن محاولته النقدية كانت بدائية وفيها بعض الأخطاء التي أخذت عليه؛ فإنه كان مصدر ثقة لرواية الشعر الجاهلي، كما أنه يمثّل أولى المحاولات لبناء علم النقد، وفعل مثله ابن قتيبة الدينوري في صورة أتمّ إتقاناً بكتابه "الشعر والشعراء".

ومن الكتب الأدبية التي حملت الكثير من المسائل البلاغية والنقدية كتاب "الكامل في اللغة" للمبرّد، ولعبد الله ابن المعتز كتاب "البديع" الذي شرح فيه عددًا من أنواعه، ومن بين الكتب "قواعد الشعر" لأبي العباس ثعلب، وكتابا "الشعر" و"الموشح" لأبي عبد الله المرزباني، و"تهذيب البلاغة" لأبي علي المازيار أحمد بن نصر (ت: ٣٥٢هـ / ٩٦٣م)، و"أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" لعبد القادر الجرجاني، و"سر الصناعة" لابن جني، و"الكشف عن مساوئ المتنبي" للصاحب بن عباد، والموازنة بين شعر أبي تمام والبحري" للحسن ابن بشر الأمدي، و"عيار الشعر" لابن طباطبا^١

وقد عُني جمهور هؤلاء العلماء بمقاومة اللحن الذي شاع على ألسنة المستعربين والموالي وأصاب كذلك من خالطهم من العرب فضعفت سلاقتهم، وقد شاع اللحن في الحضر مما أدى إلى نشوء العامية، أما البادية فبفضل انعزالها ظلّت السليقة العربية الفصحى سليمة صحيحة، وكان علماء اللغة من

١ انظر: الحضارة الإسلامية، طه عبد المقصود أبو عبيّة (١/ ٢٠٤ - ٢١١).



المدن يرتحلون إلى البادية حتى يأخذوا من أهلها العربية الصحيحة من منابها الصافية، وكانوا يراجعون مفردات العربية التي يجمعونها ويوثقونها من أهل البادية، وملكن لم يتمكّن هؤلاء العلماء من إيقاف سيل اللحن رغم جهودهم الجبارة؛ إذ شاع اللحن في العامة، وصارت لغتهم العامية، أما عليّة القوم من الخلفاء والحكام والقادة والأعيان والأعلام من الشعراء والكتاب فقد ظلت لغتهم هي الفصحى نحو قرن ونصف من بدء الدولة العباسية، حتى استعجم المسلمون واستولى الترك على الخلافة، ومن بعدهم بنو بويه، ثم الأتراك السلاجقة، ففشّت العامية حتى بين الخلفاء والعلماء، وأما البادية فقد بقيت على سليقتها الصافية حتى دخل فيهم هذا العي أواخر العصر العباسي.

ولكن علماء اللغة إن كانوا قد فشلوا في إيقاف سيل اللحن والحفاظ على السليقة؛ فقد نجحوا على الأقل في الحفاظ على اللغة العربية لغة رسمية في الخطب والكتابات، ثمرة لجهودهم في الحفاظ على قواعدها وقوانينها وأصولها.

ثالثاً: العلوم العقلية والنظرية:

نمت العلوم العقلية والنظرية في هذا العصر نموّاً عظيماً؛ تبعاً للنمو الفكري والثقافي من جهة، ولنشاط الترجمة واقتباس العرب والمسلمين علومًا جديدة من جهة أخرى، بالإضافة إلى نشاط التدوين والتأليف، وكان أبرز ما تطوّر وازدهر من العلوم العقلية والنظرية هو علم التاريخ وما ارتبط به من دراسات وتدوين وجمع للأخبار، وكان التاريخ قبل العصر العباسي مقصوراً على الرواية والنقل وأخبار مغازي النّبِيِّ ﷺ، والأنساب، والفتوحات؛ إلا أن مرور الوقت وتعاقب الأحداث دفع فريقاً من العلماء إلى تدوين تلك الأحداث، فنشأ بذلك علم التاريخ وتطور تطوُّراً عظيماً بحيث تفرّع هو الآخر إلى عدة فروع.

وكانت السيرة النبوية نصّب عين اهتمام المؤرخين؛ حيث ظهر في هذا الوقت أوّل كتاب يتحدث عن السيرة النبوية، لمؤلفه الشهير محمد بن إسحاق (ت: ١٥١هـ/ ٧٦٨م) وكانت سيرة ابن إسحاق مصدراً لجميع دراسات السيرة النبوية التي أتت

بعده، وقد لقي عمله آنذاك رواجًا عظيمًا، وهو وإن لم يصلنا كاملاً فقد وصلنا مهذبًا عن طريق كتاب السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام (ت: ٢١٣هـ / ٨٢٨م)؛ الذي قام بتهديبها واختصارها وترتيبها حتى وصلت إلى تلك الصورة التي نراها اليوم وصارت تُعرَف بسيرة ابن هشام، وهو الآن المصدر الرئيس للسيرة النبوية ولأني بحث فيها، ولا يؤخذ على سيرة ابن إسحاق وسيرة ابن هشام إلا ما ذُكر فيهما من أشعار منحولة بسبب عدم تدقيقهم في كل ما انتهى إليهما من شعر. ومن أشهر المؤلفين في المغازي والسير: الواقدي (ت: ٢٠٧هـ / ٨٢٢م)، وابن سعد (ت: ٢٣٠هـ / ٨٤٥م) وغيرهما.

على أن التاريخ لم يقتصر على دراسة السيرة النبوية والمغازي فحسب؛ بل امتد ليشمل تدوين الأحداث التالية في زمن الخلفاء الراشدين والعصر الأموي والعصر العباسي كذلك، ومن أشهر من اهتم بالتاريخ العام: أبو مخنف لوط ابن يحيى الأزدي، وسيف بن عمر الأسدي، وهشام بن محمد السائب الكلبي، وعلي بن محمد المدائني، وابن قتيبة، ومسكويه، والصولي، وانقسم تدوين الأحداث التاريخية إلى مدرستين: المنهج الحولي؛ الذي يعنى تأريخ الأحداث جميعها وفق ترتيب السنوات، ومن أشهر أعلام تلك المدرسة: محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ / ٩٢٢م) في كتابه الكبير "تاريخ الرسل والملوك"؛ الذي تناول فيه التاريخ منذ بدء الخليقة، مرورًا بالأحداث القديمة، ثم بالسيرة النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين، والأمويين، والعباسيين انتهاء بعصر الخليفة المقتدر، وهو مثل كتابه في التفسير غزير المادة، عظيم المنفعة، فائق الشمول والإحاطة، حتى فاق في أهميته ودقته كل ما سبقه، ويُعد مصدرًا رئيسًا لمن جاء بعده، وسار على نهجه عز الدين بن الأثير؛ الذي ظهر أواخر العصر العباسي (ت: ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) في كتابه "الكامل في التاريخ"، وفيه اختصر تاريخ الطبري، وسار على نهجه في الرواية منذ بدء الخليقة، وأضاف إليه الأحداث التي جاءت بعده حتى قريب من وفاته.

وأما المدرسة الثانية فكان منهج تصنيف الأحداث فيها تحت رؤوس الموضوعات المناسبة لها، ومن أشهر أعلام هذه المدرسة علي بن الحسين المسعودي (ت: ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م) صاحب كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر"؛ الذي أُنْج فيه الأحداث حتى زمانه.

ولم يقتصر التاريخ على تتبُّع الأحداث السياسية فقط؛ ولكنّه شمل كذلك جوانبَ متخصصة؛ من بينها: التاريخ المحلي (ت: واريخ البلدان)، ومن أشهرها كتاب "تاريخ بغداد" لابن طيفور، و"تاريخ دمشق" لابن عساكر، وكتب فتوح الشام والعراق وإفريقيا التي ألّف فيها أبو مخنف الأزدي والواقدي والمدائني، وكتب الأنساب والتراجم والطبقات؛ حيث اعتنى بعض المؤرخين بأخبار الخلفاء؛ مثل المدائني صاحب كتاب "أخبار الخلفاء"، وهناك من اعتنى بتاريخ الوزراء والكتاب؛ مثل محمد بن عبدوس الجهمشياري في كتابه "الوزراء والكتاب"، وهناك من اهتم بتاريخ القضاء والفقهاء والقراء والزهاد والمتصوّفة وطبقات الشعراء والأدباء، بل إن منهم من اهتم بأخبار الغناء وأرباب الموسيقى، ومن أشهر المؤلفات في مجال التراجم كتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان وهو كتاب عظيم فائق الأهمية، وكتاب "الفهرست" لابن النديم الذي جمع فيه أشهر المؤلفين والكتاب مع ذكر أبرز مؤلفاتهم، و"طبقات الشعراء" لأبي عبد الله المرزباني، ومثله لابن المعتز العباسي، وكتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني، ومن أشهر المؤلفين في التراجم والطبقات والتاريخ المحلي: ياقوت الحموي صاحب كتابي "معجم الأدباء" و"معجم البلدان"، وهناك من صنّف حول تاريخ الغناء والموسيقى والشؤون الإدارية والمالية والفكر السياسي وآداب السلطان وأخلاق الملوك.

ومن أبرز المعارف العقلية التي اقتبسها المسلمون من خلال النقل والترجمة علم الفلسفة؛ الذي يختص بالعلم بحقائق الأشياء واستقراء جوانبها؛ سواء أكانت إلهية أم طبيعية أم منطقية أم رياضية أم سياسية، وقد اقتبس المسلمون علم الفلسفة من التراث اليوناني والإغريقي؛ حيث ترجموا آراء بعض



الفلاسفة مثل أرسطاطاليس وأفلاطون وأرسطو وسقراط، وتأثروا بها تأثراً كبيراً، ثم بدأت الفلسفة تتطوّر في الصعيد الداخلي، فنشأ ما عُرف بالفلسفة الإسلامية؛ التي ارتبطت بمجالات عدة مثل علم الكلام والتصوف والأخلاق والسياسة والأدب والتاريخ والمناظرات، ونشأت عدة مدارس فلسفية مختلفة، ومن أبرز علماء الفلسفة: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (ت: ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م)، وأبو نصر محمد بن طرخان الفارابي (ت: ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م) الذي يُعتبر أشهر الفلاسفة بعد الكندي، وقد ألّف عدة مؤلفات، ومن أحسن كتبه كتاب "المدينة الفاضلة" الذي وضع فيه تصوّراً لمدينة مثالية، متأثراً بفكر أفلاطون في كتابه "الجمهورية"، وحفل التراث الإسلامي بعد الفارابي بعدد من الفلاسفة المميزين من أعلام مدرسته؛ من بينهم: أبو حيان التوحيدي، ومسكويه، والعالم الشهير أبو علي الحسين بن عبد الله المعروف بابن سينا (ت: ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م)؛ الذي كان طبيباً وفيلسوفاً، وقد تأثر بأرسطو من القدماء، وتأثر كذلك بأفكار الفارابي، وله مؤلفات عديدة، وكان وحده موسوعة من العلوم والمعارف. إلا أن الفلسفة على تطورها وازدهارها شهدت أواخر العصر العباسي ضعفاً وتراجعا بعد موت ابن سينا؛ بسبب تراجع تيار الجدل، وتصدي بعض علماء الشريعة للآراء الفلسفية الجريئة، وقد صَنَّفوا كتباً يهاجمون بها الفلاسفة؛ مثل كتاب "تهافت الفلاسفة" للغزالي^١.

رابعاً: العلوم التطبيقية:

مع نشاط حركة الترجمة وعناية علماء العرب والمسلمين بنقل العلوم والمعارف من الحضارات الأجنبية إلى العربية، وما جرى من امتزاج واختلاط العرب بالفرس والقبط والبربر وسواهم؛ تطورت العلوم التطبيقية بشكل واسع، وخطت الحضارة الإسلامية خطوات عظيمة في علوم الطب والصيدلة والهندسة والفلك والموسيقى والرياضيات، صحيح أن العرب كان لهم نصيب

^١ انظر: الحضارة الإسلامية، طه عبد المقصود أبو عبيّة (١/ ٢٢٧ - ٣٣٠).

من تلك العلوم منذ جاهليتهم، لكنّه لم يكن شيئاً بجوار ما توصّل إليه علماء العرب والمسلمين في العصر العباسي.

ومن أبرز العلوم التطبيقية علم الجغرافيا الذي نال نصيباً وافراً من الاهتمام، وهو علم عرفه العرب منذ جاهليتهم؛ إذ احتاجوا إلى وصف البلدان والطرق والخرائط، غير أنه تطوّر بصورة واسعة مع النقل والترجمة، و"الجغرافيا" كلمة من أصل يوناني تعني رسم الأرض أو صورة الأرض، وقد حفلت مؤلفات هشام الكلبي والجاحظ في كتابه الحيوان ببعض المظاهر والمعلومات الجغرافية، ثم ما لبث أن اتسع التدوين فظهر عدد من الباحثين والمؤلفين في الجغرافيا؛ مثل: المسعودي، وأبي القاسم بن خردابة، وابن حوقل، والرحالة أحمد بن فضلان، وأحمد بن إسحاق البغدادي المعروف باليعقوبي؛ الذي قام برحلات طويلة في مختلف البلاد وجمع ما انتهى إليه من معلومات ووصفٍ للسكان والأجناس والحياة والمدن، في كتابه "البلدان".

وتطور علم الجغرافيا ليشمل ظواهر الجو والبحار والمحيطات وظواهر المناخ عمومًا كالمد والجزر والرياح، والتضاريس الأرضية من جبال وهضاب وسهول ووديان، فيما عُرف بالجغرافيا الإقليمية، وكذلك شمل دراسات عن أحوال البشر وسكان البلدان وأجناسهم وأعدادهم وطبائعهم، فيما عُرف بالجغرافيا البشرية، على أن أبرز ما تطور في هذا المجال كان علم الخرائط، ورغم أن الخرائط كانت معروفة منذ القِدَم وكانت حاضرة في الفتوحات والحروب؛ فإنّها كعلمٍ مستقلٍّ لم تظهر إلا مع العصر العباسي؛ حيث اهتم العلماء منذ عصر المأمون برسم خرائط شاملة للعالم؛ ومن بينهم: أحمد بن سهل البلخي، والمسعودي، والمقدسي، وأبو الريحان البيروني، والإدريسي؛ وعرفوا مع الخرائط خطوط الطول والعرض والقارات والمحيطات، ونجحوا في إثبات كروية الأرض، وحسبوا بشكل تقريبي طول قطر الأرض ومحيطها، ولا شك أن جهودهم وما وصلوا إليه من رسم خريطة الأرض ومعرفة أبعادها وأقطارها تسترعي الانتباه؛ نظرًا إلى ضعف الإمكانيات المتاحة في هذا الوقت، وما تتطلبه تلك الأمور وقتها

من جهودٍ فادحة في السفر والترحال ومراعاة الدقة والملاحظة والحسابات حتى يتم إنجاز هذا العمل.



(خريطة العالم كما رسمها المسعودي- خريطة العالم كما رسمها الإدريسي)

ومن العلوم التي تطورت كذلك علم الفلك؛ حيث اهتم المسلمون بالأجرام السماوية والكواكب والنجوم والحسابات الفلكية، وعرفوا الأبراج والمنازل وحركات الكواكب، ومن أشهر الكتب التي تُرجمت في هذا العلم: كتاب "السند هند"، و"زيج الشهر يار"، و"المجسطي" لبطليموس؛ وقد ظهر اهتمام الخلفاء العباسيين بهذا العلم منذ عهد أبي جعفر المنصور، وكذلك حفيده هارون الرشيد وولده المأمون؛ حيث شُيّدت المراصد الفلكية وآلات الرصد لمراقبة حركة النجوم والكواكب، وكان لعلماء المسلمين دور في تصحيح بعض الآراء القديمة وإضافة العديد من الاكتشافات الجديدة، ومن أشهر من اشتغل بالفلك: إبراهيم بن حبيب الفزاري، وأبو الوفا البوزجاني، وأولاد موسى ابن شاعر، وأبو حامد الصاغاني البغدادي.

وتطور كذلك علم الرياضيات؛ حيث تُرجمت العديد من الكتب اليونانية، واعتنوا بشرحها؛ مثل كتاب أوقليدس في الهندسة، وما لبث أن سار المسلمون

في علم الرياضيات شوطاً عظيماً، حتى تنوّعت فروعها فظهر مندرجاً تحت علم الرياضيات علوم أخرى؛ منها: علم الجبر، وعلم الهندسة التطبيقية، وعلم الحيل، وحساب المثلثات، وعلم الحساب، وكان للرياضيات صلة وثيقة بعلم الفلك، ومن أشهر من ترك أثراً في تلك الفروع: أبو الوفا البوزجاني الفلكي، والكندي الفيلسوف، وأبو الحسن ثابت بن قرة الحراني، والحسن بن هيثم مؤسس علم البصريات، ومحمد بن موسى الخوارزمي مؤسس علم الجبر ومخترع المعادلات الخوارزمية التي كانت أساساً في علم الحاسب الآلي فيما بعد. وازدهر كذلك علم الطب وما رافقه من علوم الأدوية والعقاقير وأساليب العلاج، وكان العرب في جاهليتهم قد عرفوا الطب لكن معرفتهم كانت بدائية، ثم بدأ علم الطب في التطور مع ترجمة بعض الكتب الأجنبية في العصر الأموي، حتى إذا جاء العصر العباسي خطا الطب خطوات واسعة في التطور بفضل الكتب التي ترجمها يوحنا بن ماسويه وحنين بن إسحاق البغدادي، وتم إنشاء العديد من البيمارستانات (المستشفيات) التي كانت تقدّم الخدمات الصحية والعلاج ويدرس فيها الطب نظرياً وعملياً، وكانت منها بيمارستانات ثابتة وأخرى متنقّلة، ومن أشهر الأطباء: جرجيوس بن بختيشوع طبيب أبي جعفر المنصور ورئيس الأطباء في عهد هارون الرشيد، وولده جبرائيل الذي خدم في بلاط الرشيد وولديه الأمين والمأمون، وسنان بن ثابت بن سنان بن قرة الحراني، وأبو بكر الرازي رئيس البيمارستان في عهد الخليفة المعتضد وصاحب كتابي "الحاوي" و"المرشد"، وقسطا بن لوقا، والفيلسوف ابن سينا الذي جمع بين الطب والفلسفة فعرف بطبيب الفلاسفة، وطبيب العيون أبو القاسم الموصلي، وعلي ابن زين الطبري، وأبو الحسن بن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى؛ وتفرّع الطب إلى عدة علوم وأقسام مختلفة؛ مثل علم التشريح والجراحة وطب العيون والعظام والأمراض الباطنية وطب الأسنان وطب النساء والأطفال وأمراض القلب والطب النفسي، ومن الواضح أن علاقة كانت تربط بين الطب والفلسفة من خلال بعض العلماء الذين جمعوا بين العلمين كالكندي والرازي

وابن سينا؛ حيث استعلموا خبرتهم في الفلسفة كوسيلة للعلاج وتشخيص الأمراض، وكان يتم اختبار المتقدمين للعمل بالطب اختبارات دقيقة حتى يتم قبولهم ويُمنحوا إجازتهم.

ومع تطور علم الطب تطور معه علم الصيدلة؛ وهو العلم المختص بالأدوية والعقاقير المعالجة للأمراض، وأُلِّفت في ذلك مؤلفات عديدة؛ مثل كتاب "الحاوي" للرازي، و"القانون" لابن سينا، و"منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير" لعليّ الطبري، كما كان ليوحنا بن ماسويه وحنين بن إسحاق آثار جلية ومؤلفات عديدة في الطب والصيدلة، بجانب كونهما مترجمين كذلك.

وتطور علم الكيمياء الباحث في خواص المواد والمعادن، وكان خالد بن يزيد الأموي قد اعتنى بنقل وترجمة بعض الكتب الخاصة بهذا العلم حتى ازدهر في العصر العباسي، ومن أشهر علماء الكيمياء جابر بن حيان الأزدي الذي كان على اتصال بالرامكة وعاصر زمن الرشيد والمأمون، وله كتاب "الخواص" وعدة مصنفات أخرى شهيرة، ومن العلماء الذين ساهموا في هذا العلم: الكندي، والفارابي، وابن سينا، والبيروني.

كما تطورت علوم النبات والفلاحة، وقد برز فيه قسطا بن لوقا البعلبكي وابن وحشية النبطي، وللرازي مساهمات فيه، وعُرف كذلك علم الحيوان؛ حيث أُلِّفت فيه عدة مصنفات وكان نواة لنشوء ما عرف بالطب البيطري، غير أن الأبرز هو ما ابتكره المسلمون وأحدثوه من تطور في علوم الطبيعة، أو ما عُرف حديثاً بالفيزياء؛ حيث كانت للمسلمين آثار جلية في علوم الطبيعة وفروعها في علم الحيل (الميكانيك) وعلم الأصوات والضوء والجاذبية الأرضية والمناظر؛ فأما علم الحيل فقد اشتهر فيه أبناء موسى بن شاكر وثابت بن قرة الحراني، وصُنعت آلات الحركة والساعات الشمسية والمائية، وكان لابن سينا آثار علمية حول علم الصوت، كما تطوّر علم البصريّات الذي برع فيه العالم الحسن ابن هيثم الذي اخترع آلة التصوير (الكاميرا)، وله العديد من النظريات العلمية، ويعتبر بحق رائد علم البصريّات، وله كتب مؤلفة في ذلك أهمها كتاب "المناظر"،

وله مصنّفات ورسائل أخرى حول البصريّات والبحث في خواص الضوء وانعطافه وانكساره وضوء القمر والعين والإبصار، وللعلماء المسلمين آثار جليلة في علم الروافع والموازن ومراكز الأثقال وعلم السوائل، ومن أشهر من اشتغل في عموم تلك المعارف الطبيب أبو بكر الرازي الذي جمع بين الطب وعلوم الطبيعة، وقسطا بن لوكا المترجم، ومحمد بن موسى الخوارزمي، وأبو الفتح عبد الرحمن الخازن صاحب كتاب "ميزان الحكمة".

وتجدر الإشارة هنا إلى عالم شهير من علوم الطبيعة والفيزياء؛ هو العالم أبو الريحان البيروني (ت: ٤٤١هـ / ١٠٥٠م) أحد أبرز وأمهر علماء الطبيعة على مرّ التاريخ؛ حيث له شروحات في ضغط واتزان السوائل ومياه الآبار واستخراج المياه الجوفية، وله تجارب عديدة أثبت منها أن تفوق سرعة الضوء على سرعة الصوت، وهو أحد من بحث في موضوع الجاذبية الأرضية، سابقاً بذلك العالم الانجليزي إسحاق نيوتن، وهو أيضاً أحد من اجتهدوا في حساب قطر الأرض وبحث دوران الأرض حول محورها، وكان لهؤلاء العلماء عدة أبحاث في دراسة الجاذبية الأرضية وتساقط الأجسام، وقد استطاع بفضلهم العالم الانجليزي إسحاق نيوتن التوصل إلى معادلات وقوانين الحركة والجاذبية.

كما تطوّر كذلك علم الموسيقى؛ حيث اشتهرت صناعة الآلات الموسيقية، وتم دراسة الألحان وتصنيف مقاطعها الصوتية، وكان لعلماء الفلاسفة مثل الكندي الفارابي وابن سينا بعض الآثار في هذا العلم؛ حيث ألّف الفارابي عدة مؤلفات تحدّث فيها عن الموسيقى؛ مثل كتاب: "الإيقاعات" و"كلام في الموسيقى" و"الموسيقى الكبير"، وهو مصمّم آلة القانون، وقد تطوّر تماشياً مع الموسيقى علم الطرب والغناء، وشجّع تطوُّره ميل بعض الخلفاء العباسيين إليه مع شيوع اللهو والترّف والحانات، فاشتهر فيه عدد كبير؛ من بينهم: وهب الخزاعي، ويحيى المكي وابنه أحمد، وابن جامع، وإبراهيم، ثم ولده إسحاق بن إبراهيم الموصلي

صاحب أول مدرسة معروفة للغناء، وجعل له نظام واضح، وكان شهيرًا ذائع الصيت^١.

واللافت للانتباه في جملة ما ذكرناه أن عددًا من العلماء -ولا سيّما من اشتغل بالفلسفة- قد جمعوا بين عددٍ من العلوم والمعارف كالطب والصيدلة والفلسفة والفلك والموسيقى، في إطار يسترعي الانتباه ويُستدلّ منه على نشاط الحياة العلمية والثقافية في تلك الحقبة التي أربت عن خمسة قرون.

أثر التطور الثقافي والعلمي على الحياة الأدبية:

كان للتطور الثقافي والفكري في العصر العباسي أثرٌ عظيم على الحياة الأدبية شعرًا ونثرًا، وقد ألمنا في الصفحات الماضية بشيءٍ من التفصيل حول ما أنجزه العرب والمسلمون في تلك الحقبة على صعيد المعارف الدينية واللغوية والأدبية، وعلى صعيد العلوم العقلية والتطبيقية من تاريخ وجغرافيا وفلك وطب وهندسة ورياضيات، مع استعراض أهم الانجازات وذكر بعض العلماء عامدين إلى ذلك رغم ما قد يظهر من بعد ذلك عن صميم موضوع حديثنا عن الأدب؛ وذلك لربط الحالة الثقافية والعلمية بالأدب، ولبيان أثر هذا التطور الثقافي والعلمي على الحياة الأدبية.

فقد كان لتطور علم الكلام مثلًا أثرٌ هائل على الشعر والنثر؛ فقد أدّى إلى اشتعال وتيرة الفكر والمناظرات، وهناك من الأدباء من كتبوا رسائل حول تلك الموضوعات؛ مثلما فعل الجاحظ حينما تحدّث عن مسألة خلق القرآن مدافعًا عنها، ولديه رسائل أخرى حول الخلاف بين عليٍّ ومعاوية رضوان الله عليهما، كما ظهر عددٌ من الشعراء الذين دانوا ببعض المذاهب الكلامية وعلى الأخص مذهب الاعتزال الذي شاع في العصر العباسي وترك آثارًا على الحياة الأدبية والعامّة، وكان الاعتزال بوجه خاص أكثر المذاهب الكلامية تأثرًا وارتباطًا

^١ انظر: آثار وإنجازات العلماء وفروع المعرفة في كتاب: الحضارة الإسلامية، طه عبدالمقصود أبو عبيدة (١/ ٣٣١ - ٤٦٦).

بالتطوُّر الفكري والعقلي وما نُقل بالترجمة من أفكار يونانية وفلسفية، ومن هؤلاء: كلثوم بن عمرو العتابي، وبشر بن المعتمر، وأبو إسحاق البصري المعروف بالنظام؛ وفي شعرهم بعض ملامح أفكارهم الكلامية والجدلية في إطار صراعهم الفكري مع الفرق الكلامية الأخرى، كما كان للعلوم الدينية والفقهية أثرٌ واضحٌ في تطور ملامح الشِّعر الديني المتمثِّل في تيار الزهد وتيار التصوُّف.

ولعل علمًا لم يبلغ من الأثر في الأدب كما بلغت الفلسفة التي كان لها أثرٌ واضح على الشعر؛ إذ إن الفلسفة بذاتها علمٌ قائمٌ على العقل وفرض النظريات وإعمال الفكر، وقد ظهر دخول الفلسفة في عالم الشعر منذ زمن مبكِّر في هذا العصر، على نحو ما نرى بوادره عند الشاعر أبي تمام، وما لبثت أن تطوَّرت علاقة الشعر بالفلسفة حتى بلغت ذروتها عند أبي الطيب المتنبي، ثم بصورة أتم وأكثر تعقيدًا عند أبي العلاء المعري الذي كان فيلسوفًا وشاعرًا، وقد جمع بين الفلسفة من جهة وأعماله النثرية والشعرية من جهة ثانية كما نرى في ديوان الزوميات أو في بعض رسائله النثرية المهمة مثل رسالة الغفران.

وقد لعبت الفلسفة دورًا هائلًا في توجيه الأدب العباسي؛ إذ شاعت فيه نزعة الجدل والترابط الفكري والابتكار والتعليل والاستنتاج واستخلاص عناصر الحسن ومقومات الجمال؛ وصار الأدب العباسي حافلًا بالفحص والنظر والتأمل العميق وإطالة الفكر، وظهر في العصر العباسي مذهب الصنعة، وهذا المذهب وإن كان حاضرًا قبل ذلك فإنه لم يغلب على الطبع الذي توارثه الشعراء بفطرتهم في العصر الجاهلي ومطلع العصر الإسلامي والأموي، أما العصر العباسي فمع ضعف السليقة وتراجع الطابع البدوي وغلبة التمدُّن واختلاط العرب بالعجم؛ فقد صارت الصنعة في بعض الأحيان غالبيةً على الطبع، وصار الشعراء والكتاب أحوج إلى علاج شعرهم وكتاباتهم بالصنعة؛ وإضفاء الطابع الثقافي والفكري عليها بشكل لم يكن مألوفًا بهذا القدر في الأدب القديم، وكان

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/ ٤٨٤)، دار التقوى، القاهرة- مصر، ٢٠١٩م.

للتطور الفكري أثر على ألفاظ ومصطلحات العربية؛ فظهرت ألفاظ علمية وفلسفية وإدارية جديدة.

ومن الشعراء من تأثر بالحكمة والمنطق في أشعارهم، على نحو ما نرى في أشعار أبي تمام وأبي الطيّب المتنبي وأبي العلاء المعري وآخرين، وكان للتطور العقلي بصفة عامة أثر على الشعراء في أفكارهم ولا سيّما في غرض الحكمة؛ التي كان معظمها نابعًا من التجارب الذاتية أو الجوانب الدينية، على نحو ما نرى لدى الشعراء القدامى، فأصبحت مبنيةً على أصول علمية ومعرفية وفلسفية في العصر العباسي تبعًا لتطور العلوم العقلية.

وقد كان للترجمة أثر كبير على طبيعة الأدب؛ فقد اكتسب العرب خبرةً من خلال نقل العلوم والمعارف الأجنبية إلى العربية، ونعني بالخصوص نقل وترجمة الأعمال الأدبية والفلسفية، على نحو ما نرى في ترجمة عبد الله ابن المقفع لكتاب "كليلة ودمنة"، وكذلك ترجمة الآثار الفلسفية اليونانية وآراء أرسطاطاليس وأفلاطون وأرسطو وسقراط؛ إذ كان لذلك أثرٌ جليلٌ على الأعمال الأدبية؛ سواء في ذلك: الناحية المعنوية والناحية الأسلوبية، أما من ناحية المعاني والأفكار فقد اطلع العرب على أفكار جديدة، وفتحوا أمامهم آفاقًا واسعة، كما نرى في كتاب "المدينة الفاضلة" الذي ألفه الفارابي الفيلسوف متأثرًا فيه بأفكار أفلاطون في كتاب "الجمهورية"، وأما من ناحية الأسلوب فقد تغير إلى حدٍّ واضح عمّا كان عليه في العصور القديمة، فصار اللفظ أسهل وأسلس ليتناسب مع طبع الحياة الجديدة، وصارت التراكيب أبسط وأبعد عن التعقيد، مع ميل إلى الإطناب حتى يتسع الكلام لشرح تلك الأفكار الجديدة، وكان الميل إلى الإطناب ممّا اقتبسه العرب من الفرس، بالإضافة إلى المبالغة في العناية بالتدبيح والتنميق والتنقيح، وكل هذا كان له آثار على الارتقاء بالبلاغة ونضوج العقل العربي.

وكان لتطور العلوم أثر في ظهور ما عُرف بالثر التآليفي، وهو ما لم يكن موجودًا في العصور السابقة؛ إذ كان النثر قاصرًا على الخطب والرسائل والتوقعات

وبعض أخبار العرب وقصصهم، فتطوّر النثر ليشتمل على بعض الموضوعات العلمية والعقلية والعامة، على نحو ما نرى في مؤلفات الجاحظ وابن قتيبة، وقد تناولوا عددًا من الموضوعات العلميّة والعقلية بأسلوبٍ أدبي بليغ.

بل إن العلوم التطبيقية مثل الطب والهندسة والفلك والرياضيات قد ألقت بظلالها على الحياة الأدبية، رغم بعد موضوعها عن عالم الأدب؛ إذ ساهمت من عدة وجوه في ضبط كلام الأدباء والكتّاب وترتيب أفكارهم، والارتقاء بأسلوبهم وبلاغتهم، واتّسع نطاق موضوعاتهم، مع جودة اختيار اللفظ المناسب، كما فتحت لهم آفاق جديدة في الكتابة، ويكفي أن نعلم أن الذين كانوا يتقدّمون للعمل في الدواوين كان يتمّ اختبارهم اختبارًا عسيرًا لمعرفة مهاراتهم الأدبية والعقلية، وكان لا يجتاز الاختبار إلا من كان مُلمًّا بشتّى العلوم والمعارف حتى يرتقي ببلاغته ويوجد صناعته؛ وكانت معرفة الأديب أو الكاتب بالعلوم المختلفة -ومنها التطبيقية كالطب والفلك والحساب- من الأمور التي تمنحه الأفضلية على غيره في البلاغة، وتُكسب كتاباته مزيدًا من أوجه السموّ والإبداع. وقد تأثر الشعراء والأدباء بالثقافات الجديدة التي ظهرت في العصر العباسي من خلال عدة وجوه، وأضفى ذلك على أدبهم طوابع عقلية جديدة أثّرت على أذواقهم وأفكارهم.

وعلى الجملة فإن الشعر والنثر في العصر القديمة كان في معظمه معتمدًا على السليقة والطبع والأصالة العربية، أما في العصر العباسي فقد اكتسب مزيدًا من الآفاق الثقافية والفكرية التي أصبحت معيارًا مهمًا للبلاغة، وغلب مذهب الصنعة عوضًا عن السليقة التي تراجعت في هذا العصر، وعن الطابع البدوي الذي تراجع أيضًا بسبب اختلاط العرب بالعجم وانتشار التمدّن، وكان التطوّر العلمي في العصر العباسي سببًا رئيسًا لتطوّر الشعر ونشاطه في تلك الحقبة.

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٤٦٦/٣).

الشعر في العصر العباسي

(حاله ومذاهبه وخصائصه وطبقات الشعراء وأغراضهم التقليدية وملامح التجديد)

ازدهار الشعر في العصر العباسي:

رأينا كيف ازدهر الشعر في العصر الأموي لأسباب عديدة، والتي كان منها أسباب تتعلق بالجوانب السياسية؛ بسبب تعدد الأحزاب السياسية وتصارعها فيما بينها، وكان منها كذلك أسباب تتعلق بالعصبية العربية وسياسة بني أمية في فرض الطابع العربي والبدوي على الدولة، ولتلك الأسباب شجّع بنو أمية الحركة الشعرية في عصرهم وجنحوا إلى الشعر في تعزيد مواقفهم السياسية من جهة، وفي فرض الطابع العربي وتشجيع الآداب الجاهلية من جهة أخرى، فلمّا جاء العصر العباسي تلاشى ذلك؛ إذ مال العباسيون -كما أسلفنا- إلى عنصر الموالي، وشجّعوا اختلاط العرب بالعجم، وظهر على الساحة الشعراء المولّدون (أبناء الزواج المختلط بين العرب والعجم)، والموالي (أصحاب الأصول الفارسية) على غرار بشار بن برد وأبي نواس وأبي العتاهية، فضعفت العصبية العربية، وتلاشى الطابع البدوي وانحسر في البادية، كما ضعفت الحزبية السياسية في العصر العباسي، فاختفت معها الأسباب السياسية التي كانت تعزّد من نشاطه، صحيح أنّ من الشعراء من عُرفوا بميولهم السياسية في العصر العباسي، فبعضهم ناصَرَ الدعوة العباسية ولزم خلفاء بني العباس مثل سلم الخاسر، وبعضهم من آل البيت كالشريف الرضي، ومنهم من ناصَرَ التَّشيع مثل الصنوبري ومهيار الديلمي، إلا أنّ ذلك الطابع السياسي لم يكن بنفس القدر والوضوح الذي نراه في العصر الأموي.

ولكن إن كانت تلك الأسباب قد اختفت أو ضعفت؛ فقد كانت هناك أسباب جديدة أدّت إلى تطوّر الشعر وازدهاره في العصر العباسي، حتى فاق نموّه

وتطوُّره ما كان عليه في العصر الأموي، ومن أبرز أسباب ازدهار الشعر في العصر العباسي ما يلي:

(١) تطوُّر الحياة الاجتماعية والثقافية في العصر العباسي وما رافق ذلك من النمو العقلي والفكري وازدهار المعارف المختلفة؛ إذ أدَّى ذلك إلى تطور الشعر وازدهاره وتعدُّد أفكاره وموضوعاته وتغيُّر أساليبه، وكان الشعراء يلتمسون المعرفة من العلماء ومن الكتب المترجمة وأبواب الثقافة والفلسفة والمنطق ممَّا يعينهم على اتِّساع مداركهم واستنباط أفكارهم وتوليد معانيهم.

(٢) ظهور طبقة المؤلِّدين والموالي في صفوف الشعراء، وكان الشِّعر في العصر الأموي وما قبله قاصراً على الشعراء العرب، ويصعب أن نجد شاعراً من الموالى، فلمَّا جاء العصر العباسي؛ شجَّع الخلفاء العباسيون على اختلاط العرب بالعجم، ودعموا الفرس ومنحوا لهم فرصة للظهور، فظهر الشعراء المؤلِّدون؛ الذين كان لهم دور في تجويد الشعر العربي وترقيته.

(٣) كثرة وفود الشعراء على أبواب الخلفاء لمديحهم من أجل التَّكسُّب، وكذلك وفودهم على الوزراء والقادة وسائر الأمراء والحكام والملوك، ممَّا أدَّى إلى نشاط الشعر؛ حيث إن معظم الشعراء تكسَّبوا من شعرهم باستثناء عدد قليل.

وقد أدَّت تلك العوامل إلى ازدهار الشعر ونشاطه في العصر العباسي، وظهرت ملامح التجديد فيه بصورة أوسع مما كانت عليه في العصر الأموي؛ إذ إنَّ الشعر في العصر الأموي -كان على نشاطه- يُعد امتداداً للشعر الجاهلي في أغلب معانيه وسماته، بحيث لم تظهر فيه ملامح التجديد في المعاني والأفكار والأساليب، باستثناء بعض الموضوعات الجديدة وبعض الإرهاصات العفويَّة، أما الشعر العباسي فقد ظهرت فيه ملامح التجديد بوضوح، وفُتِحَت فيه آفاقٌ واسعة؛ إذ عَرَفَ ألفاظاً جديدة وأساليبٌ مختلفة في الأوزان والقوافي والمعاني المؤلَّدة، وعرف فنوناً وموضوعات مستحدثة وأغراضاً جديدة لم تكن مألوفة.

مذاهب الشعر في العصر العباسي:

إذا ما تتبّعنا مذاهب الشعر وخصائصه في العصر العباسي سنجد أنه من الناحية الأسلوبية والفنيّة قد انقسم إلى ثلاثة اتجاهات رئيسيّة؛ هي:

(١) الاتجاه المولّد (الاتجاه التجديدي الحديث):

وقد برز هذا الاتجاه مع بداية العصر العباسي وتزعّمه الشعراء المولّدون والموالي من الفرس، وأبرز سماته التّحرُّر من القيود القديمة والبعد عما اتصف به الشعر القديم من الجزالة والخشونة وفخامة الأسلوب، والميل إلى الأساليب السهلة والرقيقة واللّينة والبساطة في التعبير، وقد شاع هذا الاتجاه وكانت له الغلبة في العقود الأولى من العصر العباسي بسبب دخول الشعراء المولّدين على الساحة وتفوّقهم على الشعراء العرب.

وكان في بعضهم شعوبية؛ مثل بشار بن برد وأبي نواس، لذا فقد كانوا يميلون إلى اللّينة والأسلوب السهل، وينصرفون عن جزالة الشعر وفخامته، واتّصف هذا التيار أحياناً بالجنوح إلى المجون والخلاعة والزندقة والانغماس في الخمر والتّحرُّر من القيم العربية الأصيلة، ولكن كان في الجهة الأخرى مليئاً بالأخيلة البديعة والأساليب الرقيقة المستمدّة من روح العصر، ومن شعراء هذا الاتجاه: بشار بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية والحسين بن الضحاك؛ وقد حمل شعراء هذا الاتجاه لواء الثورة على بعض القيم التقليدية؛ كثورتهم على المقدّمة الطليعية، وتمزّدتهم على نظام القافية الموحّدة، وهجرهم للغريب من اللفظ.

(٢) الاتجاه التقليدي القديم:

وهو المذهب الداعي إلى الحفاظ على قوام الشعر وأصالته وطابعه الجاهلي القديم في نهج القصيدة ومعاني الشّعْر وصفاته الجاهلية، فهو لم يتأثّر بالحضارة المدنيّة ولم يجلّد في الشعر شيئاً؛ إذ ظلّ الشّعْر الجاهلي قدوته المثلى التي حذا حذوها، وهو اتجاه شعراء البادية الذين ضعف اتصالهم بالحضر ولم

^١ انظر: الحضارة الإسلامية، طه عبد المقصود أبو عبيّة (٢١٣/١).

يتمدّنوا، فظلّوا على السّليقة والطابع الجاهلي، ولم يذهبوا إلى الحواضر إلا في زيارة قصيرة أو لامتداح خليفة أو أمير أو حاكم، ومن شعراء هذا الاتجاه: مروان ابن أبي حفصة، وربيعه الرقي، وكثوم بن عمر العتابي، وناهض بن ثومة الكلابي العامري، وكانت البادية تمد الحاضرة بأمثالهم مثل ابن ميادة، وأبي حية النميري، وأبي ضمضم الكلابي، وابن عمّه أبي زياد، والعماني، وشبيل ابن عزة الضبعي، وأبي العَمَيْثِل، وعمارة بن عقيل حفيد جرير.

ويعتبر هذا الاتجاه أضعف الاتجاهات الشعرية في العصر العباسي؛ نظرًا إلى انعدام أثر البادية بسبب التمدن والحداثة وانحسار الطابع البدوي على البدو وأهل الصحراء، ومع هذا فقد ظلّ حاضرًا في العصر العباسي؛ لسببين: الأول: وجود بعض شعراء البادية ومن ضَعُف اتصالهم بالحضر ولا يفدون على الحواضر إلا من أجل المديح أو عرضًا، والثاني: دعم وتأييد عددٍ من علماء اللغة لهذا الاتجاه؛ حرصًا منهم على الحفاظ على سلامة الثقافة العربية والتراث الجاهلي، وتبعهم في ذلك الخلفاء الذين كانوا تلامذة لعددٍ منهم، حتى إن بعض الشعراء المؤلّدين وحملة شعلة التجديد مثل بشار بن برد وأبي نواس اضطروا إلى تكلف الأسلوب الأعرابي في شعرهم أحيانًا عند مديحهم للخلفاء حتى ينالوا رضاهم وجوائزهم.

(٣) الاتجاه التجديدي المحافظ:

وهو الاتجاه الداعي إلى التجديد وأخذ مظاهر الحضارة الحديثة مع الحفاظ على القيم الأصيلة الموروثة من التراث الجاهلي القديم والثقافة العربية، وهو ما يعني الخلط بين مدرسة التجديد والمدرسة المحافظة والجمع بينهما، وقد ظهر هذا الاتجاه متأخرًا قليلًا عن الاتجاه المؤلّد، وكان ظهوره ردًّا فعل على اشتداد الاتجاه التجديدي المؤلّد الذي أمعن في التخلّص من القيم العربية الأصيلة،

^١ انظر: تاريخ آداب اللغة العربية لرجي زيدان (٢ / ٥٧)؛ والحضارة الإسلامية، طه عبدالمقصود أبو عبّية (١ / ٢١٤).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣ / ١٣٨).

والإغراق في البعد عن الجزالة والفخامة وما يُكسب الشعر ملامح قوّته، وقد رأى أنصار اتجاه المحافظ أن الاتجاه التجديدي يمثل تهديدًا للأصالة العربيّة، ولا سيّما أن عددًا من أنصار هذا الاتجاه -كأبي نواس- قد اتّصفوا بشعبوية طاغية معادية للتقاليد والثقافة العربية القديمة، ويُعتبر كلّ من مسلم ابن الوليد وأبي تمام رائديّ الاتجاه المحافظ، الذي نجح في الظهور والاستمرار؛ لأنّه جمع أسباب نجاحه؛ من حيث تكيّفه مع روح العصر الطالبة لمظاهر التجديد من جهة، وحفاظه على مقوّمات التراث القديم المتمثّلة في الأصالة وقوّة السبك والأسلوب من جهة ثانية.

ورغم تأخر هذا التيار في الظهور فقد صارت له الغلبة فيما بعد، ولا سيّما بعد ضعف تيّار الشعراء المولّدين إثر تخليّ العباسيين عن العنصر الفارسي، وتراجع سلطة الفرس بعد نحو قرن من بدء العصر العباسي، ونكبة بعض أعلامهم مثلما ما حدث مع البرامكة الذين نكهم هارون الرشيد، فضلًا عن وقوع عددٍ من شعراء الاتجاه المولّد في براثن الشعوبية والزندقة وإمعانهم في المجون، فكانت تلك عوامل أدّت بعد حين إلى ضعف الاتجاه المولّد (التجديدي الحديث) بعد توهّجه مطلع العصر العباسي، وغلبة التيار التجديدي المحافظ عليه في القرون التالية، مع العودة إلى نبض الشعر الجاهلي القديم دون إغفال روح الحصر.

وكان غالبية الشعراء يمثّلون هذا الاتجاه، وقد اختلفت أساليبهم؛ فمنهم من أترّ الفخامة وقوّة البناء كمسلم بن الوليد وأبي تمام، ومنهم من مال إلى اللّيوننة وكان أسلوبه وسطًا مثل البُحتري وابن الرومي والصنوبري، ومنهم من غلب عليه الاتجاه البديعي كابن المعتز العباسي، ومن أنصار هذا الاتجاه أيضًا: علي ابن الجهم، وأبو فراس الحمداني، والشريف الرضي.

وقد بلغ هذا الاتجاه من الشعر قوّته وأوج ازدهاره في عصر أبي الطيب المتنبي شاعر العربية الأثير، وأبي العلاء المعري الشاعر والفيلسوف الفدّ، وقد بلغا

قمة الروعة في الجمع بين الحداثة والأصالة، قبل أن يتعرّض الشعر بعدهما إلى بعض التراجع وشيء من الجمود في أواخر العصر العباسي. ومن الجدير بالذكر أن المذهب المولّد قد غلب على شعراء العراق فأثروا الليونة والسهولة، بينما غلب المذهب التجديدي المحافظ على شعراء الشام فأثروا الجزالة وقوّة البناء، وأما المذهب المحافظ فقد غلب على شعراء البادية ومن لم يتمدّنوا.

مراحل العصر العباسي وشعراؤه:

بدأ العصر العبّاسي من سقوط الدولة الأموية وقيام الخلافة العباسية عام (١٣٢هـ/ ٧٥٠م)، واستمرّ حتى سقوط بغداد وانهايار الدولة العبّاسية عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، وهي حقبة طويلة امتدّت نحو خمسة قرون وربع قرن، وقد شهدت الدولة العباسية في تلك المدّة الطويلة تقلّباتٍ كثيرةً وأطوارًا عدّةً، تأرجحت بين القوة والضعف، والازدهار والانحطاط، والوحدة والتمزّق، لذا فقد احتاج مؤرّخو الأدب إلى تقسيمه إلى عصورٍ وفق التغيّرات السياسية والاجتماعية التي حدثت في ذلك العصر؛ فمثلاً كان الفرس هم من ناصرُوا الدعوة العباسية وقامت على أكتافهم الدولة واستمرّوا دهرًا عتاد الدولة وقوامها وجيشها، وطبّعوا الحياة الاجتماعية والثقافية بطابعهم، وتأثّرت ملامح الحياة العباسية بوجودهم، حتى إذا نحّاهم الخليفة المعتصم عن صدارة المشهد واستبدل بهم العنصر التركي؛ استبدّ الأتراك بالسلطة بعد ذلك، فنجد أن ملامح الحياة قد اختلفت بشكل واضح عما كانت عليه أول هذا العصر، ثم ما لبثت أن ضعفت الخلافة وسيطر عليها بنو بويه، ثم السلاجقة، وتمزّقت الدولة الإسلامية الواسعة إلى دويلات وإمارات صغيرة تأرجحت بين القوة والضعف، فاختلفت ملامح الحياة أيضًا، وكل ذلك قد ألقى بظلاله وآثاره على الحياة الأدبية إلى حدٍّ بعيد، حتى عرّف بعض مؤرخي الأدب تلك الحقبة بـ"الأعصر" العباسية؛ لأنها لم تكن عصرًا واحدًا.

والمؤرخون متفقون على تقسيم العصر العباسي إلى عصرين: العصر العباسي الأول (١٣٢هـ / ٧٥٠م - ٢٤٧هـ / ٨٦١م)، والعصر العباسي الثاني (٢٤٧هـ / ٨٦١م - ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، إلا أن هذا التقسيم كان وفق الاعتبارات السياسية، أما من الناحية الأدبية فقد اختلف مؤرخو الأدب في تقسيمه؛ فهناك من كان متوافقاً مع التقسيم السياسي وقسمه إلى عصرين: الأول والثاني المستمر حتى نهاية الخلافة، وهناك من قسم العصر الثاني وحده إلى عصرين؛ فختم العصر الثاني بسيطرة بني بويه على الخلافة، وسُمي ما بعد ذلك بالعصر العباسي الثالث المستمر حتى نهاية الدولة العباسية، مسمياً إياه بعصر الإمارات، وهناك من قسم العصر الثالث نفسه (عصر الإمارات) إلى عصرين: الثالث (عصر بني بويه)، والرابع (عصر السلاجقة وما تلاه)، جاعلاً العصر العباسي أربعة عصور، ونحن سنمضي في هذا الكتاب على تقسيم العصر العباسي إلى ثلاثة عصور رئيسية وفق اعتبارات سياسية وأدبية وزمنية؛ على النحو الآتي:

(١) **العصر العباسي الأول:** وهو عصر ازدهار الخلافة وقوة خلفائها؛ حيث بقيت الدولة موحدة تحت راية الخلافة العباسية - باستثناء المغرب والأندلس - وذلك من (١٣٢هـ / ٧٥٠م) إلى (٢٤٧هـ / ٨٦١م) أي: نحو ١١٥ سنة.

(٢) **العصر العباسي الثاني:** وفيه بدأت الخلافة تتدهور وتفقد هيبتها؛ حيث ضعف الخلفاء وتسلب عليهم الأجناد، وبدأت الدولة تتمزق وتظهر الدويلات المستقلة عن الخلافة، من (٢٤٧هـ / ٨٦١م) حتى استيلاء بني بويه على العراق واستبدادهم بالخلافة عام (٣٣٤هـ / ٩٤٥م)، واستمرت نحو ٨٧ سنة.

(٣) **العصر العباسي الثالث (عصر الإمارات):** وفيه فقدت الخلافة كامل سلطتها السياسية، وتحولت إلى مجرد رسم ورمز منذ استيلاء بني بويه عليها عام (٣٣٤هـ / ٩٤٥م) حتى زوال الدولة العباسية بشكل نهائي وسقوط بغداد بيد المغول عام (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، وقد استمر هذا العصر نحو ٣٢٢ عامًا،



وفيه انقسم العالم الإسلامي إلى عدة دول وإمارات مستقلة في جميع الولايات؛ بذهاب سلطان الخلافة السياسي وتحول الخلافة إلى مجرد رمز وشعار، وقد مرَّ هذا العصر بمراحل سياسية مختلفة؛ حيث وقعت الخلافة العباسية تحت سيطرة بني بويه الذين حكموا مساحات واسعة في بلاد فارس والعراق (٣٣٤-٤٤٧هـ / ٩٤٥-١٠٥٥م)، ثم تحت سيطرة السلاجقة (٤٤٧-٥٤٧هـ / ١٠٥٥-١١٥٢م)، ولم يكن هناك دولة للخلافة بشكل فعلي حتى عام (٥٤٧هـ / ١١٥٢م)، ورغم نجاح خلفاء بني العباس في استعادة سلطانهم الفعلي بعدما طردوا السلاجقة من بغداد وانفردوا بحكم العراق (٥٤٧-٦٥٦هـ / ١١٥٢-١٢٥٨م) وهي مدَّة أربت على قرن؛ فإن سلطانهم الفعلي لم يتجاوز العراق ولم يكن لهم أي نفوذ على سائر الأقاليم إلا في الخطبة والشعار؛ إذ كانت أقاليم الدولة الإسلامية في تلك المدَّة مستقلة فعليًّا عن الخلافة ولا تدين لها إلا بطاعة اسميَّة وبالذعاء باسم الخليفة في الخطبة.

وقد برز في تلك الأزمنة شعراء كثيرون؛ فقد العصر العباسي الأول عصر الشعراء المولَّدين، الذين كان على رأسهم بشَّار بن برد وهو شاعر مخضرم عاصر الدولتين الأموية والعباسية، ومنهم كذلك أبو نواس وأبو العتاهية، ومن شعراء هذا العصر كذلك مُسلم بن الوليد وحمَّاد عجرد ومروان بن أبي حفصة وصالح بن عبد القدوس وسلم الخاسر والعباس بن الأحنف وعلي بن الجهم وآخرون سنأتي على ذكرهم، بالإضافة إلى أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وهو أعظمهم صيتًا وأعلامهم قدرًا، أما العصر العباسي الثاني فاشتهر فيه البُحْثري وابن الرومي والصنوبري وابن المعتز، وأما العصر العباسي الثالث (عصر الإمارات) فهو العصر الذي بلغ الشعر فيه قَمَّةَ ازدهاره ونُموّه وتأثَّره بالعلوم والفلسفة، وخصوصًا في المدَّة التي حكم فيها بنو بويه؛ لأنهم شجعوا الآداب والمعارف؛ حيث برز في هذا العصر أبو الطيب المتنبي أعظم شعراء العربية، بالإضافة إلى أبي فراس الحمداني وأبي العلاء المعري والشَّريف الرضي وأخيه



الشريف المرتضى ومهيار الديلمي، قبل أن يضعف الشعر بعد ذلك إلى حدٍّ ما، وتمر الحركة الأدبية بشيء من الجمود منذ سيطرة السلاجقة على الخلافة حتى سقوط بغداد على يد المغول؛ حيث انتشرت الدول التركية والكردية في تلك المدة، ورغم مرور العالم الإسلامي ببعض الطفرات، فإنه شهد في تلك الحقبة عدة اضطرابات سياسية تمثلت في الحروب الصليبية وثورة الباطنية (الحشاشين)، وقد أثرت تلك الأحداث نوعاً ما على الحركة الأدبية؛ حيث توقَّف الشعر عن التجديد والابتكار، وغلب على شعرائه طابع التقليد والمحاكاة؛ حيث كانوا مقلِّدين أكثر مما كانوا مبدعين، وكان أجود الشعر في تلك المدة شعر الحماسة المصاحب للحروب الصليبية، وما قيل في التصوُّف.

وليس كل الشعراء تقيَّدوا في حدود تلك العصور؛ فقد عاصر بشَّار العصريين الأموي والعباسي الأول، وأدرك البحتري وابن الرومي وابن الجهم العصريين الأول والثاني، وهناك من أدرك العصريين الثاني والثالث؛ مثل أبي الطيب المتنبي، بينما أدرك البوصيري شطراً من العصر العباسي الأخير والعصر التالي وهو عصر الدول التركية والإمارات المتابعة.

خصائص الشعر العباسي:

الشعر بوجهٍ عام مرآةٌ لعصره ومعبّرٌ عن خصائصه وملامحه؛ إذ نرى في العصر الجاهلي من ملامح الخشونة وطابع الجزالة وفخامة اللفظ وقوة الأسلوب ما يعبر عن سمات العصر الجاهلي، ونرى ملامح التَّدُّين في الشعر الإسلامي الذي يصف سمات عصر صدر الإسلام وأثر الإسلام فيه، وكذلك الشعر السياسي الذي يُعبّر عن طبيعة الحياة السياسية والنزاع الحزبي في العصر الأموي، ونرى الألفاظ الجزلة والفخمة التي تعبّر عن أصالة الطابع البدوي، والألفاظ اللَّيِّنَة والأساليب السهلة التي تعبّر عن حالة المدنيَّة والتَّرف. والأمر نفسه في العصر العباسي الذي عبّر الشعر بخصائصه اللفظيَّة وجوانبه المعنويَّة عن التَّطوُّر الثقافي والفكري الذي بلغ أوج ازدهاره في العصر العباسي، وكانت كما يلي:

(١) الخصائص اللفظية: كانت ألفاظ الشّعر في العصر العباسي أيسر وأقرب إلى السهولة واللّيونة؛ إذ رغب الشعراء عن الألفاظ الصّعبة ووحشي الكلام؛ تماشيًا مع حالة الترف في العصر العباسي، وقد تنوّعت الخصائص اللفظية بين شعراء هذا العصر؛ فمنهم من بالغ في اللّيونة والسهولة كأبي نوّاس، ومنهم من مال إلى الجزالة وفخامة البناء وقوّته كمسلم بن الوليد وأبي تَمّام، وقد جمع بشار بن بُرد في أسلوبه بين المذهبين، ولكن تطبّع شعره أكثر بطابع السهولة، ومنهم من كان أسلوبه وسطًا مثل البُحْثري وابن الرومي وأبي الطيب المتنبي.

وليس معنى يُسر الألفاظ في الشعر العباسي أن الغريب قد اختفى تمامًا، أو أن الجزالة قد انتهت عصرها؛ بل نجد بعض الشعراء قد تكلفوا الغريب في لفظهم في بعض الأحيان؛ مثل بشار بن برد، وإن كان عموم أسلوبه سهلًا لِيَنّا، وهناك مسلم بن الوليد الذي لم يخلُ شعره من الغريب وطابع الجزالي، ومثله أيضًا أبو تَمّام، وقد تكلف أبو العلاء المعري أواسط العصر العبّاسي في ديوانه "اللزوميات" اللفظ الغريب في عدّة مواطن، حينما قيّد نفسه بلزوم ما لا يلزم، ولكن على الجملة صار الشعر العباسي أيسر لفظًا، وفيه قدرٌ من التنقيح والتدبيج والتأنق في اختيار أنصع الألفاظ وأجزلها، وألينها وأرشفها.

والحقُّ أنَّ المؤلّدين هم من أرسوا هذا الأسلوب الجديد، وعُرف أسلوبهم هذا بالأسلوب المؤلّد، وهو الأسلوب الذي شاع في صدر هذا العصر وترك أثرًا بعد ذلك، "وهو أسلوب قام على عتاد من القديم، وعدّة من النوق الحضري الجديد"؛ إذ إنهم على ثورتهم واندفاعهم نحو التجديد؛ كان أسلوبهم معتدلًا محافظًا على مادة اللغة ومقوّماتها وقواعدها النحوية والصرفية، فكان أسلوبهم اللفظي وسطًا دون ألفاظ البدو الجزلة والوحشية، وأرقى من ألفاظ العامة المبتذلة، وبين الجزالة والابتذال^١.

^١ انظر: المصدر السابق (٣/ ١٤٦).



وقد أدخل المولّدون على شعرهم ألفاظاً فارسية جديدة أو مُعرّبة؛ تأثّرًا بطابعهم الفارسي، ومن نماذج تلك الألفاظ ألفاظ مولّدة، وهي صيغ مشتقة من جذور عربيّة نحو "تلاشى" بدلًا من "اضمحَلَّ"، و"استأهل" بمعنى "استحقَّ"، و"الإيقاع" بمعنى الضرب على الدُفِّ، وبدأ ظهور لفظ "أدب" الدّال على معنى الشعر والنثر، وظهر عندهم توليد المعاني في استعمال بعض الصيغ العربية القديمة لتأدية معاني مختلفة مثل: "استعرض" التي تعني في الجاهلية "قتل بالسيف"، وصارت تعني تصفّح الأوجه المختلفة، ومن بين الألفاظ الجديدة الألفاظ المُعرّبة "إقليم" من "كليما" اليونانية، وكلمة "هندسة" من "أندزة" الفارسية، وهناك ألفاظ دخيلة؛ وهي التي دخلت العربية بنفس تأديتها؛ مثل: "أبازميا" و"اسطقس" و"اسطرونوميا"، وقد وُجدت لها لاحقًا ألفاظ عربيّة: "الوباء" و"العنصر" و"الهيئة أو الفلك"، وبعضها دخل في فلك العربية دون الحاجة إلى تعريبها مثل: "قانون"، "جغرافيا"، "أسطرلاب".^١

(٢) الخصائص المعنوية: كانت مظاهر الطابع البدوي وغلبة الفطرة هي الغالبة على الشعراء القدامى، أما العصر العباسي فمع هذا الانقلاب المجتمعي وما شهده العرب من مظاهر الاختلاط والتحضّر والتّمدّن، وما حدث من تطوّر علمي وثقافي بفعل الترجمة والتدوين وازدهار العلوم والمعارف؛ نرى تأثّر الشعراء بذلك في معانيهم وأفكارهم، فقد تأثّروا بعلوم الفلسفة التي جعلت معانيهم أكثر عمقًا ودقّة، فاقتبس الشعراء عدة معاني علمية وفلسفية، كما ظهرت في معانيهم طوابع عقليّة جديدة، لاح فيها قدر من التأمّل الدّاتي والتّفكّر العقلي، وهو ما دفع الشعراء إلى استقصاء الأفكار وتوليد المعاني والإتيان بالأخيلة المبتكرة والخيال الخصب، والميل إلى اصطناع التشبيهات والاستعارات والتصوير الشعري، وصار في شعرهم ألوانٌ من المعاني الجديدة والأغراض غير المألوفة؛ المستنبطة من روح

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٤٠ - ٤١).

العصر، وكثرت في الشِّعر الحِكم المنقولة من التراث الأجنبي وخاصة التراث الفارسي، كما صارت القصائد في العصر العباسي تتَّصف بوحدة الموضوع بشكل أوضح مما كانت عليه في العصور القديمة.

(٣) الأسلوب والتراكيب: أما الأسلوب فقد دخله شيء من الضعف وفقد بعضاً من قوّته، ولكنّه اكتسب في المقابل رِقَّةً في التعبير، وظهر فيه قدرٌ من التكلُّف والميل إلى الصنعة الأسلوبية (الجناس والطباق والمقابلة)، وظهر كذلك ميل إلى الأوزان الخفيفة والمجتزأة التي كانت قديماً مهجورة أو شبه مهجورة، وظهرت المقطوعات القصيرة؛ وقد بدأ ظهور تلك الأوزان القصيرة والمهملة مع العصر الأموي إلا أنّها شاعت بقدر هائل مع الشعراء المولّدين وسواهم في العصر العباسي؛ مع شيوع اللهو والترف والحانات، وهو ما سنفضِّله في حديثنا عن مظاهر التجديد في العصر العباسي. وليس معنى ضعف الأسلوب وميله إلى الرِقَّة أن الأسلوب القوي قد اختفى؛ فقد ظهر عددٌ من الشعراء الذين اعتنوا بقوة أسلوبهم وتراكيبهم مثل مُسلم بن الوليد وأبي تمام الذي مال إلى الصنعة واللفظ الفخم مع قوّة أسلوبه وغازاة معانيه.

والشعر العباسي إجمالاً هو مرآة لعصره وخصائصه، وصورةٌ معبّرةٌ عن أثر الحضارة وملامح الحياة الجديدة فيه، بملامحها الاجتماعية والفكرية والثقافية، سواء أكان ذلك في ألفاظه وتراكيبه، أم في معانيه وأفكاره وصياغته، وكذلك في أغراضه وموضوعاته التقليدية، وفي محاولات التجديد فيه؛ إذ أثّرت فيه عناصر تلك الحياة من الترف والزهد وحركات الوعظ والسمات المجتمعيّة من التأنّق في المأكل والملبس والمشرب، وكذلك جوانب التّطوّر الثقافي والفكري وتطوّر العلوم والمعارف وحركة التدوين والترجمة.

^١ انظر: المصدر السابق (٢/ ٤٠).

التجديد في الأغراض التقليدية:

(١) المديح:

نشط المديح في العصر العباسي وراجت بضاعته إلى حدٍ بعيد، وجرت عادة الشعراء على الوفود على أبواب الخلفاء لامتداحهم ونيل عطاياهم؛ إمعاناً في الكسب، وهذا بحد ذاته كان تغَيُّراً جذرياً في طبيعة الشعر وأهدافه؛ حيث كان التَّكسُّب في المديح أمراً يحطُّ من قدر الشاعر في الجاهلية، فصار طبيعياً ومعتاداً في العصر العباسي، بحيث يصعب أن نجد شاعراً في العصر العباسي لم يتكسَّب بشعره، وكان الشعراء القدامى يرسمون في ممدوحهم مظاهر السُّمُوِّ ومثالية الخُلُق الرفيع من السماحة والكرم والحزم والشجاعة وعلوِّ الهِمَّة، إلا أننا نجد الشعراء العباسيين قد أضافوا إلى تلك المعايير مثاليَّة الحكم والعدل وتقوى الله، وربطوا ذلك بالجانب الديني؛ إذ صار الخليفة هو حامي الدِّين، يمضي على خطاه، فهو من اختاره الله لحفظ دينه وعباده، ويوضح ذلك قول أبي العتاهية يمدح هارون الرشيد ويذكر توليته العهد لثلاثة من أولاده من بعده:

وَرَاعٍ يُرَاعِي اللَّيْلَ فِي حِفْظِ أُمَّةٍ	يُدَافِعُ عَنْهَا الشَّرَّ غَيْرَ رَقُودٍ
بِالْوِيَّةِ جَبْرِيلُ يَقْدُمُ أَهْلَهَا	وَرَايَاتُ نَصْرِ حَوْلَهُ وَبُنُودٍ
تَجَافَى عَنِ الدُّنْيَا وَأَيَّقَنَ أَنَّهَا	مُفَارِقَةٌ لَيْسَتْ بِدَارِ خُلُودٍ
وَشَدَّ غُرَى الْإِسْلَامِ مِنْهُ بِفِثْيَةٍ	ثَلَاثَةٌ أَمْلَاكَ وُلَاةٍ غُهُودٍ
هُمْ خَيْرُ أَوْلَادٍ لَهُمْ خَيْرُ وَالِدٍ	لَهُ خَيْرُ آبَاءٍ مَضَتْ وَجُودُودٍ

^١ ديوان أبي العتاهية، شرح: مجيد طراد (ص ١٣٧)، دار الكتاب العربي، لبنان، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

ومن أبرز ملامح المديح في العصر العباسي ما رافق ذلك من مبالغة وإمعان في التملُّق والتزُّلف لا نراه في الشعر القديم، حتى تصل حدوده أحيانًا إلى صور ممقوتة واضحة الكذب؛ كقول أبي نؤاس يمدح هارون الرشيد:

وَأَخَفْتُ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

ويقول أيضًا في موضع آخر مادحًا الأمين بن هارون الرشيد:

سَخَّرَ اللَّهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا لَمْ تُسَخَّرْ لِصَاحِبِ الْمِحْرَابِ

فهو في الموضع الأول جعل النطف التي لم تُخلق تخاف من هارون الرشيد لحزمه وقوته، وهو ما لا ينبغي أن يكون إلا لله تعالى، وفي الثانية يقدِّم الخليفة الأمين على صاحب المحراب وهو سليمان بن داود عليه السلام، وهذا لونٌ من المبالغة الممقوتة والتزُّلف المجاوز للحدِّ، وكلُّها بجانب الرغبة في التَّكسُّب كانت تُضعف من عاطفة الصِّدق في المديح وتحطُّ من قدره وليس العكس، وسبب ظهور ذلك هو ضعف النوازع الديني الذي اتَّصف به أبو نؤاس وعدد من الشعراء المؤلِّدين، حتى اجتروا إلى هذا الحدِّ.

وقد مضى الشعراء في مديحهم يصفون إنجازات الخلفاء، وانتصاراتهم الحربية في حروبهم الخارجية ضد الروم، وفي القضاء على الثورات والفتن الداخلية؛ كانتصارات الخليفة هارون الرشيد وولده المعتصم على الروم، وقضاء المعتصم على ثورات بابك الخرمي وخلافها، وربما ربط بعض الشعراء مديحهم بوصف المدن؛ كما فعل البحري وابن الرومي حينما مدحا المتوكل واصفَّين بعض قصوره وأبنيته؛ حيث كان شغوفًا بالبناء^١.

ولم يقتصر المديح على الخلفاء وحدهم؛ بل شمل كذلك مَنْ برز من الوزراء والقادة والكتَّاب ورؤساء الدواوين؛ مثل: يزيد بن مزيد الشيباني القائد العباسي

١ ديوان أبي نؤاس (ص ٣٨٢)، شرح: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، طه، ١٤٤٣هـ- ٢٠٢١م.

٢ المصدر السابق (ص ٧١).

٣ انظر: زهر الأداب وثمر الألباب، أبو إسحاق الحصري القيرواني (١/ ١٧٩- ١٨١)، دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠١١م.

الشهير زمن المهدي والرشيد، وكذلك ولده خالد بن يزيد، وأحمد بن أبي دؤاد القاضي من رجال المأمون والمعتصم والواثق، وابن الزيات وزير المعتصم والواثق، والفتح بن خاقان نديم المتوكل، وإسماعيل بن بلبل، ولعل أسرة لم تحظ بالمديح مثلما حظي البرامكة وزراء هارون الرشيد ورجال دولته؛ حيث عُرفوا بالكرم والجود والبذل والكفاءة، فالتف حولهم الشعراء ومدحوهم، إلى أن نكسهم هارون الرشيد عام (١٨٧هـ / ٨٠٢م) على ما نحو ما حدث مع المهالبة زمن بني أمية، ومن الشعراء الذين مدحوهم أبان بن عبد الحميد اللّاحقي، ومحمد بن منذر، والفضل بن عبد الصمد الرقاشي، وأشجع بن عمرو السلي، ومن الأسر التي مدح الشعراء قاداتهم: بنو طاهر، وبنو سهل، وآل وهب، ومن نماذج المديح ما قاله مسلم بن الوليد في يزيد بن يزيد الشيباني:

لَوْ لَمْ تُجِبْكَ جُنُودُ الشَّامِ طَائِعَةً أَضْرَمْتَ فِيهَا شِهَابَ الْمَوْتِ إِضْرَامًا

وليس معنى غلبة التّكسُّب على المديح وما فيه من مبالغة وإغراق في التّزلف أن المديح كلّ من هذا القبيل لديهم من انعدم صدق العاطفة؛ بل حفظ الأدب العباسي عددًا من قصائد المديح التي نُحِس فيها صدق العاطفة فعلاً، وذلك حينما يربط الشاعر مديحه بحدثٍ دينيٍّ أو بإنجازٍ عظيم؛ مثلما فعل أبو تمام حينما مدح المعتصم واصفًا انتصاره على الرُّوم في موقعة عمورية، وكما فعل بعض الشعراء في حروب العباسيين ضد ثورة الرّنج وثورة القرامطة؛ وكذلك إذا كانت علاقة الشاعر بممدوحه قويّة، كما كان حال أبي الطيب المتنبي مع سيف الدولة الحمداني أمير حلب؛ حيث مدحه بقصائد جياذ خلّدها التاريخ. وتظهر ملامح التّحضُّر في العصر العبّاسي في بعض المدائح التي نظمها الشعراء العباسيون للخلفاء على بحور وأوزان خفيفة، وهو ما لم يكن مألوفًا من قبل؛ كقول أبي نواس في مدح الأمين:

إِنَّ الْخِلَافَةَ لَمْ تَزَلْ تَزْهُو وَتَفْخَرُ بِالْأَمِينِ

١ ديوان مسلم بن الوليد (ص ٦٨)، تحقيق: سامي الدهان، دار المعارف، القاهرة، ط ٣.

٢ ديوان أبي نواس (ص ٥٥٠).

وَتَحِنُّ مِنْ شَوْقٍ إِلَيَّ فِيهِ حَنِينٌ دَائِمَةٌ الْحَنِينِ
بَذَرُ الْأَنْامِ مَحْمَدٌ أَخَذَ الْمَكَارِمَ بِالْيَمِينِ
وَابْنُ الْخَلَائِفِ وَالَّذِي سَبَقَتْ بِهِ طَيْبُ الْغُصُونِ

وما إن ننتهي إلى العصر العباسي الثاني حتى تتدهور أمور الخلافة وتضطرب هيبتها ويضعف الخلفاء وتنحط سطوتهم، فيقل مع ذلك أثر المديح، صحيح أن المديح قد نشطت تلك المدة واستمر الشعراء في توافدهم على الخلفاء، ومن أشهر الشعراء الذين وفدوا على الخلفاء آنذاك: البُحْثري وابن الرومي، بيد أن مديحهم لم يترك أثراً كما كان في العصر الأول؛ نظراً إلى ضعف الخلفاء، ولكون هذا المديح تكسبياً من الدرجة الأولى، صحيح أن التَّكْسُّب كان سمة في المديح منذ البداية، ولكن الخلفاء العباسيين في العصر الأول كان لهم على الأقل من النفوذ والإنجازات والانتصارات الحربيّة ما يجعلهم جديرين، أما خلفاء العصر الثاني فقد كانوا ضعافاً، وقعوا تحت سيطرة القادة الأتراك، ولم يكن امتداحهم صادقاً ولا موافقاً لأحوالهم، ولهذا لم يترك أثراً، باستثناء ما قيل في أبي أحمد الموفق وليّ عهد المعتمد؛ الذي اتّصف بالشجاعة؛ حيث وصف الشعراء انتصاراته على ثورة الزنج، وكذلك ولده الخليفة المعتضد الذي كان قوياً وردياً إلى الخلافة في عصره بعض هيبتها، يقول ابن الرومي مادحاً إيّاه:

هَنِيئًا بَنِي الْعَبَّاسِ إِنَّ إِمَامَكُمْ إِمَامُ الْهُدَى وَالْجُودِ وَالْبَاسِ أَحْمَدُ
كَمَا بِأَبِي الْعَبَّاسِ أَنْشَى مُلْكُكُمْ كَذَا بِأَبِي الْعَبَّاسِ مِنْكُمْ يُجَدِّدُ^٢

ويعبر عن عدم صدق معظم المديح في تلك الكدة موقف ابن الرومي في بعض الأحيان حينما مدح بعضاً من الخلفاء والقادة، فلمّا لم يجزّلوا له العطاء انقلب

١ ديوان ابن الرومي، شرح: أحمد حسن بسج (١/ ٤٢١)، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، ط٤، ٢٠٠٩م.

٢ يعني بأبي العباس الأول الخليفة أبا العباس السفاح مؤسس الدولة العباسية، ويعني بالثاني أبا العباس المعتضد الذي جدّد مجد آبائه.

وهجاهم، وشكا ذلك في شعره، ومع هذا استمر المديح نشطاً بحق خلفاء بني العباس حتى سيطر بنو بويه على الخلافة.

ولكن إن كان المديح قد ضعف أثره بحق الخلفاء؛ فإنَّه بقي نشطاً بحق حكام وأمرأء الدول المستقلة مثل: سيف الدولة الحمداني أمير حلب، وكافور الإخشيدي حاكم مصر، وعضد الدولة ابن بويه حاكم العراق، وحكام الفاطميين والغزنويين وسواهم، بالإضافة إلى بعض الوزراء والكتّاب مثل: ابن العميد الكاتب وزير ركن الدولة البويه، والصاحب بن عباد الكاتب الشهير؛ حيث اهتم هؤلاء الحكام والوزراء بالعلم والمعرفة والأدب، واعتنوا بالشعراء وبالغوا في إكرامهم، فنشط بحقِّهم المديح.

ومن نماذج المديح في تلك المدة ما قاله أبو الطيّب المتنبي مادحاً سيف الدولة الحمداني حاكم حلب، واصفاً شجاعته في الحروب وإجهازه على خصومه، في صورة بديعة يظهر فيها عمق خياله وبُعد أفقه:

نَهَبْتَ مِنَ الْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ لَهُنَّ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدُ
فَأَنْتَ حَسَامُ الْمُلْكِ وَاللَّهُ ضَارِبٌ وَأَنْتَ لَوَاءُ الدِّينِ لِلَّهِ عَاقِدُ

وفي موضع آخر يقول في سياق من الفخامة والمبالغة:

تَظَلُّ مَلُوكُ الْأَرْضِ خَاشِعَةً لَهُ تَفَارُقُهُ هَلَكَى وَتَلْقَاهُ سُجْدًا

(٢) الرثاء:

استمر الشعراء العباسيون على نهج القدامى في رثاء الخلفاء والقادة والأعيان وذكر حُسن مناقبهم وصفاتهم، ويدخل في ذلك ما كان من التعزية في فقد بعض الأهل أو الولد، ومن هذا القبيل رثاء أبي نؤاس للخليفة الأمين بعد مقتله قائلاً:

طَوَى الْمَوْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَيْسَ لِمَا تَطْوِي الْمَنِيَّةَ نَاشِرُ

١ ديوان المتنبي، مراجعة: د. يوسف البقاعي (ص ٥٩)، دار الكتاب العربي، لبنان- بيروت، ٢٠١٤م.

٢ المصدر السابق (ص ٦٠).

٣ ديوان أبي نؤاس (ص ٢٨٤).

فلا وصل إلا عبرة تستديمها أحاديث نفسٍ ما لها الدهر ذاكرُ
ولأبي تمام مراثياتٌ بديعة غاية في الورعة؛ منها مراثيته لرجلٍ يدعى غالباً
الصغدي؛

هو الدهر لا يشوي وهنّ مصائبُ وأكثرُ آمالِ النفوسِ كواذبُ
فيا غالباً لا غالبٌ لرزيةٍ بل الموتُ لا شكَّ الذي هو غالبُ
وقد امتاز الرثاء في الشعر العباسي بأنه كان يفيض حُزناً ولوعةً وصدق عاطفةً،
بجانب تمجيدٍ لمحاسن وبطولاتٍ المرثيين، على نحو ما نرى في مراثي محمد ابن
حُميد الطوسي قائد الخليفة المأمون الذي استشهد في حروبه ضد الخرمية،
وكذلك يزيد بن مزيد الشيباني القائد العباسي الشهير في عهد المهدي والرشيد؛
حيث كانت له انتصارات جليّة، وكان لابن الزيات مراتٍ في زوجته، وكذلك ما
ورد من رثاء بحقّ البرامكة من بعض الشعراء الموالين لهم رغم نهّي الرشيد عن
رثائهم.

ولعلّ شاعراً لم يشتهر بالرثاء ويُعرف به كما عُرف ابن الرومي؛ الذي مرّ في
حياته بفجائع عدّة تمثّلت في فقده لوالده ووالدته وزوجته وأخيه وأولاده تبعاً،
وكانت لتلك الفجائع في نفسه أثرٌ عظيم؛ حيث كان يبالي في تشاؤمه ويتطأّر،
وقد وصف حزنه بعدّة قصائد باكية تفيض تفجّعاً ولوعةً وحسرةً، ومن مراثياته
قوله يرثي محمد بن عبد الله بن طاهر:

إنّ المنية لا تُبقي على أحدٍ ولا تهابُ أخا عزٍّ ولا حشدٍ
هذا الأميرُ أتته وهو في كنفٍ كالليل من غدٍ ما شئت أو غدٍ

ومن أبرز ملامح التجديد في فنّ الرثاء ظهور النبرة الذاتية في بعض الأحيان،
ونجد ذلك جليّاً عند ابن الرومي أيضاً؛ الذي لم يكتفِ برثاء أولاده وأهله

١ ديوان أبي تمام (ص ٣٣٧)، شرح: شاهين عطية، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط ٤، ٢٠٠٩ م.

٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ١٧٠ - ١٧٣).

٣ ديوان ابن الرومي (١/ ٤٠٥)، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، ط ٤، ٢٠٠٩ م.

والأعيان فحسب؛ بل نراه يتَّجه إلى لونٍ آخر من الرثاء حينما يرثي شبابه الفاتت قائلًا:

قد كنتُ أبكي من صريمة خُلَّةٍ كان الشَّبَابُ مُعَوِّضِي أمثالها
فالآن حُقَّ لي البكاء على الذي كان المُضْمَنَ عَطْفُهَا وَوَصَالُهَا

ولم يعد الرثاء مقصورًا على الخلفاء والقادة والأعلام؛ بل امتدَّ حتى شمل الجوّاري، وهو ما لم يكن مألوفًا في العصور القديمة، وقد برزت للجوّاري منزلةٌ جذبت إليهم قدرًا من أشعار الرثاء والغزل؛ ومن ذلك رثاء يعقوب بن الربيع لجارية له كان يطلبها لسبع سنين حتى اجتمع له المال وملكها، فلم تَبَقَ عنده غير ستّة أشهر ثم توفيت، فقال يرثيها:

أضحوا يصيدون الطِّبَاءَ وإنني لأرى تصيِّدُها عليّ حراما
أشَبَّهَنَ منك سَوالفًا ومَدامعًا فأرى بذاك لها عليّ ذِماما
أعزِرُ عليّ بأن أروِّعَ شِبْهَها أو أن تَذوقَ على يَدَيَّ حِماما

ومن مظاهر التجديد في الرثاء ما نراه كذلك من روح الفكاهة والمزاح أحيانًا؛ حيث نجد الصنوبري مثلاً يبكي رداءً له احترق، راثيًا إيَّاه في صورة فكاكية وكأنَّه شخص حَزَنَ عليه:

كانَ رفيقي صدرَ النَّهارِ ولي في اللَّيلِ منه صنوفُ أرفاقِ
مُفَرَّمَةٌ كانَ لي ومُنْشَفَةٌ ومُزَرًّا فاضلاً عن السَّاقِ
وكانَ سِتْرًا لِبابِ بَيْتِي أَحَدَ يائناً وجِيئاً لِحافِ طُرَاقِي
وكنْتُ أَهْوَى لَهُ البقاءَ لِكَي يكونَ نُحْرًا لِعَقْبِي الباقي

^١ المصدر السابق (٣/ ١٠٩).

^٢ نزهة الألباء في طبقات الألباء، ابن الأنباري (ص ٦٦)، تحقيق: رياض مصطفى عثمان، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.

^٣ ديوان الصنوبري (ص ٣٦٦)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٨م.

ومثله مضى كشاجم (ت: ٣٦٠هـ) يرثي قدحاً له انكسر، في صورة فكاهية لا تخلو من الظرف؛ إذ يقول:

وَعِنْدِي فَجَائِعٌ لِلنَّائِبَاتِ وَلَا كَفَجِيعَتِهَا بِالْقَدَحِ

ومن مظاهر التجديد كذلك في فن الرثاء رثاء المدن؛ حيث قام الشعراء برثاء بعض المدن التي حدث فيها خراب نتيجة الحروب والمعارك؛ ومن ذلك رثاء ابن الرومي لمدينة البصرة بعدما هاجمها الزنج وأحدثوا فيها خراباً ومقتلة عظيمة؛ إذ يقول:

ذَاذَ عَنْ مُقْلَتِي لَذِيذَ الْمَنَامِ شَغُلُهَا عَنْهُ بِالْذُّمُوعِ السِّجَامِ
أَيُّ نَوْمٍ مِنْ بَعْدِ مَا حَلَّ بِالْبَصْرِ رَعَى مِنْ تِلْكَمُ الْهَنَاتِ الْعِظَامِ
أَيُّ نَوْمٍ مِنْ بَعْدِ مَا انْتَهَكَ الزَّيْنُ سَجَّ جَهَارًا مَحَارِمَ الْإِسْلَامِ
إِنَّ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ لِأَمْرٌ كَادَ أَنْ لَا يَقُومَ فِي الْأَوْهَامِ

وقيل قبل ذلك في رثاء بغداد إثر الخراب الذي حلَّ بها في صراع الأمين مع أخيه المأمون على الخلافة، الذي انتهى بقتل الأمين:

أَلَا ابْنُكَ لِإِحْرَاقِ وَهْدَمِ مَنَازِلِ وَقَتْلِ وَإِنْهَابِ اللَّهِى وَالذَّخَائِرِ
وَإِبْرَارِ رَبَّاتِ الْخُدُورِ حَوَاسِرًا خَرَجْنَ بِلَا خُمْرٍ وَلَا بِمَآزِرِ
كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَغْدَادُ أَحْسَنَ مَنَظَرًا وَمَلْهُى رَأْتُهُ عَيْنٌ لَاهٍ وَنَاطِرِ

ولا نبعد كثيرًا عن الصواب إن قلنا: إن رثاء المدن لم يكن نتيجة الأحداث السياسية فحسب؛ ولكنّه كان بجانب ذلك أيضًا مظهرًا من مظاهر تأثر الشعراء العباسيين بمظاهر التمدن والحضارة والتطور الفكري والثقافي الذي كان من سماته تشييد المدن والقصور.

١ ديوان كشاجم (ص ٥٨)، شرح: مجيد طراد، دار صادر، بيروت- لبنان، ط ١، ١٩٩٧م.

٢ ديوان ابن الرومي (٣/ ٣٣٨).

٣ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ١٧٤).

(٣) الهجاء:

كثر الهجاء في الشعر العباسي، وتغيّرت ملامحه من عدة وجوه؛ إذ اختفى الهجاء القَبلي تقريبًا بعد ضعف العصبية العربية، واختفت النقائص التي شغلت بال الشعراء في العصر الأموي، وظهر في الشعر قدرٌ كبير من الفُحش والهجوم اللَّاذع والتهنُّك والنَّيل من الأعراض ومواضع العقَّة في غير تسرُّ ولا حياء؛ وذلك بسبب شيوع مظاهر المجون والخلاعة، وضعف الوازع الديني لدى عددٍ من الشعراء المولَّدين، ومن الهجاء ما كان شخصيًا، ومنه ما كان سياسيًا.

ولعلَّ بشار بن بُرد أحد أبرز الشعراء الذين برزوا في الهجاء؛ إذ عاصر مطلع حياته اشتعال النقائص بين جرير والفرزدق، فأشبع قلبه به حتى اعتاد عليه، وكان بشار فاحشًا، بذى اللسان، كثير الهجاء، متعرِّضًا للأعراض؛ إذ يقول في إحدى هجائياته:

وعندي من أبيك الوغدِ علمٌ ومن أمِّ بها جمحُ الفتاءِ
أبوك إذا غدا خنزيرٌ وحشٍ وأمُّك كلبه فيها بذاءِ

وفي صورةٍ أخرى يقول معرِّضًا بالأم والعرض:

عليك بأولاد الزنا أنت منهم وما لك في أهل الزكاءِ وساد

وربما شغلت روح الفكاهة حيِّزًا في الهجاء كما نرى لدى بشار أيضًا يهجو جليسا ثقيلاً، قائلاً:

رُبَّما يثقلُ الجليسُ وإنْ كا نَ خفيفًا في كِفَّةِ الميزانِ
ولَقَدْ قُلْتُ إذْ أَطَلَّ عَلَى القَو مِ ثَقِيلٌ يُزْبِي عَلَى ثَهْلانِ
كَيْفَ لَا تَحْمِلُ الأمانةَ أرضُ حَمَلَتْ فَوْقَهَا أبا سُفْيانَ؛

^١ ديوان بشار بن برد، شرح محمد مهدي ناصر الدين (ص ٣٠)، دار الكتب العلمية، لبنان-بيروت.

^٢ المصدر السابق (ص ٤٠٣).

^٣ المصدر السابق (ص ٦٠٩).

^٤ ثهلان: اسم جبل.

وفي صورة مماثلة يقول أبو نواس!

شَهِدْتُ الْبِطَاقِيَّ فِي مَجْلِسٍ وَكَانَ إِلَيَّ بَغِيضًا مَقِيئًا
فَقَالَ اقْتَرِحْ بَعْضَ مَا تَشْتَهِي فَقُلْتُ اقْتَرَحْتُ عَلَيْكَ السُّكُوتَا

وقد برز في الهجاء غير بشار وأبي نواس كثيرون؛ مثل أبي عُيينة المهلي، وعبد الصمد بن المعذل، وابن بسام، وعُرفت هجائيات عديدة؛ مثل ما كان بين بشار وحمّاد عجرد، وما كان بين حماد عجرد ومُطِيع بن إياس، وكذلك بين مسلم بن الوليد وابن قنبر، وبين أبي نواس والفضل بن عبد الصمد الرقاشي، وأيضًا ما كان بين أبي العتاهية ووالبة بن الحباب من مهاجاة كانت لصالح أبي العتاهية؛ الذي ما لبث أن دخل في مهاجاة مع سلم الخاسر الذي كان يرميه بالكذب في زهده وتقواه، والشُّحّ والبخل، وكان دعبل الخزاعي كثير الهجاء إذ تَخَاصَمَ مع أستاذه مسلم بن الوليد وأبي سعيد المخزومي وأبي تَمَّام، ومن أبرز من اشتهر بالهجاء كذلك ابن الرومي؛ الذي كان الهجاء لديه على نوعين: إما شديدًا لاذعًا، أو مجرّد عتاب.

وقد سار الشعراء العباسيون على نهج القدامى في رسم صورة المساوئ والمثالب وجميع صفات السوء، على من يقع عليه هجاؤهم، مع النّيل منه والمبالغة في التحقير والاستخفاف والتهوين، ولكن لا يُشترط أن يكون المهجو بذئيًا سيئ السيرة؛ ولكنّه قد يكون بسبب تقصير في صلة أو إكرام لشاعر مدحه، فيقوم بهجائه منقلبًا عليه، مثلما نرى عند ابن الرومي؛ إذ نلاحظ في ديوانه أنه كان يمدح كثيرًا من القادة والأعيان ثم يهجوهم منقلبًا عليهم في مناسبات عديدة إذا قصّروا في إكرامه وصلته، وكذلك فعل أبو الطيّب المتنبي في هجائه لكافور الإشيدي حاكم الدولة الإخشيدية، وكان عبدًا حبشيًا لمحَمَّد الإخشيد مؤسس

١ ديوان أبي نواس (ص ١١١).

٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٣٥٩ - ٣٦١).

الدولة، ثم استبدَّ بحكم مصر بعده، وكان المتنبي قد مدحه طمعاً في ولاية أو منصب، فلمَّا خيَّب ظنُّه قام يهجوهِ ويعيِّره بسواده وشقوق كعبه!

وَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَلَوْنُكَ أَسْوَدٌ مِنْ الْجَهْلِ أَمْ قَدْ صَارَ أَبْيَضَ صَافِيَا
وَيُذَكِّرُنِي تَخْيِيطَ كَعْبِكَ شَقَّهُ وَمَشْيِكَ فِي ثَوْبٍ مِنْ الزَّيْتِ عَارِيَا

وله في هجائه دالية شهيرة، هي من أروع وأشهر قصائد الهجاء في تاريخ الشعر العربي على مرِّ عصوره.

ومن ملامح التجديد في غرض الهجاء ما ظهر من هجاء المدن، فمثلما مدحوها فهُجِمَ كذلك هجوها ورثوها، وهذا وفق انطباع كل شاعر منهم عن هذا البلد وتعلُّق صورته بحدثٍ وقع له فيه، ومن ذلك قول البُحتري في هجاء مصر:

فَلَا سَقِيَتْ مِصْرٌ وَلَا مَدَّنٌ نِيلُهَا وَلَا دَبٌّ فِي أَغْصَانِهَا الْوَرَقُ النَّضْرُ
أَتَحَسَّبُ مِصْرٌ أَنْ قَلْبِي يُجِبُّهَا وَقَدْ جَرَّعْتَنِي فِيكَ مَا جَرَّعَتْ مِصْرُ
طَفَى إِذْ جَرَّتْ أَنْهَارُهَا تَحْتَ عَرْشِهِ وَتَاهَ بِهَا فِرْعَوْنٌ تِيهًا هُوَ الْكُفْرُ
فَلَا جُرَيْتٌ مِصْرٌ لِذَاكَ احْتَقَرْتُهَا وَلَمْ تَرَ شَيْئًا أَنْ جَرَى تَحْتِكَ الْبَحْرُ

(٤) الفخر:

ضعف الفخر في العصر العباسي؛ لأنَّه في معظمه كان قائماً على العصب القبلي، فضعف لضعف العصبية العربية وانعدام نفوذ القبائل، ودخول الفرس والموالي وسواهم من العناصر مع العرب في صدارة المشهد المجتمعي، ولكن إذا كان الفخر القبلي قد ضعف؛ فقد حلَّ محله فخرٌ بالأصول الفارسية من قبَل الشعراء المولَّدين وأصحاب الأصول الفارسية؛ تبعاً لازدياد حدِّ الشعوبية وفخر بعض العجم على العرب، وربما فخر بعض المولَّدين ببعض القبائل العربية التي يوالونها، فقد كان بشَّار يتعصَّب لمواليه القيسيين، وكان

١ ديوان أبي الطيب المتنبي (ص ٢٦٢).

٢ ديوان البحتري (١/ ٥٠٥)، شرح: محمد التونجي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

أبو نواس يتعصّب لمواليه من بني سعد القحطانيّين، وإن كان الفخر القبلي تلاشى معظمه في هذا العصر؛ فقد بقيت منه بقايا؛ فهناك من فخر بقبائله التي ينتمي إليها؛ مثل بكر بن النطاح الحنفي الذي افتخر بقبيلته، والبحثري الذي افتخر بقبيلته طيّ، وعلي بن الجهم الذي افتخر بقبيلته قريش، وكذلك نرى بعض ملامح الفخر عند ابن المعتز الذي فاخر أبناء عمومته من الطالبين باعتبار أنهم أحق منهم بالخلافة، وهو فخر سياسي؛ إلا أن الفخر القبلي على الجملة - وإن بقيت منه شذرات - كان أضعف وأقلّ أثرًا مما كان عليه في العصر الأموي؛ إذ كانت الدولة بالمرصاد لمثل تلك الظاهرة، وترفض رفضًا تامًا محاولات إحياء العصبية القبلية^١.

وفي شعر أبي الطيّب المتنبي ملامح من الفخر والسُمُو بنفسه، حتى ظهر في شعره ما عُرف بموضوع التعبير عن الذات، وله في الحديث عن ذلك فصلٌ خاص، وربّما كانت الفروسيّة والبطولة من معايير الفخر بدلًا من العصبية القبيلة، مثلما نرى عند أبي فراس الحمداني ابن عمّ سيف الدولة الحمداني؛ الذي كان يفخر بنفسه وانتصارات قومه، وقد بنى فخره على فروسيته وبطولته وحروبه مع بني حمدان على جبهة الروم؛ إذ يقول مخاطبًا بعض خصومه منهم في إطار حماسي^٢:

وَنَحْنُ أَسْوَدُ الْحَرْبِ لَا نَعْرِفُ الْحَرْبَا	أَتَزْعَمُ يَا ضَخَمَ اللّغَايِدِ أَنَّنَا
وَمَنْ ذَا الَّذِي يُمْسِي وَيُضْحِي لَهَا تَرْبَا	فَوَيْلَكَ مَنْ لِلْحَرْبِ إِنْ لَمْ نَكُنْ لَهَا
مَنْ ذَا يَقْوُدُ الشُّمَّ أَوْ يَصْدِمُ الْقَلْبَا	وَمَنْ ذَا يَلْفُ الْجَيْشَ مِنْ جَنَابَتِهِ
وَجَلَّلَ ضَرْبًا وَجْهَ وَالِدِكَ الْعُضْبَا	وَوَيْلَكَ مَنْ أَوْدَى أَخَاكَ بِمَرْعَشِ

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ١٧٠) و(٤/ ٢١٣).

^٢ انظر: المصدر السابق (٣/ ٣٥٩).

^٣ ديوان أبي فراس الحمداني (ص ٣٦)، شرح ومراجعة: عبد القادر محمد مايو، أحمد. عبدالله فرهود، دار القلم العربي، حلب- سوريا، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٥) الوصف:

يُعتبر الوصف من أكثر موضوعات الشعر العباسي تأثراً بتطوُّر المدنيَّة ومظاهر الحياة الحديثة، وبالتطوُّر الفكري والعلمي والثقافي كذلك، وإذا كان الشعراء القدامى قد وصفوا ما وقعت عليه أعينهم من مظاهر الطبيعة كالصحراء والليل والنجوم والشمس والقمر والجمال والخيال؛ فإنَّنا نجد أن أسباب التَّطوُّر المجتمعي والحضاري قد دفعت الشعراء العبَّاسيين إلى وصف الجانب المادي من مظاهر الحياة الحديثة، فوصفوا القصور والدُّور والمدن الجديدة، وإذا كان الوصف في الشعر القديم قد اقتصر على وصف المظاهر الحسيَّة؛ فإنَّنا نجد الشعراء العبَّاسيين في وصفهم أكثر عمقاً وتأثراً بالجانب العلمي والحضاري، فانتقلوا من وصف الصحراء ومسالكها ومظاهرها إلى وصف المدن والحواضر والريَّاض والقصور والأبنية، ومن ذلك قول البُحْثري يصف بركة قصر الجعفرية الذي شيَّده الخليفة المتوكل في سامراء:

يا مَنْ رَأَى الْبِرْكَهَ الْحَسَنًا وَرَوَّنَقَهَا	وَالْأَيْسَاتِ إِذَا لَاحَتْ مَغَانِيهَا
مَا بِالْ دَجَلَةٍ كَالْغَيْرَى تُنَافِسُهَا	فِي الْحُسْنِ طَوْرًا وَأَطْوَارًا تُبَاهِيهَا!
إِذَا عَلَتْهَا الصَّبَا أَبَدَتْ لَهَا حُبًّا	مِثْلَ الْجَوَاشِنِ مَصْقُولًا حَوَاشِيهَا
فَحَاجِبُ الشَّمْسِ أَحْيَانًا يُغَازِلُهَا	وَرِيْقُ الْغَيْثِ أَحْيَانًا يُبَاكِهَا
إِذَا النُّجُومُ تَرَاءَتْ فِي جَوَانِبِهَا	لَيْلًا حَسِبْتَ سَمَاءً رُكِبَتْ فِيهَا
كَأَنَّمَا الْفِصَّةُ الْبَيْضَاءُ سَائِلَةٌ	مِنَ السَّبَائِكِ تَجْرِي فِي مَجَارِيهَا
تَنْصَبُّ فِيهَا وَفُودُ الْمَاءِ مُعْجَلَةٌ	الْخَيْلُ خَارِجَةٌ مِنْ حَبْلِ مُجْرِيهَا
كَأَنَّ جِنَّ سُلَيْمَانَ الَّذِينَ وَلُوا	إِبْدَاعَهَا فَأَذَقُوا فِي مَعَانِيهَا

وفي الإطار نفسه يقول علي بن الجهم يصف أبنية المتوكل:

صُحُونٌ تَسَافِرُ فِيهَا الْغُيُونُ فَتَخَسَرُ مِنْ بُعْدِ أَقْطَارِهَا

^١ انظر: زهر الآداب وثمر الألباب، أبو الحسن الحصري القيرواني (١/ ١٧٩).

^٢ انظر: المصدر السابق (١/ ١٨٠).

وَقُبَّةُ مَلِكٍ كَأَنَّ النُّجُومَ مَ تَفْضِي إِلَيْهِ بِأَسْرَارِهَا

وقد تأثر الوصف إلى حدٍّ بعيدٍ بالتَّغْيِراتِ الاجتماعية في هذا العصر؛ حيث تطرَّق بعض الشعراء إلى وصف مظاهر الحياة العامة مثل المأكل والمشرب والملبس؛ إذ نجد ابن الرومي -وهو أحد من أجاد هذا الفن- يصف في شعره الفواكه والزلابية وسائر الأطعمة الشهية، مصوِّراً جانباً من الجوانب المجتمعية في هذا العصر؛ كقوله:

لَوْلَا فَوَاكِهُ أَيْلُولٍ قَدْ اجْتَمَعَتْ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ، وَرَقَّ الْجَوُّ وَالْمَاءُ

وفي موضع آخر يصف الزلابية:

رَأَيْتُهُ سَحَرًا يُلْقِي زَلَابِيَةً فِي رَقَّةِ الْقَشْرِ وَالتَّجْوِيفِ كَالْقَصَبِ
كَأَمَّا زَيْتُهُ الْمَغْلِيُّ حِينَ بَدَا كَالْكِيمِيَاءِ الَّتِي قَالُوا وَلَمْ تُصَبِّ
يُلْقِي الْعَجِينَ لُجَيْنًا مِنْ أُنَامِلِهِ فَيَسْتَحِيلُ شَبَابِيطًا مِنَ الذَّهَبِ

ويُعتبر وصف الطبيعة من الموضوعات الشائعة في العصر العباسي؛ إذ تأثر عدد من الشعراء بالطبيعة وجمالها ورونقها، ولابن الرومي وابن المعتز أشعار جميلة في وصف الطبيعة، غير أن أشهر من تأثر بالطبيعة واشتهر بوصفها هو الصنوبري أحد أبرز شعراء عصره؛ إذ تَغَيَّى في شعره بالبساتين والأزهار والأشجار والمروج والثلوج والربيع، وفي شعره قدرٌ من التشبيهات والصور البديعة وبعض فنون البديع، يقول في وصف الرِّوض وعيون النرجس:

أَرَأَيْتَ أَحْسَنَ مِنْ عُيُونِ النَّرْجِسِ أَمْ مِنْ تَلَاخُظِهِنَّ وَسَطِ الْمَجْلِسِ
دُرٌّ تَشَقَّقُ عَنْ يَوَاقِيَتٍ عَلَى قُصْبِ الزَّمَرْدِ فَوْقَ بُسْطِ السُّنْدُسِ
أَجْفَانُ كَافُورٍ حُبِينٍ بِأَعْيُنٍ مِنْ زَعْفَرَانٍ نَاعِمَاتِ الْمَلَمْسِ
وَكَأَنَّهَا أَقْمَارُ لَيْلٍ أَحَدَقَتْ بِشُمُوسِ دَجْنٍ فَوْقَ غُصْنِ أَمْلَسِ

^١ ديوان ابن الرومي (١/ ١٥).

^٢ المصدر السابق (١/ ٢٤٦).

^٣ ديوان الصنوبري (ص ١٦١).

وكان كشاجم كذلك من أبرز الشعراء الذين تغنّوا بوصف الطبيعة؛ حيث تأثر بسحرها وجمالها، وله عدة أوصاف بديعة، كان يصف السحاب والأنهار والثلوج، وممّا قاله يصف الثلج، في أبيات لا تخلو من التشبيه والتشخيص واستنطاق الجمادات!

تُلْجُ وَشَمْسٌ وَصُوبُ غَادِيَةٍ فالأَرْضُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ غَرَّةٌ
بَاتَتْ وَقِيَعَانِهَا زَبَرْجَدَةٌ وَأَصْبَحَتْ قَدْ تَحَوَّلَتْ دُرَّةٌ
كَأَنَّهَا وَالثَّلُوجُ تُضَحِّكُهَا تَغَارُ مَمَّنْ أَحَبَّهُ تَغَرَّةٌ

ومن الطريف في إطار وصف الطبيعة أن بعض الشعراء قد تعصّبوا لبعض مظاهرها على حساب البعض؛ فهذا ابن الرومي يتعصّب للنرجس ويدّمُ الورد، فنقاضه في مذهبه أحمد بن يونس الكاتب مقدّمًا الورد على النرجس، وقال في ذلك شعرًا يردُّ به على ابن الرُّومي^١.

ولم يقتصر الوصف على المظاهر الحسيّة فقط؛ بل إن التّطوُّر الفكري والعلمي، وتأثر الشعراء بعموم المعارف ومن بينها الفلسفة؛ قد دفعهم إلى المزيد من التأمّلات الفكرية فيما حولهم، وعدم الاكتفاء بوصف المظاهر فقط، فتعدّى الأمر إلى النظر في بواطن الأشياء وأعماقها؛ حيث بدأت تظهر النبوة الذاتية في أوصافهم مصوِّرةً لوناً من الاتجاه العقلي الذي ظهر على كثير من أوصافهم فزادها عمقًا وتأملًا، يقول أبو الفتح كشاجم يصف محبرة^٢:

مِخْبَرَةٌ جَادَ لِي بِهَا قَمَرٌ مُسْتَحْسَنُ الْخَلْقِ مُرْتَضَى الْخُلُقِ
جَوْهَرَةٌ خَصَّنِي بِجَوْهَرَةٍ نَاطَتْ بِهِ الْمَكْرَمَاتُ فِي عُقْبِي
بَيْضَاءُ وَالْحَبْرُ فِي قَرَارَتِهَا أَسْوَدُ كَالْمِسْكِ جِدُّ مُعْبِقِ
مِثْلُ بَيَاضِ الْعُيُونِ زَيْنُهُ مُسَوِّدٌ مَا شَابَهُ مِنَ الْحَدَقِ

١ ديوان كشاجم (ص ١٤٧).

٢ زهر الآداب وثمر الألباب، أبو الحسن الحصري القيرواني (١/ ٤٦٤).

٣ زهر الآداب وثمر الألباب، أبو الحسن الحصري القيرواني (١/ ٤٦٠).

ولكشاجم أوصاف شتّى في أشعاره؛ حيث نراه كذلك يصف الأطعمة والثمار والدجاج والفصوص وبعض آلات العزف مثل العود، مصوِّراً -كابن الرومي- جانباً من الحياة الاجتماعية في عصره، وهذا بجانب ما أبدعه في وصف الطبيعة والمدن، يقول واصفاً مدينة حلب:

هِيَ الْخُلْدُ تَجْمَعُ مَا تَشْتَهِي فَرَزَهَا فَطَوَّبَى لِمَنْ زَارَهَا
وَلِلَّهِ فِيهَا شُهُورُ الرَّبْرِ عِجِّ حِينَ تُعْطَرُ أَسْحَارَهَا
إِذَا مَا اسْتَمَدَّ فُوقُ السَّمَاءِ بِهَا فَأَمَدَّتْهُ أَمْطَارُهَا^٢

ومن الأوصاف التي يظهر فيها التأثير بالجوانب التأملية في هذا العصر ما قاله علي بن الجهم يصف الصلع:

جَزَعْتُ لِلشَّيْبِ لَمَّا حَلَّ أَوَّلُهُ فَهَاجَ لِي أَنْسَانِي الْجَزَعَا
أَمَّا الْمَشِيبُ يُدَاوِي الْخِطْرَ شَايِعُهُ فَكَيْفَ لِي بِدَوَاءٍ يُذْهِبُ الصَّلْعَا

فهو هنا يجمع بين الجانب التأملي من جهة والجانب الهزلي من جهة أخرى، ويذكر أن الشيب يمكن علاجه ومواراته، أما الصلع فهو أمرٌ وأدهى؛ لأنه لا علاج له ولا يمكن له مواراته.

ويُعتبر ابن الرومي أبرز شعراء عصره تأثراً بالاتجاه العقلي؛ فهو لم يقتصر على الوصف الظاهري في شعره؛ بل نرى في أوصافه قدراً من النبوة الذاتية، وتأثراً بالجانب العقلي إلى حدٍّ بعيد، فيصف البُخل، وتقلُّب الزمان، والوحدة، والشَّيب وغير ذلك مما سنفصِّله في بابٍ خاصٍّ؛ نظراً إلى أن الاتجاه العقلي يشمل عدة جوانب أخرى غير الوصف، ونرى أيضاً كذلك الجانب الذاتي في

١ ديوان كشاجم (ص ١٢٥ - ١٢٦).

٢ قويق: اسم نهر.

٣ ديوان علي بن الجهم، تحقيق: خليل مردم بك (ص ١٥٨)، دار صادر، بيروت- لبنان،

ط ٢٠١٠، ٣.

٤ هكذا في الأصل والشطر الثاني مكسور بهذا اللفظ.



الوصف في بعض أشعار علي بن الجهم، الذي يصوّر تلك الجوانب العقلية في هذا العصر ببراعة ودقّة.

(٦) الحكمة:

تطوّر غرض الحكمة في العصر العباسي تطوُّراً هائلاً، صحيح أن الحكمة في الشعر قديمة وشائعة منذ العصر الجاهلي، ولكن لم يهمل الشعراء العبّاسيون من أمر التجديد في هذا الغرض؛ فقد كان قديماً قاصراً على عنصر الخبرة والتجارب الحياتية، ثم أضيف إليه ما أضيف من ملامح التّدبُّن في الشعر الإسلامي، فلمّا جاء العصر العبّاسي تطوّرت الحكمة في الشّعر وتأثّرت تأثُّراً كبيراً بالتطوُّر الفكري والثقافي وما اطّلع عليه الشعراء من علوم ومعارف نُقلت من الآداب الأجنبية، بالإضافة إلى تعمُّقهم في الفلسفة، ويصوّر بشار بن برد هذا الجانب حينما أخذ معنى الحكمة القائلة "انظر إلى ما ينفعك، ودعّ كلام الناس؛ إذ لا سبيل إلى النجاة من كلام الناس"، فقال:

لا خير في العيشِ إن كُنّا كذا أبداً لا نلتقي وسبيلُ الملتقى نهجٌ
من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيّبات الفاتكُ اللّهجُ

ويتّضح تطوُّر الحكمة في مظهرين رئيسيّين: أمّا المظهر الأول فكان في ميل عددٍ من الشعراء لافتتاح قصائدهم بحكمةٍ تتعلّق بموضوع النّص بدلاً من المقديّمة الطليعية، كما فعل أبو تَمّام في مديحه للخليفة المعتصم إثر انتصاره على الرُّوم في موقعة عمورية؛ يقدّم السيف على الرأي، ومثلما فعل المتنبي في مدائحه لسيف الدولة الحمداني أمير حلب في مفتتح قصيدة له بحكمةٍ معاكسةٍ لحكمة أبي تَمّام، مقدّم الرأي على السيف، وإنّما كان الشاعر يكيّف العبارة على حال الممدوح والمناسبة التي تقال فيها القصيدة.

ومن نماذج افتتاح القصائد بالحكمة قول ابن الرومي:

١ ديوان بشار (ص ٢٢٥)؛ وانظر: تاريخ أداب اللغة العربية، جرجي زيدان (٢/ ٤٤).

٢ ديوان ابن الرومي (١/ ١٣٤).

دَعِ اللَّوْمَ إِنَّ اللَّوْمَ عَوْنُ النَّوَابِ وَلَا تَتَجَاوَزْ فِيهِ حَدَّ الْمُعَاتِبِ
فَمَا كُلُّ مَنْ حَطَّ الرَّحَالُ بِمُخْفِقٍ وَلَا كُلُّ مَنْ شَدَّ الرَّحَالُ بِكَاسِبِ
وَفِي السَّعْيِ كَيْسٌ وَالنَّفُوسُ نَفَاسٌ وَلَيْسَ بِكَئِيسٍ بَيْعُهَا بِالرَّغَائِبِ

ولكن تطوُّر الحكمة لم يقتصر على كونها مفتتحاً لبعض القصائد؛ بل تطوَّرت كذلك في كونها غرضاً مستقلاً؛ تأثراً بالتطوُّر الفكري والعلمي في هذا العصر، وهذا هو المظهر الثاني لتطوُّر الحكمة في الشعر العباسي، ومن أمثلة ذلك ما قاله بشار بن برد في النصح:

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الذُّنُوبِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقِ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ
فَعِشْ وَاحِدًا أَوْ صَلِّ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ

ومن نماذج تأثّر الحكمة في الشعر بالتطوُّر الفكري والعقلي، وما أضافه إليه من أثر الفلسفة وعمق النظرة والتأمُّل؛ ما قاله المتنبي مادحاً سيف الدولة في مقابلة بدبعة:

فَإِنَّ قَلِيلَ الْخُبِّ بِالْعَقْلِ صَالِحٌ وَإِنَّ كَثِيرَ الْخُبِّ بِالْجَهْلِ فَاسِدٌ

ومن أروع ما قيل في الحكمة قول علي بن الجهم في النصح:

وَلَمْ أَرِ أَعْدَى لِامْرِئٍ مِنْ قَرَابَةٍ وَلَا سَيِّمًا إِنْ كَانَ جَارًا أَوْ ابْنَمَا
وَمَنْ طَلَبَ الْمَعْرُوفَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ أَطَالَ عَنَاءً أَوْ أَطَالَ تَنَادُّمَا
وَمَنْ شَكَرَ الْعُرْفَ اسْتَحَقَّ زِيَادَةً كَمَا يَسْتَحِقُّ الشُّكْرَ مَنْ كَانَ مُنْعِمًا
وَمَنْ سَامَحَ الْأَيَّامَ يَرْضَ حَيَاتُهُ وَمَنْ مَنَّ بِالْمَعْرُوفِ عَادَ مُذْمَمًا
وَمَنْ نَافَسَ الْإِخْوَانَ قَلَّ صَدِيقُهُ وَمَنْ لَامَ صَبًّا فِي الْهَوَى كَانَ أَلُومًا

والخلاصة أن الحكمة في الشعر العباسي قد أخذت منحىً جديدًا نحو مزيدٍ من العمق؛ تأثراً بما شهده العصر العباسي من تيارات عقلية ومذهبية وكلامية

^١ ديوان بشار بن برد (ص ١٤١).

^٢ المصدر السابق.

^٣ ديوان علي بن الجهم (ص ٢٠١).

وتغيرات اجتماعية وتطورات ثقافية، ويبدو ذلك جلياً عند صالح بن عبد القدوس وأبي تمام وابن الرُّومي وأبي الطَّيِّب المتنِّي، ثم بصورة أكثر عمقاً وتعقيداً عند أبي العلاء المعرِّي؛ لتصبح الحكمة لديه فلسفة اجتماعية!

ومن نماذج الحكمة والنصح في الشعر العباسي قول صالح بن عبد القدوس:
إِنَّ الْغَنِيَّ الَّذِي يَرْضَى بِعَيْشَتِهِ لَا مَنْ يَظُلُّ عَلَى مَا فَاتَ مَكْتُتَبَا
لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْأَيَّامِ مُحْتَقَرًا كُلُّ أَمْرٍ سَوْفَ يُجْزَى بِالَّذِي اكْتَسَبَا
قَدْ يَحْفِرُ الْمَرْءُ مَا يَهْوَى فَيَرْكَبُهُ حَتَّى يَكُونَ إِلَى تَوْرِيْطِهِ سَبَبَا

(٧) الغزل:

شاع الغزل في العصر العباسي شيوعاً عظيماً، وكان هذا أمراً طبيعياً مع انتشار حالة اللهو والمجون والتَّرف والحانات، وظل على نوعين كما كان في العصر الأموي: العذري العفيف الذي يختص بوصف مشاعر الحب والغرام المعنوية دون الوصف الحسي، والغزل الصريح الذي يهتم بوصف جسد المرأة، غير أن تزايد حالة الترف وشيوع مظاهر المجون واللهو والفسق وانتشار الحانات والجواري وأدوار النخاسة؛ جعل للغزل الصريح الغلبة والرجحان، على عكس ما كان عليه في العصر الأموي، فشاع الغزل الصريح شيوعاً عظيماً، بينما قلَّ الغزل العذري بتضاؤل قصص الحب العفيفة التي كانت موجودة في العصر الأموي على غرار مجنون ليلى وقيس بن ذريح وجميل، وحلَّت محلَّها قصص تتبُّع الشعراء للجواري والمغنيات، كتتبُّع بشَّار بن برد لصاحبته عبده، وتتبُّع أبي نؤاس لجنان جارية الثقفين، ومحمد بن أمية مع صاحبته خداع التي تعدّه الزياره فلا تزوره، وعلي بن أديم في تتبُّعه لجارية تُسمَّى منهلة؛ التي ما لبث أن بيعت فطار لبُّه وبكاها بكاء حارّاً، وكذلك قصّة أبي العتاهية مع جعبة الجارية،

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/ ٦٢٤).
٢ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٤٩٣)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر- بيروت، د.ط، د.ت.

٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٣٧١-٣٧٢).

ولم يَعد للغزل العذري أثر كبير في الشعر العباسي، باستثناء بقايا منه نراها عند قلّة من الشعراء؛ من بينهم العبّاس بن الأحنف الذي تخصّص وأبدع فيه. وكان لانتشار المجون ومظاهر اللّهو مع ضعف الوازع الديني عند عددٍ من الشعراء المولّدين؛ أثرٌ في تزايد حدّة الغزل الصريح، حتى صار في بعض الأحيان جريئاً خالياً من أدنى درجات العقّة والوقار والحياء، منغمساً في المجون والفحش، كما نرى عند بشّار وأبي نوّاس ومُطيع بن إياس، فظهر ما عُرف بالغزل الماجن أو الإباحي، فضلاً عن اقترانه أيضاً ببعض مظاهر الفسق، ومن ذلك قول بشّار يقرن الغزل بالخمّر!

حَوْرَاءُ إِن نَّظَرْتُ إِلَيْهِ كَ سَقَتَكَ بِالْعَيْنِينَ خَمْرًا

ومن مظاهر الغزل الصريح: الانغماس في الفحش والتصريح في إبداء الرغبة بدلاً من الكناية أو التلميح، يقول أبو نوّاس يطلب قبلة؟

سَأَلْتُهَا قُبْلَةً فَفُزْتُ بِهَا	بَعْدَ امْتِنَاعٍ وَشِدَّةِ التَّعَبِ
فَقُلْتُ بِاللّهِ يَا مُعَذِّبَتِي	جُودِي بِأُخْرَى أَقْضِي بِهَا أَرْبِي
فَابْتَسَمَتْ ثُمَّ أَرْسَلَتْ مَثَلًا	يَعْرِفُهُ الْعُجْمُ لَيْسَ بِالْكَذِبِ
لَا تُعْطِيَنَّ الصَّبِيَّ وَاحِدَةً	يَطْلُبُ أُخْرَى بِأَعْنَفِ الطَّلَبِ

وما لبثت أن انصرفت معظم أشعار الغزل للجواري بدلاً من الحرائر، وهو أمر جديد في العصر العباسي، اقترن بانتشار الجواري والحانات ودور النخاسة، صحيح أن التّغزل للجواري قد بدأ في الظهور منذ العصر الأموي، لكنه كان ظهوراً على استحياء؛ إذ ظل الغزل في معظمه للحرائر، حتى إذا جاء العصر العباسي، وانتشرت الجواري ودور النخاسة، وصار التُّجّار والبائعون يهتمّون بالجواري، فيعتنون بتعليمهنّ وتنقيفهنّ وتدريبهنّ على الغناء والعزف والشعر وسائر الفنون، فزاد ولوع الشّعراء بهنّ، وانصرف أغلب الغزل إليهنّ، وصاروا

^١ ديوان بشار بن برد (ص ٥٢٧).

^٢ ديوان أبي نوّاس (ص ٥٢).

يَتَّبَعُونَهُنَّ فِي الْحَانَاتِ وَالْأُورِ وَيرَاسِلُونَهُنَّ، وَيَتَلَذَّذُونَ بِحُسْنِهِنَّ وَجَمَالِ غَنَائِهِنَّ،
وظهَرت من الجَواري من كانت تُمعن في الظرف والرِّقَّة والميل، ومن الغزل
بالجَواري قول أبي نَواس في إحداهن:

وَنَاهِدَةَ التَّدِينِ مِنْ خَدَمِ الْقَصْرِ سَبَتَنِي بِحُسْنِ الْجِدِّ وَالْوَجْهِ وَالنَّحْرِ
غَلَامِيَّةً فِي زِيَّهَا بِزَمَكِيَّةٍ مَرْوَقَةُ الْأَصْدَاغِ مَطْمُومَةُ الشَّعْرِ
كَلَفْتُ بِمَا أَبْصَرْتُ مِنْ حُسْنِ وَجْهِهَا زَمَانًا وَمَا حُبُّ الْكَوَاعِبِ مِنْ أَمْرِي
فَمَا زِلْتُ بِالْأَشْعَارِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ أَلْيَتْهَا وَالشَّعْرُ مِنْ عَقْدِ السِّحْرِ

ومن سمات الغزل في هذا العصر ما نلاحظه من ظهور ميل إلى الأوزان الخفيفة
والسريعة، وإلى العبارات اللَّيِّنَة واللَّفْظ السَّهْل؛ كونه مناسبًا لبيئة الجواري،
بالإضافة إلى أن شعراء هذا العصر قد مالوا إلى الرِّقَّة والتَّرف واستنباط دقائق
المعاني، والحسِّ المَرهف الرقيق، ومراعاة الخيال وتوليد المعاني، ويندر أن نجد
شاعرًا لم يبدع في الغزل أو يُدلي بدلوه، وهناك من أبدع في المقدِّمة الطللية
وافتحاح قصائده بالبكاء على الأطلال ولا سيَّما قصائد المديح.

ومن الجدير بالذكر ظهور التَّغَزُّل بالغلمان والرقيق، وهو ما عُرف باسم غزل
المُدَّكَر، وهو من مظاهر الشذوذ والفُحْش الذي رافق ظهور الشعراء المولدين
الذين غلب عليهم الفسق كأبي نَواس ومُطِيع وحمَّاد وأشباههم، وربَّما نقبل ما
قيل في ذلك إذا اندرج في باب الوصف، ولكن الممقوت ما انقلب إلى غزلٍ واضح
كقول الصنوبري:

أَيَا مَنْ فَضَلُهُ غِبْطُهُ وَيَا مَنْ هَجَرُهُ سَخَطُهُ
وَمَنْ لَيْسَ بِغَيْرِي مِنْ— هَ لَوْ مَاتَ وَلَا نَقَطُهُ
أَرَى قَلْبِي فِي حَبِّ—(م) كَ مَحْمُولًا عَلَى خَطِّهِ

^١ المصدر السابق (ص ٢٣٦).
^٢ ديوان الصنوبري (ص ٢٤١)

ورغم تضاؤل الغزل العفيف فإننا نجد بقايا منه عند العباس بن الأحنف وآخرين، وكان العباس بن الأحنف شاعرًا مُرَهَفَ الحسِّ، صادق العاطفة، يذكّرنا شعره بأجواء شعر المجنون وقيس لُبْنَى وجميل، ومن هذا قوله في أبيات بديعة:

مَنْ كَانَ يَزْعُمُ أَنْ سَيَكْتُمُ حُبَّهُ أَوْ يَسْتَطِيعُ السِّرَّ فَهُوَ كَذُوبٌ
الْحُبُّ أَغْلَبُ لِلرِّجَالِ بِقَهْرِهِ مَنْ أَنْ يُرَى لِلسِّرِّ فِيهِ نَصِيبٌ
وَإِذَا بَدَا سِرُّ اللَّيِّبِ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْدُ إِلَّا وَالْفَتَى مَغْلُوبٌ
إِنِّي لَأَحْسُدُ ذَا هَوًى مُسْتَحْفِظًا لَمْ تَتَّهَمْهُ أَعْيُنٌ وَقُلُوبٌ

(٨) الخمر والمجون:

كان من الطبيعي مع انتشار الحانات ومظاهر اللّهُو والفسق ووجود الماجنين؛ أن يزدهر شعر الخمر وكلُّ ما يرافقه من مظاهر الخلاعة، وكانت الخمر من الأغراض الشعرية المعروفة في الجاهلية، حتى حرّمها الإسلام فاخفت أو كادت تختفي، ثم عادت للظهور من جديد في العصر الأموي، ولكنّه كان ظهورًا خفيًا على استحياء، فلمّا جاء العصر العبّاسي عادت الخمر من جديد كغرض رئيسٍ مع أغراض المجون، فأسهب عددٌ من الشعراء في وصفها وذكرها غير عابئين بتحريم الدّين لها؛ وهذا بسبب ضعف مكانة الدّين في نفوسهم، وما رافق ذلك من انتشار المفاصد المجتمعية من إلحاد وزندقة وخلاعة وانحلال وتهتك واستهتار بالدّين، فانتشرت دور الخمر وأزقتها وكانت لها أماكن معروفة حتى حفل الأدب العبّاسي بالأشعار التي تذكر الخمر وتصف مجالسها.

وقد وصف الخمر عدد كبير من الشعراء مثل: بشار بن برد ومسلم بن الوليد وابن الرومي، ومنذ أوائل هذا العصر نرى شعراء عُرِفوا بمجونهم وفسقهم وانغماسهم في شرب الخمر، يقول بشار بن برد يصف الخمر:

^١ ديوان العباس بن الأحنف (ص ٦٠)، تحقيق: عائكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، ط ١، د.ت.

^٢ ديوان بشار بن برد (ص ٢٥٤).

وَرُجَا جَةً لِلشَّرْبِ فِيهَا مَقْنَعٌ قُرِنْتُ بِأَزْهَرِ كَالْغَزَالِ مُبَاحٍ
سَلِسٍ بَلِينَةٍ الْمَذَاقِ رَقِيقَةٍ كَالدَّمْعِ تَخْلِطُ لِيْنَهَا بِجَمَاحٍ
وَرُضَابِ ذِي أَشْرِ أَعْرَ كَأَنَّمَا غُبِقْتُ مَشَارِبُهُ مِنَ التُّفَاحِ
خَوْدٍ إِذَا جَنَحَ الظَّلَامُ فَإِنَّهَا تَكْفِي الْمُوَانِسَ فَقْدَةَ الْمِصْبَاحِ

على أنَّ أبرز ما قيل في الخمر كان على لسان أبي نواس، الذي احتلَّت خمرياته مساحة واسعة في الشعر العباسي جملة؛ حيث عرف بتهتكه ومجونه واستخفافه بالدِّين وإدمانه الخمر، حتى أبدع في وصفها إبداعاً، وكانت الخمر في العصر الجاهلي يغلب على وصفها طابع العفوية رغم ما فيه من دقَّة وخيال واسع، أما أبو نواس فقد أَمعن في وصفها ومجالسها وأباريقها ومذاقها ورائحتها وتأثير سكرتها، وأتى في وصفها بمعانٍ جديدة وأخيلة بديعة وتشبيهات متلاحقة، حتى إنَّه كان يشبِّها بأكثر من تشبيه في البيت الواحد، وطرق فيها آفاقاً لم يبلغها أحد قبله، فأسهب في تعديد أسمائها وأثارها؛ كقوله (ابنة الكَرَم، ابنة العنب، الصَّهْبَاء، الصفراء)، وفي خمرياته خفَّة ورشاقة ولذَّة واندفاق يثير الدهشة التي تصوِّر إدمانه للخمر حتى صار شاعرها الأثير بلا منازع، ومن شعره فيها قوله في صورة مليئة بالتشبيهات!

فَالْخَمْرُ يَاقُوْتَةٌ وَالكَأْسُ لُؤْلُؤَةٌ مِنْ كَفِّ جَارِيَةٍ مَمْشُوقَةِ الْقَدِّ

وقال أيضاً في ترصيع جميل وخيال خصب بديع:

سُلَافُ دَنْ إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا فَاحَتْ كَمَا فَاحَ تُفَّاحٌ بُلْبُنَانٍ
كَالْمِسْكِ إِنْ بَزَلَتْ وَالسَّبْكُ إِنْ سَكَبَتْ تَحْكِي إِذَا مُزِجَتْ إِكْلِيلَ مَرْجَانٍ
صَهْبَاءُ صَافِيَةٌ عَذْرَاءُ نَاصِعَةٌ لِلْسُّقْمِ دَافِعَةٌ مِنْ كَرَمٍ دِهْقَانٍ

وقد بلغ فيها قدرًا من المبالغة يصل به إلى حدِّ التقديس في وصفها؛ كما في قوله:

١ ديوان أبي نواس (ص ١٤٩).

٢ المصدر السابق (ص ٥١٧).

٣ المصدر السابق (ص ٢١).

وَمُدَامَةٍ سَجَدَ الْمُلُوكَ لِذِكْرِهَا جَلَّتْ عَنِ التَّصْرِيحِ بِالْأَسْمَاءِ

وهكذا مضى أبو نواس في خمريَّاته، مصوِّراً جانباً عظيماً من حالة التَّرف والمجون بأسلوبٍ لم يكن مألوفاً، فقد كانت الخمر من صور الحياة الطبيعية في العصر الجاهلي، أما في العصر العباسي فليكونها محرَّمة شرعاً فقد ارتبطت بالمجون والفسق، وقد ربط أبو نواس وصفه للخمر بالطبيعة والغزل وسائر مظاهر المجون، وكذلك مظاهر الترف والحدائث، والاستخفاف بالدين، وكان يُوسِّى خمريَّاته بالصنعة الأسلوبية، مع تشبيهاته الفريدة، بل إنَّه دعا إلى اتخاذها مطلعاً للقصيدة بدلاً من المقدِّمة الطللية، ولخمريَّاته حديث طويل، له جوانب عدَّة تستحق دراسة مفصَّلة، وبلغ من إغراقه أنَّه كان يدعو إليها في شعره وينصح بشربها، ويلوم من يلومه عليها ويعصي من يأمره بالكفِّ عنها؛ كما في قوله:

يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى حَمْرَاءٍ صَافِيَةٍ صِرَ فِي الْجَنَانِ وَدَغْنِي أَسْكُنِ النَّارَ

وقال مسلم بن الوليد يشبِّه الخمر بشَّرار النَّار الملتهب:

حَمْرَاءُ إِنْ بَرَزْتُ، صَفْرَاءُ إِنْ مُزِجْتُ كَأَنَّ فِيهَا شَرَارَ النَّارِ تَلْتَهَبُ

ولم تكن الخمر وحدها ما مثل شعر المجون في العصر العباسي؛ إذ انتشر الماجنون في بغداد والكوفة وسواهما، وكانوا يجاهرون بالفسق والمعصية، ويتردَّدون على الحانات وأزقة الخمر، ومنهم من مال إلى الشُّعبية والزندقة، ومن أمثال هؤلاء الماجنين: أبو نَؤاس ومُطِيع بن إياس ووالبة بن الحباب وحمَّاد عجرد ويحيى بن زياد الحارثي بالكوفة وأدم بن عبد العزيز حفيد الخليفة عمر بن عبد العزيز؛ قبل توبته، وفي أشعارهم إمعان في المجون والتَّهتُّك والخلاعة

١ المصدر السابق (٢١٢).

٢ ديوان مسلم بن الوليد (ص ٢٢٧).

٣ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ١٧٩ - ٣٨٥).

والاستخفاف الفاحح بالدين؛ كقول أبي نواس في صورة ممقوته يستعيد من رمضان!

اسْتَعِذْ مِنْ رَمَضَانَ بِسُّلَّافَاتِ الدِّانِ
ويقول في موضع آخر داعيًا إلى الاستكثار من الذنوب بحجة أن الله غفور رحيم،
مفصلاً عن استهتاره بالدين!

تَكْثُرُ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا فَإِنَّكَ قَاصِدٌ رَبًّا غَفُورًا
سَيُفْضِي ذَاكَ مِنْكَ إِلَى نَعِيمٍ وَتَلْقَى مَا جِدًّا صَمَدًا شُكُورًا

(٩) الزهد:

قد يصور حديثنا عن الغزل الماجن وشعر الخمر والمجون أن المجتمع كله كان فاسقاً وأن الشعر العباسي كان كله من هذا القبيل، وهذا غير صحيح؛ فالمجون لم يعم المجتمع كله، والحانات ودور الخمر كانت تخص فئة معينة من الماجنين وأصحاب الفسق؛ إذ كان المجتمع في غالبية محافظاً على أخلاقه وأصوله، متمسكاً بدينه، رافضاً مظاهر البذخ والترف، ولعل شعر الزهد وما أحدث الشعراء فيه من تطور يثبت لنا هذا الجانب المضيء من أخلاقيات المجتمع في العصر العباسي، مثلما أبان شعر الخمر والمجون والغزل الإباحي عن جانبه الماجن، بل إن شعر الزهد كان أكثر اتصالاً بالمجتمع من شعر المجون والخمر؛ لوجود فئات عديدة من المجتمع لم تعرف الترف، ولم تنغمس في اللهو، وظلت متأثرة بحركات الوعظ والإرشاد.

وقد تطور شعر الزهد في العصر العباسي تطوراً عظيماً، وكانت محاولات التجديد فيه أبعد مدى، وأشد تأثيراً، بحيث لم يعد الزهد مجرد ميل فطري إلى التدين والإيمان فحسب، صحيح أن الدافع الديني كان عماداً فيها، ولكن كان بجانب ذلك رد فعل مضاد على تيار المجون والخلاعة والتهاك الذي شاع في هذا

١ ديوان أبي نواس (ص ١٢٧).
٢ المصدر السابق.

العصر، وقد ساهم في ازدهار شعر الزُّهد نشاط الدعوة الدينية وحركات الوعظ والإرشاد.

ويصوّر شعر الزهد جانباً من تنسُّك هؤلاء وانصرافهم إلى العبادة والزهد عن متاع الدنيا والإقبال على الله، وتنوّعت موضوعات بين الوعظ وذمّ الدنيا وذكر الموت والقبر ويوم القيامة، والترغيب في الطاعة والدعوة إلى الإصلاح، فضلاً عن الأخلاق والآداب الإسلامية والجهاد في سبيل الله، ومن الشعراء الزُّهاد: الإمام الفقيه عبد الله بن المبارك؛ الذي يُنسب إليه في ذم الدنيا:

دُنْيَا تَدَاوَلَهَا الْعِبَادُ ذَمِيمَةً شَيَّبَتْ بِأَكْرَهٍ مِنْ نَقِيعِ الْحَنْظَلِ
وَبَنَاتُ دَهْرٍ لَا تَزَالُ مَلَمَّةً فِيهَا فَجَائِعٌ مِثْلُ وَقْعِ الْجَنْدَلِ

وفي موضع آخر يصف حياة الإنسان وقصرها، ويشبهها بالهلال الذي يكتمل ويصير بدرًا ثم يعود لينقص حتى يختفي، مشيرًا إلى النهاية والموت، إذ يقول:

الْمَرَّةُ مِثْلُ هَالٍ عِنْدَ رُؤَيْتِهِ يَبْدُو ضَائِلًا نَرَاهُ ثُمَّ يَنْسِقُ
حَتَّى إِذَا مَا تَرَاهُ ثُمَّ أَعْقَبَهُ كَرُّ الْجَدِيدِينَ نَقْصًا ثُمَّ يَمَحِقُ

ولا يمكن الحديث عن شعر الزهد دون الوقوف عند أبي العتاهية أبرز شعراء الزهد وأشهرهم على الإطلاق، وكان قد بدأ حياته ماجنًا، ثم ما ترك مجونه وقصر معظم شعره على الزُّهد، فأتى بقصائد خالدة تمتاز بمسحة التّدين والعُمق والعاطفة الصادقة، وزهدياته تسحق الدراسة والوقوف عندها طويلاً، ومن شعره يذكر الموت:

مَا يَدْفَعُ الْمَوْتَ أَرْصَادٌ وَلَا حَرَسُ مَا يَغْلِبُ الْمَوْتَ لَا جِنٌّ وَلَا أَنْسُ
مَا إِنَّ دَعَا الْمَوْتَ أَمْلَاكًا وَلَا سَوْقًا إِلَّا ثَنَاهُمْ إِلَيْهِ الصَّرْعُ وَالْخَلْسُ
لِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ الْأَقْوَامُ كُلُّهُمْ وَلِلْبَلَى كُلُّ مَا بَنَوْا وَمَا غَرَسُوا

١ ديوان الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك (ص ٣٣)، تحقيق: مجاهد مصطفى بهجت، مجلة البيان، الرياض، السعودية، ١٤٣٢هـ.

٢ ديوان الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك (ص ٣٥).

٣ ديوان أبي العتاهية (ص ١٩٥).

هَلَّا أَبَادِرُ هَذَا الْمَوْتَ فِي مَهْلٍ هَلَّا أَبَادِرُهُ مَا دَامَ بِي نَفْسُ
يَا خَائِفَ الْمَوْتِ لَوْ أَمْسَيْتَ خَائِفُهُ كَانَتْ دُمُوعُكَ طُولَ الدَّهْرِ تَنْجِسُ

ويقول محدِّراً من عشق الدنيا!

لَعَمْرُكَ مَا الدُّنْيَا بِدَارٍ بَقَاءِ كَفَاكَ بِدَارِ الْمَوْتِ دَارَ فَنَاءِ
فَلَا تَعْشَقِ الدُّنْيَا أُخَيَّ فَإِنَّمَا تَرَى عَاشِقَ الدُّنْيَا بِجَهْدِ بَلَاءِ
حَلَاوُثُهَا مَمْزُوجَةٌ بِمَرَارَةٍ وَرَاحَتُهَا مَمْزُوجَةٌ بِغِنَاءِ

وقد يَقْرِنُ أحياناً الزهد مع الحكمة: كما في قوله!

الْخَيْرُ وَالشَّرُّ عَادَاتٌ وَأَهْوَاءُ وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْأَحْبَابِ أَعْدَاءُ
لَمْ يُخْلَقِ الْخَلْقُ إِلَّا فِي الْفَنَاءِ مَعًا نَفْسِي وَتَبَقَى أَحَادِيثُ وَأَسْمَاءُ

بل إن أبا نواس نفسه رغم انغماسه في المجون والفسق؛ له بعض الزُهديات،
منها قوله:

أَرَى كُلَّ حَيٍّ هَالِكًا وَابْنَ هَالِكٍ وَذَا نَسَبٍ فِي الْهَالِكِينَ غَرِيقِ
فَقُلْ لِقَرِيبِ الدَّارِ إِنَّكَ ظَاعِنٌ إِلَى مَنْزِلِ نَائِي الْمَحَلِّ سَحِيقِ
إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ

ولأبي تمام وعلي بن الجهم وعبد الله ابن المعتز وابن الرومي قصائد في الزُّهد
والمواعظ؛ فلم يقنصر الزُّهد على الشعراء الزُّهَّاد فحسب؛ بل كان غرضاً من
أغراض الشعر يتطرق إليه الشعراء، حتى مَنْ حفل شعره منهم بالمجون، على
نحو ما نرى مع أبي نواس، ولا نبعد كثيراً إن قلنا بأن الزهد على غرار سائر
الموضوعات الشعرية قد تأثر أيضاً من بعض الوجوه بالتطوُّر الفكري والعلمي،
مما زاده عمقاً في المعنى، كما في الأبيات المنسوبة لمحمود الوراق:

١ المصدر السابق (ص ٢٠).

٢ المصدر السابق (ص ١٩).

٣ ديوان أبي نواس (٣٩٤).

٤ ديوان محمود الوراق (ص ٢٢٧)، تحقيق: وليد قصاب، مؤسسة الفنون، عجمان-
الإمارات، ط ١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.



تعصي الإله وأنت تظهر حُبَهُ هذا مُحالٌ في القياسِ بَدِيعُ
لو كان حُبُّكَ صادقاً لأطعتهُ إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وما لبث أن انبثق شعر الزهد والمواعظ عن تيار آخر أكثر عمقاً وانعزالاً؛ هو الشعر الصوفي، الذي نضج في العصر العباسي الثاني وفي القرون التالية؛ حيث كان أشد تأثراً وأوثق ارتباطاً بالجدل والفكر وتطوّر العلوم والمعارف، وبرز فيه شعراء كثيرون، وسنجعل له فصلاً خاصاً.

(١٠) الشعر السياسي:

ذكرنا ما كان عليه الشعر السياسي من نشاط في العصر الأموي، سببه شدة المقاومة السياسية المبنية على العقائد الفكرية المتصارعة، التي واجهها بنو أمية طوال عصرهم، وتوزعت بين الحزب الأموي الحاكم والخوارج والشيعة والزُّبيريين؛ حيث كان لكل حزب فيهم رأيه السياسي في مسألة الخلافة، وقد عبّر الشعر حينذاك عن ذلك الجانب السياسي إلى حدٍّ بعيد، حتى ما إذا جاء العباسيون؛ واجهوا أول عهدهم مقاومة سياسية شرسة، ولكنهم ما لبثوا أن أحمدها فاستتبّت لهم الأمور، وانخفضت حدة المقاومة الحزبية المناوئة للعباسيين؛ إذ اختفى الزبيريون من الساحة ولم يناد أحد بفكرتهم، وضعف الخوارج فلم يكن لهم أثر سوى بعض الثورات الطفيفة التي سرعان ما كان يقضي عليها الخلفاء العباسيون دون جهد كبير، بينما فرّ من بقي من بني أمية، واكتفوا بتكوين إمارة مستقلة لهم في الأندلس بعيداً عن العباسيين، ولم يبقَ غيرُ الطالبين وشيعتهم، فانخفض شأن الشعر السياسي وضعف ولم يعد له أثر كبير، صحيح أن الثورات لم تنقطع في العصر العباسي، لكنّها ثورات غلب عليها طابع التمرّد ولم تكن تُنبئ عن عقائد سياسية كما كانت الحال في عهد بني أمية، باستثناء ما كان من أبناء الحزب الطالبي وشيعتهم وهم الحزب الوحيد الذي بقي من عصر بني أمية حتى هذا العصر؛ إذ إن هؤلاء كانوا يعتقدون بأحقّيتهم في الخلافة، ويرون أنّ أبناء عمومتهم من بني العباس خدعوه

واستأثروا بها، وثار من ثار منهم غير مَرَّةٍ مطالبًا بالخلافة، لكنهم تلقَّوا أيضًا ضربات موجعة على يد العباسيين، قبل أن ينجحوا لاحقًا في تأسيس بعض الإمارات الشيعية على غرار دولة الأدارسة في المغرب والدولة الزيدية في طبرستان، واستمر ذلك العداء بين الفريقين، ونرى بعض آثاره في شعر عبد الله ابن المعتز العباسي، الذي يعرِّض بالطالبيين ويهجوهم في غير موضع، ويذكر أن قومه بني العباس هم من أخذوا بثأرهم من بني أمية الذين أذاقوهم الويلات، ويفاخرهم بأنهم نجحوا فيما أخفقوا هم فيه، ومن شعره في هذا الإطار:

أَبَى اللَّهُ إِلَّا مَا تَرَوْنَ فَمَا لَكُمْ	عِتَابٌ عَلَى الْأَقْدَارِ يَا آلَ طَالِبٍ
تَرَكْنَاكُمْ حِينًا فَهَلَّا أَخَذْتُمْ	ثُرَاثَ النَّبِيِّ بِالْقَنَاءِ وَالْقَوَاضِبِ
زَمَانَ بَنِي حَرْبٍ وَمَزَوَانَ مُمَسِكُو	أَعْنَةَ مُلْكٍ جَائِرِ الْحُكْمِ غَاصِبِ
أَلَا رَبِّ يَوْمٍ قَدْ كَسَوَكُمْ عَمَائِمًا	مِنَ الضَّرْبِ فِي الْهَامَاتِ حُمَرَ الدَّوَائِبِ
فَلَمَّا أَرَاكُم بِالسُّيُوفِ دِمَاءَكُمْ	أَبَيْنَا وَلَمْ نَمْلِكْ حَنِينَ الْأَقَارِبِ
فَحِينَ أَخَذْنَا تَأْرُكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ	فَعَدْتُمْ لَنَا تُورُونَ نَارَ الْخُبَابِ
وَحَزْنَا الَّتِي أَعَيْتَكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ	فَمَا دَنَبْنَا هَلْ قَاتِلٌ مِثْلُ سَالِبٍ ^٢

وفي المقابل نرى بعض الأشعار المتعاطفة مع الطالبيين وأبناء علي بن أبي طالب، كما نرى في حُسينيات الصنوبري؛ حيث كان يتفجَّع فيها على نكبة الحسين ابن علي رضي الله عنهما، وكان فيه ميلٌ إلى التَّشْيُّع، ولما ضعفت الدولة العباسية في العصر الثاني، واضطرب أمر خلفائها، وظهرت ثورات الرِّنج ثم القرامطة وما جرى أثناء الثورتين من فجائع ووقائع، حتى تم القضاء عليهما بعد جهد جهيد؛ نرى بعض ملامح الشعر السياسي المرافقة لتلك الأحداث والمعبرة عنها، كما نرى في بعض شعر ابن الرومي حينما ذكر اعتداء الرِّنج على البصرة، وكذلك في

^١ ديوان عبد الله ابن المعتز (ص ٥٠)، دار صادر، بيروت- لبنان، ط ٢، ١٤٣١هـ.

٢٠١٠م.

^٢ الحباب: ذباب يطير بالليل كأنه نار. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/ ٢٩٧)، دار صادر- بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ.

أشعار الصنوبري الذي هجا القرامطة وذكر اعتداءهم على الحجاج ورثى من قُتل منهم، ولكنّها على الجملة أضعف أثرًا مما كانت عليه في العصر الأموي.

مظاهر التجديد في الشعر العباسي:

لم يكتفِ الشعراء العباسيون وعلى رأسهم الشعراء المؤلّدون بالتجديد في الأغراض التقليدية القديمة؛ ولكنّهم استحدثوا أنواعًا ومظاهر أخرى من التجديد في عموم الشعر، فظهرت جوانب جديدة لم يألّفها الشعر القديم، كان أبرزها:

(١) الثورة على المقدمة الطليّة:

كما نعلم فإن المقدمة الغزليّة -أو ما يُسمّى بالبكاء على الأطلال- كانت عنصراً أساسياً للشعر وللقصيدة العربية، وكان الشاعر إذا أراد أن يقول قصيدة في المديح أو الفخر أو في شئٍ الموضوعات؛ كان عليه أن يبدأ أوّلاً بمقدّمة غزليّة يبكي فيها على الأطلال ويذكر حبّه الفاتت، ثم يدخل في موضوع القصيدة الرئيس.

وسبب شيوع هذا التقليد ما كان يجري في حياة البدو والصحراء من ترحال وتنقّل يؤدّي إلى الفراق بين المحبّين، فكان الشاعر يذهب إلى آثار موضع حبيبته ولقائها معه فيتذكر أيام حبّه ويبكي أثره الدارس، وقد صارت المقدّمة الطليّة تلك تقليدًا معروفًا يلجأ إليه الشاعر حتّى وإن لم يعيش تجربةً حقيقيّةً، وظلّ الأمر على حاله مع الشعراء المخضرمين وشعراء عصر بني أميّة، الذين كانوا يفتتحون قصائدهم بالمقدّمة الطليّة حفاظاً على تراث وتقاليد شعرهم القديمة؛ إذ ظلّ الطابع البدوي ماثلاً من بعض الوجوه، حتّى إذا هلّ العصر العباسي، وزاد توهّج المدنيّة، وانحسر الطابع البدوي؛ ظهر عدد من الشعراء الذين تربّوا في المدن ولم يألّفوا البادية؛ مثل الشعراء المؤلّدين الذين لم يعتادوا على طابع الحياة الصحراوية، ولم تكن لديهم عاطفة تربطهم بهذا التراث ولا بأحاسيس البكاء على الأطلال، فسرعان ما بدؤوا يظهرن تمرّدن على هذا

التقليد القديم، وبدؤوا يثورون للخروج عليه، كما نرى عند بشار بن برد إذ يقول^١:

كيف يبكي لمحبسٍ في طُلُولٍ مَنْ سَيُفْضِي لِحَبْسٍ يَوْمٍ طَوِيلٍ
إِنَّ فِي الْحَشْرِ وَالْحَسَابِ لَشُغْلًا عَنْ وَقُوفٍ بِكَلِّ رَسْمٍ مُخِيلٍ

وعلى خطاه مضى الشاعر أبو نواس يسخر هو أيضًا من البكاء على الأطلال، في مواضع عدّة من شعره^٢ منها قوله:

ما لي بدارٍ خَلْتُ مِنْ أَهْلِهَا شُغْلٌ وَلَا شَجَانِي لَهَا شَخْصٌ وَلَا طَلَلٌ
وَلَا رَسُومٌ وَلَا أَبْكِي لِمَنْزِلَةٍ لِلأَهْلِ عَنْهَا وَلِلْجِرَانِ مُنْتَقِلٌ

ومنها

لَا الْحَرْنَ مَنِي بِرَأْيِ الْعَيْنِ أَعْرِفُهُ وَلَيْسَ يَعْرِفُنِي سَهْلٌ وَلَا جَبَلٌ

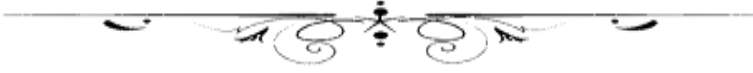
وبهذا اشتعلت الثورة ضدّ المقدّمة الطللية، صحيح أن إرهابات تلك الثورة قد ظهرت في العصر الأموي، ولكنّها كانت محاولات عفويّة طفيفة لم ترتقِ إلى مستوى الثورة وتماز الوضوح، حتى كان العصر العباسي، فكانت الثورة على المقدّمة الطللية مظهرًا من مظاهر الحياة المترفة والبيئة الجديدة، واستعاض أولئك الشعراء عن المقدّمة الطلّليّة بمقدّمات أخرى تتناسب مع روح العصر وثقافته وملامحه، فأما شعراء الحكمة كأبي تمام والمتنبي فكانوا في أحايين يفتتحون قصائدهم بحكمةٍ تتعلّق بموضوع النص، وأما الشعراء الماجنون على غرار أبي نواس فمالوا أحيانًا إلى البدء بمقدّمةٍ خمريّة بدلًا من الغزليّة، ويدعو إلى ذلك علنًا، كقول أبي نواس^٣:

دَعِ الْأَطْلَالَ تَسْفِيهَا الْجَنُوبُ وَثُبْلِي عَهْدَ جَدَّتِهَا الْخَطُوبُ
وَحَلِّ لِرَاكِبِ الْوَجْنَاءِ أَرْضًا تَخُبُّ بِهَا النَّجِيبَةُ وَالنَّجِيبُ

^١ ديوان بشار بن برد (ص ٥٨٤).

^٢ ديوان أبي نواس (ص ٤٢٥).

^٣ المصدر السابق (ص ٣٥).



ومن مقدماته الخمرية!

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًّا إذا أمكنَ الجهرُ
فما العيشُ إلا سكرةً بعد سكرةٍ فإن طالَ هذا عنده قُصرَ الدهرُ

وعلى نهجه سار مسلم بن الوليد إذ يقول:

أديري عليَّ الرَّاحَ ساقيةَ الخمرِ ولا تسأليني واسألي الكأسَ عن أمري

وأما الشعراء الذين عُرِفوا بوصف الطبيعة فقد مالوا إلى بدء قصائدهم

بمقدمةٍ عن وصف الطبيعة بدلًا من الطللية، كما فعل الصنوبري قائلًا:

هاتِ نقضَ الرياضِ حقَّ الرياضِ وانقبِضْ أن تُرى بعينِ انقباضِ
إن تُرَضْ في الرياضِ طُرُفي تُرَضُهُ غيرَ آبِ رياضةِ الرُّواضِ

وربّما دخل الشاعر في موضوعه مباشرة دون مقدمات من هذا النوع، وهكذا صارت مطالع القصائد تعبر عن سمات الحياة الجديدة، فالحكيم يفتح قصائده بالحكمة، والماجن يفتتحها بالخمر، والوصّاف يفتتحها بوصف الطبيعة، وهناك من استعاض عن وصف الأطلال بوصف القصور، ممّا يشير إلى أن مطالع القصائد صارت تعبيرًا عن طبيعة حياة كل فرد وبيئته.

على أن الثورة على المقدمة الطللية لا تعني اختفاءها وانتهاء عصرها؛ فقد ظلّت المقدمة الطللية متواجدة في هذا العصر؛ إذ ظلّ عدد من الشعراء محافظين على هذا الطابع التقليدي؛ مثل البُحتري الذي يفتح قصائده غالبًا بمقدمات طللية، يقول في إحدى مدائحه:

أُنِزَاعًا فِي الخُبِّ بعد نزوعٍ وذهابًا في الغيِّ بعد رجوعٍ
قد أَرِثَكَ الدُّمُوعُ يَوْمَ تَوَلَّيْتُ ظَعْنُ الحَيِّ ما وراء الدُّمُوعِ

١ المصدر السابق (ص ٢٠١).

٢ المصدر السابق.

٣ ديوان الصنوبري (ص ٢١٥).

٤ ديوان البُحتري (٧١٨ / ٢).



ومن أروع المطالع الطللية ما قاله أبو الطيب المتنبي:
لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ أَقْفَرْتُ أَنْتِ وَهْنٌ مِنْكَ أَوَاهِلُ
يَعْلَمَنَّ ذَاكَ وَمَا عَلِمْتَ وَإِنَّمَا أَوْلَاكُمَا يَبْكِي عَلَيْهِ الْعَاقِلُ

بل إن عددًا من شعراء التجديد ومن حملة شعلة الثورة على المقدمة الطللية، قد اضطروا في عدّة أحيان إلى ذكر البكاء على الأطلال في قصائدهم تقليدًا لا حبًّا؛ والسبب في ذلك أن علماء اللغة قد تعصّبوا لهذا النهج القديم للقصيدة العربية، وكانوا لا يُجيزون قصائد المديح بحقّ الخلفاء إلا ما كان منها على النهج التقليدي الجاهلي القديم من البدء بالمقدّمة الطللية أو المرور عليها، فاضطر عددٌ من شعراء التجديد إلى المُضيّ في طريقهم إرضاءً لهم، وهو ما يفسّر ظاهرة بقاء المقدمة الطللية في الشعر العباسي، خصوصًا في تيّار المديح، يقول بشّار ابن بُرد متكلّفًا هذا الأسلوب الأعرابي في إحدى قصائده:

أَمِنْ وَقُوفٍ عَلَى شَامٍ بِأَحْمَادٍ وَنَظْرَةٍ مِنْ وَرَاءِ الْعَابِدِ الْجَادِي
تَبْكِي نَدِيمِيكَ رَاحًا فِي حَنُوطِهِمَا مَا أَقْرَبَ الرَّائِحِ الْمُبْقِي مِنَ الْغَادِي

وفي موضع آخر يذكر الأطلال ويصف الليل والراحلة:
وَلَيْلٍ دَجُوجِي تَنَامُ بِنَائُهُ وَأَبْنَاؤُهُ مِنْ هَوَاهُ وَرَبَائِبُهُ
حَمِيثٌ بِهِ عَيْنِي وَعَيْنٌ مَطِيئَتِي لَذِيذُ الْكَرَى حَتَّى تَجَلَّتْ عَصَائِبُهُ

وخلاصة هذا أن المقدّمة الطللية لم تختفِ من الشعر العربي؛ ولكن القول هو أنّها لم تعد نهجًا إلزاميًا كما كانت في الماضي، فمن شاء بدأ بها، ومن شاء تخلّى عنها وبدأ بشيءٍ آخر بما يتناسب مع طبعه وروح عصره.

١ ديوان المتنبي (ص ١٨٥).
٢ ديوان بشّار بن بُرد (ص ٣٢٩).
٣ المصدر السابق (ص ١٤٢).

(٢) التجديد في الأوزان والقوافي:

لم يكتفِ الشعراء العباسيون بالتجديد في مطالع القصيدة؛ ولكن شمل تجديدهم الأوزان والقوافي كذلك، فأما القافية فقد كان الشعر على أسلوب القافية الموحدة والرؤي الثابت لا يتغير منذ مطلع القصيدة حتى خاتمتها وإن طالت، فُتسَمَّى القصيدة وَفُق حرف الرؤي؛ كالهزمية والبائية والتائية والميمية وهكذا، فلَمَّا أتى الشعراء المولّدون ثاروا على هذا النمط وخرجوا عليه وبدؤوا يعدّون في القوافي، فاخترعوا عدّة نماذج شعرية جديدة؛ من بينها المزدوجات والمسمّطات والرباعيات، فأما الشعر المزدوج فهو الذي تتحد فيه القافية بين شطري البيت الواحد وتختلف من بيت لآخر، ومن أمثلته قول أبي العتاهية في أرجوزته:

حَسْبُكَ مِمَّا تَبْتَغِيهِ الْقُوْثُ	مَا أَكْثَرَ الْقُوْثَ لِمَنْ يَمُوتُ
الْفَقْرُ فِيمَا جَاوَزَ الْكَفَافَا	مَنْ اتَّقَى اللَّهَ رَجَا وَخَافَا
إِنْ كَانَ لَا يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكََا	فَكُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ لَا يُغْنِيكََا
إِنَّ الْقَلِيلَ بِالْقَلِيلِ يَكْثُرُ	إِنَّ الصَّفَاءَ بِالْقَذَى لَيُكْثِرُ

وأما المسمّطات فهي قصائد تتألف من أدوار، كل دور يتكون من أربعة أو خمسة شطور تتفق جميعها على قافية واحدة، ما عدا الشطر الأخير تكون له قافية مغايرة تتحد مع بقية الشطور الأخيرة في كل القصيدة، فالتى تتكوّن من أربعة أشطُر تُعرف بالمسمّطة الرباعية، والتي تتكوّن من خمسة تعرف بالمسمّطة الخمسة، وأما الرباعية فهي التي تتألف من أربعة شطور يتفق أولها وثانيها ورابعها في قافية واحدة، بينما يتخذ الشطر الثالث قافيةً مختلفةً تكون هي عمود القصيدة.

وقد شاعت هذه الأنواع المتجدّدة تماشيًا مع حالة الترف والغناء من جهة، ورغبة المولّدين في الخروج على نظام القافية الموحدة من جهةٍ أخرى، من باب

^١ ديوان أبي العتاهية (ص ٤٤٤).

التجديد، ونظّم على هذا النمط شعراء عديدون مثل: أبان بن عبد الحميد،
ومحمد بن إبراهيم الفزاري في مزدوجته الفلكية، والرقاشي، وحماد عجرد،
وديك الجن؛ واستعملت المزدوجات بكثرة في الشعر التعليمي.

والجدير بالذكر أنه رغم سعي بعض الشعراء إلى التجديد في نظام القوافي؛ فإنَّ
السيادة ظلّت للقافية الموحدة، وقد أثبتت التجربة العملية أن الأذن تتكيّف
أكثر مع الإيقاع الموسيقي الذي تصنعه القافية الموحّدة؛ إذ إن تعدّد الرّوي
والقافية يُضعِف من هذا الإيقاع الذي يطرب الأذن، لذا كان ما استحدثه
الشعراء المولدون من أنظمة القوافي مناسبًا لظروف الغناء وأجواء الموسيقى
واللهو، فراج حينها رواجًا عظيمًا، ولكن الشّعر الرسمي المتمثّل في المديح والثناء
والهجاء والغزل ظلَّ على طبعه من القافية الموحدة التي تصنع لها ما يناسبها من
الإيقاع.

ولم تكن القوافي وحدها هي موضع تجديد الشعراء العباسيّين؛ بل إنهم جدّدوا
كذلك في أوزان القصيدة؛ حيث كان الشعراء القدامى يميلون إلى الأوزان ذات
الإيقاع الطويل وعلى ذلك كانت أغلب قصائدهم، فلمّا جاء العصر العباسي؛
اندفع الشعراء إلى النظم على الأوزان القصيرة والرشيقة، والبحور الخفيفة
والمجزوءة؛ تماشيًا مع نمط الحياة الجديد الذي يتطلّب الخفّة والسرعة، كما
فطنوا إلى بحور كانت مهملة في الشعر الجاهلي، ومنها المجتث الذي فطن إليه
الوليد بن يزيد في العصر الأموي، وما لبث أن فطن الشاعر العباسي إلى أوزان
جديدة؛ هي: المضارع، والمقتضب، والمتدارك الذي أهمله الخليل واستدركه
تلميذه الأخفش، بالإضافة إلى بحر مختَرع أطلق عليه اسم الدوبيت، ومن أمثلة
ما نُظِم عليه قول كشاجم:

ونديمٍ مخالفٍ لا يشاءُ الذي أشأ هُوَ في الصّحو لي أخٌ وعدوّ إذا انتشا
اقتَرَحْتُ العِشاءَ يومًا عليه فأدهشا ساعةٌ ثمَّ قال لي العِشا يُورِثُ العِشا

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ١٩٦ - ٢٠٠).

^٢ ديوان كشاجم (ص ١٩٣).

ومن أشهر المقطوعات التي نُظِمت على البحر المقتضب مقطوعة أبي نواس
الشهيرة التي قال فيها!

حَامِلُ الْهَوَى تَعِبُ	يَسْتَخِفُّهُ الطَّرِبُ
إِنْ بَكَى يُحَقُّ لَهُ	لَيْسَ مَا بِهِ لَعِبُ
تَضْحَكِينَ لَاهِيَةً	وَالْمَحِبُّ يَنْتَحِبُ
تَعْجَبِينَ مِنْ سَقَمِي	صِحَّتِي هِيَ الْعَجَبُ
كُلَّمَا أَقْضَى سَبَبُ	مِنْكَ عَادَ لِي سَبَبُ

وهي مقطوعة قصيرة، ومع هذا فقد نالت شهرة واسعة، وكان لها صيت عظيم،
وكثيراً ما كانت تُستنشد وتُغنى في الحانات؛ نظراً إلى أن إيقاعها السريع وما
يرافقه من رشاقة كان يتناسب مع أساليب الغناء ومع الجو العام الذي يميل إلى
الترف.

ودواوين بشار بن برد وأبي العتاهية وأبي تمام وسلم الخاسر وابن الرومي
قصائد شتى على هذا النحو من البحور الخفيفة والمجزوءة، نورد منها ما قاله
بشار بن برد على مجزوء الهزج!

أَلَا يَا نَفْسَ الْمِسْكِ الـ(م)	لَذِي يُخَالِطُ بِالْعَنْبَرِ
شَفَاكَ اللَّهُ مِنْ شَخْصٍ	عَلَى مِيعَادِكَ الْأَعْسَرُ
تَشِينُ الْوَعْدَ بِالْخُلْفِ	وَأَنْتَ الْمُقْبِلُ الْمُدْبِرُ
وَمَا قَوْلُكَ لِي أَرْضِي	كَ إِلَّا سُكَّرَ مُسْكِرُ

ومنها ما قاله أبو تمام على بحر المجتث!

يَا مَنْ جَدَاهُ قَلِيلُ	وَمَنْ بَلَاهُ طَوِيلُ
وَمَنْ دَعَانِي إِلَيْهِ	طَرَفُ أَحْمُ كَحِيلُ
وَوَاضِحُ النَّبْتِ يَحْكِي	مِزَاجُهُ الزَّنَجِيلُ

١ ديوان أبي نواس (ص ٤٧).

٢ ديوان بشار بن برد (ص ٥٢٠).

٣ ديوان أبي تمام (ص ٤٣٦).



والفضل في هذا يرجع إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي؛ الذي أسَّس علم العروض وفطن من خلال التفعيلات المستخدمة فيه إلى عدَّة بحور مهمة لم يستعملها الجاهليون أو نَدَر استعمالهم إيَّاهَا، فمَهَّد ذلك للشعراء العباسيين استحداث مجموعة من البحور استنبطوها من خلال التفعيلات التي فطن لها، فظهرت بحور جديدة، وقاموا بعكس بعض البحور الأصلية، فظهر معكوس المنسرح ومعكوس البسيط ومعكوس المديد، بالإضافة إلى وزن شعبي جديد أُطلق عليه اسم المواليا، نُظِّمَت عليه بعض القصائد؛ وكانت محاولات التجديد تلك في الأوزان والقوافي دافعًا إلى ظهور ما عُرف بالموشَّحات في الأدب الأندلسي.

(٣) الصنعة الأسلوبية:

ونعني بالصنعة الأسلوبية ما اشتملت عليه من ألوان البديع مثل الطباق والمقابلة والجناس وما كان في هذا الإطار؛ أما الطَّباق فهو إيراد كلمتين متضادَّتين في المعنى، والمقابلة هي إيراد جملتين متضادَّتين في المعنى، والجناس هو إيراد كلمتين متشابهتين في المعنى، وهو على نوعين: الجناس التام المختصَّ بالكلمتين المتشابهتين تمامًا، والجناس الناقص المختص بالكلمتين اللَّتين فيهما اختلاف بحرف واحد فقط، واللغة العربية حافلة بأمثال تلك الذخائر منذ القِدَم، ولكنها لم تظهر في كلامهم وأشعارهم في جاهليتهم إلا إذا تصادف ذلك عفوًا، إلى أن جاء بشار بن برد في طليعة العصر العباسي، فأراد أن يسير بالشعر خطوةً أخرى نحو ترقيته وتجويده، وقصد إلى تلك الصنعة الأسلوبية، واستعملها في شعره حتى أصبحت أساسًا فيه، وديوانه حافل بمظاهرها التي استعملها في شعره ببراعة، ومن ذلك قوله في طباق بين كلمتي (البعد والقرب):

أَحَاذِرُ بَعْدَ الدَّارِ وَالْقُرْبُ شَاعِفٌ فَلَا أَنَا مَغْبُوطٌ بِبُعْدٍ وَلَا قُرْبٍ

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ١٩٣ - ١٩٦).

^٢ ديوان بشار بن برد (ص ٧٣).

وفي موضع آخر يطابق بين كلمتي (الشرق والغرب) في صدر البيت، وبين كلمتي (المقيم والراحل) في عجزه فيقول:

رَمِيتُ بِهِ شَرْقًا وَغَرْبًا فَأَصْبَحْتُ بِهِ الْأَرْضُ مَلَأَى مِنْ مُقِيمٍ وَرَاحِلٍ

ومن مقابلاته الرائعة التي كان يأتي بها في إطار بعض الحكم البديعة ما قاله يقابل بين قلة أهل الخير وكثرة أهل الشر:

وَمَا قَلَّ نَفْسُ الْخَيْرِ بَلْ قَلَّ أَهْلُهُ وَأَخْطَأَتْهُ وَالشَّرُّ فِي النَّاسِ أَكْثَرُ

وفي صورة أخرى بديعة من المقابلة يقول:

شِفَاءُ الْعَمَى طُولُ السُّؤَالِ وَإِنَّمَا تَمَامُ الْعَمَى طُولُ السُّكُوتِ عَلَى الْجَهْلِ

وجاء بعده مسلم بن الوليد الذي توسّع في الصنعة الأسلوبية، واستعمل منها أضراباً عدة في الجناس والطباق والمقابلة، وكيف صنعتّه مع معانيه وتشبيهاته وصوره البيانية، يقول مجانساً بين (مجدود ومحدود) وكتاهما في القافية، كلُّ منهما في بيت:

اَقْذِفْ أَبَا مَلِكٍ فِيهَا يَكُنْكَ بِهَا وَيَسْنَعُ فِيهَا بِجِدٍّ مِنْكَ مَجْدُودٍ
يَمْضِي بِعِزِّكَ أَوْ يَجْرِي بِشَأْوِكَ أَوْ يَفْرِي بِحَدِّكَ كُلُّ غَيْرٍ مَحْدُودٍ

وفي موضع آخر استعمل مسلم بن الوليد دروباً من الصنعة في صورةٍ فنيّةٍ بديعة، حينما قرن صنعتّه الأسلوبية بألوان من التشبيه في قصيدته التي يمدح بها يزيد بن يزيد الشيباني قائلاً:

يَغْشَى الْوَعَى وَشِهَابُ الْمَوْتِ فِي يَدِهِ يَرْمِي الْفَوَارِسَ وَالْأَبْطَالَ بِالشُّعْلِ
يَفْتَرُّ عِنْدَ افْتِرَارِ الْحَرْبِ مُبْتَسِمًا إِذَا تَغَيَّرَ وَجْهُ الْفَارِسِ الْبَطْلِ
مُوفٍ عَلَى مُهْجٍ فِي يَوْمِ ذِي رَهْجٍ كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ

١ المصدر السابق (ص ٥٨٢).

٢ المصدر السابق (ص ٥٠١).

٣ المصدر السابق (ص ٥٧٩).

٤ ديوان مسلم بن الوليد (ص ١٧٠).

٥ المصدر السابق (٩).

يَنَالُ بِالرِّفْقِ مَا يَعْيَا الرِّجَالُ بِهِ كَالْمَوْتِ مُسْتَعْجِلًا يَأْتِي عَلَى مَهْلٍ

وهنا جانس الشاعر بين (مهج ورهج)، وبين (أجل وأمل)، وكذلك بين (يفتر وافترار) في لونٍ من المشاكلة؛ إذ جعل القائد يفترُّ منتصرًا والحرب تفتُر عن أنيابها، كذلك أتى بمقابلة بديعة في صورة بيانية رائعة حينما قال: (الموت مستعجلًا يأتي على مهل)، وزَيَّن كلامه بصورة باستعارة رائعة حينما استعار كلمة "شهاب" وأطلقها على السَّيف، في نمط يدل على قدرته الفائقة على تكييف الصنعة الأسلوبية مع المعنى والصور البيانية، في فكرٍ خصبٍ وخيالٍ بديع، وديوان مسلم بن الوليد مليء بمواضع الصنعة الأسلوبية؛ مثل قوله:

فَالْمُلْكُ مَمْتَنَعٌ وَالشَّرُّ مَتَزَعٌ وَالْخَيْرُ مَتَسَعٌ وَالْأَمْرُ مُعْتَدِلٌ

وهنا يستعمل الشاعر المقابلة بين الشَّرِّ المتَزَعِ المقطوع وبين الخير المتَسَعِ، كما يتضح لنا لونٌ آخر من البديع وهو التسميط؛ حيث قَسَمَ بيته إلى أربعة أشطر اتفقت ثلاثتها الأولى في حرف واحد مخالف لحرف القافية وهو العين في (ممتنع ومتَزَع ومتَسَع).

ويعتبر أبو تمام أحد أبرز من مال إلى الصنعة في شعره؛ حيث استعملها بكثرة حتى أجاد، وسار فيها شوطًا أبعد مدى، وانتقل به إلى طور آخر حينما كسا بديعه بطابع فلسفي جعل منه أكثر عمقًا وإحكامًا في اللفظ والمعنى؛ ليصير بحقٍّ إمام مذهب الصنعة وشاعرها الفذِّ، وديوانه عامر بمظاهر الصنعة البديعية؛ إذ كَيَّفَهَا مع المعنى تكييفًا رائعًا، في إطار فلسفي وخيالٍ خصب، وكان ماهرًا في سبك اللفظ على المعنى، ومن أمثلة ذلك قوله يقابل بين شطري البيت:

أَضْحَكَتْ مِنْهُمْ ضِبَاعُ الْقَاعِ ضَاحِيَةً بَعْدَ الْعُبُوسِ وَأَبْكَيْتِ الْعُيُونَ دَمًا

وفي صورة أخرى يقول:

^١ المصدر السابق (ص ٢٥٢).

^٢ ديوان أبي تمام (ص ٢٨٤).

^٣ المصدر السابق (ص ٣٠٨).

وتَرَى الكَرِيمَ يَعِزُّ حِينَ يَهُونُ وتَرَى اللَّئِيمَ يَهُونُ حِينَ يَهُونُ

وهنا نرى الشاعر يستعمل المقابلة بين صفتي الكريم واللئيم في شطري البيت، وترى الجنس التام في (يهون) الأولى بمعنى التواضع، وهي صفة الكريم، والثانية بمعنى الاحتقار، وهي صفة اللئيم، وهو سياق معنوي ولفظي رائع يدل على مدى عمق معاني أبي تمام، واتساع أفكاره، وتطور خياله الخصب، كما نراه في موضع آخر يستعمل الجنس في كلمتي (الصبر والنصر) في قوله!

يُشَيِّعُهُ أَبْنَاءُ مَوْتٍ إِلَى الْوَعَى يُشَيِّعُهُمْ صَبْرٌ يُشَيِّعُهُ نَصْرٌ

وفي مقابلة يتضح فيها عمق المعنى يقول مادحاً:

يَا مَنْ إِذَا قَعَدَتْ بِالْقَوْمِ هِمَّتُهُمْ عَنِ اكْتِسَابِ الْغُلَى قَامَتْ بِهِ الْهَمَمُ

وفي هذا البيت يتضح أن الصنعة الأسلوبية لم تعد مجرد لعبٍ بالألفاظ فحسب؛ بل امتزجت مع المعنى امتزاجاً ذهنياً رائعاً يدل على خصوبة الفكر وبلوغها غاية في التعقيد والعمق، وهو ما فاق به أبو تمام صاحبيه بشأراً ومسلماً، كما يتضح الجانب الفلسفي في فكر أبي تمام وصنعته الأسلوبية حينما يقول:

أَلْبَسْتُ فَوْقَ بَيَاضِ مَجْدِكَ نِعْمَةً بَيَاضاً تَسْرِعُ فِي سَوَادِ الْحَاسِدِ

حيث لم يعد البياض والسواد لوناً صريحاً أو طباقاً لفظياً مباشراً؛ إنما استعمل أبو تمام لفظ البياض والسواد في إطار صورة بيانية بديعة حين استعار كلمة البياض لوصف صاحب النعمة والمجد، واستعار السواد لوصف حقد الحاسد، ثم جعل البياض ينتصر على السواد وينتشر فيه.

وهناك من لجأ إلى الصنعة البديعة مثل أبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي والصنوبري، ولكن هؤلاء استعملوها بقدرٍ ولم يتبحروا فيها أو يعتمدوا عليها

١ المصدر السابق.

٢ المصدر السابق (ص ٢٩٨).

٣ المصدر السابق (ص ٨٦).

اعتمادًا كليًا على غرار بشار ومسلم بن الوليد وأبي تمام، وقد حاول شعراء كثيرون تقليد أبي تمام في الاعتماد على تلك المحسنات البديعية واتخذوا منه إمامًا ومثالًا، ولكنهم جميعًا لم تتفق لهم قدرات أبي تمام ولا مواهبه وقدراته الفنيّة، فلم يبرز منهم أحد، باستثناء عبد الله ابن المعتز الذي كان شاعرًا ماهرًا، فاعتنى في شعره بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق، وله في البديع تصنيف خاص شارحًا ألوانه، ومن شعره يجانس بين (السَّماء والمساء)!

مَا لِهَذَا الْمَسَاءِ لَا يَتَجَلَّى أَحْيَاءٌ مِنْهُ سِرَاجُ السَّمَاءِ
وَفِي الْقَصِيدَةِ نَفْسَهَا أَيْضًا فِي سِيَاقٍ جَمِيلٍ يُقَابِلُ بَيْنَ (الدُّجَى وَالصَّبَاحِ)؟
وَالدُّجَى قَدْ يَنْهَضُ الصُّبْحُ فِيهِ قَائِمًا يَنْشُرُ ثَوْبَ الصَّيَاءِ

وفي قصيدة أخرى يقول مازجًا بديعًا بصورة بيانية رائعة؟

سَقَانِي وَقَدْ سُلَّ سَيْفُ الصَّبَا ح، وَاللَّيْلُ مِنْ خَوْفِهِ قَدْ هَرَبَ

وقد أدى إمعان بعض الشعراء في استعمال الصنعة اللفظية واستكثارهم منها إلى شيء من الركود في الشعر فيما بعد؛ والسبب في ذلك أن الحلي اللفظي إذا استُعمل بسرفٍ وإفراط فإنه يكون على حساب المعنى لأنّه يقيدّه، وتظهر فيه آثارُ الافتعال والتكلف، فيضعف الشعر ويضعف معناه، والخير هو عدم الاسراف في استعمال الصنعة، واستعمالها بما يكون متكيّفًا مع المعنى، ويكون وسيلةً لتنميق الأسلوب وتزيين المعنى، لا أن تُجلبَ هدفًا لذاتها على حساب روح الشعر.

(٤) الاتجاه العقلي:

أدّى تطور العلوم والمعارف في العصر العباسي -ونعني بالأخص العلوم العقلية والنظرية، ولا سيّما فيما يخص علوم الفلسفة والحكمة والمنطق- إلى طبع عددٍ

^١ ديوان ابن المعتز (ص ١٠)، دار صادر، بيروت- لبنان، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

^٢ المصدر السابق.

^٣ المصدر السابق (ص ٦٤).

من الشعراء بعقليّات خاصة، وأساليب فكريّة جديدة؛ حيث أكبّ الشعراء على علوم الفلسفة والمنطق وسائر المعارف، واطّلع بعضهم على الآداب الفارسية واليونانية والهندية، وما فيها من تراث وحِكم وعلوم، ممّا أظهر لديهم نظرات تأمليّة دفعتهم إلى إمعانهم في التفكير بما حولهم، والتّعمّق في نظرتهم للأشياء، فكانت تلك الثقافات والعلوم غذاء لعقليّات عددٍ كبير من الشعراء، وبدأ يظهر لون من الشعر تسيطر عليه النزعة الذاتية التي تصوّر هذا الاتجاه العقلي، فالشعر لم يعد مجرد أغراض تقليدية من مديح وثناء وفخر ووصف وغزل وخمر ومجون وزهد؛ بل صار الشعر تعبيرًا عن أعماق النّفس ودواخلها وحديثها ونظراتها وتأمّلاتها، وربّما بدأت تظهر إرهابات تلك النزعة الذاتية في بعض أشعار العذريّين من أمثال قيس بن الملوّح (مجنون ليلى) وقيس بن ذريح (قيس لُبّى) وغيرهما، غير أن تلك النزعة كانت آنذاك تندرج تحت بند الغزل العذري، بحيث لم يتّضح هذا الاتجاه وتكتمل ملامحه إلا مع العصور العباسية، مع تطور العلوم العقلية ولا سيّما مع بدء العصر العبّاسي الثاني وتأثّر الشعراء بالفلسفة واطّلاعهم على الثقافات الأجنبية والحِكم وعلوم المنطق، مما أدّى إلى تطور نزعة الفكر.

ويُعتبر ابن الرومي أحد أبرز شعراء العصر العبّاسي الثاني والقرن الثالث الهجري خير من يمثّل هذا الاتجاه الذي ربّما نرى بعض إرهاباته عند بشار وأبي تمام، ولكنه اتضح أكثر وبشكل مكتمل عند ابن الرومي الذي تظهر فيه تلك النزعة الذاتية في بعض أغراض شعره بوضوح، فقد لقي من الفجائع في حياته مع ألهب شعلة الرثاء في شعره، مصوّرًا جانبًا عقليًا متعمّقًا، فضلًا عن إطلاعه الواسع على المعارف والثقافات المختلفة التي جعلت أوصافه الشعرية وما قاله من الحِكم تحمل جانبًا من تلك النزعة الذاتية، ومن شعره ينصح بمجانبة النّاس، في صورة تتّضح فيها تلك النزعة الذاتية والعقلية!

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكَثِرَنَّ مِنَ الصَّحَابِ

^١ ديوان ابن الرومي (١/ ١٤٩).



فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَحُولُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ
إِذَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ غَدًا عَدُوًّا مُبِينًا وَالْأُمُورُ إِلَى انْقِلَابِ
وَلَوْ كَانَ الْكَثِيرُ يَطِيبُ كَانَتْ مُصَاحِبُهُ الْكَثِيرِ مِنَ الصَّوَابِ

ويحمل الرثاء جانبًا واضحًا من تلك النزعة العقلية في شعر ابن الرومي، تتضح في رثائه لمن فقد ولده، وتتضح كذلك في الرثاء المعنوي، فهو لم يكتفِ برثاء الأشخاص فحسب؛ بل نراه يتجه إلى رثاء شبابه الفاتت، كما في قوله:

يَا شَبَابِي وَأَيْنَ مَنِّي شَبَابِي آذَنْتَنِي حِبَالُهُ بَانْقِضَابِ
دَوْلَةٌ يَغْمُرُ الزَّمَانُ فَتَاهَا سَوَّمَتْ بِالسَّوَادِ سِيمَا الشَّبَابِ
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى نَعِيمِي وَلَهْوِي تَحْتَ أَفْنَانِهِ اللَّدَانِ الرِّطَابِ
وَمَعَزَّ عَنِ الشَّبَابِ مُؤَسَّ بِمَشْيِبِ اللَّدَاتِ وَالْأَتْرَابِ

ولم تقتصر النزعة العقلية عند ابن الرومي في مرثياته ونُصَحِه فحسب؛ بل امتدَّت كذلك إلى أوصافه، فهو وإن كان كأقرانه مضى في الوصف الحسي والمظهري؛ فإنه لم يتوقف عند هذا الحد؛ بل اتَّجه إلى الوصف المعنوي والعقلي؛ إذ نراه يصف البُخل وتقلُّب الزمان والدهر والوحدة والشَّيب وبعض صفات البشر؛ ومن ذلك ما قاله في ذم الزمان:

دَهْرٌ عَلا قَدْرُ الْوَضِيعِ بِهِ وَهَوَى الشَّرِيفِ يَحْطُّهُ شَرْفُهُ
كَالْبَحْرِ يَرْسِبُ فِيهِ لَوْلُوهُ سَفَلًا وَتَطْفُو فَوْقَهُ جِنْفُهُ
فَاصْبِرْ عَلَى هَوْلِ الْخُطُوبِ لَهَا قَلْبٌ نَمَاهُ إِلَى الْعَلَا سَلْفُهُ

وفي نمطٍ مُشابه يصف شُحَّ النفس قائلاً:

قِنِّي يَا إِلَهِي شُحَّ نَفْسِي فَإِنِّي أَرَى الْجُودَ لِي حَظًّا وَشِيمَتِي الْبُخْلُ

^١ المصدر السابق (١/ ٢٣٢).

^٢ المصدر السابق (٢/ ٤٠٨).

^٣ المصدر السابق (٣/ ١٧٠).

ومثلت الحكمة في شعره جانبًا آخر من هذا الاتجاه العقلي؛ إذ قال يصف
الحقد في إطار من الحكمة، مع الوصف المعنوي، ويذكر أنه داءٌ لا دواءَ له!

يا مَادِحَ الْحِقْدِ محتالًا له شَبَهًا لَقَدْ سَاكَتَ إِلَيْهِ مَسَاكًا وَعِثَا
لَنْ يَقْلِبَ الْعَيْبُ زَيْنًا مِنْ يُزَيِّنُهُ حَتَّى يَرُدَّ كَبِيرًا عَاتِيًا حَدَا
قَدْ أَبْرَمَ اللَّهُ أَسْبَابَ الْأُمُورِ مَعَا فَلَنْ تَرَى سَبَبًا مِنْهُمْ مَنَكَا
يا دَاغِنِ الْحِقْدِ فِي ضِغْفِي جَوَانِحِهِ سَاءَ الدَّفِينُ الَّذِي أَمَسَتْ لَهُ جَدَا
الْحَقْدُ دَاءٌ دَوِيٌّ لَا دَوَاءَ لَهُ يُرِي الصُّدُورَ إِذَا مَا جَمَرُهُ حُرثَا

وقال ابن الرومي كذلك في هذا الاتجاه مفضلًا القلم على السيف، في صورة
يتَّضح فيها مدى تأثير النَّزعة الذاتية لديه بتطور العلوم والمعارف العقلية:

إِنْ يَخْدِمِ الْقَلَمُ السَّيْفُ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ وَدَانَتْ خَوْفُهُ الْأَمَمُ
فَالْمَوْتُ وَالْمَوْتُ لَا شَيْءٌ يَغَالِبُهُ مَا زَالَ يَتَّبِعُ مَا يَجْرِي بِهِ الْقَلَمُ
كَذَا قَضَى اللَّهُ لِلْأَقْلَامِ مُذْ بُرِيَتْ أَنَّ السُّيُوفَ لَهَا مُذْ أُرْهِفَتْ خَدَمُ

وديوان ابن الرومي مليء بتلك النَّزعة الذاتية التي تصوّر هذا الاتجاه العقلي في
أغراضٍ مختلفة، وهي تمثّل جوانب قيّمة في شعره؛ حيث مثّل فكرُ ابن الرومي
إلهامًا لشعراء أتوا بعده في عصور متلاحقة، ولأنّها أيضًا تصوّر نمط التَّطوُّر
الفكري الذي رافق الشعر في العصر العباسي، وبلغ قمّته عند الشاعر أبي
العلاء المعري الذي كان متعمّقًا في علوم الفلسفة والحكمة واللغة والجغرافيا
والتاريخ والفلك، فبلغ بتلك النَّزعة الذاتية درجة فائقة تجسّدُها حكمته
وفلسفته، يقول في إطار من الحكمة المصوّرة لتلك النزعة العقلية:

الْفِكْرُ حَبْلٌ مَتَى يُمَسِّكُ عَلَى طَرَفٍ مِنْهُ يُنْطُ بِالنُّرْيَا ذَلِكَ الطَّرَفُ
وَالْعَقْلُ كَالْبَحْرِ مَا غِيَضَتْ غَوَارِبُهُ شَيْئًا وَمِنْهُ بَنُو الْأَيَّامِ تَغْتَرِفُ

^١ المصدر السابق (١/ ٢٧٧).

^٢ المصدر السابق (٣/ ٢٨٤).

^٣ ديوان أبي العلاء المعري، اللزوميات (٢/ ١٠٢)، شرح: غريد الشيخ، مؤسسة الأعلمي
للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

أَبْنِي بِجَهْلِي دَارًا لَسْتُ مَالِكَهَا أَقِيمُ فِيهَا قَلِيلًا ثُمَّ أَنْصَرِفُ

ويقول علي بن الجهم واصفًا الكتاب، في صورة تجسّد إلى أي مدى وصل تأثير الجوانب العلمية والثقافية على الحياة العامة وما طبعته على الشعراء من نظرات تأملية عميقة!

سَمِيرٌ إِذَا جَالَسْتُهُ كَانَ مُسَلِّيًّا فَوَادَكَ مِمَّا فِيهِ مِنْ أَلَمِ الْوَجْدِ
يُفِيدُكَ عِلْمًا أَوْ يَزِيدُكَ حِكْمَةً وَغَيْرُ حَسُودٍ أَوْ مُصِرٍّ عَلَى الْحَقْدِ
وَيَحْفَظُ مَا اسْتَوْدَعْتَهُ غَيْرَ غَافِلٍ وَلَا خَائِنٍ عَهْدًا عَلَى قِدَمِ الْعَهْدِ

ولا نستطيع إغفال دور المعتزلة في إثراء الجانب العقلي في الشعر العربي، وكان شعرهم انعكاسًا لأثر ثقافتهم وسعة اطلاعهم وقدرتهم على الجدل، وفي أشعار التّصوّف كذلك قدرٌ هائل من ذلك الجانب العقلي؛ لأنّ شعراء التصوف كان شعرهم مرتبطًا بأحاسيسهم الذاتية، وقد تأثروا أيضًا بالتطوّر العلمي والعقلي في هذا العصر كما سنرى.

(٥) التّصوّف:

يُعتبر تيّار التّصوّف من مظاهر التّديّن التي برزت في العصر العباسي، وقد أُلْمِنَا بشيءٍ من تفاصيله ونشأته وكيفية ظهوره وتطوّره وأبرز أعلامه، أثناء حديثنا عن ملامح الحياة الاجتماعية في العصر العباسي، وهو كالزُّهد كان تيّارًا مضادًا لتيّار المجون والخلاعة، ولكنهما يختلفان اختلافًا واضحًا من عدّة وجوه وإن كانا من نفس منبع التّديّن؛ إذ إنّ الزُّهاد قد زهدوا في الدنيا وتعبّدوا، ولكنهم لم ينعزلوا عن الحياة العامة ولم ينقطعوا عن الناس، بخلاف المتصوّفة الذين بالغوا في العزلة، وتعمّقوا في معانهم وطقوسهم، وانقطعوا عن الناس متوجّهين إلى الله بالعبادة.

١ ديوان علي بن الجهم (ص ١١١).

ومثلما كان شعر الزُّهد معبراً عن حياة الرُّهَّاد في العصر العبَّاسي؛ فقد كان شعر التَّصَوُّف معبراً بوضوح عن حياة المتصوِّفة، وقد حمل ملامح تختلف عن شعر الزُّهد؛ إذ إن شعر الزهد قد شملت موضوعاته أغراضاً عامة كالتذكير بالآخرة، والترهيد في الدنيا، والدعوة إلى التوبة، والترغيب في الطاعة، والترهيب من المعصية، وذكر التقوى والحساب والعمل الصالح والجنة والنَّار والثواب والعقاب وما إلى ذلك، أما شعر التصوف فقد كان أكثر عمقاً وتأثراً بالاتِّجاه العقلي والنبرة الذاتية؛ إذ وصفوا أحاسيسهم، ووصفوا صلتهم برَبِّهم، وأمعنوا النظر فيما حولهم، فأورثهم هذا قدراً عظيماً من التأمُّل، وكان في عاطفتهم صدق وعمق، وكانت مشاعرهم غايةً في الحرارة والشغف ولوعة الحب، كما مضى شعراؤهم يتعمَّقون في معانهم، فتحدَّثوا عن الذات الإلهية وعن الحب الإلهي وخلوص النفس تماماً إلى الله؛ وهذا كله كان بسبب تعمُّقهم في العزلة والعبادة من جهة، وتأثُّرهم بتطور العلوم والمعارف العقلية -وعلى الأخص الحكمة والفلسفة- من جهة ثانية، وتصوُّر أشعارهم هذا الجانب من الإحساس بالحب العميق وخلوِّ القلب تماماً من الدنيا، كما في قول سمنون المحب:

وكان فؤادي خالياً قبلُ حُبِّكم	وكان بذكر الخلق يلهو ويمرّح
فلما دعا داعي هوائكم أجابه	فلسْتُ أراه عن وصالِك يبرّح
رُميتُ ببين منكِ إن كنتُ كاذباً	وإن كنتُ في الدُّنيا بغيركِ أفرّح
وإن كان شيءٌ في البلادِ بأسرها	إذا غبتَ عن عيني بعيني يملّح
فإن شئتُ واصلني وإن شئتُ لا تصل	فلسْتُ أرى قلبي لغيركِ يصلّح

وفي موضعٍ آخر يتضح مدى العمق في أحاسيس الحبِّ والجانب العقلي، يقول سمنون المحب:

بكيث ودمع العين للنفسِ راحة	ولكن دمع الشوق يُنكي به القلبُ
ونكري لما ألقاه ليس بنافعي	ولكنه شيءٌ يهيجُ به الكربُ

١ طبقات الصوفية، السلمي (ص ١٦١).

٢ المصدر السابق (ص ١٦٢).

فَلَوْ قِيلَ لِي مَنْ أَنْتَ قُلْتُ مَعَذَّبٌ بِنَارٍ مَوَاجِيدٍ يَضْرِبُهَا الْعَثْبُ
بُلِيْتُ بِمَنْ لَا أَسْتَطِيعُ عِقَابَهُ وَيَعْتَبِنِي حَتَّى يُقَالَ لِي الذَّنْبُ

وكثرت الأشعار التي تُعبر عن ملامح التَّصَوُّف في العصر العباسي وما تضمَّنه من موضوعات الحب الصوفي ومصطلح العشق الإلهي، وأخذ هذا التَّيار يتزايد مع مرور الوقت، وبرزت أسماء شعراء مشهورين من المتصوِّفة، ومن نماذج شعر التَّصَوُّف قول ذي النون المصري:

أَمُوتْ وَمَا مَاتَتْ إِلَيْكَ صَبَابَتِي وَلَا قُضِيَتْ مِنْ صِدْقِ حُبِّكَ أَوْطَارِي
مُنَايَ الْمُنَى كُلَّ الْمُنَى أَنْتَ لِي مُنَى وَأَنْتَ الْغِنَى كُلَّ الْغِنَى عِنْدَ إِقْتَارِي
وَأَنْتَ مَدَى سُؤْلِي وَغَايَةُ رَغْبَتِي وَمَوْضِعُ آمَالِي وَمَكْنُونُ إِضْمَارِي
تَحَمَّلَ قَلْبِي فِيكَ مَا لَا أَبْثُغُهُ وَإِنْ طَالَ سُقْمِي فِيكَ أَوْ طَالَ إِضْرَارِي
وَبَيْنَ ضُلُوعِي مِنْكَ مَا لَكَ قَدْ بَدَا وَلَمْ يَبْدُ بِأَدِيهِ لِأَهْلٍ وَلَا جَارِ
وَبِي مِنْكَ فِي الْأَحْشَاءِ دَاءٌ مُخَامِرٌ وَقَدْ هَدَّ مَنِّي الرُّكْنُ وَانْبَثَّ إِسْرَارِي
أَلَسْتُ دَلِيلَ الرُّكْبِ إِنْ هُمْ تَحَيَّرُوا وَمُنْقَذَ مَنْ أَشْفَى عَلَى جُرْفٍ هَارِي

(٦) نمو الشعر التعليمي:

ظهر مع بداية الشعر العباسي لون شعري جديد عُرف بالشعر التعليمي؛ وهو أن ينظم الشاعر قصيدة يشرح فيه علماً من العلوم أو الفقه، أو يحكي فيه عن بعض السَّير والتواريخ، وترجع الرَّعامة في هذا الفن للشاعر أبان بن عبد الحميد اللاحقي، فقد قام بنظم كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع شعراً، ويُقال: إنَّه نظمها في مزدوجة من أربعة عشر ألف بيت، ضاع أغلبها ولم يبقَ منها غير نذر يسير، ومنها قوله:

هَذَا كِتَابُ أَدَبٍ وَمِخْنَةٌ وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى كَلِيلَ دِمْنَةٍ
فِيهِ دَلَالَاتٌ وَفِيهِ رُشْدٌ وَهُوَ كِتَابٌ وَضَعَتْهُ الْهِنْدُ

١ المصدر السابق (ص ٣١).
٢ انظر: الأوراق، الصولي (ص ٤٦)، مطبعة الصاوي، ط ١، ١٩٣٤ م.

فَوَصَّفُوا آدَابَ كُلِّ عَالِمٍ حكايةً عن ألسن البهائم
فَالْحُكَمَاءُ يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ والسُّخَفَاءُ يَشْتَهُونَ هَزْلَهُ

ولأبان منظومات شعرية عديدة من هذا اللون التعليمي؛ فقد نظم في الفقه قصيدة صاغ فيها أحكامًا متعلّقة بالصّيام والزكاة، ونظم سيرتي أزدشير وأنوشروان، ومن قصيدة مزدوجة له في أحكام الصوم:

هذا كتابُ الصَّومِ وهو جامعٌ لكلِّ ما قامَتْ بهِ الشَّرائعُ
مِنْ ذلِكَ الْمُتْرَلِ فِي الْقُرْآنِ فضلاً على مَنْ كانَ ذا بَيانٍ
وَمِنْهُ ما جاءَ عَنِ النَّبِيِّ مِنْ عَهْدِهِ الْمُتَّبَعِ الْمَرْضِيِّ
صَلَّى الْإِلَهُ عَلَيْهِ وَسَلَّماً كَمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ وَعَلَّماً

وقد سار ولده حمدان على نهجه، وكذلك محمد بن إبراهيم الفزاري الذي نظم في النجوم مزدوجة طويلة، واتسع الشعر التعليمي ليشمل جميع الموضوعات الجدلية، على نحو ما نرى عند معدان الأعشى الشيعي الذي نظم قصيدة يذكر فيها أصناف الشيعة، وبشر بن المعتمر المعتزلي الشهير الذي نظم قصيدة للرد على أصحاب النحل، وظهرت قصائد أخرى تحكي عن التاريخ الطبيعي وأنواع الحيوانات والحشرات^١.

وكتب في الشعر التعليمي: علي بن الجهم، وابن المعتز، وابن دُرَيْد؛ فقد نظم ابن الجهم مزدوجة بدأها بقصة بدء الخلق وآدم -عليه السلام- وقابيل وهابيل والطوفان والرسل وأحداث التاريخ الإسلامي، ونظم ابن المعتز قصيدة يذكر فيها أمجاد ابن عمّه الخليفة المعتضد، ولابن دُرَيْد قصائد عدة من هذا الفن؛ منها مقصورةٌ شهيرة جمع فيها ألواناً من الحكَم تتضح فيها تلك الغاية التعليمية اللغوية^٢؛ يقول ابن الجهم في مزدوجته التي يحكي فيها عن قصّة بدء الخلق:

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٥١).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ١٩٠ - ١٩٢) و(٤/ ٢٤٦ - ٢٥٤).

^٣ انظر: المصدر السابق.

^٤ ديوان علي بن الجهم (ص ١٦٦).

يا سائلي عن ابتداء الخلق
أخبرني قوم من الثقات
تفرعوا في طلب الآثار
ودرسوا التوراة والإنجيل
أن الذي يفعل ما يشاء
أنشأ خلق آدم إنشاء
مبتدئاً وذاك يوم الجمعة
أسكنه وزوجه الجنان
مسألة القاصد قصد الحق
أولوا علوم وأولوا هيئات
وعرفوا موارد الأخبار
وأحكموا التَّأويل والتَّنزيل
ومن له القدرة والبقاء
وقد منه زوجة حواء
حتى إذا أكمل فيه الصنعة
فكان من أمرهما ما كانا

وعلى كل حال فإن الشعر التعليمي على شيوعه لا يُعتبر من الأدب؛ لأنه عبارة عن تأريخ وتسجيل لتواريخ أو أحكام أو أحداث، فهو خالٍ تمامًا من الخيال، ويفتقر إلى عنصر مهمٍّ من عناصره، وهو العاطفة التي تجسّد إحساس الشاعر، فهو ليس فيه من الشعر غير الوزن والتراكيب والقافية، فيعدُّ نظمًا وليس أدبًا.

(٧) موضوعات جديدة:

طرق الشعراء العباسيون أبواب موضوعات جديدة غير مألوفة، وقد رأينا بعض ذلك في حديثنا عن الاتجاه العقلي والشعر التعليمي، غير أن الشعراء العباسيين لم يكتفوا بهذا الإطار الفكري؛ بل عمدوا أيضًا إلى الحديث عن موضوعات جديدة؛ إذ نراهم يجيّدون في الأوصاف، فبعد أن كان الشاعر القديم يصف مظاهر الصحراء والسّماء والبهائم؛ نرى الشاعر العباسي يتأثر بمظاهر الحضارة الجديدة وما فيها من عمران وقصور وبساتين، فيصف مظاهر التّرف والتّأنّق في الملبس والمشرب والمأكل، ويصف كذلك بعض أنواع الأكلات والفواكه وموائد الطعام، وتعدّوا الوصف الجسّي إلى الوصف المعنوي كما أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن الوصف، حتى إنَّ بعضهم كانوا يصفون

الأمراض وآثارها، كما اتَّجه بعض الشعراء متأثرين بالاتجاه العقلي إلى شكوى الزمن ودم الدهر ووصف الشيب والبخل.

ومع نشاط الجدل الفكري بين الطوائف الكلامية المختلفة؛ نشط معه الشعر الكلامي، ونشط شعر الطرديّات نتيجة ولع الخلفاء والأعيان بالصيد، وأدى انتشار روح الفكاهة كذلك إلى ظهور نوع جديد عُرف بالشعر الهزلي، وهناك من تحدّث عن الأخلاق، وهناك من وصف بعض الصفات الحسنة والسيئة، فضلاً عن نموّ لونٍ جديد من الشعر عُرف بالإخوانيات، وشمل بعض الموضوعات مثل: التهاني؛ التي شاعت بسبب مبالغة الناس في الاحتفال بالأعياد، وكان من أشهرها عيد النيروز، وكان جانبٌ من شعر التهاني ينصرف إلى التهنئة بالمواليد والأفراح والمناسبات السعيدة؛ وكذلك ما نرى في المعاتبات والمساجلات والمراسلات كما بين الصنوبري وكشاجم، ومن شعر التهاني ما قاله الصنوبري يهني أحد ممدوحيه بقدوم شهر رمضان:

بالسَّغْدِ صُمْتُ وبالسَّعَادَةِ ثَقُطُرُ وعلى الثَّقَى تَطْوِي الصَّيَامَ وَتَنْشُرُ
عُمِرْتُ مَقْبُولَ الصَّيَامِ مَجْنُبُ الْـ آثَامِ مَا دَامَ الصَّيَامُ يُعَمَّرُ
وَقَفَيْتُ هَذَا الشَّهْرَ حَقَّ صَيَامِهِ وقيامِهِ في الأَمَنِ مِمَّا تَحْذَرُ

وظهر كذلك لونٌ جديد من الشعر لم يكن مألوفاً؛ وهو المعروف بالشعر الشعبي، وكان بشَّار بن برد رائد هذا التوجُّه الشعبي، فهو على رقيِّ شعره وعلوِّ مستواه وقيمتة الفنية؛ كان ينزل به أحياناً من مستواه الراقي إلى مستوى أقل؛ حتى يُرضي فئات أخرى قد يناسبها هذا اللون الشعبي، ومن ذلك قوله لجارية له:

رَبَابُ رَبِّهُ الْيَيْتِ تصبُّ الخلَّ في الزَّيْتِ
لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وديكُ حَسَنِ الصَّوْتِ

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ١٨١ - ١٩٢) و(٤/ ٢٢٨ - ٢٤٦).

٢ ديوان الصنوبري (ص ٢٦).

٣ ديوان بشَّار بن برد (ص ٢٢٦).

وهي مقطوعة شعبيّة تخلو من أي رقيٍّ، وقد أُخذ ذلك على بشار، لكنّه دافع عن ذلك في أنه قاله في جارية له تُدعى ربابة، يناسبها هذا النمط، وأن المناسبة تقتضي هذا اللون من الشعر الشعبي، ولو ذكر شعراً عالياً لما فهمته. وقد أدّى انتشار الملاحية إلى أن ذكر الشعراء بعض الألعب مثل: الترد والشطرنج، فوصفوها ومدحوها وهجوها، يقول علي بن الجهم يصف الشطرنج وما يجري على رقعته من معارك!

أَرْضٌ مُرَبَّعَةٌ حَمَاءٌ مِنْ أَدَمِ
تَذَاكُرُ الْحَرْبَ فَاحْتَالًا لَهَا فِطْنًا
هَذَا يُغَيِّرُ عَلَى هَذَا وَذَاكَ عَلَى
فَانْظُرْ إِلَى بُهْمٍ جَاشَتْ بِمَعْرَكَةٍ
ويقول ابن الرومي مادحاً الشطرنج:
تَفَرَّسْتُ فِي الشَّطْرَنْجِ حَتَّى عَرَفْتُهَا
إِلَيْهَا يُغَيِّضُ الْعَقْلُ مَا شَابَ صَفْوُهُ
فَإِنْ صَحَّ رَأْيِي فَهِيَ بِالْوَعَةِ الْعَقْلِ
مِنَ الْهَذْيَانَاتِ الشَّنِيعَةِ وَالْهَزْلِ

وفي موضع آخر يذمُّ اللعبة:
أَرَى لُعبَةَ الشَّطْرَنْجِ إِنْ هِيَ حُصِّلَتْ
تَعْلَهُ بِوَاوَيْنِ جَاعَا وَأَزْمَلَا
أَحَقُّ أُمُورِ النَّاسِ أَلَّا يُحْصَلَا
بِبَابٍ قَلِيلٍ خَيْرُهُ فَتَعْلَلَا

(٨) لزوم ما لا يلزم:

مع مرور الوقت ودخول القرن الرابع الهجري وما تلاه؛ نجد تيّار الصنعة اللفظية، والميل إلى استعمال المحسنات البديعة، قد بدأ يتزايد في هذا العصر إلى درجة وصلت إلى حد المبالغة والتعقيد، وقد تخصص في هذا عدد من الشعراء الذين أرادوا إظهار قدراتهم اللغوية، فمنهم من مال إلى التّغريب، ومنهم

١ ديوان علي بن الجهم (ص ٢٠٣).

٢ ديوان ابن الرومي (ص ٩٠).

٣ المصدر السابق.

من مال إلى التعقيد اللفظي، حتى صار الميل إلى الغريب والمبالغة في التعقيد المعيار الذي يُقاس عليه الشاعر بدلاً من الموهبة البيانية والتركيز في الخيال والمعنى، وهو ما أصاب الشعر بشيءٍ من الركود فيما بعد.

على أن أبرز مظاهر الصَّنعة في هذا الوقت كان ما عُرف بالزُّومِيَّات، أو لزوم ما لا يلزم؛ وهو أن يُلزم الشاعر نفسه بحرفٍ ثابتٍ قبل حرفِ رَوِيٍّ القافية وهو ما لا يلزم في الشعر، وربما ألزم نفسه بحرفين قبل رَوِيٍّ القافية لا بحرف واحد، وأشهر من سار على هذا النهج وعُرف به هو الشاعر الفيلسوف الفدُّ أبو العلاء المعري، أكبر شعراء العربية الذين ظهوروا بعد المتنبي، وكان آيةً في الفكر والعلم والحكمة، وله ديوانان؛ أمَّا ديوانه الأول فقد أُطلق عليه اسم "سقط الزند"، وأمَّا ديوانه الثاني فقد عُرف باسم "اللزوميات"، وهو ما يعنينا في هذا الاتجاه؛ حيث كان أعظم شهرة وصيتاً وقد وصلنا في مجلدين كبيرين؛ إذ إن أبا العلاء المعري التزم فيه جعل القافية على حرفين، كما نرى في هذه الأبيات وقد جعل الرَوِيَّ من حرفين؛ هما العين والباء؛

لَا تَفْرَحَنَّ بِقَالٍ إِنْ سَمِعْتَ بِهِ	وَلَا تَطْيِّرْ إِذَا مَا نَاعِبٌ نَعَبَا
فَالْخَطْبُ أَفْظَعُ مِنْ سَرَاءٍ تَأْمُلُهَا	وَالْأَمْرُ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ تُضْمِرَ الرُّعْبَا
إِذَا تَفَكَّرْتَ فِكْرًا لَا يُمَارِجُهُ	فَسَادَ عَقْلٍ صَحِيحٍ هَانَ مَا صَغُبَا
فَاللُّبُّ إِنْ صَحَّ أَعْطَى النَّفْسَ فُتْرَتَهَا	حَتَّى تَمُوتَ وَسَمَى جَدَّهَا لَعَبَا
وَمَا الْغَوَانِي الْغَوَادِي فِي مَلَاعِبِهَا	إِلَّا خَيَالَاتٌ وَقَتْ أَشْبَهَتْ لَعَبَا
زِيَادَةُ الْجِسْمِ عَنَّتْ جِسْمَ حَامِلِهِ	إِلَى الثَّرَابِ وَزَادَتْ حَافِرًا تَعَبَا

وهنا التزم الشاعر حرف العين قبل الباء الروي، وهو ما لا يلزم في الشعر، وهذا لون من ألوان الصنعة والتعقيد الذي التزمه أبو العلاء المعري، وقد يتساءل السائل عن الضرورة من هذا التعقيد وعن الداعي من التزام حرف واحد قبل روي القافية، والإجابة: أن هذا يزيد من الإيقاع الموسيقي للقافية؛ إذ إن الإيقاع

^١ ديوان أبي العلاء المعري، اللزوميات (ص ٩٦).

الموسيقي تصنعه القافية بِرَوِّهَا الثابت الموحد، ويزيد هذا الإيقاع إذا ثم تثبيت الحرف الذي يسبق حرف الرَّوْي، وهو المزية التي تأتي بها اللُّزوميَّات، إلا أنَّه في المقابل يشكِّل تعقيدًا وتقييدًا للمعنى؛ نظرًا إلى أن التزام تلك الصنعة يقلِّل من خيارات الشاعر لكلمات قافيته، وهو ما يكبِّل المعنى ويقيِّده تقييدًا شديدًا.

وكان أبو العلاء المعري متعمِّقًا في الحكمة والفلسفة وسائر المعارف، وقد عبَّر عن اتجاهه الفكري في ديوانه "اللزوميات"؛ إذ جمع فيه ما يسعه من أثر الحكمة ومعالم فلسفته التي يغلب عليها الانعزال والتشاؤم والتَّعمُّق، كما نرى في أبياته تلك، وفي لزومياته بالطَّبَع أثرٌ من التَّكُلُّف، ولكنَّه تجاوز هذا بسعة علمه وحكمته، واتساع معرفته بمفردات العربية ودرايته بالغريب، لذا فقد استكثر في ديوانه من غريب اللفظ، واستعمل العديد من المصطلحات العلميَّة، وأساليب الرمز والإشارة، ومال إلى بعض ألوان الزُّخرف البديعي كما نرى في طباقه بين (الجد واللعب) في البيت الرابع، وأثر الجناس الناقص بين كلمات قوافيه.

وتجربة أبي العلاء المعري فريدة من نوعها، ولم يعرف الأدب العربي قبله ولا بعده حتى أيامنا هذه من التزم ما التزمه على نفسه، صحيح أن عددًا من الشعراء قلَّدوه في تلك الصنعة ونظموا بعض القصائد اللزومية، ولكن أحدًا بعده لم يجرؤ على صياغة ديوان كامل التزم فيه تلك الصَّنعة من أوَّلِه إلى آخره؛ لما يتطلَّبه ذلك من مهارة وإتقان واتساع في العلم ومصطلحات اللغة، ممَّا يصعب أن يتفق لشاعر كما اتَّفَق لأبي العلاء المعري على هذا النَّحو البديع.

وقد اعتدنا في حديثنا عن كل عصر أن ننبيّه على موضوع الانتحال، وأشرنا إلى كثرته في العصر الجاهلي وتضاؤله بالتدريج في العصور التالية، ونيمكن القول بأنه مع بدء التدوين وحِفظ أشعار الشعراء في دواوينهم المحفوظة وسائر المخطوطات والكتب الأدبية الجامعة؛ تم القضاء تقريبًا على موضوع الانتحال باستثناء بعض الحالات النادرة مثل ما نُسب إلى بشَّار بن بُرد في زندقته وتفضيله لإبليس على آدم عليه السَّلام؛ حيث غمز البعض في تلك الأبيات



ونفاها عنه، كما نُجِلَّت على أبي نواس أشعار في المجون نُسِبَتْ إليه؛ إذ إنه لفرط شهرته سار الناس ينسبون إليه كما ما يسمعون من شعر المجون، وكذلك ما حدث من خلط في أشعار بعض الزُّهاد والمتصوّفة مثل عبد الله بن المبارك ومحمود الوزّاق، وما نُسِبَ إلى رابعة العدوية، ومن ضمنها هذا البيت الورد في ديوان كلّ من أبي العتاهية وأبي نّوّاس معًا، وهو يقول:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تُقَلِّ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قَلَّ عَلَيَّ رَقِيبُ

وربّما كان البيت لأبي العتاهية؛ إذ إنّ أبا نّوّاس وإن تعدّدت زُهدياته؛ فإنه لم يبلغ فيها من العمق ما بلغه أبو العتاهية

وهذه هي خلاصة الشعر العباسي وسماته وصفاته وأساليبه وأبرز أغراضه وموضوعاته ومعانيه، وملامح التجديد فيه، مستثنين منها ما كان في آخر قرنين من الحقبة العباسية؛ أي النصف الثاني من عصر الإمارات، ما يسمّيه بعض المؤرّخين بالعصر العباسي الرابع، وسنجعل له فصلًا مستقلًّا؛ مراعاة للجانب الزمّني في حديثنا عن شعراء العصر العباسي.

١ ورد ذكر هذا البيت في ديوان أبي العتاهية (ص ٤٠)، وديوان أبي نواس (ص ٨٨).

شعراء العصر العباسي

١- بشار بن بُرد

ترجمته!

هو بشار بن بُرد بن يرجوخ بن أزدكرد العُقيلي بالولاء، وكنيته أبو معاذ، فارسي الأصل من طخارستان، كان أبوه بُرد من سبي المهلب بن أبي صفرة، وكان من عبيد امرأته القشيرية مع جدّه يرجوخ، وكان يعمل طيّانًا يضرب اللّبن، وقد وَهَبَتْ بُردًا لامرأة من بني عُقيل تدعى أم الطّباء، فولدت له امرأته بشارًا وهو في ملكها، وقد وُلِدَ ضريبًا فأعتقته العُقيلية، فصار من موالها، ولهذا عُرِفَ بولائه لبني عُقيل، وهو من مُخَضَّرَمِي الدُولتين؛ حيث عاصر العصرين الأموي والعباسي.

وكان بشار ضخمًا، عظيم الخَلْق والوجه، طويلًا، مجدورًا، جاحظ العينين، تغشّاهما لحمٌ أحمر، وكان فيه قُبْحٌ وسُوء سيرة، وميلٌ إلى المجون والخمر، فضلاً عن فظاعة منظره، وفيه تبرُّمٌ بالناس وحقْدٌ عليهم؛ ولعل هذا كان بسبب عماء؛ حيث هجاه بعض معاصريه وعيَّروه به، حتى كان يقول: "الحمد لله الذي ذهب ببصري لئلا أرى من أبغض"، وكان على قبحه وسوء سيرته؛ متوقِّدُ الذهن، شديد الذكاء، قويّ الحافظة، مطَّلَعًا على شعر العرب وثقافتهم، وقد نشأ نشأة عربيّة خالصة، فشَبَّ فصيح اللسان، صحيح البيان، وأتاحت له إقامته في البصرة أن يكون على صلةٍ بالبادية، وقد تأثّر بنشاط الجدل وآراء المذاهب الكلامية، ونهل من مجالسها، وكان على صلة بواصل بن عطاء شيخ

^١ انظر: ديوان بشار بن برد (١- ١٦)؛ طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ١٧- ٢٧)؛ تقديم وشرح: صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان، ط ١، ٢٠٠٢م؛ الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (٣/ ٩٤- ١٧٥)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت- لبنان، ط ٣، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٢٧١- ٢٧٤)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت- لبنان؛ تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٥٨- ٦١).

المعتزلة؛ ونفرَ منه واصل بعد حين لمجونه وفسقه، واتصل بشار بعددٍ من المتكلمين؛ مثل الشاعر صالح بن عبد القدوس وعُمر بن عبيد وعبد الكريم ابن أبي العوجاء وجريـر بن حازم وآخرين.

وظهرت في بشار موهبته الشعرية منذ صغره قبل بلوغه العشرة؛ حيث كان فصيحًا مطبوعًا على الشعر، ومالت نفسه إلى الهجاء؛ حيث كانت النقائض مشتعلةً بين جرير والفرزدق آنذاك، فتعرَّض بشار لجرير وهجاه، ولكن جريرًا استصغره واستخفَّ به فلم يردَّ عليه، وبلغ من شدَّة ولع بشار بالهجاء أن هابه الناس لأنَّه كان فاحشًا بذِي اللسان، متعرِّضًا للنساء والأعراض، حتى شكاه النَّاس لأبيه فضربه، فقال له بشار: قل لهم: أليس الله يقول: (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ)؟!، فلمَّا عاودوا شكواه؛ ذكر لهم ذلك، فانصرفوا وهم يقولون: فقه بشار أغَيَظَ لنا من شعره.

وقد تأثر بشار بالشعوبية، فكان متحاملاً على العرب، وإن لم يمنعه هذا من الفخر أحيانًا بمواليه بني عقيل، وكان متأثرًا بالمذاهب الكلامية، وقيل: كان يدين بمذهب الجبريَّة ثم ينقضه، وهناك من رماه بالزندقة، وقيل: كان يكفر الأمة ويدين بالرجعة.

وذاع صيت بشار حتى عدَّه النقاد رأس الشعراء المؤلِّدين ورئيسهم بلا منازع، فكان فيَّاض الموهبة، غزير المادة، فصار شعره يُروى ويُغنى، وهابه أشراف الناس مخافة معرفة لسانه، وله العديد من الأخبار والنوادر مع معاصريه وبعض من أحبَّه من النساء، وقد مدح عددًا من الأمراء في عصر بني أميَّة؛ منهم عمر ابن هبيرة وسليمان بن هشام بن عبد الملك، فوصله ولكن دون المأمول، ورويت له بعض الأخبار مع بني أمية؛ حيث كان الخليفة الوليد بن يزيد الأموي معجبًا بشعره، ويبدو أنه لم ينل حظوة لديهم حتى جاء العباسيون فمدح خالد ابن برمك أصل البرامكة وأحد رجال المنصور، ويقال: إنه مال إلى الطالبيين في ثورتهم ضد أبي جعفر المنصور، ومدح إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، لكن القصيدة

^١ سورة النور: (٦١).

لم تبلغ المنصور، فلما انتهت الثورة العلوية بالفضل؛ عدل القصيدة وجعلها
لهجاء أبي مسلم فقال!

أَبَا مُسْلِمٍ مَا طُولُ عَيْشٍ بِدَائِمٍ وَلَا سَالِمٍ عَمَّا قَلِيلٍ بِسَالِمٍ
عَلَى الْمَلِكِ الْجَبَّارِ يَقْتَحِمُ الرَّدَى وَيَصْرَعُهُ فِي الْمَازِقِ الْمُتَلَاخِمِ

وربما كانت هذه القصيدة سبباً لاتصاله بالمنصور وحظوته عنده، ثم عند ولده
المهدي؛ الذي وفد عليه وأنشده بعض شعره فأعجب به بادئ الأمر وأكرمه
ووصله وسأله: فيمن تُعتدُّ يا بشار؟ فقال: أمّا اللسان والزي فـعـرـبـيـان، وأمّا
الأصل فعجمي.

إلا أن المهدي ما لبث أن نفر منه لمجونه وفسقه، وكان المهدي محافظاً، فهناه
أولاً عن قول الغزل الفاجر، وتوعده، فأطاعه حيناً، إلا أنه لما استمرَّ في إعراضه
عنه؛ غضب عليه فهجاه وهجا معه وزيره يعقوب بن داود قائلاً:

بَنِي أُمَيَّةَ هُبُّوا طَالَ نَوْمُكُمْ إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ
ضَاعَتْ خِلَافَتُكُمْ يَا قَوْمُ فَالْتَمِسُوا خَلِيفَةَ اللَّهِ بَيْنَ الزَّقِّ وَالْعُودِ

فسعى يعقوب به عند المهدي ورماه بالزندقة، وقيل: إنه انتهى إلى المهدي قوله:

خَلِيفَةُ يَزْنِي بِعَمَّاتِهِ وَيَلْعَبُ بِالْدَّبُوقِ وَالصَّوْلَجَانِ
أَبَدْنَا اللَّهُ بِهِ غَيْرَهُ وَدَسَّ مُوسَى فِي حَرِّ الْخِيزْرَانِ

وكان المهدي يتعقب الزنادقة ويفتك بمن يقع في يده منهم، واغتاز منه بسبب
هجائه الفاحش، ويُروى أنه زار البصرة، فمرَّ على بيت بشار، فسمعه يؤذن في
غير الوقت سكراناً، فأمر بإحضاره وسبّه، ثم أمر صاحب شرطته بالبصرة أن
يضربه سبعين سوطاً، فمات من ذلك في البطيحة قرب البصرة، فحمله أهله
ودفنوه في البصرة، وكان مقتله نحو عام (١٦٨هـ/٧٨٤م)، وقد ناهز السِّتِّين

١ ديوان بشار (ص ٥٩٢).

٢ المصدر السابق (ص ٣٩٥).

٣ المصدر السابق (ص ٦١٣).

سنة؛ وقيل: بل نيّف على التسعين؛ ويروى أنه لم يمش في جنازته غير أمة سوداء، وفرح كثير من أهل البصرة لموته؛ لما كان فيه من بذاءة وهجاء وفُحش وتهتُّك.

والرواة مُجمِعون أن بشار قد رُمي بالزندقة، وأنّه كان مرافقًا لبعض من اتهموا بها، مثل صالح بن عبد القدوس الذي قتله المهدي بالزندقة، ويعضد هذا ما كان عليه من المجون والشُّعوبية والخمر وسوء السيرة، وقيل: إنّهُ قال بتفضيل إبليس على آدم عليه السلام، وفي ذلك يقول:

إِبْلِيسُ خَيْرٌ مِنْ أَبِيكَمِ آدَمَ فَتَنَّبَهُوا يَا مَعْشَرَ الْفَجَّارِ
إِبْلِيسُ مِنْ نَارٍ وَآدَمُ طِينَةٌ وَالْأَرْضُ لَا تَسْمُو سُمُو النَّارِ

وقال:

الأَرْضُ مُظْلِمَةٌ وَالنَّارُ مُشْرِقَةٌ وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مُذْ كَانَتْ النَّارُ

غير أن بعض تلك الأخبار ممّا رُوِيَ عنه من زندقته لا تخلو من المبالغة، وقد تؤخذ على محمل الشك، ومن المعروف أن الزندقة كانت تهمة شائعة في هذا العصر، وأنّ عددًا قد قُتِلوا وأُخِذوا بها ظلُمًا، والذي يحملنا على الشك في أخبار زندقته رغم اعترافنا بسوء سيرته وتهتُّكه؛ أنّ سياق الأحداث يؤكّد أن السبب الحقيقي لمقتله لم يكن زندقته بقدر ما كان لهجائه المهدي، فأراد أن ينتقم منه لهجائه إيّاه، وأن تلك الأبيات التي قال فيها بتفضيل إبليس على آدم -عليه السلام- والنار على الطّين؛ قد تكون منحولةً عليه، فوافق ذلك ما عُرف من زندقته، والله أعلم، وفي "طبقات الشعراء" لابن المعتز أن المهدي أمر بتفتيش كتبه ومتعلّقاته، فلم يجد شيئًا من الذي انتهى إليه من زندقته، فندم على قتله، وعلى كل حال فبشار على سوء سيرته ومجونه كان شاعرًا مجيدًا موهوبًا، وترك أثرًا عظيمًا في الأدب، بما أحدثه في الشعر من تجويد ورقيّ وتطوُّر.

١ الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (١٧٣/٣).

٢ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢٧٣/١).

٣ ديوان بشار (ص ٥٣٩).

شعره:

كان بشار ذا موهبةٍ شعريةٍ فيّاضةٍ، وكان شاعرًا فصيحًا مطبوعًا، وشعره قَمَّةٌ في البهاء والجمال والصفاء والرّونق وعلوّ الجودة وجمال النغم ورقّة الحاشية، رُوي أنه قال نحو اثنتي عشرة ألف قصيدة، وإن صحَّ ذلك فإنه يعني أنه قد ضاع قدرٌ عظيم من شعره ولم يدخل في ديوانه، وقد امتاز شعره بالسلاسة والعدوبة والإنسيابية والوضوح والرُّقي، وبكونه مضطرم الإحساس، متأجج العاطفة، متنوّع الأساليب، فقد جمع في شعره بين أصالة البدو ورقة الحضارة، فأما الأصالة فقد أخذها من عمق ثقافته العربية وسعة اطلاعه على ثقافات العرب وأشعارهم، فاحتفظ بشعره على ليونته بقدرٍ من أساليبه الجزلة والرصينة، وأمّا رقة الحضارة فقد أخذها من الدّوق المترف وطلاوة الحياة الجديدة وأصوله الفارسية التي دفعته إلى التجديد والثورة على التقليد؛ فهو - بخلاف من سبقوه- كان أميلَ إلى اللفظ السهل العذب، في سياقٍ قويٍّ وأسلوب متين وحسٍّ دقيق، لا نرى في شعره لفظًا مستكرهًا أو خطأ، وربّما نرى شيئًا من غريب اللفظ في شعره، أتى به للدلالة على علمه بالعربيّة وموهبته في الشعر، ولكنّه غريب طفيف لا ينفي سهولة شعره وانسيابيّته.

وكان بشار ممسكًا بزمام اللغة، عالمًا بأسرارها، وكان ذا قريحةٍ وخيالٍ خصب وبُعدٍ عن التعقيد، وكان لُغوًّا بالمعاني والألفاظ، جمع بين المعاني التقليدية والمعاني الجديدة، وكان يأتي بالمعاني الزاهية المختلفة التي لم يُسبق إليها، وكان مبدعًا في التصوير والخيال حتى فاق المبصرين في وصفهم، مستعينًا بما اطّلع عليه من أشعار القدماء، واستحدث الكثير من المعاني والأساليب التي أخذها عنه معاصروه ومن أتى بعدهم.

وكان الأصمعي يشيد بشاعريته ويقول: بشار خاتمة الشعراء، والله لولا أن أيّامه تأخرت لفضّلتَه على كثير منهم؛ ولمّا سُئل في المفاضلة بينه وبين مروان بن أبي حفصة، أيهما أشعر؛ قال: بشار أشعر؛ لأن مروان سلك طريقًا كثر من يسلكه، فلم يلحق من تقدّمه، وشركه فيه من كان في عصره، وبشار سلك طريقًا لم

يُسَلِّكُ وأحسن فيه وتفرد فيه، وهو أكثر تصرُّفًا وفنون شعر، وأغزر وأوسع بديعًا، ومروان لم يتجاوز مذاهب الأوائل؛ وقال فيه أيضًا: وُلِدَ بشار أَعْمَى فما نظر إلى الدنيا قط، وكان يشبه الأشياء في شعره فيأتي بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله؛ وقدمه كذلك أبو عبيدة الراوي والجاحظ الذي أشاد بتفننه في الشعر قائلاً: "المطبوعون على الشعر من المولدين: بشار والسَّيِّد الحميري وأبو العتاهية وابن أبي عُيينة وسلم الخاسر وخلف بن خليفة وأبان بن عبد الحميد، وبشار أطبعهم؛ فهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المفتين في الشعر، القائلين في أكثر أجناسه وضروبه"، وكان علي بن يحيى المنجّم يقرن بينه وبين امرئ القيس والقطامي فيقول: أحسن الناس ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس، وفي الإسلام القطامي، ومن المحدثين بشار؛ وقال عنه ابن المعتز: "كان بشار أستاذ أهل عصره بلا مدافع، فيجتمعون إليه ينشدونه ويرضون بحكمه"^٢.

وكان بشار أول من اعتمد على الصنعة الأسلوبية في شعره من جناس وطباق ومقابلة، أما عن أسلوبه فكان يكتفه وفق الموضوع والغرض، ونجده في شعره الرسمي وتيار المديح يميل إلى الجانب التقليدي من البدء بالمقدمة الطللية واستعمال البحور الطويلة في سياق متين وأسلوب رصين، جامعًا فيه بين الفخامة والجزالة من جهة والرفقة والنعومة من جهة أخرى، بينما نراه أكثر خفة وسهولة ورشاقة وميلًا إلى الترف واللطف مع الأغراض المجتمعية الأخرى مثل الغزل واللهو والخمر والشعر الهزلي بما يوافق طابع عصره، فكان يبدع في الحالتين.

وقد برع بشار في أغراض شتى كان من أبرزها الهجاء؛ حيث كان فيه شديدًا لاذعًا مفحشًا بذيئًا، يتعرّض للأغراض ومواضع العفة وقذف النساء؛ وهذا بسبب ضعف دينه، وبرع كذلك في المديح والفخر؛ حيث كان تارة يفخر بالفرس

^١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (٣/ ٩٤ - ١٧٥).

^٢ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٢).

على العرب نظرًا إلى شعوبيّته، وتارة يفخر بمواليه بني عقيل، وله رثاء جميل لبعض رفاقه ولئن فقد من ولده، وله في الخمر والمجون وأغراض اللهو والغناء قصائد شتى، وقد برع في الغزل كذلك، ويغلب على غزله الفحش والمجون والوصف الحسيّ والإباحية، فهو لم يعيش قصّة حب حقيقية ولكنّه كان يحكي مغامراته وقصصه مع الجواري ومن تعلّق بهنّ من النساء، وكان في غزله الفاحش الماجن قدرٌ من الصراحة والجرأة والتّهتك لم يبلغه حتى شعراء الغزل الصريح في العصر الأموي، ويقال: إنه نظم كذلك في المزدوجات والمسمطات؛ ولكن لم نطّلع على شيء من هذا في ديوانه، فربّما ضاع فيما ضاع من شعره.

نماذج من شعره:

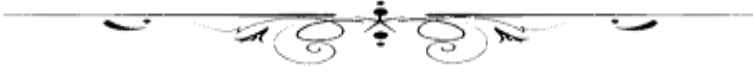
- قال في مدح إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، مخاطبًا المنصور، قبل أن يعدّلها بعد فشل ثورة إبراهيم، ويجعلها في هجاء أبي مسلم الخراساني، وهي قصيدة لا تخلو من الحكم البديعة!

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِنْ	بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةٍ حَازِمِ
وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً	مَكَانَ الْخَوَافِي قُوَّةً لِلْقَوَادِمِ
وَمَا خَيْرُ كَفٍّ أَمْسَكَ الْعُلَّ أُخْتَهَا	وَمَا خَيْرُ سَيْفٍ لَمْ يُؤَيَّدَ بِقَائِمِ
وَحَلِّ الْهُوَيْنَى لِلضَّعِيفِ وَلَا تَكُنْ	نُؤُومًا فَإِنَّ الْحَزَمَ لَيْسَ بِنَائِمِ
وَحَارِبٍ إِذَا لَمْ تُغَطِّ إِلَّا ظِلَامَةً	شَبَا الْحَرْبِ خَيْرٌ مِنْ قَبُولِ الْمَظَالِمِ
وَأَذِنَ عَلَى الْقُرْبَى الْمُقَرَّبِ نَفْسَهُ	وَلَا تُشْهِدِ الشُّورَى امْرَأً غَيْرَ كَاتِمِ
فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِرِدُّ الْهَمَّ بِالْمُنَى	وَلَا تَبْلُغُ الْعُلْيَا بِغَيْرِ الْمَكَارِمِ
إِذَا كُنْتَ فَرْدًا هَرَكَ الْقَوْمُ مُقْبِلًا	وَإِنْ كُنْتَ أَدْنَى لَمْ تُفَزْ بِالْعَزَائِمِ
وَمَا قَرَعَ الْأَقْوَامَ مِثْلُ مُشَيِّعٍ	أَرِيْبٍ وَلَا جَلَى الْعَمَى مِثْلُ عَالِمِ

- وقال في قصيدة أخرى يتغزل في إحدى حبيباته واسمها طيّبة؟

١ ديوان بشار بن برد (ص ٥٩٣).

٢ المصدر السابق (ص ٧٦).



كَلَامُكَ طَيِّبُ الْأَنْفَاسِ مَحْبُوبُ
أَصْلَحَتِ مِنِّي الَّذِي لَا يُصْلِحُ الطَّيِّبُ
غَالِي بِهَا مَلِكُ بَالْتَّاجِ مَعْصُوبُ
وَأَطْمَعِينَا فَمَا فِي مَطْمَعِ حُوبُ
بِقَلْبِهِ هَاجِسٌ كَالنَّارِ مَشْبُوبُ
قَدْ شَقَّنِي قَمَرٌ فِي السِّتْرِ مَحْبُوبُ
وَالشَّوْقُ تَأْخُذُنِي مِنْهُ أَهَاضِيبُ
وَفِي الصَّمِيرِ مِنَ الْحُبِّ الْأَعَاجِيبُ
بَادِي الصَّبَابَةِ، وَالْهَجْرَانُ تَعْذِيبُ

يَا "طَيِّب" سَيَّانٍ عِنْدِي أَنْتِ وَالطَّيِّبُ
لَوْ قَدْ لَقِيتُكَ خَلْفَ الْعَيْنِ خَالِيَةً
لَوْ كُنْتَ غَيْرَ فَتَاةٍ كُنْتَ لُؤْلُؤَةً
يَا طَيِّبَ جُودِي بَنِيْلٍ مِنْكَ نَأْمُلُهُ
لِلَّهِ طَيِّبَةٌ لَا تُبْقِي عَلَى رَجُلٍ
أَسَاوِرُ الْهَمِّ تَحْتَ اللَّيْلِ مُجْتَنِحًا
يَغْشَانِي الْمَوْتُ مِنْ وَجَدٍ لَهَا دِيمًا
لِلْقَلْبِ رَاعٍ إِلَيْهَا لَا يُفَارِقُهُ
لَهْفَانٌ قَدْ يَشْتَهِي رُوحًا يَعِيشُ بِهِ

- وقال في قصيدة أخرى:

وَحَالَفُوا غُرَبَةً بِالذَّارِ فَاغْتَرَبُوا
تَدْعُو هَدِيلاً فَيَسْتَغْزِي بِهِ الطَّرَبُ
بَانُوا بِأَسْمَاءَ تِلْكَ الْهَمِّ وَالْأَرْبُ
كَمَا يَنْتُنُّ إِلَى عُوَادِهِ الْوَصَبُ
إِذَا خَلَوْتُ وَمَاءَ الْعَيْنِ يَنْسَكِبُ
كَأَنَّنِي مِنْ فُؤَادِي بَعْدَهَا حَرْبُ
بِالذَّاعِرِيَّةِ أَتْنِيهَا وَتَنْسَلِبُ
رُؤُوسُ أَعْلَامِهَا بِالْأَلِ تَعْتَصِبُ

أَقُولُ إِذْ وَدَّعُوا نَجْدًا وَسَاكِنَهُ
لَا غَرَوْ إِلَّا حَمَامٌ فِي مَسَاكِنِهِمْ
سُقْفِيًا لِمَنْ ضَمَّ بَطْنُ الْخَيْفِ إِيَّاهُمْ
أَيُّنُ مِنْهَا إِلَى الْأَدْنَى إِذَا نُكِرَتْ
بِجَارَةِ الْبَيْتِ عِمُّ النَّفْسِ مُحْتَضِرُ
أَنْسَى عَزَائِي وَلَا أَنْسَى تَذَكُّرَهَا
لَا تَسْقِنِي الْكَأْسَ إِنْ لَمْ أَبْغِ رُؤْيَيْهَا
تَطْوِي الْفَلَاةَ بِتَبْغِيلٍ إِذَا جَعَلَتْ

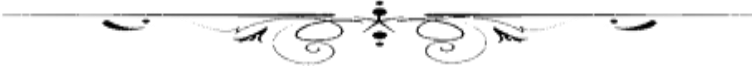
- وقال:

وَمَنْ لِمُحِبِّ مُثَبَّتٍ لِلْعَوَائِدِ
مِنَ الْجِنِّ أَوْ سِحْرٍ بِأَيْدِي الْمَوَارِدِ

أَلَا مَنْ لَصَبٍ عَازِبِ النَّوْمِ سَاهِدِ
وَقَالُوا بِهِ دَاءٌ أَصَابَ فُؤَادَهُ

١ المصدر السابق (ص ١٠٠).

٢ المصدر السابق (ص ٣١٤).



وَمَا ذَاكَ إِلَّا حُبُّ خَوْدٍ تَعَرَّضْتُ
فَأَدْرَكَ مَجْلُودِي جَوَى الْحُبِّ كَاعِبٌ
كَأَنَّ الْعَذَارَى حِينَ قَوْمَنْ حَوْلَهَا
فَسَارَقَتْ أَصْحَابِي الْمُكَبِّينَ نَظْرَةً
غَدَاةً مَشَتْ فِيهِنَّ رَوْدٌ لِحَارَةٍ
مَشَتْ قَابَ قَوْسٍ دُونَهَا ثُمَّ أُلْقِيَتْ
فَوَطَّأَنَّ مَمْشَاهَا بِمَا لَوْ كَسَبْنَاهُ
لِتَقْتَأَنِي بِالْمَنْظَرِ الْمُتَبَاعِدِ
كَشَمْسِ الضُّحَى فِي الْفَائِقَاتِ الْخَرَائِدِ
قَلَائِدَ بَدَلَهُنَّ أُمَّ الْقَلَائِدِ
إِلَى غَادَةٍ لَمْ تَسْتَتِرْ بِالْوَلَائِدِ
يَمِيلُ بِهَا عُصْنُ الْهَوَى الْمُتَزَائِدِ
إِلَى الْأَرْضِ مِنْ جَهْدِ الْخُطَى كَالْمُعَانِدِ
كَفَاهُنَّ مِنْ زَيْنِ الْخُرُوجِ الْحَوَاشِدِ

٢- أبو نُوَاس

ترجمته!

هو أبو علي الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصباح الحَكَمي بالولاء، كان جدُّه من موالي الجَرَّاح بن عبد الله الحَكَمي أحد ولادة بني أُمَيَّة، وإليه نُسب، وكان أبوه مقيمًا في الأهواز في جند مروان بن محمد آخر خلفاء بني أُمَيَّة، وقيل: إنَّه وُلِدَ بالبصرة؛ وقيل: بل وُلِدَ في الأهواز؛ حيث التقى أبوه هناك بأُمِّه "جُلْبَان" من أصل فارسي، فتزوَّجها وأنجبت له عدَّة أولاد؛ منهم أبو نُوَاس، ثم انتقلت به أُمُّه إلى البصرة، وكان مولده عام (١٣٦هـ أو ١٣٩هـ)، وقيل: بل ١٤٥هـ، وسُمِّيَ أبا نُوَاس لذنوبتين كانتا تُنُوسان على عاتقيه، وقيل: بل كناه بها خلف الأحمر؛ الذي أشار عليه بأن يتلقَّب بأسماء الذَّوِين من ملوك اليمن، فكناه بأبي نُوَاس.

وما إن قدم البصرة حتى أسلمته أُمُّه إلى أحد العطارين للعمل معه، ولكنَّه كان شغوفًا بتتبُّع الأخبار ورواية الأشعار، فكان يغشى مجالس العلماء ونوادي الشعراء، وبدأ يُظهر ميلًا إلى الشَّعر، واختلف إلى أبي زيد الأنصاري وأخذ عنه الغريب، وحفظ عن أبي عبيدة الرَّاوي أيَّام العرب، وأطلَّع على نحو سيبويه، وتصادف أن مرَّ عليه بالبصرة أثناء عمله بالعطارين والبة بن الحباب أحد أشهر ماجني الكوفة، فوجد فيه حلاوةً وظرًا، واستحلاه وكان ابن عشر سنين، فقال له: إنِّي أرى فيه مخايل أرى ألاَّ تضَيِّعها، وستقول الشعر، فاصحبني أخَرِّجك؛ فقال له: من أنت؟ فقال: أنا أبو أسامة والبة بن الحباب؛ فقال: نعم، أنا -والله- في طلبك، ولقد أردت الخروج إلى الكوفة بسببك لأخذ عنك وأسمع منك شعرك؛ فاصطحبه معه إلى الكوفة، وكانت هذه بداية رحلة أبي نواس مع

١ انظر: ترجمة أبي نواس في: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ١٧٥-١٩٧)؛ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ٦٧-٦٩)؛ وفيات الأعيان لابن خلكان (٩٥-١٠٣)؛ تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص ١٩٨)، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط٧، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (ص ١٥٨-١٥٩).

المجون؛ إذ أفسده والبة وجعله يعيش حياة اللّهُو والخمر، فنشأ متّصفاً بالمجون والخلاعة والاستهتار بالدّين، إلا أنّه كان من جهة أخرى حلو الصورة، خفيف الظلّ، سريع البديهة، جميل الحديث، بهي الطلعة، وقد التقى هناك ببعض الماجنين مثل مُطيع بن إياس وحمّاد عجرد والخليع حسين بن الضحاك، ولكن والبة إن كان قد أفسد أبا نواس وأغرقه في الخمر والمجون؛ فإنّه على الجهة الأخرى اعتنى به، وقام بصقل موهبته، وتنمية شاعريّته، فأدّبه وخرّجه؛ إذ التقى هناك بخلف الأحمر أحد الرّواة وأشعر أهل زمانه، ولقي كذلك أبان ابن عبد الحميد اللاهقي، وقد عاد أبو نواس إلى البصرة وعاش سنة كاملة في البادية حتّى يأخذ العربيّة الصحيحة، ثم انتقل إلى بغداد وكان عمره نحو ثلاثين سنة، فاتّصل بالبرامكة وآل الرّبيع، ومدح الخليفة هارون الرشيد وشهد مجالسه، لكن لم تدم صلته به، ووقعت الوحشة بينهما بعد أن نكب الرّشيد البرامكة عام (١٨٧هـ / ٨٠٢م)، وكان أبو نواس من شعرائهم ومادحيهم، وما لبث أن شاعت أخبار فسقه ومجونه حتى تغيّر الرشيد عليه، فانصرف من بغداد إلى مصر ومدح واليها الخصيب زمناً، وله مع أخبار، إلا أنّه لم يُطق فراق حياة المجون واللّهُو في بغداد، فعاد إليها، واعتقله الرشيد زمناً لخميره ومجونه، وبعد موت الرّشيد اتصل بولده محمد الأمين فاتّخذه شاعراً ونديماً، إلى أن سخط عليه أواخر عهده مع احتدام الخلاف بينه وبين أخيه المأمون، فحبسه لقضيّة جرت معه، فكتب إليه من السجن يستعطفه!

بَكَ أَسْتَجِيرُ مِنَ الرَّدَى	مُتَعَوِّذًا مِنْ سَطْوِ بَاسِكٍ
وَحَيَاةِ رَأْسِكَ لَا أَغْوُو	دُ لِمِثْلِهَا وَحَيَاةِ رَأْسِكَ
مَنْ ذَا يَكُونُ أَبَا نُوَا	سِكَ إِنْ قَتَلْتَ أَبَا نُوَا سِكَ

^١ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٩٩).

فرقَ له الأمين وأطلقه، ويقال: إنَّ أبا نواس قد تنسَّك أواخر حياته، وترك ما كان عليه من اللّهُو والمجون، وله بعض الرُّهديات، ورُوِيَ عنه أنه قال تائبًا قبل وفاته!

يا رَبِّ إِنِّ عَظَمْتُ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنِّ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ
أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا فَإِذَا رَدَدْتَ يَدَيَّ فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا وَجَمِيلُ عَفْوَكَ ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمٌ

وقيل: تُوفِّيَ أبو نواس نحو عام (١٩٥ أو ١٩٦هـ)، ولكن الأرجح استنادًا إلى أبياته في رثائه للأمين أن وفاته كانت نحو عام (١٩٨ أو ١٩٩هـ)، بعد موت الأمين بمدة وجيزة.

شعره:

شعر أبي نواس غايةً في النُّعومة والرِّقَّة، ويمتازُ بالسَّلاسة والعدوْبة، والرَّشاقة وخِفَّة الرُّوح، حتَّى إنه زاد على بشار بن بُرد في رِقَّتِه؛ إذ إن بشارًا كان يجمع بين الرِّقَّة والحداثة من جهة، والأصالة والجزالة من جهة أخرى، أما أبو نواس فقد أَمعن في اللُّيونة والرِّقَّة، مبتعدًا عن الجزالة أغلب الأحيان؛ تأثرًا منه بشعوبيَّته من جهة، ولما انغمس فيه من حياة اللّهُو والمجون والخمر من جهة ثانية، وفي لهجة شعره حلاوةٌ بعيدة عن الاستكراه، وكان مبدعًا في تصاويره، معبرًا في أحاسيسه عن واقع حياة اللّهُو، ومثلما برع في النُّظم على الأوزان الطويلة؛ فقد برع كذلك في النُّظم على البحور الخفيفة المعاصرة، فأتى بقصائد جياد، وقد شاع شعره وراج بين الناس؛ لما كان فيه من ملامح خِفَّة ورشافة ولطف، ولجريانه على الألسنة مجرى الطَّبْع، وكان أبو نواس ضليعًا في اللغة، عالمًا برواية الأشعار.

^١ انظر: المصدر السابق (٢/ ١٠٣).

قال الجاحظ: ما رأيتُ رجلاً أعلمَ باللُّغة من أبي نواس، ولا أفصح لهجة، مع حلاوةٍ ومجانبةٍ للاستكراه؛ وقال أبو عبيدة المثنى: كان أبو نواس للمحدثين، كامرئ القيس للمتقدمين؛ وسأل أحدهم أبا يوسف يعقوب بن السكيت عن رواية الشعر، فقال: إذا رويتَ من أشعار الجاهليين فلامرئ القيس والأعشى، ومن الإسلاميين فلجدير والفرزدق، ومن المحدثين فلأبي نواس، فحسبك؛ وقال إبراهيم النظام: هذا الذي جُمع له الكلام فاختر أحسنه؛ وكان يقال: شعراء اليمن ثلاثة: امرؤ القيس، وحسان بن ثابت، وأبو نواس؛ كونه يمينًا بالولاء؛ وقال إبراهيم الصولي: إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبي نواس؛ علمت أن ذلك عنوان أدبه ورائد ظرفه؛ وقال كلثوم بن عمرو العتابي: لو أدرك أبو نواس الجاهلية؛ ما فُضِّلَ عليه أحد؛ وقال الإمام الشافعي: لولا مجون أبي نواس لأخذت عنه العلم.

وشعر أبي نواس بجانب سلاسته ورقته؛ كان مليئًا بالمجون والفسق والخمر والاستهتار بالدين، فأنكره المحافظون، بينما أعجب به الماجنون وأهل اللهو، وكان حافلًا بالحيوية والتصاوير الدقيقة واتساع الخيال والإبداع، وبعض ألوان الصنعة البديعة.

وقد برع أبو نواس في عدة أغراض؛ من بينهما المديح؛ حيث مدح الرشيد وولده الأمين، والخصيب عامل مصر، ومدح البرامكة وآل الربيع، وفي مديحه قدرٌ من المبالغة والغلو الذي يصل أحيانًا إلى درجة غير مقبولة، وقد أوردنا غلوّه هذا في حديثنا عن المديح في الشعر العباسي، إلا أنه كسا مديحه بلفظ عذب، وبنعومة ورشاقة، وكان يميل في مدائحه إلى البدء بالمقدمة الطللية تكلُّمًا وإرضاءً لأولي الأمر، وكان مديحه في سياق من الرصانة ومتانة السبك وروعة الأسلوب.

كما برع في الغزل، وكان يغلب عليه الوصف الجسدي وما رافق ذلك من فُحش ومجون وتهتك؛ استيفاءً للذة والمتعة؛ حيث أحب أبو نواس عددًا من النساء؛

١ انظر: نزهة اللبّاء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ٦٧).

٢ انظر: ديوان أبي نواس (ص ٧).

منهن جنان جارية آل عبد الوهاب الثقفي، وكانت قينة وأديبة، وله فيها شعر كثير إلا أنها ردّته، وأحب كذلك عنان جارية الناطقي، ودنانير مولاة يحيى ابن خالد البرمكي، وفي غزله جمالٌ فنيّ وانسجام واتّساق وصور مبتكرة، غير أن أعظم ما أخذ عليه ميله أحياناً إلى التّغزّل بالغلمان، فيما عُرف بغزل المذكّر، مصوّراً جانباً من شذوذه وانحرافه!

ولأبي نواس أوصاف ومراثي مختلفة؛ منها كان كان بحق الأمين، وخلف الأحمر الذي كان أستاذاً لأبي نواس، وله كذلك بعض الهجائيات، ومنها ما كان قبليّاً؛ حيث كان يفخر بمواليه القحطانيين على حساب العدنانيين؛ ومنها ما كان شخصيّاً تجاه بعض خصومه ومعارضيه، ولم يمنعه تهتكه ومجونه من النّظم في بعض أغراض الرّهد، ومنها ما قاله قبل وفاته تائباً، غير أن أعظم ما ترك أثراً في شعر أبي نواس كانت خمريّاته التي أبدع فيها إبداعاً، حتى صار شاعر الخمر بلا مدافع، صحيح أن الجاهليين قبله قد أبدعوا في ذكر الخمر ووصفوها بدقّة متناهية، إلا أنّ أبا نواس قد فتح بخمريّاته آفاقاً معاصرة، وأوصافاً حديثة، فأسهب وتعمّق في وصفها، وأتى بتشبيهات جديدة، فذكر مجالسها وطقوسها ومذاقها ولذتها وهيجانها ولونها ورائحتها، وأتى في شعره بصور متلاحقة تعبّر عن خياله الخصب، فتارة يصفها بالداء والدواء و تارة يصفها بالصفاء، وربّما وصفها بالشّمس أو ببدر التمام أو بابنة العنب، ويدعو إلى شربها، وأدخل في خمريّاته ألواناً من الحوار القصصي، وربط وصفه للخمر بالمجون والهوى والاستمتهار بالدين، وقرنها مع وصف الطبيعة، وقد يُعظم في وصفها ويبالغ، ويجدّد في أوزان قصائده الخمرية، فيميل إلى الأوزان الخفيفة والرشيقة تارة وإلى الأوزان الطويلة تارة، وقد كانت الخمر من عادات العرب وحياتهم العامة في الجاهلية، لذا كان وصفها -على دقّته- يغلب عليه الطابع العفوي ولا ترتبط بالمجون والخلاعة ولا المبالغة، بخلاف العصر العباسي وما نلمحه في خمريّات

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (٦٥٧- ٦٥٨).

٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢٣٠/٣).

أبي نواس وأقرانه من المبالغة والإمعان في الوصف؛ من باب الاستخفاف الدّين وتزايّد الرّغبة إلى ما هو ممنوع ومحرم.

نماذج من شعره:

- قال في إحدى خمرياته؛ وهي من أشهرها!

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ	وداوني بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا	لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّنُهُ سَرَاءُ
قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ	فَلَاخَ مِنْ وَجْهَهَا فِي الْبَيْتِ لَأَلَاءُ
فَأَرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً	كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
رَقَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَاثِمُهَا	لَطَافَةٌ وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ
فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا	حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ
دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُمْ	فَمَا يُصَيِّبُهُمْ إِلَّا بِمَا شَاؤُوا
لِتِلْكَ أَبْكِي وَلَا أَبْكِي لِمَنْزِلَةٍ	كَانَتْ تَحُلُّ بِهَا هِنْدٌ وَأَسْمَاءُ

- وقال:

غُرُّوا أَخْلَائي قَالبِي	فَقَدْ أَصِيبْتُ بِأَبْيِي
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ بَيْي	مَاذَا لَقِيتُ فَحَسْبِي
مَا لِي عَلَى الْخُبِّ عَثَبٌ	أَنَا وَقَعْتُ بِذَنْبِي
لَقَدْ دَعَانِي وَصَحْبِي	فَجِئْتُ مِنْ بَيْنِ صَحْبِي
يَا حُبُّ مَلَكْتُ رِقِّي	مَنْ لَا يُسِرُّ بِقُرْبِي
وَمَنْ يُعَذِّبُ رُوحِي	بِكُلِّ نَوْعٍ وَضَرْبٍ
فَكَمْ عَصَبْتُ بِرَأْسِي	وَكَمْ عَرَكْتُ بِجَنْبِي
وَلَسْتُ أَحْمِلُ مِنْهُ	إِلَّا عَلَى ظَهْرٍ صَغْبٍ
يَا قَاتِلِي أَنْتَ وَاللَّ	هِ فِي الْحُكُومَةِ تَرْبِي

^١ انظر: ديوان أبي نواس (ص ١١).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ٦١).

أَتَيْتُ حَيِّي، وَحَيِّي
فَكَنْتُ أَوَّلَ حَيِّي
وَلَيْسَ لِي مِنْكَ إِلَّا
تَبِيعُ وَصَلِي بِهِجْرِي
بَكَرٌ بِخَاتَمِ رَبِّي
أَفْتَضُّ عُذْرَةَ حَيِّي
كَرِبٌ عَلَى إِثْرِ كَرِبٍ
وَعَفْوٌ سَلَمِي بِحَزْبِي

- وقال في خمرة أخرى يسمي الخمر بابنة الكرم!

صِفَةُ الطَّلُولِ بِلَاغَةُ الْقِدَمِ
لَا تُخْدَعَنَّ عَنِ النَّتِيِّ جُعِلَتْ
وَصَدِيقَةُ الرُّوحِ النَّتِي حُجِبَتْ
لَا كَرْمُهَا مِمَّا يُذَالُ وَلَا
صَهْبَاءُ فَضَّلَهَا الْمُلُوكُ عَلَى
فَإِذَا أَطْفَنَ بِهَا صَمْتُنْ لَهَا
وَإِذَا هَتَفْنَ بِهَا لِنَازِلَةٍ
وَإِذَا أَرَدْنَ لَهَا مُحَاوَرَةً

- وقال!

عَاقَبْتَنِي بِأَشَدِّ مِنْ جُرْمِي
وَوَظَنَنْتَ أَنِّي غَيْرُ مُنْتَقِمٍ
فَلَوْ أَنَّ لِي نَفْسًا تُطَاوِعُنِي
أَشَمَّتْ حُسَادِي بِبُغْيَتِهِمْ
قَدْ كُنْتُ مِنْ حَقِّي عَلَى ثِقَةٍ
إِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي زَعَمُوا
فَابْلُغْ بِهِ زُلَّ جِدِّ مُنْتَقِمٍ
وَوَظَلَمْتَنِي مُسْتَعِذِبًا ظَلَمِي
فَسَكَتُ حِينَ سَكَتَ عَنْ عِلْمِ
مَا كُنْتُ تَسْبِقُنِي إِلَى الصِّرْمِ
وَرَفَعْتَهُمْ وَدَعَوْتَهُمْ بِاسْمِي
حَتَّى رَأَيْتُكَ دُونَهُمْ خَضَمِي
فَأَكَلْتُ أَكْلَةَ جَنَّةٍ لَحْمِي
فِيمَا بَدَا لَكَ وَاسْتَبَحَّ شَتْمِي

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٤٥٩).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ٤٨١).

٣- أبو العتاهية

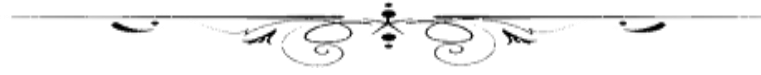
ترجمته!

هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان، العززي بالولاء، وأمُّه من موالي بني زهرة، غلبت عليه كنيته، وُلد ببلدة عين التَّمر نحو عام (١٣٠هـ/ ٧٤٧م)، كان جدُّه كيسان من سَبِي خالد بن الوليد حينما افتتح تلك البلدة، بينما كان أبوه يعمل حَجَّامًا.

نشأ أبو العتاهية بالكوفة وسكن ببغداد، وكانت نشأته خاملة وضيعة؛ إذ كان يعمل هو وأخوه زيد في صناعة الجرار وبيعها، إلا أنَّه كان فيه ميل إلى الشَّعر منذ مطلع شبابه، وكان طَلَّاب الشعر يفدون إليه في محل بيعه للفَخَّار، ويكتبون شعره على قطع الفخار المتكسِّر، فبرزت موهبته، وظهرت ملكته الشعرية، وكان لبقًا، حَسَن المظهر والهيئة، أبيض اللون، أسود الشعر، وله وفرة جعدة، وكان سريع الخاطر، حاضر البديهة، مطبوعًا على الشعر، وقد خالط أبو العتاهية أهل اللُّهو والمجون أوَّل أمره، فلقي والبة بن الحباب وبشَّار ابن برد وأبا نواس ومسلم بن الوليد، وقد لأمه أبو الشمقمق في ذلك قائلاً له: أمثُلُك يضع نفسه هذا الموضع مع سنِّك وشعرِك وقدرِك؟! فقال: أريد أن أتعلَّم كيادهم وأتحفَّظ كلامهم.

وقد هَوِيَ في مطلع حياته "سُعدى" جارية لبني معن بن زائدة، وهي ذات حُسن وجمال، فتهدَّده عبد الله بن معن، وتهاجَّيا، وضربه مئة سوطٍ ضربًا ليس بالمبرِّح وإنَّما غيظًا، واشتعل الهجاء بينه وبين أبناء معن حتى سعى أناس بينهما إلى الصلح، وقد تكسَّب أبو العتاهية بشعره، واتَّصل بالخليفة المهدي ومدحه مهنَّتًا إياه بالخلافة قائلاً!

^١ انظر: ديوان أبي العتاهية (٧- ١٥)؛ طبقات الشعراء، ابن المعتز (٢٠٨- ٢١٤)؛ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٤/ ٥- ٨٩)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٢١٩- ٢٢٥).
^٢ ديوان أبي العتاهية (ص ٣٣١).



أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تُجَرَّرُ أَذْيَالُهَا
وَلَمْ تَكُ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ لَزُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالُهَا
وَلَوْ لَمْ تُطْعَمْ بَنَاتُ الْقُلُوبِ لَمَّا قَبِلَ اللَّهُ أَعْمَالُهَا

ويقال: إن بشَّار بن برد كان حاضراً وسمع تلك الأبيات وطرب لها وقال لأشجع السلمي: ويحك يا أخا سليم، أترى الخليفة لم يطر على فراشه طرباً لما يأتي به هذا الكوفي؟!

وقد أعجب المهدي حينها بقصيدته، واستحسن شعره، فنال جائزته، وقد هَوِيَ هناك جارية تُدعى عتبة، كانت مولاة لرائطة بنت أبي العباس السفاح زوجة المهدي، فشبَّب بها وقال فيها شعراً كثيراً، فلَمَّا انتهى خبره إلى مولاتها شكته إلى المهدي، فحبسه وأمر بضربه مئة سوط، ثم أخذ يستعطفه حتى أطلقه المهدي بشفاعة خاله يزيد بن منصور، وقال له: أنت إنسان متحذلق مُعَتَّة؛ فغلبت عليه كنية أبي العتاهية، وقيل: بل كُنِّي بأبي العتاهية لتطلَّعه إلى الشهرة والمجون والعتة؛ ويُروى أن أبا العتاهية ألحَّ على المهدي في طلب عتبة حتى رَقَّ له وكاد يدفعها إليه، لكنَّها أبت وقالت له: يا أمير المؤمنين، أستجير في مروءتك وشرفك وما يلزمك من حق خدمتي وصُحْبتي أن تخرجني من دار النعمة إلى بائع جرار سوقيّ دنيء النفس، إنما يريد الذِّكر والشهرة وليس بعاشق، فإن أردت أن تعرف ما يقول فمُرْ له بمال له خطر؛ فإنه سيلهي عني ويشغله عن ذكري؛ فأمر له المهدي بمئة ألف، ولم يسمَّها، وذهب أبو العتاهية بتوقيعه إلى الكتَّاب، فأعطوه مئة ألف درهم، فلم يرضَ إلا بمئة ألف دينار، وظلَّ يتردَّد شهراً يطالب به، فقالت له عتبة: يا صفيق الوجه؛ لو كنت عاشقاً لشغَلَك العشق عن المفاضلة بين الدراهم والدنانير؛ فعرف المهدي صدق كلامها وأطاعها، وقيل: بل حصلت تلك القصة في عهد ولده الرشيد.

وظل أبو العتاهية مرافقاً للمهدي ثم لولديه الهادي وهارون الرشيد يمدحهم وينال عطاياهم، وما لبث أن تغيرت حياته بعد ذلك فترك حياة اللُّهو وفارق

الماجنين واتخذ سبيله في الزهد والتنسك نحو عام (١٨١هـ/٧٩٧م)، وكان في نحو الخمسين من عمره، وامتنع عن قول الشعر، فحبسه هارون الرشيد زمنًا، فأخذ يستعطفه حتى أطلقه على أن يعود إلى قول الشعر، فقَبِلَ أبو العتاهية إلا أنَّه قصر معظم شعره على الزُّهد والتَّدُّين، وظل ملازمًا لهارون الرشيد ثم لولده الأمين ثم المأمون، ويُروى أنَّه لما قُتِلَ الأمين في صراعه مع أخيه المأمون؛ أرسلت زُبيدة أم الأمين لأبي العتاهية أن يقول شعرًا على لسانها يستعطف بها المأمون، فقال!

أَلَا إِنَّ صِرْفَ الدَّهْرِ يُذْنِي وَيُبْعِدُ وَيُمْتِغُ بِالْأَلْفِ طَوْرًا وَيُفْقِدُ
أَصَابَتْ بِرَيْبِ الدَّهْرِ مَنِّي يَدِي فَسَلَّمْتُ لِلْأَقْدَارِ وَاللَّهُ أَحْمَدُ
وَقُلْتُ لِرَيْبِ الدَّهْرِ إِنَّ هَلَكْتُ يَدُ فَقَدْ بَقِيَتْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لِي يَدُ
إِذَا بَقِيَ الْمَأْمُونُ لِي فَالرَّشِيدُ لِي وَلِي جَعْفَرٌ لَمْ يُفْقِدْ وَمَحَمَّدُ

فلَمَّا سمعها المأمون استحسنها، ووصله بعشرة آلاف درهم، وقربَه من مجلسه، وكرَّم زُبيدة أم الأمين وأعلى منزلتها، وقد تُوفِّيَ أبو العتاهية نحو عام (٢١١هـ)، وقيل: بل في عام (٢١٣هـ/٨٢٨م) في خلافة المأمون.

شعره ومذهبه:

شعر أبي العتاهية إجمالاً غاية في السلاسة والعدوبة، ولُطِفَ المعنى، وسهولة اللفظ، ولين القافية، "وكان غزير البحر، كثير الافتنان، قليل التَّكَلُّفِ"، وهو من الشعراء المطبوعين والمكثرين، "وسار شعره على ألسنة الخواص والعوام لسهولة ولنغمته الدِّينِيَّة، وهو كثير التَّرديد للمعاني والتَّراكيب"، "وربما قال شعراً موزوناً ليس من الأغاريض المعروفة، وكان يلعب بالشَّعر لعباً، ويأخذ كيف يشاء"، وكان أبو العتاهية يقول عن نفسه: لو شئت أن أجعل كلامي كله

١ المصدر السابق (ص ١٢).

٢ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (٤/ ٥).

٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ١٩١).

٤ طبقات الشعراء لابن المعتز (ص ٢٠٩).

شعرًا لفعلت؛ وهو "غزير البحر، ثريُّ القافية، مأنوس الجرس، مستقر النَّغم، كثير الافتنان والتَّنوع"؛ وقد استعمل في شعره بعض ألوان الصنعة البديعة ولكن دون إكثارٍ.

وقد أثنى عليه يحيى بن زياد الفرَّاء وابن الأعرابي وآخرون، كما أشاد به عدد من شعراء عصره كبشَّار وأبي نواس ومسلم بن الوليد والعتابي، وله معهم أخبار شتى في المناظرات واستعراض الشعر وتبادل الثناء؛ بل إن سلماً الخاسر الذي كان من خصومه أشاد بشاعريته واصفًا إيَّاه بأنه أشعر الجن والإنس، وقد استحسّن الأصمعي بعض شعره وقال: شعر أبي العتاهية كساحة الملوك، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والتَّوى؛ وكان قادرًا على الارتجال^١.

وقد برع في عدَّة أغراض مختلفة من بينها المديح؛ حيث لزم المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون، ومدح بعض القادة مثل يزيد بن منصور خال المهدي، ويزيد بن مزيد الشيباني والفضل بن الربيع والحسن بن سهل. وله كذلك غزل رقيق؛ أشهره ما قاله في سعدى جارية بني معن بن زائدة، وعتبة جارية رائطة بنت أبي العباس السفاح، وله كذلك بعض الهجائيات؛ منها كان كان بينه وبين عبد الله بن معن مولى محبوبته الأولى، وكذلك والبة بن الحبحاب الذي لزمه حينًا ثم هجاه، وله بعض المراثيات؛ منها ما كان بحق زائدة بن معن؛ حيث لم يُعن إخوته عليه، وكذلك يزيد بن منصور خال المهدي، وبرع أيضًا في فن الاستعطاف؛ حيث قال شعرًا رقيقًا يستعطف به المهدي ثم الرشيد حينما حبسناه، وكذلك رُوي عنه بعض من شعر اللُّهُو والمجون قبل تركه اللُّهُو، لكن لم يصل إلينا، على أن أبرز ما برع فيه أبو العتاهية واختص فيه هو الزهد؛ حيث قال فيه معظم شعره، وأبدع فيه إبداعًا، وكان أسلوبه فيه لبيًّا عذبًا، وأفاهه واسعة خصبة، فكان يدعو إلى الزُّهد والتَّنسُّك وذمِّ الدنيا وذكر الموت، والتزام محاسن الأخلاق، وكان يقرن زُهدَه بحكمٍ وأمثالٍ رائعة، ويستوحي معانيه

١ ديوان أبي العتاهية (ص ١٣).

٢ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (٤/ ٥ - ٨٩).

من حديث القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية والوعظ الديني، ممَّا يدل على أنه كان ذا ثقافة إسلامية ولغوية واسعة، ويشير إلى أن أبا العتاهية قد آمن بالزهد بكل جوارحه، وسَخَّر له عاطفته في شاعرية متدفقة، وانسجام رائع، وهو في معانيه أقرب إلى السهولة منه إلى التعمُّق؛ نظرًا إلى أنه أراد أن تصل زهدياته إلى عوامِّ الناس بلا تعقيد، ولكن شعره العتاهية -على روعته وانسجامه- قد يضعف في بعض الأحيان؛ نظرًا إلى كثرتِه وقَصْرِ جُلِّه على غرض واحد، وهو ما يقع بالشاعر في خطأ تكرار المعنى ويبعث أحيانًا على الملل، ولكن لم يصل شعر أبي العتاهية إلى درجة الغثِّ والابتدال.

ورغم زهد أبي العتاهية في شعره، ومهارته وتفنُّنه فيه، وإحساسنا بِسعة فكره وعمق عاطفته؛ فقد غمس عدد غير قليل في زهده، واتَّهموه بأنه كاذبٌ فيه؛ ومنهم سلم الخاسر، واستدلوا على ذلك بتكسُّبه بشعره، وحرصه على جوائز الخلفاء وصِلَتهم، وهناك اضطراب فيما رُوِيَ عن عقيدته وآرائه الدينية؛ ف قيل: إنه تشيَّع على مذهب الرِّيدية؛ وقيل: إنَّه لا يؤمن بالبعث والنشور؛ بحُجَّة أنه في شعره ذكر الموت والفناء دون النُّشور والميعاد، وبالع بعضُهم باتِّهامه بالزندقة؛ ومن بينهم ابن المعتز في طبقات الشعراء؛ حيث وُشِّيَ به إلى صاحب الزنادقة حتى كاد يأخذه، فلمَّا تحقَّق من أمره تركه، ورُوِيَ أنَّه سأله أحدهم عن القرآن: مخلوق أو غير مخلوق؟ فقال: أسألتني عن الله أم عن غير الله؟ قال: عن غير الله؛ فأمسك عن الإجابة، فأخذ يلحُّ عليه قائلاً: ما لك لا تجيبني؟ فقال: قد أجبتك ولكنك حمار؛ فردَّه البعض إلى رأي المعتزلة لذلك، كما رَوَوْا عنه قصصًا شتَّى في البخل!

ولا نستبعد أنَّ فيما رُوِيَ عنه قدرًا من المبالغة؛ إذ لا يُعقل أن يكون أبو العتاهية زنديقًا ومعتزليًا وشيعيًا في الوقت نفسه، على ما بين تلك المذاهب من اختلاف، فضلًا عن قُربه من الخلفاء وتقديهم له، ولكنَّ سعيه للتكسُّب

^١ انظر: طبقات الشعراء لابن المعتز (ص ٦٨)؛ الأغاني للأصفهاني (٤/ ٥ - ٨٩)، ديوان أبي العتاهية (ص ١١ - ١٣).

وحرصه على صلة الخلفاء وسائر الممدوحين قد يفصح حقًا عن تناقض بين مذهبه في شعره، وبين فعله في حياته، ممّا دفع البعض إلى القول بأن مسلّك أبي العتاهية في الزهد كان مسلّكًا ظاهريًا ومذهبًا شعريًا فحسب.

نماذج من قصائده:

- يقول أبو العتاهية!

نَسَى الْمَنَايَا عَلَى أَنَا لَهَا غَرَضُ
إِنَّا نَرْجُو أُمُورًا نَسْتَعِدُّ لَهَا
لِلَّهِ دَرُ بَنِي الدُّنْيَا لَقَدْ غُبِنُوا
مَا أَرْبَحَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا تِجَارَةً إِنْ
لَبِئْسَتْ الدَّارُ دَارًا لَا نَرَى أَحَدًا
مَا بَالُ مَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا الدُّنْيَةَ لَا
تَصِحُّ أَقْوَالُ أَقْوَامٍ يَوْصِفُهُمْ
وَالنَّاسُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ
وَالْحَادِثَاتُ بِهَا الْأَقْدَارُ جَارِيَةٌ
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَقَدْ جَدَّ الرَّحِيلُ بِنَا
نَفْسُ الْحَكِيمِ إِلَى الْخَيْرَاتِ سَاكِنَةٌ
اصْبِرْ عَلَى الْحَقِّ تَسْتَعِذُّ بِمَعْبَتِهِ
وَمَا اسْتَرَبَّتْ فَكُنْ وَقَافَةً حَذِرًا

- ويقول أيضًا:

نُرِيدُ بَقَاءً وَالْخُطُوبُ تَكِيدُ
وَمَنْ يَأْمَنُ الْأَيَّامَ أَمَا اتِّسَاعُهَا
وَأَيُّ بَنِي الْأَيَّامِ إِلَّا وَعِنْدَهُ
وَلَيْسَ الْمُنَى لِلْمَرْءِ كَيْفَ يُرِيدُ
فَخَبَلٌ وَأَمَّا ضَيْقُهَا فَشَدِيدُ
مِنَ الدَّهْرِ عِلْمٌ طَارِفٌ وَتَلِيدُ

^١ انظر: ديوان أبي العتاهية (ص ٢٠٧).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ١٢٧).

يَرَى مَا يَزِيدُ وَالزِّيَادَةُ نَقْصُهُ
وَمِنْ عَجَبِ الدُّنْيَا يَقِينُكَ بِالْفَنَاءِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْحَرْتَ وَالنَّسْلَ كُلَّهُ
لَعَمْرِي لَقَدْ بَادَتْ فُرُونٌ كَثِيرَةٌ
وَكَمْ صَارَ تَحْتَ الْأَرْضِ مِنْ خَامِدٍ بِهَا
وَكَمْ مِنْ عَدِيدٍ قَدْ مَحَا الدَّهْرُ ذِكْرَهُمْ
وَاللِّمُوتِ عِلَّاتٌ تَجَلَّى وَتَخْتَفِي
وَرَبِّ الْبَلَى إِنَّ الْجَدِيدَ إِلَى الْبَلَى
أَرَاكَ نَقْصٌ مِنْكَ لَمَّا وَجَدْتَهُ
سَقَطَتْ إِلَى الدُّنْيَا وَحِيدًا مَجْرَدًا
وَحِدَتْ عَنِ الْمَوْتِ الَّذِي لَنْ تَفُوتَهُ
وَأَرْشِدُ رَأْيَ الْمَرءِ أَنْ يَمَحُضَ التَّقَى
هِيَ النَّفْسُ إِنْ تَصُدَّقَكَ تَمَحُّضُكَ نُصْحَهَا
وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا مُسْتَفَادٌ وَمُتْلَفٌ
هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَالْقَضَاءُ قَضَاؤُهُ

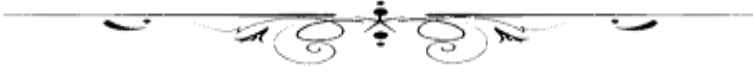
- ويقول:

أَلَا هَلْ إِلَى طُولِ الْحَيَاةِ سَبِيلُ
وَإِنِّي وَإِنْ أَصَبْتُ بِالْمَوْتِ مُوقِنًا
وَاللِّدَّهْرِ أُلُوانٌ تَرُوحُ وَتَعْتَدِي
وَمَنْزِلٌ حَقٌّ لَا مُعَرَّجَ دُونَهُ
أَرَى عِلَلَ الدُّنْيَا عَلَى كَثِيرَةٍ
إِذَا انْقَطَعَتْ عَنِّي مِنَ الْعَيْشِ مُدَّتِي
سَيُعْرَضُ عَن ذِكْرِي وَتُنْسَى مَوَدَّتِي

أَلَا إِنَّ نَقْصَ الشَّيْءِ حِينَ يَزِيدُ
وَأَنَّكَ فِيهَا لِلْبَقَاءِ مُرِيدُ
يَبِيدُ وَمِنْهُ قَائِمٌ وَحَصِيدُ
وَأَنْتَ كَمَا بَادَ الْقُرُونُ تَبِيدُ
وَقَدْ كَانَ يَبْنِي فَوْقَهَا وَيَشِيدُ
كَذَا الدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَيْهِ عَدِيدُ
وَاللِّدَّهْرِ وَعْدٌ مَرَّةً وَوَعِيدُ
وَإِنَّ الَّذِي يُبْلِي الْجَدِيدَ جَدِيدُ
وَمَا زِلْتَ فِي نَقْصٍ وَأَنْتَ وَلِيدُ
وَتَمُضِي عَنِ الدُّنْيَا وَأَنْتَ وَحِيدُ
وَلَا بَدَّ عَمَّا أَنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ
وَإِنَّ أَمْرًا مَخْضُ التَّقَى لَسَعِيدُ
وَأَنْتَ عَلَيْهَا إِنْ صَدَقْتَ شَهِيدُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا مُتْلَفٌ وَمُفِيدُ
وَرَبِّي عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ حَمِيدُ

وَأَنَّى وَهَذَا الْمَوْتُ لَيْسَ يُقِيلُ
فَلِي أَمَلٌ دُونَ الْيَقِينِ طَوِيلُ
وَإِنَّ نُفُوسًا بَيْنَهُنَّ تَسِيلُ
لِكُلِّ أَمْرٍ يَوْمًا إِلَيْهِ رَحِيلُ
وَصَاحِبُهَا حَتَّى الْمَمَاتِ غَلِيلُ
فَإِنْ غَنَاءَ الْبَاكِياتِ قَلِيلُ
وَيَحْدُثُ بَعْدِي لِلْخَلِيلِ خَلِيلُ

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٣١٣).



وَفِي الْحَقِّ أَحْيَاءٌ لَعَمْرِي مَرَارَةً
وَلَمْ أَرِ إِنْسَانًا يَرَى غَيْبَ نَفْسِهِ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْجُو مِنَ النَّاسِ سَالِمًا
وَتَثْقُلُ عَلَى بَعْضِ الرِّجَالِ ثَقِيلُ
وَإِنْ كَانَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ جَمِيلُ
وَالنَّاسُ قَالُ بِالظُّنُونِ وَقِيلُ

٤- مسلم بن الوليد

ترجمته!

هو أبو الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري، كان أبوه من موالي الأنصار، وُلِدَ ما بين عامي (١٣٠ - ١٤٠ هـ / ٧٤٨ - ٧٥٧ م) في الكوفة، ونشأ بها، وقد امتاز في صغره بالوقار والهدوء والأناة، وأطلع منذ صباه على الشعر القديم والحديث، وأعجب بشعر بشار بن برد فأخذ عنه، كما تأثر بالشعراء القدامى، واستفاد من علماء اللغة والنحو والبيان، وحضر مجالس الفقه والعلم والكلام والجدل، فما لبث أن استيقظت موهبته الشعرية باكراً، ونشأ فصيحاً بليغاً، فانتقل في خلافة هارون الرشيد إلى بغداد، وكان يرافقه أخ له أسنُّ منه يُدعى سليمان، كان كفيلاً وعلى اتصال وثيق بشار بن برد، وقد انغمس مثله في المجون واللهو، ولم يرو عن سليمان هذا غير القليل من الشعر.

وقد تحسّنت أحوال مسلم لما انتقل إلى بغداد، فعاش في نعيم وإقبال على اللهو والترّف، ولكنّه لم ينغمس في المجون والخلاعة كما انغمس غيره، وكانت له أخبار عديدة مع أبي نواس، ودتلان هجائيات بينه وبين دعبل الخزاعي، وابن قنبر، والعباس بن الأحنف، واتّصل بالبرامكة ومدح الفضل بن يحيى البرمكي وأخاه جعفر بن يحيى، ومدح كذلك عدداً من الأمراء والقادة والكتّاب؛ من بينهم القائد الشهير يزيد بن يزيد الشيباني الذي ولّاه الرشيد على الجزيرة وأرمينيا، وقد نال مسلم صلّتهم وعطاياهم وبالغوا في إكرامه، ولا سيّما يزيد بن يزيد، ولما تُوفّي يزيد رثاه مسلم، ومدح ولده محمد بن يزيد، ولكن لم ينل عنده حظوة فغادره، وكان مسلم يمدح من دون الخليفة ولا يطمع فيه، حتى قال: أرى نفسي تذوب حسرات من أنه يحوي جوائز الخلفاء من لا يواريني في أدب ولا يماثلني في نسب، ولا يصلح أن يكون شعره خادماً لشعري؛ وظل هكذا حتى أدخله منصور

^١ انظر: ديوان مسلم بن الوليد، المقدمة (ص ٩ - ٢٨)؛ طبقات الشعراء لابن المعتز (٢١٤ - ٢١٥)؛ الأغاني، الأصفهاني (١٩ / ٢٥ - ٥٦)؛ تاريخ آداب لغة العرب، جرجي زيدان (٢ / ٦٧)؛ تاريخ الادب العربي، عمر فروخ (٢ / ١٧٧).

ابن يزيد الجُميري على ابن اخته الخليفة هارون الرشيد، فأنشده، فاستحسن شعره، وكان ممّا قال!

وما العيش إلا أن تزوح مع الصبا صريع حميا الكأس والأعين النجل

فقال له الرشيد: أنت صريع الغواني؛ فاشتهر مسلم بهذا اللقب والتصق به، رغم ما روي عن كراهيته له، وكان هارون الرشيد يحثُّ قائده يزيد بن يزيد على إكرامه وصِلته، وقيل: بل الذي أدخله على الرشيد هو الفضل بن يحيى البرمكي. وقد وفد مسلم بن الوليد على الفضل بن سهل، فلزمه ونادمه حينًا حتى صار وزيرًا للخليفة المأمون بعد موت الرشيد، فقدم عليه ليمدحه، وكان كهلًا، فأراد الفضل أن يرفعه عن التردد بشعره على أبواب الممدوحين، فقال له: إني أُجلك عن الشعر، فسل حاجتك؛ فقال مسلم: بل تستتمُّ اليد عندي أن تسمع؛ فلمّا أنشده قال له الفضل: إني لأُجلك عن الشعر؛ فقال مسلم: فأغني بما أحببت من عملك؛ فولّاه البريد بجرجان، وقيل: بل قلّده المظالم فيها، فبقي على عمله حتى مات بها نحو عام (٢٠٨هـ / ٨١٣م).

شعره:

شعر مسلم بن الوليد حسن النَّمط، متين السَّبك، قويُّ البناء، جزل اللفظ، فخم العبارة، ذو خيال خصب، وتصوير بياني بديع، وأفق واسع، ومن الواضح لدى مسلم تأثره بنموذج الشعر القديم؛ لما في شعره من جزالة وفخامة ومعاني جاهليّة دقيقة؛ ليمضي بالشعر في منحى آخر يختلف عن منحى الشعراء المولّدين الذين بالغوا في الرِّقّة واللُّيونة وابتعدوا عن الجزالة والفخامة، فكان مسلم أوّل من ردّ إلى الشعر إلى رُوحه الجاهلية الأصيلّة بعدما نأى به عنها أبو نواس وأقرانه، وهو ما يشير إلى اتصال مسلم بالبادية وتأثره بأجوائها، ويمتاز

١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (٢١٥).

شعره كذلك بدقّة التعبير وروعة التصوير وقوّة الأسلوب، وحلاوة التشبيه،
وقد حوى شعره صورًا بيانيّة رائعة غاية في العمق والإبداع كما في قوله:

تَرَى الْجُودَ يَجْرِي فِي صَفِيحَةٍ وَجْهِهِ وَإِنْ كَانَ فِي جَدْبٍ مِنَ الْأَرْضِ مُنْجِلٍ

وفي صورة بيانية أخرى في لون من المقابلة البديعة يقول:

وَلَمَّا تَلَقَيْنَا قَضَى اللَّيْلُ نَحْبَهُ بِوَجْهِهِ كَوَجْهِ الشَّمْسِ مَا إِنَّ لَهُ مِثْلُ

وربّما عمد إلى المبالغة في بعض الأحيان كما في قوله:

أَمْضَى مِنَ الْمَوْتِ يَغْفُو عِنْدَ قُدْرَتِهِ وَلَيْسَ لِلْمَوْتِ عَفْوٌ حِينَ يَقْتَدِرُ

وقد مال مسلم بن الوليد إلى الصنعة البديعة في شعره، فاستكثر من ضروب
الجناس والطباق والمشاكلة والتصنيع، حتى نسب بعض النُقّاد له الريادة في
الاعتماد عليها في الشعر، ولكن الصحيح أن بشارًا سبقه إلى هذا وله الريادة،
وإنّما أخذها مسلم عنه متأثرًا بشعره، فكان أوّل من وسّع البديع وأكثر من
استعماله في شعره حتى صار متفوّقًا فيه، وأخذ عنه أبو تمام هذا المذهب وزاد
عليه.

ومسلم بن الوليد شاعر مجيد مفلح، متصرّف في فنون الشعر، وفي شعره قدرٌ
عالٍ من التّأني والرويّة والحسّ الدّقيق والشّعور العميق، وبشعره روح جاهلية
أصيلة؛ إذ سلك سبيلها، وجرى على طريقة الشعراء القدامى، ومزج بين أصالة
الروح الجاهلية وحدثة عصره، وقد برع في عدّة أغراض؛ من بينها المديح؛ حيث
نراه يمدح البرامكة، ومحمد بن منصور بن زياد كاتهم، ومنصور بن يزيد
الحميري خال هارون الرشيد، ويزيد بن مزيد الشيباني، والفضل بن سهل وزير
المأمون، ومدح كذلك عددًا من القادة والولاة، وحفّظت له كذلك بعض المدائح
في هارون الرشيد وولده محمد الأمين، لكن يبدو من خلال سيرته أن مديحه
بحق الخلفاء واتصاله بهم كان أقلّ حظًا من غيره، كما عُرفت عنه رثائيات

١ ديوان مسلم بن الوليد (ص ٣٠).

٢ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢١٨).

٣ انظر: المصدر السابق (ص ٣١٤).

بديعة؛ كالذي قاله بحق يزيد بن مزيد الشيباني والفضل بن سهل وحمّاد ابن سيار، وهو ما يدل على إخلاصه ووفائه لممدوحيه، وأثر عنه رثاء بليغ لزوجته، كما عُرفت عنه بعض الهجائيات؛ حيث دخل في عراك مع بعض خصومه ونفر من معاصريه من الشعراء، ورُوي له هجاء بحق يزيد بن مزيد الشيباني أيضًا؛ وله أيضًا غزل جميل عذب ترسّم فيه رُوح الصورة الجاهلية والبدوية القديمة، وربّما افتتح قصائده بمقدّمات طللية، ورُويت له أيضًا بعض الخمريّات البديعة التي قرنها بعضهم بخمريّات أبي نواس، حتى إنّه كان يفتتح قصائده بمقدّمات خمرية في بعض الأحيان، وله كذلك شيء من الفخر والحكمة والرّهديّات والأوصاف.

نماذج من قصائده:

- قال مسلم بن الوليد:

وَلِقَلْبِكَ الْمُسْتَعْتَبِ الْمُتَغَاضِبِ	عَجَبًا لَطِيفِ خَيَالِكَ الْمُتَجَانِبِ
أَصَبَحْتُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ مَازِجِي	مَا لِي بِهِجْرِكَ وَالْبِلَادِ عَرِيضَةً
أَبْكِي لِفَقْدِكَ لَا لِفَقْدِ الذَّاهِبِ	أَبْكِي وَقَدْ ذَهَبَ الْفُؤَادُ وَإِنَّمَا
وَنَفَى السُّرُورَ مَقَالَ وَاشِ كَاذِبِ	جَلَبَ الشُّهَادَ لِمَقْلَتِي بَعْدَ الْكَرَى
كَأَسَا لِحُبِّكَ مَا تَسُوغُ لِشَارِبِ	أَقْصَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ مَا جَرَّعْتَنِي
نَدَمَانِ أَحْزَانِ صَدِيقِ كَوَاكِبِ	لَوْ كَانَ مَا بِي مِثْلَ مَا بِكَ لَمْ أَبْث
أَسَفًا وَمَا شَمِلَ الْمَشِيبُ ذَوَائِبِي	شَابَ الْهَوَى فِي الْقَلْبِ وَاحْتَنَكَ الْجَوَى
فَإِذَا بَدَا لَكَ فِي الذُّنُوبِ فَعَاتِبِي	تُؤْيِي عَلَيَّ لِكَي أَنْفَسَ كُرْبَةً
إِذْ زَارَنِي مُتَغَاضِبًا فِي جَانِبِ	مَا لِي رَأَيْتُ خَيَالَ طَيْفِكَ مُعْرِضًا
مَا كَانَ طَيْفُكَ فِي الْمَنَامِ بِعَاتِبِ	وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ قَلْبَكَ عَاتِبٌ
عَمَّنْ سِوَاكَ فَلَسْتُ عَنْهُ بِتَائِبِ	إِنْ كَانَ ذَنْبِي أَنَّ حُبَّكَ شَاغِلِي

١ انظر: المصدر السابق (ص ٢١٦)

٢ ديوان مسلم بن الوليد (ص ١٨٤).

مَا كَانَ لِي طُولَ الْحَيَاةِ بِصَاحِبٍ
لَمْ يُبْقِ مِنِّي غَيْرَ جِسْمٍ شَاحِبٍ
جَهْدِي لِتَخْفَى وَالْبُكَاءُ مُغَالِبِي
بِفُنُونِهِ أَفْنَى دَوَاءَ طِبَائِبِ

لَوْ رَامَ قَلْبِي عَنْ هَوَاكَ تَصَبُّرًا
سَلَبَ الْهَوَى عَقْلِي وَقَلْبِي عَنْوَةً
إِنِّي لِأَسْتُرَّ عَبْرَتِي بِأَنَامِلِي
الْحُبُّ سَمٌّ طَعْمُهُ مُتَلَوِّنٌ

- وقال:

لَوْ كَانَ رَدَّ الْبُكَاءِ الْحَيَّ إِذْ رَحَلُوا
لَأَعْقَبَ الْعَيْنَ نَوْمًا مَاؤُهَا الْخَضِلُ
فَاسْتَعْطَفْتَنِي عَلَى بَيضَاتِهَا الْحَبْلُ
بَاتَتْ بِعَيْنِي عُيُونُ الْعَيْنِ تَكْتَحِلُ
لَيْسَتْ بِهِ هُوَ لَكِنْ مَشْيُهَا ثَمَلُ
إِثْرَ الْقَبُولِ وَقَدْ خَفَّتْ لَهُ السُّدُلُ

اسْتَمَطَرَ الْعَيْنَ أَنْ أَحْبَابُهُ احْتَمَلُوا
لَوْلَا الشَّبَابُ وَعَهْدٌ لَا أَحْيُسُ بِهِ
وَلَيْلَةَ يَوْمٍ يَوْمِي ضِحْكَةً وَبُكَاءَ
بَاتَتْ تُعَاطِيهِ كَأَسِّ اللَّهْوِ جَارِيَةً
كَأَنَّهَا ثَمَلٌ مَالِ الصُّبُوحِ بِهِ
وَمَا اسْتَخَفَّكَ إِلَّا نَظْرَةٌ سَلَكَتْ

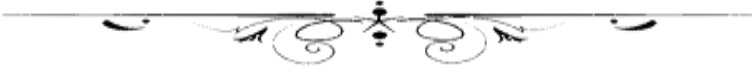
- وقال يرثي حماد بن سيار:

لَا تُعْذِرِي فِي الْبُكَاءِ لَا حِينَ إِعْذَارِ
وَالدَّهْرُ يَخْلِطُ إِحْلَاءً بِإِمْرَارِ
مَاذَا تَضَمَّنَ مِنْ جُودٍ وَأَيْسَارِ
مَوْلُ النَّوَافِلِ مَخْضُ زَنْدُهُ وَارِ
ثِيَابِ حَمْدِ نَقِيَّاتٍ مِنَ الْعَارِ
دَرَاكَ وَثَرٍ وَدَفَّاعٍ لِأَوْتَارِ
يَكَادُ أَنْ يَهْتَدِيَ فِي نُورِهِ السَّارِ
فَحَلَّ قَعَرَ ضَرِيحٍ بَيْنَ أَحْجَارِ
لَا بَلَّ وَقَدْ فَعَلْتَ فِي الْقَلْبِ بِالنَّارِ
عَلَى أَخِي بِدِمَاءٍ فَيُضْهِهَا جَارِ

يَا عَيْنُ جُودِي بِدَمْعٍ مِنْكَ مِدْرَارِ
أَبْكَانِي الدَّهْرُ مِمَّا كَانَ أَضْحَكُنِي
وَالدَّهْرُ يَخْلِطُ إِحْلَاءً بِإِمْرَارِ
خَلُّو الشَّمَائِلِ مَأْمُونُ الْعَوَائِلِ مَا
اللَّهُ أَلْبَسَهُ فِي عُودٍ مَغْرَسِهِ
دَفَّاعُ مُعْضَلَةٍ حَمَّالٌ مُثْقَلَةٍ
الْجُودُ شَيْمَتُهُ كَالْبَذْرِ سُتْنَتُهُ
جَاءَ الْقَضَاءُ بِمِقْدَارِ الْحِمَامِ لَهُ
مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ كَأَنَّهَا قَذَفَتْ
أَفْنَى الْبُكَاءِ دُمُوعَ الْعَيْنِ فَانْهَمَلَتْ

١ المصدر السابق (ص ٢٤٩).

٢ المصدر السابق (ص ٢٢٨).



كَمْ قَائِلًا بَعْدَهُ حُزْنًا وَقَائِلَةً يَا ضَيْعَنَا بَعْدَ حَمَادِ بْنِ سَيَّارٍ

- وقال متغزلاً يشكو الصَّدَّ:

أَعَاوِدُ مَا قَدَّمْتُهُ مِنْ رَجَائِهَا إِذَا عَاوَدْتَ بِالْيَأْسِ مِنْهَا الْمَطَامِعُ
رَأَيْتَنِي غَنِيَّ الطَّرْفِ عَنْهَا فَأَعْرَضْتُ وَهَلْ خِفْتُ إِلَّا مَا تَنْمُ الْأَصَابِعُ
مَلَيْتُ مِنَ الْغُذَالِ فِيهَا فَأَطْرَقْتُ لَهُمْ أَذُنٌ قَدْ صَمَّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
وَمَا زَيْتُهَا الْعَيْنُ لِي عَنْ لَجَاجَةٍ وَلَكِنْ جَرَى فِيهَا الْهَوَى وَهُوَ طَائِعُ
فَأَقْسَمْتُ أَنْسَى الدَّاعِيَاتِ إِلَى الصَّبَا وَقَدْ فَاجَأَتْهَا الْعَيْنُ وَالسِّتْرُ وَقِيعُ
فَغَطَّتْ بِأَيْدِيهَا ثِمَارَ نُحُورِهَا كَأَيْدِي الْأَسَارَى أَثْقَلَتْهَا الْجَوَامِعُ

- ومن مقدماته الطللية:

طَلَائِعُ شَيْبٍ سَيَّرُ أَسْرَعَهَا رَسْلُ يُرِدْنَ شَبَابِي أَنْ يُقَالَ لَهُ كَهْلُ
نُجُومٍ هِيَ اللَّيْلُ الَّذِي زَالَ تَحْتَهَا تَفَارَطَ شَتَى نَمَّ يَجْمَعُهَا أَفْلُ

٥- أبو تمام

ترجمته!

هو حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائي، كان أبوه نصرانيًا من أهل جاسم واسمه تدوس أو تيودوس العطار، فجعلوه أوسًا، وهناك بعض التّضارب في نسبه؛ ف قيل: إنه طائي الأصل؛ وقيل: بل هو من أصول روميّة وانتسب إلى طيئ بالولاء؛ وهو الأقرب وفُقّ سياق أخباره.

وُلد نحو عام (١٨٨هـ / ٨٠٤م)، في قرية جاسم من أعمال حوران في بلاد الشام، وكان أسمر، فصيحًا، حلو الكلام، فيه تمتمة يسيرة، وكان فطنًا فهّمًا، محبًا للشعر، موصوفًا بالظرف وحُسن الأخلاق وكرم النفس، جالس الشعراء والأدباء حتى أتقن الشعر، وقد نشأ أول حياته في دمشق وهناك لقي من حسّن له الإسلام فأسلم، ثم انتقل إلى حمص فاتصل بالشاعر ديك الجن وأخذ عنه بعض أساليبه الشعرية والصناعة اللفظية، واتصل بأسرة عتيبة بن عبد الكريم الطائي فمدحه وانتسب إلى قبيلته طيئ بالولاء، وقيل: إنه كان في حداثة سنّه بمصر؛ حيث انتقل إليها نحو عام (٢٠٨هـ / ٨٢٣م)، وكان يسقي الناس في جامعها، ويشهد حلقات العلم والأدب، وبدأت تتجلى موهبته الشعرية، ومدح هناك قائد شرطتها وخارجها عياش بن لهيعة الحضرمي، فلم يلقَ عنده حظوة، ففارقه بعد أن هجاه، كما اتصل بعبد الله بن طاهر بن الحسين إبان ولايته على مصر - قبل انتقاله إلى خراسان - فأشاد بانتصاراته، ثم عاد إلى الشام نحو عام (٢١٤هـ / ٨٢٩م)، ولقي الخليفة المأمون عائدًا من بعض غزواته في بلاد الروم، فتعرّض له بالمديح ولكنّه لم يحظَ عنده، فبقي متنقلاً بين أرمينيا والعراق والشام، ومدح العديد من القادة والأمراء، حتى مات المأمون عام (٢١٨هـ /

١ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ١١٣)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢ / ١١ - ٢٥)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢ / ٢٥١ - ٢٥٣)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣ / ٢٦٨ - ٢٧٥)؛ تهذيب البداية والنهاية لابن كثير، إعداد: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم (٣ / ١٣٩٥).



٨٣٣م) وخلفه أخوه المعتصم، وحينها كان أبو تمام قد علا نجمه وذاع صيته واشتهرت قصائده، فاستدعاه المعتصم، وأقبل عليه أبو تمام فمدحه بقصائد جياذ، كان أشهرها قصيدته البائية الخالدة التي ذكر فيها انتصار المعتصم على الروم في عمورية، ومطلعها "السيف أصدق أنباء من الكتب"، فلقى عنده حظوة وأجازه وقربه وقدمه على شعراء عصره، وأشاد أبو تمام كذلك بانتصاره على الخرمية والمحمرة، وبقضائه على تمرّد قائده الأفشين، ومدح أبو تمام العديد من القادة والأمراء مثل: خالد بن يزيد الشيباني، والحسن بن سهل وزير المأمون، ومحمد بن يوسف الثغري، والأفشين قائد المعتصم قبل تمرّده، والحسن ابن وهب رئيس ديوان الرسائل، وأخيه سليمان، ومحمد بن عبد الملك الرّيات وزير المعتصم والواثق، وأحمد بن أبي دؤاد القاضي، كما ارتحل إلى خراسان فمدح واليها عبد الله بن طاهر بن الحسين وقد استقبله استقبالا حافلا ووصله، ومدح هناك عدداً من عمّاله وكتّابه؛ من بينهم محمد بن الهيثم بن شبانة، والحسن بن رجاء أمير فارس، ورثى بعض القادة مثل محمد بن حميد الطوسي قائد المأمون، وابني عبد الله بن طاهر. وقد وثّق أبو تمام علاقاته بالعديد من الأمراء والقادة والولاة والكتّاب ورؤساء الدواوين؛ لما كان يغدقون عليه من صلوات وعطايا لقاء مديحه، فصار إمام شعراء عصره بلا منازع.

وأراد الحسن بن وهب أن يخفّف عنه عناء التّنقّل واضطراره إلى التّكسّب، فولّاه على بريد الموصل، وأقام عليه نحو عامين أو ثلاثة حتى فاجأه الموت عام (٢٢٨هـ / ٨٤٢م) وهو في أوج عنفوانه وغمرة شبابه، وقيل: بل عام (٢٣١هـ / ٨٤٥م) وهو الأرجح؛ استناداً إلى قول ولده تمام: "وُلد أبي ثمان وثمانين ومئة، ومات سنة إحدى وثلاثين ومئتين".^١

١ هناك تضارب في سنة مولد أبي تمام فقيل أنها عام ١٧٢هـ، وهناك من أخرها إلى عام ١٩٠هـ أو ١٩٢هـ، وكذلك في عام وفاته، ففي البداية والنهاية أنه مات عام ٢٢٨هـ، وقيل: بل عام ٢٣١هـ أو ٢٢٣هـ؛ وقد تم الاستناد في تاريخ مولده ووفاته إلى ما ورد في كتاب نزّهة الألباء، نقلاً عن ولد أبي تمام نفسه.

شعره:

يعتبر أبو تمام أشهر شعراء عصره، وأحد أبرز الشعراء الذين عرفتهم العربية على مرّ تاريخها، وشعره فخم اللفظ، متين التراكيب، قوي الأسلوب، يميل إلى الجزالة وقوة البناء، وهو شديد العناية بالتأنق في اللفظ، واختيار العبارة، وكان فيه ميل إلى الغريب في بعض الأحيان، وقد مضى على أثر مسلم بن الوليد في سياق ذلك الأسلوب الفخم الذي ردّ الشعر إلى رُوحه الجاهليّة، وزاد على مسلمٍ بأثر ثقافته وإحاطته بعلوم المنطق والفلسفة وسائر معارف عصره.

وكان أبو تمام متفوّقاً مبدعاً، خصب الخيال، متعدّد الأفكار، مكثراً من الصور البيانية والتشبيهات البلاغية والاستعارات الدقيقة، فكان يصيب المعنى، ويحسن سبك اللفظ على المعنى، فيتّفق جمال إيقاعه مع روعة وعمق معانيه، وكان يديج شعره حتى يجودّ بمعانيه المبتكرة وألفاظه المتخيرة، وكان في معانيه قدر هائل من الدقّة والعمق والفكر الدقيق؛ نظراً إلى إحاطته بالحكمة وعلوم الفلسفة والمنطق ومذاهب المتكلمين، وهو ما أتاح له أن يصوّر إحساسه بعمق، ويستعمل ما وسعه من الأدلة المنطقية، والمعاني المتضادة، والكنائيات الخفيّة، فضلاً عن قدرته الفائقة في القياس والاستنباط وتوليد المعاني؛ في سياق من الترابط الفكري والفلسفي، ما يدل على سعة ثقافته، وبُعد أفقه، وإطلاعه على أشعار القدماء والمحدثين، وشعره بهي الرونق، حافلٌ بتلك الأفكار والمعاني المبتكرة، غنيٌّ بالحكم والأمثال، مفعمٌ بأجواء العلم والفلسفة.

وكان أبو تمام مولعاً بالبديع وجميع ألوان الصنعة اللفظية، فكان يميل في شعره إلى الجناس والطباق والتروية والمقابلة، حتى صار رائد المحسّنات البديعة في الشعر، ورغم أن بشار بن برد ومسلم بن الوليد قد سبقاه إلى مذهب الصنعة؛ فإنه فاقهما في تكييف تلك الصنعة البديعة، مع معانيه وصوره البيانية، في سياق معنوي تظهر فيه ملامح الفلسفة والمنطق، في إطار من العمق والدقّة، لهذا لا نشعر فيها بتكلّف ممقوت في صنعته الأسلوبية رغم إكثاره منها،

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٢٧٧ - ٢٧٩).

وهو يدل بالفعل على موهبته وسعة خياله، وقد حوى شعره ثروة لفظية هائلة، وكنوزاً من المعاني العميقة والأفكار المبتكرة، وقد حاول بعض من جاء بعده تقليده، فتكلفت تلك الصنعة حتى أصاب الشَّعْرُ شَيْءٌ من الرُّكُود بعد ذلك، وهو ما أخذه البعض على أبي تَمَّام، غير أن هذا ليس منصفًا؛ فإن كان من ركود فهو يقع على عاتق من جاء بعده ولم يحسن التقليد، وليس على عاتق أبي تَمَّام.

وقد اختلفت الأقوال بين النقاد بشأنه؛ فمنهم من تعصَّب له وأفرط حتى قدَّمه على كل سابق ولاحق، ومنهم من عمد إلى ما رآه رديئاً فرواه، وما كان حسنًا فطواه، وقد أعجب به عدد من أعلام معاصريه؛ من بينهم محمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم بن العباس وعلي بن الجهم والبحتري وأبو دلف القاسم ابن عيسى والحسن بن رجاء، وقال عمارة بن عقيل لما بلغه شعره: كُمْلَ والله، لئن كان الشعر بجودة اللفظ، وحسن المعاني، وأطراد المراد، واتساق الكلام؛ فإن صاحبكم هذا أشعر الناس؛ بينما اعترض عليه دعبل الخزاعي فاتهمه بسرقة المعاني، لكنه رجع عن خصومته وترخَّم عليه بعد وفاته!

وقد قال أبو تَمَّام الشعر في أغراض متعدِّدة، غير أنه أبدع خاصة في غرضين رئيسَيْن: المديح؛ ومنه أغلب ديوانه، وقد دَبَّج مدائحه بلفظه الفخم الجزل، وأسلوبه القوي المتين، وبمعانيه العميقة واتساع خياله وسرعة بديهته، وكان يربط مديحه بخلال ومحاسن صفات ممدوحيه من الشجاعة والبأس والإقدام والكرم والبصيرة وحسن السياسة، وأيضًا بانجاراتهم الحربية وانتصاراتهم العسكرية، لا يؤخذ عليه سوى أنه لجأ أحيانًا إلى امتداح بعض العمَّال الأقل شهرة ممَّن لا يرتقون إلى مديحه؛ بُغْيَةَ التَّكْسُّب، لكنه تجاوز هذا بروعة بيانه وحسن نظمه؛ وأما الغرض الثاني فهو الرِّثاء؛ الذي بدا فيه صادق العاطفة، رقيق الحسِّ، عظيم الشعور بالألم، وإن لم يخلُ أحيانًا من المجاملة، وله في غرض الرِّثاء قصائد في غاية الجمال والروعة.

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (١٦ / ٢٦٥ - ٢٧٨).

أما الغزل عند أبي تمام فكان على ضربين: أما الأول فكان ما قاله في مقدماته الطللية في معظم قصائد المديح، وقد كان مبدعاً فيه، وأما الضرب الثاني فكان ما كتبه من غزل في قصائد مستقلة لا يعوزها الحسن، لكنه لا يصل فيها إلى درجة العذريين وشعراء الغزل، ولأبي تمام شيء من الوصف والفخر والهجاء والإخوانيات، وله حِكَمٌ عديدة منتثرة في قصائده، يغلب عليها العمق والمنطق والطابع الفلسفي، وكان يفتتح بعض قصائده بالحكمة.

وكان أبو تمام أوجد عصره في ديباجة لفظه ونصاعة شعره وحسن أسلوبه، وقيل: خرج من طئي ثلاثة، كل واحد مجيد في بابه: حاتم الطائي في جوده، وداود ابن نصير الطائي في زهده، وأبو تمام حبيب بن أوس في شعره؛ وقد جمع شعره ورتبه أبو بكر الصولي على الحروف، ثم أعاد جمعه علي بن حمزة الأصبهاني على الأبواب!

وله من المؤلفات غير ديوان شعره: كتاب "ديوان الحماسة"، وهو من أوثق مصادر رواية الشعر الجاهلي والإسلامي انتهاءً بعصره، وقد قسّمه إلى عدّة أبواب، ومعظم اختياراته كانت من المقطوعات الصغيرة، فذاعت شهرته؛ نظراً إلى ميل معاصريه إلى هذا النمط الجديد، ولهذا الكتاب عدّة شروحات؛ إذ اعتنى به وشرحه كلٌّ من: الخطيب التبريزي، والمرزوقي، والجواليقي وغيرهم، ولأبي تمام مؤلفات أخرى مثل: "الاختيارات من شعر الشعراء"، و"الاختيارات من شعر القبائل"، وكتاب "الفحول"؛ ويبدو أنها قد سقطت من يد الزمن ولم تصل إلينا.

ويُعتبر أبو تمام أول من بدأت ملامح الفلسفة تظهر في شعره بانتظامٍ ووضوح، وكان في هذا المضممار أسلوباً وفتناً مرحلة تطوّر بلغت ذروتها لدى المتنبي ثم لدى

١ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ١٢ - ١٤).
٢ الفهرست، ابن النديم (ص ٥٢٨)، شرح: د. ايمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، د.ط، د.ت.

أبي العلاء المعري، وهو شاعر له منزلة عظيمة بين شعراء العربية، بحيث لا يكافئه من شعراء عصره أو يزيد عليه غير المتني وأبي العلاء المعري.

نماذج من قصائده:

- قال أبو تمام قصيدة بائية شهيرة يمدح فيها الخليفة المعتصم ويصف انتصاره على الروم في موقعة عمورية، وهي أشهر قصائده على الإطلاق، ومن أجودها، وهي من عيون وغرر الشعر العربي، وقد جاء فيها!

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ	فِي حَدِّهِ الْحَدَّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
بِإِضِّ الصَّفَائِحِ لَا سُودَ الصَّحَائِفِ فِي	مُثُونِهِنَّ جَلَاءَ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ
وَالْعِلْمُ فِي شَهْبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةٌ	بَيْنَ الْخَمِيسِينَ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهْبِ
أَيُّ الرِّوَايَةِ بَلَّ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا	صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
لَوْ بَيَّنْتُ قَطُّ أَمْرًا قَبْلَ مَوْعِدِهِ	لَمْ تُخَفِ مَا حَلَّ بِالْأَوْثَانِ وَالصُّلْبِ
فَتَحَّ الْفُتُوحُ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ	نَظَمَ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ نَثَرَ مِنَ الْخُطْبِ
فَتَحَّ تَفْتَحُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ لَهُ	وَتَبَرَّرُ الْأَرْضَ فِي أَثْوَابِهَا الْقُشْبِ
يَا يَوْمَ وَقَعَةِ عَمُورِيَّةٍ انصَرَفَتْ	مِنْكَ الْمَنَى خُفْلًا مَعْسُولَةً الْحَلَبِ
أَبْقَيْتَ جَدَّ بَنِي الْإِسْلَامِ فِي صَعْدِ	وَالْمُشْرِكِينَ وَدَارَ الشِّرْكِ فِي صَبَبِ
لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا	لِلنَّارِ يَوْمًا ذَلِيلَ الصَّخْرِ وَالْخَشَبِ
غَادَرَتْ فِيهَا بِهِيمَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضَحَى	يَشْلُهُ وَسَطُهَا صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ
حَتَّى كَانَ جَلَابِيبَ الدُّجَى رَغَبَتْ	عَنْ لَوْنِهَا وَكَأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبْ
ضَوْءٌ مِنَ النَّارِ وَالظُّلُمَاءُ عَاكِفَةٌ	وظُلُمَةٌ مِنْ دُخَانٍ فِي ضَحَى شَحْبِ
تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ مُنْتَقِمٍ	لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللَّهِ مُرْتَغِبِ
لَمْ يَغْزُ قَوْمًا وَلَمْ يَنْهَضْ إِلَى بَلَدٍ	إِلَّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّغْبِ
لَوْ لَمْ يَقْدُ جَحْفَلًا يَوْمَ الْوَعَى لَعَدَا	مِنْ نَفْسِهِ وَحَدَّهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ
إِنَّ الْأَسْوَدَ أَسْوَدَ الْغِيلِ هَمَّتْهَا	يَوْمَ الْكَرِيهَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ

١ انظر: ديوان أبي تمام (ص ١٨ - ٢١).

تَسْعُونَ أَلْفًا كَأَسَادِ الشَّرَى نَضَجَتْ
يَا رَبِّ حَوْبَاءَ حِينَ اجْتَثَّ دَابِرُهُمْ
خَلِيفَةُ اللَّهِ جَاوَى اللَّهَ سَعِيكَ عَنْ
بَصُرَتْ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا
فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللَّاتِي نُصِرَتْ بِهَا
أَبَقْتُ بَنِي الْأَصْفَرِ الْمِمْرَاضِ كَأَسْمِهِمْ
جُلُودُهُمْ قَبْلَ نُضَجِ التَّيْنِ وَالْعَنْبِ
طَابَتْ وَلَوْ ضُمِّخَتْ بِالْمِسْكِ لَمْ تَطْبِ ١
جُرْثُومَةُ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ وَالْحَسْبِ ٢
تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ
وَبَيْنَ أَيَّامٍ بَدَرَ أَقْرَبُ النَّسَبِ
ضَفَرُ الْوُجُوهِ وَجَلَّتْ أَوْجُهُ الْعَرَبِ

وقد بدأ أبو تمام قصيدته بحكمة بليغة، وسخر من المنجمين الذين تنبؤوا بهزيمة المسلمين، ثم مضى يمدح المعتصم ويصف انتصاره العظيم وصفاً دقيقاً رائعاً، وسبب شهرة تلك القصيدة وارتقاء منزلتها أنها قد اكتملت فيها كل مكان الإبداع الفني؛ من صدق وحرارة العاطفة فيها، على خلاف معظم قصائد المديح؛ وذلك لأن الشاعر ربط عاطفة مديحه بحدثٍ دينيٍّ عظيمٍ وانتصارٍ حربيٍّ رائع، وأما من الناحية المعنوية فقد جمعت هذه القصيدة إضاءات رائعة؛ في التشبيهات الفنية والاستعارات البليغة؛ كما في قوله: "تبرز الأرض في أثوابها القشب"، و"معسولة الحلب"، و"صبح من الذهب"، و"جيش من الرعب"، و"جسر من التعب".. وكلها مشاهد تدل على خصوبه أفكار أبي تمام وسعة خياله وعمق معانيه، وأما من الناحية اللفظية والأسلوبية فاللفظ جزل فخم، تأنق في اختيار لفظه وسبكه على المعنى، وأجاد كذلك في استعمال الصنعة الأسلوبية والمحسنات البديعية كما نرى في الجناس الناقص بين "الجد والحد" و"الصحائف والصفائح"، والجناس التام بين "حد والحد"، والمقابلة بين نبي السيف ونبي القلم في مطلع القصيدة، و"جد بني الإسلام في صعد ودار الشرك في صعب"، واصفرار وجوه الروم وجلاء وجوه العرب في خاتمة القصيدة.

١ الحوباء: النفس. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/ ٣٤٠).

٢ الجرثومة: الأصل. المصدر السابق (١٢/ ٩٥).

- وقال يرثي بني حميداً!

الْيَوْمَ أَدْرِجَ زَيْدُ الْخَيْلِ فِي كَفَنٍ
بَنِي حُمَيْدٍ لَوْ أَنَّ الدَّهْرَ مُتَزَعٌ
إِنْ يَنْتَخِلْ حَدَثَانُ الدَّهْرِ أَنْفُسَكُمْ
فَالْمَاءُ لَيْسَ عَجِيبًا أَنْ أَعَذَّبَهُ
رُزْءٌ عَلَى طَيْبٍ أَلْقَى كَلَامَهُ
لَمْ يَتَكَلَّمُوا لَيْثَ حَرْبٍ مِثْلَ قَحْطَبَةٍ
إِنْ لَا تَكُنْ صَدَرْتُ عَنْ مَنْظَرٍ حَسَنِ
نِعَمَ الْفَتَى غَيْرَ نِكْسٍ فِي الْجِلَادِ وَلَا
حَنٍّ إِلَى الْمَوْتِ حَتَّى ظَنَّ جَاهِلُهُ
وَلَّى الْحُمَاةَ وَأَضْحَى عِنْدَ سَوْرَتِهِ
رَأَى الْمَنَايَا حُبَالَاتِ النُّفُوسِ فَلَمْ
لَوْ لَمْ يَمُتْ بَيْنَ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ إِذَا

وَأَنْحَلَ مَعْقُودَ دَمْعِ الْأَعْيُنِ الْهُتُنِ
لَصَدَّ مِنْ ذِكْرِكُمْ عَنْ جَانِبِ حَشِينِ
وَيَسْلَمِ النَّاسُ بَيْنَ الْحَوْضِ وَالْعَطَنِ
يَفْنَى وَيَمْتَدُّ عُفْرُ الْأَجْنِ الْأَسَنِ^٢
لَا بَلَّ عَلَى أَدَدٍ لَا بَلَّ عَلَى الْيَمَنِ
مِنْ قَبْلِ قَحْطَبَةٍ فِي سَالِفِ الزَّمَنِ
مِنْهُ فَقَدْ صَدَرْتُ عَنْ مَسْمَعٍ حَسَنِ
لَذَنِ الْفُؤَادِ لَدَى وَقْعِ الْقَنَا اللَّدَنِ
بِأَنَّهُ حَنَّ مُشْتَقًّا إِلَى وَطَنِ
مَعَ الْحَمِيَّةِ كَالْمَشْدُودِ فِي قَرَنِ^٣
يَسْكُنُ سَوَى الْمِيَّةِ الْغَلِيَا إِلَى سَكَنِ
لَمَاتَ إِذْ لَمْ يَمُتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ

- وقال يرثي محمد بن حميد وأخاه:

بِأَبِي وَغَيْرِ أَبِي وَذَاكَ قَلِيلُ
خَذَلْتُهُ أَسْرَتُهُ كَانَ سَرَائِهِمْ
أَكَّالَ أَشْلَاءِ الْفَوَارِسِ بِالْقَنَا
كُفِّي فَقَتَلُ مُحَمَّدٍ لِي شَاهِدُ
إِنْ يُسْتَضَمَّ بَعْدَ الْإِبَاءِ فَإِنَّهُ

ثَاوٍ عَلَيْهِ نَرَى النَّبَاجَ مَهِيلُ
جَاهِلُوا بِأَنَّ الْخَاذِلَ الْمَخْذُولُ^٥
أَضْحَى بِهِنَّ وَشِلْوُهُ مَأْكُولُ^٦
أَنَّ الْعَزِيزَ مَعَ الْقَضَاءِ ذَلِيلُ
قَدْ يُسْتَضَامُ الْمُصْعَبُ الْمَعْقُولُ

١ انظر: ديوان أبي تمام (ص ٣٧٧-٣٧٨).

٢ الأجن الأسن: الذي لا يُشرب؛ لنتنّه. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٣/ ١٦).

٣ السّورة: الحدة والسطوة. انظر: المصدر السابق (٤/ ٣٨٥)، القرن: الحبل. المصدر السابق (١٣/ ٣٣٤).

٤ انظر: ديوان أبي تمام (ص ٣٦٣).

٥ السّراة: الأشراف. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٤/ ٣٧٨).

٦ الشّيلو: الجسد. انظر: المصدر السابق (١٤/ ٤٤٢).

مُسْتَحْسِنٌ وَجْهَ الرَّدَى فِي مَعْرَكِ
 أَنْسَى أَبَا نَصْرٍ نَسِيْتُ إِذَا يَدِي
 هَيْهَاتَ لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ
 مَا أَنْتَ بِالْمَقْتُولِ صَبْرًا إِنَّمَا
 لِلسَّيْفِ بَعْدَكَ حُرْقَةٌ وَعَوِيلٌ
 وَجْهَ الْحَيَاةِ بِحَوْمَتَيْهِ جَمِيلٌ
 فِي حَيْثُ يَنْتَصِرُ الْفَتَى وَيُنِيلُ
 إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلٌ
 أَمَلِي غَدَاةَ نَعْيِكَ الْمَقْتُولُ
 وَعَلَيْكَ لِلْمَجْدِ التَّلِيدِ غَلِيلٌ

- ومن رقيق غزله!

الْبَيْنُ جَرَّعَنِي نَقِيعَ الْخَنْظَلِ
 مَا حَسَرْتِي أَنْ كِدْتُ أَقْضِي إِنَّمَا
 نَقْلُ فُؤَادِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى
 كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلُفُهُ الْفَتَى
 وَالْبَيْنُ أَثْكَلَنِي وَإِنْ لَمْ أَثْكَلِ
 حَسَرَاتُ نَفْسِي أَنَّي لَمْ أَفْعَلِ
 مَا الْخُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
 وَحَنِئُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

١ انظر: ديوان أبي تمام (ص ٤٦٣).

٦- عليُّ بن الجهم

ترجمته!

هو أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر بن الجهم بن مسعود، من نسل سامة ابن لؤي أخي كعب بن لؤي أحد أجداد النَّبِيِّ ﷺ، وعليه فهو قرشي النَّسَب، وكان سامة قد اختلف مع أخيه كعب بن لؤي، فغادر موطنه إلى البحرين شرق جزيرة العرب، ثم انتقل بنوه لاحقاً إلى خراسان، وقريش تطلق على بني سامة بن لؤي اسم بني ناجية نسبةً إلى أمِّهم زوج سامة، وهناك من يدفع عنهم ذلك النَّسَب وينكره، فيزعم أن سامة مات ولم يعقب، فتزوَّجت ناجية رجلاً من أهل البحرين وولدت له الحارث وادَّعت نسبه إلى قريش، فسار الحارث إلى كعب بن لؤي وأخبره، فصدَّقه، ولزمه حيناً، ثم سأل عنه ركباً أتاه من البحرين، فعلم خبره، ونفاه فرجع إلى البحرين فتزوَّج وأعقب هناك.

وقد وُلد علي بن الجهم نحو عام (١٨٨ هـ / ٨٠٤ م) في بغداد، وكان أبوه الجهم قد انتقل إليها من خراسان، وقد نشأ في أسرة من عليّة القوم، وفي بيت علمٍ وفضلٍ، فأماً أبوه الجهم فقد وُلِّيَ للمأمون بعض أعماله في بريد اليمن وفي الثغور، واستعمله الوثائق على شرطة بغداد، وكان أخوه الأكبر محمَّد بن الجهم عالماً وأديباً من فلاسفة المتكلِّمين وأهل الجدل، وكان أحد جلساء المأمون ومن رفقاءه، فولَّاه عدة ولايات، وولاه المعتصم على دمشق، وكان من قُرناء الجاحظ وممَّن أشاد بهم في حديثه، وكان عمُّه إدريس بن بدر وولده عثمان من وجهاء القوم.

وقد التحق علي بن الجهم بالكتَّاب منذ صغره، وبدأت تظهر عليه ملامح النشاط والنجابة، وغلب عليه حب الشعر وروايته، وقد شبَّ وسيم الوجه، حسن الجسم، ويبدو أنه كان محافظاً متديِّناً، فرغب عن مذاهب المتكلِّمين

^١ انظر: ديوان علي بن الجهم، المقدمة (ص ٥- ٢٦)؛ الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (١٠/ ١٦٨- ١٦٩)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ٣٥٥- ٣٥٨).

وأهل الجدل، وانقاد بمذهب أهل السُّنَّة والجماعة، وكان يتردَّد على الإمام أحمد بن حنبل فيسأله ويأخذ عنه، فنشأ صحيح الدِّين، واسع الثقافة، معارضًا للمعتزلة والزنادقة والروافض وأهل الجدل، ينال منهم في شعره، وكان متشيِّعًا لبني العباس، مناصرًا لهم، وعليه كان انحرافه عن الطالبين وأبناء علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، وكان ينال منهم، ويُروى أنه كانت بينه وبين أبي تَمَّام صداقة وطيدة، وأشاد كل واحد منهما بصاحبه.

وكان علي بن الجهم واسع الثقافة والدراية بالشعر، وكان كثير التَّنقُّل بين البلدان، وذاعت شهرته منذ عصر المأمون، وله بعض المديح في المعتصم والوائق، لكنَّه لم يلزمهما؛ بسبب ميلهما لمذهب المعتزلة الذي كان يعارضه، ولكرهه الشديد لأهل الاعتزال في مجالسهما، إلى أن جاء المتوكل عام (٢٣٢هـ/ ٨٤٦م) فانتصر لأهل السُّنَّة ونجَّى المعتزلة وأهل الجدل عن مجلسه، وحينها أقبل عليه علي بن الجهم فمدحه وحظي عنده، وقربَه المتوكل من مجلسه فكان من ندمائه وجُلسائه، وظلَّ ذا مكانةٍ عنده حتى دبَّ الوشاة بينهما، فكان ابن الجهم كثير الوشاية بندماء المتوكل، وكانوا هم بدورهم يسعون به لدى المتوكل حتى تغيَّر عليه فصرفه عن مجلسه، ثم قام بحبسه نحو عام، فأخذ يستعطفه وينشده شعرًا مادحًا إيَّاه، لكنه لم يرقَّ له؛ بسبب سعي خصومه من ندمائه، بل إنَّه صادر أمواله، وأرسله إلى خراسان وأمر عامله طاهر بن عبد الله بن طاهر بصلبه، فصلبه يومًا كاملاً ثم أنزله، فقال ابن الجهم في ذلك:

لَمْ يَنْصَبُوا بِالشَّاذِيَاخِ صَبِيحَةَ الْإِثْمِ ثَلَاثِينَ مَغْمُورًا وَلَا مَجْهُولًا
نَصَبُوا بِحَمْدِ اللَّهِ مِلَّةَ قُلُوبِهِمْ شَرَفًا وَمِلَّةَ صُدُورِهِمْ تَبْجِيلًا

وبقي في محبسه زمنًا حتى رضي عنه المتوكل فأمر بإطلاقه، فأطلقه طاهر، فقال فيه:

أَطَاهِرُ إِيَّيْ عَنْ خُرَاسَانَ رَاحِلٌ وَمُسْتَخْبِرٌ عَنْهَا فَمَا أَنَا قَائِلٌ

فقال له طاهر: لا تقل إلا خيراً؛ فإني لا أفعل بك إلا خيراً؛ ثم وصله وأكرمه وقرّبه من مجلسه، فكان من ندمائه وسُّمّاره ورفاقه، ثم ارتحل من خراسان وعاد إلى بغداد، لكنّ هذه المحنة قد أثّرت عليه، ونالت من نفسه، فانصرف عن رفاقه واعتزل الناس وبقي وحيداً زاهداً، ولم يذهب إلى المتوكّل ولم يعد إلى منادمته؛ بل كان يقضي وقته في الاختلاف إلى مجالس القيان واللّهو، إلى أن بلغه نبأ مقتل المتوكّل بتدبير ولده المنتصر، فجزع لمقتله جزعاً شديداً رغم ما كان منه بحقه، ورثاه رثاءً حارّاً، ويبدو أنه ازداد انعزاًلاً ويأساً من الحياة فترك مجالس اللّهو والقيان، وفي عام (٢٤٩هـ / ٨٦٣م) انتهى إلى أهل بغداد خبر مصرع قائدين عظيمين من قادة المسلمين؛ هما: عمر بن عبيد الله، وعلي ابن يحيى الأرمني، مع عدد كبير من جنود المسلمين على يد الروم، وكان لهذا النبأ وقع عظيم لدى عموم المسلمين، فانطلقت دعوات الجهاد وأقبل المتطوعة من مختلف الأمصار، وكان من بينهم علي بن الجهم رغم كبر سنّه الذي جاوز حينها السّتين على الأرجح، فخرج في قافلة إلى الثغور، فأغار عليهم نفر من الأعراب الكلبيين في موضع يُقال له حُسّاف، فهرب أغلب المقاتلة وثبت ابن الجهم في قليل من أصحابه فقاتلهم قتالاً شديداً حتى ثاب الناس إليه فردّوهم، إلا أن ابن الجهم أصيب بجراحات بالغة، فحمله أصحابه وهو ينزف إلى بغداد، فتوفي في الطريق -رحمه الله- شهيداً عام (٢٤٩هـ / ٨٦٣م)، ودُفِن على مرحلة من حلب.

شعره:

كان عليُّ بن الجهم شاعراً مطبوعاً مفلحاً، عذب اللفظ مع بعض الميل إلى الجزالة، صحيح السّبك، صفيّ المورد، واضح الغاية، عميق المعنى، وقد أعانه على ذلك سعة درايته بالشعر وروايته، بالإضافة إلى تعمّقه في العلوم والمعارف والفلسفة، وإحاطته بعلم الجدل والكلام، وكان صحيح العقيدة، كما كان يستعمل علمه بالمذاهب الكلامية في الرّدّ عليها وكشف بطلانها.

وأسلوب شعر ابن الجهم فخم رصين، سهل الكلام، لا غرابة في لغته، ولا تعقيد في تراكيبه، وكان يصقل ألفاظه، ويحسن تخييرها، يغلب على أسلوب شعره الطبع والجزالة، مع إيقاع عذب، وعاطفة جياشة، وكانت لديه قدرة فائقة على تأدية المعاني والتَّصَرُّف فيها، وكان يحسن التَّشْبِيه والاستعارة، ولا يخلو شعره من بعض الميل إلى الصنعة البديعية، ولكن بقدرٍ وبدون إسراف.

وقد برع عليُّ بن الجهم في عدة أغراض؛ من بينها المديح وإن كان مُقَلِّلاً فيه مقارنة بأقرانه، قاصراً إِيَّاهُ على بعض الخلفاء؛ حيث مدح المعتصم مشيداً بانتصاراته في عمورية وعلى بابك الخرمي، وله بعض المديح الخفيف بحق الواثق، وهو ما يشير إلى قَلَّة رغبته في التَّكسُّب من شعره، وأعظم مديحه كان في المتوكل، وله كذلك شيء من الفخر والحكمة والرثاء؛ حيث رثى أبا تمام وعبد الله بن طاهر أمير خراسان ورثى المتوكل عقب مقتله، وله غزل رقيق عذب اللفظ يمتلئ براعة في تصوير الشوق ووصف تباريح الهوى، وقد أبدع في غرض الوصف إبداعاً، وامتاز شعره الوصفي بالبراعة ودقَّة الحس؛ حيث أسهب في وصف المظاهر الحياتية كالقصور والمراكب والقيان ومجالس اللهو والشطرنج والصيد، وأجاد في وصف الطبيعة فذكر الليل والسحب والورد، وله هجاء كثير يصل به إلى درجة عالية من الخبث والأذى والطعن والشماتة؛ حيث كانت بينه وبين بعض ندماء المتوكل وعدد من معاصريه خصومات، فهجا محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم، وابن أبي دؤاد القاضي وآخرين، وله مزدوجة في الشعر التعليمي عن ابتداء الخلق، وربما افتتح قصائده بمقدمات طللية أو بحكمة أو بوصف للطبيعة، وفي شعره أثر من معرفته بعلم الكلام؛ حيث كان يردُّ على الروافض والمعتزلة ويهجوهم هجاءً لاذعاً.

ومن الجدير بالذكر أنَّ عليَّ بن الجهم من الشعراء الذين ظهرت فيهم النبذة الذاتية كآثرٍ من آثار الاتجاه العقلي؛ إذ أثَّرت فيه محنته التي تعرَّض لها، فكان بعد نجاته منها أقرب للانعزال واعتزال الناس، وتظهر في شعره بعض ملامح

الجانب العقلي؛ كما في مراثياته وحكمه ونصحه وأوصافه، فنراه أحياناً يصف الصلح والشيب والكتاب، وشعره على الجملة رائق الحسن، فائق الجودة.

نماذج من قصائده:

- قال في رائيته الشهيرة "عيون المها" يمدح المتوكل، وهي لا تخلو من الروعة والعاطفة الجياشة واللفظ العذب والإحساس العميق، وبها بعض ملامح الطباق والصنعة اللفظية رغم ما عُرف عنه من قلة الميل إليها:

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجِسْرِ	جَلَبَنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلَا أَدْرِي
أَعْدَنَ لِي الشُّوقَ الْقَدِيمَ وَلَمْ أَكُنْ	سَلَوْتُ وَلَكِنْ زِدَنَ جَمْرًا عَلَى جَمْرِ
سَلِمَنَ وَأَسْلَمَنَ الْقُلُوبَ كَأَنَّمَا	تُشَكُّ بِأَطْرَافِ الْمُتَّقَةِ السُّمْرِ
وَقُلْنَ لَنَا نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا	تُضِيءُ لِمَنْ يَسْرِي بَلِيلٍ وَلَا تَقْرِي
فَلَا بَذَلٌ إِلَّا مَا تَزَوَّدَ نَاطِرٌ	وَلَا وَضَلٌ إِلَّا بِالْخِيَالِ الَّذِي يَسْرِي
وَمَا الشِّعْرُ مِمَّا أَسْتَظِلُّ بِظِلِّهِ	وَلَا زَادَنِي قَدْرًا وَلَا حَطَّ مِنْ قَدْرِي
وَلِلشِّعْرِ أَتْبَاعٌ كَثِيرٌ وَلَمْ أَكُنْ	لَهُ تَابِعًا فِي حَالِ عُسْرٍ وَلَا يُسْرِ
وَمَا كُلُّ مَنْ قَادَ الْجِيَادَ يَسُوسُهَا	وَلَا كُلُّ مَنْ أَجْرَى يُقَالُ لَهُ مُجَرٍ
وَلَكِنْ إِحْسَانُ الْخَلِيفَةِ جَعَفَرٍ	دَعَانِي إِلَى مَا قُلْتُ فِيهِ مِنَ الشِّعْرِ
فَسَارَ مَسِيرَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ	وَهَبَّ هُبُوبَ الرِّيحِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَلَوْ جَلَّ عَنْ شُكْرِ الصَّنِيعَةِ مُنْعَمٌ	لَجَلَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الشُّكْرِ
فَتَى تَسْعُدُ الْأَبْصَارُ فِي حَرِّ وَجْهِهِ	كَمَا تَسْعُدُ الْأَيْدِي بِنَائِلِهِ الْغَمْرِ
بِهِ سَلِمَ الْإِسْلَامُ مِنْ كُلِّ مُلْحِدٍ	وَحَلَّ بِأَهْلِ الزَّيْغِ قَاصِمُهُ الظَّهْرِ
إِمَامٌ هُدَى جَلَى عَنِ الدِّينِ بَعْدَمَا	تَعَادَتْ عَلَى أَشْيَاعِهِ شَيْعُ الْكُفْرِ
وَفَرَّقَ شَمْلَ الْمَالِ جُودُ يَمِينِهِ	عَلَى أَنَّهُ أَبْقَى لَهُ أَحْسَنَ الذِّكْرِ
إِذَا مَا أَجَالَ الرَّأْيَ أَدْرَكَ فِكْرُهُ	غَرَائِبَ لَمْ تَخْطُرْ بِبَالٍ وَلَا فِكْرٍ
وَلَا يَجْمَعُ الْأَمْوَالُ إِلَّا لِبَذْلِهَا	كَمَا لَا يُسَاقُ الْهَدْيُ إِلَّا إِلَى النَّحْرِ

^١ ديوان علي بن الجهم، (ص ١٣٥ - ١٤١).

إِذَا نَحْنُ شَبَّهْنَاهُ بِالْبَدْرِ طَالِعًا وَبِالشَّمْسِ قَالُوا حَقَّ لِلشَّمْسِ وَالْبَدْرِ

- وقال^١:

إِلَى اللَّهِ فِيمَا نَابَنَا نَرْفَعُ الشَّكْوَى خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا
إِذَا جَاءَنَا السَّجَّانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ وَنَفْرَحُ بِالرُّؤْيَا فَجَلَّ حَدِيثُنَا
فَإِنْ حَسُنْتَ لَمْ تَأْتِ عَجَلَى وَأَبْطَأَتْ وَإِنْ قُبِحْتَ لَمْ تَحْتَسِبْ وَأَتَتْ عَجَلَى

- وقال^٢:

الْوَرْدُ يَضْحَكُ وَالْأَوْتَارُ تَصْطَخِبُ وَالرَّاحُ تَعْرِضُ فِي نَوْرِ الرَّبِيعِ كَمَا
وَاللَّهُوُ يُلْحِقُ مَغْبُوقًا بِمَصْطَبِحِ وَكَلَّمَا انْسَكَبَتْ فِي الْكَأْسِ آيَةُ
وَالْقَوْمُ إِخْوَانُ صَدَقَ بَيْنَهُمْ نَسَبُ تَرَاضَعُوا دُرَّةَ الصَّهْبَاءِ بَيْنَهُمْ
لَا يَحْفَظُونَ عَلَى السَّكَرَانِ زَلَّتُهُ

- وقال يهجو القاضي أحمد بن أبي دؤاد، وكان من رجال المأمون والمعتصم

والوائق^٣:

يَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُؤَادٍ دَعْوَةٌ بَعَثْتُ إِلَيْكَ جَنَادِلًا وَحَدِيدًا
مَا هَذِهِ الْبِدْعُ الَّتِي سَمَّيْتَهَا بِالْجَهْلِ مِنْكَ الْعَدْلُ وَالتَّوْحِيدُ
أَفْسَدْتَ أَمْرَ الدِّينِ حِينَ وَلَيْتَهُ وَرَمَيْتَهُ بِأَبِي الْوَلِيدِ وَلَيْدًا
لَا مُحْكَمًا جَزَلًا وَلَا مُسْتَطَرَفًا كَهْلًا وَلَا مُسْتَحْدَثًا مَحْمُودًا

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٦٥).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ٦٧ - ٦٨).

^٣ انظر: المصدر السابق (ص ٩٩).

٧- البُحْثري

ترجمته!

هو الوليد بن عبيد الله بن يحيى بن عبيد بن شمال البحتري الطائي، غلب عليه لقب البحتري نسبة إلى عشيرته بُحْتر من عشائر قبيلته طيء، وُلد نحو عام (٢٠٤هـ / ٨١٩م) أو (٢٠٦هـ / ٨٢١م) في مَنبِج من أعمال حلب شمالي الشام، ويُروى أنه كان قبيح الوجه، أسمر، طويل اللحية، زَرِيَّ الهيئة، وقيل فيه: نشأ فقيرًا، بخيلًا، متقلِّبًا، قليلَ الوفاء، مندفعًا إلى حب المال.

وقد نشأ البحتري أول حياته في البادية بين أحضان عشيرته من طيء، فغلبت عليه فصاحة العرب، وشبَّ فصيح اللسان، نقيَّ الكلام، واستيقظت موهبته الشعرية مبكرًا، فتنقَّل بين البدان في طلب الممدوحين، لكنَّه لم يلقَ ما يطمح إليه من حظوة، فذهب إلى أبي تمام في حمص وكان قد ذاع صيته وعلت شهرته، فعرض عليه بعض شعره فأعجب به، وقال له: أنت أشعر من أنشدني؛ ويُروى أنَّه قال له: أنت أمير الشعر بعدي؛ وكان كذلك، ولزمه البحتري حينًا فأخذ عنه واستفاد من نصائحه، ولمَّا رأى أبو تمام شكايته من الفقر بعث به إلى أهل معرَّة النعمان، وطلب منه أن يمدحهم، وكتب إليهم موصيًّا به، فأكرموه ووصلوه بأربعة آلاف درهم.

وقد بدأ البُحْثري رحلته مع مديح الخلفاء منذ عهد الواصل، واتَّصل بوزيره ابن الزيات وكتبه الحسن بن وهب وأخيه سليمان، ومدح آل حُميد الطوسي، وخالد ابن يزيد الشيباني أمير أرمينيا، وأبا سعيد محمد بن يوسف الثغري عامل حلب منذ عهد المعتصم، لكنَّه لم ينل في بلاط الواصل الحظوة التي كان يطمح إليها، حتى إذا مات الواصل وخلفه أخوه المتوكل عام (٢٣٢هـ / ٨٤٧م)؛ ذهب إلى بغداد واتصل بالفتح بن خاقان نديم المتوكل، وما لبث أن أوصله إلى بلاط الخليفة

^١ انظر: ديوان البحتري، المقدمة (١/ ٥ - ٦)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٦/ ٢١ - ٣٢)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٤/ ٢٧٠ - ٢٩٥).

فمدح المتوكل؛ الذي أعجب به فقرَّبَه إلى مجلسه وحظي عنده، فبذخ نجمه، وعلا صيته، ولزم المتوكل طوال مدَّة خلافته، وله معه أخبار شتى، وقد مدح في تلك المدة العديد من الأعيان مثل يحيى بن علي المنجم، وعبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المتوكل، ومدح عددًا كبيرًا من الكتَّاب وعمَّال الدواوين، فنال صِلاتهم وعطاياهم حتى اغتنى من بعد فقر.

وقد ظلّ البحترى على حاله تلك حتى قُتل المتوكل ونديمه الفتح بن خاقان علي يد الجند الأتراك عام (١٤٧هـ / ٨٦١م)، وكانت تلك الحادثة الفاجعة ذات أثر عظيم في نفسه، فزهّد عن ملازمة الخلفاء واعتزل بلاطهم، وارتحل إلى موطنه في منبج، لكن رغبته في المديح والتَّكسُّب قادته إلى العودة إلى بغداد وسامراء متَّصلاً بالخلفاء بعد المتوكل، فمدح المنتصر والمستعين والمعز والمهتدي والمعتمد، ومدح أيضًا بعض الأمراء والوزراء والقادة مثل أبي أحمد الموفق وليّ عهد المعتمد، والوزير إسماعيل بن بلبل، وإبراهيم بن المدبر، وعبدالله ابن المعز، واتصل ببني طاهر وبني سهل، ويبدو أنَّهم كانوا يحسنون إليه، وينال عطاياهم لكنَّه لم يلقَ الحفاوة التي حظي بها زمن المتوكل؛ نظرًا إلى اضطراب أوضاع الخلافة بعد مقتله، وكان هؤلاء الخلفاء قد اضطرب أمرهم، وضعُف مقامهم، وليس بيدهم شيء؛ إذ إنهم كانوا يُؤلَّون ويُخلَّعون، فكان البحترى في كلّ مرة يعود إلى منبج دون أن يلقى الخطوة التي أراد، فارتحل عن بغداد نهائيًّا عام (٢٧٩هـ / ٨٩٢م) وعاش في منبج ما بقي من حياته، وله مديح في أحمد بن طولون حاكم مصر والشام، ومن بعده ولده خمارويه، وقد توفِّي البحترى بسكتة قلبية نحو عام (٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، وقيل: بل بعد عامين من هذا التاريخ، وهو في نحو الثمانين من عمره.

شعره:

شعر البحترى قريب الأغراض، ظاهر المعاني، حلو اللفظ، سهل التراكيب، قال الأُمدي: البُحترى أعرابي الشعر، مطبوع على مذهب الأوائل، وما فارق عمود



الشعر قطُّ، وكان يتجنَّب التَّعْقِيد ومستكره الألفاظ ووحشيَّ الكلام؛ وقال الثعالبي: الإجماع واقع على أنه أطبع المحدثين والمولدين، وأن كلامه يجمع بين الجزالة والحلاوة والفصاحة والسلامة؛ وقد أشاد به ابن رشيِّق وابن الأثير وابن المعتز، وقال عنه أبو بكر الصولي: لا أعرف أحدًا بعد أبي تمام أشعر من البحتري، ولا أغضَّ كلامًا ولا أحسنَ ديباجة، وهو مستويُّ الشِّعر، حلو الألفاظ، مقبول الكلام؛ وكان شعره على الجملة سلسًا، بهيَّ الرونق، جميل الصورة، فائق الوجدان.

ويظهر على البحتري الطابع البدوي في شعره، دون إغفال روح العصر وحدائته؛ حيث بدا متأثرًا إلى حدٍّ بعيد بالطابع التقليدي المستوحى من الأدب القديم، سواء في اعتماده على المقديمة الطللية أو الوصفية والإسهاب فيها، أو حتى في تراكيبه وألفاظه، وقد مضى البحتري على خطى أستاذه أبي تمام في الشعر والعناية باللفظ والمعنى، ولكنَّه لم يبلغ درجته في البديع وعمق المعاني.

وقد برع البحتري في عدة أغراض؛ من بينها المديح؛ حيث مدح عددًا من الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة وكُتَّاب الدواوين وعمال الخراج والولايات، غير أنه لم يبلغ الصَّدى نفسه الذي بلغه أستاذه أبو تمام، باستثناء ما قاله بحق المتوكل ونديمه الفتح بن خاقان؛ والسبب في ذلك ليس في ضعف شعره؛ بل شعره قوي جدًّا؛ ولكن أوضاع الخلافة كانت مضطربة، والخلفاء بعد المتوكل كانوا ضعافًا لا يملكون من أمرهم شيئًا، وقد ظهر على البحتري طابع التَّكسُّب حتى إنه كان يمدح بعض الخلفاء ثم يضطر إلى هجائهم إرضاءً لمن يأتي بعدهم.

وله شيء من الغزل والعتاب والثناء والشكوى والفخر، ولكن أروع ما يظهر في شعره هو ما قاله في الوصف؛ حيث كان البُحتري مبدعًا في الوصف، متميِّعًا فيه بخيال خصب، ودقَّة في التعبير والتصوير، وكان يقرن الوصف بالمديح؛ كما نرى في وصفه لمظاهر العمران والرياض والمدن وقصور المتوكل وإيوان كسرى، وربما كان في وصفه أفضل من مديحه؛ لِصِدْق عاطفته، ولتراجع أثر المديح في عصره

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٣٥٨ - ٣٦١).

لِضَعْفِ الْخُلَفَاءِ وَغَلْبَةِ التَّكْسُّبِ، وَلِهَ بَعْضُ الْهَجَائِيَّاتِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ أَحْرَقَ
مَعْظَمَهَا قَبْلَ وَفَاتِهِ، فَلَا نَجْدَ لِلْهَجَاءِ كَبِيرَ أَثَرٍ فِي شِعْرِهِ.

وَقَدْ أَسْهَبَ النِّقَادُ فِي الْمَوَازَنَةِ بَيْنَ الْبَحْتَرِيِّ وَبَيْنَ أَسْتَازِهِ أَبِي تَمَامٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَدَّمَ
أَبَا تَمَامٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَضَّلَ الْبَحْتَرِيَّ، وَالْحَقُّ إِنَّ أَبَا تَمَامٍ أَعْلَى كَعْبًا مِنَ الْبَحْتَرِيِّ فِي
عَمَقِ مَعَانِيهِ، وَفِي اسْتِعْمَالِهِ لِلْبَدِيعِ وَالْمَحْسَنَاتِ اللَّفْظِيَّةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْبَحْتَرِيَّ رَغْمَ
ثِقَاتِهِ لَمْ يَتَعَمَّقْ فِي الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ الْفَلَسَفِيَّةِ، فَلَا نَرَى فِي شِعْرِهِ مِنْ عَمَقِ
الْمَعْنَى وَإِجَادَةِ اسْتِعْمَالِ الْبَدِيعِ وَالتَّغْلُغِ فِي دَقَائِقِ الْفِكْرِ وَالْأَخْيَلَةِ، كَمَا نَرَى عِنْدَ
أَبِي تَمَامٍ، أَوْ عِنْدَ بَعْضِ مَعَاصِرِيهِ كَابْنِ الرُّومِيِّ، وَلَكِنَّهُ اسْتِعَاضَ عَنْ ذَلِكَ
بِسَلْسَلَةِ شِعْرِهِ، وَاسْتَمَدَّادِ مَعَانِيهِ مِنَ الْخِيَالِ وَالطَّبِيعَةِ، وَمَا فِي شِعْرِهِ مِنْ صِفَاءٍ
وَتَنَاجُمٍ وَمَلَاءَمَةٍ وَإِقَاعٍ صَوْتِيٍّ وَاصْطِفَاءٍ لِلْكَلِمَاتِ، حَتَّى قِيلَ فِيهِ: أَرَادَ أَنْ يُشْعِرَ
فَغَنَّى، "وَقِيلَ لِأَبِي الْعَلَاءِ الْمَعْرِيِّ: أَيُّ الثَّلَاثَةِ أَشْعَرُ؟ فَقَالَ: إِنَّ أَبَا تَمَامٍ وَالْمُتَنَبِّيَّ
حَكِيمَانِ، وَالشَّاعِرَ الْبَحْتَرِيَّ؛ وَقِيلَ لِلْبَحْتَرِيِّ: أَيُّكُمَا أَشْعَرُ؟ أَنْتَ أَمْ أَبُو تَمَامٍ؟
فَقَالَ: جَيِّدُهُ خَيْرٌ مِنْ جَيِّدِي، وَرَدِيئِي خَيْرٌ مِنْ رَدِيئِهِ".

وَلَمْ يَسَلِّمْ شِعْرَ الْبَحْتَرِيِّ مِنَ السَّقْطِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ؛ وَذَلِكَ لِكَثْرَتِهِ، وَقَدْ رَوَى
عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ: أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدُ، وَالْمُرْزُبَانِيُّ، وَأَبُو بَكْرٍ الصَّوَلِيُّ الَّذِي جَمَعَ
دِيَوَانَهُ عَلَى حُرُوفٍ، وَلَهُ مِنَ الْمَوْئَلَفَاتِ "حَمَاسَةُ الْبَحْتَرِيِّ" وَهُوَ عَلَى غَرَارِ حَمَاسَةِ
أَبِي تَمَامٍ، وَلَهُ كَذَلِكَ "مَعَانِي الشُّعْرَاءِ".^٢

نماذج من شعره:

- قَالَ فِي سِينِيَّةٍ بَدِيعَةً يَصِفُ إِيْوَانَ كَسْرَى بِالْمَدَائِنِ؟

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدْنِسُ نَفْسِي وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَنْبَسٍ
وَتَمَاسَكْتُ حِينَ زَعَزَعَنِي الدَّهْرُ رُ التِّمَاسَا مِنْهُ لِنَفْسِي وَنَكْسِي
بَلَغُ مِنْ صُبَابَةِ الْعَيْشِ عِنْدِي طَفَّقْتُهَا الْأَيَّامُ تَطْفِيفَ بَخْسٍ

١ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢٣/٦).

٢ انظر: الفهرست، ابن النديم (ص ٥٢٩)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢١/٦).

٣ انظر: ديوان البحتري، (ص ٦٣١).

وَبَعِيدٌ مَا بَيْنَ وَارِدِ رِفْقِهِ
وَكَأَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ مَحْمُومًا
وَتَوَهَّمْتُ أَنَّ كِسْرَى أَبْرُوِي—
حُلُمٌ مُطْبِقٌ عَلَى الشُّكِّ عَيْنِي
وَكَأَنَّ الْإِيوَانَ مِنْ عَجَبِ الصَّنْ
يُتَطَنَّي مِنَ الْكَآبَةِ إِذْ يَنْبُ—
مُزْعَجًا بِالْفِرَاقِ عَنْ أَنْسِ الْفِ
عَكَسَتْ حَظَّةَ اللَّيَالِي وَبَاتَ الْـ
فَهُوَ يُبْدِي تَجَلُّدًا وَعَلَيْهِ

عَلَّلِ شُرْبُهُ وَوَارِدِ خُمُسِ
لَا هَوَاهُ مَعَ الْأَخْسِ الْأَخْسِ
زَ مُعَاطِيٍّ وَالبَلَهَبُ أَنْسِي^١
أَمْ أَمَانٍ غَيْرَ ظَنِّي وَحَدْسِي
عَةِ جَوُّبٍ فِي جَنْبِ أَرْعَنَ جِلْسِ
دَوِ لِعَيْنِي مُصْبِحٌ أَوْ مُمَسِ
عَزَّ أَوْ مُرَهَّقًا بِتَطْلِيْقِ عِرْسِ
مُشْتَرَى فِيهِ وَهُوَ كَوَكَبُ نَحْسِ
كَلَّكَلٌ مِنْ كَلَامِ الدَّهْرِ مُرْسِ

- وقال يمدح الفتح بن خاقان نديم المتوكل:

جَادَتْ يَدُ الْفَتْحِ وَالْأَنْوَاءُ بِاخِلَةٍ
وَقَصَّرَتْ هِمَمُ الْأَمْلَاقِ عَنْ مَلِكِ
إِنْ دُمْ لَمْ يَجِدِ الدُّنْيَا لَهُ عَوْضًا
يُشَيِّدُ الْمَجْدَ قَوْمٌ أَنْتَ أَقْرَبُهُمْ
وَمَا رَأَيْتُكَ إِلَّا بَانِيًا شَرْفًا
وَالنَّاسُ ضَرْبَانِ إِمَّا مُظْهَرٌ مَقَّةً
سَلَّلَتْ دُونَ بَنِي الْعَبَّاسِ سَيْفَ وَغَى
آثَارُ بَأْسِكَ فِي أَعْدَاءِ دَوْلَتِهِمْ
إِمَّا قَتِيلًا يَخُوضُ السَّيْفُ مُهْجَتَهُ
حَتَّى تَرَكْتَ قَنَاءَ الْمُلِكِ قَيْمَةً
لَا تُفْقِدَنَّ فَلَوْلَا مَا تُرَاخُ لَهُ

وَذَابَ نَائِلُهُ وَالْغَيْثُ قَدْ جَمَدَا
تَطَاطَوْوا وَسَمَتْ أَخْلَاقُهُ صُعْدَا
وَلَا يُبَالِي الَّذِي خَلَّى إِذَا حُمِدَا
نَيْلًا وَأَبْعَدُهُمْ فِي سُؤْدُدٍ أَمَدَا
أَوْ فَاعِلًا حَسَنًا أَوْ قَائِلًا سَدَدَا
يُنْثَنِي بِنُعْمَى وَإِمَّا مُضْمَرٌ حَسَدَا
يَدْمَى وَعِزَّمَا إِذَا أَضْرَمْتَهُ وَقَدَا
أَضَحَّتْ طَرَائِقُ شَتَّى بَيْنَهُمْ قَدَدَا
أَوْ نَازِعًا لَيْسَ يَنْوِي عَوْدَةً أَبَدَا
بِالنُّصْحِ لَا عَوَجًا فِيهَا وَلَا أَوْدَا
مِنْ السَّمَاحَةِ كَانَ الْجُودُ قَدْ فُقِدَا

١ البهليذ: اسم مغنى كسرى أنوشروان جد كسرى أبرويز. انظر: المصدر السابق، الهامش (ص ٦٣٤).

٢ انظر: المصدر السابق (ص ٢٧٠).

أَمَّا أَيَادِيكَ عِنْدِي فَهِيَ وَاضِحَةٌ
مَا إِنَّ تَزَالَ يَدٌ مِنْهَا تَسُوقُ يَدًا
أَمْ لَاحِقِي الْعَجْزُ إِنَّ لَمْ أَحْصِهَا عَدَدًا

- وقال يمدح المتوكل!

شَوْقٌ إِلَيْكَ تَفِيضٌ مِنْهُ الْأَدْمُغُ
وَهَوًى تَجَدِّدُهُ اللَّيَالِي كُلَّمَا
وَأَرَاكَ أَحْسَنَ مَنْ أَرَاهُ وَإِنْ بَدَا
كَلِفٌ بِحَبِّكَ مُوَلِّعٌ وَيَسْرُنِي
شَرَفًا بَنِي الْعَبَّاسِ إِنَّ أَبَاكُمْ
إِنَّ الْفَضِيلَةَ لِلَّذِي اسْتَسْقَى بِهِ
وَأَرَى الْخِلَافَةَ وَهِيَ أَعْظَمُ رُتْبَةً
أَعْطَاكُمْوهَا اللَّهُ عَنْ عِلْمٍ بِكُمْ
مَنْ ذَا يُسَاجِلُكُمْ وَخَوْضُ مُحَمَّدٍ

- وقال يمدح المتوكل أيضًا!

بِالْيَرِّ صُمْتَ وَأَنْتَ أَفْضَلُ صَائِمٍ
فَانْعَمْ بِيَوْمِ الْفِطْرِ عَيْنًا إِنَّهُ
أَظْهَرْتَ عِزَّ الْمَلِكِ فِيهِ بِجَحْفَلٍ
خَلْنَا الْجِبَالَ تَسِيرٌ فِيهِ وَقَدْ غَدَتْ
اللَّهُ أَعْطَاكَ الْمَحَبَّةَ فِي الْوَرَى

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٦٩١).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ٥٠١).

٨- ابن الرُّوميِّ

ترجمته!

هو أبو الحسن علي بن العباس بن جُريح (أو جرجيس)؛ المعروف بابن الرُّوميِّ، وهو مولى عبِيد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور، أسلم جدُّه على يديه، وهو من أصول رومية أو يونانية، وكانت أمُّه فارسيَّة، ويبدو هذا من شعره إذ يقول:

كَيْفَ أَغْضِي عَلَى الدِّنْيَةِ وَالْفَرْسِ سِوَى خَوْلِي وَالرُّومِ هُمْ أَعْمَامِي

وُلِد ابن الرُّومي في بغداد نحو عام (٢٢١هـ / ٨٣٦م)، ومات أبوه وهو فتى صغير، ويُوصَف بأنه كان في طفولته هزيل الجسم، دمِيم الخلقة، قليل شَعَر الرأس، لذا كان لا يفارق عمامته، وقد أظهر منذ صغره ميلاً إلى العلم، فالتحق بالكتاتيب، وبحلقات التدريس، فنال حظاً من علوم القرآن والدين والحساب والنحو، وأحاط بالشعر والخطب، واستفاد من مناظرات العلماء في اللغة والفقه وعلوم الكلام، كما اطلع على كتب الفلسفة والمنطق، وفي شعره إشارات واضحة تشير إلى إحاطته بتلك المعارف.

ولم يكن ابن الرومي سعيداً في حياته؛ فقد عانى من تعاقب المصائب والابتلاءات؛ فقد تزوّج مرتين ورزق أولاداً، لكنه كان قليل الحظ من السعادة والراحة؛ إذ ما لبث أن فقد ثلاثة من أولاده، ثم فقد إحدى زوجتيه، ثم أمّه وأخاه، فكان لتلك النكبات التي أصابته أثر عظيم، فصار ضيق الصدر، سريع الانفعال، كثير التشاؤم، مفرطاً في التّطيّر، وقد انعكس هذا على شعره وعلى عموم حياته، فصار وحيداً تغلب عليه العزلة بعدما فارقه معظم أصحابه، ويروى عنه في التّطيّر قصصٌ كثير؛ من بينها أنّ خللاً عقلياً كان ينتابه، وكان يتطيّر من ركوب البحر، ومن الماء، بل كان أيضاً يتشاءم من بعض الأسماء، حتى

^١ انظر: ديوان ابن الرومي، المقدمة (١/ ٧- ٩)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ٣٥٨- ٣٦٢)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٣٤٠- ٣٤١).

قيل له يوماً: جاءك مُرّة؛ فأغلق بابه ولم يخرج، على أنّ أمثال تلك القصص قد لا تخلو أحياناً من المبالغة والوضع.

وقد وجد ابن الرومي في الشعر سلعةً يتكسّب منها بامتداح الخلفاء والأعيان، وأعانه على ذلك تفتُّح قريحته الشعرية هو شاب، فاتصل بالخلفاء مادحاً، وقدم سامراء منذ عهد المنتصر، ومدح عدداً من الأعيان والأمراء ورؤساء الدواوين؛ مثل: أحمد بن الخصيب وزير المنتصر، وأبي الصقر إسماعيل ابن بلبل أحد رؤساء الدواوين، ومدح كذلك بعض الأسر وعدداً من أمرائهم مثل آل طاهر وآل وهب وآل الفرات، لكن الظروف المضطرية التي أصابت الخلافة في عصره لم تمنحه من مديحه المكانة والمنزلة التي يريدها، وقد أكرمه عددٌ من الأمراء وأحسن صلّته، بينما قصّر بحقه آخرون، فعاد وهجاهم بعدما مدحهم، وكان ابن الرومي بجوار مديحه وراثته ذا هجاء عنيف سليط، وهو ما يدل على اضطراب حالته المزاجية وإمعانه في التّكسّب والاستجداء.

وتشير الرويات أن ابن الرومي مات مسموماً، وتنسب تديير موته إلى القاسم ابن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد، وكان هذا الوزير غليظاً جبّاراً ظلّوماً، وكان يخشى من هجاء ابن الرومي وفلتات لسانه، رغم امتداح ابن الرومي لأبيه وله من قبل، لكن الأخير قصّر في صلّته، ثم سلّط عليه رجلاً يدعى ابن فراس فدرس له السم في طعامه وهو في مجلسه، فلمّا أحس ابن الرومي بالسّمّ قام من مجلسه، فقال له الوزير: إلى أين؟ فقال: إلى الموضع الذي بعثتني إليه؛ فقال: سلّم على والدي؛ فقال: ما طريقي إلى النار؛ ثم خرج من مجلسه ولزم بيته، وكان الطبيب يتردّد عليه لعلاج بالادوية الناقعة للسم، حتى توفيّ عام ٢٨٣هـ أو (٢٨٤هـ/٨٩٧م).

شعره:

كان ابن الرومي شاعراً مطبوعاً على السليقة، لا يتكلّف النّظم، وشعره فائق الانسيابية والنّغم، وكان يفضّل المعنى على اللفظ، ويميل إلى استيفاء المعاني

وإبرازها في أحسن صورة، اشتهر بقدرته على توليد المعاني فأتى بمعاني جديدة لم يُسبق إليها، وكانت ألفاظه فصيحة مألوفة، قلَّ أثر الغريب فيها، وكان به ميل إلى إطالة القصائد في بعض الأحيان؛ حيث يبلغ بالقصيدة أحياناً أكثر من ثلاثمائة بيت، وهو مُقلِّد في التشبيهات عن بعض معاصريه؛ حيث كان معاصره ابن المعتز أقدر منه على التشبيهات؛ كونه ابن خليفة وسليل القصور، ولكن ابن الرُّومي كان أعمق منه في معانيه، وقد قُورِن كذلك بمعاصره البُحتري؛ إذ كان البُحتري يمثِّل الاتجاه التقليدي القديم ويقف بصفِّه أهل اللغة مثل المبرد وتلميذه الأخفش ونفطويه، بينما كان ابن الرومي يمثِّل وجه الحداثة والتجديد، وقد هجا من قدَّم البُحتري عليه، وكان ابن الرومي أكثر تعمُّقاً في معانيه؛ لتفوقه على البُحتري في إحاطته بعلوم الحكمة والفلسفة.

ونلاحظ في شعر ابن الرومي الانسجام الفكري، والاندفاق الشعري، وظهور أثر تعمُّقه في علوم الحكمة والفلسفة والمنطق، وهو متعدِّدٌ في أوزانه وبحوره، ويمتاز شعره بعمق المعنى، وأسلوبه وسط بين الجزالة والنعومة، سهل لا غموض فيه، وفي شعره بعض آثار الصنعة اللفظية التي شاعت في عصره، ولكنَّه كان مُقلِّلاً منها فلم تكن أساساً فيه.

ويعتبر ديوان ابن الرومي أضخم دواوين العربية؛ حيث طُبِع حديثاً على ثلاثة مجلِّدات؛ نظراً إلى كثرتِه، وميله أحياناً إلى الإطالة المفرطة في بعض قصائده، ولعل هذه الإطالة المفرطة هي السبب في كثرة مواطن الضعف والسقط في شعره، مما يبعث على الملل أحياناً، ولكنَّه لا يصل به على كل حال إلى درجة الابتذال.

وقد تعدَّدت أغراض شعر ابن الرومي، ومن بينها المديح؛ حيث مدح عدداً كبيراً من الأمراء والأعيان بالإضافة إلى الخلفاء، ونال صِلات بعضهم، فكان ممَّن قرَّبه ووصله عُبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد وكتابه، وكذلك عُبيد الله ابن عبد الله بن طاهر والي بغداد، لكنَّ اضطراب أيام الخلافة في عصره قلَّل من أثر مديحه فلم ينل حظوة، وليس بمديحه للخلفاء كبيرُ صدَى، باستثناء ما

قاله بحق الخليفة المعتضد الحاكم الحازم القوي الذي زهت الخلافة أيامه، وكان مدحه على الجملة تكسُبيًا بلا عاطفة، وكان فيه مضطربًا مترددًا؛ فنراه عاد وهجا أكثر من مدحهم لما رأى من تقصيرهم في صلته وعطائه، وربما مدح بعضهم أثناء ولايتهم، ثم عاد فهجاهم بعد عزلهم، وقد برز كذلك في الهجاء؛ حيث عُرف بأنه هجاء مُفجِسٌ لاذع، وكان الجميع يهاب هجاءه وسلطة لسانه، وهو كثير في ديوانه، وكان متفوقًا فيه على أقرانه ومُقدِّمًا بلا منازع، وهجاؤه على ضربين؛ فتارةً يكون خفيًا لمجرّد العتاب والشكوى، وربما كان مُضحكًا ساخرًا، وتارةً يكون شديدًا لاذعًا شديدًا في الفحش والإفداع وهتك العرض، ولا سيَّما بحقّ الذين كانوا يحاولون التَّيل منه أو التقليل من شعره، وقد برع كذلك في الرثاء؛ حيث كان فيه صادق العاطفة، متأجِّج المشاعر، عميق المعنى والإحساس بالألم؛ وهذا يرجع إلى ما لقيه في حياته من فجائع الفقد.

وقد برع ابن الرومي في الوصف؛ حيث نراه يصف كل مظاهر الحياة من مظاهر العمران ومجالس الأنس والطرب، ويصف كذلك الأطعمة والأشربة والملابس والفواكه، وهو أحد من برزوا في وصف الطبيعة، فوصف السُّحب والرياح والزهور والنجس، وله كذلك شيء من الغزل والخمر والحكمة التي نراها في مواضع مختلفة من شعره، وفيها قدرٌ من التأمُّل والنبرة الذاتية.

على أن الأبرز في شعر ابن الرومي هو ما ظهر فيه من معالم الاتجاه العقلي، وهو مذهب جديد لم يكن مألوفًا، صحيح أننا نرى بوادره عند عليّ بن الجهم، وربما نلاحظه عفوًا في بعض أشعار الرثاء والغزل العُذري، ولكنّه لم ينضج وتكتمل عناصره إلا عند ابن الرُّومي الذي برع وتفوّق فيه؛ وذلك بسبب ما لقيه من فجائع الفقد في حياته، ممَّا دفعه إلى مزيد من الحزن والعزلة والتأمُّل من جهة، بالإضافة إلى إحاطته بعلوم الفلسفة والمنطق من جهة ثانية، فترى هذا الاتجاه العقلي يظهر في أوصافه المعنوية، فيصف الشَّيب، والبخل، وتقلُّب الزمان وتنكُّره، ويكثر من ذمّ الدهر ورثاء الشَّباب، ويصف السَّيف والقلم، كما نرى ملامح هذا الاتجاه العقلي في مرثياته وحكمه وقصائده الحزينة، وقد أسهبنا

في الحديث عن هذا الجانب أثناء حديثنا عن الاتجاه العقلي من مظاهر التجديد في الشعر العباسي، وأوردنا على ذلك أمثلة من شعره، ونكتفي بأنَّ الاتجاه العقلي الذي مثله ابن الرومي -مع أنه ليس له صيت أبي تمام والمتبي- كان إلهامًا لمن أتى بعده من شعراء التَّصوُّف وأنصار المدرسة الرومانسية في العصر الحديث، وكان من أبرز مكامن أهميَّة شعره فنيًّا وأثره العظيم في الأدب، هذا بجانب إبداعه في الرثاء والهجاء والوصف.

نماذج من قصائده:

- قال يرثي ولده الأوسط محمَّدًا:

بُكَاءُكُمْ يَشْفِي وَإِنْ كَانَ لَا يُجْدِي
بُنَيَّ الَّذِي أَهْدَيْتُهُ كَفَّايَ لِلثَّرَى
أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ الْمَنَايَا وَرَمَيْهَا
تَوَخَّى حِمَامَ الْمَوْتِ أَوْسَطَ صَبِيَّتِي
طَوَاهُ الرَّدَى عَنِّي فَأَضْحَى مَزَارُهُ
لَقَدْ أَنْجَزَتْ فِيهِ الْمَنَايَا وَعَيْدَهَا
لَقَدْ قَلَّ بَيْنَ الْمَهْدِ وَاللَّحْدِ لُبُّهُ
فَيَا لَكَ مِنْ نَفْسٍ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا
عَجَبْتُ لِقَلْبِي كَيْفَ لَمْ يَنْفَطِرْ لَهُ
بُودَيَّ أَنِّي كُنْتُ قَدِمْتُ قَبْلَهُ
وَلَكِنْ رَبِّي شَاءَ غَيْرَ مَشِيَّتِي
وَمَا سَرَّنِي أَنْ بَعَثَهُ بَنَوَابِهِ
وَلَا بَعَثَهُ طَوْعًا وَلَكِنْ غَصْبُهُ
وَإِنِّي وَإِنْ مُتُّ بَابَنِي بَعْدَهُ
هَلِ الْعَيْنُ بَعْدَ السَّمْعِ تَكْفِي مَكَانَهُ

فَجُودًا فَقَدْ أَوْدَى نَظِيرُكُمْ عِنْدِي
فَيَا عِرَّةَ الْمُهْدَى وَيَا حَسْرَةَ الْمُهْدِي
مِنْ الْقَوْمِ حَبَّاتِ الْقُلُوبِ عَلَى عَمْدٍ
فَلِلَّهِ كَيْفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ الْعَقْدِ
بَعِيدًا عَلَى قُرْبٍ قَرِيبًا عَلَى بُعْدٍ
وَأَخْلَفْتَ الْأَمَالَ مَا كَانَ مِنْ وَعْدٍ
فَلَمْ يَنْسَ عَهْدَ الْمَهْدِ إِذْ ضَمَّ فِي اللَّحْدِ
تَسَاقُطُ دُرٌّ مِنْ نِظَامٍ بِلَا عَقْدٍ
وَلَوْ أَنَّهُ أَقْسَى مِنَ الْحَجَرِ الصَّلْدِ
وَأَنَّ الْمَنَايَا دُونَهُ صَمَدَتْ صَمْدِي
وَلِلرَّبِّ إِمْضَاءُ الْمَشِيئَةِ لَا الْعَبْدِ
وَلَوْ أَنَّهُ التَّخْلِيدُ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ
وَلَيْسَ عَلَى ظُلَمِ الْحَوَادِثِ مِنْ مُعْدٍ
لَذَاكِرُهُ مَا حَنَّتِ النَّيْبُ فِي نَجْدٍ
أَمْ السَّمْعُ بَعْدَ الْعَيْنِ يَهْدِي كَمَا تَهْدِي

^١ انظر: ديوان ابن الرومي (١/ ٤٠٠).

لَعَمْرِي لَقَدْ حَالَتْ بِي الْحَالُ بَعْدَهُ فَيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَالَتْ بِهِ بَعْدِي
أَوْدُ إِذَا مَا الْمَوْتُ أَوْفَدَ مَعَشَرًا إِلَى عَسْكَرِ الْأَمْوَاتِ أَتَيْ مِنْ الْوَفْدِ
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مِنِّْي تَحِيَّةً وَمِنْ كُلِّ غَيْثٍ صَادِقِ الْبَرْقِ وَالرَّعْدِ

- وقال يفصح عن نظرته التشاؤمية وينصح بمجانبة الناس؛ وهي من القصائد التي تعبر عن ملامح الاتجاه العقلي في شعره!

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصَّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَحُولُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ
إِذَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ غَدًا عَدُوًّا مُبِينًا وَالْأُمُورُ إِلَى انْقِلَابِ
وَلَوْ كَانَ الْكَثِيرُ يَطِيبُ كَانَتْ مُصَاحَبَةُ الْكَثِيرِ مِنَ الصَّوَابِ
وَلَكِنْ قَلَّ مَا اسْتَكْثَرْتَ إِلَّا سَقَطَتْ عَلَى ذُنَابٍ فِي ثِيَابِ
فَدَغَ عَنْكَ الْكَثِيرَ فَكَمْ كَثِيرٍ يُعَافُ وَكَمْ قَلِيلٍ مُسْتَطَابِ
وَمَا اللَّجَجُ الْمِلَاحُ بِمُزَوِيَاتٍ وَتَلْقَى الرَّيَّ فِي النُّطْفِ الْعِذَابِ

- وقال يرثي يحيى بن عمر من نسل الحسين بن علي رضي الله عنه وعن آبائه!

يَا نَاعِي ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْبَشَرِ وَمُعَلَّنًا بِاسْمِهِ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
لَقَدْ نَعَيْتَ امْرَأًا ظَلَلْتَ لِمَصْرَعِهِ قَوَاعِدُ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا عَلَى خَطَرِ
لَقَدْ نَعَيْتَ امْرَأًا لَمْ تَحْيَ مَكْرَمَةً إِلَّا بِهِ وَبِهِ سَارَتْ إِلَى الْخَفَرِ
لَقَدْ نَعَيْتَ امْرَأًا مَا كُنْتُ أَحْسَبُهُ يَنْعَاهُ إِلَّا هُوِيَّ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
لَوْ فَاتَ شَيْءٌ مَدَى مِيقَاتِهِ انْكَدَرَتْ زُهْرُ النُّجُومِ عَلَيْهِ كُلُّ مُنْكَدَرِ
يَا نَاعِي ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ مَبْتَهَجًا لَقَدْ تَقَوَّهْتَ بِالْكَبَرَى مِنَ الْكُبَرِ
سَمْعًا لَهَا وَإِنْ اسْتَكَّتْ مَسَامِعُنَا إِنَّ الْمَسَامِعَ لِلنَّاعِينَ وَالْبُشَرِ

^١ انظر: المصدر السابق (١/ ١٤٩).

^٢ انظر: المصدر السابق (٢/ ١٦٢).

- وقال!

فِيمَ اجْتِهَادِي فِي مُحَاوَلَةِ الْغِنَى
يَفُوزُ بِجَمْعِ الْمَالِ مَنْ كَانَ بَاخِلًا
وَمَا أَنَا إِلَّا مُحَرِّزُ الْمَجْدِ وَالْغَلَا
وَأِنْ يَقْضِ لِي اللَّهُ الرَّجُوعَ فَإِنَّهُ
وَلَا أُبْتَغِي عَنْكُمْ شُخُوصًا وَرِحْلَةً
فَمَا الْعَيْشُ إِلَّا قَرُبٌ مَنْ أَنْتَ آفٍ
وَمَا لِلْغِنَى عِنْدَ الْجَوَادِ بِهِ قَدْرٌ
وَمَا لِي إِلَّا الْحَمْدُ مِنْ ذَاكَ وَالشُّكْرُ
وَذَلِكَ كُنْزِي لَا اللَّجَيْنُ وَلَا التَّبَرُّ
عَلَيَّ لَهُ إِلَّا أَفَارِقَكُمْ نَذْرٌ
يَدَ الدَّهْرِ إِلَّا أَنْ يُفَرِّقَنَا الدَّهْرُ
وَمَا الْمَوْتُ إِلَّا نَائِيهِ عَنْكَ وَالْهَجْرُ

- وقال في ذم الزمان!

دَهْرٌ عَلَا قَدْرُ الْوَضِيعِ بِهِ
كَالْبَحْرِ يَرْسُبُ فِيهِ لُؤْلُؤُهُ
فَاصْبِرْ عَلَى هَوْلِ الْخُطُوبِ لَهَا
لَا مُظْهِرًا فِي عَقَبِ نَائِبَةٍ
طَوْغُ الصَّدِيقِ يَقُودُ رِبْقَتَهُ
نُكْلُ الْعَدُوِّ يَرَى بِهِ أَسْفًا
فَلَقَلَّ مَا أَنْحَتَ عَلَى أَحَدٍ
وَهَوَى الشَّرِيفِ يَحْطُطُهُ شَرْفُهُ
سِفْلًا وَتَطْفُو فَوْقَهُ جِنْفُهُ
قَلْبٌ نَمَاهُ إِلَى الْعُلَا سَلْفُهُ
أَسْفًا وَلَيْسَ يَقُودُهُ شَعْفُهُ
لَا بُطُوهُ يُخْشَى وَلَا عُقْفُهُ
جَهْمًا عَبُوسًا مُوحِشًا كَنَفُهُ
بِالْجَوْرِ إِلَّا سَوْفَ تَنْتَصِفُهُ

^١ انظر: المصدر السابق (٢/ ١٤٣).

^٢ انظر: المصدر السابق (٢/ ٤٠٨).

٩- ابن المعتز

ترجمته!

هو الأمير ابن الخلائف؛ أبو العبّاس عبد الله بن محمد المعتز بن المتوكلّ ابن المعتصم بن هارون الرشيد، وُلِدَ نحو عام (٢٤٧هـ / ٨٦١م) أو قبل ذلك بعام، وما لبث بعد أن وُلِدَ حتى بدأت تتصدّع أركان الخلافة وتضطرب أمورها من بعد عزٍّ؛ إذ قُتِلَ جدُّه المتوكلّ عام (٢٤٧هـ / ٨٦١م) على يد الأتراك بالتآمر مع ولده المنتصر الذي خلف أباه على الخلافة لستّة أشهر، ثم لحق به، وخلفه ابن عمه المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم عام (٢٤٨هـ / ٨٦٢م) نحو ثلاث سنوات، ثم خلعه الجنود الأتراك وقتلوه ونصّبوا ابن عمه المعتز بن المتوكلّ عام (٢٥٢هـ / ٨٦٦م) فضلاً على الخلافة نحو ثلاث سنوات، ثم طالبه القادة الأتراك بأعطياتهم فعجز عن سدادها، فقاموا بخلعه وتعذيبه وقتله، ونصّبوا ابن عمه المهتدي بن الواثق؛ الذي ما لبث أن لحق بأسلافه بعد عام من الخلافة قتيلاً على يد الجند الأتراك سنة (٢٥٦هـ / ٨٦٩م).

وفي خضمّ تلك الاضطرابات السياسية نشأ عبد الله ابن المعتز، وتربّى بين أحضان القصور والتّرف، لكنّه جرّاء تلك الأحداث السياسية المضطربة التي أفضت إلى مقتل جدّه ثم أبيه وغيرهما انعزل عن السياسة، وأقبل على حياة التّرف والدّعة، وانشغل بالأدب؛ حيث أكبَّ على قراءة كتب الأدب والشعر واللغة، ممّا أدى إلى نموّ موهبته الشعرية والأدبية منذ صغره، وتتلّمذ على يد عددٍ من العلماء وأساتذة الأدب في زمانه؛ مثل أبي العباس المبرد، وأبي العباس ثعلب، وأبي جعفر بن زياد الضّبيّ صاحب القراءات، وأبي الحسن الدمشقي، وأبي علي العنزي، وصارت داره في بغداد منتدًى لرواد الأدب والشعر وعلماء

^١ انظر: ديوان ابن المعتز، المقدمة (ص ٥)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٧٦ - ٨٠)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢ / ٣٧٧ - ٣٧٨)؛ تهذيب البداية والنهاية لابن كثير، إعداد: عبدالحليم إبراهيم عبد الحليم (٣ / ١٥٢٦ - ١٥٢١٧).

اللغة، وكان يقصده فصحاء الأعراب فيأخذ عنهم، وقد انشغل بالشعر والتأليف ومجالس أدبه عن أمور السياسة والخلافة.

وإذا بأمور الخلافة تتحسن قليلاً في عهد المعتمد وأخيه ووليّ عهده الموفق، فتتخفّض حدّة سيطرة الترك، ويلزم ابن المعتز عمّيه المعتمد والموفق، ثم يلزم بعدهما ابن عمّه المعتضد بن الموفق، ثم ولده المكتفي، فيذكر حروهم ويشيد بانتصارات جيوش الخلافة على الرّنج والقرامطة وغيرهم من الثّوّار والخوارج، ولم يكن له مطمع في الخلافة، إلى أن مات المكتفي عام (٢٩٥هـ / ٩٠٧م)، وخلفه أخوه جعفر المقتدر وكان صبيّاً، فاستبدّت بأمره أمّه الجارية "شغب" وعاد الأتراك للتّسلّط على الخلفاء مجدّداً، مما أدّى إلى اضطراب أمور الخلافة، وهنا اجتمع نفرٌ من رؤساء الأجناد ووجوه الكتّاب نحو ابن المعتز وأقنعوه بمبايعته على الخلافة وخلع المقتدر، فأجابهم، على ألا يُسَفَك بسببه دم، فبايعوه على الخلافة عام (٢٩٦هـ / ٩٠٨م)، وتَسَيّى بالمرتضى أو بالمنصف بالله، وكان المتقدر حينها قد خرج يلعب بالصولجان، فأسرع إلى دار الخلافة وتحصّن بها، وكاد أن يستسلم لكنّ جنوده وأعوانه رفضوا التسليم وتحزّبوا وحاربوا أعوان ابن المعتز حتى هزموهم وتفرّق جمعهم، فأراد ابن المعتز أن يسير إلى سامراء لينزلها، لكن أنصاره تفرّقوا عنه، فاخْتَبأ في دار ابن الجصّاص التاجر الجوهري، فتمّ القبض على ابن المعتز، وسلّمه المقتدر إلى قائده مؤنس الخادم، فقتله خنقاً وسلّمه إلى أهله ملفوفاً في كساء، وصادر المقتدر معظم أموال الجصّاص، وعفا عن بقيّ حيّاً من أنصار ابن المعتز؛ حتى تهدأ النفوس، وكان مقتل ابن المعتز عام (٢٩٦هـ / ٩٠٨م)، ودُفن بقرية خربة بإزاء داره، وكان الأحرى به أن يظل مبتعداً عن السياسة ويتعظ بما جرى لجده ولأبيه.

شعره ومؤلفاته:

شعر ابن المعتز رقيق اللفظ، سهل العبارة، جيّد القريحة، قريب المأخذ، جميل الديباجة، حسن الاختراع للمعاني، يمتاز بالرّقة والسّلاسة ودقّة الحسّ وحسن



الطبع، وهو يصوّر جانبًا من حالة التّرف ونعيم القصور الذي كان يعيش فيها، ويمتاز شعره كذلك بأنّه يعبر عن ارتقاء الذوق، ورونق الحضارة، وعن الأناقة الملكية التي امتلأت بمظاهر التّرف وحياة القصور، وقد غلب عليه طابع الثقافة العربيّة الأصيلة، فنلاحظ مع رقة شعره بعض ملامح الجزالة في ألفاظه أحيانًا، فكان أقرب في فِته إلى أذواق المحافظين؛ إذ يبدو في شعره أثر الطابع البدوي؛ نظرًا إلى مخالطته الأعراب، ويبدو فيه أيضًا ارتقاء الذوق والجانب الملكي والأثر الحضاري.

وكان ابن المعتز أديبًا بليغًا، وشاعرًا مطبوعًا مقتدرًا، وقد دار شعره حول أغراض متعدّدة؛ من بينها المديح والرّثاء والحكمة والفخر والغزل والخمر والطرّد والوصف ووصف الطبيعة ومجالس الأنس والصيد، وشعره بعيدٌ عن أغراض التّكسّب والتّزلف والطّمع؛ إذ اكتفى بمدح عمّيه المعتمد والموفق وابن عمّه المعتضد وولده المكتفي منوّهًا بإنجازاتهم وانتصاراتهم الحربيّة، بالإضافة إلى قليل من الولاة والقادة مثل عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وعُبيد الله ابن سليمان بن وهب وابنه القاسم وزيري المعتضد، كما طرق شعره أحيانًا باب السياسة؛ حيث نال من أبناء عمومته الطالبيّين لصالح قومه العبّاسيّين، ذاكراً أنّ العبّاسيّين أحقّ منهم بالخلافة؛ كونهم هم من اجتهدوا وحازوها، وفي ديوانه أرجوزتان؛ واحدة بعنوان "شكوى الجن" ضمّنها بعض ملامح الدّعابة والهزل، والثانية "باسم الإله" وذكر فيها أمجاد ابن عمّه الخليفة المعتضد وإنجازاته وردّه للخلافة هيبتًا بعدما تلاعب بها الجند الأتراك مدّة من الزمن.

ويمتاز ابن المعتز في شعره بقدرته الفائقة على التّشبيهات والاستعارات، فقد أتى بتشبيهات رائعة، واستعارات بليغة، وتصاویر بارعة، تتجلى فيها روح حياة القصور، حتى فاق في هذا الجانب شعراء عصره، ويروى أن ابن الرومي سئل يومًا: لم لا تشبّه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه؟ فقال له: أنشدني شيئًا في شعره أعجز عن مثله؛ فأنشدته وصفه للهِلال:

انْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عُنْبَرٍ

فقال ابن الرومي: واغوثاه! لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها؛ ذلك إنما يصف ماعون بيته؛ لأنه ابن الخلفاء، وأنا مشغول بالتَّصَرُّف في الشَّعر وطلب الرزق به، أمدح هذا تارة وأهجو كَرَّةً، وأعاتب هذا تارة وأستعطف هذا طورًا، وهو إقرار من ابن الرومي بتفوق ابن المعتز عليه في التَّشبيهات والاستعارات، وإن كان ابن الرومي أبعد مدًى في معانيه وأكثر عمقًا.

وفي شعر ابن المعتز ميلٌ إلى الاستكثار من البديع والصنعة الأسلوبية وألوان الحلي اللفظي من طباق وجناس ومقابلات؛ حيث استعملها ببراعة، وتعددت مواضعها في شعره، ولكنَّه لم يبلغ في استعمالها حدَّ الإفراط والسَّرف، وقد أوردنا أمثلة منها في شعره أثناء حديثنا عن الصنعة الأسلوبية في الشعر العباسي.

ولابن المعتز غير شعره عدة تصانيف؛ منها: كتاب "البديع" وهو مُصنَّف شهير شرح فيه بعض ألوان الصنعة البديعية والأسلوبية، وهو أول كتاب من نوعه، وله كتاب "طبقات الشعراء" وهو عبارة عن تراجم مختصرة لعددٍ ممَّن سبقه من الشعراء، مع نماذج من أشعارهم، وله كذلك كتاب "الجوارح والصيد"، وكتاب "السرققات"، و"الزهر والرياض"، و"أشعار الملوك"، و"الآداب"، وكتاب "حلي الأخبار"، و"الجامع في الغناء"؟ ممَّا يدل على تعمُّقه في الأدب وعلومه، وحفظت له كتب الأدب غير أشعاره ومؤلفاته عدَّة رسائل نثرية بديعة.

نماذج من قصائده:

- قال يمدح ابن عمه المعتضد ويذكر بناءه لقصر الثُّرَيَّا؟

سَلِمَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الدَّهْرِ	وَلَا زِلَتْ فِينَا بَاقِيَا وَاسِعِ الْغَمْرِ
حَلَلَتْ الثُّرَيَّا خَيْرَ دَارٍ وَمَنْزِلٍ	فَلَا زَالَ مَعْمُورًا وَبُورِكَ مِنْ قَصْرِ
فَلَيْسَ لَهُ فِيمَا بَنَى النَّاسُ مُشَبِّهٌ	وَلَا مَا بَنَاهُ الْجَنُّ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣٣٤ / ٤).

٢ انظر: الفهرست، ابن النديم (ص ٣٥٩ - ٣٦٠).

٣ انظر: ديوان ابن المعتز (ص ٢١٥ - ٢١٦).

وبالْعِزِّ والتَّقْدِيمِ وَالنَّهْيِ والأَمْرِ
لِسَانٌ وَلَا قَلْبٌ يَقُولُ وَلَا فِكْرٌ
مَدَائِحُ لَيْسَتْ مِنْ كَلَامٍ وَلَا شِعْرٌ
وَجُودٌ لَدَى الْإِنْفَاقِ بِالْبَيْضِ وَالصُّفْرِ
فَأَوْرَقَنَ بِالْأَثْمَارِ وَالْوَرَقِ الْخُضِرِ
تَنْقُلُ مِنْ وَكْرٍ لَهْنٌ إِلَى وَكْرٍ
وَحُقٌّ لِدَارٍ غَيْرِ دَارِكَ بِالْهَجْرِ
كَصَفِ نِسَاءٍ قَدْ تَرَبَّعْنَ فِي الْأُزْرِ
لِثَرَضِعِ أَوْلَادِ الرِّيَاحِينَ وَالزَّهْرِ
وَدَاوَيْتِ بِالرَّفَقِ الْجُمُوحَ وَبِالْقَهْرِ
وَلَا دِرْعَ أَوْقَى لِلنُّفُوسِ مِنَ الْعَمْرِ
وَتَقْتَرِسُ الْأَعْدَاءُ بِالْبَيْضِ وَالسُّمْرِ
بِمِشْيَةِ وَثَابٍ عَلَى النَّهْيِ وَالزَّجْرِ

وما زال يَرعاهُ الإمامُ بِرَأْيِهِ
فَتَمَّ فَمَا فِي الْحُسْنِ شَيْءٌ يُرِيدُهُ
سَيِّئِي عَلَيْهِ مِنْ مَحَاسِنِ قَصْرِهِ
يُشِيرُ إِلَى رَأْيٍ مُصِيبٍ وَحِكْمَةٍ
جِنَانٌ وَأَشْجَارٌ تَلَاقَتْ عُصُونُهَا
تَرَى الطَّيْرَ فِي أَغْصَانِهِنَّ هَوَاتِمًا
هَجَرَتْ سِوَاهَا كُلَّ دَارٍ عَرَفَتْهَا
وَبُنْيَانٍ قَصْرٍ قَدْ عَلَتْ شُرَفَاتُهُ
وَأَنْهَارٍ مَاءٍ كَالسَّلَاسِلِ فُجِّرَتْ
حَكَمْتَ بِعَدَلٍ لَمْ يَرِ النَّاسُ مِثْلَهُ
وَلَا بَأْسَ أَنْكَى مِنْ تَثْبُطِ حَازِمٍ
وَمَا زِلْتَ حَيَّ الْمُلْكِ تُرْجَى وَتُنْتَقَى
وَمَا لَيْثٌ غَابَ يَهْدِمُ الْجَيْشَ خَوْفُهُ

- وقال في قصيدة رائعة مليئة بالصور والتشبيهات البديعة!

عَلِقَتْهُمْ هَكَذَا حِينًا وَمَا عَلِقُوا
وَبِالْأَبَارِقِ مِنْهُمْ مَنْزِلٌ خَلَقُ
دِرْعٌ تُخَلِّفُهُ أَظْلَافُهُ نَسَقُ
بَلْ أَنْتَ مِنْ بَيْنِهِمْ تَشْقَى بِمَنْ تَمِقُ
وَيَعْمَلُ جَمَلٍ فِي أَنْفِهِ الْخَلْقُ
كَأَنَّ تَنْقِيطَهُ فِي ثَرْبِهَا طَبَقُ
بِهَا عَلَى الْكُرْهِ مِنْ نَفْسِي وَمَا وَثَقُوا
يُنَازِعُ الْحَبْلَ مَشْدُودًا وَيَنْطَلِقُ
وَعَذَّبُوا النَّفْسَ حَتَّى مَا بِهَا رَمَقُ

يَا قَلْبُ قَدْ جَدَّ بَيْنَ الْحَيِّ فَاِنْطَلَقُوا
فَتِلْكَ دَائِرُهُمْ أَمَسَتْ مَجْدَدَةٌ
كَأَنَّ آثَارَ وَحْشِي الطِّبَاءِ بِهَا
لَا مِثْلَ مَنْ يَعْرِفُ الْعُشَاقَ حُبَّهُمْ
نَاوَا بِلَيْلٍ فَرَمُوا كُلَّ يِعْمَلَةٍ
يَلْقَى الْقَلَاةَ بِخَفٍّ لَا يَقْرُ بِهَا
إِنِّي وَأَسْمَاءُ وَالْحَيِّ الَّذِينَ غَدَوْا
لِكَالرِّيْبِطِ وَقَدْ سَيَقَتْ قَرِينَتُهُ
فَطَيَّرُوا الْقَلْبَ وَجَدًا بَيْنَ أَضْلَعِهِ

١ انظر: المصدر السابق (ص ٣٢٩ - ٣٣٠).

رقشاءً مجدولةً في لونها برقُ
غُصْنٌ تَفْتَحُ فِيهِ النَّوْرُ وَالْوَرَقُ
كَمَا تَعَوَّدُ بِالسَّابَّابَةِ الْفَرِقُ
بِمُقْلَةٍ جَفْنُهَا فِي دُمْعِهَا عَرَقُ
تَكَادُ لَوْلَا دُمُوعُ الْعَيْنِ تَحْتَرِقُ
بَدْرٌ تَمَرَّقُ فِي أَرْكَانِهِ الْعَسَقُ
سَيَرُوا فَمَا أَخْطَوْا قَوْلِي وَمَا خَرَقُوا
حَتَّى تَوَقَّدَ فِي ثَوْبِ الدُّجَى الْخَفَقُ
وَرَبَّمَا جَابَ أَسْبَابَ الْكَرَى الْأَرْقُ
مِنَ الْقَذَى وَلِغَيْرِي الشَّوْبُ وَالرَّنَقُ
إِذَا تَخَاصَّمَ عَزَمَ الْمَرءِ وَالْفَرَقُ
مَا دَامَ يَعْجِزُ عَنْ أَعْدَائِي الْحَقُّ

كَأَنَّنِي سَاوَرْتَنِي يَوْمَ بَيْنِهِمْ
كَأَنَّهَا حِينَ تَبْدُو مِنْ مَكَامِنِهَا
يُنْسَلُ مِنْهَا لِسَانٌ يَسْتَغِيثُ بِهِ
مَا أَنَسَ لَا أَنَسَ إِذْ قَامَتْ تُودِّعُنَا
تَفْتَرُّ عَنْ مُقْلَةٍ حَمراءَ مُوقَدَةٍ
كَأَنَّهَا حِينَ تَبْدُو مِنْ مَجَاسِدِهَا
وَفَتِيَّةٌ كَسُيُوفِ الْهِنْدِ قَلْتُ لَهُمْ
سَارُوا وَقَدْ خَضَعْتَ شَمْسُ الْأَصِيلِ لَهُمْ
لِحَاجَةٍ لَمْ أَضَاجِجْ دُونَهَا وَسَنَّا
لَا أَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا وَهُوَ مُنْجَرِدٌ
عَزَمِي حُسَامٌ وَقَلْبِي لَا يُخَالِفُهُ
مِنْثُ السَّرَائِرِ ضَحَّاكَ عَلَى حَقِّ

- وقال:

وَصَايِحُ بَيْنٍ فِي ذُرَا الْأَيْكِ وَإِقْعُ
سِوَى لِمَحَاتٍ أَوْ تُشِيرُ الْأَصَابِغُ
بِمَا كَتَبَتْ مِنْ خَذِئِنِ الْبَرَاقِعُ
كَذَلِكَ جَهْلُ الْمَرءِ لِلْخُبِّ صَارِعُ
لَهَا كَوَكَبٌ فِي ذُرْوَةِ الشَّمْسِ لَامِعُ
وَبَلَلَهَا طَلٌّ مَعَ اللَّيْلِ دَامِعُ

أَلَسَّمْعُ مَا قَالَ الْحَمَامُ السَّوَاجِعُ
مَنْعَنَا سَلَامَ الْقَوْلِ وَهُوَ مُحَلَّلٌ
تَأَبَّى الْغِيُونُ الْبُخْلَ إِلَّا نَمِيمَةً
وَإِنِّي لَمَغْلُوبٌ عَلَى الصَّبْرِ إِنَّهُ
كَأَنَّ الصَّبَا هَبَّتْ بِأَنْفَاسِ رَوْضَةٍ
تَوَقَّدَ فِيهَا النَّوْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

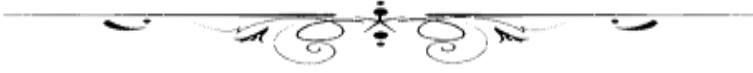
- وقال:

خَلَاءَ كَمَا شَاءَ الْفِرَاقُ قِفَارُ
وَلَمْ يَكُ فِيهَا لِلْجِبَالِ قَرَارُ

شَجَّتْكَ لِهِنْدٍ دِمْنَةٌ وَدِيَارُ
سَلِينِي إِذَا مَا الْحَرْبُ ثَارَتْ بِأَهْلِهَا

١ انظر: المصدر السابق (ص ٣٠٧).

٢ انظر: المصدر السابق (ص ١٩٤).



ودَارَتْ رُجِيّ الموتِ والصَّبْرُ قُطْبُهَا وأَكْثَرُ مَا فِيهَا دَمٌّ وَغُبَارُ
وقَامَ لَهَا الأَبْطَالُ بالبَيْضِ والقَنَا وهَبَّتْ رِيَاخُ الآخِرِينَ فطَارُوا

١٠- أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي

ترجمته!

هو أبو الطَّيِّبِ أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي المذحجي الكوفي، وُلِدَ في الكوفة نحو عام (٣٠٣هـ / ٩١٥م) في حيِّ كندة فُنُسِبَ إليها وعُرف بالكندي، لكنَّ نسبه الأصلي إلى بني جعفي بن سعد العشيرة، من مذحج، من قحطان، فهو عربي النَّسَب، قحطاني الأصل.

وقد نشأ أبو الطَّيِّبِ في أسرة متواضعة؛ فكان أبوه سَقَاءً بالكوفة يُعرَف بعبدان أو عبَّيدان السَّقَاء، وأما جدُّته لأُمِّه فهي همدانية صحيحة النَّسَب من ضُحَّاء أهل الكوفة، وهي الوحيدة التي ذكرها في شعره، وهو مع تواضُع أسرته كان طموحًا بعيد الهمة، وكان قويَّ الحافظة، ونشأ ذكيًا مطبوعًا على الشعر، وكان يختلف إلى الورَّاقين ويطلُّع على ما بأيديهم من الكتب، ويحضر مجالس العلم والأدب، وأخذ يطلُّع على كتب اللغة والأدب والفلسفة، وقد اعتنى أبوه بتعليمه وتأديبه، وكانت الحياة العلمية في ذلك الوقت نشطة، ولكن الأوضاع السياسية كانت في غاية الاضطراب؛ فالخلافة العباسية كانت تعيش في ذلك الوقت أطوارًا من الضعف والانحطاط، وكان العالم الإسلامي منقسمًا بين عدَّة إمارات متصارعة كالبوهميين والإخشيديين والعبَّيديين (الفاطميين) والحمدانيين. والرُّوم قد اشتدَّ خطرهم على الثغور الإسلامية، والقرامطة يعيشون شرًّا في البحرين والعراق وجزيرة العرب، وقد أغار القرامطة على الكوفة عام (٣١٣هـ / ٩٢٥م)، فغادرها المتنبِّي مع أبيه في تلك الأثناء وأقام حينًا بالبادية = في موضع يُقال له بادية السماوة، فاختلط بالأعراب ونال منهم حظُّه من اللغة والفصاحة، وقد عاد إلى الكوفة لكنَّه اضطرَّ إلى مغادرتها مرَّة أخرى بعد تكرُّر عدوان القرامطة

^١ انظر: ديوان المتنبِّي، المقدمة (ص ٥- ١١)؛ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ١٨١- ١٨٥)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ١٢٠- ١٢٥)؛ تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٢٧٠- ٢٧٢)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٣/ ٤٥٧- ٤٦٤)؛ تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/ ٧٢٨- ٧٣٨).

عليها عام (٣١٥هـ / ٩٢٧م)، وأقام زمناً يسيراً في بغداد، ثم سار إلى الشام وهو حدثٌ نحو عام (٣٢١هـ / ٩٣٣م)، ويبدو أنَّ أباه قد تُوفيَّ في تلك السنوات، فأخذ أبو الطَّيِّبَ يتنقَّلَ بين بلاد الشام محاولاً التَّكسُّبَ بشعره، ومَرَّ على مَنبِج وأنطاكيا واللَّاذقيَّة ودمشق، وامتدح بعض الأمراء والولاة في تلك البلدان، ولكنَّه لم ينل الحظوة المرجوَّة، وكان فيه طموح وبُعدُ هَمَّةٍ وتطلُّع إلى الرياسة، وتزعم بعض الروايات أنَّه من فرط طموحه قد ادَّعى النُّبوَّة، وادَّعى أنه علويٌّ، وأنَّه قال كلاماً زعم أنَّه قرآن أنزل عليه؛ من بينه "والنَّجم السَّيَّار، والفلك الدَّوَّار، واللَّيل والنَّهار، إنَّ الكافر لفي أخطار،.....)، وتبعه خلق من الناس فُتِنوا بسِحْرِ بيانه، قبل أن يُقبَضَ عليه ويُستتاب.

ولكن روايات أخرى تنفي ذلك نفياً قاطعاً، وتقول: إنَّه أخذ يحرِّض الأعراب على التَّمَرُّد على أولي الأمر والامتناع عن دفع الضرائب، ودعا لنفسه بالرياسة، وتبعه خلق من بني كلب، فنهض إليه لؤلؤ عامل حمص من قبَل الإخشيديين، وأسرَّه بعدما بدَّد جُمع من معه، وحبسه مَتَّهماً إياه بادِّعاء النُّبوَّة، فعُرف منذ ذلك الحين بالمتنبِّي، وظلَّ في محبسه زمناً، فأخذ يستعطفه حتى عفا عنه بعدما استتابه وكتبه وثيقة يشهد على نفسه ببطلان ما ادَّعاه، وأطلقه من محبسه، والتصق به لقب المتنبِّي بعد ذلك رغم عدم ادِّعائه النُّبوَّة.

تخلَّى المتنبِّي بعدها عن طموحه السياسي، وتفرَّغ للشعر والأدب لعلَّه يحقِّق منهما تلك المنزلة المرجوَّة، وقد كان له ما أراد؛ إذ اتصل بأبي العشائر بن حمدان والي أنطاكيا من قبَل سيف الدولة الحمداني أمير حلب عام (٣٣٧هـ / ٩٤٨م)، فمدحه، وما لبث أن التقى هناك بالأمير سيف الدولة الحمداني أثناء مروره بأنطاكيا، فقدَّمه إليه أبو العشائر وأعجب به، وكان سيف الدولة بجانب فروسيَّته محباً للأدب والشعر، وكان بلاطه حافلاً بالأدباء والعلماء والشعراء، وعرض على المتنبِّي أن يصطحبه معه بحلب، فقَبِلَ المتنبِّي عرضه ولكنه اشترط عليه ألا يُقبَل الأرض بين يديه، وأن يُنشدَّه وهو جالس، وأن يضمن له ثلاثة آلاف دينار في العام، غير صِلات قصائده في مدحه، فقَبِلَ سيف الدولة،

واصطحبه إلى حلب وضمّه إلى مجلسه، وسلّمه إلى الرّؤّاض حتى يتدرّب على الفروسية والطّراد، وقد أقام المتنبي في كنف سيف الدولة الحمداني نحو تسع سنوات، وشهد جانبًا من حروبه وغزواته، وأنشده قصائد جيّادًا تدور حول المديح والحماسة ووصف المعارك والرّثاء وغير ذلك من الأغراض، وكان مجلس سيف الدولة حافلًا بالأدباء والعلماء، لذا كان التنافس بينهم عاليًا، وكان هذا ممّا ساهم في ارتفاع شعر المتنبي وعُلُوّ مستواه، وكان سيف الدولة يغدق عليه ويحسن صلّته حتى صار مقدّمًا عنده على غيره، ممّا أوغر صدور سائر رجال الحاشية من العلماء والشعراء الذين حقدوا على المتنبي مكانه من سيف الدولة، مثل ابن خالويه النحوي معلّم سيف الدولة، وكان كثيرًا يشاحن المتنبي وينتقد شعره، حتى بدأ قلب سيف الدولة يتغيّر عليه، ويقال: إن ابن خالويه تشاجر مع المتنبي فحذفه بدوابةٍ أو بمفتاحٍ كان بيده فشجّ رأسه، ولم يُنصفه سيف الدولة، وما لبث أن بدأ ينصرف عنه لما أحسّ من تغيّره عليه، ثم غادر حلب نحو عام (٣٤٦هـ/ ٩٧٥م).

وانتقل بعدها إلى مصر، وكان قد استبد بحكمها أبو المسك كافور الإخشيدي، وكان في عزّة ومنعةٍ، فأقام عنده مدّة من الزمن ومدحه بمجموعة من القصائد طمعًا في أن يولّيه ولاية، وقد أكرمه كافور ولقي المتنبي عنده حفاوةً وصلّةً وخلع عليه، لكنّه خيّب ظنه فلم يمنحه ولاية؛ خوفًا من طموحه، وقال لرجاله يومًا: يا قوم؛ من ادّعى النّبوة بعد محمدٍ ﷺ، ألا يدّعي الملّك مع كافور؟! فحسّبكم!! ويئس منه المتنبي، وأخذ كافور يشدّد الرّقابة عليه حتى لا يغادره، إلا أن المتنبي انتهز فرصة انشغال الناس بليلة عيد الأضحى، فانسلّ فرارًا من مصر بعد أن هجاه بقصيدة دالّية شهيرة، وتوجّه نحو العراق، وقد وصلته رُسُل سيف الدولة الحمداني تطلب منه العودة إلى حلب، وبعث إليه هديّة ومالًا، ولكن المتنبي اعتذر عن قبول الدعوة، واكتفى برثاء خولة أخت سيف الدولة في قصيدة مؤكّداً على بقاءه على مودّته واحترامه له، ولعلّه سمع وقتها بمرض سيف الدولة

وتضعُعُ سلطانه وما لقيَه من نكبات وانكسارات بعد عزٍّ، فلم يَعدْ إلى بلاطه
أنفَه وترَفُّعًا.

وقد توجَّه المتنبِّي إلى الكوفة، واشترك في دفع غارة بني كلاب عليها أثناء إقامته،
كما ارتحل إلى بغداد، لكنَّه لم يرَ الوضع على ما يشتهي، فلم يمدح الخليفة
وكان مستضعفًا منزوع السلطة، كما ترفَّع عن امتداح الوزير المهلبي، فأغرى به
الأخير عددًا من الشعراء المغموين كابن الحجاج وابن سكرة الهاشمي والحاتمي،
فهجوا المتنبِّي ونالوا منه، لكنَّه لم يأبه بهم فترفَّع عنهم ولم يردَّ عليهم، والتقى
المتنبِّي أثناء إقامته بالعراق عددًا من علماء اللغة كعلي البصري وابن جني
فشرح لهم شعره.

ثم سار المتنبِّي إلى فارس، وارتحل إلى أَرْجَان عام (٣٥٤هـ / ٩٦٥م)؛ حيث زار
الأديب ابن العميد الكاتب وزير ركن الدولة ابن بويه، فمدحه ولقي عنده حفاوة
وصلة، ولبث عنده ثلاثة أشهر، وكتب إليه صاحب ابن عباد يستزيه بأصهبان
طمعًا في مديحه، وكان وزيرًا وكاتبًا، لكن المتنبِّي لم يجبه، فحقد عليه صاحب
وأخذ يتبَّع عورات شعره، ثم وفد المتنبِّي على عضد الدولة ابن ركن الدولة
البويهي في شيراز ملبيًا دعوته، فمدحه بمجموعة من القصائد، فأكرمه عضد
الدولة وأغدق عليه من صلَّته، ووهبه أموالًا طائلة، وبقي المتنبِّي بكنفه في شيراز
ثلاثة أشهر ثم استأذنه في الرحيل، فغادره بعدما خلع عليه ووصله بمال كثير،
وتوجَّه المتنبِّي إلى بغداد قاصدًا الكوفة، وأثناء طريقه اعترضه فاتك بن أبي جهل
الأسدي خال ضبَّة بن يزيد أحد من هجاهم المتنبِّي أثناء مغادرته مصر إلى
العراق، وكان من قُطَّاع الطرق، فتربَّص به يريد الانتقام لابن أخته، ولقيه بعددٍ
من فرسانه عند موضع يقال له الصافية، وكان المتنبِّي مع ولده محسَّد وغلामه
مفلح في عدد قليل من أصحابه، فدارت معركة غير متكافئة، ويقال: إن المتنبِّي
همَّ بالفرار، فقال له غلامه مفلح: لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:

فالخيلُ واللَّيلُ والبِداءُ تعرِفُنِي والسَّيفُ والرُّمْحُ والقِرطاسُ والقَلَمُ

فكرَ المتنبي راجعاً وقاتل بشجاعة حتى قُتل، وقُتل ولده محسّد وغلامه مُفلح،
أواخر رمضان عام (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، وأخذوا كل ما كان معه، فدُفِن في موضعه،
ورثاه عدد كبير من أنصاره ومعاصريه، وكان عمره يوم مقتله نحو خمسين سنة.
وقد ترك تراثاً عظيماً، وأثراً جليلاً في الأدب العربي، بعدما شغل الملايين ممّن
عشقوا شعره، وملأ الأدب العربي بروعة شعره حتى صار أكبر شعراء العربية،
وقد قيل فيه: "مالئ الدنيا وشاغِل النَّاسِ".

شعره:

يُعد شعر المتنبي من أروع وأبلغ ما انتهى إليه شعر العربيّة؛ فهو في الدّرجة الأولى
من ضخامة المعاني، ومتانة السبك، ويرى كثيرٌ من النقاد أنّه أفضل وأبرز
شاعر عرفته العربية في تاريخها، ورغم ما في ذلك القول من الإجحاف بحق
شعراء آخرين عاشوا في أزمنة مختلفة من الحقبة العباسية؛ مثل أبي تمام، أو
حتى بحق شعراء سبقوه عاشوا في عصورٍ مختلفة لم تُتخ لهم ما أُتيح للمتنبي
من انفتاح ثقافي وازدهار علمي، ولما يكون في ذلك من اختلاف الرأي والذائقة،
ولكن الحق أن الأدب العربي لم يعرف على مرّ تاريخه شاعرًا علا قدر المتنبي، أو
فاق منزلته، ولا يزال شعره على مدار الألف عام وما يزيد موضوعًا للدراسات
والمناقشات والنّقد، وقال عنه الثعالبي: درّة الفلك، وواسطة عقد الدهر في
صناعة الشعر؛ وقال أبو العلاء المعري: أبو تمام والمتنبي حكيّمان؛ وإنّما
الشاعر البحتري!

والمتنبي من شعراء المعاني، فكان خصب الخيال، عميق المعنى، بعيد الأفق،
يؤثر المعنى على اللفظ، كما كان يفعل ابن الرومي، وأسلوبه غاية في المتانة
والروعة، لا تعقيد فيه ولا التواء ولا إغراب، وقد حوى شعره قدرًا هائلًا من
المعاني والفلسفة والحكمة، وكان مُنطلق الفكر؛ إذ حرّر الشعر من القيود التي

^١ انظر: بيتمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (١/ ٩٨)، تحقيق: محمد محيي الدين
عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، جرجي زيدان (٢/ ٢٧٢).

قِيَّده بها أبو تمام وجماعته، وخرج بالشعر ومعانيه عن أساليب العرب التقليدية، وامتاز بحسن المطالع، وحسن التصرف، والإبداع في التشبيه، فكان شعره مرصوص الجوانب، محكم البناء، واسع الخيال، مصقول اللفظ والحاشية، ينساب إيقاعه انسيابًا، ويعلق في الأذهان علوقًا.

وتتضح في شعر المتنبي ملامح شخصيته، وما فيها من عنفوان وموهبة، وطموح وارتقاء للمعالي، وترفع واعتداد بنفسه، وسعي نحو المجد والعظمة، واتساع علمه ومدراكه، وتظهر في شعره كذلك ملامح النزعة الفلسفية، والقياس المنطقي، وربط الأفكار، واستعمال الحجج والبراهين العقلية، والتوسُّع في الخيال والتشبيه، واستعمال الألفاظ والتعبيرات التي استعملها الفلاسفة، وهو في شعره خصب الخيال، رائع التشبيه، واسع البيان، تنقاد له اللفظة، ويتفق له المعنى.

وقد برع المتنبي في عموم فنون الشعر المعروفة؛ فقد برع في المديح والهجاء والثناء والغزل والفخر والحكمة والوصف والغزل، فأما المديح فقد امتاز بتعدد الأمجاد، وذكر محاسن الصفات، والمبالغة في تعظيم الممدوح، وخير مديح له وأصدقها عاطفة هو ما كان بحق سيف الدولة الحمداني، ولا أدلَّ على عظمته في هذا الفن من أنه نجح في تخليد اسم سيف الدولة رافعًا قدره، مع أنه كان حاكمًا لإمارة صغيرة ومتواضعة، وكذلك ما نراه من تسابق الحكام في استزارته ودعوتهم له طمعًا في مدحه، وقد كان المتنبي يمدح من يلقاه من الأعيان والولاة أول حياته، فلمَّا علا شأنه وذاع صيته؛ صار يترفع عن امتداح الأعيان والولاة إلى امتداح الملوك وأصحاب الأمر والنهي، وقد برع كذلك في الحماسة وأغراض الفروسية كما نرى في وصفه لبعض حروب ووقائع سيف الدولة الحمداني مع الروم، فيصف الخيل والرماح والسيف وما في الحرب من ضجيج وصخب واقتتال، ويصف ما فيها من أهوال وخطوب، وقد وصل به الإبداع أنَّه حوَّل هزيمة سيف الدولة أمام الروم في معركة خرشنة إلى مناسبة

للمديح في قصيدة عينية شهيرة، ووصف انتصاره عليهم كذلك في معركتي قلعة الحدث والدرب.

وبرع أيضًا في الهجاء، صحيح أنه لم يكن ميرًا أو معتادًا عليه مثل بشار وابن الرومي؛ ولكنه كان يحتاج إليه حينما يثور غضبه، فتتضح فيه موهبته وقسوته، وقصيدته في هجاء كافور مثال جليّ على هذا، وربّما وقف هجاؤه عند حدّ التعريض والعتاب واللوم والتأنيب اللطيف؛ مثل عتابه لسيف الدولة حينما شعر بتغيّره عليه، وله كذلك رثاء له لا يخلو من نظرة المتألّم المتأمل، ومواقف التبجيل والتعظيم لآل الفقيه؛ مثلما يتضح في رثائه لأخت سيف الدولة الحمداني، كما رثى جدّته بقصيدة بديعة، ولا يخلو شعره من الغزل الرقيق رغم أنه لم يعيش تجربة غزل حقيقية، وقد أبدع المتنّي في الحكمة إبداعًا عظيمًا، فكان يكثر من ذكر الحكّم وضرب الأمثال، مستفيدًا من تجاربه الحياتية، ومن إحاطته بالفلسفة وعلوم المنطق؛ إذ كان شديد التأثر بالأراء الفلسفية، وكان يكتفّ الحكمة في شعره، فإذا قال القصيدة في غرض المديح أو الرثاء أو الهجاء؛ نراه يذكر من الحكّم ما يناسب غرضه ويتّفق مع موضوعه، وكثيرًا ما كان يفتتح قصائده بحكّم بديعة، وحكّمه على الجملة تستحق الدراسة والتأمل؛ لما فيها من العمق ومناسبة غرض النص؛ كقوله يمدح سيف الدولة مقدّمًا الرأي على السيف!

الرأي قبل شجاعة الشّجاع هو أوّل وهي المحلّ الثّاني

وهي عكس الحكمة التي بدأها سلفه أبو تمّام حينما مدح المعتصم مقدّمًا السيف على الرأي.

وأما الفخر فقد اتضحت فيه شخصية المتنبي وطموحه واعتداده بنفسه ورأيه، فكثيرًا ما كان يفخر بنفسه ويُعلي من قدره وشأنه، وهو لون من الفخر الشخصي لم يتّضح قبل هذا العنفوان والوضوح، ولعل من أبرز مظاهر الفخر في شعره ما عرّفه النُّقاد بخاصيّة التعبير عن الذات؛ وهو أن يفخر الشاعر

^١ ديوان المتنبي (ص ٢٤١).

بنفسه أثناء امتداحه لغيره، وهي خاصية انفرد بها المتنبي، ولها أمثلة كثيرة في شعره؛ كقوله معاتبًا لسيف الدولة:

أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي وأسَمَعْتَ كلماتي مَنْ به صَمَمٌ
فالخيلُ واللَّيْلُ والبيداءُ تُعرِفُنِي والسَّيْفُ والرُّمْحُ والقِرْطاسُ والقَلَمُ

وقد قارن النُّقَّاد بينه وبين أبي تمام، والحق أنَّ المتنبي بنى مدرسته الإبداعية على ما وقف عليه أبو تمام، وسار في طريقه في الأخذ بالمنهج الفلسفي في المعاني، بل زاد عليه، وقد بدأت بوادر النُّزعة الفلسفية تظهر بوضوح لدى أبي تمام وابن الرومي، وزاد أثرها مع المتنبي، ثم بأسلوب أعمق مع أبي العلاء المعري، وربَّما كان أبو تمام أعلى كعبًا من المتنبي في سبك اللفظ وإجادة الصنعة، ويقدمه من مال إلى هذا الجانب، إلا أن المتنبي بلا شك أعمق معنى، متفوقًا عليه في انطلاق فكره واتساع أفقه؛ لأنَّه حرَّرَ الشعر من القيود وأطلق عنان أفكاره، فكان من شعراء المعاني، مقدِّمًا المعنى على اللفظة، كما نرى أن الشعراء قبل المتنبي إنَّما اختصوا بأغراض معيَّنة طغت على ما سواها من الأغراض؛ فبشَّار أبداع في المديح والهجاء، وأبو نواس اختص بالخمير والمجون بجانب مدحه، وأبو العتاهية اختص بالزهد، وأبو تمام اختص بالمديح والرثاء عن سائر الأغراض، وابن الرومي برع في الاتجاه العقلي الذي برز في رثائه وأوصافه، وأبو فراس الحمداني اختصَّ بالحماسة والفروسية، وهكذا سائر الشعراء، أما المتنبي فقد أبداع في جميع الأغراض بشكل متكافئ، فلا نرى غرضًا عنده يطغى على غرض، باستثناء أشعار المجون والخمر التي ترفع عنها المتنبي وبرئ من حُبث ما فيها.

ولم يسلم شعر المتنبي من النقد؛ إذ أُخذَ عليه في عدة مواطن أنَّ بيته الشعري يضيق أحيانًا بمعناه، فتبعد غايته، ويطيش سهمه، وربَّما يظهر لديه استكراه اللفظ وتعقيد المعنى، وعسف باللغة والإعراب، والإفراط في المبالغة إلى درجة الإحالة، وتكرار اللفظ ووضعه في غير موضعه؛ كما في قوله:

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٢٠٤).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ١٧٤).

وَمِنْ جَاهِلٍ بِي وَهُوَ يَجْهَلُ جَهْلَهُ وَيَجْهَلُ عِلْمِي أَنَّهُ بِي جَاهِلٌ
وقوله:

وَلَا الضِّعْفَ حَتَّى يُتْبَعَ الضِّعْفُ ضِعْفُهُ وَلَا ضِغْفَ ضِغْفِ الضِّغْفِ بَلْ مِثْلُهُ أَلْفٌ

وقد أتى الثعالبي في كتابه "يتيمة الدهر" بنماذج عدّة من تلك العيوب؛ كما أَلَفَ الصاحب ابن عباد كتاباً أسماه "الكشف عن مساوئ المتنبي": حيث عُنِيَ فيه بتعقُّب سقطات المتنبي وإبراز مواطن ضعفه، كما اتَّهمه البعض بالسرقة الشعرية؛ حيث أَلَفَ محمد بن أحمد العميدي كتاباً أسماه "الإبانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى"، وذكر فيه نحو ٢٥٠ بيتاً من شعر المتنبي وأورد ما يقابلها من نظم المتقدمين عليه كالبحثري وأبي تمام وابن الرومي وديك الجن، وانتقد المتنبي جماعة من المستشرقين؛ منهم: رايسكي ودي ساسي وبولين وبروكلمان وهمر ونيكلسن وغيرهم.^١

على أن الإبانة عن عيوب شعر المتنبي لا تحطُّ أبداً من قدره، ولا تنفي عنه موهبته؛ بل إن الكشف عنها بهذا القدر يكشف فعلاً عن مدى أهميّة شعره، وإلا لما نال هذا القدر من النقد والتنقيب، وإن ظهر منه بعض السقط؛ فقد ظهرت أيضاً له قصائد جيّاد خلّدها التاريخ كانت غاية في البيان والروعة، والأديب مهما بلغ من البلاغة وقوّة الأسلوب فإنه لن يخلو من النقص والعيوب مهما ارتقت بلاغته، كما أنّ الهجوم على المتنبي حمّل قدرًا من التحامل والمبالغة؛ فأما الصاحب ابن عباد فكان به حقدٌ على المتنبي لترقُّع الأخير عن مديحه، فكان غرضه الحقيقي الحطُّ من قدر المتنبي ولم يحصل له، كما أن اتهام المتنبي بالسرقة ليس في موضعه على الإطلاق؛ لأن كل الشعراء يأخذون من معاني من سبقوهم، وإنّما المفاضلة تكون في تكييف المعنى مع عبارته ووضعها في موضعها مع الإضافة وبالابتكار، فالمتنبي بنى مدرسته الشعرية على ما وقف

^١ انظر: المصدر السابق (ص ١٢٨).

^٢ انظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (١/ ١٢٧ - ١٩٦).

^٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، جرجي زيدان (٢/ ٢٧٢ - ٢٧٣).

عنده أبو تمام وأخذ فعلاً من معانيه، لكنّه زاد عليها، وفتح آفاقاً جديدة، فيكون اتهامه بالسرقة في غير موضعه، بل إن الثعالبى رغم نقده لشعر المتنبي فقد أتى بمواضع أخرى أشاد فيها بمحاسنه؛ منها: حُسن المطالع، وحُسن التصرف في المعاني، وإجادة النسيب والتصرف في سائر الغزل، وحسن التقسيم، وحسن سياق الإعداد، والإبداع في سائر مديحه ومخاطبة الممدوح من الملوك مخاطبة المحبوب والصديق وإرسال المثل، وإحسانه استعمال ألفاظ الغزل والنسيب والحرب والجد، وابتكار المعاني في المراثي والتعازي؛ وقد جمع ديوانه على الحروف، وله شروحات عديدة كشرح ابن جني وأبي العلاء المعري وآخرين، وأجريت حول حياته وشعره وحكمه دراسات عديدة، وترجم شعره إلى لغات شتى^١.

والحديث عن المتنبي ومحاسنه وملامح شعره يطول، والخلاصة أننا أمام شاعر تجلّت في شعره ملامح عبقريته، ومعالَم شخصيته، واتساع أفقه، وروعة بيانه، وروح عصره، وعمق معانيه، ودرايته بالعلوم والمعارف والفلسفة، بحيث لم يعرف الشعر على مرّ تاريخه من فاقه قدراً أو علاه منزلته، فكان بحق كبير شعراء العربية وأشهرهم.

نماذج من قصائده:

- كتبتُ إليه جدّته لأُمِّه تشكو شوقها إليه، فتوجّه صوب العراق، لكنّه لم يُتَح له دخول الكوفة، فكتب إليها يستدعيها، لكنّها ما لبثت أن حُمت ثم توفيت، فقال يرثيها؟

ألا لا أرى الأحداثَ حمداً ولا ذمّاً فما بطُشها جهلاً ولا كَفْها جُلماً
إلى مثل ما كانَ الفتى مرجعَ الفتى يَعودُ كما أبدي ويُكرى كما أرمى؛

١ انظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبى (١/ ١٢٧ - ١٩٦).

٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، جرجي زيدان (٢/ ٢٧٢ - ٢٧٣).

٣ انظر: ديوان المتنبي (ص ٢٢٦).

٤ يكرى: ينقص. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٥/ ٢٢٢).

قَتِيلَةٌ شَوْقٍ غَيْرِ مُلْحِقِهَا وَضَمًّا
وَأَهْوَى لِمَثْوَاهَا التُّرَابَ وَمَا ضَمًّا
وَذَاقَ كِلَانَا تُكُلَّ صَاحِبِهِ قِدْمًا
مَضَى بَلَدٌ بَاقٍ أَجَدَّتْ لَهُ صَرْمًا
فَمَاتَتْ سُرُورًا بِي فَمِتَتْ بِهَا غَمًّا
أَعْدُ الَّذِي مَاتَتْ بِهِ بَعْدَهَا سُمًّا
وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَسْقِي الْوَعَى وَالْقَنَا الصُّمًّا
لِرَأْسِكَ وَالصَّدْرِ الَّذِي مِلْنَا حَزْمًا
كَأَنَّ ذِكْرِي الْمِسْكَ كَانَ لَهُ جِسْمًا
لَكَانَ أَبَاكَ الضُّخْمُ كَوْنُكَ لِي أُمًّا

لَكَ اللَّهُ مِنْ مَفْجُوعَةٍ بِحَبِيبِهَا
أَحْنُ إِلَى الْكَأْسِ الَّتِي شَرِبْتَ بِهَا
بَكَيْتُ عَلَيْهَا خِيفَةً فِي حَيَاتِهَا
وَلَوْ قَتَلَ الْهَجْرُ الْمُحِبِّينَ كُلَّهُمْ
أَتَاهَا كِتَابِي بَعْدَ يَأْسٍ وَتَرْحَةٍ
حَرَامٌ عَلَى قَلْبِي السُّرُورُ فَإِنِّي
فَأَصْبَحْتُ أَسْتَسْقِي الْغَمَّامَ لِقَبْرِهَا
فَوَا أَسَفًا أَنْ لَا أَكِبُّ مَقْبَلًا
وَأَنْ لَا الْأَقْيَ رُوحَكَ الطَّيِّبَ الَّذِي
وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتُ أَكْرَمِ وَالِدٍ

- وقال يمدح سيف الدولة ويذكر نكبته أمام الروم في موقعة خرشنة، وأخذ
يمجد فيها سيف الدولة، وفيها بعض ملامح ما أوردناه عن سمة التعبير عن
الذات، ولا سيَّما في البيت الخامس، وهي من روائعه التي لا تخلو من ملامح
الإبداع والحكمة وحسن السبك!

إِنْ قَاتَلُوا جَبُّنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجْعُوا
وَفِي النَّجَارِبِ بَعْدَ الْغَيِّ مَا يَزْعُ
أَنَّ الْحَيَاةَ كَمَا لَا تَشْتَهِي طَبْعُ
أَنْفِ الْعَزِيزِ بِقَطْعِ الْعِزِّ يُجْتَدَعُ
وَأَتْرُكُ الْغَيْثُ فِي غَمْدِي وَأَنْتَجِعُ
دَوَاءَ كُلِّ كَرِيمٍ أَوْ هِيَ الْوَجَعُ
فِي الدَّرْبِ وَالدَّمِّ فِي أَعْطَافِهَا دَفْعُ
وَأَغْضَبْنَهُ وَمَا فِي لَفْظِهِ قَذَعُ

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ
أَهْلُ الْحَفِيزَةِ إِلَّا أَنْ تُجَرِّبَهُمْ
وَمَا الْحَيَاةُ وَنَفْسِي بَعْدَ مَا عَلِمْتُ
لَيْسَ الْجَمَالُ لَوَجْهِ صَحِّ مَارِنُهُ
أَطْرَحُ الْمَجْدَ عَنْ كَتْفِي وَأَطْلُبُهُ
وَالْمَشْرِفِيَّةُ لَا زَالَتْ مُشْرِفَةً
وَفَارِسُ الْخَيْلِ مَنْ خَفَّتْ فَوْقَهَا
وَأَوْحَدَتْهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ قَلَقُ

١ انظر: ديوان المتنبي (ص ١١٧).
٢ يزع: يكف ويردع. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٨ / ٣٩٠).

والجيش تمتنع السادات كلهم
 قَادَ الْمُقَانِبِ أَقْصَى شُرْبِهَا نَهْلٌ
 لَا يَعْتَفِي بِلَدٍّ مَسْرَاهُ عَنْ بَلَدٍ
 حَتَّى أَقَامَ عَلَى أَرْبَاضٍ خَرَشْنَةٍ
 لِّلْسَبِي مَا نَكَحُوا وَالْقَتْلِ مَا وَلَدُوا
 مُخْلَى لَهُ الْمَرْجُ مَنْصُوبًا بِصَارِحَةٍ
 يُطْمَعُ الطَّيْرُ فِيهِمْ طَوْلُ أَكْلِهِمْ
 وَهَلْ يَشِيئُكَ وَقَتٌ كُنْتَ فَارِسَهُ
 مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ
 لَقَدْ أَبَاكَ غِشًّا فِي مُعَامَلَةٍ
 الدَّهْرُ مَعْتَذِرٌ وَالسَّيْفُ مُنْتَظِرٌ
 فَقَدْ يُظَنُّ شَجَاعًا مَنْ بِهِ خَرَقٌ
 إِنَّ السِّلَاحَ جَمِيعُ النَّاسِ تَحْمِلُهُ

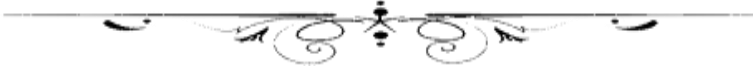
- وقال يمدح سيف الدولة ويذكر انتصاره على الروم في موقعة الحدث، وهي

من غرر الشعر العربي ومن أروع ما قيل في المديح:

عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعَزَمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ
 وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا
 يَكْلِفُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْجَيْشَ هَمَّهُ
 وَيَطْلُبُ عِنْدَ النَّاسِ مَا عِنْدَ نَفْسِهِ
 هَلِ الْحَدَثُ الْحَمْرَاءُ تَعْرِفُ لَوْنَهَا
 سَقَتْهَا الْغَمَامُ الْغُرَّ قَبْلَ نُزُولِهِ
 بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا

^١ المقانِب: جماعات الخيل والفرسان. انظر: المصدر السابق (١/ ٦٩٠).

^٢ انظر: ديوان المتنبي (ص ٢٠٦ - ٢٠٧).



وَمِنْ جُثِّثِ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ
وَذَا الطَّعْنُ آسَاسٌ لَهَا وَدَعَائِمُ
فَمَا مَاتَ مَظْلُومٌ وَلَا عَاشَ ظَالِمٌ
سَرَوْا بِجِيَادٍ مَا لَهْنٌ قَوَائِمُ
ثِيَابُهُمْ مِنْ مِثْلِهَا وَالْعَمَائِمُ
وَفِي أَذُنِ الْجَوَازِ مِنْهُ زَمَازِمُ
كَأَنَّكَ فِي جَفَنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ
وَوَجْهُكَ وَصَّاحٌ وَتَغْرُكَ بِاسِمُ
إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ أَنْتَ بِالْغَيْبِ عَالِمُ
وَلَكِنَّكَ التَّوْحِيدُ لِلشَّيْءِ هَازِمُ
وَلَا فِيهِ مُرْتَابٌ وَلَا مِنْهُ عَاصِمُ
وَرَاجِيكَ وَالْإِسْلَامُ أَنَّكَ سَالِمُ

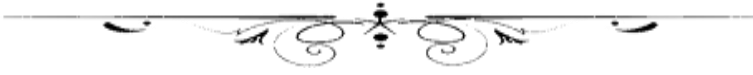
وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجَنُونِ فَأَصْبَحَتْ
وَكَيْفَ تُرْجِي الرُّومَ وَالرُّوسَ هَذَمَهَا
وَقَدْ حَاكَمُوهَا وَالْمَنَايَا حَوَاكِمُ
أَتَوْكَ يَجْرُونَ الْحَدِيدَ كَأَنَّهُمْ
إِذَا بَرَقُوا لَمْ تَعْرِفِ الْبَيْضَ مِنْهُمْ
خَمِيسٌ بِشَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ
وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفِ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلَّمَا هَزِيمَةٌ
تَجَاوَزْتَ مِقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنُّهَى
وَلَسْتَ مَلِيكًا هَازِمًا لِنَظِيرِهِ
أَلَا أَيُّهَا السَّيْفُ الَّذِي لَيْسَ مُغَمَّدًا
هَنِيئًا لِيَضْرِبَ الْهَامَ وَالْمَجْدَ وَالْعُلَى

- وقال يهجو كافورًا الإخشيدي قبل مسيره بيوم واحد، وهي من أجود قصائد الهجاء، ولا تخلو من الحِكم، والملفت للانتباه أن المتنبي مدح كافورًا بعدة قصائد، ولكنها لم تشتهر؛ لانعدام عاطفة الصديق فيها، بينما اشتهرت تلك القصيدة التي هجاه بها؛ لما فيه من عاطفة صادقة وانطلاق في أحاسيسه الغاضبة، رغم ما فيها من تحامل على كافور!

بِمَا مَضَى أَمْ بِأَمْرٍ فِيهِ تَجْدِيدُ
فَلَيْتَ دُونَكَ بَيْدًا دُونَهَا بَيْدُ
شَيْئًا تُنَيِّمُهُ عَيْنٌ وَلَا جِيدُ
أَمْ فِي كُؤُوسِكَمَا هَمٌّ وَتَسْهِيدُ
هَذَا الْمُدَامُ وَلَا هَذَا الْأَغَارِيدُ
وَجَدْتُهَا وَحْبِيبُ النَّفْسِ مَفْقُودُ

عِيدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عُدْتُ يَا عِيدُ
أَمَّا الْأَحْبَةُ فَالْبِيدَاءُ دُونَهُمْ
لَمْ يَتْرِكِ الدَّهْرُ مِنْ قَلْبِي وَلَا كَبْدِي
يَا سَاقِيَّ أَحْمَرُ فِي كُؤُوسِكَمَا
أَصْخَرَةُ أَنَا مَا لِي لَا تُحَرِّكُنِي
إِذَا أَرَدْتُ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صَافِيَةً

١ انظر: المصدر السابق (ص ٨٠-٨٢).



ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه
إنني نزلت بكذابين ضيقهم
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم
أكلما اغتال عبد السوء سيده
صار الخصي إمام الأبقين بها
نامت نواطير مصر عن تعالبيها
العبد ليس لحر صالح بأخ
لا تشتري العبد إلا والعصا معه
ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن
ولا توهمت أن الناس قد فقدوا
وأن ذا الأسود المثقوب مشفره
من علم الأسود المخصي مكرمه
وذاك أن الفحول البيض عاجزة

أتي بما أنا باك منه محسود
عن القرى وعن الترحال محسود
إلا وفي يده من نثنها غود
أو خائنه فله في مصر تمهيد
فالحر مستعبد والعبد معبود
فقد بشمن وما تفنى العنايد^١
لو أنه في ثياب الحر مولود
إن العبد لأنجاس منكيد
يسيء بي فيه كلب وهو محمود
وأن مثل أبي البيضاء موجود
تطيعه ذي العضاريط الرعايد^٢
أقومه البيض أم أباه الصيد
عن الجميل فكيف الخصية السود

- ومن حكمه:

والهم يخترم الجسيم نحافة
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

ويشيب ناصية الصبي ويهرم
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

^١ بشمن: من البشم وهو التخمرة الناتجة عن كثرة الأكل. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٥٠ / ١٢).

^٢ العضاريط: جمع عضروط وهو الذي يخدم بطعامه. انظر: المصدر السابق (٧ / ٣٥١).

^٣ انظر: ديوان المتنبي (ص ٢٣٠).

١١- أبو فراس الحمداني

ترجمته!

هو أبو فراس الحارث ابن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني التغلبي، وُلد نحو عام (٣٢٠هـ / ٩٣٢م)، وكان بنو حمدان قد دخلوا في خدمة العبّاسيين منذ عهد الخليفة المعتضد، فتولّوا عنهم بعض الأعمال والولايات، وظهر منهم عدد من القادة والأمراء، وقُلد الخليفة المكتفي ولد المعتضد عبد الله ابن حمدان ولاية الموصل فدخلها أول عام (٢٩٣هـ / ٩٠٥م)، ويبدو أن ولده أبا محمد الحسن ناصر الدولة قد أراد أن يستقلَّ بولاية الموصل عن الخلافة، وأعلن تمرُّده، فقام الخليفة الراضي باستدعاء عمِّه سعيد بن حمدان ووَلَّاه على الموصل على أن يطرد منها ابنَ أخيه ناصر الدولة، فسار إليها في جماعة من أصحابه ولكن ابن أخيه ناصر الدولة كان أخفَّ في الدِّفاع عن نفسه، فقبض عليه وقتله، واستقر الأمر للحمدانيين في الموصل وحلب، ومع هذا فقد ظلُّوا على ولائهم الاسميِّ للخلافة العباسية، وخلع عليه الخليفة المتقي ولقَّبه بناصر الدولة، مُقرًّا إياه على الموصل، كما لقَّب أخاه الأصغر عليًّا بسيف الدولة، وكان على إمارة حلب.

ونشأ أبو فراس يتيماً بعد مقتل أبيه على يد ابن أخيه ناصر الدولة، وكان عمره حينها نحو ثلاث عشرة سنة، فكفله ابن عمه سيف الدولة أخو ناصر الدولة، وكان يتنقَّل بين بغداد والموصل في خدمة الخليفة إلى أن استقر بحلب وأعمالها، وقد اعتنى به واهتم بتأديبه وتعليمه الفروسية، فنشأ أبو فراس في كنفه فارساً مغواراً شجاعاً، وكان ذا كرامة ونُبْل وأدب وشعر، وكان مقدِّماً لدى ابن عمه سيف الدولة، وقال عنه الثعالبي واصفاً إيَّاه: كان فرد دهره، وشمس عصره؛

^١ انظر: ديوان أبي فراس، المقدمة (ص ١١ - ١٢)؛ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (١/ ٣٥ - ٥٦)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٥٨ - ٦٤ و ١١٤ - ١١٧)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٤٦٥)؛ تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/ ٧٦٢ - ٧٦٥).

أدبًا وفضلًا، وكرمًا ونُبلا، ومجدًا وبلاغة وبراعة، وفروسية وشجاعة... وقال:
وكان سيف الدولة يُعجب جدًّا بمحاسن أبي فراس، ويميّزه بالإكرام عن سائر
قومه، فكان يصطنعه لنفسه، ويصطحبه في غزواته، ويستخلفه على أعماله،
فكان بذلك جامعًا بذلك بين فضلي السيف والقلم.

وقد اشترك أبو فراس مع ابن عمه سيف الدولة في غزواته، وناب عنه في بعض
مراسلاته، ثم ولّاه على منبج فأدار شؤونها، وكان له دورٌ في الدفاع عنها أمام
هجمات الرُّوم وتمردُ الأعراب، وظلَّ قريبًا من سيف الدولة ينادمه مع سائر
أدبائه وشعرائه كالمتنبي والصنوبري وكشاجم والفارابي وابن خالويه، وظل في
عزّة ومنعة إلى أن خانهُ النصر فأُسِرَ في بعض وقائعه على يد الروم؛ حيث
تمكّنت كتيبة روميّة بقيادة "تيودور" من إيقاعه مع بعض رفاقه في كمين،
فقاتلهم أبو فراس حتى أصابه سهم بقي نصله في فخذه، وكان أسره في مغارة
الكحل عام (٣٤٨هـ / ٩٥٩م)، وقيل: بل على مشارف منبج عام (٣٥١هـ / ٩٦٢م)
وهو الأثبت تاريخيًا، ثم أخذوه إلى حصن خرشنة، ثم إلى القسطنطينية،
ولأسباب غير واضحة تعدّرت المفاداة بين المسلمين والرُّوم، وتركه سيف الدولة
في أسره نحو أربع سنوات، وقد أحسن الروم معاملته فأكرموه وبجّلوه، ولكنّه
بقي في كنفهم يتجرّع مرارة الأسر والبعد، وتحركه لواعج الشوق والحنين إلى
وطنه وبلاده وأمّه وأهله، وظهر ذلك في مجموعة من رسائله مع سيف الدولة،
وظهرت كذلك في جملة من أشعاره عُرفت بالزُوميّات؛ وهي القصائد التي قالها في
الأسر، وكانت مُفعمة بالحنين والشوق والألم وإحساس المرارة، ولا نعرف سببًا
لتلكو سيف الدولة في افتداء ابن عمّه رغم عظم منزلته لديه، فقيل: إنّه أراد أن
يفتديه مع غيره في مبادلة عامة للأسرى؛ وقيل: بل لجفوة بينهما لما رأى من فرط
طموحه وتطلّعه ما يخشاه على مُلكه؛ وقيل: بل لكونه أحد أسباب رحيل المتنبي
عن بلاطه؛ حيث كان أبو فراس من المحرّضين عليه.

وعلى كل حال فقد بقي أبو فراس في أسره حتى تمّت مفاداته نحو عام (٣٥٥هـ /
٩٦٥م) مع ثلاثة آلاف أسيرٍ كلّفوا سيف الدولة نحو ستمائة ألف دينار، وقد

عاد أبو فراس إلى إقطاعه في منبج، ولكنّه ألقى الأمور قد تغيّرت، ووجد سيف الدولة مريضاً وقد تضعضع ملكه بعد أن لقي آخر حياته من الروم عدة هزائم، وما لبث أن توفّي عام (٣٥٦هـ / ٩٦٦م) تاركاً مكانه لولده أبي المعالي، وكان صغيراً، فاستبدّ به غلام تركي يقال له "قرغويه"، وقد طمع أبو فراس في اقتطاع حمص وضَمَّها إلى منبج، فأنكر عليه أبو المعالي مع غلامه قرغويه الذي زيّن له أن أبا فراس طامعٌ في إمارته بحلب ذاتها، فجرت بينهما وقائع انتهت بقتل أبي فراس متأثراً بجراحه عام (٣٥٧هـ / ٩٦٨م)، وكان عمره عند مقتله نحو ٣٧ سنة، فقضى نحبه وهو في عنفوان الشباب.

شعره:

شعر أبي فراس غاية في الفخامة والمتانة وروعة السبك وروح الأصالة والفروسية، قال الثعالبي: وشعره مشهور سائر بين الحُسْن والجودة، والسهولة والجزالة، والعذوبة والفخامة، والحلاوة والمتانة، ومعه رواء الطبع، وسمة الظرف، وعِزَّة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله ابن المعتز، وأبو فراس يُعدُّ أشعر منه عند أهل الصنعة ونقّدة الكلام، وكان الصاحب ابن عباد يقول: بُدئ الشعر بملك وخُتم بملك؛ يعني امرأ القيس وأبا فراس!

وقد امتاز شعر أبي فراس بملامح الفروسية والحماسة؛ كونه فارساً شجاعاً، وفي شعره سمات الملوك والرّفعة، وهو شديد القرب بأصالة الروح الجاهلية القديمة، وبالطابع البدوي متاناً وأسلوباً وجزالة، وشعره شبيه إلى حد بعيد بشعر عنتر بن شداد في الجاهلية، فكلاهما فارس شجاع، وكلاهما في مصافّ أبناء السادة والأمراء، وكلاهما طغى على شعره طابع الفروسية والبدواة ومكارم الأخلاق والغزل العفيف، وكان أبو فراس متصرّفاً في مختلف فنون الشعر؛ من بينها المديح والفخر والحماسة والغزل والاستعطاف والثناء والإخوانيات، وتظهر

^١ انظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (١ / ٣٥).

ملاح الحماسة في شعره؛ كما في وصفه للوقائع والحروب التي شهدها، وما سطره في شعره من الأمجاد والبطولات، وكان الفخر لديه مرتبطاً بالفروسية واعتزازه بشخصه ونفسه، وربما تخلل ذلك فخرٌ بأصول قبيلته تغلب أحياناً، وأما غزله فكان رقيقاً عفيفاً عذباً مندفيق العاطفة، وفي شعره أوصاف وتشبيهات وحكم ومواعظ مختلفة.

على أن خير ما ورد من شعره كان في رُومياته؛ وهي القصائد التي قالها أثناء أسره لدى الروم، ويغلب عليها الإحساس بالألم، ولواعج الحنين والشوق والوجع، ونبرة العتاب لابن عمه سيف الدولة الذي تلاكأ في فدائه، وهي مليئة بأحاسيس الجراح، تذوب رقةً وعذوبةً وشجواً، وقد دار فلك أغراضها بين الغزل والرثاء وشكوى الأسر والعتاب ووصف الحال والشوق، كما نرى في رثائه لأمه العجوز التي ماتت حزناً عليه في أسره، وفي جزعه على أخت سيف الدولة التي ماتت في تلك الأثناء أيضاً، وقد بلغت رومياته بعذوبتها وسلاستها وعاطفتها الجياشة قدراً هائلاً من الروعة، حتى قيل: لولا رُومياته لانطمس ذكره ونسي شعره وضاع اسمه فيمن ضاع أمام حضرة المتنبي.

وشعر أبي فراس أبسط على الجملة من شعر المتنبي في معانيه، وهو دون المتنبي في عمقه وبُعد أفقه ومعانيه، ولكن نجاح أبي فراس في تخليد اسمه أمامه يرجع إلى ظهور روح الأصالة وأثر الطابع الجاهلي الفخم في شعره، بالإضافة إلى غلبة روح الحماسة عليه، بصورة أوضح ممّا نراه لدى المتنبي في بعض الأحيان، وليس هذا لضعف في أسلوب المتنبي وشعره؛ ولكن لأن المتنبي بطبعه كان أميل إلى روح الحداثة والتطور أكثر من ميله إلى الطابع الجاهلي التقليدي، وكان شعره متعدّد الأغراض بين المديح والوصف والفخر والهجاء والرثاء والغزل، بحانب الحماسة، صحيح أنه شهد جانباً من حروب سيف الدولة، وأبدع في وصف ما شهدته من الوقائع، ولكن ليس بالصورة المتجرّدة المطلقة التي نراها لدى أبي فراس، فضلاً عن رُومياته التي كان لها الدور الأبرز في تخليد شعره؛ حيث ترى فيها من ملاح الشوق وشكوى الأسر ما لا لثراه لدى المتنبي بهذا القدر؛ لأنّه لم يعيش تجربة

الأسر التي عاشها أبو فراس، فكان أبو فراس هو الشاعر الوحيد الذي برز اسمه في عصر المتنبي، ولم يُنسَ كما نُسي غيره ممَّن غلب عليهم المتنبي وطمس ذكرهم، وهذا دليل على جودة شعر أبي فراس، وإن كان بالطبع لا يُجاري المتنبي في عمق أفكاره وُبُعد أفقه ودقَّة معانيه؛ إذ إنَّ المتنبي كان أعلى كعبًا منه في الشعر؛ بسبب درايته بالعلوم والمعارف والفلسفة والمنطق والحكم، والخبرة التي تحصَّل عليها من تنقله بين البلدان والأمصار، وهو ما منح المتنبي دقَّة في المعاني، وسعة في الفكر، واتِّساعًا في المدارك، وُبُعدًا في أفقه وطموحه الشعري، لا يجاريه فيها أبو فراس ولا غيره.

وأبو فراس شاعر الوجدان والحماسة والعاطفة المتدفقة، وصاحب المعاني الرقيقة التي تُساق في لفظ عذب، وعبارة سهلة، وكان شعره خاليًا من رغبة التَّكسُّب؛ كونه أميرًا، وإن لم يخلُ من المديح بحقِّ ابن عمه سيف الدولة، وفي شعره عزَّة نفس وصلابة يخالطها أحيانًا ما نراه من اللين والضعف والإحساس بالألم.

نماذج من قصائده:

- قال أبو فراس أثناء أسره رائية بديعة، هي أشهر ما عُرف من شعره، وهي مليئة بالغزل والحنين والشوق، ومنها!

أراك عَصِيَّ الدَّمْعِ شَيْمَتَكَ الصَّبْرُ	أما لِلْهُوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ ولا أَمْرُ
بلى أنا مشتاقٌ وَعِنْدِي لَوْعَةٌ	ولكنَّ مِثْلِي لا يُذاعُ لَهُ سِرُّ
تَكَادُ تُضِيءُ النَّارَ بَيْنَ جَوَانِحِي	إِذَا هِيَ أَذْكَتُهَا الصَّبَابَةُ وَالْفِكْرُ
مُعَلَّلَتِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ	إِذَا مِتُّ ظَمَأْنَا فلا نَزَلَ الْقَطْرُ
حَفِظْتُ وَضِيعَتِ الْمَوَدَّةِ بَيْنَنَا	وَأَحْسَنُ مِنْ بَعْضِ الْوَفَاءِ لِكَ الْعَذْرُ
وما هذه الأَيَّامُ إِلَّا صَحَائِفٌ	لأَحْرِفُهَا مِنْ كَفِّ كَاتِبِهَا بِشْرُ
بدوثٌ وأهلي حاضرون لأنني	أرى أَنَّ دارًا لست مِنْ أَهْلِهَا قَفْرُ

^١ ديوان أبي فراس الحمداني (ص ١٢٦ - ١٢٩).

وَإِيَّاي لَوْلَا حُبُّكَ الْمَاءِ وَالْخَمْرُ
فَقَدْ يَهْدِمُ الْإِيمَانُ مَا شَيْدَ الْكَفْرِ
لِإِنْسَانَةٍ فِي الْحَيِّ شَيْمُهَا الْغَدْرُ
فَتَأْرُنْ أَحْيَاءًا كَمَا أَرْنَ الْمُهْرُ
وَهَلْ بَقَيْ مِثْلِي عَلَى حَالِهِ نُكْرُ
قَتِيلِكَ قَالَتْ أَيُّهُمْ فَهُمْ كُتْرُ
وَلَمْ تَسْأَلِي عَنِّي وَعِنْدَكَ بِي خُبْرُ
فَقُلْتُ مَعَادَ اللَّهِ بَلْ أَنْتِ لَا الدَّهْرُ

وَحَارِبْتُ قَوْمِي فِي هَوَاكِ وَإِنَّهُمْ
فَإِنْ يَكُ مَا قَالَ الْوُشَاةُ وَلَمْ يَكُنْ
وَفَيْتُ وَفِي بَعْضِ الْوَفَاءِ مَذَلَّةٌ
وَقُورٍ وَرِيعَانِ الصِّبَا يَسْتَفْزُهَا
تُسَائِلُنِي مَنْ أَنْتَ وَهِيَ عَلِيمَةٌ
فَقُلْتُ كَمَا شَاءَتْ وَشَاءَ لَهَا الْهَوَى
فَقُلْتُ لَهَا لَوْ شِئْتَ لَمْ تَتَّعَتْنِي
فَقَالَتْ لَقَدْ أَرَى بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنَا

- وقال في الحكمة:

وَالْعَيْشُ طَعْمَانِذَا صَابٌ وَذَا عَسَلٌ
لِلْعَارِفِينَ وَلَا فِي نِقْمَةٍ فَشَلٌ
وَالْعَدْلُ أَنْ يَتَسَاوَى الْهَمُّ وَالْجَدْلُ
وَلَا السُّرُورُ وَإِنْ أَمَلْتَ يَتَّصِلُ
وَمَا السُّرُورُ بِنِعْمَى سَوْفَ تَنْتَقِلُ
مَا جَاءَهُ الْيَأْسُ حَتَّى جَاءَهُ الْأَجَلُ

الدَّهْرُ يَوْمَانِذَا ثَبِتٌ وَذَا زَلَلٌ
كَذَا الزَّمَانُ فَمَا فِي نِعْمَةٍ بَطَرٌ
سَعَادَةُ الْمَرْءِ فِي السَّرَّاءِ إِنْ رَجَحَتْ
وَمَا الْهُمُومُ وَإِنْ حَازَتْ ثَابِتَةً
فَمَا الْأَسَى لِهُمُومٍ لَا بَقَاءَ لَهَا
لَكِنَّ فِي النَّاسِ مَغْرُورًا بِنِعْمَتِهِ

- وقال في إحدى رُومِيَّاته يصف حمامة تنوح بقربة على شجرة، فذكر حُرِّيَّتَهَا
وَأُسْرَهَا:

أَيَا جَارَتَا هَلْ تَشْعُرِينَ بِحَالِي
وَلَا خَطَرَتْ مِنْكَ الْهُمُومُ بِبَالٍ
عَلَى غُصْنٍ نَائِي الْمَسَافَةِ عَالٍ
تَعَالِي أَقَاسِمُكَ الْهُمُومُ تَعَالِي

أَقُولُ وَقَدْ نَاحَتْ بِقُرْبِي حَمَامَةٌ
مَعَادَ الْهَوَى مَا ذُقْتَ طَارِقَةَ النَّوَى
أَتَحْمِلُ مَحْزُونِ الْفَوَادِ قَوَادِمُ
أَيَا جَارَتَا مَا أَنْصَفَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا

١ تأرن: تنشط. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٣/ ١٤).

٢ انظر: ديوان أبي فراس الحمداني (ص ٢٣٣).

٣ انظر: المصدر السابق (ص ٢٦٥).



تَرَدَّدُ فِي جِسْمٍ يُعَذِّبُ بِأَلِي
وَيَسْكُتُ مَحْزُونٌ وَيَنْدُبُ سَالٍ
وَلَكِنَّ دَمْعِي فِي الْحَوَادِثِ غَالٍ

تَعَالَى تَرَى رُوحًا لَدَيَّ ضَعِيفَةً
أَيْضَحُكَ مَأْسُورٌ وَتَبْكِي طَلِيقَةً
لَقَدْ كُنْتُ أَوْلَى مِنْكَ بِالْذَّمِّ مُقْلَةً

- وقال يشكو طول مدّة أسره!

وَإِنْ جَمَعْتُنَا فِي الْأَصُولِ الْمُنَاسِبِ
وَأَقْرَبُهُمْ مِمَّا كَرِهَتْ الْأَقَارِبُ
وَجِيدٌ وَحَوْلِي مِنْ رِجَالِي عَصَائِبُ
وَجَارِكَ مَنْ صَافَيْتَهُ لَا الْمُصَاقِبُ
وَأَهْوَنُ مَنْ عَادَيْتَهُ مَنْ تُحَارِبُ
وَمَا ذَنْبُهُ إِنْ حَارَبْتَهُ الْمَطَالِبُ
فَلِلذُّلِّ مِنْهُ لَا مَحَالَةَ جَانِبُ

أَرَانِي وَقَوْمِي فَرَّقْتُنَا مَذَاهِبُ
فَأَقْصَاهُمْ أَقْصَاهُمْ مِنْ مَسَاءَتِي
غَرِيبٌ وَأَهْلِي حَيْثُمَا كَانَ نَاطِرِي
نَسِيبُكَ مَنْ نَاسَبْتَ بِالْوَدِّ قَلْبَهُ
وَأَعْظَمُ أَعْدَاءِ الرِّجَالِ ثِقَاتُهَا
وَمَا الذَّنْبُ إِلَّا الْعَجْزُ يَرْكَبُهُ الْفَتَى
وَمَنْ كَانَ غَيْرُ السَّيْفِ كَافِلٌ رِزْقَهُ

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٥٣).

١٢- أبو العلاء المعري

ترجمته!

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان القضاعي التنوخي، وكنيته أبو العلاء، شاعر العربية وفيلسوفها الفذ، وتنوخ إحدى قبائل عرب اليمن، وُلد أبو العلاء نحو عام (٣٦٣هـ / ٩٧٣م) في بلدة معرة النعمان في الشام بين حمص وحلب فنُسب إليها، وعُرف بأبي العلاء المعري، وزعم بعض الرواة أن بلدة المعرة نُسبت إليه، وهو غير صحيح؛ إنما نُسبت إلى النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه.

وقد وُلد المعري لأسرة ذات علم وفضل وشرف، وكان في آبائه وأجداده وأعمامه من بني سليمان -وكذلك من تأخر عنه من أهله- علماء وأدباء، ومن أجداده من وَلِيَ قضاء المعرة؛ حيث كان جدُّه أبو الحسن سليمان بن محمد قد تَوَلَّى القضاء في المعرة وتَوَلَّى قضاء حمص أيضًا، وكان أبوه عبد الله بن سليمان شاعرًا وأديبًا ولغويًا، وله ثلاثة أبناء: محمد الأكبر، ثم أبو العلاء، ثم عبد الواحد، وكانوا جميعًا أهل أدب وشعر، وأتى بعدهم كذلك من كان له علم وفضل، وكانت أمه من آل سبيكة وهي أسرة عرفت بالوجاهة والأدب. وبقي القضاء في أعقابهم حتى سقوط المعرة بأيدي الصليبيين أثناء الحروب الصليبية وارتحال من ارتحل عنها. وقد أصيب أبو العلاء بالجذري وهو في الرابعة من عمره فذهب بيسرى عينيه وابتيضَّت اليمنى، فأصيب بالعمى منذ ذلك الحين، فلم يكن يعرف من الألوان

^١ انظر: ديوان سقط الزند، أبو العلاء المعري، المقدمة (ص ٣- ١٣)، شرح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط ٢، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م؛ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ٢١٠- ٢١١)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (١/ ٢٩٥- ٣٠٣)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ١١٣- ١١٦)؛ تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٢٨٧- ٢٩١)؛ تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (٢٢٣- ٢٢٥)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٣/ ١٢٤)؛ تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/ ٧٨٦- ٧٨٨)؛ تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات (الشام)، شوقي ضيف (١٦٦/٦- ١٦٧).

إلا الأحمر؛ إذ كان يقول عن نفسه: لا أعرف من الألوان إلا الأحمر؛ لأنني ألبست في الجدي ثوبًا مصبوغًا بالعصفر؛ ووُصِفَ أنه مجدّر الوجه، نحيف الجسم. ولم يمنعه كُفُّ بصره من تحصيل العلم؛ إذ اعتنى به أبوه وأخذ يعلمه علوم اللسان العربي، فلما أدرك العشرين من عمره عمد إلى سائر المعارف يكتسبها بالمطالعة والاجتهاد، فاطلع على علوم اللغة وآدابها، ودرس الحكمة والفلسفة، واطلع على العلوم اليونانية والهندية والفارسية، وحفظ القرآن وأكبَّ على قراءة كتب الدين والفقه، وأحاط بمختلف العلوم والمعارف، وتلمذ على يد أبيه ومَن في بلاده من تلامذة ابن خالويه وقرأ عليهم، وكان منذ صغره قوي الحفظ، سريع الاستيعاب، فأتقن تلك المعارف وضم في صدره ما حوته صدورهم، وقد نطق بالشعر قبل أن يتم الحادية عشرة من عمره، وعاصر أحد رواة شعر المتنبي فأخذه عنه وأعجب بشعره وتلمذ على مدرسته، وقد أدرك أيضًا حظًا من علوم الكيمياء والنجوم والمنطق.

وغادر المعرّة عام (٣٩٢هـ / ١٠٠١م)، فزار طرابلس واللاذقية طلبًا للعلم والمعرفة، مستفيدًا من خزائن كتبها، وعرّج على الأديرة واطلع على العهدين القديم والجديد، فنضج عقله، ولاحث موهبته، وذاع صيته، وقد وضع في تلك المدة ديوانه الشعري الأول "سقط الزند"، ثم ارتحل إلى بغداد عام (٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) بعد وفاة أبيه طلبًا للعلم، وسعيًا لمجالس العلماء، وكانت شهرته قد سبقته إليها، وكانت بغداد رغم اضطراب الخلافة العباسية واشتعال الفتن والقتال؛ مهدًا للعلم وقبلة للعلماء وطلبة العلم، وكانت الحياة العلمية فيها غاية في النشاط والازدهار، فما إن زارها أبو العلاء حتى خالط مجالس العلم والجدل، واتصل كذلك بعدد من الفلاسفة والمتكلمين، وسار في علوم الفلسفة والحكمة شوطًا بعيدًا، وما لبث أن تقاطر البغداديون لمحاضراته، فأقام بينهم يأخذون عنه العلم والأدب والفلسفة، فانتشرت آراؤه وشاعت بين الناس، وحقّق في بغداد شهرة ومنزلة، وأخذ عنه مجموعة من العلماء كأبي القاسم علي التنوخي وأبي زكريا التبريزي، ولكن في الوقت نفسه اجتمع عليه عددٌ من

الخصوم والمعارضين، فأخذوا يشكِّكون في آرائه، ويطعنون في معتقداته، ويتهمون به بالزندقة والإلحاد واتِّباع مذهب البراهمة، ورَوَّجوا ضده مجموعة من الافتراءات والأكاذيب؛ ولعل ذلك كان بسبب آرائه الفلسفية التي بلغت قدرًا من التعقيد والغموض، ويقال: إنه دخل يومًا مجلس الشريف المرتضى فوجده يعيب شعر المتنبي ويتنقَّصه، فانتنفض أبو العلاء المعري - وكان معجبًا بشعر المتنبي - فقال: لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قوله: "لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ". لكفاه فضلًا!! فغضب المرتضى وأهانته وأخرجه من مجلسه، وقال لجلسائه: أتدرون أي شيء أراد الأعشى بذكر هذه القصيدة؟ فإن للمتنبي أجودَ منها ولم يذكرها؛ ف قيل: التَّقِيْبُ السَّيِّدُ أَعْرَفُ؛ فقال: أراد قوله:

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَدَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ

وما لبث أن جدَّ خصومه في التَّصَدِّي له، وإشاعة الأباطيل حوله، فضاق حاله، واضطرب أمره، وضاحت به الدنيا، ونفذ المال الذي معه، وكانت به أنفة منعتة من الاستجداء والتَّكسُّب بالشعر، وفي هذه الأثناء أتاه خبر البريد بوفاة والدته، وقيل: بل بمرضها؛ فقرَّر مغادرة بغداد والعودة إلى المعرَّة عام (٤٠٠هـ / ١٠٠٩م)، فوجدها قد تُوفِّيَتْ قبل وصوله.

اعتزل بعدها أبو العلاء الحياة ومظاهر الدنيا، واعتكف في داره، حابسًا عن نفسه عن الناس إلا عن تلاميذه، مكتفيًا بإلقاء الدروس والمحاضرات، وعاكفًا على التأليف والتصنيف، وسَمَّى نفسه "رهن المحبسين" -أي: العنى والمنزل- معتزلاً ملذَّات الحياة، ممتنعًا عن تناول اللحوم، قانعًا بالحلوى والعدس والتين، راضيًا بالغليظ من الثياب والفرش وحصير البردي، رافضًا كل العطاءات باستثناء ثلاثين دينارًا وُقِفَتْ له في العام، حتى إنه ضنَّ بنسله على الحياة وحرَّم على نفسه الزواج، ولم يزل على تلك الحال قرابة خمسين سنة حتى توفِّيَ عام (٤٤٩هـ / ١٠٥٧م) بعدما ترك تراثًا عظيمًا من الأدب والشعر والكتب، كان من أشهرها ديوان اللزوميات الذي صنَّفه، وقد وقف على قبره زهاء مئة وثمانين شاعرًا؛ فيهم الفقهاء وأهل العلم والمتصوفون، ورثاه منهم كثيرون.

منزلته ومكانته:

لأبي العلاء المعري منزلة عظيمة في التراث الأدبي؛ فهو أحد أبرز أقطاب الأدب والفكر، وأحد العباقرة الذين عرفهم التراث، وقد ترقّع عن التّكسّب بشعره، وقال عنه ابن الأنباري: "كان غزير الفضل، وافر الأدب، عالماً باللغة، حسن الشعر، جزل الكلام"، وله فلسفة خاصة في الدّين والطبيعة والخلقة، وكان قويّ الذاكرة، سريع الحفظ، سيئ الظن بالناس، أقرب دوماً إلى نظرة التشاؤم، ورُوِيَتْ عنه بعض الأعاجيب؛ منها أنه -على عماه- كان يجيد لعب الشطرنج والنرد، وأنّ رجلاً يوماً تحدّث أمامه بالفارسية -وقيل: بل بالأذربيجانية- وهو لا يعرفها، فقال لرفيق له: قد دار بينك وبين أخيك كلام بالفارسية، إن شئت أعدته؛ فلمّا أعاده ما أخلّ بحرف منه، وروى الثعالبي عن أحد رواته: رأيتُ شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد، ويدخل في كل فن من الجد والهزل، يُكنى أبا العلاء، وكان يقول: أنا أحمد الله على العي كما يحمده غيري على البصر؛ ورُوِيَ عنه أنه حينما فرغ من تصنيف كتاب "اللامع العريزي" في شرح شعر المتنبي، وقُرئ عليه؛ قال: كأنّما نظر المتنبي إليّ بلحظ الغيب؛ حيث يقول:

أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي وأسمعتَ كلماتي مَنْ به صمّم

وقد تعمّق أبو العلاء المعري في الفلسفة وعلوم المنطق، وشاعت آراؤه الفلسفية، ومضى في تلك المعارف شوطاً عظيماً، وهو يُعتبر آخر فحول الشعراء في العصر العباسي؛ إذ جمّد الشعر بعده عن التطور والازدهار، وكف عن طرق أبواب التجديد والابتكار، وعاش من تلاه من شعراء الحقبة العباسية على اقتفاء أثر من سبقهم من فحول الشعراء كبشّار وأبي تمام والمتنبي وأبي العلاء المعري، وما لبث أن تراجعت منزلته بانقضاء العصر العباسي، وسقوط بغداد في يد المغول عام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م).

١ انظر: نزهة الألباء، ابن الأنباري (ص ٢١٠).
٢ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (١/ ٣٠٦ - ٣٠٧).



وأبو العلاء من الأدباء القلائل الذين اجتمعت لهم الإجابة في فني الأدب: الشعر والنثر، وهي ظاهرة نادرة لم تتفق إلا لعدد قليل، وكُتب أبي العلاء المعري مليئة بالآراء المختلفة من ثقافات عصره، وفيها عصارة تجربته وخبرته وإحاطته بسائر المعارف، وقد وضعه تعمقه الفلسفي وما أبداه من آراء في مواجهة بعض الفقهاء والمتدينين، فاتهمهم بالالحاد والزندقة واتباع مذهب البrahمة، واستدلوا من شعره على تناقض في آرائه، ودسُّوا على ديوانه شعراً منحولاً عليه، ومنهم من زعم أن امتناعه عن تناول اللحم كان رفقا بالحيوان، وقيل: إنه قبَّح الزواج وعدَّ النسل جنائية، وأن المرأة لا ينبغي لها أن تتعلَّم غير الغزل والنسيج والخدمة، ويُروى أنه لما دنى أجله أوصى أن يُكتب على قبره:

هَذَا جَنَاهُ أَبِي عَلَيَّ وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدٍ

ولكن الحق أن المعري حتى لو حرَّم على نفسه أكل اللحم وما ينتج من الحيوان، وكره الزَّواج منعاً للنسل؛ فإن جانباً من تلك الآراء حمل قدرًا من المبالغة، ولا يخلو من مظاهر الافتراء؛ فمأكل المعري وملبسه، وكذلك رأيه في المرأة والزواج والنسل -إن صح- يبقى رأيًا شخصيًا، لا انحرافًا عقائديًا أو إلحاديًا؛ فقد كانت له فلسفته الخاصة في الحياة، ويرى أن الاعتقاد بالتفكير لا بالتسليم، وحقيقة الدِّين عنده أن يعمل الإنسان خيرًا، ولذلك كان شديد الوطأة على الفقهاء الذين اتَّهمهم بالتظاهر بالدِّين من أجل الارتزاق؛ ومن شأن التَّعمُّق في الفلسفة أن يجرَّ على صاحبه سيلاً من النقد والعنت والهجوم والطعن من قبل الذين يرفضون مظاهر الجدل والمذاهب الكلامية، ولا يستوعبون ما تطلبه الفلسفة من تفكُّر وإمعان، كما طعن بعض النُّقاد في ذلك البيت الذي قيل: إنه أوصى بكتابته على قبره، وطعنوا كذلك في الأبيات التي استُبدِلَ بها على انحرافه، وقالوا بأنَّها مدسوسة عليه.

١ انظر: تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٢٩٠).

شعره ونثره:

يُعتبر شعر أبي العلاء المعري من أعظم ما انتهى إليه شعر العربية، سواء أكان من ناحية التعمُّق الفلسفي، أم من ناحية الحكم والمعنى؛ فقد كان المعري أديبًا واسع الإطلاع، عظيم المعرفة، متبحرًا في مختلف العلوم، نقل الشعر من نطاق الخيال والطبيعة إلى نطاق التفكير والتأمل والحكمة، فظهر أثر علمه وسعة اطلاعه في شعره، وينقسم شعره إلى قسمين؛ فأما القسم الأول فهو ما قاله في شبابه، وهو ما جمعه في ديوان "سقط الزند"، وقد تنوعت أغراضه بين المديح والرثاء والفخر والنسيب وغيرها، بينما برئ من أغراض المجون واللَّهو، وقد سار في موضوعاته على نمط المتنبي، لكنَّه اختص عنه بوقفاته التأملية وغلبة النزعة الذاتية على شعره، وفي قصائده ميل إلى شيء من الإطالة، مع لفظ جزل، وأسلوب فخم، وطابع بدوي، وتراكيب قوية، وأما القسم الثاني من شعره فهو الذي وضعه أثناء مدة اعتزاله الطويلة، وهو الذي جُمع في ديوان "لزوم ما لا يلزم"، وقد التزم أبو العلاء المعري في قافيته بأكثر من حرف روي، ويغلب على موضوعاته في هذا الديوان الحكمة والنصح والفلسفة، ونظرًا إلى التزامه لزوم ما لا يلزم؛ فقد اضطر إلى استعمال الألفاظ الغريبة، والمصطلحات العلمية، والكلمات النادرة، وقصائده في هذا القسم أقصر من قصائد القسم الأول، وقد جرَّه أسلوبه هذا إلى قدر من التَّكُلُّف واستعمال القوافي الصعبة، ولكنَّه تجاوز هذا التَّكُلُّف بسعة علمه، ودرايته الواسعة بمفردات اللغة، وما أودعه في قصائده من موضوعات الحكمة وأطوار الفلسفة، مما قد يقلِّل أثر الصنعة والتَّكُلُّف اللفظي في شعره.

وشعر أبي العلاء المعري على الجملة دقيق الفكر، غني بمعالم الفلسفة والحكمة، جزل، فخم اللفظ، قوي الأسلوب، ومعانيه غاية في العمق والدقَّة، وكان أبو العلاء متصرِّفًا في وجوه البلاغة، فيحسن التشبيهات والاستعارات رغم عماه، وفي شعره قدر من التعقيد اللفظي والبياني والغموض، وكان يكثر من تكلُّف الصنعة اللفظية في شعره؛ حيث كان مولعًا بالغريب والتعقيد الذي كان

شائعاً في عصره، ولكن رغم أثر الغموض والتَّكَلُّف في شعره فإنه كان أيضاً رائع العبارة، جميل البيان، لا يخلو من التَّأَمُّل الوجداني العميق، وهذا بسبب سعة علمه ودرايته باللغة التي أعانته على تجاوز التكلف.

وهو أحد الشعراء الذين ظهر عليهم الطابع العقلي، وتتضح معالم الفلسفة والطابع العقلي في شعر اللزوميات أكثر من شعر السقط؛ إذ إن ديوان السقط جاء حين كان المعري في أول حياته يمضي على خطى المتنبي، ويعمل في شعره على محاكاة القدماء في الصور والتشبيهات والأسلوب، وإن لم يخلُ أيضاً من بعض أثر الحكمة والنبرة الذاتية، أما شعر اللزوميات فقد نضجت شخصيته، واستقلَّ بمنهجه، فظهر فيه ما نرى من دقائق فكره، ومعالم فلسفته، وروائع حكمه، ويظهر فيه الاتجاه العقلي بوضوح، وبصورة أعمق وأكثر تعقيداً حتى مما كانت عليه في شعر ابن الرومي، وشعره فيها يمثِّل عصارة المذاهب الفكرية والآراء الفلسفية، وأبلغ ما انتهت إليه النزعة العقلية، فكان للعقل مكان رفيع في فلسفته وآرائه.

وشعر المعري قريب في بعض خصائصه من أذواق شعراء التصوف، مما جعل له أثراً عليه، صحيح أن أبا العلاء المعري لم يكن متصوّفاً، ولا تتَّضح معالم التَّصَوُّف في شعره بالشكل الكامل، ولكن ميله إلى الانعزال ونظرة التشاؤم، وظهور الفلسفة مع غلبة النزعة العقلية في شعره.. كل ذلك جعل شعره قريباً من شعر المتصوفة الذين كانوا يدعون إلى قريب من تلك الملامح.

وهو أحكم الشعراء بعد المتنبي، بل ربّما فاقه في الخيال الدقيق، والتعمُّق الفلسفي، والاتجاه العقلي، وتصريف القول في الحكمة والأخلاق، صحيح أن المتنبي قد تعمَّق في الفلسفة، ويظهر ذلك في شعره، ولكن كان تعمُّقه بالقدر الذي يخدم شعره ويكيّف معانيه، ولم تُؤثّر عنه آراء خاصة في الفلسفة، أما أبو العلاء المعري فقد سار في الفلسفة ذاتها شوطاً لم يبلغه المتنبي، وصارت له آراؤه الفلسفية المستقلة عن الشعر، وعُرف بنظراته التَّأَمُّلية في الحياة، وقد اشتهرت آراؤه بشكل واسع، وله في ذلك مؤلفات ورسائل بعيدة عن الشعر، كما نرى في

رسالة الغفران وغيرها، فكان بذلك أعمق معنى من المتنبي، وأدق إحكامًا، فضلاً أنه لم يتكسَّب بالشعر كما فعل المتنبي ومعظم من سبقه، ولكن في الوقت نفسه فإن القيود التي فرضها أبو العلاء على شعره، ومبالغته في التعقيد والتعمق في معاني الحكمة والفلسفة؛ قد أتت قليلاً على حساب سلاسة شعره، بخلاف المتنبي الذي كان شعره أسلس وأبعد أفقاً، وأعظم انطلاقاً، وألين أسلوباً، وأكثر انسيابية من شعر المعري؛ لأنه كان أميل إلى التحرُّر، ويكره القيود والمبالغة في التعقيد، فكان تعمُّقه في الفلسفة بقدر لا يُفسد سلاسة شعره، ولو زاد في تعمُّقه لظهر أثر التكلُّف والغموض.

وكان أبو العلاء معجباً بشعر المتنبي ويقدم المتنبي على من سبقه من الشعراء وعلى نفسه أيضاً، وبني على شعره أصول مدرسته وإن كان قد أضاف إليها وزاد عليها، فكان بحق شاعر العربية وفيلسوفها الفذ، الذي ارتقى بالشعر العربي وما حواه من حكمة وفلسفة ارتقاء لم يُعرف مثله، ولم يُعرف في الشعر من فاقه مكانة ومنزلة، فكان هو والمنتبي من بلغ معهما الشَّعر قمة ازدهاره وتطوره. أما نثره فلا يخلو كذلك من السُّموِّ والعمق وظهور أثر الفلسفة والفكر، وهو كشعره بين أول شبابه وعهد كهولته، فقد تكلَّف السَّجع والصنعة اللفظية، وأكثر من المبالغة، وكان مفعماً بالغريب من اللفظ، يميل إلى غموض المعنى، ثم قلَّ تكلُّفه وحكَّم فلسفته، فقلَّت المبالغة، وفاضت المعاني، وكان يميل إلى الإطناب والاستطراد والإسهاب في الحديث عن المسائل النظرية والنقدية، وكان هذا الميل في الترويج والتعقيد بسبب أن الناس في عصره قد شغفوا بالتعقيد والصنعة اللفظية، وفق ما سنفصله في حديثنا عن النثر في العصر العباسي.

مؤلفاته:

لأبي العلاء المعري مؤلفات عديدة؛ من أشهرها:

(١) ديوان سقط الزند: وهو ديوان شعره الذي كتبه في النصف الأول من حياته قبل انزاله، وهو يدور في عموم الأغراض الشعرية التقليدية

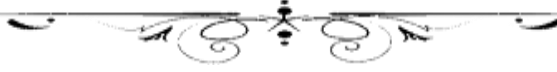
المعروفة؛ والزند هو العود الأعلى الذي تُقْتَدَح به النار، والسقط هو ما يقع من النار أثناء القَدْح.

(٢) اللُّزوميَّات: وهو ما كتبه من شعر أثناء مدة انعزاله، وقد التزم فيه لزوم ما لا يلزم؛ من جعلِ القافية الواحد على أكثر من رويٍّ، ويُعتبر هذا الديوان أعظم شهرة من ديوان السقط، ليس لفارق الجودة؛ ولكن نظرًا إلى أن الناس في عصره شَغِفُوا بهذا اللَّون من الصنعة اللفظية، وكانوا يتعقَّبون مظاهر التعقيد والتغريب، فضلًا عن أن شعره في هذا الديوان قد نضجت فيه شخصيَّته، وتجلَّت فيه أفكاره وأراؤه، وما أودعه فيه من حكم وفلسفة وزهد ووصف ونبرة ذاتية، وهو من أجود وأعظم تراث الأدب، ولكن ينبغي الحذر من بعض ما ورد فيه؛ إذ لم يَخُلُ من المنحول الذي وُضِع عليه من أجل الطعن فيه والنَّيل منه.

(٣) ضوء السقط: وهو شرحٌ لديوانه سقط الزند.

(٤) رسالة الغفران: وهي رسالة نثرية شهيرة طويلة، وقد جُمِعت فصولها في كتاب، وهي عبارة عن آراء نقدية لشعراء وأدباء سابقين، جمعها المعري في إطار قصَّة خيالية طويلة، تخيَّل أنَّها حدثت يوم القيامة، وأنه خالط عددًا من الشعراء والأدباء، ولقي من لقي منهم في الجنة والنار، وكان يسألهم عن بعض أشعارهم وأقوالهم، وأسماها بالغفران لكثرة من غُفِرَ لهم في تلك القصة وأدخلوا الجنة؛ مثل الأعشى، وهي لا تخلو من ملامح الفلسفة والنقد؛ حيث كان المعري متعمِّقًا في النقد الأدبي، ويشرح محاسن وعيوب أشعار من سبقوه، وهي رسالة نقدية عالية المستوى، ولفظها صعب، وفيها قدرٌ من السجع والتَّكَلُّف والتعقيد، ويشقُّ فهمها على العامة، فلا يتَّسع لها إلا صدر الخاصة من علماء اللغة والشعر وأهل النقد.

(٥) الأليك والغصون: وهو المعروف بكتاب الهمز والردف، وهو كتاب كبير جمع فيه ما انتهى إليه من أخبار العرب، وهو عظيم الأهميَّة، يقع من مئة جزء، وقد سقط من يد الزمن فلم يصل إلينا.



- (٦) الفصول والغايات: وفيه تمجيدٌ لله تعالى وذكر بعض العظات
- (٧) رسائل أبي العلاء المعري: وله غير رسالة الغفران كذلك رسائل عديدة، ضاع معظمها، وبقي قدرٌ منها في كتب الأدب، وحفظ ياقوت الحموي بعضًا منها، ومن أشهر رسائل المعري: "رسالة الملائكة"، و"ملقى السبيل"، وقد اجتمع حديثًا في جمع ما بقي منها.
- (٨) شروحات لدواوين بعض الشعراء؛ مثل شرح ديوان أبي تمام، وقد أسماه "ذكرى حبيب"، وشرح لديوان البحتري وأسماه "عبث الوليد"، على أن الأشهر كان كتاب "معجز أحمد" الذي شرح فيه ديوان أبي الطيب المتنبي؛ حيث كان المعري يقدِّمه على من سواه من الشعراء، ويُذكر اسم كتاب آخر هو "اللامع العزيزي" شرح فيه أيضًا شعر المتنبي.
- وقد أُلِفَ حول المعري كثيرٌ من الكتب والدراسات النِّقدية والمختارات الشعرية، ولديوانه ولزومياته ورسائله شروحات عدَّة!

نماذج من قصائده:

- قال في "السقط"¹:

وَطَرْتُ بِعَزمِي لو أَصَبْتُ مَطَارًا	تَخَيَّرْتُ جَهْدِي لو وَجَدْتُ خِيَارًا
حَلِمْتُ فَأَوْسَعْتُ الزَّمَانَ وَقَارًا	جَهَلْتُ فَلَمَّا لَمْ أَرِ الْجَهْلَ مُغْنِيًا
وَتَكثُرُ عَثْبِي خُفْيَةً وَجَهَارًا	إِلَى كَمْ تَشْكَايِي إِلَيَّ رِكَائِبِي
فَيَسْقُطُ بِي شَخْصُ الْحِمَامِ عِثَارًا	أَسِيرُ بِهَا تَحْتَ الْمَنَايَا وَفَوْقَهَا
رَجَعَنْ كَمَا شَاءَ الصَّدِيقُ حَرَارًا²	وَكُنْ إِذَا لَاقَيْتَنِي لِيرُدَّنِي
وَلِلَّهِ طَعْمِي مَا أَمَرَ مَذَاقُهُ	فَلِلَّهِ طَعْمِي مَا أَمَرَ مَذَاقُهُ
كَسَانِي مِنْهُ حُلَّةٌ وَخِمَارًا	وَأَسْوَدَ لَمْ تَعْرِفْ لَهُ الْإِنْسُ وَالذَّا³

¹ انظر: ديوان أبي العلاء المعري، المقدمة (ص ٧)، طبعة: دار الكتب العلمية؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (١١٣/١ - ١١٤)؛ تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٢٨٨ - ٢٩٠).

² انظر: ديوان سقط الزند، أبو العلاء المعري (ص ١٢٢).

³ جزاءً: عطاشًا. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٤/ ١٧٨).

سَرَتْ بِي فِيهِ نَاجِيَاتُ مِيَاهُهَا تَجَمُّ إِذَا مَاءُ الرِّكَائِبِ غَارَا
فَخَرَّقْنَ ثَوْبَ اللَّيْلِ حَتَّى كَأَنَّنِي أَطَرْتُ بِهَا فِي جَانِبَيْهِ شَرَارَا
وَبَاتَتْ تُرَاعِي الْبَدْرَ وَهُوَ كَأَنَّهُ مِنْ الْخَوْفِ لَاقَى بِالْكَمَالِ سِرَارَا

- وقال يرثي الشريف أبا أحمد الطاهر الحسيني العلوي ويعزّي ولديه الرضي والمرضى:"!

أَوْدَى فَلَيْتَ الْحَادِثَاتِ كَفَافُ مَالُ الْمُسِيفِ وَعَنْبَرُ الْمُسْتَاغِ
الطَّاهِرُ الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْـ أَثَرُ الْوَابِ وَالْآرَابِ وَالْأَلَفِ
رَغَتِ الرُّعُودُ وَتَلَكَ هَدَّةٌ وَاجِبُ جَبَلٌ هَوَى فِي آلِ عَبْدِ مَنْافِ
بَخَلْتُ فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةً فَقَدِهِ سَمَحَ الْغَمَامُ بِدَمْعِهِ الدَّرَافِ
وَيُقَالُ إِنَّ الْبَحْرَ غَاضَ وَإِنَّهَا سَتَعُودُ سَيْفًا لُجَّةُ الرَّجَافِ
وَيَحِقُّ فِي رُزْءِ الْحُسَيْنِ تَغْيِيرُ الْـ حَرَسَيْنِ بَلَّةِ الدَّرِّ فِي الْأَصْدَافِ
تَكْبِيرَتَانِ حِيَالِ قَبْرِكَ لِفَتَى مَحْسُوبَتَانِ بِغَمْرَةٍ وَطَوَافِ
لَوْ تَقْدِرُ الْخَيْلُ الَّتِي زَانِلَتْهَا أَنْحَتَ بِأَيْدِيهَا عَلَى الْأَعْرَافِ
فَارَقْتَ دَهْرَكَ سَاخِطًا أَفْعَالَهُ وَهُوَ الْجَدِيرُ بِقَلَّةِ الْإِنْصَافِ
وَلَقِيتَ رَبَّكَ فَاسْتَرَدَّ لَكَ الْهُدَى مَا نَالَتْ الْأَيَّامُ بِالْإِتْلَافِ
وَسَقَاكَ أَمْوَاةَ الْحَيَاةِ مَخْلَدًا وَكَسَاكَ شَرْخَ شَبَابِكَ الْأَفْوَافِ^٢
أَبْقَيْتَ فِينَا كَوَكَبَيْنِ سَنَاهُمَا فِي الصُّبْحِ وَالظُّلُمَاءِ لَيْسَ بِخَافِ
مُتَأَنِّقَيْنِ وَفِي الْمَكَارِمِ أَرْتَعَا مَتَأَلِّقَيْنِ بِسُودَدٍ وَعَفَافِ
سَاوَى الرَّضِيِّ الْمُرْتَضَى وَتَقَاسَمَا خُطَطَ الْعُلَا بِتَنَاضُفٍ وَتَصَافِ
مَا زَاغَ بِيَتْكُمُ الرَّفِيعُ وَإِنَّمَا بِالْوَجْدِ أَدْرَكَهُ خَفِيٌّ زِحَافِ
وَالشَّمْسُ دَائِمَةُ الْبَقَاءِ وَإِنْ ثُلُ بِالشُّكُو فَهِيَ سَرِيعَةُ الْإِخْطَافِ

١ انظر: ديوان سقط الزند، أبو العلاء المعري (ص ٢٥٠).
٢ الأفواف: جمع فوف وهو البياض الذي يكون في أطفار الأحداث. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢٧٣/٩).

- وقال في "اللزوميات"!

عاشوا كما عاش آباءُ لهم سلفوا
فما يُراعونَ ما قالوا وما سمعوا
والغدْمُ أروحُ ممّا فيه عالمهم
لَمْ يَحْمِ فارِسَ حَيٍّ مِنْ رَدَى فَرَسٍ
والحِظُّ يسري فيعشى معشراً حُسبوا
وما توقى سيوفَ الهندِ بيضُ طلى
قد يدأبُ الرجلُ المنجودُ مجتهداً

- وقال في "اللزوميات أيضاً"!

خابَ الذي سارَ عن دُنياه مُرتحلاً
لا خيرَ للمرءِ إلا خَيْرُ آخِرَةٍ
نرجو السّلامةَ في العُقْبى وما حَسُنَتْ
ما بَانَ قومٌ عَنِ الأولى بما جَمَعُوا
سألتُ عَليّ فلم يُخْبِرْ وَقُلْتُ لَهُ
قالوا فمالوا فلمّا أَنْ حَدَوْتُهُمْ
جارانِ مَلَكٌ ومُحتاجٌ أَتى زَمَنٌ
إِنْ تُركِبَ الخيلُ أو تُضربَ مَراكِبُها
والفَقْرُ أَحْمَدُ مِنْ مالٍ تُبذَرُهُ
يَعزى الفَقِيرُ وبِالدينارِ كِسوَتُهُ

^١ اللزوميات، أبي العلاء المعري (١/ ٢٢٥).

^٢ المصدر السابق (٢/ ١٠٢).

طوائف من الشعراء

أولاً: شعراء البلاط

(أبودلامة- مروان بن أبي حفصة- سلم الخاسر- أبو الشيص الخزاعي-

علي بن يحيى المنجم)

لم يمنع ضَعْفُ الشعر السياسي وتَرَاوُعُ منزلته في العصر العباسي من وجود عددٍ من الشعراء الذين عُرِفوا بولائهم لبني العباس، فناصروا دعوتهم، واعتقدوا بحَقِّهم في الخلافة، ولازموهم في بلاطهم، وكان معظم شعرهم يدور في فلك المديح وما فيه من تعظيم وتبجيل للخلفاء العباسيين، وتأكيد على استحقاقهم للخلافة، ونيلٍ من خصومهم الطالبيين، وبما أن معظم الأحزاب السياسية قد انهارت في هذا العصر؛ إذ اختفى الزبيريون، وتوجَّه بنو أمية نحو المغرب وأسَّسوا إمارتهم المستقلة في الأندلس، وضَعُف الخوارج؛ فإنَّه لم يبقَ على الساحة غير حزبين: الحزب العباسي والحزب الطالبي، كما زال الطابع السياسي عن حركات العصيان والتَّمَرُّد في العصر الأوَّل، حتى إذا جاء العصر الثاني، وانتشرت الفتن والقلاقل؛ ظهرت بعض الثورات ذات العقيدة السياسية، متمثلةً في ثورتي الزنج والقرامطة، فظهر بعض النشاط للشعر السياسي، ولكنَّه لم يزل أقلَّ بكثير ممَّا كان عليه في العصر الأموي، ومن أبرز الشعراء الذين عُرِفوا بولائهم للخلفاء العباسيين وللدعوة العباسية:

١- أبودلامة:

هو أبو دلامة زند بن الجون، من موالي بني أسد، كان أبوه عبداً حبشياً لرجلٍ منهم فأعتقه، وهو من الشعراء الذين عاصروا الدولتين الأموية والعباسية، لكن لم يكن له ذكر زمن بني أمية، وبرز في العصر العباسي؛ حيث انقطع إلى الخليفة

أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور وولده المهدي، وكان شاعرًا مطبوعًا مفلحًا فائق الظرف، وله عدة نوادر وأخبار مع الخلفاء، وكان خليعًا ماجنًا يتردد على الخمارين، وله معرفة بأخبار الناس وأيامهم، وقد توفي نحو عام (١٦١هـ/ ٧٧٧م) في خلافة المهدي، وقيل: بل عاش إلى أيام هارون الرشيد. وكان الخليفة أبو العباس السفاح مولعًا به، ولا يفارقه؛ لحسن أدبه ورقة شعره، ولما توفي ظل ملازمًا لأخيه أبي جعفر المنصور وله معه أخبار، ويقال: إنه حضر في مجلسه لعزاء أخيه السفاح فأنشد قائلاً:

أَمْسَيْتَ بِالْأَنْبَارِ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ لَمْ تَسْتَطِعْ عَنْ غَيْرِهَا تَحْوِيلًا
وَيْلِي عَلَيْكَ وَوَيْلٌ أَهْلِي كُلِّهِمْ وَيْلًا وَعَوْلًا فِي الْحَيَاةِ طَوِيلًا
مَاتَ النَّدَى إِذْ مِتَّ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ فَجَعَلَتْهُ لَكَ فِي الثَّرَابِ عَدِيلًا
إِنِّي سَأَلْتُ النَّاسَ بَعْدَكَ كُلَّهُمْ فَوَجَدْتُ أَسْمَحَ مَنْ رَأَيْتُ بِخِيلًا
أَلِشْفَوْتِي أَخْرْتُ بَعْدَكَ لِلَّذِي يَدْعُ السَّمِينَ مِنَ الْعِيَالِ هَزِيلًا

ويبدو أن هذه الأبيات قد أغضبت أبا جعفر المنصور فقال: لئن سمعتك بعدها تنشد هذه القصيدة لأقطعن لسانك؛ فقال أبو دلامة: إن أبا العباس كان لي مكرمًا، وهو الذي جاء بي من البدو، كما جاء يوسف -عليه السلام- بإخوته؛ فقال: أقلناك فسل حاجتك؛ فقال أبو دلامة: قد كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبًا في مرضه فلم أقبضها؛ فقال المنصور: ومن يعلم ذلك؟ فأشار إلى بعض جلسائه، فشهدوا بصدقه، فوصله؛ ويحكى له في موقف آخر أن المنصور أمره بالانضمام للجيش السائر لقتال عمه عبد الله بن علي في الشام، فوثب أبو دلامة مستعفيًا وقال: يا أمير المؤمنين؛ أعيذك بالله أن تخرجني مع هذا العسكر فإني -والله- مشؤوم؛ فقال المنصور: إنَّ يُمْنِي يَغْلِبُ شَوْمَكَ، فأخرج مع العسكر؛ فقال أبو دلامة: يا أمير المؤمنين؛ والله لأصدقنك؛

^١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٤٦).

إني شهدت تسعة عساكر كلها هُزِمت، فأنا أعيذكُ بالله أن يكون العاشر؛
فضحك أبو جعفر المنصور وأعفاه.

وله أيضًا عدة أخبار طريفة مع المهدي؛ منها أنه مدحه بقصيدة استحسناها
وسأله حاجته، فطلب كلبًا، فكاد يفتك به، لولا أن تَلَطَّفَه أبو دلامة بظرفه،
فأجابه إلى ما سأل، ثم سأله الاستزادة من العطاء، فأجابه إلى كل ما سأل؛
وَرَوِيَ أنه كان يضحك بسبب ظرفه غير مرَّة، ومن بين أخباره أنه دخل على
المهدي حزينًا وقال: يا أمير المؤمنين؛ ماتت أم دُلامة، وبقيتُ ليس أحد يعاطيني؛
فأمر له بألف درهم يشتري بها أمةً تخدمه، وفي الوقت ذاته دخلت أم دلامة على
الخيزران زوجة المهدي فقالت: يا سيدتي؛ مات أبو دلامة وبقيتُ ضائعة؛
فوصلتها بألف درهم، ثم دخل المهدي على زوجته فقال: ماتت أم دلامة؛ فقالت:
بل مات أبو دلامة؛ فقال: قاتل الله أبا دلامة وأمَّ دلامة؛ قد خدعانا والله!

وشعر أبي دلامة فيه ملاحه وظرف، قريب الإشارة، ظاهر المعاني، يدور في فلك
المدح والهجاء والثناء والعتاب والهزل، مع بعض القصائد الوجدانية؛ ومن
شعره قوله يمدح بني العباس:

لَوْ كَانَ يَقَعْدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ لَقِيلَ اقْعُدُوا يَا آلَ عَبَّاسٍ
ثُمَّ ارْتَقُوا فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ كُلُّكُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَأَنْتُمْ أَكْرَمُ النَّاسِ
وَقَدِّمُوا الْقَائِمَ الْمَنْصُورَ رَأْسَكُمْ فَالْعَيْنُ وَالْأَنْفُ وَالْأُذُنَانِ فِي الرَّأْسِ

وكان أبو مسلم الخراساني كبير دعاة العباسيين ونائهم على خراسان، قد
توعَّده بالقتل لأمرٍ بلغه عنه، فلمَّا قتله أبو جعفر المنصور، وأبصر أبو دلامة
رأسه في الطَّسْت؛ قال:

أَبَا مُجْرِمٍ مَا غَيَّرَ اللَّهُ نِعْمَةً عَلَى عَبْدِهِ حَتَّى يُغَيِّرَهَا الْعَبْدُ

١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (٤٦- ٥٤)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٣٢٠- ٣٢٧).

٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٨٤).

٣ طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٥٣).

٤ المصدر السابق (ص ٥٤).

أَبَا مُجْرِمٍ خَوَّفْتَنِي الْقَتْلَ فَاثْتَحَى عَلَيْكَ بِمَا خَوَّفْتَنِي الْأَسَدُ الْوَرْدُ
أَفِي دَوْلَةِ الْمَهْدِيِّ حَاوَلْتَ غَدْرَهُ أَلَا إِنَّ أَهْلَ الْغَدْرِ آبَاؤُكَ الْكُرْدُ

وله شعر يهجو به زوجته في صورة لا تخلو من الظرف!

نَاشِدْتُهَا بِكِتَابِ اللَّهِ حُرْمَتَنَا وَلَمْ تَكُنْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَرْتَدِعُ
فَاخْرَنْطَمْتُ ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ مُغْضَبَةٌ أَنْتَ تَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ يَا لُكْعُ
اذهَبْ تَبِعْ لَنَا نَحْلًا وَمُزْدَرَعًا كَمَا لِحِيرَانِنَا نَحْلٌ وَمُزْدَرَعُ
وَاخْدَعْ خَلِيفَتَنَا عَنَّا بِمَسْأَلَةٍ إِنَّ الْخَلِيفَةَ لِلسُّوَالِ يَنْخَدِعُ

٢- مروان بن أبي حفصة:

هو أبو السمط -أو أبو الهندام- مروان بن سليمان أبي حفصة بن يحيى بن يزيد أبي حفصة، كان جدّه طبيباً يهودياً من سبي إصطخر، اشتراه عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأسلم على يده، وضمّه إلى مروان بن الحكم الأموي، فصار من مواليه، وقاتل معه يوم الدار -يوم استشهاد عثمان- فأبلى بلاء حسناً، وكافأه بعتقه، ويزعم أهل المدينة أنه كان من موالي السموأل بن عدياء الشهير أحد سادات اليهود العرب في الجاهلية.

وقد وُلِدَ مروان نحو عام (١٠٥هـ/ ٧٢٣م)، وكان مقيماً في اليمامة، فقدم بغداد ومدح الخليفة المهدي وهارون الرشيد، وكان يتقرّب إلى الرشيد بهجاء أبناء عمومته الطالبيين، ويبدو أنه اغتيل نحو عام (١٨٢هـ/ ٧٩٨م) بسبب تعرّضه للطالبيين بالهجاء.

ومروان شاعر مُكثِّر، وكان ينقّح شعره ويحكم صناعته، ويدور شعره حول أغراض المديح والهجاء والرثاء، وله شعر يمدح به الرشيد ويذكر البرامكة، وكان يعرّض فيه بالطالبيين ويهجوهم مُنكراً حقّهم في الخلافة، وله شعر حسن في

مديح معن بن زائده وراثته، وهو من أجود شعره، وشعره على الجملة حسن السبك، واضح المعنى، لا يخلو من الجودة!

ومن أجود شعره قصيدة له في امتداح معن بن زائدة الشيباني، عُرِفَت بالغرَاء، وهي قصيدة طويلة تناهز السِّتِّين بيتًا، وقد وصله معن بمال وفير، ومن أبياتها:

بُنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللَّقَاءِ كَأَنَّهُمْ	أَسُودٌ لَهَا فِي غَيْلِ خَفَّانٍ أَشْبُلُ
هُمُ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا	لِجَارِهِمْ بَيْنَ السِّمَّاكَيْنِ مَنْزِلُ
تَجَنَّبَ لَا فِي الْقَوْلِ حَتَّى كَأَنَّهُ	حَرَامٌ عَلَيْهِ قَوْلٌ لَا حِينَ يُسْأَلُ
تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلَا	فَلَا نَحْنُ نَدْرِي أَيَّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ
أَيُّومَ نَدَاهُ الْغَمْرِ أَمْ يَوْمَ بِأَسِهِ	وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلُ
بِهَالِيلٍ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ	كَأَوَّلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا	أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا
وَمَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ	وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا
ثَلَاثٌ بِأَمْثَالِ الْجِبَالِ حَبَاهُمْ	وَأَحْلَامُهُمْ مِنْهَا لَدَى الْوِزَنِ أَثْقَلُ

وممَّا يُسْتَحْسَن من شعره:

يَا مَنْ بِمَطْلَعِ شَمْسٍ ثُمَّ مَغْرِبِهَا	إِنَّ السَّخَاءَ عَلَيْكُمْ غَيْرُ مَرْدُودٍ
قُلْ لِلْعَفَاةِ أَرِيحُوا الْعَيْسَ مِنْ طَلَبٍ	مَا بَعْدَ مَعْنٍ حَلِيفِ الْجُودِ مِنْ جُودٍ
قُلْ لِلْمَنِيَّةِ لَا تَبْقَى عَلَى أَحَدٍ	إِذْ مَاتَ مَعْنٌ فَمَا مَيِّتَ بِمَقْشُودٍ

وقال في رثاء معن:

إِنَّ مَعْنًا كَمَا كَسَاهُ أَبُوهُ	عِزَّةَ السَّابِقِ الْجَوَادِ كَسَاكََا
كَمْ بِهِ عَارِفًا يَخَالُكَ إِيَّا	هُ وَطَوْرًا يَخَالُهُ إِيَّاكََا

١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٣٦-٤٦)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٥/ ١٨٩-١٩٣).

٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ١٣٠-١٣٢).

٣ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٥/ ١٩٠).

٤ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٤٠).

انظر: المصدر السابق (ص ٤١-٤٣).

لَكَ مِنْ فَضْلِ بَاسِهِ يُعْرِفُ الْبَاءُ
كُلُّ مَنْ قَدْ رَأَاهُ يَعْرِفُ مِنْهُ
سَبَقَ النَّاسَ إِذْ جَرَى ثُمَّ صَلَّى
سُ كَمَا مِنْ نَدَاهُ نَدَاكَ
نَسَمَ الْخَيْرِ فِيكَ حِينَ يَرَاكَ
تَ كَمَا مِنْ أَبِيهِ جَاءَ كَذَاكَ

وقال أيضاً يرثيه في قصيدة بديعة!
مَضَى لِسَبِيلِهِ مَعْنٌ وَأَبْقَى
كَأَنَّ الشَّمْسَ يَوْمَ أُصِيبَ مَعْنٌ
هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي كَانَتْ نِزَارُ
وَعُظِّلَتِ الثُّغُورُ لِفَقْدِ مَعْنٍ
وَأَظْلَمَتِ الْعِرَاقُ وَأُورِثَتْهَا
وَضَلَّ الشَّامُ يَرْجُفُ جَانِبَاهُ
وَكَادَتْ مِنْ تِهَامَةٍ كُلُّ أَرْضٍ
فَإِنْ يَعْلُ الْبِلَادَ لَهُ خُشُوعٌ
أَصَابَ الْمَوْتُ يَوْمَ أَصَابَ مَعْنًا

مَكَارِمَ لَنْ تَبِيدَ وَلَنْ تُنَالَا
مِنْ الْإِظْلَامِ مُلْبَسَةً جَلَالَا
تَهْدُ مِنَ الْعَدُوِّ بِهِ الْجَبَالَا
وَقَدْ يَرُوي بِهَا الْأَسْلُ النَّهَالَا
مُصَيَّبَتُهُ الْمُجَلَّلَةُ اخْتِلَالَا
لِرُكْنِ الْعِزِّ حِينَ وَهَى فَمَالَا
وَمِنْ نَجْدٍ تَزُولُ غَدَاةُ زَالَا
فَقَدْ كَانَتْ تَطُولُ بِهِ اخْتِيَالَا
مِنْ الْأَحْيَاءِ أَكْرَمَهُمْ فِعَالَا

ومروان بن أبي جفصة هو جدُّ الشاعر مروان بن أبي الجنوب الذي عاصر
الخليفة المتوكل، وقد مضى على نهج جدِّه في امتداح الخلفاء العباسيين
والطعن في آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٣- سَلَمُ الْخَاسِرِ:

هو أبو عمر سلم بن عمرو بن حمَّاد بن عطاء بن ياسر، وهو من موالي تيم ابن
مرة قوم أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأمَّا سبب تلقُّبه بالخاسر فقد ذُكرت
فيه عدة روايات؛ أشهرها أنه كان قد تنسَّك مدَّةً يسيرة، ثم لم يُطَقْ حاله،
واشتاق لحياة المجون، فأخذ مصحِّقًا كان قد ورثه عن أبيه، فباعه واشترى
بثمنه طنبورًا -وقيل: بل باعه بدفتر شعر- ففعل له: ويلك؛ أفي الدنيا أحدٌ فعل

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٤٤).

ما فعلت؟! تبيع مصحفًا وتشتري بثمانه طنبورًا؟! وعُرف حينها بسلم الخاسر؛ ويقال: إنه ندم على ذلك فيما بعدُ وقال: ما تقرَّب أحد إلى إبليس بمثل ما تقرَّبْتُ إليه؛ فإني أقررتُ عينه!!؛ وفي رواية أخرى أنه ورث عن أبيه مالا فأنفقه على الشعر والأدب، ففيل له: إنك لخاسر الصفقة؛ فلُقِّب بذلك.

وكان سلم من أبرز شعراء الدولة العباسية، وقد تتلمذ على يد بشار بن برد وروى عنه، وأخذ عنه الكثير من محاسن شعره وصفاته، وزاد عليه في الخفة وطابع الرقة والليونة واللهو، ويُقال: إنَّه أخذ معيَّ من بيت بشار يقول فيه:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكُ اللَّهِجُ

فقال سلم:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِاللَّدَّةِ الْجَسُورُ

فغضب بشار وقال: ذهب -والله- بيتي؛ يأخذ المعاني التي تعبت فيها، فيكسوها ألفاظًا أخفَّ من ألفاظي، لا أرضى عنه؛ فلم يزل به رفاقه حتى رضي.

وقد اتصل سلم بالخليفة المهدي ثم الهادي ثم الرشيد، وكانت صلته وثيقة بالبرامكة وزراء الرشيد ورجال حاشيته، وكان بينه وبين مروان بن أبي حفصة تنافس على امتداح الخلفاء ونيل عطاياهم، فكان لا يقبل بصلةٍ أقلَّ منه، وقد بالغ الخلفاء العباسيون في صلته، حتى كان يقول: أنا سلم الرابع ولست الخاسر؛ ويقال: إنه مال إلى مدح بعض العلويين، فتوعَّده الخليفة المهدي، فرجع عن ذلك، ويُروى أيضًا أنه لما عقد هارون الرشيد البيعة لولده محمد الأمين؛ قال:

قَدْ بَايَعَ الثَّقَلَانِ مَهْدِيَّ الْهُدَى لِمُحَمَّدِ بْنِ زُبَيْدَةَ ابْنَةِ جَعْفَرٍ

فحشَّتْ زُبَيْدَةُ فَاهُ دُرًّا، فباعه بعشرين ألف دينار.

وكانت بينه وبين إبراهيم الموصلِي صداقة، وبينه وبين والبة بن الحباب مهاجرة، وكان معاصرًا لأبي العتاهية، وكان معجبًا بشعره ويقدمه، قائلًا عنه: أشعر

الجن والإنس؛ وكانت صلتهما حسنة، حتى قال فيه أبو العتاهية مَثَمًا إِيَّاهُ
بالمبالغة في الحرص:

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمَ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ الْحِرْصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ
هَبِ الدُّنْيَا تَصِيرُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى زَوَالِ

فغضب سلم وقال يهجوهُ مَثَمًا إِيَّاهُ بالكذب في زهده، ومخالفة فعله ما يقول؛
نظرًا إلى سعيه في التَّكْسُّبِ:

مَا أَقْبَحَ التَّزْهِيدَ مِنْ وَاعِظٍ يُزْهِدُ النَّاسَ وَلَا يَزْهَدُ
لَوْ كَانَ فِي تَزْهِيدِهِ صَادِقًا أَضْحَى وَأَمْسَى، بَيْتُهُ الْمَسْجِدُ
وَرَفَضَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَلْقَها وَلَمْ يَكُنْ يَسْعَى وَيَسْتَرْفِدُ

وقد مات سلم الخاسر نحو عام (١٨٦هـ / ٨٠٢م) في خلافة هارون الرشيد،
ويقال: إِنَّهُ خَلَفَ مَالًا مِنْ تَكْسُّبِهِ بَلَغَ سِتَّةَ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، أودعها لصديقه
أبي السمرء الغساني؛ حيث لم يكن له وريث!

وشعر سلم مليء بالرِّقَّة والرَّشَاقَة والعذوبة؛ إذ كان "أحد المطبوعين المحسنين،
وكان كثير البدائع والروائع في شعره"، وهو رقيق المعنى، عذب اللفظ، عظيم
الاستحسان والقبول من قِبَل الخلفاء والأمراء وعموم الناس، وهو يدور حول
أغراض مختلفة بين المديح والهجاء والوصف والفخر والخمر، ويبدو من خلال
شعره أنه كان يميل إلى الأوزان الخفيفة والرشيقة تماشيًا مع حالة اللُّهُو
والترُّف؛ حيث عاش مترفًا، وإن لم يصل به اللُّهُو إلى الانحراف والمبالغة في
المجون، ومن روائع شعره يمدح يحيى بن خالد البرمكي:

بَقَاءُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا جَمِيعًا إِذَا بَقِيَ الْخَلِيفَةُ وَالْوَزِيرُ
يَغَارُ عَلَى حِمَى الْإِسْلَامِ يَحْيَى إِذَا مَا ضَيَّعَ الْحَزْمُ الْغَيُورُ

١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٩٠ - ٩١)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣/ ١٣٨٢ - ١٣٨٤)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٣٥٠ - ٣٥٢)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ١٣٥ - ١٣٦).

٢ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٩١ - ٩٢).

وليس يُقَوْمُ بالإِسْلَامِ إِلَّا
 كَلَا يَوْمِيكَ مِنْ نَفْعٍ وَضُرٍّ
 وَمَا أَلْهَاكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ
 إِلَيْكَ سَبِيلُنَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ
 بَلَوْتُ النَّاسَ مِنْ عُجْمٍ وَغَرْبٍ
 فَكُلُّ الْأَمْرِ مِنْ قَوْلٍ وَفَعْلٍ
 وَفِي كَفَّيْكَ مَدْرَجَةُ الْمَنَابِيَا
 وَأَنْتَ الْعِزُّ فِي حَرْبٍ وَسَلَمٍ
 عَرَفْتَ الدَّهْرَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ

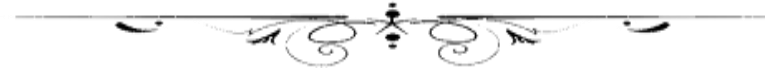
مَعَاذُ يُسْتَجَارُ وَيَسْتَجِيرُ
 يَحُوطُ جَمَاهُمَا كَرَمٌ وَخَيْرُ
 نَعِيمِ الْمُلْكِ وَالْوِطْءُ الْوَثِيرُ
 وَكُلُّ الْأَمْرِ أَنْتَ بِهِ بَصِيرُ
 فَمَا أَحَدٌ يَسِيرُ كَمَا تَسِيرُ
 إِذَا عَلِقَتْ يَدَاكَ بِهِ صَغِيرُ
 وَمِنْ جَدَّوَاهُمَا الْغَيْثُ الْمَطِيرُ
 يُضَافُ إِلَى مَنَاجِيكِ الظُّهُورِ
 فَكُلُّ الرَّأْيِ أَنْتَ بِهِ خَبِيرُ

ومما يُستحسن من شعره ما قاله للمهدي في قصيدة بديعة، جمع فيها بين التراث والحداثة؛ إذ أتى بمقدمة طल्लीة ولكن في سياق رشيق أنيق يتماشى مع روح العصر، وممّا جاء فيها!

حَيِّ الْمَنَابِرَ بِالسَّلَامِ
 لَمْ يَبْقَ مِنْكَ وَمِنْهُمْ
 وَلَقَدْ سَكِرْتُ مِنَ الْهَوَى
 فَالْقَلْبُ مضطربُ الْحَشَا
 فَإِذَا عَزَمْتَ فَأَمْضِ هَمًّا (م)
 وَدَعِ النَّوَافِخَ فِي الْبَرَى
 * * *
 أَعْلَى وَدَاعٍ أَوْ لِمَامِ
 غَيْرُ الْجُلُودِ عَلَى الْعِظَامِ
 سُكَّرَ الْغَوِيِّ مِنَ الْمُدَامِ
 وَالْعَيْنُ نَافِرَةٌ الْمَنَامِ
 كَ بَيْنَ مَحْمُودٍ وَذَامِ
 يَسْبَحُنَ فِي بَحْرِ الظَّلَامِ
 * * *

فَضَّلَ الْمُلُوكَ مُحَمَّدٌ
 فَاسْلَمَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 وَلَكَ الْمَكَارِمُ كُلُّهَا
 أَمِنَ الْحَوَادِثُ مَنْ تَعَلَّمَ (م)
 فَضَّلَ الْحَلَالَ عَلَى الْحَرَامِ
 مَنْ فَأَنْتَ رَهْنٌ بِالسَّلَامِ
 فِي دَارٍ ظَعْنٍ أَوْ مَقَامِ
 قَ ذِمَّةُ الْمَلِكِ الْهُمَامِ

١ انظر: المصدر السابق (ص ٩٣).



يا خَيْرَ مَنْ ضَمِنَتْ يَدَا هُ كَمْ فِي يَدَيْكَ مِنَ الذِّمَامِ
 كَمْ فِي يَدَيْكَ مِنَ النَّدَى وَضُرُوبِ أَلْوَانِ الْحِمَامِ
 خَوْضُ الْخَلِيفَةِ بِالنَّدَى يَشْفِي الْغَيْلَ مِنَ الْأَوَامِ
 إِنَّ الْخَلِيفَةَ فِي يَدَيْهِ ه سِجَالٌ عَفْوٍ وَانْتِقَامِ

ومن مطالعه التي قرن فيها ذكر الديار بالخمير والغانيات؟

سَأَلْتُ الدِّيَارَ وَأَطْلَأَهَا وَمَا إِنْ تُجَاوِبُ سُؤَالَهَا
 مَنَازِلُ قَدْ أَقْفَرَتْ بَعْدَنَا وَجَرَّتْ بِهَا الرِّيحُ أَذْيَالَهَا
 وَصَهْبَاءُ تَعْمَلُ فِي النَّاطِرِينَ شَرِبْتُ عَلَى الرِّيقِ سَلْسَالَهَا
 وَقَدْ كُنْتُ لِلْكَأْسِ وَالْغَانِيَاتِ إِذَا هَجَرَ الْقَوْمُ وَصَّالَهَا

٤- أبو الشَّيْصِ الخَزَاعِي:

هو محمد بن عبد الله بن رزين الخزاعي، ابن عم دعبل، وكنيته أبو جعفر ولكن غلب عليه لقب أبي الشَّيْصِ، انقطع إلى عقبة بن جعفر بن الأشعث الخزاعي وكان أميرًا على الرقة، فمدحه ونال صِلَتَهُ، وكان عقبة جوادًا فأغناه عمن سواه، وَقَدْ أ[و] الشَّيْصِ على هارون الرشيد فمدحه، ثم رثاه بعد موته، ومدح ولده محمدًا الأمين.

وأبو الشَّيْصِ شاعر بديع، أشاد به أبو نواس، وأورد له عبد الله ابن المعتز بعضًا من أشعاره؛ التي تنمُّ عن موهبته وارتقاء مستوى شعره، ولكنَّ حمل ذكره لوقوعه بين عدد من فحول عصره كمسلم بن الوليد وأبي نواس، ويبدو أنه عَمِيَ في أواخر عمره فرثى عينيه. وَيُرَوَّى أنه شرب يومًا مع عقبة حتى سكر، وبات، ودبَّ في الليل إلى الخادم، فوجَّاه بالسكين وأصابه، فقال له: ويحك؛ قتلتي!! فأما إذا وقعت فلا تفضحني ونفesk؛ فقال الخادم: وما أصنع؟ فقال:

١ كذا في الأصل، والهاء أول الشطر الثاني زائدة على وزن البيت.
 ٢ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٥/ ٢٠٠٨ - ٢٠٢٢)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣٧٣ - ٣٧٤).

هاتِ قِرَابًا فاكسره تحتي لأموت فوقه، فيقال: إنه كان سكران فوقه عليه فمات؛ ففعل ذلك، ومات أبو الشَّيْص، ولم تمضِ أيام حتى سكر الخادم ففضح نفسه، فقتله عقبة، ولعل موته كان نحو عام (١٩٦هـ/ ٨١٢م)!. وما انتهى إلينا من شعره فهو على درجة من السلاسة والخِفَّة والجودة، حافل بالصور والتشبيهات، مما يثبت بالفعل أن هذا العصر حفل بشعراء مبدعين، لم يكونوا في مصافِّ الفحول لا لِضَعْف موهبتهم؛ ولكن لِقِلَّة أخبارهم التي رُويت عنهم، وتدور أغراض شعره حول المديح والثناء والوصف والخمر والغزل، ومما يتضح فيه عمق خياله وإبداعه في تشبيهه قوله:

كَأَنَّ اطِّرَادَ الْمَاءِ فِي جَنَابَاتِهَا تَتَّبِعُ مَاءَ الدُّرِّ فِي سَبَكِ الذَّهَبِ
سَقَانِي بِهَا وَاللَّيْلُ قَدْ شَابَ رَأْسُهُ غَزَالٌ بِجِنَاءِ الزُّجَاجَةِ مُخْتَضَبٌ

ومن شعره الذي يجسد أيضًا جانبًا من إبداعه في التشبيه البياني قوله:

خَلَعَ الصَّبَا عَنْ مَنَكِبَيْهِ مَشِيبٌ فَطَوَى الذَّوَائِبَ رَأْسُهُ الْمَخْضُوبُ
نَشَرَ الْبَلَى فِي عَارِضِيهِ عَقَارِبًا بِيضًا لَهَنَ عَلَى الْقُرُونِ دَبِيبُ

وقال يصف الخمر، في خِفَّة ورشاقة:

نَهَى عَنِ خِلَّةِ الْخَمْرِ بِيَاضٌ لَاحَ فِي الشَّعْرِ
وَقَدْ أَغْدُو وَعَيْنُ الشَّمِّ سِي فِي أَثَوَابِهَا الصُّفْرِ
عَلَى جَرْدَاءِ قَبَاءِ الْـ حَشَا مُلْهَبَةِ الْخُضْرِ
بَسَيفٍ صَارِمِ الْخَدِّ وَزِقٍ أَحَدَبِ الظَّهْرِ
وَضَبِي يَعْطِفُ الْأُزْرَ وَيُنْثِيهَا عَلَى الْخُضْرِ

١ انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٦/ ٢٧٩ - ٢٨٦)؛ طبقات الشعراء، ابن المعتز (٦٤ - ٧٧)؛ تاريخ الأدب العربي، عمرو فروح (٣/ ١٤٨).

٢ طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٧٢).

٣ المصدر السابق (ص ٦٨).

٤ المصدر السابق.

٥ قباء: دقيقة الخضر. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/ ٦٥٨)، الخضر: هو شدة العَدْو.

انظر: لسان العرب (٤/ ٢٠١).

عَلَى أَلْطَفٍ مَا شَدَّتْ
 مَهَاةٌ تَرْتَمِي الْأَلْبَا
 لَهَا طَرْفٌ يَشُوبُ الْخَمَ
 عَفِيفُ اللَّحْظِ وَالْأَعْضَا
 عَلَى عِذَاءٍ لَمْ تُفْتَقِ
 عَجُوزٌ نَسَجَ الْمَاءُ
 كَأَنَّ الذَّهَبَ الْأَحْمَ
 عَلَيْهِ عُقْدَ الْأُزْرِ
 بَ عَنْ قَوْسٍ مِنَ السِّحْرِ
 رَ لِلنُّدْمَانِ بِالْخَمْرِ
 فِي الصَّحْوِ وَفِي السُّكْرِ
 بِنَارٍ لَا وَلَا قِذْرِ
 لَهَا طَوْقًا مِنَ الشُّذْرِ
 رَ فِي حَافَاتِهَا يَجْرِي

ومن روائعه!

يَا دَارَ مَا لَكَ لَيْسَ فِيكَ أَنْيْسُ
 الدَّهْرُ غَالِكِ أَمْ عَرَكَ مِنَ الْبَلَى
 مَا كَانَ أَخْصَبَ عَيْشَنَا بِكَ مَرَّةً
 فَسَقَاكِ يَا دَارَ الْبَلَى مَتَجَرَّفَ
 دَارٌ جَلَا عَنْهَا النَّعِيمُ فَرَبْعُهَا
 طَلَّ مَحَتْ آيُ السَّمَاءِ رُسُومُهُ
 مَا اسْتَحْلَبَتْ عَيْنُكَ إِلَّا دِمْنَةً
 وَمُخَيِّسٌ فِي الدَّارِ يَنْدُبُ أَهْلَهُ
 أَنْسُ الْوُحُوشِ بِهَا فَلَيْسَ بِرَبْعِهَا
 رُبْعٌ تَرَبَّعَ فِي جَوَانِبِهِ الْبَلَى
 يَدْعُو الصَّدَى فِي جَوْفِهِ فَيُجِيبُهُ
 وَلَزَبَمَا جَرَّ الصَّبَا لِي ذَيْلُهُ
 إِلَّا مَعَالِمُ آيُهُنَّ دُرُوسُ
 بَعْدَ النَّعِيمِ خُشُونَةٌ وَيُبْسُ
 أَيَّامُ رَبْعِكَ أَهْلٌ مَأْنُوسُ
 فِيهِ الرَّوَاعِدُ وَالْبُرُوقُ هُجُوسُ
 خَلَقَ تَمُرٌ بِهِ الرِّيحُ يَبِيسُ
 فَكَأَنَّ بَاقِي مَحْوِهِنَّ دُرُوسُ
 وَمُخَرَّبٌ عَنْهُ الشَّرَى مَنُكُوسُ
 رَثُّ الْقِلَادَةِ فِي التُّرَابِ دَسِيسُ
 إِلَّا النَّعَامُ تَزُودُهُ وَتُخُوسُ
 وَعَقَتْ مَعَالِمُهُ فَهِنَّ طُمُوسُ
 رَبَدُ النَّعَامِ كَأَنَّهُنَّ قُسُوسُ
 فِيهِ وَفِيهِ مَأْلَفٌ وَأَنْيْسُ

٥- علي بن يحيى المنجم:

هو أبو الحسن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم، كان أبوه يحيى من خلصاء المأمون، وهو أول من دخل من آل المنجم في خدمة الخلفاء، وقد نادى عليُّ الخليفة المتوكل، وظل نديمًا لمن جاء بعده من الخلفاء العباسيين وذا حظوة ومكانة عندهم، حتى مات نحو سنة (٢٧٥ م / ٨٨٨ م) في خلافة المعتمد، ودُفِن في سامراء، وكان علي بن يحيى المنجم حسن المروءة مُمدِّحًا، وكان وافر العلم والأدب، أخذ العلم عن جماعة من العلماء؛ منهم إسحاق بن إبراهيم، وكان على صلة بالفتح بن خاقان نديم المتوكل؛ الذي كثيرًا ما استكتبه فعمل له خزانة كتب أكثرها من الحكمة، وله تصانيف مختلفة مثل: كتاب الشعراء القدماء والإسلاميين، وكتاب أخبار إسحاق بن إبراهيم، وكتاب الطبخ، وله شعر حسن؛ كقوله في الطيف:

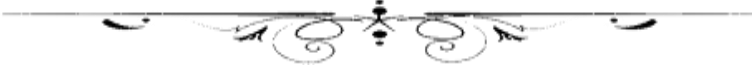
بأبي -والله- مَنْ طَرَقَا	كابتِسامِ البرقِ إذ خَفَقَا
زادني شوقًا بزورتيه	وملا قلبي به خرقا
مَنْ لِقَلْبِ هَائِمٍ دَنَفِ	كَلَمًا سُلَيْثُهُ فَلَقَا
زارني طيفُ الحبيبِ فما	زاد أن أغرى بي الأرقا

وقال يمدح الفتح بن خاقان:

سأختارُ من حرِّ الكلامِ قصيدةً	لَفَتْحِ بنِ خاقانٍ تُفوقُ القصائدَا
يَلْدُ بأفواهِ الرُّوَاةِ نشيدها	ويشأنُ بها مَنْ كانَ للفتحِ حاسدا
لَعَمْرُكَ إِنَّ الفَتْحَ مُدٌّ كَانَ يافِعَا	لِيسْمُو إلى أعلى دُرِّ المجدِ صاعدا
قَرِيعُ المَوالِي ساد في خمسِ عشرةً	مَوالِي بني العباسِ لَمْ يُبْقِ واحدا
وبَذَهُمْ طُرًّا نَدَى وشِجَاعَةً	فألقوا إليه مُذْعِنِينَ المَقَالِدَا

١ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ٣٧٤).

٢ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٥/ ٢٠١٩).



ومن شعراء البلاط الذين مدحوا الوزراء والولاة والقادة: أبو محمد عبد الله ابن
أيوب التيمي، وعلي بن جبلة، وأبو يعقوب إسحاق بن حسان الخريمي، وأبو علي
البصير، وأحمد بن أبي طاهر!

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٣٤١ - ٣٥٨) و(٤/ ٤١١ - ٤٢٧).

ثانيًا: شعراء البرامكة

(نصيب الأصغر- أشجع بن عمرو السلمي- أبان بن عبد الحميد

اللاحقي- الفضل بن عبد الصمد الرقاشي)

ذكرنا فيما سبق أنَّ العباسيين منذ بدء دعوتهم قد اعتمدوا على العنصر الفارسي في نشر دعوتهم وقيام دولتهم، ولما قامت الدولة العباسية اصطنعهم الخلفاء العباسيون ومنحوهم مناصبَ عُليا في الدولة، واستعملوهم في الوزارة والولاية، ومن أشهر الأُسَر الفارسية التي كان لها شأن في الخلافة العباسية أسرة البرامكة.

والبرامكة هم أسرة فارسية الأصل، تُنسَب إلى جدِّها "برمك" أحد سدنة معابد الفرس، ولا يُدرى أأسلم أم بقي على مجوسيّته، بينما كان ولده خالد بن برمك أحد رجال الدعوة العباسية في خراسان، ويبدو أنه كان ذا سياسة ودراية وموضع ثقةٍ لدى الخلافة، فاستوزره أبو العبَّاس السَّقَّاح وأقرَّه على بعض الدواوين، ثم استعمله أبو جعفر المنصور على الموصل فبقي على ولايتها حتى تُوِّفِّي أوائل خلافة المهدي، وكان ولده يحيى بن خالد بن برمك أوحد عصره علمًا وأدبًا وفضلًا وسياسةً وبصارةً بالأمور، وقد أحسن أبوه تربيته وتأديبه، وولَّاه المنصور على أذربيجان فبقي فيها حتى استدعاه المهدي أول خلافته إلى بغداد وعهد إليه بتربية وتأديب ولده هارون الرشيد، فكان مدبِّرًا لشؤونه وكاتبًا له، وقد أحسن تأديب الرشيد حتى صار عنده ذا منزلة عالية، وكان هارون الرشيد يخاطبه بأبي، وكان يستشيرَه في كل أموره، ولما أراد الخليفة الهادي نزع أخيه هارون الرشيد عن ولاية العهد كان ليحيى البرمكي دورٌ في تعطيل مخطَّطه حتى مات الهادي دون أن يحقِّق مبتغاه.

ولما تولى الخلافة هارون الرشيد استوزر يحيى بن خالد البرمكي وبذل إليه خاتم الخلافة، وفوَّض إليه أمور دولته وجعل إليه شؤون العزل والولاية، فقام على تدبير أمور دولته خير قيام.

وكان ليحيى البرمكي أولاد؛ أكبرهم الفضل وكان كريماً جواداً ممدحاً، اعتنى به أبوه حتى صار ذا كفاءة وسياسة، وكان ينوب عن أبيه في أعماله، وقد استعمله هارون الرشيد على خراسان وبعض نواحي فارس، فقام على إمارته خير قيام، وكانت له عدة غزوات وإصلاحات، وقضى على ثورة يحيى بن عبدالله الطَّالبي سلمًا دون إراقة قطرة دم، وأقنعه بتسليم نفسه مقابل الأمان فكان كذلك، فعظمت منزلته عند الرشيد وقَدَّر له ذلك.

وأما ولده جعفر فكان أقرب أبناء أبيه إلى قلب الرشيد؛ إذ كان يأنس به ويرافقه في مجالسه وأنسه، وكان أخوه الفضل أعلى رتبة، لكن كان جعفر أحظى عند الرشيد وأخصَّ؛ لِلين طبعه، وقد ولَّاه الرشيد على مصر والشام، فكان يوليَّ عليهما ويعزل من يشاء، وكان له دور في إخماد فتنة العصبية القَبَلِيَّة بالشام، وكان آيةً في الجود والكرم والسخاء، وكان أديبًا وكاتبًا بليغًا، وكان الرشيد أخاه من الرضاة؛ فقد أرضعته زوجة يحيى البرمكي.

وهكذا بلغ البرامكة قدرًا عظيمًا في الدولة؛ إذ صار لهم زمام الأمور، وأسندت لهم مهام الوزارة والدواوين، وكانوا على قدرٍ عالٍ من السخاء والجود والكرم، فارتقت منزلتهم حتى قصدهم الشعراء فمدحوهم، ووفد عليهم الأدباء والكتَّاب وأصحاب الحاجات، وكان لهم بجانب السياسة دورٌ بارز في إثراء النهضة العلمية والحركة الأدبية؛ إذ شجعوا أعمال التدوين والترجمة، وقرَّبوا الأدباء والعلماء والفقهاء والكتَّاب فوصلوهم وشجَّعوهم، ولهم في ذلك آثار جلييلة.

وبقي البرامكة على هذه الحال من العزَّة والمنعة نحو سبعة عشر عامًا، لكن دوام الحال من المحال، وكان من الطبيعي لتلك المنزلة السامية التي نالها البرامكة في عصر هارون الرشيد أن يحقد عليهم أصحاب المطامع والخصومات، فكثرت بحقِّهم الوشائيات والدسائس، وكان البرامكة قد وضعوا أيادهم بالفعل على مفاصل الدولة، فبدأ الرشيد يتوجَّس منهم، ومهاب علو نفوذهم، ويخشاهم على مُلكه، ومن جهة أخرى فقد أعان البرامكة بأنفسهم أصحاب المطامع والدسائس عليهم؛ إذ استأثروا بالرشيد حتى صار لا يُدخَل عليه إلا بموافقتهم،

فِيَدْخُلُونَ عَلَيْهِ مِنْ يَشَاؤُونَ، وَيَحْجِبُونَ عَنْهُ مِنْ يَشَاؤُونَ، وَلَمَّا جَعَلَ الرَّشِيدُ
وَلَايَةَ الْعَهْدِ لَوْلَدِهِ الْأَمِينِ؛ دَفَعَهُ الْبِرَامِكَةَ إِلَى جَعْلِ الْوَلَايَةِ مِنْ بَعْدِهِ لَوْلَدِهِ
الْمَأْمُونِ، وَكَانُوا مُتَعَاطِفِينَ مَعَهُ؛ كَوْنِ أُمِّهِ فَارَسِيَّةَ، وَحَرَضُوهُ عَلَى إِعْطَائِهِ
صَلَاحِيَّاتٍ وَاسِعَةً؛ نَكَايَةً بِالْأَمِينِ، وَكَانَ يَتَزَعَّمُ الدَّسَائِسَ عَلَيْهِمْ خَصْمَهُمُ الْفَضْلُ
بَنَ الرَّبِيعِ حَاجِبِ الرَّشِيدِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى زُبَيْدَةَ زَوْجَةِ الرَّشِيدِ وَقَدْ غَاضَبَهَا اهْتِمَامُ
الْبِرَامِكَةِ بِالْمَأْمُونِ وَإِهْمَالِهِمْ لَوْلَدِهَا الْأَمِينِ، وَشَكَتْ تَضْيِيقَ خَالِدِ الْبِرْمَكِيِّ فِي
النَّفَقَةِ عَلَى عِيَالِ الرَّشِيدِ، فَكَثُرَتِ الْوِشَايَاتُ بِحَقِّهِمْ حَتَّى بَدَأَ الرَّشِيدُ يَتَغَيَّرُ
عَلَيْهِمْ، وَقَامَ بِفَعْلِ الْوِشَايَةِ بِاعْتِقَالِ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الطَّالِبِيِّ رَغْمَ أَمَانِ
الْبِرَامِكَةِ لَهُ، وَكَانَ هَذَا أَوَّلَ صَدَامٍ لَهُمْ مَعَ الرَّشِيدِ؛ إِذْ اجْتَهَدُوا فِي تَخْلِيصِهِ،
وَأَطْلَقَهُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى مِنْ مَحْبَسِهِ، كَمَا أَنْكَرَ الرَّشِيدُ عَلَى جَعْفَرٍ عِدَّةَ أُمُورٍ،
وَمَا لَبِثَ أَنْ انْقَلَبَ عَلَيْهِمْ فَنَكَبَهُمْ جَمِيعًا، وَقَتَلَ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى، وَسَجَنَ أَبَاهُ
يَحْيَى الْبِرْمَكِيَّ مَعَ ابْنِهِ الْفَضْلِ، وَقَدْ أَمَرَ الرَّشِيدُ بِجُلْدِهِ مِئَةَ جُلْدَةٍ، وَصَادَرَ
أَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَمَمْتَلَكَاتِهِمْ، بَيْنَمَا اسْتَنَى مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، وَكَانَتْ نَكَبَتُهُمْ
نَحْوَ عَامِ (١٨٧هـ / ٨٠٢م) عَلَى نَحْوِ مِثَالِهِ لَمَّا جَرَى لِلْمِهَالِبَةِ زَمَنُ بَنِي أُمِيَّةَ،
فَضْرَبَ بِنَبْكِهِمُ الْمَثَلَ، وَلَمْ يَكْتَفِ الرَّشِيدُ بِذَلِكَ؛ بَلْ تَعَقَّبَ أَنْصَارَهُمْ
وَالْمُتَعَاطِفِينَ مَعَهُمْ، وَمَنَعَ الشَّعْرَاءَ مِنْ رِثَائِهِمْ، وَبَقُوا فِي السَّجَنِ حَتَّى هَلَكَ يَحْيَى
عَامَ (١٩٠هـ / ٨٠٥م)، وَمِنْ بَعْدِهِ وَلَدَهُ الْفَضْلُ نَحْوَ عَامِ (١٩٣هـ / ٨٠٥م) قَبْلَ
أَشْهَرٍ مِنْ مَوْتِ هَارُونَ الرَّشِيدِ!

وَنَظَرًا إِلَى عُلُوِّ مَنَزَلَةِ الْبِرَامِكَةِ، وَمَا بَذَلُوهُ مِنْ تَشْجِيعِ النِّهْضَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ،
وَمَا قَامُوا بِهِ مِنْ تَقْرِيبِ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ وَالشَّعْرَاءِ، وَمَا عُرِفُوا بِهِ مِنَ الْكِرَمِ
وَالْجُودِ؛ فَقَدْ صَارُوا قِبْلَةً لِلشَّعْرَاءِ الَّذِينَ تَكَاثَرُوا عَلَى بَاهِهِمْ مِنْ كُلِّ فِجٍّ وَصُوبٍ،
فَصَارُوا مَمْدَحِينَ لَدَيْهِمْ، وَمَدَحَهُمُ الْعَدِيدُ مِنَ الشَّعْرَاءِ كَسَلَمِ الْخَاسِرِ وَمُرْوَانَ
ابْنَ أَبِي حَفْصَةَ وَمُسْلِمَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَمِنَ الشَّعْرَاءِ مَنْ اخْتَصَوْا بِهِمْ وَانْقَطَعُوا لَهُمْ

^١ انظر: تهذيب البداية والنهاية لابن كثير، إعداد: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم (٣/ ١٣١٣-
١٣١٥ و ١٣٢٣ و ١٣٣٨).

خاصة وصاروا في عداد حاشيتهم؛ مثل أبان بن عبد الحميد اللاحقي ونُصيب الأصغر وابن منذر وأبي قابوس الحيري النصراني، ورغم أن الرشيد منع الشعراء من رثائهم فقد خرجت بحقهم عدة مرثي، فرثاهم عدد من الشعراء؛ منهم منصور النمري والفضل بن عبد الصمد الرقاشي؛ ومن أبرز الشعراء الذين اختصوا بالبرامكة ومدحهم:

١- نُصيب الأصغر:

هو عبدُ أسود زنجي نشأ في اليمامة، اشترى للمهدي وأُتي به إليه في حياة أبيه، فلمَّا سمع شعره أُعجب به قائلاً: والله ما هو بدون نُصيب مولى بني مروان؛ فأعتقه وزوجه أمةً له يُقال لها جعفره، وكناه أبا الوجناء، وأقطعه ضيعة بالسَّواد، ويُقال: إنه أرسله إلى اليمن لشراء إبل مهيبة، فأتلف المال في أكله وشربه وجواريه، فلمَّا نعى ذلك إلى المهدي أمر بحبسه وحمله إليه مقيداً، فلمَّا دخل على المهدي مقيداً تشفّع له بشعره وقال:

تَأَوَّبَنِي ثِقْلٌ مِّنَ الْهَمِّ مُوجِعٌ	فَأَرْقَ عَيْنِي وَالْخَلِيُّونَ هُجِعٌ
هَمُومٌ تَوَالَتْ لَوْ أَطَافَ بِسِيرِهَا	بِسَلَمَى لَظَلَّتْ شُمُّهَا تَتَصَدَّعُ
وَلَكِنَّهَا نَيْطَتْ فَنَاءَ بِحَمْلِهَا	جَهِيرُ الْمَنَايَا حَائِنُ النَّفْسِ مُجَزِعُ
وَعَادَتْ بِلَادُ اللَّهِ ظُلُمَاءَ حِنْدَسَا	فَخِلْتُ دُجَى ظُلُمَائِهَا لَا تَقْشَعُ
إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ أَجِدْ	سِوَاكَ مُجِيرًا مِنْكَ يُدْنِي وَيَمْنَعُ
تَلَمَّسْتُ هَلْ مِنْ شَافِعٍ لِّي فَلَمْ أَجِدْ	سِوَى رَحْمَةٍ أَعْطَاكَهَا اللَّهُ تَشْفَعُ
لِنَنْ جَلَّتِ الْأَجْرَامُ مِنِّي وَأَفْطَعَتْ	لِعَفْوِكَ عَنْ جُرْمِي أَجَلٌ وَأَوْسَعُ
وَإِنِّي لَمَوْلَاكَ الَّذِي إِنْ جَفَوْتَهُ	أَتَى مَسْتَكِنًا رَاهِبًا يَتَضَرَّعُ
وَإِنِّي لَمَوْلَاكَ الضَّعِيفُ فَأَعْفِنِي	فَإِنِّي لِعَفْوِكَ مِنْكَ أَهْلٌ وَمَوْضِعُ

فعفا عنه المهدي وفكَّ قيده ووصله.

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٣٢٦ - ٣٣٠).

^٢ الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (١٨-١٧/٢٣)

ولُنْصِيب أخبار عديدة، وقد استعمله هارون الرشيد على بعض كور الشام، وكان يقدِّمه على أكثر شعرائه، ويتَّصف ما انتبى إلينا من شعره بالفخامة وقوة الأسلوب وجودة اللفظ والمعنى، مع غلبة الأسلوب القديم عليه، وقد غلب المديح على شعره؛ إذ كان من المتكسِّبين بشعرهم؛ حيث مدح المهدي وهارون الرشيد وعدداً من قادته؛ كثمالة بن الوليد العبسي وأخيه شيبة، وخزيمة ابن حازم، وإسحاق بن الصباح، ومدح حاكم صنعاء عبد الله بن محمد بن الأشعث فلم يُثبِّه، فهجاه هجاء مُراً.

ومن مديحه لهارون الرشيد قوله:

وما زادك العهد الذي نلت بسطةً
وريتُ رسول الله عُصواً ومفصلاً
إذا ما دهتُنا من زمانٍ مُلمَّةً
على ثقةٍ منا نحنُ قلوبنا
ولكن بتقوى الله أنت مُسرَّبٌ
وذا من رسول الله عضوٌ ومفصلٌ
فليس لنا إلا عليك المَعوَّلُ
إليك كما كنَّا أباك نُؤمِّلُ

وقال يمدح زُبيدة بنت جعفر زوجة هارون الرشيد، في موسم الحج:

بئو هاشم زين البرية كلها
سليلاً أملاك تفرغت الذرا
فوالله ما ندري أفضل حديثها
وأتم ولي العهد زين لهاشم
كرام لأبناء الملوك الأكرام
عليهم به تسمو أم المتقادم

فاستحسنتها زُبيدة ووصلته بعشرة آلاف درهم وفرس.

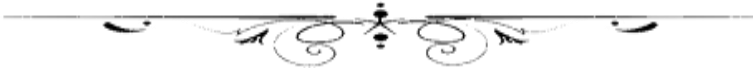
ونُصِيب من الشعراء الذين انقطعوا إلى البرامكة، فقدَّموه وبالغوا في إكرامه، ويروى أنه دخل على الفضل بن يحيى البرمكي فوجد عنده عدداً من الشعراء ينشدونه، ولم يكن قد أعدَّ شيئاً، فأخذ يرتب في نفسه قولاً، ثم أنشده مطوَّلةً:

والبرمكي إذا تقارب سنُّه
أو باعدته السنُّ فهو نجيب

^١ المصدر السابق (١٧/٢٣).

^٢ المصدر السابق (٢٣/٢٧).

^٣ المصدر السابق (٢٣/٢٥).



خَرِقُ العَطَاءِ إِذَا اسْتَهَلَّ عَطَاؤُهُ لَا مُتْبِعُ مَنَّا وَلَا مَحْسُوبُ
يَا آلَ بَرْمَكٍ مَا رَأَيْنَا مِثْلَكُمْ مَا مِنْكُمْ إِلَّا أَغْرُ وَهُوبُ
وَإِذَا بَدَا الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى هَبْتُهُ لَجَالِهِ إِنَّ الْجَلِيلَ مَهْيَبُ
قَادَ الْجِيَادَ إِلَى الْعِدَى وَكَأَنَّهَا رَجُلُ الْجَرَادِ تَسْوِفُهُنَّ جَنُوبُ
حَتَّى صَبَحَنَ الطَّالِبِيَّ بِعَارِضٍ فِيهِ الْمَنَايَا تَغْتَدِي وَتَوُوبُ
خَافَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَا خَوْفَتُهُ فَجَفَاكَ ثُمَّ أَنْكَ وَهُوَ مُنِيبُ
وَلَقَدْ رَأَى الْمَوْتَ إِلَّا أَنَّهُ بِالظَّنِّ يُخْطِئُ مَرَّةً وَيُصِيبُ
فاستحسنها الفضل وأمر له بثلاثين ألف درهم، ومن مديحه فيه أيضًا قصيدة
بديعة طويلة؛ منها:

عِنْدَ الْمُلُوكِ مَضَرَّةٌ وَمَنَافِعُ وَأَرَى الْبَرَامِكَ لَا تَضُرُّ وَتَنْفَعُ
إِنَّ الْعُرُوقَ إِذَا اسْتَسَرَّ بِهَا الثَّرَى أَشَرَ النَّبَاتِ بِهَا وَطَابَ الْمَزْرَعُ
فَإِذَا جَهَلْتَ مِنْ أَمْرِي أَعْرَاقُهُ وَقَدِيمُهُ فَاَنْظُرْ إِلَى مَا يَصْنَعُ

وقد أعجب الفضل بتلك الأبيات حتى إنه استقلَّ عطاءه الذي وصله به، وقال
لجلسائه: إذا قلتُم؛ قولوا مثل هذه الأبيات، وإذا مدحتُم فامدحوا بمثل هذا
الشعر؛ وكان نصيب يصف فيض كرمه قائلاً:

مَا لَقِينَا مِنْ جُودِ فَضْلِ بْنِ يَحْيَى تَرَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ شُعْرَاءَ

وبجانب المديح فقد أجاد نصيب في الغزل والهجاء والوصف، وقد ورد له في
كتاب الأغاني للأصفهاني وطبقات الشعراء لابن المعتز ما يُستدل منه على جودة
شعره، وكانت ابنته الحجناء شاعرة محسنة، وأنشدت بعض شعرها أمام
المهدي وابنته العباسة أخت الرشيد فأمر لها بعطاء وصلة، ومات نصيب عام
(١٧٥هـ/ ٧٩١م)، وقيل: بل عام (١٩٠هـ/ ٨٠٥م).

^١ المصدر السابق (٣٢/ ٢٣)، طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ١٤٢).

^٢ الأغاني، الأصفهاني (٣٢/ ٢٣).

^٣ انظر: طبقات الشعراء. ابن المعتز (ص ١٤١- ١٤٣)؛ الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني
(٣٢/ ١٦- ٢٣)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ١١٧).

٢- أشجع بن عمرو السُّلَمي:

هو أبو الوليد أشجع بن عمرو السُّلَمي، كان أبوه من أهل البصرة، فعلق بامرأة من أهل اليمامة وتزوَّجها وانتقل معها ليعيشا في اليمامة، فولدت له أشجع، ثم مات عمرو فانتقلت أم أشجع إلى البصرة لتعيش في مال زوجها، ولكن ما لبثت أن تُوفِّيت هي الأخرى فنشأ أشجع يتيماً، ولكنَّه استطاع أن يتأدَّب على نفر من علماء البصرة، وأتقن الشعر وأراد أن يتكسَّب به، فاتصل بجعفر ولد المنصور ومدحه، ثم ما لبث أن اتصل البرامكة وعلى الأخص بجعفر بن يحيى فمدحه، واستحسن جعفر شعره ووصله وقرَّبه حتى صار من خالصائه، ثم وصله بهارون الرشيد فمدحه، ويقال: إنه كان رديء المنظر، قبيح الوجه، وكان على قلب الرشيد ثقیلاً من بين الشعراء، فدخل عليه يوماً فاستأذنه في الإنشاد فقال:

قَصُرَ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ	نَثَرْتُ عَلَيْهِ جَمَالَهَا أَيَّامٌ
قَصُرَتْ سُقُوفُ الْمَزْنِ دُونَ سُقُوفِهِ	فِيهِ لِأَعْلَامِ الْهُدَى أَعْلَامٌ
تُثْنِي عَلَى أَيَّامِكَ الْأَيَّامُ	وَالشَّاهِدَانِ الْحِلُّ وَالْإِحْرَامُ
أَذْنَتِكَ مِنْ ظِلِّ النَّبِيِّ وَصِيَّةٌ	وَقَرَابَةٌ وَشَجَتْ بِهَا الْأَرْحَامُ
بَرَقَتْ سَمَاوُكَ فِي الْعَدْوِ وَأَمْطَرَتْ	هَامًّا لَهَا ظِلُّ السُّيُوفِ غَمَامٌ
وَإِذَا سُيُوفُكَ صَافَحَتْ هَامَ الْعَدَى	طَارَتْ لَهْنٌ عَنِ الرُّؤُوسِ الْهَامُ
وَعَلَى عَدْوِكَ يَا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ	رَصْدَانِ ضَوْءِ الصُّبْحِ وَالْإِظْلَامُ
فَإِذَا تَنَبَّهَ رُعْتَهُ وَإِذَا غَفَا	سَلَّتْ عَلَيْهِ سُيُوفُكَ الْأَحْلَامُ

فاستحسن هارون الرشيد شعره وقال: هذا -والله- المدح الجيد والمعنى الصحيح، لا ما علَّلتُ به مسامعي هذا اليوم!!، ويقال: إنه قال له ذات مرة: يا أشجع؛ لقد دخلت إليَّ وأنت أثقلُ الناس على قلبي، وإنَّكَ لتخرج من عندي وأنت أحبُّ الناس إليَّ.

^١ الأغاني، الأصفهاني (١٨/ ١٥٤ - ١٥٥).

وَيَسْتَحْسِنُ مِنْ شَعْرِهِ قَوْلَهُ فِي الرَّشِيدِ أَيْضًا!

إِلَى مَلِكٍ يَسْتَغْرِقُ الْمَالَ جُودُهُ مَكَارِمُهُ نُثْرٌ وَمَعْرُوفُهُ سَكْبُ
وَمَا زَالَ هَارُونُ الرِّضَا بْنُ مُحَمَّدٍ لَهُ مِنْ مِيَاهِ النَّصْرِ مَشْرَبُهَا الْعَذْبُ
مَتَى تَبْلُغِ الْعَيْسُ الْمَرَاسِيلُ بَابَهُ بِنَا فَهَنَّاكَ الرَّحْبُ وَالْمَنْزِلُ الرَّحْبُ
لَقَدْ جُمِعَتْ فِيكَ الظُّنُونُ وَلَمْ يَكُنْ بِغَيْرِكَ ظَنٌّ يَسْتَرِيحُ لَهُ الْقَلْبُ
جَمِعْتَ ذَوِي الْأَهْوَاءِ حَتَّى كَانَتْهُمْ عَلَى مَنَهِجٍ بَعْدَ افْتِرَاقِهِمْ رَكْبُ
بَنَيْتَ عَلَى الْأَعْدَاءِ أَبْنَاءَ ذُرِّيَّةٍ فَلَمْ يَقِهِمْ مِنْهُمْ حُصُونٌ وَلَا دَرْبُ
وَمَا زِلْتَ تَرْمِيهِمْ بِهِمْ مَتَفَرِّدًا أَنْيَسَاكَ حَزْمُ الرَّأْيِ وَالصَّارِمُ الْعَضْبُ
جَهْدْتُ فَلَمْ أَبْلُغْ غُلَاكَ بِمِدْحَةٍ وَلَيْسَ عَلَى مَنْ كَانَ مَجْتَهِدًا عَثْبُ

ويُذَكِّرُ أَنْ أَشْجَعَ تَرَكَ التَّشْيِيبَ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ وَأَنْشَدَهُ مِنْ مَوْضِعِ الْمَدِيحِ؛
خَوْفًا مِنْ أَنْ تَدْرِكَهُ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ، فَيَفُوتَهُ الْمَدِيحُ، فَضَحَكَ الرَّشِيدُ لَذَلِكَ وَأَمَرَهُ
أَنْ يَنْشُدَهُ التَّشْيِيبَ فَأَنْشَدَهُ، وَكَانَ مَطْلَعُ قَصِيدَتِهِ:

تَذَكَّرَ عَهْدَ الْبَيْضِ وَهُوَ لَهَا تَرَبُّ وَأَيَّامَ يُضْبِي الْغَانِيَاتِ وَلَا يَصْبُو

وقد لزم أشجع جعفر بن يحيى البرمكي وأخذ يمدحه وينال صِلَتَهُ، وقد ولَّاهُ
بعض أعماله، فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ بَعْضُ الشُّكَاوَى ضَدَّهُ فَعَزَلَهُ، وَمِمَّا قَالَ فِي مَدِيحِهِ:

إِلَى جَعْفَرٍ نَزَعْتُ رَغْبَةً وَأَيُّ فِتْنَى نَحْوَهُ تَنْزِعُ
فَمَا دُونَهُ لَامَرِيٍّ مَطْمَعُ وَلَا بَامَرِيٍّ غَيْرِهِ مَقْنَعُ
وَلَا يَرْفَعُ النَّاسُ مِنْ حَطِّهِ وَلَا يَضْعَوْنَ الَّذِي يَرْفَعُ
يُرِيدُ الْمُلُوكُ مَدَى جَعْفَرٍ وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا تَصْنَعُ
وَلَيْسَ بِأَوْسَعِهِمْ فِي الْغِنَى وَلَكِنْ مَعْرُوفُهُ أَوْسَعُ
تَلُوذُ الْمُلُوكُ بِآرَائِهِ إِذَا نَالَهَا الْحَدَثُ الْأَفْظَعُ
بَدِيهَتُهُ مِثْلُ تَدْبِيرِهِ مَتَى رُمَتْهُ فَهُوَ مُسْتَجْمَعُ

^١ المصدر السابق (١٨ / ١٥٤).

^٢ المصدر السابق (١٨ / ١٦٣).

وقال فيه كذلك!

فَفِي كَفِّهِ لِلْغَنَى مَطْلَبٌ وَلِلسِّرِّ فِي صَدْرِهِ أَوْسَعُ
غَدَا فِي ظِلَالِ نَدَى جَعْفَرٍ يَجُرُّ ثِيَابَ الْغَنَى أَشْجَعُ

وقد مدح أشجع عددًا من كتّاب البرامكة وأصحابهم؛ مثل الكاتب إسماعيل ابن صُبَيْح ومحمد بن منصور بن زياد، ولقيته المبارك مؤدب الفضل بن يحيى فقال: ما يمنعك من الفضل؟ فقال: ومن لي بالفضل؟ فأدخله عليه، فقال:

وَمَا قَدَّمَ الْفَضْلَ بَنَ يَحْيَى مَكَائَهُ عَلَى غَيْرِهِ بَلْ قَدَّمْتُهُ الْمَكَارِمُ
لَقَدْ أَرْهَبَ الْأَعْدَادَ حَتَّى كَأَنَّمَا عَلَى كُلِّ ثَغْرِ بِالْمَنْيَةِ قَائِمُ

فقال له: كم أعطاك جعفر؟ فقال: عشرة آلاف درهم؛ فأعطاه عشرين ألفًا، وكان الفضل على صرامته وحدة طبعة أجود من أخيه جعفر.

وقد ظل أشجع على صلة بالرشيد ورجاله حتى بعد مهلك البرامكة؛ إذ مدح الفضل بن الربيع وعزّاه في ولد له، وهو الذي وصله بالرشيد بعد مهلك البرامكة، وامتدح هارون الرشيد وذكر بعض وقائعه وانتصاراته الحربية، وعزّاه في ولد له أيضًا، ووصلته زُبَيْدة زوجة الرشيد لامتداحه ولدها الأمين رغم صغر سنّه، وكان أشجع يجيد المديح والثناء والتعزية والهجاء والنسيب، وشعره رائع السبك، جيد القريحة، غزير المعنى، يمضي في لفظ جزل وتركيب قوي، وله قصائد جيد، وربما كان موته عام (١٩٥هـ/ ٨١٠م) أو عام (١٩٨هـ/ ٨١٣م) وهو الأرجح؛ استنادًا لبَيْتِ رُوِيَ عنه يذكر مقتل الخليفة الأمين صبرًا على يد طاهر ابن الحسين، ولعلّه مات بعدها بقليل!

^١ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ١٤٥).
^٢ انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٨/ ١٥٣ - ١٨٥)؛ طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٩٩ - ٢٣١)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ١٤٤ - ١٤٥)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٣٣٥ - ٣٤٠).

٣- أبان بن عبد الحميد اللّاحقي:

هو أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير مولى بني رقاش، قال عنه ابن المعتز: "كان أبان اللّاحقي شاعراً أديباً، عالماً، ظريفاً منطقيّاً، مطبوعاً على الشعر، مقتدرّاً عليه، يقتضب الخطب، ويرسل الرسائل الجياد"، كان منشؤه بالبصرة، فانتقل إلى بغداد نحو عام (١٨٠هـ / ١٩٦م)، فأتصل بالبرامكة ومدحهم، ثم طلب منهم أن يوصلوه إلى الرشيد، لكنهم قالوا له بأن الرشيد لا يرتاح إلى شاعر إلا إذا كان فيه ميلٌ على آل أبي طالب؛ فنظم قصيدة يقدّم فيها بني العبّاس، وأدخل على الرشيد فأنشده قائلاً:

أَعْمُ بِمَا قَدْ قَلْتُهُ الْعُجْمَ وَالْعَرَبَ	نَشَدْتُ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا
لَدِيهِ أُمُّ ابْنِ الْعَمِّ فِي رُتْبَةِ النَّسَبِ	أَعْمُ رَسُولِ اللَّهِ أَقْرَبُ زُلْفَةً
وَمَنْ ذَا لَهُ حَقُّ الثَّرَاثِ بِمَا وَجَبَ	وَأَيُّهُمَا أَوْلَى بِهِ وَبِعَهْدِهِ
وَكَانَ عَلَيَّ بَعْدَ ذَاكَ عَلَى سَبَبِ	فَإِنْ كَانَ عَبَّاسٌ أَحَقُّ بِتِلْكَمُ
كَمَا الْعَمُّ لِابْنِ الْعَمِّ فِي الْإِرْثِ قَدْ حَجَبَ	فَأَبْنَاءَ عَبَّاسٍ هُمْ يَرِثُونَهُ

فحظي أبان عند الرشيد، وظل أبان مرافقاً للبرامكة، حتى عيّنه يحيى بن خالد البرمكي رئيساً على ديوان الشعر، تُحال إليه قصائد المديح فيحكم فيها ويحدّد عطاءها.

وشعر أبان يدور حول أغراض المديح والهجاء والغزل والوصف، وأغلبه مزدوج ومسمط، وإليه تُنسب بداية الشعر التعليمي؛ فهو الذي نقل كتاب "كليلة ودمنة" شعراً، ويقال: إن يحيى البرمكي طلب أولاً من أبي نواس هذا العمل، وكاد يشرع فيه، لكنّ أباناً احتال عليه فأقنع أبا نواس أنّه لا جدوى من ذلك وأنه يشغله عن لهوه وملذّاته، فاستعفى أبو نواس بينما عرض أبان نفسه على يحيى البرمكي، فلزم بيته نحو أربعة أشهر، يَنْظِمُ مزدوجته، وهي قريبة من خمسة آلاف بيت، فحملها إلى يحيى بن خالد فوصله بعشرة آلاف دينار -وقيل:

^١ الأغاني، الأصفهاني (٢٣ / ١٤٤).

بعشرين- وأعطاه الفضل خمسة آلاف، ولم يعطه جعفر شيئاً، قائلاً: ألا يكفيك أن أحفظه فأكون راوِيَتَكَ؟ وعلم أبو نواس بذلك، فأدرك أن أبان قد خدعه فهجاه، وهذه المزدوجة لم يصلنا منها غير نذر يسير. ولأبان مزدوجات عديدة؛ منها مزدوجة تُدعى "ذات الجُلَلْ"؛ ذكر فيها بدء الخلق، وشيئاً من أمر الدنيا والفلك والمنطق، وله مزدوجات تحدّث فيها عن تاريخ الفرس، وكتاب "بلوهر وبُوداسف"، و"سندباد"، و"مَزْدَكْ"، و"الصيام والاعتكاف"، و"مَزُوكْ"؛ وقد مات نحو عام (٢٠٠٥ هـ / ٨١٥ م)!

٤- الفضل بن عبد الصمد الرقاشي:

أصله من الرّس، وهو مولى لبني رقاش من بكر بن وائل من ربيعة، كان من أهل البصرة، ثم انتقل إلى بغداد وطرق باب البرامكة، فأكرموه ووصلوه وأغنوه عمن سواهم، وبقي على وفائه لهم حتى بعد نكبتهم، ويقال: إنه مرَّ بجعفر بن يحيى مصلوباً فقال!

وَعَيْنٍ لِلْخَلِيفَةِ لَا تَنَامُ	أَمَّا وَاللَّهِ لَوْلَا خَوْفُ وَاشٍ
كَمَا لِلنَّاسِ بِالْحَجَرِ اسْتِلَامُ	لَطُفْنَا حَوْلَ جِذْعِكَ وَاسْتَلَمْنَا
حَسَامًا حَتْفُهُ السَّيْفُ الْحُسَامُ	فَمَا أَبْصَرْتُ بَعْدَكَ يَا ابْنَ يَحْيَى
وَدَوْلَةٍ آلِ بَرْمَكٍ السَّلَامُ	عَلَى اللَّذَاتِ وَالْدُّنْيَا جَمِيعًا

ويروى أنه كان يزورهم في محبسهم وفاء لفصلهم، فيحدّثهم ويسامرهم، حتى قضوا نحبهم جميعاً، ويقال: إن هارون الرشيد عاتبه على حزنه عليهم، فاعتذر له بالوفاء، فقال له: كم كان يصلك منهم؟ فقال: ألف دينار في السّنة؛ فوصله الرشيد بألفين، وقد خرج الرقاشي بعد موت الرشيد إلى خراسان واتصل بأمرها

١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٢٠)؛ الأغاني (٢٣ / ١٣٩ - ١٤٩)؛ الفهرست، ابن النديم (ص ٥١٥)؛ تاريخ الأدب العربي، عمرو فروح (٢ / ١٦٧ - ١٦٨).
٢ الأغاني، الأصفهاني (١٦ / ١٦٧).

طاهر بن الحسين، وظلَّ بها حتى وفاته نحو عام (٢٠٠هـ / ٨١٥م)، وكان شعره
نقيًّا سهلاً، وكان -مع تقدُّمه في الشعر- فيه مجون ولهو!
ومن شعره في رثاء يحيى بن خالد البرمكي:

أَتَحَسِّبُنِي بَاكَرْتُ بَعْدَكَ لَذَّةً	أَبَا الْفَضْلِ أَوْ رَفَعْتُ عَنْ عَاتِقِي سِتْرًا
أَوْ انْتَفَعْتُ عَيْنَايَ بَعْدُ بِنَظَرَةٍ	أَوْ ادْنَيْتُ مِنْ كَأْسٍ بِمَشْمُولَةٍ تُغْرَا
جَفَانِي إِذَا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ مُؤْنِسِي	وَأُضَحَّتْ يَمِينِي مِنْ ذَخَائِرِهَا صَفْرًا
وَلَكِنِّي اسْتَشَعَرْتُ ثَوْبَ اسْتِكَانَةٍ	وَبِتُّ كَأَنَّ الْمَوْتَ يَحْفِرُ لِي قَبْرًا

١ انظر: الأغاني (١٦ / ١٦٤ - ١٦٨)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٣ / ١٦٩ - ١٧٠).

٢ انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٦ / ١٦٦).

ثالثًا: شعراء الاعتزال

(بشر بن المعتمر - كلثوم بن عمرو العتابي - النظام)

كان مذهب الاعتزال من مظاهر تيارات الجدل الكلامية في العصر العباسي، بل كان أعظمها أثرًا ونطاقًا، وكانت المذاهب الكلامية قد شرعت في الظهور منذ زمن مبكر في أواخر عصر الخلفاء الراشدين، ثم العصر الأموي؛ مثل الخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة، وما إن بدأ العصر العباسي حتى انتشرت المذاهب الكلامية بصورة أوسع، وانتشرت حولها المناظرات، مع تشجيع الخلفاء العباسيين للجدل، وسماحهم بانتشار تلك الآراء والمذاهب.

ويُذكر أن الإمام الحسن البصري (ت: ١١٠هـ) كان جالسًا في مسجده، فقام إليه رجل وسأله عن حكم مرتكب الكبيرة، وكان هناك من يكفر مرتكب الكبيرة مطلقًا وهم الخوارج، ومنهم من يرى أنه لا يضرُّ مع الإيمان معصية وهم المرجئة، فتفكر الحسن في ذلك قبل أن يجيب، وكان يرى أنه مؤمن منافق أو فاسق، فانتفض رجل من حلقتة -وهو واصل بن عطاء- فقال: أنا لا أقول: إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقًا ولا كافر مطلقًا؛ بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر؛ ثم قام واعتزل في أسطوانة من أسطوانات المسجد مفارقًا الحسن، واجتمع حوله نفرٌ ممن اقتنعوا برأيه، فقال الحسن: اعتزل عني واصل؛ فعُرف أصحابه بالمعتزلة، وقيل: بل سُمُّوا بالمعتزلة لاعتزالهم كل الأقوال المحدثثة. وقد بنى المعتزلة مذهبهم على أساس تقديم العقل على النص والنقل، ونشأ مذهب الاعتزال على أصول خمسة؛ هي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان واليد والسيف؛ وبناءً على تلك الأصول فقد أمعن المعتزلة في تأويل بعض الآيات والنصوص فيما يرون ظاهر تفسيرها مخالفًا لمفهومهم عن التوحيد والتنزيه، وبالغوا في إعمال العقل والتفكير في كيفية صفات الله، وإثارة الجدل حولها، ونفوا عن الله بعض الصفات بحجة تنزيهه عن صفات المخلوق، ونفوا رؤية الله يوم القيامة بداعي أن

ذلك يقتضي التجسيد والتشبيه، ودعوا إلى عدم الوقوف على النص في القرآن أو السُّنَّة، وأنَّ القرآن محدث ومخلوق، وأن الإرادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاتها؛ وكلها أفكار أنكر أهل السُّنَّة الخوض فيها؛ لأنَّهم يرون ضرورة التسليم للنص والوقوف عنده وعدم الخوض فيما وراءه؛ نظرًا إلى أن أمور الغيب لا يستوعبها أحيانًا العقل البشري المحدود.

وقد مات واصل عام (١٣١هـ / ٧٤٨م) قبيل مغرب الدولة الأموية، وتأثر بأفكاره كثيرٌ؛ مثل: عمرو بن عبيد (ت: ١٤٤هـ / ٧٦١م) الذي صار شيخًا للمعتزلة بعد واصل، وبشر بن المعتمر (ت: ٢٦٦هـ / ٨٧٩م) الذي أشاع هذا المذهب في بغداد، وأبي إسحاق إبراهيم النظام (ت: ٢٣١هـ / ٨٤٥م)، وبدأ هذا المذهب في الاتساع والانتشار مع بداية العصر العباسي؛ إذ كان عمرو بن عبيد من أصدقاء الخليفة أبي جعفر المنصور، كما استعان بهم ولده المهدي في الرد على الزنادقة وانحرافاتهم، وحضر مجلس ابنه هارون الرشيد عدد منهم، ويُروى أنه أوفد منهم رجالًا لمناظرة ملك السند.

ومع هذا فإنَّ مذهب الاعتزال لم يلقَ تأييدًا مباشرًا من الخلفاء العباسيين؛ فقد كان الخليفة المهدي محافظًا، وإنَّما اقتصر دعمه لهم في الرد على الزنادقة فقط، وأما هارون الرشيد فقد اكتفى بالاستعانة بهم في بعض الأعمال، لكنَّه كان بالمرصاد لأيَّة آراء كلامية، ويعتبرها لونًا من ألوان الزندقة، فحبس بعضهم وتعقَّب آخرين أحيانًا، إلى أن جاء الخليفة المأمون ولد هارون الرشيد وكان متبحرًا في العلم، وبه ميل إلى الجدل، فمنحهم نصيبًا من الحرية، وكان مجلسه مليئًا بأصحاب المذاهب الكلامية المختلفة؛ مثل: ثمامة بن أشرس، وبشر المريسي، وأبو الهذيل العلاف، وأحمد بن أبي دؤاد القاضي، والجاحظ؛ فمال إليهم المأمون، وكان فيه ميلٌ إلى الاعتزال وإلى التَّشيع، فقال بتفضيل علي بن أبي طالب على سائر الصحابة، واتخذ الاعتزال مذهبًا رسميًا للدولة، وآمن بمعتقدهم الباطل في مسألة خلق القرآن، عام (٢١٢هـ / ٨٢٧م)، وتشدَّد في هذه المسألة تشدُّدًا ممقوتًا، وشرع في التنكيل بكل من خالفه، فعلا النجم السياسي

للمعتزلة واستمر نفوذهم وتسلطهم منذ آخر عهد المأمون، مرورًا بزمان المعتصم والواثق، وبرز منهم في تلك المدة: أبو موسى عيسى بن صبيح المردار (ت: ٢٢٦هـ/ ٨٤٠م)، وأبو يعقوب الشحام (ت: ٢٣٣هـ/ ٨٤٧م)، ولقي منهم أهل السُّنَّة عنتًا، فعُذِّبَ الإمام أحمد بن حنبل حتى اضطر المعتصم إلى إخلاء سبيله ومال إلى الكف، ولمَّا أعاد ولده الواثق مسألة خلق القرآن؛ وقف في وجهه عددٌ من علماء السُّنَّة مثل: أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الأزدي؛ الذي دخل على الواثق مكبلاً في قيوده، فناظر ابن أبي دؤاد القاضي في حضرة الواثق، فعجز الأخير عن الرد، وبُهِتَ أمام الحاضرين، فخَقَّفَ الواثق وطأته، وأطلق سراح أبي عبد الرحمن، وكتب إلى الأمصار بالكفِّ عن هذه المسألة، ولكن مذهب الاعتزال استمر على نشاطه حتى مات الواثق عام (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، وخلفه أخوه المتوكل؛ الذي كان كارهاً للجدل ومبغضاً للمعتزلة، فأبطل مذهبهم، ونَحَاهم عن مجلسه، وانتصر لأهل السُّنَّة، وأبطل مسألة خلق القرآن، موجِّهاً للمعتزلة ضربة قويَّة ذهبت بنفوذهم السياسي.

ورغم فقد المعتزلة لسلطانهم السياسي فإن مذهبهم بقي منتشرًا زمانًا؛ إذ تعرَّضت الخلافة العباسية بعد مقتل المتوكل للعديد من الاضطرابات السياسية، وانشغل الخلفاء من بعده بتسلُّط الأتراك وثورة الزنج والقرامطة، وهو ما نفَّس قليلاً عن أئمة المعتزلة وسمح لهم بنشر آرائهم ومجالسهم، وظلوا على نشاطهم طيلة القرن الثالث وأوائل القرن الرابع، وبرز في تلك المدة عدد من علمائهم مثل: أبي الحسين الخياط (ت: ٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، وأبي علي الجبائي (ت: ٣٠٣هـ/ ٩١٥م)، وابنه أبي هاشم الجبائي (ت: ٣٢١هـ/ ٩٣٣م)، وأبي القاسم البلخي (ت: ٣١٩هـ/ ٩٣١م)، وبعضهم تقلَّد مهامَّ رسميَّة في الدولة، وظل حالهم على نشاطهم إلى أن انشَقَّ عنهم أحد دعاةهم وهو أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت: ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م)، وكان أول حياته معتزليًا متعصبًا ثم انقلب عليهم، وكان عالمًا بخباياهم فاستعمل أسلوبهم الجدلي للرد عليهم وإبطال أفكارهم، فكانت هذه الضربة الثانية القاسمة التي تلقَّها المعتزلة، أخذ بعدها مذهب



الاعتزال في الضعف والتراجع، وفقد استقلاله، صحيح أنه بقي حيًّا بعد ذلك زمنًا؛ حيث وجد المعتزلة بعض الملاذ في سلطان بني بويه في القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الهجري، وكان بنو بويه شيعة رافضة مخاصمين للسُّنة، ممَّا أفسح للمعتزلة بعض المجال، وإن لم يبلغ نفس درجة الزهو في القرنين الثاني والثالث، واشتهر في تلك المدة من أعلامهم: القاضي عبد الجبار الهمداني (ت: ٤١٥هـ / ١٠٢٤م)، وأبو الحسين البصري (ت: ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م)، وأبو رشيد سعيد النيسابوري (ت: ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م)؛ ثُمَّ ما لبث أن انتهى هذا الدور بزوال سلطان بني بويه وظهور السلاجقة الذين قوَّضوا حركة التَّشيع وانتصروا لمذهب أهل السُّنة من جديد!

وقد استفاد المعتزلة -رغم انحرافهم العقائدي- من نشاط الحركة الفكرية والعلمية في العصر العباسي، ومن إطلاق الخلفاء العباسيين لحرية الفكر، وتشجيعهم لأجواء المناظرات والجدل، واستفادوا كذلك من العلوم المقتبسة من خلال الترجمة وخصوصًا علوم الفلسفة والمنطق، وهو ما أثرى عقولهم وأفكارهم، كما اطلعوا على ثقافات أجنبية مختلفة، وأدَّى إمعانهم في الاعتماد على العقل والمناظرة، واستفاضتهم في المحاروة والجدل، والبحث حول البراهين والحجج، إلى أن تطوَّرت الحركة الأدبية بشكل عام، فزهى الفكر، وتطوَّر علم المناظرات، وكانت لهم مع الفرق والمذاهب الكلامية المختلفة مثل الخوارج والمرجئة والشيعة عدة معارك جدلية حامية، وبلغ من اتساع مذهبهم أن نشأت تحته عدة مدارس مختلفة مثل: الواصلية والهُديلية والنظامية والجاحظية والبشرية والمردارية والجبائية، وهي مدارس انبثقت كُلُّها عن أصل الاعتزال، واتفقوا على المبادئ الخمسة، لكن كانت بينهم اختلافات عديدة فيما دون ذلك

١ للاستزادة راجع: الملل والنحل، أبو الفتح الشهرستاني، تحقيق: عبد الأمير علي مهنا- علي حسين فاعور، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤١٤هـ- ١٩٣٣م؛ التاريخ السياسي للمعتزلة، د. عبد الرحمن سالم، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت- لبنان، ٢٠١٨م؛ مدخل إلى مذهب المعتزلة، د. ياسين السالمي.

من قضايا مختلفة، وهو ما يفسّر اختلاف شيوخ المعتزلة مع بعضهم بعضاً في غير موضع.

وكان للمعتزلة أيضاً دور في إثراء المعرفة وتطور علوم البلاغة وأسلوب الكتابة، وطبعوا الأدب بطوابع عقلية جديدة ظهر فيه أثر النزعة الجدلية والكلامية، وأدخلوا في الأدب موضوعات علمية وفلسفية جديدة، وأضافوا عليه قدرًا من العمق والتشعب، ومزجوا مزجاً رائعاً بين الأسلوب الأدبي والشعري من جهة، وبين الأسلوب الكلامي والعقلي والفلسفي من جهة أخرى، وكان لهم العديد من المصنّفات، وكان لهم دور في نقل آراء اليونانيين والسريانيين وغيرهم إلى الثقافة العربية، وكان لديهم قدرة على الاقناع لما تبخروا فيه من قدرة على الجدل والحوار والخوض في التفاصيل والإحاطة بالثقافات المختلفة!

وقد ظهر في المعتزلة عددٌ من الشعراء والأدباء، فأما شعرهم فامتاز بطابع خاص؛ إذ بثوا فيه آراءهم ومعتقداتهم وملامح مذهبهم، وكانوا يستعملون الشعر في الدفاع عن مذهبهم، والرد على الفرق الكلامية الأخرى، وقد تأثر نتاجهم الشعري بما كانوا ينقلونه من الثقافات الأجنبية وما كانوا يطلعون عليه، وامتاز شعرهم بتعمق الفكر واستنباط وتوليد المعاني وخصوبة الأخيلا وظهور النزعة الجدلية فيه، ولا يخلو كذلك من معالم الحكمة؛ نظرًا إلى سعة اطلاعهم على العلوم ولا سيما الفلسفة، وبناء على تلك الملامح الفلسفية والأبعاد الجدلية؛ فإن شعرهم لا يخلو من النزعة الذاتية والاتجاه العقلي المعتمد على الفكر؛ إذ كان للمعتزلة دور في إثرائه، كما كانوا ينقلون الكثير من قراءاتهم ومعارفهم إلى الشعر.

وقد اعتنوا بالبلاغة عناية فائقة، وكانوا على دراية واسعة بالأدب وأساليب اللغة، فكانت الكلمة -بالإضافة إلى عمق ثقافتهم واطّلاعهم- السلاح الذي يواجهون به أعداءهم ويدافعون عن مذهبهم ويجادلون الفرق الكلامية المخالفة

١ انظر: تاريخ المعتزلة، د. فالح الربيعي (ص ٤٦-٨٣)، الدار الثقافية للنشر.

لهم، وإضافة إلى ذلك فإنَّ لهم آثارًا جليلة في النثر والتأليف، نفصّله في حينه،
وأما الشعرفمّن أبرز شعراء الاعتزال في العصر العباسي:

١- بشر بن المعتمر:

هو أبو سهل؛ بشر بن المعتمر الهلالي، وُلِد بالكوفة، واستوطن بغداد، وهو الذي نشر مذهب الاعتزال في بغداد وصار رأس المعتزلة فيها، وله مدرسته الخاصة، وقد لمع اسمه في عصر هارون الرشيد، وكان على صلة بالبرامكة، ويبدو أنَّه كان واسع الإطّلاع والمعرفة، وله عدة آثار أدبية ورسائل ومؤلفات، وكان راوية للشعر والأخبار، ويُعتبر أحد أبرز شعراء المعتزلة في القرن الثالث الهجري، وهو من الشعراء الذين تجلّى مذهب الاعتزال مع النزعة الذاتية والعقلية في شعرهم، وضمّن شعره كثير من الإشارات المذهبية والحكم والمواظ والدفاع عن مذهب الاعتزال، وكان يؤمن بتقديس العقل والاحتكام إليه والاعتماد عليه في استنباط الأحكام الشرعية، والتّوصّل إلى معرفة الخالق من خلال القياس العقلي، ويتّضح ذلك من خلال قصيدة يمتدح العقل قائلاً:

للهِ دُرُّ العاقلِ مِنْ رائِدٍ	وصاحبٍ في العُسرِ واليُسْرِ
وحاكمٍ يَقْضِي على غائبٍ	قَضِيَّةَ الشَّاهِدِ للأمرِ
وإنَّ شيئاً بعضُ أفعاليهِ	أَنْ يَفْصَلَ الخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ
بِذِي قُوَى قد خَصَّهُ رَبُّهُ	بِخالصِ التَّقْديسِ والظْهِرِ
والعبدُ كالحَرِّ وإنَّ ساءَهُ	والأَبْغَثُ الأَغْثَرُ كالصَّـقْرِ ^٢
لكنَّهُم في الدِّينِ أيدي سَبا	تَفَاوَتْوا في الرّأيِ والقَدْرِ
قد عَمَرَ التَّقْلِيدُ أحلامَهُم	فَنَاصَبُوا القِيَّاسَ ذا السَّـبْرِ
فافهمْ كلامي واصطبرْ ساعةً	فإنَّما النُّجْحُ مع الصَّـبْرِ

١ المصدر السابق (ص ٩٤).

٢ الأَبْغَثُ: طائر من طيور الماء. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/ ١١٨)، الأَغْثَرُ: الأحمق الجاهل. انظر: لسان العرب (٥/ ٧).

وانظر إلى الدنيا بعين امرئ يكره أن يجري ولا يـدري

وهي أبيات تفصح بوضوح عن النبوة الذاتية والاتجاه العقلي في شعره، وقد كان بشر -بجانب سعة ثقافته- على اطلاع عميق باللغة ومفرداتها، وقد تطرّق بشعره إلى مداخل علمية جديدة مزجها بطابع أدبي، يقول في بعض أبيات قصيدته عن عجائب وأسرار عالم الحيوان، وهي لا تخلو من الحكم:

النَّاسُ دَأْبًا فِي طِلَابِ الْغَنَى	وكلُّهم من شأنه الخثر
كَأَذْوَبٍ تَهْتَشُّهَا أَذْوَبٌ	لها غواءٌ ولها زفر
تَرَاهُمْ فَوْضَى وَأَيْدِي سَبَا	كلُّ له في نفثه سحر
تَبَارَكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ	بين يديه النفع والضّر
مَنْ خَلَقَهُ فِي رِزْقِهِ كُلُّهُمْ	الذّيخ والثّيّل والغفر
وَسَاكِنُ الْجَوِّ إِذَا مَا عَلَا	فيه، ومن مسكنه القفر
وَالصَّدْعُ الْأَعْصَمُ فِي شَاهِقِ	وجأبة مسكنها الوعر
وَالْحَيَّةُ الصَّمَاءُ فِي جُحْرِهَا	والتتفلّ الرأغ والذر
جَرَادَةٌ تَخْرِقُ مَنَنْ الصَّفا	وأبغت يسطاذه صفر
سِلَاحُهُ رُمَحٌ فَمَا عُذْرُهُ	وقد عراه دونه الذعر
وَالدُّبُّ وَالْقِرْدُ إِذَا غَلِمَا	والفيّل والكأبة واليغر ^٢
يُحْجِمُ عَنْ فَرِطٍ أَعَاجِيبُهَا	وعن مدى غاياتها السحر

وأكثر شعر بشر من من المخمّسات والمزدوجات والمسّمّطات، وكان ينقل الكتب النثرية من الكلام والفقه وغير ذلك إلى الشعر.

وقد مات بشر نحو عام عام (٢١٠هـ / ٨٢٥م) في سنّ عالية، مخلفًا العديد من المؤلفات والمصنفات المهمّة؛ فله من الكتب نثرًا: "الكفر والإيمان"، "الرد على الخوارج"، "الوعيد على المجبرة"، "الرد على من عاب الكلام"، "كتاب على ضرار

١ تاريخ المعتزلة.. فكرهم وعقائدهم، فالح الربيعي (ص ٩٣).

٢ اليعرب: الشاة. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٥/ ٣٠١).

في المخلوق"، "تأويل متشابه القرآن"، "الرد على الملحدين"، "الرد على الجاهل"،
"العدل"، "المنزلة بين المنزلتين" ومؤلفات أخرى، ومن أعظم ما ترك من آثاره ما
عُرف باسم "صحيفة بشر"؛ وهي رسالة نقدية تحدّث فيها عن البلاغة وأصولها
وكيفية بلوغها، وما يكون من الملائمة بين المعاني والألفاظ وكيفية تخيُّرها،
وسبل إيصال المعنى للمتلقّي، وهي رسالة فائقة الأهمية وعظيمة النفع، وتعدّ
من أروع ما كُتب في النقد الأدبي، وتثبت بالفعل أن للمعتزلة دورًا في إرساء بعض
أصول ومفاهيم البلاغة والنقد، وممّا جاء في هذه الرسالة: "خذ من نفسك
ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك؛ فإن قليل تلك الساعة أكرم
جوهراً، وأشرف حسباً، وأحسن في السماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من
فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرّة من لفظ شريف ومعنى بديع. واعلم أن
ذلك أجدى عليك ما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاوله والمجاهدة،
وبالتكلف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً،
وخفيفاً على اللسان سهلاً، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه، وإيّاك
والتوَعُّر؛ فإنّ التوَعُّر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك
معانيك ويشين ألفاظك، ومن أراد معنى كريماً، فليلتبس له لفظاً كريماً؛ فإنّ
حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما
ويهجهما....

فكن في ثلاث منازل؛ فإنّ أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيّقاً عذباً، وفخماً
سهلاً، ويكون معنالك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً، إما عند الخاصة إن
كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس
يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضح بأن يكون من
معاني العامة، وإنّما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة
الحال، وما يجب لكل مقام من المقال. وكذلك اللفظ العامي والخاصي، فإن
أمكنك أن تبلغ مع بيان لسانك وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، و اقتدارك

على نفسك، إلى أن تُفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تُلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء؛ فأنت البليغ التام".

٢- كلثوم بن عمرو العتّابي:

هو كلثوم بن عمرو بن أيوب بن عبيد العتّابي التغلبي، جدُّه الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم صاحب إحدى المعلّقات وقَاتِل عمرو بن هند ملك الحيرة، وكُنْيَة العتّابي أبو عمرو، وُلِدَ في قَبْسَرين من أرض الشّام نحو عام (١٣٥هـ / ٧٥٢م)، وكان على درجة عالية من العلم والأدب والاطّلاع على الثقافات المختلفة، وله دراية بمختلف العلوم والمعارف ولا سيّما المنطق والفلسفة والحكمة، وكان على علمٍ باللغة الفارسية، وقد أقبل على مجالس المتكلّمين حتى دان بمذهب الاعتزال. وكان يلبس الصوف ويُظهر الزهد.

وقد وفد كلثوم على بغداد وصحب البرامكة، وأُعجب به يحيى بن خالد البرمكي وولده جعفر بن يحيى، واتّصل بهارون الرشيد ومدحه، ثم كثر الكلام بحقه لدى الرشيد بسبب اعتزاله فنقم عليه وطلبه، ففرَّ منه إلى اليمن، فاحتال يحيى ابن خالد بأن حمل إلى الرشيد بعضًا من رسائله البليغة، فاستحسنها الرشيد وسأل عن الكلام فقال يحيى: هو للعتّابي؛ فرضي عنه الرشيد وأمنه، فقال العتّابي في ذلك:

ما زلتُ في غَمَرَاتِ الموتِ مُنْطَرِحًا قَدْ غَابَ عَنِّي وَجُوهُ الأَمْرِ مِنْ حِيَلِي
فَلَمْ تَزَلْ دَائِبًا تَسْعَى لِتُنْقِذَنِي حَتَّى اسْتَلَّتْ حَيَاتِي مِنْ يَدَيِ أَجَلِي

وقد حظي كلثوم بن عمرو لدى طاهر بن الحسين قائد المأمون ثم لدى ولده عبد الله بن طاهر فأحسنّا صلّته، ويروى أن الخليفة المأمون استأذنه وقد غدا شيخًا، فدخل عليه، وأعجب بحلاوة حديثه وحُسن منطقه، وقال له: بلغني وفاتك فساءتني، ثم بلغني وفادتك فسرّتني؛ فقال: يا أمير المؤمنين؛ لو قُسمت

^١ انظر: الفهرست، ابن النديم (ص ٥٦٨ - ٥٧٠)؛ تاريخ المعتزلة.. فكرهم وعقائدهم، فالح الربيعي (ص ٩٠ - ٩٥).

هذه الكلمة على أهل الأرض لوسعهم؛ وذلك لأنه لا دين إلا بك، ولا دُنْيا إلا معك؛ فسَرَّ المأمون بقوله وقال: سلمي؛ فقال: يا أمير المؤمنين؛ يدك بالعطيَّة أطلق من لساني بالمسألة؛ ويقال: إنه طلب منه الكلام ذات يوم، فقال: يا أمير المؤمنين؛ الإيناس قبل الإبساس؛ إن المرء لا يُحمد أوَّل أمره على صواب، ولا يُذم على خطأ؛ لأنه بين حالين: كلام قد سَوَّاه أو حصرٍ تَعَنَّاه، ولكنَّ يُبسَط بالمؤانسة، ويُبحث بالمناقشة؛ فأعجب المأمون بكلامه.

وقد مات كثوم بن عمرو قُبيل عام (٢٢٠هـ / ٨٣٥م)، وقيل: بل عام (٢٠٨هـ / ٨٢٣م) في سنٍّ عالية، وهو شاعر بليغ مطبوع، متصرِّف في فنون الشعر، وكان مُقِلًّا، يعتني بتنقيح شعره، ويتخَيَّر ألفاظه الجزلة، ويأتي بالصورة البلاغية، وقد حذا حذو بشَّار في البديع، وشعره يدور حول أغراض المديح والهجاء والنسيب، غير أن أكثر غرض يلفت الانتباه في شعره هو الحكمة، ويظهر في شعره أثر النزعة الذاتية والطوابع العقلية والعمق، ولا يخلو شعره من جمال المعنى، ودقَّة الفكر، وروعة الخيال، وحسن الصياغة، وله غير الشعر عدَّة رسائل نثرية بليغة، تشير إلى أنَّه جمع بين موهبتي الكتابة والشعر، وقلَّما يتَّفَق ذلك لأحد.

قال عنه ابن المعتز في طبقاته: "كان العتَّابي مجيدًا، مقتدرًا على الشَّعر، عذب الكلام، وكاتبًا جيِّد الرسائل حاذقًا"، وقال: "وأشعار العتَّابي كُلُّها عيون، ليس فيها بيت ساقط"، وقال جعفر المالكي: ما سمعتُ قطُّ لأحد من المتكلمين أحسن من كلام العتَّابي، وما رأيت كاتبًا تقلَّد الشعر مع الكتابة إلا وجدته ضعيف الشعر، غيره؛ فإنَّه كان فحل الشعر، جيد الكلام.

وللعتَّابي جوار شعره ورسائله مصنَّفات قيِّمة؛ إذ له من الكتب: "المنطق"، "الأدب"، "فنون الحكم"، "الخيال"، "الألفاظ"، "الأجواد".

ومن أجود شعره!

١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٣٩- ٢٤٢)؛ الأغاني، الأصفهاني (١٣ / ٧٤- ٨٦)؛ الفهرست، ابن النديم (٣٧٦- ٣٧٧)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٥ / ٢٢٤٣- ٢٢٤٦)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٤ / ١٢٢- ١٢٤)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢ / ٢١٨- ٢٢٠)، تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣ / ٤١٩- ٤٢٥).

تُكَلِّفُهُ عَهْدَ الصِّبَا والكواعبُ
فَتُقْلِعُ إِلَّا عَنْ دُمُوعِ سَوَاكِبِ
على دارسِ الأعلامِ عافِي الملاعبِ

تَجَنَّبَ دَارَ العامريَّةِ إِنَّهَا
مَنَازِلُ لَمْ تَنْظُرْ بِهَا الْعَيْنُ نَظْرَةً
وَلَا وَضَلَ إِلَّا أَنْ تُعَاجَ مَظِيَّةُ

وَمِمَّا يُسْتَحْسَنُ قَوْلُهُ؟

وَدِمْنَةً حَسَرَتْ عَنْهَا الْأَعَاصِيرُ
وَالْعَيْنُ إِنْسَانُهَا بِالْمَاءِ مَغْمُورُ
وَزِلْتُ أَخْضَرَ تَعْلُوكَ الْأَزَاهِيرُ

مَاذَا شَجَاكَ بِحَوَارِينَ مِنْ طَلَلٍ
شَجَاكَ حَتَّى ضَمِيرُ الْقَلْبِ مُشْتَرِكُ
لَيْسَتْ أُرْدِيَةَ النُّوَارِ مِنْ طَلَلٍ

وَمِنْ بَدَائِعِ قَوْلِهِ فِي الْحِكْمَةِ؟

وَحَبَّرْتُ مَا وَصَلُوا مِنْ الْأَسْبَابِ
وَإِذَا الْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَنْسَابِ

إِنِّي بَلَوْتُ النَّاسَ فِي حَالَاتِهِمْ
فَإِذَا الْقَرَابَةُ لَا تُقَرِّبُ قَاطِعًا

وَقَالَ يَفْضِلُ الْعِلْمَ وَالْأَدَبَ عَلَى الْمَالِ؟

ذَا اللَّبِّ يَنْظُرُ فِي الْآدَابِ وَالْحِكَمِ
أَنَافِعُ ذَا مِنْ الْإِقْتَارِ وَالْعَدَمِ؟
لِحَاهُمُ اللَّهُ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ فَهَمٍ

يَا قَاتِلَ اللَّهِ أَقْوَامًا إِذَا ثَقَّفُوا
قَالُوا وَلَيْسَ بِهِمْ إِلَّا نَفَاسَتُهُ
وَلَيْسَ يَذَرُونَ أَنَّ الْحِظَّ مَا حُرِّمُوا

وَأَخَذَتْ امْرَأَتُهُ الْبَاهِلِيَّةُ تَلَوْمُهُ عَلَى تَقَشُّقِهِ وَعَدَمِ الْإِثْرَاءِ، فَقَالَ يَرُدُّ عَلَيْهَا

وَيَدْعُوهَا إِلَى الْإِتْعَاضِ بِمَا حَدَثَ لِلْبِرَامِكَةِ؟

زَوَى الْفَقْرُ عَنْهَا كُلَّ طَرَفٍ وَتَالِدٍ
مَقْلَدَةً أَعْنَاقُهَا بِالْقَلَائِدِ
مِنْ الْعَيْشِ أَوْ مَا نَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ

تَلَوْمُ عَلَى تَرْكِ الْغِنَى بِأَهْلِيَّةٍ
رَأَتْ حَوْلَهَا النَّسْوَانَ يَرْفُلْنَ فِي الثَّرَا
أَسْرَكَ أَتَيْ نِلْتُ مَا نَالَ جَعْفَرُ

١ طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٤١).

٢ المصدر السابق. (ص ٢٤١).

٣ الأغاني، الأصفهاني (١٣ / ٨٠ - ٨١).

٤ المصدر السابق (١٣ / ٨١).

٥ المصدر السابق (١٣ / ٨٥).

وَأَنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَغْصَنِي
رَأَيْتُ رَفِيعَاتِ الْأُمُورِ مَشُوبَةً
دَعَيْنِي تَجْنِي مِيتَتِي مَطْمَئِنَّةً
مَغْصَّاهُمَا بِالْمُشْرِفَاتِ الْبَوَارِدِ
بِمُسْتَوْدَعَاتٍ فِي بُطُونِ الْأَسَاوِدِ
وَلَمْ أَتَجَشَّمْ هَوْلَ تِلْكَ الْمَوَارِدِ

٣- أبو إسحاق النَّظَّام:

هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيَّار بن هانئ البصري، أحد أبرز أئمة المعتزلة، نشأ بالبصرة وقدم بغداد، واشتهر بالنَّظَّام لإجادته النظم في الكلام، وقيل: بل لأنَّه كان ينظم الخرز في سوق البصرة، وقد اطلع النَّظَّام على علوم الفلسفة وسائر المعارف من الفقه والتفسير والحديث والفلك واللغة والشعر، وتلمذ على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي، وله أخبارٌ مع البرامكة، وقد أخذ مذهب الاعتزال من أبي الهذيل العلاف، وورث عنه قوَّته في الحجج والمناظرة، وقد دمج الفلسفة اليونانية بالفكر الإسلامي، وكانت له آراؤه الخاصة في مذهب الاعتزال مؤسِّسًا فرقةً جديدةً فيه عُرفت باسم النَّظَّامية.

وكان النَّظَّام شاعرًا أديبًا بليغًا، متمكِّنًا في اللُّغة، متفوقًا في الجدل والمناظرة، متقدِّمًا في علم الكلام، حسنَ خاطر، شديد التَّدقيق والغوص في المعاني، متميِّزًا في الجانب الأدبي بشطريه الشعري والنثري، وكان حسنَ البلاغة، مليحَ اللفظ، وأشعاره تتجلَّى فيها ملامح المذهب الفلسفي والكلامي، ويظهر أثر علم الكلام فيه، وشعره دقيق المعاني، قوي الحجة، لا يبارى في إيراد الحجج وتوليد المعاني، وهو من أوائل الشعراء الذين أدخلوا في الشعر المصطلحات الكلامية والفلسفية، وله مذهبه في ترقيق الشعر وتدقيق المعاني، وفي شعره نزعة عقلية شديدة الوضوح.

وله كتب كثيرة في الفلسفة والاعتزال، تنمُّ عن عمقه وبُعد أفقه، ومن بينها: "إثبات الرسل"، "التوحيد"، "المعرفة"، "القدر"، "الوعيد"، "الإنسان"، "المنطق"، "الجواهر والأغراض"، "الصفات"، "في القرآن ما هو"، "الرد على أصناف الملحدين"، "الرد على المُرجئة"، غير أن مؤلفاته مع أسف لم تسلم من

الضياع، ويبدو أن وفاته كانت نحو عام (٢٣١هـ / ٨٤٥م)، وقيل: بل عام ٢٢١هـ^١

ومن شعره يمدح الخليفة الأمين:

أَلَا يَا خَيْرَ مَنْ رَأَتْ الْعُيُونُ
وَفَضْلَكَ لَا يُحَدُّ وَلَا يُجَارَى
خُلِقْتَ بِلَا مُشَاكَلَةٍ لِشَيْءٍ
كَأَنَّ الْمُلْكَ لَمْ يَكُ قَبْلُ شَيْئًا

نَظِيرُكَ لَا يُحَسُّ وَلَا يَكُونُ
وَلَا تَحْوِي حَيَازَتَهُ الظُّنُونُ
وَأَنْتَ الْفَوْقَ وَالنَّقْلَانِ دُونُ
إِلَى أَنْ قَامَ بِالْمُلْكِ الْأَمِينُ

ومن عذب شعره قوله يصف الخمر:

مَا زِلْتُ آخِذُ رُوحَ الدِّنِّ فِي لَطْفٍ
حَتَّى انْتَنَيْتُ وَلِي رُوحَانٍ فِي جَسَدِي

وَأَسْتَبِيحُ دَمًا مِنْ غَيْرِ مَذْبُوحٍ
وَالزَّقُ مُطَّرِحُ جِسْمٍ بِلَا رُوحٍ

وهو القائل:

أُعَاتِبُهُ صَفْحًا وَأُعْرِضُ بِأَلْتِي
أَخَافُ لَجَاجَاتِ الْعِتَابِ وَأَشْتَكِي
أَذِلُّ لَهُ حَتَّى كَأَنِّي بِذَنْبِهِ

لَهَا بَيْنَ أَحْنَاءِ الْقُلُوبِ دَيْبُ
وَلِلْجَهْلِ فِي قَلْبِ الْحَلِيمِ نَصِيبُ
إِلَيَّ بِذَنْبٍ لِي إِلَيْهِ أَثُوبُ

وقال في الغزل ووصف المحبوب:

وَشَادِنٍ يَنْطِقُ بِالطَّرْفِ
رَقَّ فَلَوْ بُزَّتْ سَرَابِيلُهُ
يَجْرُحُهُ اللَّحْظُ بِتَكَرُّرِهِ

يَقْصُرُ عَنْهُ مُنْتَهَى الْوَصْفِ
عَلَّقَهُ الْجَوُّ مِنَ اللَّطْفِ
وَيَشْتَكِي الْإِيمَاءَ بِالطَّرْفِ

١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٤٨ - ٢٤٩)؛ الفهرست، ابن النديم (ص ٥٧٠ - ٥٧٢)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣ / ٤٣٠ - ٤٣٤)؛ تاريخ المعتزلة.. فكر وعقائد، فالح الربيعي (ص ٩٧ - ١٠١).

٢ طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٤٩).

٣ المصدر السابق.

٤ الفهرست، ابن النديم (ص ٥٧١).

٥ تاريخ المعتزلة.. فكر وعقائد، فالح الربيعي (ص ٩٩).

أَفْدِيهِ مِنْ مُغْرَى بِمَا سَاءَنِي كَأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا أُخْفِيَ

وقال في الغزل ووصف المحبوب:

يَا تَارِكِي جَسَدًا بِغَيْرِ فُؤَادٍ أَسْرَفْتُ فِي الْهُجْرَانِ وَالْإِبْعَادِ
إِنْ كَانَ يَمْنَعُكَ الزِّيَارَةُ أَعْيُنُ فَادْخُلْ عَلَيَّ بِعِلَّةِ الْغُودَادِ
كَيْمَا أَرَاكَ وَتِلْكَ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ مَلَكَتْ يَدَاكَ بِهَا مَنِيْعَ قِيَادِي
إِنَّ الْغُيُونَ عَلَى الْقُلُوبِ إِذَا جَنَّتْ كَانَتْ بَلِيَّتُهَا عَلَى الْأَجْسَادِ

وقال على هذا المنوال:

تَوَهَّمَهُ طَرْفِي فَالْمَ خَذَهُ فَصَارَ مَكَانَ الْوَهْمِ مِنْ نَظْرِي أَثَرُ
وَصَافَحَهُ قَلْبِي فَالْمَ كَفَّهُ فَمِنْ صَفْحِ قَلْبِي فِي أَنَاْمِلِهِ عَثَرُ
وَمَرَّ بِقَلْبِي خَاطِرًا فَجَرَحَتْهُ وَلَمْ أَرْ جِسْمًا قَطُّ يَجْرَحُهُ الْفَكْرُ
يَمُرُّ فَمِنْ لَيْنٍ وَحُسْنٍ تَعْطَفٍ يَقَالُ بِهِ سُكْرٌ وَلَيْسَ بِهِ سُكْرُ

وله غير شعره نثر بديع في غاية الروعة والإتقان وعمق المعنى وخصوبة الفكر، ويدل أيضًا على بلاغته وموهبته؛ إذ يقال: إِنَّ يحيى بن خالد البرمكي سأله أن يصف في مجالسه العشق، فقال: ^١ "العشق أرقُّ من السراب، وأدبُّ من الشراب، وهو من طينة عِطْرَةِ عُجْنَتِ فِي إِنَاءِ الْجَلَالَةِ، حُلُو الْمَجْتَنَى مَا اقْتَصَدَ، فَإِذَا أَفْرَطَ عَادَ خَبَلًا قَاتِلًا، وَفَسَادًا مُعْضَلًا، لَا يُطْمَعُ فِي إِصْلَاحِهِ. لَهُ سَحَابَةٌ غَزِيرَةٌ تَهْمِي عَلَى الْقُلُوبِ، فَتُعْشِبُ شَغْفًا وَتُثْمِرُ كَلْفًا. وَصَرِيْعُهُ دَائِمُ اللَّوْعَةِ، ضَيْقُ الْمُنْتَفِسِ، مُشَارَفُ الزَّمَنِ، طَوِيلُ الْفِكْرِ، إِذَا أَجْنَحَهُ اللَّيْلُ أَرْقُ، وَإِذَا أَوْضَحَهُ النَّهَارُ قَلِقُ، صَوْمُهُ الْبَلَوَى، وَإِفْطَارُهُ الشُّكْوَى".

^١ المصدر السابق.

^٢ المصدر السابق (ص ٩٩).

^٣ المصدر السابق.

رابعاً: شعراء الغزل

(العباس بن الأحنف- ربعة الرقي- خالد بن يزيد الكاتب- محمد ابن داود الظاهري)

١- العباس بن الأحنف:

هو أبو الفضل العباس بن الأحنف بن الأسود بن طلحة، من بني حنيفة، وأصل آبائه في بلاد اليمامة، وارتحل منهم من ارتحل إلى خراسان، ولكن يبدو أن العباس قد وُلد في بغداد ونشأ بها، وقد نشأ رقيق الحاشية، لطيف الطبع، ظريف الحديث، ظاهر النعمة، وكان جميلاً مقبولاً، حسن الخلق، فصيح اللسان، وكان مُترقفاً يحضر مجالس الأنس واللهو، ولكن دون أن ينغمس في الخلاعة والمجون؛ إذ كان ذا كرمٍ وعقّةٍ وفضل، وكان جواداً لا يحبس ما يملك.

وكان العباس بن الأحنف شاعراً مطبوعاً ظريفاً مفوّهاً، وكان رقيق الحس والعاطفة، وقد أغناه ما فيه من النعمة، وما بنفسه من الفضل، عن الإمعان في التّكسُّب بالشعر، وقد اتّصل بهارون الرشيد فمدحه وحظي عنده ووصله، واصطحبه الرشيد في بعض رحلاته في خراسان وأذربيجان وأرمينيا.

والعباس بن الأحنف هو أشهر شعراء الغزل العذري في العصر العباسي، وإذ كان الغزل العذري قد انخفض شأنه في هذا العصر، وغلب عليه الغزل الصريح بما رافقه من مجون وفُحش؛ فقد كان العباس على رأس قلة من الشعراء حفظوا للغزل العذري العفيف شيئاً من نضارته وصفائه وعمقه، فقد كان شاعراً مطبوعاً مجيداً رقيق المعنى، جزل اللفظ، متين التراكيب، قوي الأسلوب، بهي الرونق، حسن الديباجة، غزير الفكر، واسع الكلام، وفي معانيه عذوبة ولُطف، وقد قصر شعره على الغزل والوصف، ولم يتجاوز ذلك إلى المديح والهجاء، يردُّنا شعره إلى أجواء الغزل العذري الذي كان سائداً في العصر الأموي لدى مجنون ليلى وقيس بن ذريح وجميل، وهو يمتاز بالعقّة والعذوبة وصفاء

الطبع وصدق العاطفة، وفي شعره لذّة الغزل العذري العفيف الصادق الذي قل نظيره في عصر المجون والترف، وقد أشاد به الجاحظ والمبرد وابن المعتز، وشعره كله جيّد، وهو خال إبراهيم بن العباس الصّولي الشاعر والأديب. وله أخبار عديدة مع هارون الرشيد؛ من بينها أن الرشيد غاضب جارية له تدعى ماردة، وهي أمّ ولده المعتصم، ودام بينهما الغضب، وترفع كل منهما عن مصالحة الآخر، فأمر جعفر بن يحيى البرمكي -وقيل: بل الفضل بن الربيع- العباس أن يعمل في ذلك شيئاً، فقال!

وكلاهما متشوّق متطرب	العاشقان كلاهما متغضب
وكلاهما ممّا يعالج متعب	صدت مراغمة وصدّ مراغما
دبّ السلو له فقرّ المطلب	إنّ التّجانب إنّ تطاول منكما
دبّ السلو له فعزّ المطلب	إنّ التّجانب إنّ تمكّن منكما

ثم أمر إبراهيم الموصلي فعنّى بهما، فلمّا سمعه الرشيد بادر إلى جاريته فترضّاها، فلمّا علمت جاريته بالسبب؛ أمر بوصل العباس وإبراهيم الموصلي بعشرة آلاف درهم لكل واحد، وأمر لهما الرشيد بأربعين ألف درهم، وقد اختلف في عام موت العباس بن الأحنف، والأقرب أنه كان نحو عام (١٩٢هـ/ ٨٠٧م)، وهناك من آخر وفاته إلى ما بعد وفاة الرشيد. ومن بدائع شعره:

وكيف والخبّ إظهار وإضمار	أمنك للصّب عند الوصل تذكار
لم أنسها أبداً والنّاس أطوار	أما أنا فإذا أحببت جارية
صقوا اتّباعاً لأمرّي ثمّ أختار	يا ليت من ولدت حواء من ولد
باغٍ لقتلي وربّي منه لي جار	إني بليت بشخص ليس ينصفني

^١ ديوان العباس بن الأحنف (ص ٢٨).

^٢ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٣٢ - ٢٣٥)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ٢٠ - ٢٦)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٣٧٥ - ٣٧٩).

^٣ ديوان العباس بن الأحنف (ص ١٠٨).

كَالْبَدْرِ حِينَ بَدَا بِيضَاءُ مِعْطَارُ
دُرٍّ وَسَاعِدُهُ لِلْوَجْهِ سَتَارُ
فَالْعَيْنُ مُمْرِضَةٌ وَالشَّغْرُ سَحَّارُ
قَدْ مَسَّ فَاهَا فَفِيهِ مِنْهُ آثَارُ
إِذَا عَلَاهَا وَشَدَّ الثُّوبُ أَرْزَارُ
كَأَنَّمَا أَشْعَلَتْ فِي قَلْبِي النَّارُ
إِنَّ الْمُحِبَّ لَتَبْدُو مِنْهُ أَسْرَارُ

صَادَتْ فُؤَادِي مِكْسَالٌ مُنْعَمَةٌ
خَوْدٌ تُشِيرُ بِرَخْصٍ حَفٍّ مِعْصَمَةٌ
صَادَتْ بَعِينٍ وَتَغْرِ رَفٍّ لُؤْلُؤَةٌ
يَا لَيْتَ لِي قَدَحًا فِي رَاحَتِي أَبَدًا
طُوبَى لِنُوبٍ لَهَا إِنِّي لِأَحْسُدُهُ
مَا سُمِّيَتْ قَطُّ إِلَّا هَجْتُ أَذْكَرَهَا
يَا مَنْ يُسَائِلُ عَنْ وَجْدِي لِأُظْهِرَهُ

وقال في الشكوى!

حَتَّى إِذَا أَيْقَظُونِي لِلْهَوَى رَقَدُوا
بِثَقَلٍ مَا حَمَلُوا مِنْ وَدْهِمْ قَعَدُوا
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُهُمْ يُؤْفُونَ إِنْ عَهَدُوا
بَيْنَ الْجَوَانِحِ لَمْ يَشْغُرْ بِهِ أَحَدُ
لَا تَنْقُضِي أَبَدًا أَوْ يَنْقُضِي الْأَبَدُ

أَبْكِي الَّذِينَ أَذَاقُونِي مَوَدَّتَهُمْ
وَاسْتَنْهَضُونِي فَلَمَّا قُمْتُ مُنْتَصِبًا
جَاؤُوا عَلَيَّ وَلَمْ يُؤْفُوا بِعَهْدِهِمْ
لَأَخْرُجَنَّ مِنَ الدُّنْيَا وَخُبُّكُمْ
أَلْفَيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْهَمِّ مَعْرِفَةً

وقال يصف العشق ويذكر جارية تدعى "فوز"!

وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُحِبُّ وَيَعْشَقُ
وَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي مِنَ الْبَيْنِ أَشْفَقُ
وَحَقٌّ لَهُمْ أَنْ يَسْعَدُوا وَيُؤَفَّقُوا
حِرَاصٌ عَلَى اللَّقْيَا وَلَا نَتَفَرَّقُ
فَنَحْنُ إِلَى مَا كَانَ مِنْ ذَاكَ أَشَوْقُ

وَمَا النَّاسُ إِلَّا الْعَاشِقُونَ ذَوُو الْهَوَى
عَجِبْتُ لِفَوْزٍ خَوْفَتْنِي بَيْنِهَا
لَقَدْ سَعِدَ الْحَجَّاجُ إِذْ كُنْتُ فِيهِمْ
إِذَا لُمْتُهَا قَالَتْ وَعَيْشُكَ إِنَّنَا
فَإِنْ كُنْتَ مُشْتَاقًا إِلَيَّ أَنْ تَزُورَنَا

١ المصدر السابق (ص ٨٤).

٢ المصدر السابق (ص ١٩٧).

٢- ربيعة الرقي:

هو ربيعة بن ثابت بن لجأ بن العيزار بن لجأ الأسدي، وكُنيتُه أبو ثابت، كان منشؤه بالرقّة على الفرات الأعلى في بلاد الشام، وكان ضريحاً على غرار بشار، وفد على الخليفة المهدي ومدحه فأجازه ووصله، وله شعر في غاية الرقة والعدوبة والانسيابية، ويروى عنه أنه مدح يزيد بن حاتم وهجا يزيد بن أسلم الأشجعي، بعدما وصله الأول وقصّر في عطائه الثاني، فقال!

لَشَتَانِ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى	يَزِيدُ سُلَيْمٍ وَالْأَغَرُّ ابْنُ حَاتِمِ
يَزِيدُ سُلَيْمٍ سَأَلَمَ الْمَالَ وَالْفَتَى	أَخُو الْأَزْدِ لِلْأَمْوَالِ غَيْرُ مُسَالِمِ
فَهُمُ الْفَتَى الْأَزْدِيُّ إِتْلَافُ مَالِهِ	وَهُمُ الْفَتَى الْقَيْسِيُّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبُ الثَّمَنُ أُنِّي هَجَوْتُهُ	وَلَكِنِّي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ

وله قصّة طريفة مع العباس بن محمد بن علي -ابن عمّ السفاح والمنصور- حيث مدحه بقصيدة رائعة قائلاً!

لَوْ قِيلَ لِلْعَبَّاسِ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ	قُلْ لَا وَأَنْتَ مُخَلَّدٌ مَا قَالَهَا
مَا إِنَّ أَعْدَ مِنْ الْمَكَارِمِ خَصْلَةً	إِلَّا وَجَدْتُكَ عَمَّهَا أَوْ خَالَهَا
وَإِذَا الْمُلُوكُ تَسَايَرَتْ فِي بَلَدَةٍ	كَانُوا كَوَاكِبِهَا وَكُنْتَ هِلَالَهَا
إِنَّ الْمَكَارِمَ لَمْ تَزَلْ مَعْقُولَةً	حَتَّى خَلَّتْ بِرَاحَتَيْكَ عِقَالَهَا

ولكن العباس كان بخيلاً، فبعث إليه بدينارين فقط، وكان يأمل أن ينال ألفين، فاستشاط غضباً وهجاه قائلاً:

مَدَحْتُكَ مِدْحَةَ الطَّرْفِ الْمُجَلِّي	لِتَجْرِيَ فِي الْكِرَامِ كَمَا جَرِيَتْ
فَهَبْهَا مِدْحَةً ذَهَبَتْ ضَيَاعًا	كَذَبْتُ عَلَيْكَ فِيهَا وَافْتَرَيْتُ

^١ طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ١٤٥).

^٢ المصدر السابق (ص ١٤٤).

^٣ المصدر السابق.

وأهدى الدينارين لرسوله وبعث معه بهجائه، فشكاه إلى هارون الرشيد، وكان عمّ أبيه، وله منزلة عنده، فغضب الرشيد على الشاعر وأمر بإحضاره بُغية معاقبته، فقال له: يا أمير المؤمنين؛ اسمع قصّتي معه، فإن وجدت لي عذراً وإلا فافعل ما هممت به وأنت من دمي في حلٍّ وسعة؛ فلما أنشده مدحّته فيه؛ قال: يا أمير المؤمنين؛ كيف تراها؟ فقال: ما مدح الخلفاء بمثلها حسناً. فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنه وصلني عنها بدينارين!! فتنكر الرشيد للعبّاس وقال له: سوءاً لك، فضحت نفسك وأسلافك!! فخجل العباس ولم يزد، ثم وصله الرشيد بثلاثين ألف درهم وأوصاه ألا يذكر العباس في شعره، وقد مات ربيعة نحو عام (١٩٨هـ/ ٨١٣م)¹.

وربيعة شاعر مطبوع مجيد، مليح الشعر، عذب المعنى واللفظ، وشعره يفيض رقةً وسلاسةً وانسيابيةً وحُسناً، يروع بجمال ديباجته ونصاعة ألفاظه ولطف معانيه، وشعره كله سهلٌ صافٍ عذب، يمتاز برواء الطبع والرّشاقة والخفة، وتنوّع الأوزان والبحور، ولكن قلّت رواية شعره بين العوام بسبب بُعده عن العراق وقلة وفوده على الخلفاء، ولهذا خمل ذكره، وقد توزّعت أغراض شعره بين المديح والهجاء، غير أن أبرع ما اشتهر فيه هو الغزل؛ فقد تعلّق قلبه بعددٍ من الجواري مثل "عشمة" أمة رجل من قرقيسياء، و"رُخاص" من جواري الكرخ ببغداد، وجارية أخرى تدعى "سعاد"؛ وهذا ما جعله ينظّم غزلاً كثيراً، وقد شاع غزله حتى يُروى أن جواري الخليفة المهدي كُنَّ مَنْ دفعنه لاستقدامه حتى يسمعن شعره، وقد فضّله ابن المعتز على شعراء عصره فيما يخصّ الغزل قائلاً: "وما أجد أطبع ولا أصحّ غزلاً من ربيعة"، مقدّماً إياه على أبي نواس في الغزل قائلاً: "كان ربيعة أشعر غزلاً من أبي نواس؛ لأن في غزل أبي نواس برداً كثيراً، وغزل هذا سليم عذب"، وهو رأيٌ صائب؛ لأن أمثال أبي نواس وجماعته إنّما

١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ١٤٤ - ١٥٥)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣/ ١٣٠٣ - ١٣٠٤).

٢ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ١٤٤ - ١٥٥)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (ص ١٥٦ - ١٥٧)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٣٧٩ - ٣٨٢).

تغرَّلُوا من باب التَّرف والمجون ولم يعيشوا حالة تعلُّق كالتِّي عاشها ربِّيعَة
وأضرابه.

ومن روائع شعره ما قاله في جارية تدعى داح:

صاحِ إِنِّي غَيْرُ صاحِ	أَبَدًا مِنْ حُبِّ داحِ
صارَ قَدْحًا حُبُّ داحِ	فِي فؤادي المُسْتَباحِ
جَنَحَ القلبُ إِلَيْها	إِنَّ قلبِي ذو جَناحِ
وعَصَى فِي حُبِّ داحِ	كُلَّ لَـوْامٍ ولاحِ
لِيتَ لي رُسلًا مِنَ الجِـ	(م) نِ إِلَيْها والزِّيـ
تُبْلِغُ الحاجاتِ عَنِّي	ثُمَّ تَأْتِي بِالنَّجـ

ومن مליح شعره قوله:^٢

حَمَامَةٌ بَلَّغِي عَنِّي سَلامًا	حَبِيبًا لا أَطِيقُ لَهُ كَلامًا
وَقُولِي لِلَّتِي غَضِبَتْ عَلَيْنَا	عَلامَ وَفِيمَ يا سَكَنِي عَلامًا
أَفِي هُجْرانِ بَيْنِكَ تَصْرِمِينِي	وما رُمنّا لِصَرمِكمُ صِرامًا
وَلَمْ أَهْجُرْكَ مَقْلِيَّةً وَلَكِنْ	حَلَّاتُ عِراقِكمُ وَحَلَّاتُ شَما
عِـدِينِي أَنْ أَزُورَكَ إِنَّ داري	وَدَارَكَ لا أَرى لَهُما التِّيـ
وإنَّ جَمِيعَ أَهْلِكَ عَنفُونِي	وَلامُونِي وَلَمْ أَطِـقِ المَلاما
كَرامِ النَّاسِ قَبْلِي قَدْ أَحَبُّوا	كَرامَهُمُ وَأَحَبُّنَ الكِراما
جَمِيلٌ وَالكَثِيرُ قَدْ أَحَبَّـا	وَعُرُوءَةٌ مِنْ هَوى لاقى جِماما
هُمُ سَنُوا الهَوى وَالْحُبَّ قَبْلِي	وما أَلْفِي لَهُمُ فِي النَّاسِ داما

ومن مليح شعره قوله:^٣

أَعْلَلُ نَفْسي مِنْكَ بِالوَعْدِ وَالْمُنَى فَهَلَّا بَيَّاسٍ مِنْكَ قَلْبِي أُعْلِلُ

^١ طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ١٤٧).

^٢ المصدر السابق (ص ١٤٩ - ١٥٠).

^٣ المصدر السابق (ص ١٥١).



وَمَوْعِدِكَ الشَّهْدُ الْمُصَفَّى حَلَاوَةً
وَأَمْنَحْ طَرْفَ الْعَيْنِ غَيْرَكَ رِقْبَةً
لَكَيْمًا يَقُولُ النَّاسُ إِنَّ أَمْرًا رَمَى
لَقَدْ كَذَبَ الْوَاشُونَ بَغْيًا عَلَيْهِمَا
فَلَوْ كُنْتُ ذَا عَقْلٍ لَأَجْمَعْتُ صَرْمَكُمْ
وَكَيْفَ بِصَبْرِ الْقَلْبِ لَا كَيْفَ عَنْكُمْ
وَمِنْ أَيْنَ لَا مِنْ أَيْنَ يَحْرُمُ قَتْلَكُمْ
أَغْرَكَ أَنْ لَا صَبْرَ لِي فِي طَلَابِكُمْ
وَدُونَ نِجَازِ الْوَعْدِ صَابٌ وَحَنْظَلُ
حِذَارِ الْعِدَاءِ، وَالطَّرْفُ نَحْوُكَ أَمِيلُ
رَبِيعَةً فِي لَيْلَى بِسُوءٍ لَمْ يُبْطَلْ
وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا بَرِيءٌ مُعْقَلُ
بِرَائِي وَلَكِنِّي أَمْرٌ لَسْتُ أَعْقِلُ
وَبَابُ فَوَادِي دُونَ صَرْمِكَ مُقْفَلُ
وَقَتْلِي لَكُمْ يَا أُمَّ لَيْلَى مُحَلَّلُ
وَأَنْ لَيْسَ لِي إِلَّا عَلَيْكَ مُعَوَّلُ

٣- خالد بن يزيد الكاتب:

هو أبو الهيثم خالد بن يزيد التميمي الخراساني، أصله من خراسان ونشأ ببغداد، وعُرف بخالد الكاتب؛ إذ كان أحد الكتّاب لدى الجيش ببغداد، وصحبته القائد علي بن هشام أثناء خروجه إلى بلدة قم، فلمّا انتهى إليه أنه يقول الشعر؛ أحضره وقرّبه وكان يأنس به وصار من ندمائه إلى أن قُتل، وكان معاصراً لأبي تمام وبينهما مهاجاة، وله أخبار مع إبراهيم بن الخليفة المهدي والفضل ابن مروان أحد رجال الخليفة المعتصم، وكان المعتصم قد انتوى تشييد مدينة سامراء، فقال فيها خالد قبل بنائها!

عَزَمَ السُّرُورُ عَلَى الْمَقَا
بَلَدِ الْمَسَرَّةِ وَالْفُتُو
وَتَرَاهُ أَشْشَبَةَ مَنْزِلٍ
فَاللَّهُ يَغْمُرُهُ بِمَنْ
مِ بِسُرٍّ مَنْ رَا لِلْإِمَامِ
حِ الْمُسْتَنْبِرَاتِ الْعِظَامِ
فِي الْأَرْضِ بِالْبَلَدِ الْحَرَامِ
أُضْحَى بِهِ عِزُّ الْأَنَامِ

١ انظر: الأغاني، الأصفهاني (٢٠ / ١٧٣).

فذكرها الفضل بن مروان للمعتصم، فأعجب وتبرّك بها، ووصل خالدًا بخمسة آلاف درهم، ويقال: إنه قال مقطوعة من أربعة أبيات وصله عليها المعتصم بأربعة آلاف درهم.

ومن أروع ما قاله في وصف الليل:

رَقِدْتُ وَلَمْ تُرِثِ لِلسَّاهِرِ وَلَيْلُ الْمُحِبِّ بِلاَ آخِرِ
وَلَمْ تَدْرِ بَعْدَ ذَهَابِ الرُّقَا دِ مَا صَنَعَ الدَّمْعُ بِالنَّاطِرِ

وقد ولّاه محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم عملاً ببعض الثغور فسار إليه، لكنه ما لبث أن اختلط عقله ووسوس، وبقي كذلك زمناً طويلاً حتى مات سنة (٢٦٩هـ/ ٨٨٢م)!

وخالد شاعر مشهور رقيق الشعر، وقد قال الشعر في عدة أغراض، لكن غلب عليه الغزل والحكمة، ومن شعره قوله:

عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَنَّنِي بَكَ وَاثِقٌ صَدَدْتُ وَأَنْ النَّاسَ بِي مِنْكَ أَعْرِفُ
إِذَا كُنْتُ فِي كُلِّ بِكْلِكَ مُفْرَعًا فَأَيُّ مَكَانٍ مِنْ مَكَانِكَ أَلْطَفُ
فَمَنِّي إِذَا مَا غِبْتُ فِي كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْ الشَّوْقِ دَاعٍ كُلَّمَا غِبتَ يَهْتَفُ
إِلَى أَيْنَ لِي مِنْ حُسْنِ وَجْهِكَ مَذْهَبٌ وَمِنْ أَيْنَ لِي مِنْهُ إِذَا جَاءَ مَصْرِفُ

وقال:

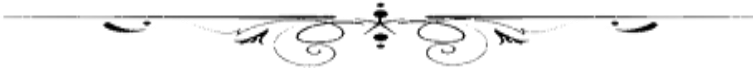
يَا تَارِكَ الْجِسْمِ بِلاَ قَلْبٍ إِنْ كُنْتُ أَهْوَكَ فَمَا ذَنْبِي
يَا مُفْرَدًا بِالْحُسْنِ أَفْرَدْتَنِي مِنْكَ بِطُولِ الشَّوْقِ وَالْحُبِّ
إِنْ تَكْ عَيْنِي أَبْصَرْتَ فِتْنَةً فَهَلْ عَلَى قَلْبِي مِنْ عَثَبٍ
فَحَسْبُكَ اللَّهُ لِمَا بِي كَمَا أَنْتَ فِي فِعْلِكَ بِي حَسْبِي

١ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٢٣٣).

٢ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٣٦٩ - ٣٧٠)؛ الأغاني، الأصفهاني (٢٠/ ١٧٢ - ١٨٢)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣/ ١٢٤٣ - ١٢٤٥)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٢٣٢ - ٢٣٧).

٣ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٣٧٠).

٤ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣/ ١٢٤٥).



وقال:

كَبِدُ شَقَّهَا غَلِيلُ التَّصَابِي
كَلَّ يَوْمٍ تَدْمَى بِجُرْحٍ مِنَ الشَّو
يَا سَقِيمَ الْجُفُونِ أَسْقَمْتَ جَسْمِي
إِنْ أَكُنْ مُذْنَبًا فَكُنْ حَسَنَ الْعَفْ
بَيْنَ عَثَبٍ وَجَفْوَةٍ وَعَذَابٍ
قِ وَنُوعٍ مَجْدَدٍ مِنْ عِتَابٍ
فَاشْفِنِي كَيْفَ شِئْتَ لَا بَكَ مَا بِي
وَأَوْ اجْعَلْ سِوَى الصُّدُودِ عِقَابِي

وقال:

وَضَعَ الدُّمُوعَ مَوَاضِعَ الْخُزْنِ
عَبْرَائِلُهُ نُطِقَ بِمَا ضَمِنَتْ
فِي كُلِّ جَارِحَةٍ لَهُ مُقَلٌّ
لَمْ يَدِرْ إِلَّا حِينَ أَسْلَمَهُ
حَيُّ الشَّهَادِ وَمَيِّتُ الْجَفْنِ
أَحْشَاؤُهُ وَلِسَانُهُ يَخْنِي
تَبْكِي عَلَى قَلْبٍ لَهُ رَهْنُ
قَدَّرَ لِلْحَظَّةِ وَاحِدِ الْحُسْنِ

وقال:

رَأَتْ مِنْهُ عَيْنِي مَنْظَرَيْنِ كَمَا رَأَتْ
عَشِيَّةً حَيَّانِي بِوَرْدٍ كَأَنَّهُ
وَنَارَ عَنِّي كَأَسَا كَأَنَّ حُبَابَهَا
وَرَاخَ وَفِعَلَ الرَّاحِ فِي حَرَكَاتِهِ
مِنَ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ الْمُنِيرِ عَلَى الْأَرْضِ
خُدُودٌ أَضْيَقَتْ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضِ
دُمُوعِي لَمَّا صَدَّ عَنْ مُقَلَّتِي عَمُضِي
كَفَعَلَ نَسِيمِ الرِّيحِ بِالْغُصْنِ الْغَضِ

٤- محمد بن داود الظاهري:

هو أبو بكر محمد بن داود بن علي بن خلف الأصفهاني، وُلِدَ نحو (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، أبوه داود هو صاحب المذهب الظاهري، فَدُسِبَ إِلَيْهِ، وَقَدْ تَتَلَمَذَ عَلَى يَدِ أَبِيهِ دَاوُدَ الظَّاهِرِيِّ، وَأَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى الشَّيْبَانِيُّ، حَفِظَ الْقُرْآنَ وَهُوَ فِي السَّابِعَةِ مِنْ عَمْرِهِ، وَقَدْ خَلَفَ أَبَاهُ عَلَى رِثَاةِ مَذْهَبِهِ، وَكَانَ عَلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْفَقْهِ وَالْعِلْمِ

١ انظر: المصدر السابق.

٢ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٣٦٩ - ٣٧٠).

٣ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٢٣٤).

والأدب، استخفَّ به بعض معاصريه إثر خلافته لأبيه، فسئل عن حدِّ السكر ومتى يكون الإنسان سكران، فقال: إذا عزيت عنه الهموم، وباح بسرِّه المكتوم؛ فعرفوا موضعه من العلم، مات باكراً في ريعان شبابه، في رمضان (٢٩٧هـ/ ٨٩٨م) وعمره اثنتان وأربعون سنة.

وله عدَّة مصنَّفات؛ مثل: "الزهرة"، "الإنذار والإعذار"، "مختار الأشعار"، "الإيجاز في الفقه"، "اختلاف مسائل الصحابة"، "الفرائض"، "المناسك"، "الوصل إلى معرفة الأصول"؛ وكانت بينه وبين أبي العباس ابن سريج مناظرات، ولما مات حزن عليه كثيراً!

وله شعر حسن عذب فائق الجودة، ومن ذلك قوله:

سَقَى اللهُ أَيَّامَنَا نَنَا وَلِيَالِيَا لَهَنَّ بِأَكْتَاكِ الشَّابَابِ مَلَاعِبُ
إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ بَغْرَةٌ وَشَاهِدُ أَوْقَاتِ الْمُحِبِّينَ غَائِبُ
وقال:

أَشْكُو غَلِيلَ فَوَادٍ أَنْتَ مُتَلِفُهُ شَكْوَى عَلِيلٍ إِلَى إِلْفٍ يُعَلِّلُهُ
سُقْمِي تَزِيدُ عَلَى الْأَيَّامِ كَثْرَتُهُ وَأَنْتَ فِي عِظَمِ مَا أَلْقَى ثَقَلَتُهُ
اللهُ حَرَّمَ قَتْلِي فِي الْهَوَى سَفَهَا وَأَنْتَ يَا قَاتِلِي ظُلْمًا ثَخَلَتُهُ
ومن روائع حكمه:

وَإِنِّي لِأَدْرِي أَنَّ فِي الصَّبْرِ رَاحَةً وَلَكِنَّ إِنْفَاقِي عَلَيَّ مِنَ الصَّبْرِ
فَلَا تُطْفِئِ نَارَ الشَّوْقِ بِالشَّوْقِ طَالِبَا سُلُّوا فَإِنَّ الْجَمَرَ يُسْعَرُ بِالْجَمْرِ

١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٢٠٤٦ - ٢٥٣٠)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٤/ ٢٥٩ - ٢٦١).

٢ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٢٥٢٧).

٣ انظر: المصدر السابق (٦/ ٢٥٢٧ - ٢٥٢٨).

٤ انظر: المصدر السابق (٦/ ٢٥٢٨).

خامسًا: شعراء اللّهُو والمجون والزندقة

(حماد عجرد- مطيع بن إياس- والبة بن الحباب- صالح ابن

عبد القدوس- آدم بن عبد العزيز- الحسين بن الضحاك)

انتشرت مظاهر المجون والخلاعة في العصر العباسي، وانتشرت الأديرة والحانات والملاهي وأزقة الخمر ودور النخاسة، كآثر من آثار حياة الترف والنعيم، واختلاط العرب بالعجم، واشتهر بين الماجنين شعراء كثيرون، ورغم أن المجون لم يعمّ المجتمع؛ الذي بقي معظمه محافظًا؛ فإن الآثار التي تركها الشعراء الماجنون جعلت مظاهر اللّهُو والخلاعة من أبرز مظاهر الحياة في العصر العباسي، وانتشرت كذلك الزندقة وما جرّته على المجتمع من مظاهر الانحراف، وقد تعقّب الخلفاء العباسيون أتباعها، وتشدّدوا في ملاحقة دُعائها والبطش بهم، حتى قُتل كثيرون بسببها، وصارت تهمة شائعة أخذ بها بعض من كان بريئًا منها، ويتّصف شعر المجون واللّهُو بالرّقة والخفّة والرّشاقة، وتظهر فيه كذلك معالم التّهتّك والمجون والاستهتار بالدّين، والفحش في الهجاء، والإباحية والخمر وذكر المنكرات، وربما تطرّق بعضهم إلى الغزل بالمدكّر من فرط المجون والفسق، وساعد على انتشار أشعارهم انتشار الحانات والجواري وأماكن اللّهُو؛ فكثيرًا ما كانت تُغنى أشعارهم وتشيع بين المغنّين وأهل المجون ورواة الأشعار والأخبار، وكثرت أخبارهم في كتب الأدب ولا سيّما كتاب "الأغاني" الذي أتى على ذكر الكثير منهم مع أخبارهم وأشعارهم.

ويُعتبر أبو نواس أحد أبرز الشعراء الماجنين في هذا العصر، وقد تقدّمت ترجمته، ومن الشعراء الماجنين كذلك: أبو الشبل عاصم بن وهب البرمجي، وعبد الله بن العباس حفيد الفضل بن الربيع وزير هارون الرشيد، ومن أبرز الشعراء الذين عُرِفوا بالمجون أو بالزندقة في العصر العباسي:

١- حمّاد عجرد:

هو أبو عمرو -أو أبو يحيى- حمّاد بن عمر بن يونس بن طليب الكوفي، مولى لبني سُؤاة بن عامر بن صعصعة، وقيل: بل مولى لبني عقيل، وأصله ومنشؤه بالكوفة، وكان يبري النبل كأبيه، ولم يتكسّب بصناعة غير الشعر، وقد غلب عليه لقب عجرد؛ إذ يُروى أنه مرّ به أعرابي رآه يلعب مع الصبية وهو عريان، فقال له: تعجرت يا غلام؛ أي: تعرّيت.

وهو من مخضرمي الدولتين، ومن طبقة بشار بن برد؛ حيث أدرك شطرًا من العصر الأموي، وكان من ندماء الخليفة الوليد بن يزيد، ولم يشتهر إلا في العصر العباسي، وكان من ندماء محمد بن أبي العباس السفاح حينما قدم واليًا على البصرة من قبل عمّه المنصور قبل أن يعزله لاحقًا لانغماسه في مجونه وشرابه مع حاشيته التي أتى بها إلى البصرة، ويُروى أنه كانت بينه وبين الإمام أبي حنيفة النعمان مودة وصلة قبل أن يفارقه الأخير لفسقه ومجونه، وكان واحدًا من ثلاثة يطلق عليهم اسم الحمّادين؛ هم: حمّاد بن الزبرقان وحمّاد الراوية وحمّاد عجرد، وكانت بينهم صحبة، وكلّ منهم شاعر وخطيب.

وكان حمّاد ماجنًا مستهزئًا، مُقبلاً على الشراب، وكان صديقًا لعددٍ من الماجنين مثل: مطيع بن إياس ووالبة بن الحباب، وكان يصادقهم مرة ويهاجمهم مرة، وبينه وبين بشار بن برد هجائيات مريّة؛ حيث هجا بشارًا قائلاً:

ويا أقبح من قردٍ إذا ما عمي القردُ

وقال أيضًا:

لو طليت جلده عنبرًا لننتت جلده العنبرًا

وكان هجاء شديدًا على بشار، حتى بكى، ف قيل له: أتبكي من هجاء حماد؟! فقال: والله ما أبكي من هجائه؛ ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه، فيصفني ولا أصفه؛ ثم قام يهجو ويردُّ عليه، فغلبه وتفوّق عليه بفضل بلاغته وجودة معانيه، فسقط عجرد أمامه.

وكان حمّاد ممّن اتّهموا بالزندقة، وجرت ملاحقته، وقد اختلّف في موته، فقيل: إنه اضطر إلى الفرار، ثم مرض وما لبث أن توفّي بين البصرة والأهواز؛ وقيل: بل شَبّب بزَيْنَب أخت محمد بن سليمان بن عليّ أمير البصرة، فطلبه، فأزّمع على الفرار، وأقام في الأهواز مستترًا حتى ظفر به بعض رجاله فقتلوه غيلة، وكان موته نحو عام (١٦١ هـ / ٧٧٨ م)¹.

وهو شاعر محسن مجيد، رقيق الطبع والحاشية، وفي شعره عذوبة وملاحة وتهنّك ومجون، وتنوّعت أغراضه بين المديح والثناء والوصف والحكمة، وله هجائيات كثيرة مؤلمة لا تخلو من الفحش، ومن شعره في الحكمة²:

إِنَّ الْكَرِيمَ لِيُخْفِيَ عَنْكَ غُسْرَتَهُ حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ مَجْهُودُ
وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلٌّ زُرْقُ الْعَيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سُودُ
إِذَا تَكَرَّمْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَلِيلَ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
أَبْرَقَ بِخَيْرٍ تُرْجَى لِلنَّوَالِ فَمَا تُرْجَى النَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْغُودُ
بُتَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعُكَ قِلَّتُهُ فَكُلْ مَا سَدَّ فَقْرًا فَهُوَ مُحْمُودُ

وَيُسْتَحْسَنُ مِنْ شعره قوله³:

كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ لَسْتَ تُنْكِرُهُ مَا دُمْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فِي يُسْرِ
مَتَصَنِّعٍ لَكَ فِي مَوَدَّتِهِ يَلْقَاكَ بِالْتَّرْحِيبِ وَالْبِشْرِ
يُطِيرِي الْوَفَاءَ وَذَا الْوَفَاءِ وَيُلِـ جِي الْغَدَرَ مَجْتَهِدًا وَذَا الْغَدْرِ
فَإِذَا عَدَا، وَالْدَّهْرُ ذُو غَيْرٍ دَهْرٌ عَلَيْكَ عَدَا مَعَ الدَّهْرِ

وقال يهجو صاحبه مطيع بن إلياس، في ممازحة بينهما⁴:

¹ انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٤ / ٢٠٥ - ٢٤٣)؛ طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٥٨ - ٦٣)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢ / ٢١٠ - ٢١٤)؛ تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢ / ٧٨ - ٧٩)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢ / ٧٨ - ٧٩).

² انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٦١).

³ انظر: المصدر السابق (ص ٥٩).

⁴ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (١٤ / ٢٣٠).

يَا مُطِيعُ يَا مُطِيعُ أَنْتَ إِنْسَانٌ رَقِيعُ
وَعَنِ الْخَيْرِ بَطِيءُ وَإِلَى الشَّرِّ سَرِيعُ

٢- مُطِيعُ بْنُ إِيَّاسَ:

هو مُطِيعُ بْنُ إِيَّاسَ بْنِ مُسْلِمَ بْنِ أَبِي قَرْعَةَ سَلَمَةَ بْنِ نُوْفَلِ الْكِنَانِيِّ، كَانَ أَبُوهُ مِنْ شَعْرَاءِ الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ، مِنْ أَهْلِ فَلَسْطِينَ، وَكَانَ فِي الْمَدَدِ الَّذِي أَرْسَلَهُ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ مَعَ الْحَجَّاجِ لِقِتَالِ ابْنِ الزَّيْبِرِ وَابْنِ الْأَشْعَثِ، وَكَانَ مُطِيعُ مِنْ مَخْضَرَمِيِّ الدَّوْلَتَيْنِ، مِنْ طَبَقَةِ بَشَّارٍ وَحَمَادٍ، وَكَانَ ظَرِيفًا خَلِيفًا مَاجِنًا مَلِيحًا، رَفِيقُ الْعَشْرَةِ، سَرِيعُ الْبَدِيهَةِ، وَكَانَ مَنْطَرِحًا عَلَى اللَّذَّاتِ، مُقْبِلًا عَلَى اللَّهِوِ وَالشَّرَابِ، وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَاجِنِي عَصْرِهِ صَحْبَةٌ؛ مِثْلُ: حَمَادٍ عَجْرَدٍ وَيَحْيَى ابْنَ زِيَادِ الْحَارِثِيِّ وَوَالِبَةَ بْنِ الْحَبَابِ.

وَمُطِيعُ أَخْبَارُ مَعَ الْخَلِيفَةِ الْأُمَوِيِّ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدٍ، فَلَمَّا أَقْبَلَتِ الدَّوْلَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ؛ أَقْبَلَ عَلَى مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ فَمَدَحَهُ وَنَالَ صَلَاتَهُ، ثُمَّ انْقَطَعَ إِلَى جَعْفَرِ ابْنِ الْمَنْصُورِ فَمَدَحَهُ وَنَادَمَهُ حَتَّى وَفَاتِهِ، وَكَانَ مَنْشُؤُهُ بِالْكُوفَةِ وَأَقَامَ آخِرَ حَيَاتِهِ فِي بَغْدَادٍ وَمَاتَ بِهَا عَامَ (١٦٩هـ / ٧٨٥م).

وَهُوَ مَعْنَى اتِّهَمُوا بِالزَّنْدَقَةِ، وَيُرْوَى أَنَّ هَارُونَ الرَّشِيدَ قَدْ اسْتَدْعَى ابْنَتَهُ وَسَأَلَهَا، فَاعْتَرَفَتْ قَائِلَةً: هَذَا دِينٌ عَلَّمَنِيهِ أَبِي، وَتُبْتُ مِنْهُ؛ فَقَبِلَ مِنْهَا وَرَدَّهَا؛ لَكِنْ أَخْبَارُهُ مَعَ الْخَلِيفَةِ الْمَهْدِيِّ وَالِدِ هَارُونَ الرَّشِيدِ وَرِضَاهُ عَنْهُ تَجَعَّلْنَا نَشْكُ فِي مَا رُويَ عَنْ زَنْدَقَتِهِ، وَلَا سِيَّمًا أَنَّ الزَّنْدَقَةَ كَانَتْ تَهْمَةً شَائِعَةً فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ، وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تُسَاقُ لِتَبْرِيرِ الْقَتْلِ وَالتَّخْلُصِ مِنَ الْخُصُومِ.

وَفِي شَعْرِ مُطِيعٍ سَلَاسَةٌ وَعَذُوبَةٌ وَخَفَّةٌ وَرَشَافَةٌ، وَمِيلٌ إِلَى الْأَوْزَانِ الْخَفِيفَةِ وَالْمَجْزُوءَةِ، وَحَسٌّ مَرْهَفٌ أُنِيقُ، وَمِمَّا قَالَ:

^١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٨٤-٨٦)؛ تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٩١)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ١٠١ - ١٠٤)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٣٨٩ - ٣٩٣).

^٢ انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٣/ ٢٠٤).

إِنَّ قَلْبِي قَدْ تَصَابَى بَعْدَمَا كَانَ أَنَابَا
 وَرَمَاهُ الْخُبُّ مِنْهُ بِسِـهَامٍ فَأَصَابَا
 قَدْ دَهَاهُ شَايِنٌ يَلُـ سَبَسُ فِي الْجِيدِ سَخَابَا
 فَهُوَ بَدْرٌ فِي نِقَابٍ فَإِذَا أَلْقَى النِّقَابَا
 قُلْتُ شَمْسٌ يَوْمَ دَجْنٍ حَسَرْتُ عَنْهَا السَّحَابَا

ومما قال أيضاً يصف الصِّبَا ويذكر الخمر ومجالس القيان واللَّهْوُ:

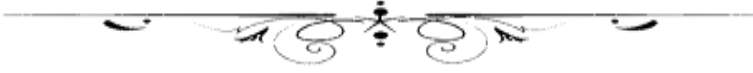
وَيَلِي مِمَّنْ جَفَانِي وَحُبُّهُ قَدْ بَرَانِي
 وَطِيفُهُ يَلْقَانِي وَشَخْصُهُ غَيْرُ دَانٍ
 أَغْرُ كَالْبَدْرِ يُغْشَى بِحُسْنِهِ الْعَيْنَانِ
 جَارِيٌّ لَا تَعْدِلَانِي فِي حَبِّهِ وَدَعَانِي
 فَرُبَّ يَوْمٍ قَصِيرٍ فِي جَوْسَقٍ وَجِنَانٍ
 بِالرَّاحِ فِيهِ يُحْيَا وَالْقَصْفِ وَالرَّيْحَانِ
 وَعِنْدَنَا قَيْنَتَانِ وَجَهَاهُمَا حَسَنَتَانِ
 غَوَّادُهُمَا غَرْدَانِ كَأَنَّهُمَا يَنْطِقَانِ
 وَعِنْدَنَا صَاحِبَانِ لِلدَّهْرِ لَا يَخْضَعَانِ

وكان مطيع صديقاً ليحيى بن زياد الحارثي ثم فسد ما بينهما، فقال:

كُنْتُ وَيَحْيَى كَيَدَيَّ وَاحِدٍ نَرَمِي جَمِيعًا وَنَرَامِي مَعَا
 إِنَّ عَضَّنِي الدَّهْرُ فَقَدْ عَضَّهُ أَوْ مُوجِعٌ نَالٌ فَقَدْ أَوْجَعَا
 أَوْ نَامَ نَامَتُ أَعْيُنُ أَرْبَعٍ مَنَا وَإِنْ صُمَّ فَلَنْ أَسْمَعَا
 حَتَّى إِذَا مَا الشَّيْبُ فِي مَفْرَقِي لَاحَ وَفِي عَارِضِهِ أَسْرَعَا
 سَعَى سَاعَةً بَيْنَنَا دَائِبَا فَكَادَ حَبْلُ الْوَصْلِ أَنْ يُقْطَعَا
 فَكَادَ أَعْدَاءُ لَنَا لَمْ تَزَلْ تَطْمَعُ فِي تَفْرِيقِنَا مَطْمَعَا

^١ انظر: المصدر السابق (٢٠٥/١٣).

^٢ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٨٥).



حتى إذا استمكن من عثرة أوقد نيران القلى مسرعا

ولما مات رثاه قائلاً:

يا أهلي ابكوا لقلبي القرح
يا خير من يحسن البطاء له الد
والدموع الذوارف السفح
أقدار لم يبتكر ولم يرح
يوم ومن كان أمس للمدح

ومن رقيق غزله قوله:

لقد أحببت جهد الخ
وتحكي بعد غيب الن
غزال أحور العين
كان البدر ذات الخا
(م) ب ذات الخال والعقد
يوم مطروقاً من الشهد
له خال على الخد
ل وأفى ليلة السعد

٣- والبة بن الحباب:

هو والبة بن الحباب الأسدي، كوفي، وهو أشهر ماجني عصره، وله في الخلاعة والتهتك ما ليس لأحد، وكان شاعراً ظريفاً، وهو من أفسد أبا نواس وعلمه الخلاعة والمجون، فكان أستاذه ومؤدبه؛ إذ التقى به وهو في صحبة أبي بجير الأسدي حينما سار إلى الأهواز والياً عليها من قبل المنصور، فرآه وأعجب به، ورأى فيه مخايل النبوغ والشاعرية والقابلية للمجون، فأخذه معه ومرّنه على الشعر.

وكان والبة طيب النادرة، بارعاً في فنون الأدب، عارفاً بأيام العرب، وشعره بين الرديء والجيد، وأحسنه ما كان حول الغزل والمجون، وفيه رقة وليونة وملاحة، وميل إلى الأوزان الخفيفة والمجزوءة، ولا يخلو من مظاهر التهتك والمجون والخلاعة، وقد بلغ به درجة من الفحش بلا ستر أو حياء، وله غزل رقيق ووصف

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (١٣/ ٢٠٣).

٢ طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٨٦).

للخمر والغزل بالغلمان، وفي ذلك معظم شعره، وله بجانب ذلك شيءٌ من المديح والهجاء والأدب، ولكنه أقلُّ مستوى، حتى إنَّه قدم بغداد زمن المهدي فهجا كُلاً من بشار وأبي العتاهية، فغلباه وفضحاه، فانصرف عائداً إلى الكوفة وقد حُمِّل ذكره، وما لبث أن توفِّي قبيل عام (١٧٠ هـ / ٧٨٦ م)!

ويُروى أن الخليفة المهدي قد استملح شعره، وذكر قوله:

ولها لا ذنب لها حُبُّ كأطرافِ الرِّماحِ
في القلبِ يقدحُ والحشا فالقلبُ مجروحُ النواحي

ف قيل له: ما يمنعك من منادمته يا أمير المؤمنين؟ فقال: يمنعني قوله:

قُلْتُ لِسَاقِينَا عَلَى خَلْوَةٍ أَذْنِ كَذَا رَأْسُكَ مِنْ رَاسِي
وَنَمْ عَلَى صَدْرِكَ لِي سَاعَةً إِنِّي امْرُؤٌ أَنْكِحُ جُلَاسِي

أفتريد أن تكون من جالسه على هذه الشريطة؟!

ومن شعره قوله:

أَحْسَنُ مِنْ دُرٍّ وَمَرْجَانٍ آثَارُ إِنْسَانٍ يَأْنِسَانِ
قَدْ عَضَّهُ ذُو حَنْقٍ مُشْفِقٌ وَقَلْبُهُ لَيْسَ بِغَضْبَانِ
عَاقِبَنِي مُنْتَقِمًا جَهْدَهُ وَقَدْ جَزَانِي كُلَّ إِحْسَانِ
لَوْ كَانَ يَدْرِي أَنَّهُ مُحْسِنٌ بَدَلْ إِحْسَانًا بِهُجْرَانِ

وهو القائل؟

قَدْ قَابَلْتُنَا الْكُؤُوسُ وَدَابَرْتُنَا النَّحُوسُ
وَالْيَوْمَ هُرْمُزُ رُوزِ قَدْ عَظَّمْتُهُ الْمَجُوسُ

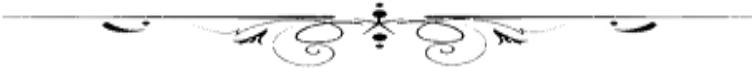
^١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٧٧- ٧٩)؛ الأغاني، الأصفهاني (١٨ / ٧٣- ٧٨)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢ / ١٠٠- ١٠١).

^٢ كذا في الأصل والشرط الأول مكسور بهذا اللفظ.

^٣ الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (١٨ / ٧٣).

^٤ طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٧٨).

^٥ المصدر السابق (ص ٧٨- ٧٩).



وَذَاكَ مَمَّا تَسُوسُ	لَمْ تُخْطِهِ فِي حَسَابِ
قَدْ غَابَ عَنَّا الْبَسُوسُ	وَنَحْنُ عِنْدَ عَمِيدِ
أَوْصَىٰ بِهَا جَالِنُوسُ	نُعِيرُ كَأْسًا وَكَأْسًا
وَالْكَأْسُ أَيْضًا عَرُوسُ	أَنَا وَجِي عَرُوسِ
إِحْدَاهُمَا الْخَنْدَرِيسُ	يَسْقِي عَرُوسَ عَرُوسًا
وَهَزَّنَا إِبْلِيسُ	حَتَّىٰ إِذَا مَا انْتَشَيْنَا
مَمَّا وَنَحْنُ جُلُوسُ	رَأَيْتُ أَعْجَبَ شَيْءٍ
وَذَاكَ هَذَا يَبُوسُ	هَذَا يَقْبَلُ هَذَا

وهذه الأبيات تروى خطأً لأبي نواس؛ وذلك لأن شهرة أبي نواس جعلت كثيراً من الناس يروون له أشعاراً منحولة في المجون.

٤- صالح بن عبد القدوس:

هو أبو الفضل صالح بن عبد القدوس بن عبد الله البصري، من موالى الأزد، وهو من مخضرمي الدولتين، وكان شاعراً أديباً فاضلاً غزير الأدب، وافر الشعر، كان يجلس للوعظ في مسجد البصرة ويقصُّ على الناس، وهو ممَّن أتهموا بالزندقة؛ إذ تأثر بحلقات الجدل والمتكلمين فأمن بالعقيدة المانوية التي تنصُّ على أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظلمة، ولكل منهما إله خاص، ويروى عنه في ذلك قصص كثيرة؛ إذ يُقال: إنه كان في مجلس أدب وحانت الصلاة وقام القوم، فقام معهم صالح فتوضَّأ ثم صَلَّى فأحسن، ف قيل له: أتصلي هذه الصلاة ومذهبك ما تذكر؟! فقال: إنَّما هو رسم البلد، وعادة الجسد.

ولمَّا شاعت الزندقة، وبدأ الخليفة المهدي في تعقُّب الزنادقة؛ فرَّ صالح بن عبد القدوس من البصرة إلى الشام، ولكن أدركه جنود المهدي وبُعِثَ به إليه، وكان قد نُهي إليه أنه قال أبياتاً في التعريض برسول الله ﷺ، فلمَّا سأله عنها قال: لا

والله- يا أمير المؤمنين، ما أشركت بالله طرفة عين، ولا تسفك دمي على الشُّبهة؛
وأخذ يستعطفه ويرقق قلبه حتى مال إليه المهدي وأعجب بأدبه وفصاحته
وبيانه فعفا عنه، فلمَّا همَّ بالخروج قال: أنشدني قصيدتك السينية؛ فقال:

وَإِنْ مَنْ أَدْبَنَهُ فِي الصِّبَا كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي غَرْسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا نَاضِرًا مِنْ بَعْدِ مَا أَبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ
وَالشَّيْخُ لَا يَتْرُكُ أَخْلَاقَهُ حَتَّى يُوَارِيَ فِي ثَرَى رَمْسِهِ
إِذَا ارْعَوَى عَادَ إِلَى جَهْلِهِ كَذِي الضَّنَا عَادَ إِلَى نُكْسِهِ

فقال المهدي: هذا الكلام يشبه هذا الكلام، وهذا الشعر من نمط ذلك الشعر -
يعني الأبيات التي نُسبت إليه- ونحن نتمثل بوصيتك؛ فأمر به وضربت عنقه،
وصُلب على الجسر، وقيل: بل الذي قتله هو هارون الرشيد؛ ومن شعره ما دلَّ
على أنه أَسَنَّ وَعَمِيَّ في آخر عمره!

ورغم شيوع زندقة صالح بن عبد القدوس وما رُوي عنها؛ فإننا لا نستطيع
الاطمئنان إلى صحَّة ما رُوي عنه؛ والسبب في ذلك أن صالحًا كان يجلس للوعظ
بالبصرة، وشعره يفيض بالحكمة، وينمُّ عن شخصية عاقلة متَّزنة بعيدة عن
صفات الزندقة والمجون، وغير بعيد من أن يكون أخذ بها ظلمًا كما أخذ غيره.

ويُعتبر صالح بن عبد القدوس من أفضل شعراء عصره، وهو شاعر أديب أكثر
مجيد، وشعره فائق الجودة، عميق في معانيه، ولفظه رصين جزل، في بناء متين
مُحكَّم غاية في القوَّة والانسيابية، وهو ما يدلُّ على سعة علمه وعمق اطلاعه
على العلوم والمعارف، وإحاطته بالجدل والمذاهب الكلامية والحكم المنقولة،
وتغلب على أغراضه الحكمة والوعظ والحثُّ على مكارم الأخلاق وطاعة الله،
والزهد في الدنيا والترغيب في الجنة، وذكر الموت والقبر، وشعره مكتنَّظٌ بالحكم
والأمثال والنصح!

١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٨٠- ٨٢)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٤/ ١٤٤٥- ١٤٤٦)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٤٩٢- ٤٩٣).
٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٩١- ٩٢)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٣٩٣- ٣٩٩).

ومن شعره قوله:

صَرَمْتُ حِبَالَكَ بَعْدَ وَصْلِكَ زَيْنَبُ
وَكَذَلِكَ ذِكْرُ الْغَانِيَاتِ فَإِنَّهُ
فَدَعَ الصِّبَا فَلَقْدَ عَدَاكَ زَمَانُهُ
ومنها في النصيح:

وَاحْذَرِ مُعَاشِرَةَ الدَّنِيِّ فَإِنَّهَا
يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَاثِقٌ
تُعِدِّي كَمَا يُعِدِّي الصَّحِيحُ الْأَجْرُبُ
وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهُوَ الْعَقْرُبُ

ومن شعره قوله:

تَأْوَبَنِي هَمٌّ فَبِتُّ أَخَاطِبُهُ
لِمَا رَابَنِي مِنْ رَيْبٍ دَهْرٍ أَضَرَّنِي
وَأَسْهَرَنِي طُولُ التَّفَكُّرِ إِنَّنِي
أَرَى عَاجِزًا يُدْعَى جَلِيدًا لِعُشْمِهِ
وَعَفَا يُسَمَّى عَاجِزًا لِعَفَافِهِ
وَأَحْمَقَ مَصْنُوعًا لَهُ فِي أُمُورِهِ
عَلَى غَيْرِ حَزْمٍ فِي الْأُمُورِ وَلَا تَقَى
وَلَيْسَ بِعَجْزٍ الْمَرَّةِ إِخْطَاؤُهُ الْغِنَى
وَلَكِنَّهُ قَبْضُ الْإِلَهِ وَبَسْطُهُ
إِذَا كَمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرَّةِ عَقْلُهُ

ويعلق ابن المعتز في طبقاته على هذه القصيدة قائلاً: "فيا عجباً كيف يمكن أن

يقول زنديق مثل هذا القول، وكيف يكون قائله زنديقاً؟!

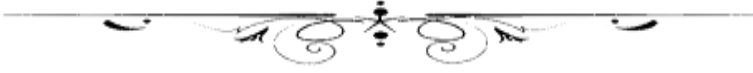
ومن روائع شعره، وهي مليئة بالحكم:

١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٤ / ١٤٤٦).

٢ انظر: المصدر السابق.

٣ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٨١ - ٨٢).

٤ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢ / ٤٩٢).



المَرءُ يَجْمَعُ والزَّمَانُ يُفَرِّقُ
وَزِنَ الكلامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا
وَمِنَ الرِّجَالِ إِذَا اسْتَوَتْ أَحْلَامُهُمْ
حَتَّى يُجِيلَ بَكلٍ وادِّ قَلْبُهُ
مَا النَّاسُ إِلَّا عَامِلَانِ فَعَامِلٌ
وَالنَّاسُ فِي طَلَبِ المَعاشِ وَإِنَّمَا
لَوْ يُرَزَّقُونَ النَّاسُ حَسَبَ عَقُولِهِمْ
لَكُنَّ فَضْلُ المَلِيكِ عَلَيْهِمْ
وَإِذَا الجَنَازَةُ والعَرُوسُ تَلَاقِيَا
سَكَتَ الَّذِي تَبَعَ العَرُوسَ مُبَهَّئًا

وَيَنْظِلُ يَرْقَعُ والخُطُوبُ تُمَزَّقُ
يُبْدِي عُيُوبَ ذَوِي العُقُولِ المُنْطِقُ
مَنْ يُسْتَشَارُ إِذَا اسْتَشِيرَ فَيُطْرَقُ
فَيَرَى وَيَعْرِفُ مَا يَقُولُ فَيَنْطِقُ
قَدْ مَاتَ مِنْ عَطَشٍ وَآخِرُ يَغْرَقُ
بِالجَدِّ يُرَزَّقُ مِنْهُمْ مَنْ يُرَزَّقُ
أَلْفَيْتَ أَكْثَرَ مَنْ تَرَى يَتَصَدَّقُ
هَذَا عَلَيْهِ مُوسَى وَمُضَيِّقُ
وَرَأَيْتَ دَمْعَ نَوَاحٍ يَتَرَفَّرُ
وَرَأَيْتَ مَنْ تَبَعَ الجَنَازَةَ يَنْطِقُ

ومن مختار شعره في الوعظ!

فَوَحَقَ مَنْ سَمَكَ السَّمَاءَ بِقُدْرَةٍ
إِنَّ المَصِيرَ عَلَى الذُّنُوبِ لِهَالِكٌ
وَالأَرْضَ صَايَرَ لِلْعِبَادِ مَهَادَا
صَدَّقْتَ قَوْلِي أَوْ أَرَدْتَ عِنَادَا

وكلها أشعار تجود بالحكمة والعظة والتدئين، لا أثر فيها لما روي عن زندقته، ممَّا يجعل التسليم بزندقته أمرًا صعبًا؛ فأشعاره تنمُّ عن شخصية متزنة بعيدة كل البعد عن الزندقة، ويروي كلُّ من ابن المعتز وابن خلكان أن أحمد بن إبراهيم المعبر قال: رأيت صالح بن عبد القدوس في المنام ضاحكًا مستبشرًا، فقلت له: ما فعل الله بك، وكيف نجوت مما كنت فيه؟! فقال: إني وردت على ربِّ لا تخفى عليه خافية، فاستقبلني برحمته وقال: قد علمتُ براءتك مما كنت تُعرف به وتُرمي باعتقاده.^١

١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٨٢).
٢ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٨٢)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٤٩٣).

٥- آدم بن عبد العزيز:

هو آدم بن عبد العزيز حفيد الخليفة الأموي الزاهد عمر بن عبد العزيز، كان ممَّن حُمِلوا من بني أمية إلى أبي العباس السَّقَّاح كي يقتلهم، فاستشفع آدم إليه بفضل جدِّه، فقَبِل منه السَّقَّاح وأطلقه، وكان مقيمًا في العراق ونزل بغداد، وكان أوَّل مره قد انغمس في المجون والخمر، وقد اتَّهم بالزندقة، فضربه المهدي ثلاثمائة سوط، فقال: واللَّهِ ما أشركت بالله طرفة عين، ومتى رأيت قرشيًا تزندق؟! فخلَّى سبيله، وبعدها تاب آدم وتنسَّك وأخذ يقول في الزهد؛ ومن شعره قوله؟

اسقني واسقِ خليلي	في مَدَى اللَّيْلِ الطَّوِيلِ
قهوة صهباء صرفًا	سُبَيْتٌ مِنْ نَهْرٍ بِيَلٍ
لونها أصفر صافٍ	وهي كالمِسكِ الْفَتِيلِ
في لسان المرء منها	مثل طعم الزنجبيل
ريحها ينفخ منها	ساطعًا من رأس ميل
من ينل منها ثلاثًا	يُنْسَ منها جِاج السَّبِيلِ
فمتى ما نال خمسًا	تركَّزَ كالتَّيْبِ
ليس يدري حين ذاك	ما دبير من قبيل
إن سمعي عن كلام الـ	لائمي فيها التَّقييل
لشديد الوفر إني	غير مطواع ذليل
قل لمن يلحاك فيها	من فقيه أو نبيل
أنت دغها وازج أخرى	من رحيق السلسبيل
نعطش اليوم ونسقى	في غد نغت الطلول

١ انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٥ / ١٩٤ - ١٩٧)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢ / ١٠٦ - ١٠٨).

٢ انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٥ / ١٩٥).

وهو شاعر ظريف رقيق الشعر، لكن انهماكه في الشرب أخمل ذكره، وقد تنوعت أغراضه بين الهجاء والمدح والفخر، غير أن أشعار الخمر أو المجون أكثر ما عُرف عنه، وله بعض الزهديات التي قالها إثر توبته، من بينها:

أُحِبُّكَ حُبِّينِ حُبُّ الهَوَى وَحُبُّ لَأَتُكَ أَهْلٌ لَذَاكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الهَوَى فَشَغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشْفُكَ لِي الْحُبِّ حَتَّى أَرَاكَ
فَلَا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ

وقد نُسبت تلك الأبيات إلى رابعة العدوية كواحدة من أروع أشعار التَّصَوُّف، ولكن الأرجح نسبها إليه، والمراد بالحُبِّ الأوَّل ما يكون من شكر الله تعالى على نعمه، وأمَّا الحُبِّ الثاني فهو المختص بحب جماله وجلاله تعالى، وهو بالضبط ذاك الحب الصوفي الخالص المتجرّد من أهواء الدنيا.

٦- الحسين بن الضحّاك:

هو أبو عليّ الحسين بن الضحّاك بن ياسر البصري، الباهلي بالولاء، أصله من خراسان، وهو من موالي ولد الصحابي سلمان بن ربيعة الباهلي رضي الله عنه، وعُرف بالخليع لمجونه وخلاعته، وُلد نحو عام (١٦٢هـ/ ٧٧٨م) في البصرة.

وهو شاعر مطبوع ظريف ماجن، رائع الشعر، متصرّف في فنونه وأضرابه، أخذ الشعر وهو غلام عن والبة بن الحباب، وأدرك أبا نواس وكانت بينهما قصص ووقائع طريفة، وكان الحسين يكافئ أبا نواس في مجونه وحلاوة شعره، لكنّه لم ينل نفس شهرته وحظوته، وقد خلط بعض الرّواة في شعره ونسبوه لأبي نواس.

وكان الحسين بن الضحّاك نديمًا للخلفاء منذ أواخر عصر الأميين ومن تلاه من الخلفاء إلى عهد المستعين، وقد جفاه المأمون أوَّل أمره؛ لما قاله في رثاء الأميين:

هَلَّا بَقِيَتْ لِسَدِّ فَاقَتِنَا أَبَدًا وَكَانَ لِغَيْرِكَ التَّلَفُّ

١ انظر: المصدر السابق (١٥/ ١٩٦).

٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٤٠٢).

قَدْ كَانَ فِيكَ لِمَنْ مَضَى خَلْفٌ فَاَلْيَوْمَ أَعُوزَ بَعْدَكَ الْخَلْفُ

ثم رضي عنه بعد ذلك ووصله، وقد عُمِرَ طويلا حتى أَسَنَ، ومات نحو عام (٢٥٠هـ/ ٨٦٤م).

وللحسين بن الضَّحَّاك أشعار كثيرة؛ إذ كان متفنِّنا في الشعر، وشعره عالي الذوق، حسن الديباجة، يمتاز بالرَّشاقة والخفَّة والرِّقَّة والعذوبة والحلاوة والظرف وحسن الملائمة مع جرس الكلمات، وكان يعتني بلغته ولفظه، وتنوّعت أغراضه بين المديح والعتاب والرثاء والهجاء، غير أن أبرز ما اشتهر به هو المجون والخمر، وكان به ميل إلى الأوزان القصار والمجزوءة حتى يتَّفَق مع غرض المغنِّين والمغنِّيات!

وله من الشعر في الخمر:

أَيَا مَنْ طَرْفُهُ سِحْرٌ	وَيَا مَنْ رِيقُهُ خَمْرٌ
تَجَاسَرْتُ فَكَاشَفْتُ	كَ لَمَّا غَلِبَ الصَّبْرُ
وَمَا أَحْسَنَ مِنْ مِثْلٍ	كَ أَنْ يُنْتَهَكَ السِّتْرُ
فَإِنْ عَنَّفَنِي النَّاسُ	فَفِي وَجْهِكَ لِي عُذْرُ

وله أيضًا:

لَا وَحْبِيَّكَ لَا أَصَا	فِيحُ بِالْذَّمِّ مَذْمَعَا
مَنْ بَكَى شَجْوَهُ اسْتَرَا	حَ وَإِنْ كَانَ مُوجِعَا
كَبِيدِي فِي هَوَاكَ أَسَا	قَمُّ مِنْ أَنْ تُقْطِعَا
لَمْ تَدْعِ صُورَةَ الضَّنَى	فِي السُّقْمِ مَوْضِعَا

ومن رقيق شعره في المجون، وقد نُسِبَ خطأً إلى أبي نواس:

^١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٤٦- ٢٤٨)؛ معجم الأدباء، ياقوت (٣/ ١٠٦٣- ١٠٧٠)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ١٤٦- ١٦٨)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢٩٧- ٢٩٩)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٤/ ٤٦٢- ٤٦٦).

^٢ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ١٦٤).

^٣ انظر: المصدر السابق.

هـ شَابِ الْمُجُونَ بِالنُّسْكِ
رِ وَيُكْنِي عَنْ أَبِيَّتِ الْمَلِكِ
مِنْ كَفِّ غِلْجِ يَدَيْنِ بِالْإِفْكِ
وَدَيْنِ مُوسَى وَمُنْشَى الْفَلَكِ
وَأَبْدَلْتُهُ السُّكُونَ بِالْحَرَكَ
فِي لَيْنِ صَيْنِيَّةٍ مِنَ الْفَلَكِ
فِي النَّاسِ مِنْ هَاتِكَ وَمَنْتَهكَ

وَأَسْعَدَهُ الْحَبِيبُ عَلَى هَوَاهُ
مِنْ التَّقْصِيرِ إِنْسَانٌ سِوَاهُ

وَشَاطِرِي اللَّسَانِ مَخْلَقُ التَّكْرِيبِ
بَاتَ بَغْمِي يَرْتَادُ صَالِيَةَ النَّا
دَسَسْتُ صَفْرَاءَ كَالشُّعَاعِ لَهُ
يَحْلِفُ فِي طَبْخِهَا بِمِلَّتِهِ
حَتَّى إِذَا رَنَحْتُهُ سَوَّرْتُهَا
كَشَفْتُ عَنْ عَجْنَةٍ مُزْعَفَرَةٍ
فَكَانَ مَا كَانَ لَا أَبُوحُ بِهِ

ومن ظريف شعره:

مُحِبٌّ نَالَ مَكْتَبًا مُنَاهُ
فَأَصْبَحَ لَا يُلَامُ بِمَا جَنَاهُ

١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٤٧-٢٤٨).

٢ انظر: المصدر السابق.

سادسًا: شعراء الزهد والتصوف

(عبد الله بن المبارك - محمد بن كناسة - محمود الوراق - الحلاج -

الشَّبلي)

كان للتيارات الدينيّة وما رافقها من مظاهر الوعظ والإرشاد؛ أثرٌ كبير على الشعر العربي في العصر العباسي، سواء أكان في تيار الزهد، أم في تيار التَّصوُّف؛ إذ لجأ الكثيرون من الوعاظ والزهاد والمتصوفون إلى الشعر للتعبير عن آرائهم وأفكارهم، فكان مظهرًا من مظاهر الدعوة، وسبيلًا للتعبير عمّا في نفوسهم ومعتقداتهم، وكانت المساجد مكتظة بأهل الوعظ والنُّسَّاء والأئمة والفقه والحديث ومن عُرفوا بالورع، وكان للشعر الديني المتمثّل في الزهد والتَّصوُّف جمهور عريض من الناس، ولا نبالغ إذا قلنا: إنه كان أعظم أثرًا في المجتمع وأوسع قبولًا من شعر المجون واللهو؛ لأن اللهو -على شيوعه في العصر العباسي- لم يعمّ المجتمع كله، ولم تتأثر به الطبقات المحافظة والمتدينة، بخلاف شعر الزهد والتصوّف الذي كان أكثر قبولًا وأصدق عاطفة، وكان الناس يبتناشدون أشعار الزهاد والأئمة والمتصوّفة؛ فقد رُويت أشعار دينية على لسان العديد من الفقهاء والشيخوخ ودعاة الزهد من أمثال: مالك بن دينار، والإمام محمد بن إدريس الشافعي، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، وعبد الله بن المبارك، ومحمّد بن كناسة، ومحمود الوراق؛ وكانت أشعارهم تدور في فلك الوعظ والتذكير بالآخرة، والترهيد في الدنيا، والتنبيه على الموت، والدعوة إلى الله، وما رافق ذلك من أغراض الوعظ، بل إنَّ عددًا من الشعراء قد قالوا شعرًا في الزهد لكونه غرضًا شعريًّا له جمهور، حتى بعض الماجنين أمثال أبي نواس.

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٣٩٩ - ٤٠٢).

وما لبث أن بدأ تيار التصوف في الانبثاق والظهور منذ العصر العباسي الأول، قبل أن ينضج مع العصر العباسي الثاني وما تلاه، على نحو ما نرى في أشعار ذي النون المصري، وأبي زيد البسطامي، والجنيد، والحلاج؛ وما زُوي عن رابعة العدوية؛ حيث نمت في أشعارهم فكرة المحبة الإلهية، وما رافق ذلك من علو النبرة الذاتية في أشعارهم، متأثرين بتطور المعارف والعلوم ولا سيَّما علوم الفلسفة والمنطق والحكمة، على أنه ينبغي التنبيه على أن شعر الزهد والتَّصوُّف في العصر العباسي لم يخلُ من المنحول، لذا ينبغي الحذر عند روايته والأخذ عنه.

ومن أشهر شعراء الزهد والتصوف في العصر العباسي:

١ - عبد الله بن المبارك:

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي، مولى بني حنظلة، وأمه من خوارزم، ولد نحو عام (١١٨هـ / ٧٣٦م)، وكان معروفاً بالزهد والورع منذ صغره؛ إذ تتلمذ على يد عددٍ من أئمة التابعين مثل سفيان الثوري، ومالك ابن أنس، وإسماعيل بن خالد، والأعمش، وهشام بن عروة، وحدث عنه كثيرون، وكان ذا حظٍ وافر من الفقه والعلم والزهد، وكان كثير الانقطاع، محباً للخلة والتَّوَرُّع، وفضائله ومناقبة كثيرة جداً، وكان كثير الحج ومُحِبّاً للفقروبيت في فضائله قصص شتى؛ إذ قال عنه سفيان بن عيينة: نظرت في أمره وأمر الصحابة فما رأيتهم يَفْضُلون عليه إلا في صحبتهم رسول الله ﷺ؛ وقال إسماعيل بن عياش: ما على وجه الأرض مثله، وما أعلم خصلةً من الخير إلا وقد جعلها الله في ابن المبارك؛ وقال أبو عمر بن عبد البر: أجمع العلماء على قبوله وجلالته وإمامته وعدله؛ ويُروى أنه قدم الرِّقَّةَ وبها الخليفة هارون الرشيد، فتجمهر حوله الناس واحتفلوا به، فأبصرته أم ولدٍ للرشيد من قصرها وقالت: ما للناس؟! ف قيل لها: قدم رجل من علماء خراسان يقال له: عبد الله بن المبارك،

١ انظر: المصدر السابق (٤/ ٤٧٣ - ٤٧٧).

فانجفل الناس إليه؛ فقالت: هذا هو الملك، لا مُلك هارون الرشيد الذي يجمع الناس عليه بالسُّوط والعصا والرغبة والرهبة!! ويُروى من فضائله أنه مرَّ أثناء سيره إلى الحج على امرأة فقيرة، فرقَّ لحالها ودفع إليها المال ورجع عن حجِّه، وكان يعمل في التجارة ويربح مألًا وفيرًا فينفقه على الصدقة وأهل العبادة والزُّهد والعلم، وقد مات ابن المبارك في شهر رمضان (عام ١٨١ هـ / ٧٩٧ م) وهو عائد من إحدى غزواته^١ ولابن المبارك عدة أشعار في الزهد؛ منها قوله:

قَدْ يَفْتَحُ الْمَرْءُ حَانُوتًا لِمَتَجَرِّهِ وَقَدْ فَتَحَتْ لَكَ الْحَانُوتَ بِالذِّينِ
بَيْنَ الْأَسَاطِينِ حَانُوتٌ بَلَا غَلَقٍ تَبْتَاعُ بِالذِّينِ أَمْوَالَ الْمَسَاكِينِ
صَيَّرَتْ دِينَكَ شَاهِيًّا تَصِيدُ بِهِ وَلَيْسَ يُفْلِحُ أَصْحَابُ الشَّوَاهِينِ

ومن قوله يَقْدِّمُ الْغَزْوَ وَالْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَنِ الْعِبَادَةِ وَالْاعْتِكَافِ:

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ جِيدَهُ بِذُمُوعِهِ فَتُحَوِّرُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يُتْعَبُ خَيْلُهُ فِي بَاطِلٍ فَخِيُولُنَا يَوْمَ الصَّيْحَةِ تَتَّعِبُ
رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا وَهَجُ السَّنَابِكِ وَالْغَبَارُ الْأَطْيَبُ
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِينَا قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ
لَا يَسْتَوِي بَغْبَارِ خَيْلِ اللَّهِ فِي أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانِ نَارٍ تَلْهَبُ
هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ، لَا يَكْذِبُ

وكان يقول إذا خرج إلى مكة:

بَعْضُ الْحَيَاةِ وَخَوْفُ اللَّهِ أَخْرَجَنِي وَبَيْعُ نَفْسِي لِمَا لَيْسَتْ لَهُ نَمْنَا

^١ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ٣٢ - ٣٤)؛ تهذيب البداية والنهاية لابن كثير، إعداد: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم (٣/ ١٢٩٨ - ١٣٠٠).

^٢ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ٣٣)؛ تهذيب البداية والنهاية لابن كثير، إعداد: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم (٣/ ١٣٠٠).

^٣ انظر: تهذيب البداية والنهاية لابن كثير، إعداد: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم (٣/ ١٣٠٠).

^٤ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ٣٣).

٢- محمد بن كناسة:

هو أبو يحيى محمد بن عبد الله بن عبد الأعلى الأسدي، وكناسة هو لقب أبيه، وهو ينتسب إلى بني أسد بن خزيمة، وهو كوفي المولد والمنشأ، وهو ابن أخت إبراهيم بن أدهم، وكان تقيًا صالحًا معروفًا بالزهد والورع والدين، ويُعتبر من فصحاء بني أسد، وله دراية بالشعر، وكانت له جارية تدعى دنانير، يقصدها أهل الأدب للمذاكرة والمساجلة في الشعر، له من الكتب: "الأنواء"، و"معاني الشعر"، و"سرقات الكميت من القرآن وغيره"، مات بالكوفة عام (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م).

ومن شعره يرثي خاله إبراهيم بن أدهم:

رَأَيْتُكَ مَا يَكْفِيكَ مَا دُونَهُ الْغِنَى	وَقَدْ كَانَ يَكْفِي دُونَ ذَاكَ ابْنُ أَدْهَمَا
وَكَانَ يَرَى الدُّنْيَا قَلِيلًا كَثِيرَهَا	فَكَانَ لِأَمْرِ اللَّهِ فِيهَا مُعْظَمَا
أَمَاتَ الْهَوَى حَتَّى تَجَنَّبَهُ الْهَوَى	كَمَا اجْتَنَبَ الْجَانِي الدَّمَ الطَّالِبَ الدَّمَا
وَالْحِلْمَ سُلْطَانٌ عَلَى الْجَهْلِ عِنْدَهُ	فَمَا يَسْتَطِيعُ الْجَهْلُ أَنْ يَتْرَمَرَمَا
وَأَكْثَرَ مَا تَلْقَاهُ فِي الْقَوْمِ صَامِتًا	وَإِنْ قَالَ بَدُّ الْقَائِلِينَ وَأَحْكَمَا
يُرَى مُسْتَكِينًا خَاضِعًا مُتَوَاضِعًا	وَلَيْثًا إِذَا لَاقَى الْكَتِيبَةَ ضَيْغَمَا
عَلَى الْجَدَثِ الْغَرْبِيِّ مِنْ آلِ وَائِلٍ	سَلَامٌ وَبِرٌّ مَا أَبْرَّ وَأَكْرَمَا

وقال في الزهد:

وَمِنْ عَجَبِ الدُّنْيَا تَبْقِيكَ لِلْبَلَى	وَأَنَّكَ فِيهَا لِلْبَقَاءِ مُرِيدُ
وَأَيُّ بَنِي الْأَيَّامِ إِلَّا وَعِنْدَهُ	مِنَ الدَّهْرِ ذَنْبٌ طَارِفٌ وَتَلِيدُ
وَمَنْ يَأْمَنُ الْأَيَّامَ أَمَّا أَنْبِيَائُهَا	فَخَطَرٌ وَأَمَّا فَجْعُهَا فَعَتِيدُ
إِذَا عَاتَدَتِ النَّفْسُ الرِّضَاعَ مِنَ الْهَوَى	فَإِنَّ فُطَامَ النَّفْسِ عَنْهُ شَدِيدُ

^١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (١٣/ ٢٣٧ - ٢٤٣)، الفهرست، ابن النديم (ص ٢١٢ - ٢١٣).

^٢ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (١٣/ ٢٤٠).

^٣ انظر: المصدر السابق.

٣- محمود الورّاق:

هو محمود بن الحسن الورّاق، بغدادى المنشأ على الأرجح، وقيل: بل هو كوفي؛ ولعلّ لقب الوراق أتى من عمله بمهنة الوراقة والنسخ، ولا تعرف شيئاً كثيراً عن أخباره سوى أنه كان رفيقاً لأبي عاصم بن وهب، وكانا على قدر من المجون والخمر، ويبدو أنه تنسّك بعد ذلك، فسلك سبيل الزهد والتقوى، وعُرف بالفضل والنبل والصلاة، وكان لديه عددٌ من الجواري، من بينهنّ جارية تُدعى سكن وكانت آية في الحسن والأدب والشعر، ويبدو أنه تعرّض لضائقة مالية فاضطر إلى عرضها للبيع، فاشتراها أحد الطاهريّين بمئة ألف درهم، فقال لها: يا سكن؛ البسي ثيابك واخرجي؛ فهتّت بالخروج وقد أذرفت دمعها وقالت: يا محمود؛ هذا كان آخر أمري وأمرك أن اخترت عليّ مئة ألف درهم!! فقال محمود: فتجلسين على الفقر والخسف؟ قالت: نعم، أصبر أنا وتضجر أنت!! فأعتقها وتزوّجها وهمّ برّد المال، لكن الطاهري كان شهماً فقال: أما إذ فعلت ما فعلت فالمال لكما، والله لا رددته إلى ملكي؛ وعاش بعدها محمود في سعة وغبطة، ومن أخباره أنه كان حسن العلاقة بجواريه؛ إذ كانت له جارية أخرى تُدعى "نشوى"، كانت أثيرة عنده، ثم ماتت، فراثها رثاء حارّاً، وغير بعيد من خلال ارتباطه بجواريه أنه كان يعمل في النخاسة أول حياته، ولا يُعرف متى وُلد، واختلف القول في عام وفاته، والأرجح أنها كانت في خلافة المعتصم، وقد مات في سنٍّ عالية.

ويبدو أن الورّاق كان شاعراً مثقفاً مطلعاً، وقد التقى بعدد من شعراء عصره، وحمل لواء الزهد، وأكثر شعره في الحكمة والمواعظ والأمثال والقيم النبيلة؛ إذ كان شاعر الحكمة والموعظة والدّعوة الصادقة، وله شيء من وصف الشيب والشباب والغزل، وشعره له طوابع فكرية وعلى قدرٍ من عمق المعنى، وهو بسيط سهل، وما وصل إلينا منه مقطعات قصار، أشاد به ابن المعتز قائلاً: "شعر محمود كثير، وأكثره أمثال وحكم ومواعظ وأدب، وليس يقصر بهذا الفن

عن صالح بن عبد القدوس وسابق البربري"، ومدحه الثعالي والحصري
القيرواني والخطيب البغداي وابن الجوزي والذهبي والصفدي.
ومن شعره قوله^١:

يُمَثِّلُ ذُو اللَّبِّ فِي نَفْسِهِ	مَصَائِبُهُ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَا
فَإِنْ نَزَلَتْ بَغْتَةً لَمْ تَرَعُهُ	لِمَا كَانَ فِي نَفْسِهِ مَثَلَا
رَأَى الْهَمَّ يُفْضِي إِلَى آخِرِ	فَصَّيَّرَ آخِرَهُ أَوَّلَا
وَذُو الْجَهْلِ يَأْمَنُ أَيَّامَهُ	وَيَنْسَى مَصَارِعَ مَنْ قَدْ خَلَا
فَإِنْ بَدَّهَتْهُ صُرُوفُ الزَّمَانِ	بِبَعْضِ مَصَائِبِهِ أَعْوَلَا
وَلَوْ قَدَّمَ الْحَزَمَ فِي أَمْرِهِ	لَعَلَّمَهُ الصَّبْرَ عِنْدَ الْبَلَا

ومن شعره قوله^٢:

هِيَ الدُّنْيَا فَلَا يَغْرُزُكَ مِنْهَا	مَخَايِلُ تَسْتَفْزُ ذَوِي الْعُقُولِ
أَقَلُّ قَلِيلِهَا يَكْفِيكَ مِنْهَا	وَلَكِنْ لَسْتَ تَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ
تَشِيدُ وَتَبْنِي فِي كُلِّ يَوْمٍ	وَأَنْتَ عَلَى التَّجْهُّزِ لِلرَّحِيلِ
وَمَنْ هَذَا عَلَى الْأَيَّامِ تَبْقَى	مَضَارِبُهُ بِمَدْرَجَةِ السُّيُولِ

ومن شعره في النصيح^٣:

رَجَعْتُ عَلَى السَّفِيهِ بِفَضْلِ حِلْمٍ	فَكَانَ الْحِلْمُ عَنْهُ لَهُ لِجَامَا
وَوَظَنَ بِي السَّفَاةَ فَلَمْ يَجِدْنِي	أُسَافِهُهُ وَقُلْتُ لَهُ سَلَامَا
فَقَامَ يَجُرُّ رِجْلَيْهِ ذَلِيلًا	وَقَدْ كَسَبَ الْمَذْمَةَ وَالْمَلَامَا
وَفَضَّلُ الْحِلْمِ أَبْلَغُ فِي سَفِيهِ	وَأَحْرَى أَنْ يَنَالَ بِهِ انْتِقَامَا

^١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٣٣٤ - ٣٣٥)؛ ديوان محمود الوراق (ص ١١ -

٦٠)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧).

^٢ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٣٣٥).

^٣ ديوان محمود الوراق (ص ١٧٣).

^٤ المصدر السابق (ص ١٧٨).

٤- الحسين بن منصور (الحلاج):

هو أبو مُغيث الحسين بن منصور الشهير بلقب "الحلاج"، كان جدُّه مجوسياً ثم أسلم، وهو أحد أشهر المتصوّفة وأهل الزهد، وهو من أهل البيضاء في فارس، وقيل: بل من خراسان، ونشأ بواسط في العراق، وصحب جماعة من المتصوّفة كالجنيد بن محمد، وعمرو بن عثمان المكي، وأبي الحسن النوري، والفوطي وغيرهم، وقد أظهر الزُّهد والتَّنسُّك، وأخذ يطوف في البلدان، وتردّد إلى مكة بغرض الحج والتَّعبُد، ويُرَوَّى عنه أنه كان يقيم في الحجر لا يستظل بسقف، ويصوم الدهر، ولا يأكل إلا بعض القرص، ولا يشرب إلا قليلاً من الماء، وكان يجلس على صخرة في شدّة الحر في جبل أبي قُبَيْس، وقد دخل بغداد وأقام فيها، وكان يُظهر الوعظ والتَّنسُّك، حتى ذاع صيته، واشتهر أمره؛ من حلو كلامه ومنطقه وشعره، وصار له جمهور عريض وانساق له مريدون كُثُر، وله أقوال وأخبار كثيرة.

وقد اختلفت الآراء حول الحلاج، وكثرت فيه الأقاويل؛ فمنهم من قال: إنّه عالم رباني؛ فصَحَّحوه حاله ودَوَّنوا كلامه، وعدُّوه من المتصوّفة، وبرّؤوه مما نُسب إليه، بينما اتَّهمه آخرون بالكفر والإلحاد، ووصفوه بالكذب والانحراف وتعلُّم السحر، ونفوه عن الصوفية، ويبدو أنه كانت للحلاج بالفعل عدّة شطحات فكرية؛ إذ نُقلت عنه بعض الآراء الغريبة، ورُويت عنه حيل وأحوال وكرامات عديدة، وأنّه ادعى الربوبية والقدرة على شفاء المرضى وإحياء الموتى ومعرفته بأخبار الناس وسرائرهم، فكان ذلك سبباً لاتهمه بالشعوذة وتعلُّم السحر، وروى بعضهم أنه كان يعارض القرآن، وأنّه كان يتألّه ويقول: إله في السماء وإله في الأرض؛ واختلفت الآراء فيه بين مَنْ نفى عنه تلك الأخبار، ومن ادعاها عليه؛ إذ يقول أبو بكر الصولي: جالستُ الحلاج فرأيتُ جاهلاً يتعاقل، وعيياً يتبالغ، وفاجراً يتزهد؛ وسُئِل عنه أبو العباس بن سريج فقال: هذا رجل خَفِيَ عَنِّي حاله، وما أقول فيه شيئاً.

وانتهى ما أثير حوله إلى حامد بن العباس وزير الخليفة المقتدر، فاستدعاه وحبسه، واستدعى جماعة من أصحابه فأقرؤا عليه بتأله وانحرافه، فأنكر الحلاج ذلك وقال: أعوذ بالله أن أدعي الربوبية أو النبوة؛ وإنما أنا رجل أعبد الله وأكثر له الصوم والصلاة وفعل الخير، لا أعرف غير ذلك؛ وقال: ظهري حيي ودمي حرام، وما يحل لكم أن تتأولوا عليّ بما يبيحه، وأنا اعتقادي الإسلام ومذهبي السنة وتفضيل الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، وبقية العشرة من الصحابة، رضوان الله عليهم، ولي كتب في السنة موجودة عند الوراقين، فالله الله في دمي.

وكان الوزير قد حبسه لديه زمناً يراقب أفعاله، ويروى أنه صحّ لديه ما انتهى إليه، وأجمع علماء بغداد على كفره وزندقته، وأفتوا بقتله وصلبه، وكتب الوزير بذلك إلى الخليفة المقتدر، فأمر بتسليمه إلى صاحب الشرطة، وبأن يضربه ألف سوط حتى يموت، فإن بقي حيّاً ضرب مثلاً، ثم قُطعت يداه ورجلاه؛ فكان كذلك، وأحرقت جثته وألقي رمادها في نهر دجلة، وعُلقت رأسه يومين ببغداد، وطيف بها في مختلف البلدان، وكان مقتل الحلاج في عام (٣٠٨هـ / ٩٢٠م).

غير أنّ جانباً ممّا رُوِيَ عن الحلاج قد لا يخلو من المبالغة، وربّما كان منحوّلاً عليه، ولكنّ الحق أن تباين الأقاويل بهذه الدرجة، وإجماع علماء بغداد وأهل الرأي على قتله، فضلاً عمّا قال في بعض شعره، يكشف فعلاً عن مدى شطحاته البعيدة وآرائه الغريبة، التي تعتبر خروجاً ممقوتاً لا يقبلها السياق العام، مما يرجّح لدينا صدق جانبٍ ممّا قيل فيه، ومن أدلة ذلك ما قال في هذا البيت:

رَأَيْتُ رَبِّي بَعَيْنِ قَلْبِي فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنْتَ

وللحلاج ديوان شعر صغير، وكلُّه في التَّصوُّف، وهو رشيق خفيف عذب اللفظ، لكنَّه على خفَّته عميق المعنى، حار العاطفة، متبحِّر في النبرة الذاتية، مفصَّح فيه عن أفكاره ومعتقداته، ومن شعره قوله:

ما زِلْتُ أَطْفُو فِي بَحَارِ الْهَوَى
فَتَارَةً يَرْفَعُنِي مَوْجُهَا
حَتَّى إِذَا صَيَّرَنِي فِي الْهَوَى
نَادَيْتُ يَا مَنْ لَمْ أَبْحِ بِاسْمِهِ
تَقِيكَ نَفْسِي السُّوءَ مِنْ حَاكِمٍ
يَرْفَعُنِي الْمَوْجُ وَأَنْحَطُ
وَتَارَةً أَهْوِي وَأَنْغَطُ
إِلَى مَكَانٍ مَا لَهُ شَطُ
وَلَمْ أَخْنُهُ فِي الْهَوَى قَطُ
مَا كَانَ هَذَا بَيْنَنَا الشَّرْطُ

ومن بديع شعره في الحكمة قوله:

لِلْعِلْمِ أَهْلٌ وَلِلْإِيمَانِ تَرْتِيبُ
وَالْعِلْمُ عِلْمَانِ مَطْبُوعٌ وَمُكْتَسَبُ
وَالدَّهْرُ يَوْمَانِ مَذْمُومٌ وَمُمْتَدِّحُ
فَاسْمِعْ بِقَلْبِكَ مَا يَأْتِيكَ عَنْ ثِقَةٍ
إِنِّي ارْتَقَيْتُ إِلَى طُودٍ بِلا قَدَمٍ
وَحُضْتُ بَحْرًا وَلَمْ يَرْسُبْ بِهِ قَدَمِي
حَصْبَاؤُهُ جَوْهَرٌ لَمْ تَدُنْ مِنْهُ يَدُ
شَرِبْتُ مِنْ مَائِهِ رِيًّا بِغَيْرِ فَمٍ
لَأَنَّ رُوحِي قَدِيمًا فِيهِ قَدْ عَطَشْتُ
إِنِّي يَتِيمٌ وَلِي أَبٌ أَلُودُ بِهِ
أَعْمَى بَصِيرٌ وَإِنِّي أَبْلَهُ فِطْنُ
وَفِتْيَةٍ عَرَفُوا مَا قَدْ عَرَفْتُ فَهُمْ
تَعَارَفْتُ فِي قَدِيمِ الدَّرِّ أَنْفُسُهُمْ

وَاللِّغْلُومِ وَأَهْلِيهَا تَجَارِيِبُ
وَالْبَحْرُ بَحْرَانِ مَرْكُوبٌ وَمَرْهُوبُ
النَّاسُ إِنِّانِ مَمْنُوحٌ وَمَسْلُوبُ
وَانْظُرْ بِفَهْمِكَ فَالتَّمْيِيزُ مَوْهُوبُ
لَهُ مِرَاقٍ عَلَى غَيْرِي مَصَاعِبُ
خَاصَّتُهُ رُوحِي وَقَلْبِي مِنْهُ مَرْغُوبُ
لَكِنَّهُ بِيَدِ الْأَفْهَامِ مِنْهُوبُ
وَالْمَاءُ قَدْ كَانَ بِالْأَفْوَاهِ مَشْرُوبُ
وَالْجِسْمُ مَا مَسَّهُ مِنْ قَبْلُ تَرْكِيبُ
قَلْبِي لِغَيْبَتِهِ مَا عِشْتُ مَكْرُوبُ
وَلِي كَلَامٌ إِذَا مَا شِئْتُ مَقْلُوبُ
صَحْبٌ وَمَنْ يَحْظُ بِالْخَيْرَاتِ مَصْحُوبُ
فَأَشْرَقَتْ شَمْسُهُمُ وَالْدَّهْرُ غَرِيبُ

١ المصدر السابق.

٢ المصدر السابق (ص ٢٨ - ٢٩).

ولا يخلو ديوان الحلاج -على صغره- من قصائد جياذ، تنمُّ بالفعل عن موهبته الشعرية، غير أنَّ شعره دخل عليه بعض الخلط مع شعراء آخرين، وله غير شعره مؤلفات عديدة، نذكر منها: "العدل والتوحيد"، "الأصول والفروع"، "خلق الإنسان والبيان"، "نور النور"، "خزائن الخيرات"، "الصدق والإخلاص"، "الأمثال والأبواب"، "اليقين". وبعض كتبه حمل أسماء غريبة مثل "النجم إذا هوى"، "الذاريات ذروا"، "القيامة والقيامات"، "الصلاة والصلوات"؛ وهو ما يشير فعلاً إلى صدق بعض ما انتهى إلينا من انحرافه وشطحاته، غير أن كتبه إما أنها أُحرقت أو ضاعت؛ فلم يبق من آثاره غير ديوان شعره الصغير، ونزر يسير من أفكاره وأقواله^١.

٥- أبو بكر الشبلي:

هو أبو بكر دُلف بن جحدر، وقيل: بل جعفر بن يونس، عُرف بالشبلي الصالح، وهو خراساني الأصل، بغدادى المولد والمنشأ، وقيل: بل وُلد في سامراء، وكان جليل القدر، مالكي المذهب، رافق أبا القاسم الجُنيد وعدداً من الشيوخ والصلحاء، وكان والياً على دُنباوند، ثم اعتزل وهجر النعيم والتَّرف، وأخذ سبيله في السَّهر والعبادة والتَّنسُّك، وكان معظماً للشعائر، مكثراً من السَّهر، وله عدة أخبار عديدة في الوعظ، مات أواخر عام (٣٣٤هـ / ٩٤٦م)، ودُفِن في مقبرة الخيزران^٢.

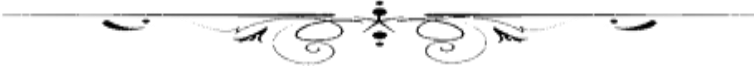
ومن شعره قوله^٣:

عَوْدُونِي الْوَصَالَ وَالْوَصْلُ عَذْبُ وَرَمَوْنِي بِالصَّدِّ وَالصَّدُّ صَغْبُ
زَعَمُوا حِينَ عَاتَبُوا أَنَّ دَنْبِي فَرَطُ حَبِي لَهُمْ وَمَا ذَاكَ دَنْبُ

^١ انظر: طبقات الصوفية، السلمي (ص ٢٣٦ - ٢٣٩)؛ البداية والنهاية، ابن كثير (٣ / ١٥٤٥ - ١٥٥٤).

^٢ انظر: طبقات الصوفية، السلمي (ص ٢٥٧ - ٢٦٥)؛ وفيات الأعيان (٢ / ٢٧٣ - ٢٧٦).

^٣ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢ / ٢٧٣).



لا وَحَقَّ الْخُضُوعِ عِنْدَ التَّلَاقِي مَا جَزَا مَنْ يُحِبُّ إِلَّا يُحِبُّ

ومن شعره قوله:

مَضَتْ الشَّيْبَةُ وَالْحَبِيبَةُ فَاَنْبَرَى دَمْعَانِ فِي الْأَجْفَانِ يَزْدَحْمَانِ
مَا أَنْصَفْتَنِي الْحَادِثَاتُ رَمَيْنَنِي بِمُودَعَيْنِ وَلَيْسَ لِي قَلْبَانِ

ومن شعره قوله:

عَلَى بُعْدِكَ لَا يَصْبِرُ رُ مَن عَادَتْهُ الْقُرْبُ
وَلَا يَقْوَى عَلَى هَجْرٍ كَ مَن تَيَّمَهُ الْخُبُ
فَإِنْ لَمْ تَرَكَ الْعَيْنُ فَقَدْ يُبْصِرُكَ الْقَلْبُ

^١ المصدر السابق (٢/ ٢٧٦).

^٢ المصدر السابق (٢/ ٢٧٥).

سابعاً: شعراء آل البيت

(الشريف الرضي- الشريف المرتضى)

١ - الشريف الرّضي:

هو أبو الحسن محمّد بن الطاهر أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد ابن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن عليّ (زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويُعرف أيضاً بالموسوي، تكلّى بأبي الحسن تيمُّناً بجده الأعلى ولم يكن له ولد بهذا الاسم، وُلد في بغداد نحو عام (٣٥٩هـ / ٩٧٠م)، وكانت الخلافة العبّاسية آنذاك قد وصلت إلى قمّة درجات الضعف والتدهور، وسيطر عليها فعليّاً بنو بويه، وكان العالم الإسلامي ممزّقاً إلى عدّة إمارات متناحرة ومتصارعة.

كان أبوه أبو أحمد الحسين نقيب الطالبين، وكان رجلاً فاضلاً من نُبلاء الطالبين وفضلائهم، وكان ذا مكانة مرموقة، معروفاً بالهمة وحُسن التدبير، تولّى نقابة الطالبين وأوكلت إليه إمارة الحج والنّظر في المظالم، وكان ذا علاقة حسنة بالخلفاء العبّاسيين وبني بويه، وظلّ في عزة ومكانة إلى أن اعتقله عضد الدولة ابن بويه حاكم بغداد والمستبد بالخلافة عام (٣٦٩هـ / ٩٧٩م)، وسجنه وصادر أملاكه ونكبه وأسرته، واستمرّت تلك المحنة نحو سبع سنوات حتى أطلقه شرف الدولة ابن عضد الدولة من محبسه، وردّ إليه منزلته وأملاكه.

وكان ولده أبو الحسن محمد -المعروف بالشريف الرّضي- كأبيه شجاعة وسموّاً ونُبلاً، وكان فيه طموح وإحساس بالفخر والرّفعة، فهو من آل البيت، من نسل الحسين بن عليّ رضي الله عنه، وقد قال الشعر وهو دون الخامسة عشرة من عمره، وكان ذكياً حاضراً البديهة، متطليعاً إلى العلم، مُقبلاً على مجالس العلماء والأدباء، فنشأ نشأة علمية، وسرعان ما تعلّم العلوم اللغوية والأدبية علي يد أبي علي الفارسي وأبي الفتح عثمان بن جني وأبي منصور المربزاني الأديب

الراوية، وتعمَّق في علوم الحديث والقراءات والفقه وعلم الأنساب، ولم يكتفِ بمذهبٍ فقهي واحد؛ بل درس جميع المذاهب السُّنِّيَّة والشَّيعِيَّة، بل أحاط أيضًا بمذهب الاعتزال على يد القاضي أبي الحسين عبد الجبار المعتزلي، فبلغ قدرًا من العلوم والمعرفة والتَّعمُّق في الدِّين والفقه.

وفي عام (٣٨٨هـ / ٩٩٨م) اعتزل أبوه نقابة الطالبين لمرضه وكِبَرِ سنِّه، فتولاها ولده الشريف الرُّضي، مع كونه أصغر سنًّا من أخيه الشريف المرتضى، وما لبث أن أسندت إليه الأعمال التي كانت لأبيه من إمارة الحج والنظر في المظالم، وقد توفِّي أبوه عام (٤٠٠هـ / ١٠٠٩م)، فرثاه ولداه المرتضى والرُّضي.

وكان الشريف الرُّضي كأبيه ذا مكانة مرموقة، ومنزلة عالية، وكان المقدم في الطالبين علمًا وأدبًا ودينًا، وله قدر عظيم عند الشيعة، وكان ذا أدب ظاهر وفضل باهر، وكان علاقته حسنة بالخلفاء العباسيين وبحكام بني بويه، وبعدد من معاصريه من الكتَّاب والأدباء مثل صاحب ابن عباد وأبي إسحاق الصابي، وكان بهاء الدولة ابن عضد الدولة البويهى يبجله ويُعلي منزلته ويخلع عليه ويقرُّه على النقابة وأعمال المظالم والحج، وقد سعى الشريف الرُّضي إليهم بالمديح، فمدح الخليفة الطائع والقادر وبعض حكام بني بويه ومن بينهم بهاء الدولة، ومدح بعض الأعلام والكتَّاب، لكنه لم يقبل صلة ولا جائزة ولا عطاء؛ بل إنَّه رد جميع الصلّات التي كانت تجري على أبيه، وسرعان ما توفِّي الشريف الرُّضي عام (٤٠٦هـ / ١٠١٦م) في بغداد، ودُفن في الكرخ، بعد ستِّ سنوات فقط من موت أبيه، وكان عمره نحو سبع وأربعين سنة، ورثاه كثيرٌ من الأمراء والنبلاء؛ من بينهم أخوه الأكبر الشريف المرتضى؛ الذي خلفه على أعمال النقابة بعده.

ويُعتبر الشريف الرُّضي من أشعر شعراء عصره، ذكر الثعالبي في يتيمة الدهر أنَّه أشعر الطالبين، ووصف شعره قائلاً: "الذي يجمع إلى السلاسة متانة، وإلى السهولة رصانة، ويشتمل على معانٍ يقرب جناها، ويبعد مداها"، وقيل: هو أشعر قريش؛ وشعره يدل على سُمُوّه واعتزازه بنفسه، وهو يجري على نمط الأسلوب الجاهلي القديم؛ الذي رَفَّقت الحضارة العباسية لفظه ومعناه، ويظهر

في شعره أثر الطابع البدوي والإسلامي في أفكاره وأخيلته ومعانيه، ويظهر كذلك فيه أثر الثقافة الواسعة، وهو سهل المعاني، فخم اللفظ، فائق الانسيابية، متعبد البحور، وتنوّعت أغراض شعره بين المديح والثناء والفخر والحماسة والغزل، فأما المديح فقد مدح من عاصره من الخلفاء العباسيين وحكام بني بويه، وكان مدحه إجلالاً وتكريماً وليس تكسبياً؛ لأنّه ترفع عن صلاتهم وعطاياهم، وأما الفخر فكان نابغاً من إحساسه بسموه وعزّة نفسه وفخاره بانتمائه لآل البيت، وأما الرثاء فله فيه قصائد ممتازة، تتجلى فيها عاطفة ملتزمة وأحاسيس صادقة، وقد رثى أبويه وعددًا من الحكام والأعيان، ولم ينسَ فجائع قومه القديمة، حتى إنه رثى جدّه الحسين بن عليّ رضي الله عنه، وكانت فيه لوعة على من قُتل من آل بيت النبوّة، وأما غزله فكان عذريّاً عفيفاً ناعماً ذا حسٍّ مرهف رقيق، ولشعره على الجملة عذوبة وسلاسة وطلاوة وعاطفة حيّة، وشيء من الصنعة البديعية؛ ومن قوله يمدح الخليفة العباسي الطائع؟

للهُ ثُمَّ لَكَ المحلُّ الأعْظَمُ	وإليك يَنْتسبُ العلاءُ الأَقْدَمُ
ولكَ الثَّرَاثُ مِنَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	والبيتُ والحجرُ العظيمُ وزمزمُ
تمضي الملوْكُ وأنتَ طَوْدٌ ثابتٌ	ينجابُ عنكَ متوجُّ ومعمَّمُ
للهِ أيُّ مقامٍ دينٍ قُمتَهُ	والأمرُ من دُونِ القضيّةِ مُبهمُ
فكأنّما كنتَ النَّبِيُّ مُناجزاً	بالقولِ أو بلسانِهِ تتكلَّمُ
أيّامَ طَلَقَها المُطِيعُ وأوحِشتَ	مُدَّ زَالَ عن ذا الغابِ ذاكَ الضَّيْعُ
فمَضَى وأعقَبَ بَعْدَهُ متيقِّظاً	سَجَلَاهُ بُوَسَى في الزَّمانِ وأنعمُ
كالغيثِ يَخْلُقُهُ الرَّبيعُ وَبعضُهُمُ	كالنَّارِ يَخْلُقُها الرَّمَادُ المُظْلِمُ

١ انظر: ديوان الشريف الرضي، المقدمة (١/ ٩ - ٤١)، شرح د. محمود مصطفى حلاوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م؛ بيتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (٣/ ١١٠ - ١٢٦)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٤/ ٤١٣ - ٤٢٠)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٣/ ٥٦ - ٦٣)؛ تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/ ٧٧٥ - ٧٨٤).

٢ انظر: بيتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (٣/ ١١١).

وقال يرثي والدته!

أبكىك لو نفع الغليل بكائي
وأعود بالصبر الجميل تعزياً
طوراً تكاثرتني الدُموع وتارة
كم عبرة مؤهتها بأناملِي
أبدي التجلّد للعدوّ ولو درى
فارقْتُ فيك تماسكي وتجملي
كم زفرة ضغفت فصارت أنةً
لهفان أنزو في حبال كربة
قد كنت أمل أن أكون لك الفدا
وجرى الزمان على عوائد كيده
وتفرق البعداء بعد مودة
وتداول الأيام يئليناً كما
كيف السلو وكل موقع لحظة

وأقول لو ذهب المقال بدائي
لو كان بالصبر الجميل عزائي
أوي إلى أكرمتي وحيائي
وسرّتها متجملاً بردائي
بتمللي لقد اشتقى أعدائي
ونسيت فيك تعزري وإبائي
أتمنّوها بتنفس الصّعداء
ملكّت عليّ جلادتي وغنائِي
مما ألمّ فنت أنتِ فدائي
في قلب آمالي وعكس رجائي
صعب فكيف تفرق القرباء
يئلي الرّشاء تطاوح الأرجاء
أثر لفضاك خالد بإزاء

وقال يرثي الكاتب أبا إسحاق الصابي، وكانت بينهما مودة ومراسلات!

أعلمت من حُمِلوا على الأعواد
جبل هوى لو خرّ في البحر اغتدى
ما كنت أعلم قبل حظك في الثرى
بعداً ليومك في الزمان فإنه
لا ينقذ الدمع الذي يبكى به
كيف انمَحى ذاك الجناح وغطّت
طاحت بتلك المكرّمات طوائج

أرأيت كيف خبا ضياء النّادي
من وقعه متتابع الإزباد
أن الثرى يعلو على الأطواد
أقذى العيون وقت في الأعضاء
إن القلوب له من الأمداد
تلك الفجاء وضلّ ذاك الهادي
وعدت على ذاك الجواد عواد

١ انظر: المصدر السابق (٣/ ١٢١).

٢ المصدر السابق.

قالوا أطاعَ وقيدَ في شَطَنِ الرَدَى أيدي المُنُونِ ملكتِ أيَّ قِيَادِ
 مِنْ مُصْعَبٍ لو لَمْ يَقْذَهُ إِلَهُهُ بِقَضَائِهِ ما كانَ بِالمُنْقَادِ
 هَذَا أَبُو إِسْحَقٍ يُغْلَقُ رَهْنُهُ هَلْ ذا يَدِي أو مانِعٌ أو فادِ
 لو كنتِ تُفْدِي لافْتَدَتِكَ فَوَارِسُ مُطَرُّوا بِعارِضٍ كلِّ يَوْمٍ طرادِ

وممَّا أعان الشريف الرضي على ذبوع صيته؛ أنه عاش في حقبة زمنية انتعش فيها العلم، ونشط فيها الشعر، واجتمع فيها عددٌ من الأدباء والشعراء والكتّاب مثل المتنبي وأبي فارس وأبي العلاء المعري وابن العميد الكاتب والصاحب ابن عباد وأبي إسحاق الصابي والخوارزمي وابن جني وأبي عليّ الفارسي والقاضي عبد الجبار المعتزلي، فكانت الحياة الثقافية منتعشةً، رغم تدهور الأحوال السياسية، وتدهور أمور الخلافة في ذلك الوقت.

وللشريف الرضي عدّة مصنّفات؛ منها: "حقائق التأويل في متشابه التنزيل"، "تلخيص البيان في مجازات القرآن"، "مجازات الآثار النبوية"، وله عدد من الرسائل والمختارات الشعرية، على أن الأشهر من مؤلفاته هو كتاب "نهج البلاغة" الذي جمع فيه الشريف ما انتهى إليه من حُطَب أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب -رضي الله عنه- ورسائله وحِكَمِهِ؛ وهو كتاب عظيم الصيت والشهرة، فائق الجودة والأهميّة، ومرجع مهم لأرباب البلاغة، غير أنّه دخل فيه الكثير من المنحول مما نُسب إلى عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- زورًا، وقد أشرنا من قبل إلى تلك النقطة باستفاضة أثناء حديثنا عن خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في جزء سابق.

٢- الشريف المرتضى:

هو أبو القاسم علي بن أبي أحمد الحسين بن موسى، وهو الأخ الأكبر للشّريف الرضي، إلا أنّ أخاه الأصغر تقدّم عليه في نقابة الطالبين، وُلِدَ في بغداد عام

١ انظر: ديوان الشريف الرضي (١/ ٤٢ - ٤٧).

(٣٥٥هـ/٩٦٦م)، وقد تتلمذ على يد المرزباني والشاعر ابن نباتة السعدي، وتلقَّى الفقه على يد الشيخ المفيد وأبي عبد الله الحسين بن علي المعروف بابن بابويه، وقد آلت إليه نقابة الطالبين بعد وفاة أخيه الشريف الرضي، وله تصانيف على مذهب الإمامية (الشيعة)، وكان المرتضى إماماً في علم الكلام والفقه، وكان أديباً شاعراً، وكان متعصباً على المتنبي، حتى إنَّه جرت بينه وبين أبي العلاء المعري مفاوضة بهذا الشأن أغضبت الشريف المرتضى، فطرد المعري من مجلسه وأساء إليه، وقد عمّر المرتضى طويلاً حتى مات عام (٤٣٦هـ/١٠٤٤م). وللمرتضى عدة تصانيف؛ منها: "الغرر والدرر" وهي مجالس أملاها تشتمل على فنون ومعاني الأدب والنحو واللغة، و"طيف الخيال"، و"الشهاب في الشيب والشباب"، ونسب إليه بعضهم كتاب نهج البلاغة، ولكن الأرجح نسبته إلى أخيه الرضي، وأما شعره فكان فخم اللفظ، متين التراكيب، ودارت أغراضه حول النسيب والوصف وذكر الشيب والشباب.

ومما رُوِيَ عنه قوله:

يا خَلِيلِي مِنْ دُؤَابَةِ قَنِيسٍ	فِي التَّصَابِي رِيَاضَةُ الْأَخْلَاقِ
غَيَّانِي بِذِكْرِهِمْ تُطْرِبَانِي	وَاسْقِيَانِي دَمْعِي بِكَأْسٍ دِهَاقِ
وَحُذَا النَّوْمِ مِنْ جُفُونِي فَإِنِّي	قَدْ خَلَعْتُ الْكَرَى عَلَى الْعُشَاقِ

وقال أيضاً:

وَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَمَا شَاءَتِ النَّوَى	تَبَيَّنَ حُبٌّ خَالِصٌ وَتَوَدُّدٌ
كَأَنِّي وَقَدْ سَارَ الْخَلِيطُ عَشِيَّةً	أَخُو جَنَّةٍ مِمَّا أَقُومُ وَأَقْعُدُ

ونُسِبَ إليه:

١ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ٣١٣ - ٣١٦).

٢ انظر: المصدر السابق (٣/ ٣١٤).

٣ انظر: المصدر السابق.

٤ انظر: المصدر السابق (٣/ ٣١٥).

خُذْ بِيَدِي قَدْ وَقَعْتُ فِي اللُّجَجِ
كَالْبَحْرِ حَدَّثَ عَنْهُ بِلا حَرَجِ
سَلَّطَ سُلْطَانَهَا عَلَى الْمُهْجِ
ثُمَّ ادْعُ لِي مِنْ هَوَاكَ بِالْفَرَجِ

فِي الْحُبِّ أَطْرَافُ الرِّمَاحِ
لَا حُكْمَ إِلَّا لِلْمِلاَحِ

مَوْلَايَ يَا بَدْرَ كُلِّ دَاجِيَةٍ
حُسْنُكَ مَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ
بِحَقِّ مَنْ خَطَّ عَارِضِيكَ وَمَنْ
مُدَّ يَدَيْكَ الْكَرِيمَتِينَ مَعِي
وَنُسَبِّ إِلَيْهِ أَيْضًا!

بَيْنِي وَبَيْنَ عَوَاذِلِي
أَنَا خَارِجِي فِي الْهَوَى

١ انظر: المصدر السابق (٣/ ٣١٥).

ثامنًا: شعراء التشيع

(السيد الحميري- منصور النمرى- دعبل الخزاعي- ديك الجن- مهيار الديلمي)

١- السيد الحميري:

هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مُفَرِّغِ الحميري، وأُمُّه من الأزد، كان يُلقَّب بالسَّيِّد، وكُنيتُه أبو هاشم، وقد نشأ لأبوين خارجيَّين ينالان من علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، إلا أنَّه خالفهما وتشيع، وكان أوَّلًا على مذهب الكيسانية الذين يعتقدون بعودة محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية)، ويقال: إنَّه التقى مع جعفر الصادق بن محمد الباقر فناظره في ذلك فرجع عن مذهبه، وقال آخرون: بل بقي على اعتقاده حتى آخر حياته.

وكان السَّيِّد الحميري أسمر، تام القامة، أشنب، ذا وفرة، حسن الألفاظ، جميل الخطاب، وكان شاعرًا مطبوعًا ظريفًا حسن النظم، وهو من شعراء الدولتين، وقد عاصر بشَّارًا وأبا العتاهية، وعُدَّ من أشعر المحدثين، وربما امتاز عنهم بأنَّه كان يكره الاستجداء، ولمَّا قامت الدولة العباسية مدح الخليفة أبا العباس السفاح ثم أبا جعفر المنصور ثم المهدي، واتصل كذلك بعددٍ من الولاة، وقد مات عام (١٧٣هـ / ٧٨٩م) في خلافة الرَّشيد.

وكان السيد الحميري شاعرًا بديعًا مطبوعًا مكثرًا، ولشعره رونق ومعنى، ولا يستعمل الغريب في شعره، وله طراز من الشعر قلَّمَا يُلْحَق فيه، وكان فيه تشيُّع لآل بيت علي بن أبي طالب ولعموم بني هاشم، فمدحهم بأشعاره وأسهب في ذكر فضائلهم ومناقبهم، ورثى الحسين بن علي رضي الله عنهما، وقال في ذلك أغلب شعره، إلا أنَّه غالى في تشيُّعه فأخذ ينال من الصحابة ومن أبي بكر وعمر وأم المؤمنين عائشة وجماعة من السلف رضوان الله عليهم، وعرَّض بهم في شعره، فكره الناس منه ذلك وانصرف معظمهم عن رواية شعره، فانحطَّت منزلته،

وقلّت شهرته، وضعفت الإحاطة بشعره، حتّى إن الأصمعي حينما سمع شعره قال: قاتله الله، ما أطبعه وأسلكه لسبيل الشعراء!! والله لولا ما في شعره من سبّ السّلف لما تقدّمه أحد؛ بل إن القاضي سوار بن عبد الله ردّ شهادته في قضية ما، فهجاه وشكاه إلى المنصور، فكتب إليه القاضي: يا أمير المؤمنين؛ إنّ السيد رافضي يقول بالرجعة، ويرى المتعة، فكتب إليه المنصور: إنا بعثناك قاضيًا ولم نبعثك ساعيًا؛ ثم ألزم سوارًا بمصالحة السيد الحميري، ومع هذا لم تنته العداوة بين الرجلين حتى عزله المنصور عن منصبه!

وللسّيد الحميري شعر حسن رائق المعنى، إلا أنّه تطرّق أحيانًا إلى التّيل من أبي بكر وعمر والسّلف بصورة قبيحة ممقوته، وهو ما حطّ من قدره، ومن ذلك قوله يهجو بني تيم قوم أبي بكر، وبني عدي قوم عمر:

قُلْ لِابْنِ عَبَّاسٍ سَمِيَّ مُحَمَّدٍ لَا تُعْطِيَنَّ بَنِي عَدِيٍّ دِرْهَمًا
أَحْرَمَ بَنِي تَيْمٍ بَنٍ مُّرَّةٍ إِنَّهُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ آخِرًا وَمُقَدَّمًا

وقال يمدح المنصور:

إِنَّ الْإِلَهَ الَّذِي لَا شَيْءَ يُشَبِّهُهُ أَعْطَاكُمْ الْمُلْكَ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ
أَعْطَاكُمْ اللَّهُ مُلْكًا لَا زَوَالَ لَهُ حَتَّى يَقَادَ إِلَيْكُمْ صَاحِبُ الصِّينِ
وَصَاحِبُ الْهِنْدِ مَأْخُوذًا بِرُمَّتِهِ وَصَاحِبُ الثُّرَكِ مَحْبُوسًا عَلَى هُونِ

وكان يكره إطالة الجلوس دون أن بمدح آل محمد، فقال في ذلك:

إِنِّي لِأَكْرَهُ أَنْ أُطِيلَ بِمَجْلِسِ لَا ذِكْرَ فِيهِ لِفَضْلِ آلِ مُحَمَّدٍ
لَا ذِكْرَ فِيهِ لِأَحْمَدٍ وَوَصِيَّهِ وَبَنِيهِ ذَلِكَ مَجْلِسٌ نَطْفٌ رَدِيّ^٥

^١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٨- ٣١)؛ الأغاني، الأصفهاني (٧/ ١٧٧- ٢١١)؛ تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٦١- ٦٢)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ١٠٩- ١١١).

^٢ الأغاني، الأصفهاني (٧/ ١٨٧).

^٣ المصدر السابق (٧/ ١٩٩).

^٤ المصدر السابق (٧/ ٢٠٢).

^٥ نَطْفٌ؛ أي: مَعِيْب. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٩/ ٣٣٤).

إِنَّ الَّذِي يَنْسَاهُمْ فِي مَجْلِسٍ حَتَّى يُفَارِقَهُ لَغَيْرُ مُسَدِّدٍ

وقال يهجو القاضي سوار بعد موته^١:

يَا مَنْ غَدًا حَامِلًا جُثْمَانِ سَوَارٍ مِنْ دَارِهِ ظَاعِنًا مِنْهَا إِلَى النَّارِ
لَا قَدَسَ لِلَّهِ رُوحًا كَانَ هَيْكَلُهَا فَقَدْ مَضَتْ بِعَظِيمِ الْخِزْيِ وَالْعَارِ
حَتَّى هَوَتْ قَعَرَ بَرْهُوتٍ مَعَذِبَةً وَجَسْمُهُ فِي كَنِيفٍ بَيْنَ أَقْدَارِ^٢

٢- منصور النَّمري:

هو منصور بن الزبرقان بن سلمة -وقيل: منصور بن سلمة بن الزبرقان- الرَّبِعي الزراري، مِنْ رَأْسِ الْعَيْنِ فِي الْجَزِيرَةِ، تَتَلَمَّذَ عَلَى يَدِ كَلْثُومِ بْنِ عَمْرِو الْعَتَّابِيِّ وَأَخَذَ عَنْهُ الشَّعْرَ وَرَوَى عَنْهُ، وَهُوَ الَّذِي قَدَّمَ لَهُ إِلَى الْبَرَامِكَةِ، الَّذِينَ قَدَّمُوهُ بِدَوْرِهِمْ إِلَى الرَّشِيدِ، فَمَدَحَهُ بِقَصَائِدَ عَدَّةٍ، فَاسْتَحْسَنَ الرَّشِيدُ مَدِيحَهُ وَوَصَلَهُ.

وَكَانَ النَّمْرِيُّ مَتَشَبِّهًا، يَدِينُ بِالْإِمَامَةِ سِرًّا، آخِذًا بِمَذْهَبِ التَّقِيَّةِ، وَرَغْمَ تَشْبِيهِهِ فَإِنَّهُ مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِ فِي التَّكْسُّبِ وَالْحِظْوَةِ عِنْدَ هَارُونَ الرَّشِيدِ؛ فَقَدْ اضْطُرَّ إِلَى أَنْ يَسْلُكَ سَبِيلَ مَرْوَانَ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ فِي امْتِدَاحِ الْخَلِيفَةِ وَالنَّيْلِ مِنْ آلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حَتَّى يَنَالَ إِعْجَابَ هَارُونَ الرَّشِيدِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَصْرِحْ بِهِجَائِهِمْ كَمَا فَعَلَ مَرْوَانُ، وَكَانَ الرَّشِيدُ يَقْدِمُ مَرْوَانَ عَلَيْهِ فِي الْعَطَاءِ.

وَيَبْدُو أَنَّهُ قَدْ وَقَعَتْ وَحْشَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَسَاتِذِهِ كَلْثُومِ بْنِ عَمْرِو الْعَتَّابِيِّ، فَوْشِي بِهِ الْأَخِيرُ عِنْدَ هَارُونَ الرَّشِيدِ بِأَنَّهُ عَلَوِي يَدِينُ بِالْإِمَامَةِ وَيَحْرِضُ ضِدَّ وَلِيِّ الْأَمْرِ، فَغَضِبَ هَارُونَ الرَّشِيدُ وَأَرْسَلَ إِلَى مَنْصُورٍ أَحَدِ رِجَالِهِ يَقْتُلُهُ، وَكَانَ مَقِيمًا فِي الرَّقَّةِ، فَمَا إِنْ وَصَلَ إِلَى بَلَدَتِهِ حَتَّى وَجَدَ مَنْصُورًا قَدْ تَوَفَّى وَأُلْفِيَ نَفْسُهُ فِي جَنَازَتِهِ، وَكَانَتْ وَفَاةُ مَنْصُورِ النَّمْرِيِّ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنْ نَكْبَةِ الْبَرَامِكَةِ.

^١ الأغانِي، الأصفهاني (٧/ ٢٠٢).

^٢ بَرْهُوت: بئر في حَضْرَمَوْت يُقَالُ: فِيهَا أَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٤٧٦/ ١٣).

ومنصور النمري شاعرٌ بديعٌ، عُني بتدبيح شعره، وتنقيح لفظه؛ وأما فنون شعره فهي: المديح والغزل والوصف، فمدح هارون الرشيد بقصائد جياذ، ولكنَّه لم يكن صادق العاطفة؛ لاضطراره إلى التعريض بآل علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ كونه متشيّعاً إمامياً، كما مدح غير الرشيد: الفضل بن يحيى، ويزيد ابن مزيد الشيباني، والمأمون حينما كان ولياً للعهد، وقد أجاد في وصف الشيب والنهود والسيوف، وأشعاره في آل النَّبِيِّ كثيرةٌ جيدة، مِنْ أجود ما مُدِّحوا به، وله أخبار ونوادر!

ومن أجود قصائده: العينية التي بدأها بوصف الشيب ومدح فيها هارون الرشيد قائلاً!

إِذَا ذَكَرْتُ شَبَابًا لَيْسَ يُرْتَجَعُ ضُرُوفُ دَهْرٍ وَأَيَّامٌ لَهَا جُدَعُ حَتَّى انْقَضَى فَإِذَا الدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ تَشَجِّي بِغَصَّتِهِ فَالْعُذْرُ لَا يَقَعُ	مَا تَنْقُضِي حَسْرَةً مَنِي وَلَا جَزَعُ أَوْدَى الشَّبَابِ وَفَاتَتْني بِشَرَّتِهِ مَا كُنْتُ أُوفِي شَبَابِي كُنْهَ عِرَّتِهِ إِنْ كُنْتُ لَمْ تَطْعَمِي ثُكُلَ الشَّبَابِ وَلَمْ
*	*

نَ الْأَوْصِيَاءِ أَقَرَّ النَّاسُ أَمْ دَفَعُوا إِلَى أُمِّيَّةٍ تَمْرِيهَا وَتَرْتَضِعُ مِنْ دُونِ تَيْمٍ وَعَفُوُ اللَّهِ مُتَسِعُ حَقٌّ وَمَا لَهُمْ فِي إِرْتِكُمْ طَمَعُ وَلَا تُضِيفُكُمْ إِلَى أَكْنَافِهَا الْبِدَعُ قَوْلَ النَّصِيحِ فَإِنَّ الْحَقَّ يُسْتَمَعُ	يَا ابْنَ الْأَيْمَةِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ وَيَا بُ لَوْلَا عَدِيٌّ وَتَيْمٌ لَمْ تَكُنْ وَصَلَتْ إِنَّ الْخِلَافَةَ كَانَتْ إِرْثٌ وَالِدُكُمْ وَمَا لِآلِ عَلِيٍّ فِي إِمَارَتِكُمْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَعَزُّبْ عَقُولُكُمْ الْعَمُّ أَوْلَى مِنْ ابْنِ الْعَمِّ فَاسْتَمِعُوا

١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٢١- ٢٢٦)؛ الأغاني، الأصفهاني (١٣/ ٩٧- ١١٠)؛ تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٨٢- ٨٣)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١٣٩- ١٤١).

٢ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٢٣- ٢٢٤).

ومن جَيِّد شعره ما قاله مادحًا آل الرسول ﷺ، وأسفًا لحالهم ولما جرى لهم من نكبات!

آلَ الرَّسُولِ وَمَنْ يُحِبُّهُمْ يَتَّطَامِنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ
أَمِنْ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ وَهُمْ مِنْ أُمَّةِ التَّوْحِيدِ فِي أَزْلِ

٣- دِعبِل الخزاعي:

هو أبو عليّ دِعبِل بن رَزِين بن سليمان الخزاعي، وُلِدَ عام (١٤٨هـ / ٧٦٥م)، وأصله من الكوفة، وقيل: بل من قرقيسيا؛ ويقال: إِنَّ دِعبِلًا لقبه، واسمه الحسن أو محمد أو عبد الرحمن، أخذ الشعر عن مسلم بن الوليد، وكان معاديًّا لأبي تَمَّام، وصديقًا للبحتري، وكان دِعبِل شاعرًا مجيدًا بذيء اللسان، مولعًا بالهجاء والحطّ من أقدار الناس؛ إذ هجا عددًا من الخلفاء والولاة والقادة، فهجا المأمون، والمعتصم، والوائق، وإبراهيم بن الخليفة المهدي، والقاضي أحمد بن أبي دؤاد، وأبا تَمَّام، وعددًا من الولاة، وهجا عددًا كثيرًا من معاصريه، فهابه الناس لسلطة لسانه، وكان فيه ميلٌ إلى التَّشْيِيع؛ حيث مدح آل البيت، ومدح عليّ الرِّضا ابن موسى الكاظم حينما كان وليًّا لعهد للمأمون، فكان هذا سرًّا تعصُّبه على العباسيّين وهجائه لخلفائهم، فهابه الناس لسلطة لسانه.

وقد مال دِعبِل إلى التَّكسُّب بالشعر فمدح والي مصر المطَّلِب بن عبد الله، فولَّاه على أسوان، ثم جرى بينهما خلاف فهجاه، فعزله، ولما وَلِيَ مسلم بن الوليد بعض أعمال خراسان من قِبَل أميرها؛ سعى إليه لمدحه ولكنَّه جفاه، فهجاه، ومدح كذلك مالك بن طوق فلم يرضَ صِلَتَه، وانصرف عنه وهجاه، فطلبه، لكنَّه أمعن في الفرار، على أنه ما انتهى إلى البصرة حتى قَبِضَ عليه واليها إسحاق ابن العباس؛ لهجائه القَبلي لعرب مضر وامتداحه لعرب اليمن، فعذَّبه ونكَّل به ثم أطلقه، فغادر البصرة إلى الأهواز، فترصَّد له رجل من قِبَل مالك بن طوق

١ انظر: المصدر السابق (ص ٢٢٥).

فاغتاله عام (٢٤٦هـ / ٨٦٠م)، في قرية من نواحي السوس، فدفن فيها، وقيل: بل حُمِلَ حتى دُفِنَ في السوس!

ودُعِلَ شاعرٌ مقدَّمُ مطبوعٌ على الشعر، متين التراكيب، بديع المعاني، تأثر بمسلم بن الوليد في نضاعة القول والجزالة والبديع، وكان شديد العناية بدقّة معانيه، وصياغة عباراته، وتُعتبر مدائحه في آل البيت من أجود شعره.^١ ومن نماذج هجائه ما قاله بحق المأمون:

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ قَتَلْتُ أَخَاكَ وَشَرَفْتُكَ بِمَقْعَدِ
رَفَعُوا مَحَلَّكَ بَعْدَ طُولِ حُمُولِهِ وَاسْتَنْقَذُوكَ مِنَ الْحَضِيضِ الْأَوْهَدِ

لكن المأمون كان فيه حلم وميل إلى العفو، فتجاوز عن تلك الأبيات وصفح عنه. ومن هجائه للمعتصم ثامن خلفاء بني العباس:

مُلُوكُ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْكُتُبِ سَبْعَةٌ وَلَمْ تَأْتِنَا عَنْ ثَامِنٍ لَهُمْ كُتُبٌ
كَذَلِكَ أَهْلُ الْكَهْفِ فِي الْكَهْفِ سَبْعَةٌ خِيَارٌ إِذَا عُذُّوا وَثَامِنُهُمْ كُلُّبٌ

ومن أشهر قصائده في امتداح آل البيت تائيّة بديعة، يقال: إن عليّ بن موسى الرضا قد وصله عليها عشرة آلاف درهم، وخلع عليه بُردةً من ثيابه، وممّا ورد فيها:

قِفَا نَسْأَلِ الدَّارَ الَّتِي خَفَّ أَهْلُهَا مَتَى عَهْدُهَا بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ
وَأَيْنَ الْأَلَى شَطَّتْ بِهِمْ غُرْبَةُ النَّوَى أَفَانِينَ فِي الْأَفَاقِ مُفْتَرِقَاتِ
هُمْ أَهْلُ مِيرَاثِ النَّبِيِّ إِذَا اعْتَرَوْا وَهُمْ خَيْرُ قَادَاتٍ وَخَيْرُ حُمَاةِ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا حَاسِدٌ وَمَكْذِبٌ وَمُضْطَغِنٌ ذُو إِحْنَةٍ وَتِرَاتِ

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (٢٠ / ٥٩ - ١٠٨)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣ / ١٢٨٤ - ١٢٨٥)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢ / ٢٦٦ - ٢٧٠).

٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢ / ٢٨٦)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣ / ٣١٨ - ٣٢٤).

٣ الأغاني، الأصفهاني (٢٠ / ٦٧).

٤ المصدر السابق (٢٠ / ٧٦ - ٧٧).

٥ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣ / ١٢٨٥).

إِذَا ذَكَرُوا قَتَلَى بِبَدْرِ وَخَيْبِرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ أَسْبَلُوا الْعَبْرَاتِ
وَكَيْفَ يُحِبُّونَ النَّبِيَّ وَأَهْلَهُ وَقَدْ تَرَكُوا أَحْشَاءَهُمْ وَغِرَاتِ
لَقَدْ لَا يَنْوَهُ فِي الْمَقَالِ وَأَضْمَرُوا قُلُوبًا عَلَى الْأَحْقَادِ مُنْطَوِيَاتِ

وقال يرثي الحسين -رضي الله عنه- واصفًا استشهاده:

رَأْسُ ابْنِ بِنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَصِيِّهِ يَا لِلرِّجَالِ عَلَى قَنَاقَةٍ يُرْفَعُ
وَالْمُسْلِمُونَ بِمَنْظَرٍ وَبِمَسْمَعٍ لَا جَارِعَ مِنْ ذَا وَلَا مُتَحَشِّعُ
أَيَقِظَتْ أَجْفَانًا وَكَنْتَ لَهَا كَرَى وَأَنْمَتَ عَيْنًا لَمْ تَكُنْ بِكَ تَهَجُّعُ
كُحِلَتْ بِمَنْظَرِكَ الْغُيُُونُ عِمَايَةً وَأَصَمَّ نَعْيُكَ كُلَّ أُذُنٍ تَسْمَعُ
مَا رَوْضَةٌ إِلَّا تَمَثَّلَتْ أَنَّهَا لَكَ مَضْجَعٌ وَلِخَطِّ قَبْرِكَ مَوْضِعُ

ولديعل في شعره قصائد جياذ، وله دراية برواية الشعر ونقده، وله كتاب "طبقات الشعراء" ٢ وهو ما يدل على سعة علمه وشاعريته، ولكن خمل ذكره بين الفحول بسبب خبث هجائه، وتجرئته على هجاء الخلفاء، فما وصلنا من شعره غير نزر يسير.

٤- ديك الجن:

هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام؛ المعروف بديك الجن، أسلم جدّه الأعلى تميم في على يد الصحابي حبيب بن مسلمة الفهري، وُلِدَ ديك الجن نحو عام (١٦١هـ / ٧٧٧م) في مدينة حمص، وأصله من أهل بلدة سلمية، وكانت فيه شعوبية طاغية، وكان يفخر على العرب قائلًا: ما لهم فضلٌ علينا؛ أسلمنا كما أسلموا؛ وكان متشيّعًا لآل البيت، وله فيهم عدّة مراثي ومدائح، وقد بلغ هو أيضًا حدّه من المجون والخلاعة، وكان عاكفًا على اللّهُو والتّرف.

١ انظر: المصدر السابق (٣/ ١٢٨٧).

٢ انظر: المصدر السابق.

ومن أخباره أنه كان يهوى جارية نصرانية تُدعى "ورد"، وتمادى به حبها حتى غلبت عليه، فدعاها إلى الإسلام فأجابته لعلمها برغبته فيها، فتزوجها، وقد قال فيها غزلًا كثيرًا، منه قوله:

انظُرْ إِلَى شَمْسِ الْقُصُورِ وَبَذْرِهَا	وَالِى خَزَامَاهَا وَبَهْجَةِ زَهْرِهَا
لَمْ تَبْلُ عَيْنُكَ أبيضًا فِي أسودٍ	جَمَعَ الْجَمَالَ كَوَجْهَهَا فِي شَعْرِهَا
وَرَدِيَّةُ الْوَجَنَاتِ يُخْتَبَرُ اسْمُهَا	مِنْ رِيْقِهَا مَنْ لَا يُحِيطُ بِخُبْرِهَا
وَتَمَائِلَتْ فَضَحِكْتُ مِنْ أَرْدَافِهَا	عَجَبًا وَلَكِنِّي بَكَيْتُ لِخَصْرِهَا
تَسْقِيكَ كَأْسَ مُدَامَةٍ مِنْ كَفِّهَا	وَرَدِيَّةً وَمُدَامَةً مِنْ ثَغْرِهَا

ثم سعى بينهما واشٍ أشاع أنها تهوى غلامًا له، فاتَّهمها به وقتلها دون تدبُّر، ثم تبَيَّنَتْ براءتها فندم وبكى بكاءً حارًّا، فقال يرثيها:

يَا طَلْعَةً طَلَعَ الْحِمَامُ عَلَيْهَا	وَجَنَى لَهَا ثَمَرَ الرَّدَى بِيَدَيْهَا
رَوَيْتُ مِنْ دَمِهَا التُّرَى وَلَطَالَمَا	رَوَى الْهَوَى شَفَقَتِي مِنْ شَفَقَتَيْهَا
مَكَّنْتُ سَيْفِي فِي مَجَالِ خِنَاقِهَا	وَمَدَامِعِي تَجْرِي عَلَى خَدَّيْهَا
فَوَحَقَّ نَعْلَيْهَا وَمَا وَطِئَ الْحَصَى	شَيْءٌ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَعْلَيْهَا
مَا كَانَ قَتْلُهَا لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ	أَبْكِي إِذَا سَقَطَ الْغُبَارُ عَلَيْهَا
لَكِنْ بَخِلْتُ عَلَى سِوَايَ بِحُسْنِهَا	وَأَنْفَتُ مِنْ نَظَرِ الْغُلَامِ إِلَيْهَا

وقال فيها:

جَاءَتْ تَزُورُ فِرَاشِي بَعْدَمَا قُبِرْتُ	فَطَلْتُ أَلْتِمَ نَحْرًا زَانَهُ الْجِيدُ
وَقُلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي قَدْ بُعِثَتْ لَنَا	فَكَيْفَ ذَا وَطَرِيقُ الْقَبْرِ مَسْدُودُ
قَالَتْ هُنَاكَ عِظَامِي فِيهِ مُودَعَةٌ	تَعِثُ فِيهَا بِنَاتُ الْأَرْضِ وَالْدُّودُ
وَهَذِهِ الرُّوحُ قَدْ جَاءَتْكَ زَائِرَةً	هَذِي زِيَارَةٌ مَنْ فِي الْقَبْرِ مَلْحُودُ

^١ انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٤ / ٣٥).

^٢ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣ / ١٨٦).

^٣ المصدر السابق.

وشعر ديك الجن غاية في الجودة، فقد كان شاعراً مجيداً يذهب مذهب أهل الشام وأبي تمام في الشعر، يميل إلى متانة الأسلوب، وقوة البناء، وحسن اختيار اللفظ، وهو من الشعراء القلائل الذين لم يتكسّبوا بشعرهم، باستثناء ما قاله في مدح أحمد وجعفر ابني عليّ الهاشميين؛ فإنه لم يبرح نواحي الشام ولم يغادر حمص إلا عَرَضاً، وله في آل البيت شعر حسن بين مديح وثناء، وله أيضاً هجائيات وغزل اختص به صاحبتة "ورد"، وله شيء من الخمر والمجون، ووصفٌ لِغلام له من باب غزل المذكر، ومات ديك الجن نحو عام (٢٣٦هـ / ٨٤٩م)!

ومن حلو شعره يرثي جعفر بن عليّ الهاشمي:

على هذه كانت تدور النوائب	وفي كل جمع للذهاب مَذهب
نزلنا على حكم الزمان وأمره	وهل يقبل النصف الألد المشاغب
وتضحك سن المرء والقلب موجع	ويرضى الفتى عن دهره وهو عاتب
ألا أيها الركبان والرد واجب	قفوا حدّثونا ما تقول النوادب
إلى أي فتیان الندى قصد الردى	ويُهم نابت حماه النوائب
فيا لأبي العباس كم ردّ راغب	لفقدك ملهوفاً وكم جبّ غارب
ويا لأبي العباس إن مناكباً	تئوء بما حملتها لنواكب
فيا قبره جُد كل قبر بجوده	ففيك سماء ثرة وسحاب
فإنك لو تدري بما فيك من غلا	علوت وباتت في ذراك الكواكب
أخا كنت أكيه دماً وهو نائم	حذاراً وتعمى مقلتي وهو غائب
فمات ولا صبري على الأجر واقف	ولا أنا في غمر إلى الله راغب
أأسعى لأحظى فيك بالأجر إنّه	لسعني إذن مني لدى الله خائب
وما الإثم إلا الصبر عنك وإنما	عواقب حمد أن تُذمّ العواقب
يقولون مقدار على المرء واجب	فقلت وإعوال على المرء واجب

٢ انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٤ / ٣٣ - ٤٥)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣ / ١٨٤ - ١٨٨).

٢ انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٤ / ٤٣).

هو القلب لما حُمَّ يوم ابن أمه وهى جانب منه وأسقم جانب

٥- مهيار الديلمي:

هو أبو الحسين مهيار بن مرزويه الكاتب الفارسي الديلمي، كان مجوسياً فأسلم على يد الشريف الرضي نحو عام (٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م)، وما لبث أن تشييع تبعاً له، لكنه غالى في تشييعه وتطرف تطرفاً ممقوتاً، وأخذ ينال من صحابة النبي ﷺ، حتى قال له أبو القاسم بن برهان: يا مهيار؛ قد انتقلت بأسلوبك في النار من زاوية إلى زاوية؛ فقال: وكيف ذلك؟ قال: كنت مجوسياً فصرت تسب أصحاب رسول الله ﷺ في شعرك.

وقد تلقن مهيار الشعر على يد أستاذه الشريف الرضي، فسار على نهجه حتى تفنن وتفوق فيه، وأخذ يعارضه في كثير من قصائده، فكان جزل القول، بارع النظم، فخم اللفظ، رقيق الحاشية، طويل النفس، مقدماً بين شعراء عصره، وفي شعره انسيابية فائقة وعاطفة متدفقة ونزعة وجدانية وروحانية عالية، تدور أغراض شعره حول النسب والحكمة وشكوى الزمن والفخر والرياء، وله رثائيات حارة تمتلئ باللوعة والحسرة على مصرع الحسين ومن قتل معه من آل بيته في كربلاء، وهو على الجملة شاعر ماهر بديع، لولا مغالاته في التشييع ونيله من صحابة النبي ﷺ، توفي مهيار في (٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م).

ومن روائع شعره في النسب:

سقى دارها بالرُّقْمَتَيْنِ وحيّاها	مُلتٌ يُحِيلُ التُّرْبَ فِي الدَّارِ أَمْوَاهَا
وكيف بَوَصَلَ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَالِكٍ	وَبَيْنَ بِلَادَيْنَا زُرُودٌ وَحَبْلَاهَا
يَرَاهَا بَعِينَ الشُّوقِ قَلْبِي عَلَى النَّوَى	فِيحْظَى وَلَكِنْ مَنْ لِعَيْنِي بِرُؤْيَاهَا
فَلَيْلَهُ مَا أَصْفَى وَأَكْدَرَ حَبَّهَا	وَأَبْعَدَهَا مِنِّْي الْغَدَاةُ وَأَدْنَاهَا

^١ انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٣٥٩-٣٦٣)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٣/ ٩٨)؛

تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٥/ ٣٧٥-٣٧٨)، دار المعارف، القاهرة- مصر، ط ٣.

^٢ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٥/ ٣٦٠-٣٦١).

نَظَائِرُ تُصَيِّبُنِي إِلَيْهَا وَأَشْبَاهَا
وَأَلْتُمُ تَغَرَّ الكَاسِ أَحْسَبُهُ فَاهَا
مَوْلَاهُ قَدْ ضَاعَ بِالقَاعِ خَشْفَاهَا
فِي زِدَادٍ حَسَنًا مُقْلَتَاهَا وَلِيَتَاهَا
عَلَى صَحَّةِ التَّشْبِيهِ أَنَّكَ إِيَّاهَا
فَإِنَّكَ أَنْتَ الْجَيِّدُ أَوْ أَنْتَ عَيْنَاهَا
يَشِقُّ عَلَى رَجْمِ المَطَامِعِ مَرَمَاهَا
فَلَوْ أَنَّ نَجْدًا تَلَعَهُ مَا تَعَدَّاهَا
فَهَلْ تَمْنَعُونَ القَلْبَ أَنْ يَتَمَنَّاهَا

رَاحَتْ بِقَلْبٍ مِنْكَ غَيْرِ غُلُوقِ
فَوَهَى، كِلَا العَقْدَيْنِ غَيْرُ وَثِيقِ

أَفَلَا تَكُونُ بِمَاءِ وَجْهِكَ أَبْخَلَا
قَدَرُ الحَيَاةِ أَقْلٌ مِنْ أَنْ تَسْأَلَا
وَأَبِيتُ مُشْتَمِلًا بِهَا مُتَزَمِلَا
تَصِفُ الغَى فَيَخَالِنِي مُتَمَوِّلَا
وَأَمَانِيَا أَفْنِيْتُهُنَّ تَوَكُّلَا

عَلَى الأَرْقِينَ أَفْنَدَةُ تَرْقُ
فَإِنَّكَ بِي مِنْ ابْنِ أَبِي أَحَقُّ

إِذَا اسْتَوْحِشْتَ عَيْنِي أَنْسْتُ بِأَنْ أَرَى
فَاعْتَنِقُ الغُصْنَ القَوِيمَ لِقَدَّهَا
وَيَوْمَ الكَثِيبِ اسْتَشْرِفْتُ لِي ظَبِيَّةً
يُذَلِّهُ خَوْفُ التُّكْلِ حَبَّةً قَلْبِهَا
فَمَا ارْتَابَ طَرْفِي فِيكَ يَا أُمَّ مَالِكِ
فَإِنْ لَمْ تَكُونِي خَدَّهَا وَجَبِيَّتُهَا
أَلْوَامُهُ فِي حُبِّ دَارِ غَرِيبَةٍ
دَعْوُهُ وَنَجْدًا إِنَّهَا شَأْنُ نَفْسِهِ
وَهَبْكُمْ مَنَعْتُمْ أَنْ يَرَاهَا بَعِينِهِ

وله أيضًا:

إِنَّ التِّي عَلَّقْتَ قَلْبَكَ حُبَّهَا
عَقَدْتَ ضَمَانَ وفَائِهَا مِنْ خَصَرِهَا

وقال في الحكمة يصف القناعة:

يُلْحَى عَلَى البُخْلِ الشَّحِيحِ بِمَالِهِ
أَكْرِمَ يَدَيْكَ عَنِ السُّؤَالِ فَإِنَّمَا
وَلَقَدْ أَضْمُ إِلَيَّ فَضْلَ قَنَاعَتِي
وَأَرَى العَدُوَّ عَلَى الْخِصَاصَةِ شَارَةً
وَإِذَا امْرُؤٌ أَفْنَى اللَّيَالِي حَسْرَةً

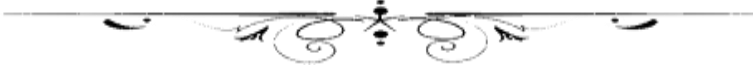
ومن رقيق شعره قوله:

أَرَقْتُ فَهَلْ لَهَا جَعَةٌ بِسِلْعِ
نَشَدْتُكَ بِالمَوَدَّةِ يَا ابْنَ وُدِّي

^١ المصدر السابق (٥/ ٣٦٢).

^٢ المصدر السابق (٥/ ٣٦١).

^٣ المصدر السابق (٥/ ٣٦٢).



أَسْلَ بِالْجَزَعِ دَمْعَكَ إِنَّ عَيْنِي إِذَا اسْتَبْرَزْتُهَا دَمْعًا تَعْقُ
وَإِنْ شَقَّ الْبُكَاءُ عَلَى الْمُعَافَى فَلَمْ أَسْأَلْكَ إِلَّا مَا يَشُقُّ

تاسعاً: شعراء البادية

(ابن ميادة- ابن الدُمينة- عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي)

قَلَّ أثر البادية في الحياة العامة في العصر العباسي، وغلب عليها التَّمَدُّن، وما رافق ذلك من تطور الحضارة والعمران، وزيادة التُّرف والسرف، واختلاط العرب بالعجم، صحيح أن التَّمَدُّن كانت له الغلبة منذ العصر الأموي، ولكن الطابع البدوي ظل ماثلاً في حياة المدن ولو بدرجات متفاوتة، وكان للقبائل في العصر الأموي شيء من النفوذ والأثر، فلمَّا جاء العصر العباسي، ومال العباسيون أولاً إلى العنصر الفارسي، وقد نتج عن ذلك من مظاهر التحضُّر والعمران والسرف واختلاط العرب بالعجم ما تضاءل معه أثر البادية وانحسر إلى الصحراء، ولم يعد لها في المدن كبير أثر.

ورغم انحسار الطابع البدوي عن المدن، وتضاؤل أثر البادية في العصر العباسي؛ فإنها ظلَّت محتفظة بأهميتها وطابعها؛ إذ بقيت قبلة لطلبة العربية ودارسي الأشعار والأدب، وكان الشعراء وعلماء اللغة والنحو يرتحلون إلى البادية، ويقيمون فيها زمناً؛ حتى يأخذوا عن أهلها اللسان العربي الفصيح، بعدما شاع اللحن في المدن، وكان علماء المدن كثيراً ما يتَّصلون بالبدو ليسألوهم عن بعض المسائل اللغوية والنحوية، وإذا وقَد بدوي على المدينة يلتف حوله الناس من الأدباء والعلماء وطلبة العلم، حتى العامة؛ كي يسألوه عن بعض مسائل اللغة، وعن بعض الأشعار والأخبار، مما يدل على أن البادية ظلت مرجعاً لطلب اللغة؛ نظراً إلى احتفاظها بطابعها الجاهلي القديم، وعدم اختلاطها وتأثرها بالعجم، فكانت منبعاً للغة العربية الصافية، وهو ما كان يشجعه علماء اللغة، وكانت البصرة بموقعها المتميز الذي يربط بين البدو والحضر؛ نموذجاً لهذا الاتصال، أما عن شعراء البادية فكانوا أقلَّ أثراً وشهرة من شعراء الحضر، لذا لم يشتهر منهم عدد كبير، إلا من اتصل بالمدن، أو أدرك

شطرًا من العصر الأموي؛ نظرًا إلى غلبة التمدن وانحسار نفوذ البادية. ومن أبرز شعراء البادية في العصر العباسي:

١- ابن ميادة:

هو الرَّمَّاح بن أبرد بن ثوبان الذبياني، من غطفان إحدى بطون قيس عيلان من مُضَرَ، ويكنى بأبي شرحبيل أو أبي شراحيل، وأمه أم ولد تُدعى مَيَّادة، فنُسب إليها، وكان يزعم أنها فارسية، ولكن الأرجح أنها صقلبيّة من بربر المغرب، أُتي بها واشتراها بنو ثوبان وأقبلوا بها من الشام، فكانت من نصيب رجل منهم يُدعى أبرد، فكانت امرأةً صدقي، وولدت له مجموعةً من الأولاد؛ من بينهم الرَّمَّاح، وكان ابن مَيَّادة أحمر، طويلًا، حسن الاستواء، عظيم الخلق، طويل اللحية، وكان لبَّاسًا عَطِرًا.

وابن مَيَّادة من الشعراء المخضرمين الذين عاصروا الدولتين الأمويّة والعباسيّة، وكانت له قصّة حبٍّ مع امرأةٍ من عشيرته تُدعى أم جحدر، كان يهواها ويُشَبِّبُ بها، ثم جفاها نحو عام، قبل أن يعود إليها، فلمّا علم أبوها بخبره معها؛ حلف أن يزوّجها بغيره، وما لبث أن زوّجها برجلٍ من الشام وحُمِلت إليه، فسار على أثرها، لكنّها ردّته حيّاء.

وقد برز ابن مَيَّادة أواخر العصر الأموي؛ حيث اتّصل بالخليفة الوليد بن يزيد فأجازه، ومدح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك أمير المدينة المنورة، ولما جاء العصر العباسي مدح الخليفة أبا جعفر المنصور لكنّه لم يفد عليه، ومدح ولاية المدينة رباح بن عثمان المري ثم جعفر بن سليمان بن عليّ ابن عم المنصور وبعض وجوه بني هاشم، وما لبث أن توفّي عام (١٤٩هـ/ ٧٦٦م) في صدر خلافة المنصور.

وابن مَيَّادة شاعر مفلق فصيح مجيد، وقد أدرك عصر النقائص بين جرير والفرزدق، وكان شاعرًا مجيدًا مبدعًا، وقرنه بعضهم بالناطقة الذبياني، وهو شاعرٌ بليغٌ يحتجُّ العلماء بشعره، وشعره يحتفظ بصفات شعر البدو في فخامة

وجزالة اللفظ، وقوّة الأسلوب، وغلبة الرّوح الجاهلية والبدوية، وتدور أغراض شعره حول النّسب والمديح والفخر؛ حيث افتخر بنسبه العربي وبأّمه الأعجميّة، كما تأثّر بجوّ النقائص حتى اعتاد على الهجاء، فكانت له هجائيات مع عدد من الشعراء والقبائل^١.

ومن شعره ما قاله حينما سار على أثر أم جحدر إلى الشام:

أَلَا حَيَّيَا رَسْمًا بِذِي الْعَشِّ مُقْفِرَا	وَرَبْعًا بِذِي الْمَمْدُورِ مُسْتَعْجِمًا قَفْرَا
فَأَعَجَبُ دَارٍ دَارَهَا غَيْرَ أَنَّنِي	إِذَا مَا أَتَيْتُ الدَّارَ تُرْجِعُنِي صَفْرَا
عَشِيَّةً أَنَّنِي بِالرَّدَاءِ عَلَى الْحَشَى	كَأَنَّ الْحَشَى مِنْ دُونِهِ أُسْعِرَتْ جَمْرَا
يَمِيلُ بِنَا شَحْطُ النَّوَى ثُمَّ نَلْتَقِي	عِدَادَ الثُّرَيَّا صَادَفْتُ لَيْلَةً بَدْرَا
خَلِيلِي مِنْ غَيْظِ بِنِ مُرَّةٍ بَلَّغَا	رِسَائِلَ مَنِّي لَا تَزِيدُكُمَا وَقْرَا
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ إِلَى أُمِّ جَحْدَرٍ	سَبِيلٌ فَأَمَّا الصَّبْرُ عَنْهَا فَلَا صَبْرَا
فَإِنْ يَكُ نَذْرٌ رَاجِعًا أُمِّ جَحْدَرٍ	عَلَيَّ لَقَدْ أَوْذَمْتُ فِي عُقِّي نَذْرَا
وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أُرَى	إِذَا غَدَرَ الْخِلَافُ أَنْوِي لَهَا غَدْرَا ^٢

وقال في البين:

لَقَدْ سَبَقَتْكَ الْيَوْمَ عَيْنَاكَ سَبْقَةً	وَأَبْكَاكَ مِنْ عَهْدِ الشَّبَابِ مَلَاعِبَةً
وَتَذَكَّارُ عَيْشٍ قَدْ مَضَى لَيْسَ رَاجِعًا	لَنَا أَبَدًا أَوْ يَرْجِعَ الدَّرَّ حَالِبَةً
كَأَنَّ فَوَادِي فِي يَدٍ ضَبَّتَتْ بِهِ	مَحَاذِرَةً أَنْ يَقْضِبَ الْحَبْلُ قَاضِبَةً ^٣
وَأُشْفِقُ مِنْ وَشَكِ الْفِرَاقِ وَإِنِّي	أُظُنُّ لَمَحْمُولٌ عَلَيْهِ فَرَاقِبَةً
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَيْغْلِبُنِي الْهَوَى	إِذَا جَدَّ جَدُّ الْبَيْنِ أَمْ أَنَا غَالِبُهُ
فَإِنْ أَسْتَطَعُ أَغْلِبُ وَإِنْ يَغْلِبِ الْهَوَى	فَمِثْلُ الَّذِي لَا قِيَّتَ يَغْلِبُ صَاحِبُهُ

^١ انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٧١ - ٢٢٢)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣ / ١٣٠٩ - ١٣١١).

^٢ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (٢ / ١٨٢).

^٣ أُوذِمْتُ: أُوجِبْتُ.

^٤ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣ / ١٣١١).

^٥ ضَبَّتَتْ بِهِ: قَبِضَتْ عَلَيْهِ بِكَفِّهَا. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢ / ١٦٢).

٢- ابن الدمينة:

هو عبد الله بن عبيد الله، أحد بني عامر، من عشيرة أكلب من خثعم، وقيل: بل من حلفاء خثعم؛ ويكنى بأبي السري، وقد نسب إلى أمه، وهو من شعراء البادية، كانت له امرأة تدعى حماء أو حمادة، نهي إليه أن رجلاً يواعدها، يقال له مزاحم بن عمرو السلولي، وكان يعرض بها في شعره، فاحتال عليه ابن الدمينة وطلب من امرأته أن تدعوه، ففعلت، فما إن أقبل حتى قتله، ثم قتل امرأته وابنته التي هي منها، فأخذت أم القتيل تحرض أخاه وولدها الثاني مصعب بن عمرو على قتل ابن الدمينة وأخذ الثأر لأخيه، لكنه كان صغيراً، فما إن شبَّ حتى قتله ثأراً بأخيه!

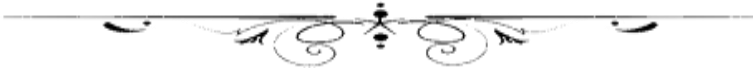
ويبدو أنه من شعراء الدولتين؛ إذ ظهر في أواخر العصر الأموي وأدرك العصر العباسي، وهو من الشعراء المجيدين، يمتاز شعره بالطابع البدوي الأصيل الصافي العذب، وقد أجاد في الغزل العفيف وذكر الديار، وله قصة عشق مع امرأة تدعى أميمة، وقد انتهت تلك القصة بالزواج، وكانت تحته لما قُتل. ومن أشهر شعره قوله:

ألا يا صبا نجد لقد هجت من نجد	فهيج لي مسراك وجدا على وجد
أن هفت ورقاء في رونق الضحى	على فنن غصن النبات من الرند
بكيت كما يبكي الحزين صبا	وذبت من الحزن المبرح والجهد
بكيت كما يبكي الوليد ولم تكن	جزوعا وأبديت الذي لم تكن تبدي
وقد زعموا أن المحب إذا دنا	يمل وأن النأي يشفي من الوجد
بكل تدأوينا فلم يشف ما بنا	على أن قرب الدار خير من البعد ^٣

١ انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٧ / ٧١ - ٨١)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢ / ١٢٤ - ١٢٥).

٢ الأغاني، الأصفهاني (١٧ / ٧٩).

٣ الرند: هو شجر طيب الرائحة من أشجار البادية. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣ / ١٨٦).



ومن أشهر شعره قوله في أميمة!

أَقْنْتُ عَلَى زِمَانٍ يَوْمًا وَلَيْلَةً لَأَنْظُرَ مَا وَاشِي أُمَيْمَةَ صَانِعُ
فَقَصْرُكَ مِنِّي كُلِّ عَامٍ قَصِيدَةٌ تَحُبُّ بِهَا خُوصُ الْمَطِيِّ النَّزَائِعُ
أَقْضِي نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمُنَى وَيَجْمَعُنِي وَالْهَمُّ بِاللَّيْلِ جَامِعُ
نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَا لِي اللَّيْلُ شَاقَتْنِي إِلَيْكَ الْمَضَاجِعُ
لَقَدْ ثَبَّتَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَحَبَّةٌ كَمَا ثَبَّتَتْ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ

٣- عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي:

هو عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، من بني الحارث بن كعب، وهم من بطون مذحج إحدى قبائل العرب اليمنية، وعبد الملك من شعراء البادية، ويبدو أنه وفد على بغداد مطلع شبابه دون أن يلقي حظاً، وقد ورد اسمه في طبقات ابن المعتز مع بعض أشعاره، ولكن لا تعرف عنه أية أخبار، وليس في كتب الأدب القديمة ترجمة له؛ ولعل هذا لكونه أحد شعراء البادية الذين لم يُكتب لهم الاتصال بالحوضر، فكان مغموراً خامل الذكر، والأرجح أنه عاش في أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث.

ويتضح لنا من خلال ما انتهى إلينا من شعره، أنه كان من أفضل شعراء عصره فناً وأسلوباً، ولكن أطاحت بمنزلته إقامته في البادية وانصرافه عن الحواضر، قال ابن المعتز: "كان الحارثي شاعراً مفلحاً مفعوفاً موهوباً مقتدرًا مطبوعاً، وكان لا يشبه بشعره شعر المحدثين الحضريين، وكان نمطه نمط الأعراب"، وقال: "ولو لم يكن في كتابنا إلا شعر الحارثي لكان جليلاً"، وما انتهى إلينا من شعره بالفعل فائق الجودة، بالغ الروعة والانسياوية، أميل إلى طباع البدو والأصالة الجاهلية القديمة، وأسلوب شعره جزل متين رصين، وتدور أغراضه حول الحماسة والفخر والرتاء والغزل.

والحارثي تُنسب إليه القصيدة الشهيرة المعروفة بلامية السموأل؛ التي يقول
فمها:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنُسْ مِنَ اللَّؤْمِ عَرْضُهُ فَكُلُّ رِءَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ

وتُنسب تلك اللامية البديعة إلى السموأل بن عاديء أحد أعلام الجاهلية، وورد ذكرها له في حماسة أبي تمام ومنتهى الطلب لابن ميمون، وهو الأشهر، ولكنَّ عددًا من الرواة -كابن طباطبا العلوي وأبي بكر الصولي وابن الأعرابي والمرزوقي والتبريزي- قد نسبوها للحارثي ونهّوا على خطأ نسبتيها إلى السموأل، غير أنَّ فرط شهرة السموأل في الجاهلية، وخمول ذكر الحارثي في العصر العباسي؛ جعل الغالبية ينسبونها لسموأل، ولا ندري أهي لسموأل فعلاً أم هي للحارثي، وربما كانت لسموأل لامية مشابهة على نفس القافية والبحر، فاختلطت أبيات القصيدتين حتى نُسبت كلها إلى السموأل؛ والقصيدة موجودة في الجزء الأول من كتابنا منسوبة السموأل، مع التنبيه على ما ورد بخصوصها من خلط ونسبتيها للحارثي.

ولعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي عدة قصائد بديعة؛ منها قوله في رثاء أخيه سعيد، وهي قصيدة على نفس نمط مرثية متمم بن نويرة لأخيه مالك؟

فَمَا أَمْ خَشَفٍ أَوْدَعَتْهُ قَرَارَةٌ	مِنَ الْأَرْضِ وَانْسَا حَتْ لِرَعَى وَتَهَجَعَا
خَلِيسٍ كَلُونِ الْأَيْهَقَانِ ابْنِ لَيْلَةٍ	أَمَرَّ فُؤَاهُ أَنْ يُئْوَى فِيرَكَعَا
وِيَهْتَزُّ فِي الْمَمْشَى الْقَرِيبِ كَأَنَّهُ	قَضِيبٌ مِنَ الْبَانِ التَّوَى فَتَرَعَرَعَا
فَظَلْتُ بِمُسْتَنِّ الصَّبَا مِنْ أَمَامِهِ	تَنْعَمُ فِي الْمَرْعَى إِلَيْهِ لَيْسَمَعَا
إِذَا أَغْفَلْتُ نَادَتْ وَإِنْ نَابَ نَبَأَةٌ	عَلَى سَامِعِيهَا تَذْكُرُ طَلَاهَا فَتَرْبَعَا
فَخَالَفَهَا عَارِي النَّوَاهِقِ شَاسِبٌ	أَخُو قَفْرَةٍ أَضْحَى وَأَمْسَى مُجَوَّعَا ^٣

١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٥٢- ٢٥٥)؛ تاريخ الأدب العربي، عمرو فروح (٢٠٧/٣- ١٢١).

٢ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٥٣).

٣ النواهق: هي عروق بخياشيم الدابة، سُميت بذلك لأن النهاق يكون منها. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٠/ ٣٦١).

فَأَنْهَلَ مِنْهُ بَعْدَ عَلٍ وَلَمْ يَدَعْ
فَجَاءَ بِرِيَّاهُ نَسِيمٌ مِنَ الصَّبَا
لَمُلْتِمِسٍ إِلَّا شَرِيحًا مُذْغَدَا
صَبَاحًا وَدُرٌّ جَرٌّ تُكَلًّا فَأَرْجَعَا

ومن جميل شعره:

أَتَى دُونَ خُلُوِ الْوَعْدِ مِنْ تَكْنُمِ الْمَطْلُ
فَقَالَتْ وَأَبْدَى الْوَجْدُ مَا دُونَ صَدْرِهَا
أَأَشَعَرْتَ بِي أَهْلِي عَشِيَّةَ زُرْتَنَا
فَقُلْتُ فَذَا قَدْ كَانَ مَا لَيْسَ رَاجِعًا
فَقَالَتْ وَمَا أَرَزَى بِنَا مِنْ تَحْقُظِ
فَقُلْتُ لَهَا مَا زُرْتُكُمْ قَاصِدًا لَكُمْ
وَمَا جِئْتُكُمْ عَمَدًا وَلَكِنَّ ذَا الْهَوَى
وَأَيُّ هَوَى يَبْقَى إِذَا لَمْ يَكُنْ بِذَلْ
فَلَمْ يَبْقَ بَابٌ دُونَ سِرٍّ وَلَا قُفْلُ
جِهَارًا وَمَا عُذْرِي وَقَدْ شَعَرَ الْأَهْلُ
فَهَلْ عِنْدَكُمْ إِلَّا التَّحْقُظُ وَالْعَذْلُ
عَلَيْنَا وَقُولِي فِي عَوَاقِبِهِ الدَّحْلُ^٢
وَأِنْ كَانَ مَا فِي النَّاسِ لِي وَلَكُمْ مِثْلُ
إِلَى حَيْثُ يَهْوَى الْقَلْبُ تَهْوِي بِهِ الرَّجُلُ

١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٢٥٥).
٢ الدَّحْل: الثَّار. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١١ / ٢٥٦).

عاشراً: الشعراء الشعبيون

(أبو الشمقمق - لحظة البرمكي - الخبز أرزي)

كان الشعر في العصور القديمة يدور في فلك الموضوعات الرسمية والأغراض التقليدية المعروفة؛ مثل: المديح والهجاء والثناء والغزل والوصف وما إلى ذلك، فلمَّا جاء الشعراء المؤلِّدون مع بدايات العصر العباسي؛ بدؤوا يتطرَّقون إلى موضوعات جديدة غير مألوفة، وكان من بينها ما عُرف بالشَّعر الشعبي أو الهزلي؛ الذي كان رائده بشار بن برد رأس الشعراء المؤلِّدين، وهو شعر في مستواه لا يبلغ شيئاً من الشعر الرسمي، سواء أكان في المديح أم في الرثاء، أو في غيرهما من الأغراض التقليدية المعروفة، ولكنه مع هذا شاع في الأوساط بين العامة؛ لما فيه من روح الفكاهة والهزل، وما كان يحمل من موضوعات تمسُّ لوناً من الطبقات الشعبيَّة؛ فهُنالك من كان يشكو الفقر والضَّنك، وهناك من كان يصف أحوال الكدية وظروف الطبقات الكادحة، وهناك من كان له نواذر وأخبار فكاهية ييَّوح بها في شعره، ومن الشعراء الذين عُرفوا بتلك النزعة الشعبيَّة: أبو المخفَّف؛ الذي عاصر المأمون، وأبو العبر؛ الذي مات في خلافة المنتصر، وأبو عبد الله اليعقوبي؛ بل إنَّ بعض شعراء الطبقة الأولى -كأبي نُواس وأبي العتاهية- كانت لهم بعض الأشعار الشعبيَّة بجانب شعرهم الرِّسمي، ومن أشهر شعراء النزعة الشعبيَّة في العصر العباسي:

١- أبو الشمقمق:

هو أبو محمد مروان بن محمد البخاري، مولى لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، نشأ في البصرة وعاصر بشاراً وأبا نواس وأبا العتاهية، نشأ فقيراً، وقدم بغداد أوَّل خلافة الرشيد فاتصل بالبرامكة وبيزيد بن مزيد الشيباني وابنه خالد،

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٤٣٤ - ٤٣٦) و(٤/ ٤٩٩ - ٥٠٣).

وقد توفّي نحو عام (١٨٠هـ / ٧٩٦م)، ولكن إن صحَّ خبر اصطحاب خالد بن يزيد له إلى الموصل واليًا عليها من قِبَل المأمون؛ فالأرجح أن وفاته تأخّرت إلى خلافة المأمون، والله أعلم!

وشعر أبي الشمقمق سهل، عفو خاطر، يدور جُلُّه حول النوادر، وكان يصوّر بأشعاره فقره وبؤسه وخلوّ داره من الطّعام، ويصف أحوال الطبقة الكادحة التي تعاني من الشّقاء وصعوبة العيش، وله كذلك شيء من المديح والخمر والمجون، وله هجائيات عدة!

ومن نماذج شعره يخلط المديح بالهزل، وتتجلّى فيه رُوح الدعابة والفكاهة؛ إذ يجاهر برغبته في التّكسب، في ظرف، وذلك في قوله^١:

عَادَ الشَّمَقْمُقُ فِي الْخَسَارَةِ	وَصَبَا وَحَنٌّ إِلَى زُرَّارَةِ
مِنْ بَعْدِ مَا قِيلَ ارْعَوَى	وَصَحَا لِأَبْوَابِ الشَّطَارَةِ
مِنْ قَهْوَةٍ مَكِّيَّةٍ	وَاللَّوْنُ مِثْلُ الْجُنَّارَةِ
تَدْعُ الْحَلِيمَ بَلَا تُهَى	حَيْرَانَ لَيْسَ بِهِ إِحَارَةِ
وَلربّما غَنَى بِهَا	يَا جَارَتَا مَا كُنْتَ جَارَةِ
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي	جَمَعَ الْجَلَالََةَ وَالْوَقَارَةَ
وَرثَ الْمَكَارِمَ صَالِحًا	وَالْجُودُ مِنْهُ وَالْعِمَارَةَ
إِنِّي رَأَيْتُكَ فِي الْمَنَا	مِ وَعِدْتَنِي مِنْكَ الزِّيَارَةَ
فَغَدَوْتُ نَحْوَكَ قَاصِدًا	وَعَلَيْكَ تَصَدِيقُ الْعِبَارَةِ
إِنِّي أَتَتْنِي بِالنَّدَى	وَالْجُودِ مِنْكَ إِلَى الْبِشَارَةِ
إِنَّ الْعِيَالَ تَرَكْتُهُمْ	بِالْعَصْرِ خُبْرُهُمُ الْعُصَارَةَ
وَشَرَابُهُمْ بَوْلُ الْحِمَا	رِ مِزَاجُهُ بَوْلُ الْحِمَارَةِ

^١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ١١٥ - ١١٨)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١٨٠ / ٢).

^٢ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١٨٠ / ٢)، تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣ / ٤٤٠ - ٤٣٦).

^٣ طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ١١٦ - ١١٧).

ضَجُّوا فَقُلْتُ تَصَبَّرُوا
حَتَّى أَزُورَ الْهَاشِمِیَّ
وَلَقَدْ غَدَوْتُ وَلَيْسَ لِي
فَالنَّجْجُ يُقَرَّنُ بِالصِّبَاةِ
(م) يَّ أَخَا الْغَضَارَةِ وَالنَّضَارَةِ
إِلَّا مَدِيحُكَ مِنْ تَجَارِهِ

كثير الرواية للأخبار، متصرفاً في فنون العلم والنحو واللغة، وكان يجيد العزف على الطنبور، وكان من ندماء الخليفة المعتمد، وله أخبار عديدة.

ومن شعره يذكر فقره رغم غنى أجداده القديم:

أنا ابن أناسٍ مَوَّلَ النَّاسَ جُودُهُمْ فأضحوا حديثاً بالنَّوَالِ المُشَهَّرِ
فَلَمْ يَخُلْ مِنْ إِحْسَانِهِمْ لَفْظٌ مُخْبِرٌ وَلَمْ يَخُلْ مِنْ تَقْرِيطِهِمْ بَطْنٌ دَفْتِرِ

ومن شعره الهزلي:

لي صديقٌ مُغَرِّ بِقُرْبِي وَشَدْوِي وَلَهُ عِنْدَ ذَاكَ وَجْهٌ صَفِيقٌ
قَوْلُهُ إِنَّ شَدَوْتُ أَحْسَنْتَ زِدْنِي وبأحسنَت لا يُباع الدَّقِيقُ

ومن شعره يصف طول عمره:

أرى الأَيَّامَ تَرْمُزُ لي بِخَيْرٍ وَلَكِنْ بَعْدَ أَيَّامٍ طَوَالٍ
فَمَنْ ذا ضَامِنٍ لِدَوَامِ عُمْرِي إلى دهرٍ يُغَيِّرُ سُوءَ حَالِي
هِيَ التَّسْعُونَ قَدْ عَطَفَتْ بِبَابِي وَنَقَرَتِ الْغَوَانِي عَنْ وَصَالِي
وفيهَا لو عرفتُ الْحَقَّ شَغْلٌ عَنْ الْأَمْرِ الَّذِي أَضْحَى اشْتِغَالِي
كَأَنِّي بِالنَّوَادِبِ قَائِلَاتٍ وَجِسْمِي فَوْقَ أَعْنَاقِ الرِّجَالِ
أَلَا سُفْيَا لِحِسْمِكَ كَيْفَ يَبْلَى وَذِكْرُكَ فِي الْمَجَالِسِ غَيْرُ بَالٍ

وقد عمر جحظة طويلاً حتى قارب المئة، ومات نحو عام (٣٢٤هـ / ٩٣٥م)، أو

(٣٢٦هـ / ٩٣٧م)، وقد حُفِظَتْ لَهُ عِدَّةُ تصانيف مثل: "كتاب الطبخ"، "كتاب

الطنبورين"، "المشاهدات"، و"كتاب التَّرنُّم"، فضلاً عن ديوان شعره.

١ وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ١٣٣).

٢ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (١/ ٢٠٨).

٣ المصدر السابق (١/ ٢٠٩ - ٢١٠).

٤ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (١/ ٢٠٧ - ٢٢٥)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/

١٣٣ - ١٣٤).

٣- الخبزأرزي:

هو أبو القاسم البصري نصر بن أحمد بن نصر بن المأمون، كان أُمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، وكان يعمل خَبَّازًا يخبز خبز الأرز في دكانه بالبصرة، فعُرِفَ بالخبزأرزي، ورغم كونه أُمِّيًّا فقد كان شاعرًا مجيدًا، وكان ينشد أشعاره على الناس فيزدحمون عليه ويطلبون لسماع شعره ومُلَجِّه، حتى إن أبا الحسين محمد ابن محمد المعروف بابن لنكك شاعر البصرة المعروف حينها؛ كان ممَّن يحضرون دكانه لسماع شعره، فاعتنى به وجمع له ديوانًا، وقد وصل الخبزأرزي بغداد وأقام فيها دهرًا طويلًا، مات سنة (٣١٧هـ / ٩٢٩م)، وقيل: بل عام (٣٢٧هـ / ٩٣٩م) وهو الأرجح؛ استنادًا لرواية من سمع منه بعد تاريخ وفاته الأول. وشعره سلس رائق، حسن، سهل التراكيب، وفيه ليونة ورقة وعدوبة، يغلب عليه الغزل والوجدان، ومن أفضل شعره متغزلًا:

شَاقِنِي الْأَهْلُ لَمْ تَشْقِنِي الدِّيَارُ	وَالهَوَى صَائِرٌ إِلَى حَيْثُ صَارُوا
جِيرَةٌ فَرَّقَتْهُمْ غُرْبَةُ الْبَيْتِ	بَيْنَ وَبَيْنَ الْقُلُوبِ ذَاكَ الْجَوَارُ
كَمْ أَنْاسٍ رَعَوْا لَنَا حِينَ غَابُوا	وَأَنْاسٍ خَانُوا وَهُمْ خُضَارُ
عَرَضُوا ثُمَّ أَعْرَضُوا وَاسْتَمَالُوا	ثُمَّ مَالُوا وَأَنْصَفُوا ثُمَّ جَاوُوا
لَا تَلْمُهُمْ عَلَى التَّجَنِّي فُلُو لَمْ	يَتَجَنَّنُوا لَمْ يَحْسُنِ الْإِعْذَارُ

وهو القائل:

رَأَيْتُ الْهَلَالَ وَوَجْهَ الْحَبِيبِ	فَكَانَا هِلَالَيْنِ عِنْدَ النَّظَرِ
فَلَمْ أَدْرِ مِنْ حَيْرَتِي فِيهِمَا	هَلَالَ السَّمَاءِ مِنْ هِلَالِ الْبَشَرِ
وَلَوْلَا التَّوَرُّدُ فِي الْوَجْنَتَيْنِ	وَمَا رَاعَنِي مِنْ سَوَادِ الشَّعْرِ
لَكُنْتُ أَظُنُّ الْهَلَالَ الْحَبِيبَ	وَكُنْتُ أَظُنُّ الْحَبِيبَ الْقَمَرَ

١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٢٧٤٥ - ٢٧٤٧)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان

(٣٧٦ - ٣٨٢).

٢ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٢٧٤٧).

٣ المصدر السابق.

حادي عشر: شعراء الشام

(الصنوبري- كشاجم- الوأواء الدمشقي- الببغاء- أبو العباس النامي)

١- أبو بكر الصنوبري:

هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار الضبي، وُلد في أنطاكية نحو عام (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، ونشأ بحلب، واشتهر بلقب الصنوبري، وسئل عن ذلك فقال: كان جدِّي صاحب بيت حكمة من بيوت حكم المأمون، فجرت به بين يديه مناظرة، فاستحسن كلامه وحِدَّة مزاجه، فقال له: إنك لَصَنَوْبَرِي الشَّكْلِ؛ يريد وصف ذكائه وحِدَّة مزاجه، وربما جاء وصفه بالصنوبري نسبة إلى الصنوبر.

والصنوبري هو أحد شعراء أواخر القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع الهجري، لقي سيف الدولة آخر حياته وشهد بلاطه، وكان صديقًا لكشاجم وبينهما مطارحات وسجلات شعرية، مات نحو عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٦م).

وهو من الناحية الفنية شاعر محسن مكثّر مجيد، وشعره سهل عذب، وغاية في الجمال والروعة والانسيابية، وقد برع في عدة أغراض؛ منها: المديح والثناء والزهد ووصف الخمر والتبذير والتهاني والغزل، وفي شعره ما يدل على أنه عني بالصنعة اللفظية؛ حيث نجد في شعره بعض ملامح البديع والصنعة الأسلوبية من مقابلات وطباق وتقسيمات وحوار قصصي رائع، وكان يكثر من التشبيهات والصور البيانية، وله بعض الحُسينيات، ما يدل على أنه قد مان فيه تشيُّع لآل البيت، دون أن يغالي في تشيُّعه.

على أن أبرز ما اشتهر به الصنوبري هو وصف الطبيعة؛ حيث تفوق في ذلك المجال على أقرانه؛ إذ كان رقيق الشعور، مرهف الحس، عايش الطبيعة فأجاد في وصفها، صحيح أن بعض شعراء عصره كابن الرومي وابن المعتز قد وصفوا الطبيعة في شعرهم وأجادوا، لكن الصنوبري علاهم في معاشته

^١ انظر: ديوان الصنوبري (ص ٥- ١٢)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٣/ ٤٣٧).

للطبيعة وأحاسيسها، فانطلق يصف مظاهرها بدقة متناهية تسترعي الانتباه، فكان يصف الرياض والنجس والورود والرياحين والزعفران والثلج، وكان يمزج وصفه بالحوار القصصي وبالتشخيص؛ حيث كان يستنطق الجمادات في شعره، ويشي وصفه للطبيعة بشيء من الصنعة الأسلوبية، وهو من رواد اتجاه بدء القصيدة بمقدمة عن وصف الطبيعة بدلاً من المقدمة الطللية، فصار بحق شاعر الطبيعة الأبرز، وكان شعره منبع إلهام لوصافي الطبيعة في المشرق والمغرب وبلاد الأندلس.

ومن شعره في وصف الطبيعة الذي استعمل فيه لوناً من الحوار القصصي والتشخيص في مناظرة خيالية رقيقة بين الورد والنجس يقول:

زَعَمَ الْوَرْدُ أَنَّهُ هُوَ أَبْهَى	مِنْ جَمِيعِ الْأَنْوَارِ وَالزَّيْحَانِ
فَأَجَابَتْهُ أَعْيُنُ النَّجْسِ الْغَا	(م) ضَ بِذُلِّ مِنْ قَوْلِهَا وَهَوَانِ
أَيُّمَا أَحْسَنُ التَّوَرُّدُ أَمْ مُقْ	لَهُ رِيَمٍ مَرِيضَةُ الْأَجْفَانِ
أَمْ فَمَاذَا يَرْجُو بِخُمْرَتِهِ الْخَا	دُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ عَيْنَانِ
فَرَهَى الْوَرْدُ ثُمَّ قَالَ مُجِيبًا	بِقِيَاسٍ مُسْتَحْسَنٍ وَبَيَانِ
إِنَّ وَرْدَ الْخُدُودِ أَحْسَنُ مِنْ عَيْنِ	نِ بِهَا صُفْرَةٌ مِنَ الْيَرْقَانِ

ومن شعره يصف الثلج:

تَعَالَى اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ	بِقُدْرَتِهِ وَبَارِي كُلِّ نَفْسٍ
لَقَدْ أَضْحَى جَمِيعُ الْأَرْضِ تَجْرِي	كَوَاكِبُهُ بِسَعْدٍ لَا بِنَحْسٍ
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَدْ لَبَسَتْ رُبَاهَا	مِنَ الثَّلْجِ الْمُضَاعَفِ أَيْ لُبْسٍ
ثِيَابًا لَا تَزَالُ تَذُوبُ لِيَنَّا	إِذَا الْأَيْدِي عَرَضْنَ لَهَا بِلَمْسٍ

ومن شعره كذلك في وصف الطبيعة:

١ ديوان الصنوبري (ص ٤٨٨).
٢ المصدر السابق (ص ١٦٠ - ١٦١).
٣ المصدر السابق.

أَمَّا الرِّيَاضُ فَعِشْقُهَا عِشْقُ
 انْظُرْ إِلَى حَدَقِ الرَّبِيعِ فَمَا
 نُسَخَ الرِّيَاضِ أَتَتْكَ تَقْرَأُ مِنْ
 نُشِرَتْ عَلَى تِلْكَ الرُّبَى حُلَّ
 فَمُصَانٌ خَيْرِي مُلَوَّنَةٌ
 ظَلَّ الْبَهَارُ تُضِيءُ أَوْجُهَهُ
 وَتَلَالُاتُ أَحْدَاقٍ تَرْجِسُهُ
 أَمَّا ابْتِسَامُ الْأَقْحُوَانِ إِذَا
 وَكَأَنَّ وَرَدَ الْبَاقِلَاءِ عَلَى
 زَهْرُ الرِّيَاضِ إِذَا هِيَ ابْتَسَمَتْ
 فَتَظَلُّ تَنْطِقُ وَهِيَ سَاكِنَةٌ
 لَمْ يَبْقَ فِي لَغِيرِهَا طَرَقُ
 إِنَّ كَادَ يَعْدِلُ حَدَقَهُ حَدَقُ
 بُعْدِ كَأَنَّ سَطَوْرَهَا مَشَقُ
 مِمَّا يَحُوكُ الرَّعْدُ وَالْبَرْقُ
 وَغَلَائِلُ مِنْ سَوَسَنِ زُرْقُ
 فَيُضِيءُ مِنْهَا الْغَرْبُ وَالشَّرْقُ
 لَمَّا جَلَا أَحْدَاقَهُ الْوَدَقُ
 عَائِنَتُهُ فَكَأَنَّ هَ حَقُ
 خُضِرِ الْغُصُونِ حَمَائِمُ بُلُقُ
 تَدْعُو فَيَسْرِعُ نَحْوَهَا الْخَلْقُ
 إِنَّ الرِّيَاضَ سُكُوتُهَا نُطْقُ

ولم يكن وصف الطبيعة هو الميدان الوحيد الذي أبدع فيه الصنوبري؛ بل إنه -
 على شهرته به- أبدع في عدة أغراض شعرية أخرى، وهو ما يعني أن شعره كان
 متعدّد الأغراض، ومن ذلك قوله يرثي الحسين ومصاب آل بيت رسول الله ﷺ!

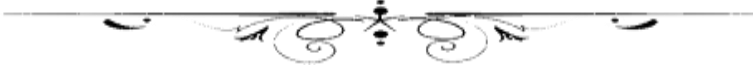
مَا ذَكَرْتُ الْحُسَيْنَ بِالطِّفِّ إِلَّا
 حِينَ أُعْطِيَ الْأَعْنَةَ الْخَيْلَ أَوْبَا
 طَمَعًا أَنْ يُلَقَّبُوا نُصَّاحًا
 وَرَجَاءً أَنْ يَدَهْشُوا الْمُنْجِدَ النَّجْدَ
 فَلَقُّوا مِنْهُ أَثْبَتَ النَّاسِ جَيْشًا
 حَوْلًا قَبَّابًا يُقَارِعُ مَنْ قَا
 جَاشَ صَدْرِي بِمَا ذَكَرْتُ وَجَاشَا
 شُ يُزِيدُ تَبًّا لَهُمْ أَوْبَاشَا
 لِيُزِيدَ فَلَقَّبُوا غُشَّاشَا
 دَ الَّذِي لَيْسَ يَرْهَبُ الْإِدْهَاشَا
 حِينَ يَلْقَى وَأَثْبَتَ النَّاسِ جَاشَا
 رَعٌ لَا هَائِبًا وَلَا طَيَّاشَا

ومن حُسَيْنِيَّاتِهِ يَذْكُرُ كَرْبَلَاءَ:

يَا كَرْبَلَاءَ أَمَا لِي فِيكَ مُبْتَرَضٌ
 عَلَى النَّثَاءِ فَأُبْغِي فِيكَ مُبْتَرَضًا

١ المصدر السابق (ص ١٩٤).

٢ المصدر السابق (ص ٢٣٢).



عَادَى فَوَادِي سُلُويَ فِي مَحَبَّتِهِ آلَ الرَّسُولِ وَعَادَى جَفْنِي الْغَمَضَا
مَا زِلْتُ أَمَحْضُهُمْ مَحْضَ الْوِدَادِ وَمَا أَوْدُ وَدَّ سِوَى مَنْ وَدُّهُمْ مَحْضَا
هَوَى بَنِي هَاشِمٍ فَرَضُ وَأَقْوَمْنَا عَلَى السَّبِيلِ الْأَلَى قَامُوا بِمَا فَرَضَا

وقال يذكر هجوم القرامطة على مكة في موسم الحج، وما ارتكبه من مذابح
بحق الحجيج، ويرثي مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ عَلَى أَيْدِيهِمْ:

بِنَفْسِي نُفُوسَ بَيْنَ زَمَرَمَ وَالْحَجَرِ تَوَلَّتْ فَوَافَاها الرَّدَى وَهِيَ لَا تَدْرِي
نُفُوسٌ مَضَتْ أَوْهَى مُضَيٍّ وَغَادَرَتْ نَفُوسُ بَنِي الدُّنْيَا سُكَارَى بِلَا سُكْرِ
عَجَبْتُ لِقَلْبٍ مَا تَصَدَّعَ حَسْرَةً وَلَوْ كَانَ صَخْرًا أَوْ أَشَدَّ مِنَ الصَّخْرِ
سَلَامٌ عَلَى إِخْوَانِ بَرٍّ مِذْ انْقَضَتْ أُخُوَّتُهُمْ قُلْنَا سَلَامٌ عَلَى الْبَرِّ
أَتَوْا يَقْطَعُونَ الْبَدْوَ وَالْحَضَرَ رَغْبَةً إِلَى خَيْرِ بَيْتٍ حَلَّ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
سَرَوْا وَسَرَتْ أَيْدِي الْمَنَايَا إِلَيْهِمْ فَفَازُوا لَدُنْ فَازُوا بِأَجْرِ عَلَى أَجْرِ
رَأَوْا حَجَّهُمْ حَجًّا وَغَزَوْا فَلَمْ تَطْبُ نَفُوسُهُمْ عَنْ كَسْبِ دُخْرَيْنِ فِي دُخْرِ
بَلَى وَقَفُوا لِلضَّرْبِ وَالطَّعْنِ مَوْقِفًا كَأَنَّهُمْ فِيهِ وَقُوفٌ عَلَى الْجَمْرِ
دُمُوعُهُمْ تَجْرِي خَشُوعًا وَخَشْيَةً وَأُرْوَاهُمْ تَجْرِي عَلَى الْبَيْضِ وَالسُّمْرِ
فَكَانَنْ تَرَى مِنْ سَابِحٍ فِي دِمَائِهِ دِمَاءٌ غَدَا مِنْ هَوْلِهَا الْبَرُّ كَالْبَحْرِ
فَأَكْرَمَ بِهِمْ وَالْمَوْتُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ يُلُودُونَ خَوْفَ الْمَوْتِ بِالْبَابِ وَالسِّتْرِ
أَبَى لَهُمْ إِحْرَامُهُمْ لُبْسَ جُنَّةٍ فَلَمْ يَلْبَسُوا شَيْئًا سِوَى جُنَّةِ الصَّبْرِ
وَأَعْجَبَ لَهُمْ إِذْ يُنَحَّرُونَ كَأَنَّهُمْ هَدِيَّتُهُمْ أَيَّامَ تُهْدَى إِلَى النَّحْرِ

والصنوبري على الجملة من أشهر شعراء العصر العباسي، وشعره معروف على نطاق واسع، وقد عُنيَ بجمع شعره ورَوَاهُ كثيرون؛ مثل: أبي الحسين الصيداوي وأبي الفضل الطوسي، ورَتَّبَ الصولي ديوان شعره على الحروف؛ غير أن العجيب أن الصنوبري على شهرته وصيته وجودة شعره وكثرتة؛ قد قصرت

١ المصدر السابق (ص ٩٠ - ٩١).

٢ انظر: المصدر السابق (ص ٦ - ٨).

المصادر التاريخية القديمة في أخباره وترجمته، فلا نعرف عنه أخبارًا كثيرة غير ما انتهى إلينا من شعره، فهو من مصافّ الشعراء الفحول، لولا قلة أخباره التي لا تتناسب مع جودة شعره وعُلُوّ مرتبته.

٢- كشاجم:

هو أبو الفتح محمود بن الحسين بن السندي بن شاهق -أو ساهك- الشهير بكشاجم، كان يُكنّى كذلك بأبي نصر وبأبي الحسين، وقيل: إنه لُقّب بكشاجم لإتقانه عدة علوم؛ على رأسها: الكتابة والشعر والإنشاء والجدل والمنطق، فأخذ أول حرف من كل كلمة فاجتمعت في "كشاجم"، وقيل: بل لأنه كان شاعرًا أديبًا جميلًا؛ وهو هندي الأصل، وقيل: بل سندي.

ولا تُعرف سنة مولده بدقّة، لكنها على الأرجح كانت أواخر القرن الثالث الهجري أو مطلع القرن الرابع، ولعل منشأه كان بالرملة من أرض فلسطين، وأخذ يتنقل بين بلدان الشام حتى استقر بحلب، وكان من شعراء أبي الهيجاء ثم ولده سيف الدولة الحمداني، وبينه وبين الصنوبري صلة وثيقة ومساجلات شعرية غاية في الظرف، وكان كشاجم شاعرًا مليحًا، وأديبًا متألقًا، وكان مقدّمًا في الفصاحة والخطابة والكتابة، وله عدّة تصانيف؛ من بينها: "أدب النديم"، "كتاب الرسائل"، "المصائد والمطارد"، "خصائص الطرب"، "الطبيخ" بالإضافة إلى ديوانه، وكانت وفاته بين عامي (٣٤٥هـ / ٩٦٥م و ٣٦٠هـ / ٩٧٠م) حسب اختلاف المصادر!

وشعره أنيق سهل رقيق الحاشية، تظهر عليه ملامح الخفّة والرّشاقة والظرف، وكان يميل إلى الأوزان الخفيفة والمقطوعات القصيرة في الأغلب، وأما أغراضه فتنوّعت بين المديح والرثاء والهجاء والغزل والإخوانيات وشكوى الهجر، وله بعض القصائد التي تنمُّ عن تشيُّعه لآل البيت، فله فيهم مديح ورثاء، غير أن أبرز ما عُرف به هو غرض الوصف؛ إذ كان متفنّنًا فيه، فكان يصف الأطعمة

١ انظر: ترجمة كشاجم في ديوانه (ص ٧- ١١).

والدجاج وآلات الموسيقى كالعود والطنبور، كما أبدع في وصف الطبيعة، وقطع في ذلك الغرض شوطاً عظيماً، فنراه يصف التُّفَّاح والتَّلَج والهلال والنخل وشقائق النعمان وسائر مظاهر الطبيعة.

قال في مقطوعة صغيرة يصف الهلال!

أَهْلًا وَسَهْلًا بِالْهَلَا لِ بَدَا لِعَيْنِ الْمُبْصِرِ
أَوْ مَا تَرَاهُ يَلُوحُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ الْأَخْضَرِ
كَشَعِيرَةٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ رُكِبَتْ فِي خَنْجَرِ

وقال يصف الشقائق!

أَمَّا الظَّلَامُ فَقَدْ رَقَّتْ غُلَّائِئُهُ وَالصُّبْحُ حِينَ بَدَا بِالنُّورِ يَخْتَالُ
فَانْظُرْ بَعِيْنِكَ أَغْصَانِ الشَّقَائِقِ فِي فُرُوعِهَا زَهَرَ فِي الْحُسْنِ أَمْثَالُ
مِنْ كُلِّ مُشْرِقَةِ الْأَوْرَاقِ نَاصِرَةٍ لَهَا عَلَى الْغُصْنِ إِيْقَادٌ وَإِشْعَالُ
حَمْرَاءَ مِنْ صِبْغَةِ الْبَارِي بِقُدْرَتِهِ مَصْقُولَةٍ لَمْ يَنْلُهَا قَطُّ صَقَالُ
كَأَنَّهَا وَجَنَاتٌ أَرْبَعٌ جُمِعَتْ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ فِي صَحْنِهَا خَالُ

وقال يصف تفاحة في كف جارية!

رَاحٌ وَتُفَاحَةٌ فِي كَفِّ جَارِيَةٍ بِيضَاءَ بِالْحُسْنِ وَالْإِحْسَانِ مُنْقَرِدَةٍ
كَأَنَّهَا هَذِهِ هَاتِيكَ ذَائِبَةٌ وَهَذِهِ هَذِهِ فِي الْكَفِّ مُنْعَقِدَةٍ

وتتجلى روح الفكاهة والظرف في قوله يصف دجاجة!

دَجَاجَةٌ فِي سِمَنِ السِّمْنَدِ بِنِيلِهِ وَفَخْرِهَا بِالْهِنْدِ
عَظِيمَةُ الزُّورِ كَصَدْرِ نَهْدِ أَجْرِيْتُ مِنْهَا فِي مَجَالِ الْعَقْدِ

وقال من الرجز يصف ليلة!

١ المصدر السابق (ص ١٧٨).

٢ المصدر السابق (ص ٢٧١).

٣ المصدر السابق (ص ١٠٠).

٤ المصدر السابق.

وليلةٍ فيها قَصْرٌ
صافيةٍ مِنَ الْكَدَرِ
وحياً كَلَمَحٍ بِالْبَصْرِ
في مِثْلِهَا التَّدُّ السَّحَرِ
تمحو إساءاتِ الْقَدَرِ
لَهَوْتُ فيها مُسْتَتِرِ
حيرانٍ مِنْ فَرْطِ الدُّعْرِ
نَشْوَانٍ مِنْ غَيْرِ سُكْرِ
يَفْضَحُهُ النَّشْرُ الْعَطِرُ
هُنَيْهَةً ثُمَّ سَفَرُ
وعارضٍ مِثْلِ الْقَمَرِ
لا يَشْتَفِي مِنْهُ النَّظَرُ

وقال يرثي والدته:

أَبْعَدَ مُصَابِ الْأَمِّ آلَفُ مَضْجَعًا
سَتْرَضِعُ عَيْنِي قَبْرَهَا مِنْ دُمُوعِهَا

ومن مديحه لآل البيت:

آلِ النَّبِيِّ فَضَّلْتُمْ
وَبَهْرْتُمْ أَعْدَاءَكُمْ
وَلَكُمْ مَعَ الشَّرَفِ الْبَلَا
فَضَّلَ النَّجُومِ الزَّاهِرَةَ
بِالْمَآثِرَاتِ السَّائِرَةَ
غَةِ وَالْحُلُومِ الْوَافِرَةَ

ومن الواضح في شعر كشاجم سيره على نمط الصنوبري في التَّشْيِيعِ ووصف الطبيعة، وإن كان شعر الصنوبري أعمق معنًى، وأبعد مرئىً، وأكثر تنوعاً.

١ المصدر السابق (ص ١٤٤).

٢ المصدر السابق (ص ٢٧٠).

٣ المصدر السابق.

٣- الوأواء الدمشقي:

هو أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني الدمشقي، كان مولده بدمشق بين عامي (٣١٠ هـ و ٣١٥ هـ / ٩١٧ و ٩٢٢ م)، ونشأ فيها فقيراً يبيع الخضار والفاكهة، وكان يتغنّى عليها منادياً بصوت يشبه الوأواة (صياح ابن آوى، أو صياح الكلب) فلُقّب بذلك.

إلا أنه -على فقره- كان واسع الاطلاع والثقافة، مطّلعاً على دواوين فحول الشعراء، وقد برزت موهبته الشعرية، فمدح الشريف العقيقي العلوي الدمشقي، ومدح سيف الدولة الحمداني أمير حلب، فضمه إلى بلاطه لكنه غادره بعد مدّة ليست طويلة إلى دمشق، وحسّنت حاله بصلة الممدوحين، ونال شيئاً من التّرف واللّهو، مات نحو عام (٣٧٠ هـ / ٩٨١ م)، وهو شاعر مجيد، على قدر من متانة الأسلوب وإصابة التشبيه والاستعارة وحسن الإشارة، وفي شعره عدوبة وانسجام في اللفظ، دارت أغراضه حول المديح والخمر والوصف والغزل ووصف الطبيعة؛ ومن شعره في وصف الخمر:

فَلَقَدْ مُزِجْتُ مَدَامِي بِدِمَائِي	فَامزَجْ بِمَائِكَ خَمَرَ كَأْسِكَ واسقني
تَنْفِي الهُمومَ بِعَاجِلِ السَّراءِ	وَأَشْرَبْ عَلَى زَهْرِ الرِّياضِ مَدَامَةً
تَجْرِي مَجَارِي الرُّوحِ فِي الأَعْضاءِ	لَطْفَتْ فَصَارَتْ مِنْ لَطِيفِ محلّها
مَا بَيْنَ نَارٍ رُكِبَتْ وَهَوَاءِ	وَكأنَّ مَخْنَقَةً عَلَيْهَا جَوْهَرُ
إِذْ قَامَ يَجْلُوها عَلَى النُّدْماءِ	وَكأنَّهَا وَكأنَّ حَامِلَ كَأْسِها
بَذَرُ الدُّجَى بِكواكِبِ الجَوَازِ	شَمْسُ الضُّحَى رَقَصَتْ فَنَقَطَ وَجْهَهَا

وقال في الوصف:

بَذَرُ تَقَنَّعٍ بِالظَّلَا مِ عَلَى قَضِيبٍ فِي كَثِيبٍ

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٢٨٠)؛ عمر فروخ (٥٢٢-٥٢٣).

٢ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (١/ ٣٣٧).

٣ المصدر السابق (١/ ٣٣٨).

تَدْعُو مُحَاسِنُهُ الْقُلُوبَ
فَعَلَتْ بِهِ رِيحُ الصَّبَا
عَلَقَتْ زَكَائِبَ حُسْنِهِ
وَتَظَلَّمَتْ وَجَنَاتِنَا
وَكَأَنَّمَا تَشْوِيْشُنَا
يَا بَدْرُ بِالْبَدْرِ الَّذِي
وَبِعَقْرِ الصُّدُغِ الَّذِي
تَرَعَى وَمَا اسْتَرَعِيْهَا
هَبْ لِي مَزَارِكَ فِي الْكَرَى

بِإِلَى مُشَافِهَةِ الذُّنُوبِ
مَا لَيْسَ تَفْعَلُ بِالْقَضِيبِ
بِعُقُولِنَا عِنْدَ الْمَغِيبِ
بِيَدِ الدُّمُوعِ مِنَ النَّحِيبِ
تَشْوِيْشُ أَلْفَاظِ الْمُرِيبِ
أُطْلَعْتَ مِنْ فَلَكَ الْجِيُوبِ
زُرْقَنْتَ مِنْ حُسْنِ وَطِيبِ
تَمَرَّ الْقُلُوبِ بِمَا دَبِيبِ
كَيْمَا أَرَاكَ بِمَا رَقِيبِ

٤- البغاء:

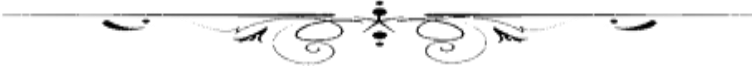
هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمد، من أهل نصيبين، لقّب بالبغاء للثغة بلسانه، وُلِدَ نحو عام (٣١٥هـ / ٩٢٧م)، وقد اتصل بسيف الدولة وكان من شعرائه، وأخذ يتنقل بين حلب ودمشق والموصل وبغداد التي لقي فيها المتنبي إثر رجوعه من مصر، وله أخبار مع صاحب ابن عباد الكاتب، مات سنة (٣٩٠هـ / ٩٩٩م)، وهو شاعر مجيد، على قدرٍ من فخامة اللفظ ومتانة التركيب وحسن الصور والمعاني، وقد برع في الوصف والخمر والغزل والمديح والرثاء، وله كذلك نثر جيد ورسائل بديعة!

ومن روائع شعره:

يَا سَادَتِي هَذِهِ نَفْسِي تُودِّعُكُمْ
قَدْ كُنْتُ أَطْمَعُ فِي رُوحِ الْحَيَاةِ لَهَا
لَا عَذَبَ اللَّهُ رُوحِي بِالْبَقَاءِ فَمَا
إِذْ كَانَ لَا الصَّبْرَ يُسْلِيهَا وَلَا الْجَزْعَ
فَالآنَ إِذْ بُنْتُ لَمْ يَبْقَ لِي طَمَعُ
أُظُنُّنِي بَعْدَكُمْ بِالْعَيْشِ أَنْتَفِعُ

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٦١٢ - ٦١٣).

^٢ انظر: نيتمة الدهر، الثعالبي (١/ ٢٢٢).



وقال^١:

يا مَنْ تَشَابَهَ مِنْهُ الْخُلُقُ وَالْخُلُقُ
تَوْرِيذُ دَمْعِي مِنْ خَدَّيْكَ مَخْتَلَسٌ
فَمَا تُسَافِرُ إِلَّا نَحْوَهُ الْحَدَقُ
لَمْ يَبْقَ لِي رَمَقٌ أَشْكُو هَوَاكَ بِهِ
وَسُقْمُ جَسَمِي مِنْ جَفْنَيْكَ مَسْتَرْقُ
وَأَمَّا يَتَشَكَّى مَنْ بِهِ رَمَقُ

وقال^٢:

يا مُسَقِّمِي بِجُفُونٍ سُقْمُهَا سَبَبٌ
وَحَقَّ جَفْنَيْكَ لَا اسْتَعْفَيْتَ مِنْ كَمَدِي
إِلَى مُوَاصَلَةِ الْأَسْقَامِ فِي جَسَدِي
عَذْرَتُ مَنْ ظَلَّ فِي حُبِّكَ يَحْسُدُنِي
دَهْرِي وَلَوْ مِتُّ مِنْ هَمٍّ وَمِنْ كَمَدٍ
لَأَنَّهُ فِيكَ مَعْذُورٌ عَلَى حَسَدِي

٥- أبو العباس النامي:

هو أبو العباس أحمد بن محمد الدارمي المصيصي، المعروف بالنامي، كان شاعراً مفلحاً من فحول شعراء عصره، وكان بارعاً عارفاً باللغة والأدب، وُلِدَ نحو عام (٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، وهو من شعراء بلاط سيف الدولة الحمداني، وكان يلي المتنبي في المنزلة والرتبة، حتى إذا غادر المتنبي صار مقدماً عنده، رَوَى عن أبيه وعن عدد من أكابر العلماء مثل: أبي الحسن الأخفش وابن درستويه وأبي عبد الله الكرمانى وأبي بكر الصولي، ورَوَى عنه كثيرون؛ من بينهم أبو الفرج الببغاء وأبو بكر الخالدي والقاضي أبو طاهر الهاشمي، وكانت له مع المتنبي وقائع ومعارضات وأناشيد، وفي شعره شيء من الظرف واللُبونة والحلاوة وحسن الديباجة، ولا يخلو من الصور والخيال الخصب واللفظ العذب، مات سنة (٣٧١هـ/ ٩٨١م أو ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م)، ومن روائعه قوله^٣:

^١ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٢٣).

^٢ انظر: المصدر السابق.

^٣ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ١٢٥ - ١٢٧)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٦١٧ - ٦١٨).

^٤ انظر: بيتيمة الدهر، الثعالبي (٢/ ١٩٨).



كَأَنَّ قَلْبِي مُعَارٌ لِلنَّوَى جَزَعًا
نَاطَ الحَمَائِلَ فِي لَيْثٍ وَفِي قَمَرٍ
كَأَنَّهُ أَجَلٌ أَوْ طَرْفُهُ وَجِلٌ
يَا مُظْمِيَّ الْخِيلِ أَوْ تُرَوِّ ذَوَابِلُهُ
إِذَا مَلَائِكَةُ النَّصْرِ اخْتَلَطَتْ بِهَا
لَمْ تَدْعُ يَا عِلْمَ الْمَجْدِ الْقَنَا لِقَنَا
لَا يَكْتُمُ النَّصْرُ يَوْمًا أَنْتَ شَاهِدُهُ
النَّصْرُ أَسْرَجَهَا وَالْعَزْمُ أَلْجَمَهَا
قَالَ النَّهَارُ لَهُ وَالشَّمْسُ مَغْمَدَةٌ
هَذَا عَجَاجٌ فَأَيْنَ الْأَفْقُ وَهُوَ قَنَا
بِحَذِّ سَيْفِكَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ انْحَطَمَتْ
يُحَدِّثُ الذَّنْبُ ذَنْبٌ وَهُوَ مَبْتَهَجٌ
قَدْ أَرْضَعَتْكَ ثَدْيِي الْأَرْضِ دَرَّتْهَا
مِنْ آلِ حَمْدَانَ حَيْثُ الْمُلْكُ مُقْتَبِلٌ
قَوْمٌ إِذَا حَكَمُوا يَوْمًا لَأَنْفُسِهِمْ

مِنْ قَلْبِ قَرْنٍ عَلَيَّ وَهُوَ مُنْهَزِمٌ
وَفِي الحَمَائِلِ قَدْ نَيْطَتْ بِهِ الْهِمَمُ
أَوْ سَيْفُهُ قَدَّرَ فِي الرُّوحِ يَحْتَكُمُ
وَالْخَيْلُ تَشْرَبُ مِنْ أَشْدَاقِهَا اللَّجْمُ
تَشَابَهَ الْعَالَمُ النَّوْرِيُّ وَالنَّسَمُ
إِلَّا وَسَبَّحَ إِجْلَالًا لَكَ الْعَلَمُ
وَالْيَوْمُ مِنْ نَفْعِهِ قَدْ كَادَ يَنْكَتُمُ
وَالْحَزْمُ أَمْسَكَ بِالْإِسْرَاجِ لَا الْحَزْمُ
وَالْمَنَايَا شُمُوسٌ غَمَدُهَا الْقِمَمُ
وَتِلْكَ خَيْلٌ فَأَيْنَ الْأَرْضُ وَهِيَ دَمٌ
قَوَاعِدُ الشِّرْكِ وَالْأَرْوَاحُ تَنْحَطُّ
وَيُخْبِرُ النَّسْرُ نَسْرًا وَهُوَ مَبْتَسِمٌ
وَرُمْحُكَ ابْنُ رَضَاعٍ لَيْسَ يَنْفَطِمُ
وَالْمَالُ مُقْتَسَمٌ وَالْحَمْدُ مَغْتَنَمٌ
جَارَ السَّمَاخِ عَلَيْهِمْ فِي الَّذِي حَكَمُوا

ثاني عشر: شعراء العراق

(ابن دريد- السري الرفاء- الوزير المهلب- القاضي التوحي- ابن نباتة
السعدي)

١- أبو بكر ابن دريد:

هو محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية بن حنتم الأزدي، القحطاني، وكنيته أبو بكر، وُلد في البصرة في خلافة المعتصم عام (٢٢٣هـ / ٨٣٨م)، ونشأ فيها وتعلّم اللغة والأدب والشعر، وقرأ على علماء البصرة، ثم انتقل إلى عمان موطن قومه الأصلي، فأقام فيها حيناً، ثم انتقل إلى فارس، ثم استقر ببغداد؛ حيث أجرى عليه الخليفة المقتدر نفقة بمقدار خمسين ديناراً في الشهر.

وقد تعلّم العربية، ورَوَى عن عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، وأبي حاتم السجستاني، وأبي الفضل الرياشي؛ كما رَوَى عنه كثيرون مثل المرزباني والأصبهاني، وكان ابن دريد من أحفظ الناس وأوسعهم علماً، وكان مقدّماً على علماء عصره في اللغة والعلم بالشعر وعلم الأنساب، وكان آية عصره في الإحاطة بعلوم النحو والصرف والنقد، حتى قيل فيه: أشعر العلماء وأعلم الشعراء، وكان يحفظ ما يُقرأ عليه من دواوين العرب، ويُعدّ في رتبة النحويين وعلماء اللغة، وله عدة مصنفات؛ مثل: "الجمهرة في اللغة" وهو معجم لغوي، "الاشتقاق"، "الخیل الكبير"، "الخیل الصغير"، "الأنواء"، "الملاحن" و"أدب الكاتب"، "المجتبي"، و"المقتنى"؛ أصيب بالفالج آخر عمره ومات في بغداد عام (٣٢١هـ / ٩٣٣م)، ويروى أنه مات هو وأبو هاشم الجبائي في يوم واحد، ودُفِنَا في مقبرة الخيزران، فقال الناس: مات علم اللغة والكلام بموت ابن دريد والجبائي^١.

^١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٢٤٨٩ - ٢٤٩٩)؛ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ١٦٢ - ١٦٤)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٤١٦ - ٤١٧).

وابن دريد -بجانب علمه ومؤلفاته- شاعر بديع، ويظهر في شعره أثر علمه وتفقُّهه في اللغة؛ حيث خالف سمات عصره، وجرى في شعره على نهج الشعراء القدامى، وقد امتاز في شعره بقوة الأسلوب وحسن السبك، وتنوعت أغراض شعره بين المديح والثناء والغزل والوصف، وفي شعره حِكم كثيرة غاية في العمق، ومن أشهر شعره مقصورة رائعة بديعة، بدأها بمقدمة طल्लीية وضَمَّنها حِكَمًا كثيرة، وقد جاء فيها:

تَرعى الخُزامى بينَ أشجارِ النَّقا	يا ظبيَّة أشبَهَ شيءٍ بالمها
طُرةٌ صُبحَ تحتِ أذيالِ الدُّجى	إمَّا تَرى رأسي حاكِي لونه
مثلَ اشتعالِ النَّارِ في جَزَلِ الغُصَى	واشتعلَ المُبيضُ في مُسودِّه
*	*

على جديِدٍ أدنياهُ لِلبلى	إنَّ الجديدينِ إذا ما استوليا
بِشَتِّ مَلُومٍ وتُكَيِّثُ قُوى	ما كنتُ أدري والزَّمانُ مَوْلَعٌ
*	*

وَعَزَّ عَنْهُمُ جانِباهُ واحتَمى	مَنْ ظَلَمَ النَّاسَ تَحامَوْا ظَلَمَه
أظَلَمُ مِنْ حَيَاتِ أُنْباتِ السَّفا	وَهُمْ لِمَنْ لَانَ لَهُمُ جانِبُه
جميعَ أَقطارِ البلادِ والقِرى	والنَّاسُ كَلَّا إِنْ فَحصتَ عَنْهُمُ
مِنْ غَمْرِه في جِرعَةٍ تَشفي الصَّدى	عَبِيدُ ذِي المالِ وَإِنْ لَمْ يَطْمَعُوا
شَارَكَهُمْ فيها أَفادَ وَحوى	وَهُمْ لِمَنْ أَمَلَقَ أَعْداءُ وَإِنْ
تَأزَّرَ الدَّهْرُ عليه وارْتدى	عاجمتُ أَيامي وما الغُرُّ كَمَنْ
يحطُّكَ الجَهْلُ إذا الجَدُّ عَلا	لا يَنْفَعُ اللَّبُّ بِلا جِدٍّ ولا
كانَ العَمى أُولى بِهِ مِنَ الهُدَى	مَنْ لَمْ تُفِدْهُ عِبرًا أَيَّامُه
راحَ بِهِ الواعظُ يَوْمًا أو غَدا	مَنْ لَمْ يَعِظْهُ الدَّهْرُ لَمْ يَنْفَعْهُ ما
أراهُ ما يَدنو إِلَيْه ما نأى	مَنْ قاسَ ما لَمْ يَرَهُ بِما يَرى

^١ انظر: ديوان ابن دريد (ص ١٢٣)، دراسة وتحقيق: عمر بن سالم، مؤسسة سلطان بن علي العميي الثقافية، دبي- الإمارات، ط ١، ٢٠١٢م.

يَكْرَعُ فِي مَاءٍ مِنَ الذَّلِّ صَرَى
إِلَيْهِ عَيْنُ الْعِزِّ مِنْ حَيْثُ رَنَا
كَانَ الْغِنَى قَرِينَهُ حَيْثُ انْتَوَى
تَقَاصَّرَتْ عَنْهُ فُسَيْحَاتُ الْخُطَا
نَدَامَةٌ أَلْدَعَ مِنْ سَفْعِ الذُّكَا
نِيطَتْ غُرَى الْمَقْتِ إِلَى تِلْكَ الْعَرَى
أَعَجَزَهُ نَيْلُ الدُّنَى بَلَاءَ الْقَصَا
مَالِعِبَاءِ يَوْمًا آضٌ مَجْزُولُ الْمَطَا
وَوَاحِدٌ كَالْأَلْفِ إِنْ أَمَرَ عَنَا
يَدَاهُ قَبْلَ مَوْتِهِ لَا مَا اقْتَنَى
فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى

مَنْ مَلَكَ الْحِرْصَ الْقِيَادَ لَمْ يَزَلْ
مَنْ عَارِضَ الْأَطْمَاعَ بِالْيَأْسِ دَنَتْ
مَنْ عَطَفَ النَّفْسَ عَلَى مَكْرُوهِهَا
مَنْ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ انْتِهَاءِ قَدَرِهِ
مَنْ ضَيَّعَ الْحَزْمَ جَنَى لِنَفْسِهِ
مَنْ نَاطَ بِالْعُجْبِ غُرَى أَخْلَاقِهِ
مَنْ طَالَ فَوْقَ مَنْتَهَى بَسْطَتِهِ
مَنْ رَامَ مَا يَعِجُزُ عَنْهُ طَوْقُهُ
وَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمْ كَوَاحِدٍ
وَلِفَقْتَى مِنْ مَالِهِ مَا قَدَّمَتْ
وَأِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ

وقال يرثي:

سَخْبَانِ أَوْ يُوفِي عَلَى سَخْبَانِ
وَذُووُ الْفَصَاحَةِ مِنْ بَنِي قَحْطَانِ
أَوْلَاهُمْ بِفَصَاحَةٍ وَبَيَانِ
وَمُجِيرُهَا مِنْ جَاحِمِ النَّيِّرَانِ
لَمْ يَخْتَلِفْ فِي فَوْزِهِنَّ اثْنَانِ
أَمْضَى وَأَنْقَذَ مِنْ شَبَابَةِ سِنَانِ
يَبْغِي التَّقَى وَشَرَائِطَ الْإِيمَانِ
يَسْمُو بِهَمَّتِهِ إِلَى الرِّضْوَانِ
تَرْمِي إِلَيْهِ بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ
نَصُّ الرَّسُولِ وَمُحْكَمُ الْقُرْآنِ
غُرَّ الْقَرَائِحِ مِنْ ذَوِي الْأَذْهَانِ

وَإِذَا قَرَأْتَ كَلَامَهُ قَدَّرْتَهُ
لَوْ كَانَ شَاهِدَهُ مَعَدُّ خَاطِبًا
لَأَقَرَّ كُلُّ طَائِعِينَ بِأَنَّهُ
هَادِي الْأَنَامِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْعَمَى
رَبُّ الْعُلُومِ إِذَا أَجَالَ قِدَاحَهُ
ذُو فِطْنَةٍ فِي الْمَشْكَلاتِ وَخَاطِرِ
وَإِذَا تَفَكَّرَ عَالِمٌ فِي كُتُبِهِ
مُتَبَيِّنًا لِلدِّينِ غَيْرَ مُقَلِّدٍ
أَضَحَّتْ وَجْوهُ الْحَقِّ فِي صَفَحَاتِهَا
مِنْ حُجَّةٍ ضَمِنَ الْوَفَاءَ بِنَصْرِهَا
وَذِلَالَةٍ تَجْلُو مَطَالِغَ سَيْرِهَا

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٧٨ - ٧٩).

حَتَّى تَرَى مُتَبَصِّرًا فِي دِينِهِ مَقْلُولَ غَرْبِ الشَّكِّ بِالْإِيقَانِ
 اللَّهُ وَفَّقَهُ اتِّبَاعَ رَسُولِهِ وَكِتَابِهِ الْأَصْلَيْنِ فِي التَّنْيَانِ
 وَأَمَدَهُ مِنْ عِنْدِهِ بِمَعُونَةٍ حَتَّى أَنْفَا بِهَا عَنِ الْأَعْيَانِ
 وَأَرَاهُ بَطْلَانَ الْمَذَاهِبِ قَبْلَهُ مِمَّنْ قَضَى بِالرَّأْيِ وَالْحُسْبَانِ

٢- السري الرفاء:

هو السري بن أحمد بن السري، الكندي، الموصل، عُرف بالسري الرفاء لأن أباه أسلمه في صباه إلى الرفائين بالموصل، فكان يرفو ويطرز، إلا أنه كان فيه ميل إلى الأدب والشعر، فكان ينظم الشعر ويجيد فيه، فترك حرفة الرفو واشتغل بحرفة الوراقة، فكان ينسخ دواوين الشعراء ويطلع عليها، وهو ما صقل موهبته، ولكنه لم يزل في ضنك من العيش، فذهب إلى حلب ومدح سيف الدولة الحمداني، فقرّبه ووصله حتى ذاع صيته وسار شعره في الأفق، فلمّا مات سيف الدولة انتقل السري إلى بغداد، ومدح عددًا من الأعيان فنال صلاتهم، وقيل بأنه مدح الوزير المهلب، لكن الأخير كانت وفاته قبل وفاة سيف الدولة؛ حيث مات عام (٣٥٢هـ / ٩٦٣م) بينما مات سيف الدولة عام (٣٥٦هـ / ٩٦٧م)، أما السري فكانت وفاته بين عامي (٣٦٢-٣٦٦هـ / ٩٧٣-٩٧٧م).

وكان السري شاعرًا مطبوعًا عذب الألفاظ، مليح المأخذ، متفتنًا في التشبيهات والأوصاف، وكان متأثرًا بكشاجم ومعجبًا بشعره، حتى إنه اتهم بأنه وضع في ديوانه شعرًا منحولًا عليه، قاله أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان، أثناء عمله بالوراقة؛ نكايتهما، وحتى يكثر ورقه فيغلو ثمنه، فكان هذا مصدر عداوة بينه وبينهما، وشعره حسن جيّد، سلس فائق العذوبة، على درجة راقية من الانسيابية والإبداع، ويدور حول أغراض المديح والوصف والغزل والنسيب وأيام الصبا والخمر والإخوانيات، وكانت له عدة تصانيف؛

مثل: "كتاب الديرة"، "كتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب"، وقد رتب ديوان شعره بنفسه قبل وفاته، وأعيد ترتيبه حديثاً على الحروف.^١
ومن شعره قوله في الغزل:

قَسَمْتُ قَلْبِي بَيْنَ الْهَمِّ وَالْكَمَدِ
وَرُحْتُ فِي الْحُسْنِ أَشْكَالًا مَقْسَمَةً
أَرَيْتَنِي مَطَرًا يَنْهَلُ سَاكِبُهُ
وَوَجَنَةً لَا يُرَوِّي مَأْوَاهَا ظَمًا
وَمُقَلَّتِي بَيْنَ فَيْضِ الدَّمْعِ وَالسَّهَدِ
بَيْنَ الْهَلَالِ وَبَيْنَ الْغُصْنِ وَالْعَقْدِ
مِنَ الْجَفُونِ وَبَرْقًا لَاحَ مِنْ بَرْدِ
بُخْلًا وَقَدْ لَذَعَتْ نِيرَانُهَا كِبْدِي
أَبْقَى الْغَرَامُ عَلَى صَبْرِي وَلَا جَلْدِي
فَكَيْفَ أَبْقَى عَلَى مَاءِ الشُّؤُونِ وَمَا

ومن شعره يصف الحب:

بَلَانِي الْحُبُّ فِيكَ بِمَا بَلَانِي
أَبَيْتُ اللَّيْلَ مُرْتَفَقًا أَنَا جِي
فَتَشْهَدُ لِي عَلَى الْأَرْقِ الثَّرِيَا
وَقَالَ يَصِفُ الشَّرَابَ:

قُمْ فَانْتَصِفْ مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ وَالتُّوبِ
أَمَا تَرَى الصُّبْحَ قَدْ قَامَتْ عَسَاكِرُهُ
وَالْجَوُّ يَخْتَالُ فِي حُجْبٍ مُمَسَّكَةٍ
تَجَنَّبَتْكَ صُرُوفُ الدَّهْرِ فَانصَرَفَتْ
وَاجْمَعْ بِكَاسِكَ شَمْلَ اللَّهِوِ وَاللَّعِبِ
فِي الشَّرْقِ تَنْشُرُ أَعْلَامًا مِنَ الذَّهَبِ
كَأَنَّمَا الْبَرْقُ فِيهَا قَلْبُ ذِي رُغْبٍ
وَقَابَلَتْكَ سُعُودُ الْعَيْشِ مِنْ كَثَبِ
بَقْهَوَةِ الْفَلَجِ الْمَعْسُولِ وَالشَّنَبِ
فَاخْلَعْ عِذَارَكَ وَاشْرَبْ قَهْوَةً مُزِجَتْ

وقال يصف روضة ويستزير صديقًا:

^١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣/ ١٣٤٣ - ١٣٤٥)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٣٥٩ - ٣٦٢).

^٢ يتيمة الدهر، الثعالبي (٢/ ١٢٨ - ١٢٩).

^٣ المصدر السابق (٢/ ١٢٩).

^٤ المصدر السابق (٢/ ١٤٠).

^٥ المصدر السابق (٢/ ١٤٤).

لَنَا رَوْضَةٌ فِي الدَّارِ صَيْغَ لَزْهَرِهَا
يُطِيفُ بِنَا مِنْهَا إِذَا مَا تَنَفَّسَتْ
وَنُذْمَانُ صِدْقِ نَثْرَةِ وَنِظَامُهَا
وَقَدْ رَقَّ ثَوْبُ الْغَيْمِ حَتَّى كَأَنَّمَا
فَزُرْ مَجْلِسًا قَدْ فَضَّلَ اللَّهُ أَهْلَهُ
وَلَا تَعُدُّ أَفْعَالُ الشَّرِيفِ فَإِنَّهُ
قَلَائِدُ مِنْ حَلْيِ النَّدَى وَشُنُوفُ
نَسِيمِ كَعْقَلِ الْخَالِدِي ضَعِيفِ
رَبِيعُ إِذَا فَاوَضَتْهُ وَخَرِيفُ
تَنْشَرُ دُونَ الْأُفُقِ مِنْهُ سُجُوفُ
وَشَرَّفَهُمْ إِنَّ الْأَدِيبَ شَرِيفُ
زَمَانُ رَقِيقِ الْخُلَّتَيْنِ ظَرِيفُ

ومن مديحه قوله!

نَادِيكَ مِنْ مَطَرِ الْإِحْسَانِ مَمْطُورُ
وَالْبَيْضُ ظِلٌّ عَلَيْكَ الدَّهْرُ مُنْتَشِرُ
وَالشَّرِكُ قَدْ هُتِكَتْ أَسْتَارُ بَيَضَتِهِ
كَمْ وَقْعَةٍ لَكَ شَبَّتْ فِي دِيَارِهِمْ
بِنَهْضَةٍ خَرَّ فُسْطَاطُ الْكَفُورِ لَهَا
وَمُرْتَجِيكَ بَغَمِ الْجُودِ مَغْمُورُ
وَالنَّقْعُ جَيْبٌ عَلَيْكَ الدَّهْرُ مَزْرُورُ
بِحَدِّ سَيْفِكَ وَالْإِسْلَامُ مَنَشُورُ
نَارًا وَأَشْرَقَ مِنْهَا فِي الْهُدَى نُورُ
خَوْفًا وَأَذَعْنَ بِالْفُسْطَاطِ كَافُورُ

وهذه المقطوعات من النماذج التي أوردتها الثعالبي، وهي تنمُّ عن جودة شعره ورُقِّيَ مستواه، ولكن أَخَمَلَ ذِكْرَهُ وَذَكَرَ سِوَاهُ مُعَاصِرَتُهُ لِلْمَتَنِيِّ وَأَبِي فَرَّاسٍ، فَلَا يَنْتَبِهَ لِدِكْرِهِ إِلَّا مَنْ تَعَقَّبَ شُعْرَاءَ تِلْكَ الْحَقْبَةِ مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ.

٣- القاضي التنوخي:

هو أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم التنوخي الأنطاكي، وُلِدَ فِي ذِي الْحِجَّةِ (٢٧٨هـ / ٨٩٢م)، وَقَدِمَ بَغْدَادَ وَسَمِعَ الْحَدِيثَ وَتَفَقَّهَ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ، وَتَأَثَّرَ بِمَذْهَبِ الْإِعْتِزَالِ، وَقَدْ كَانَ أَدِيبًا عَالِمًا، عَلَى قَدَرٍ مِنَ الْمَعْرِفَةِ، كَرِيمًا حَسَنَ الشَّيْمِ، وَقَدْ وَلَّى قِضَاءَ الْبَصْرَةِ وَالْأَهْوَازِ بَضْعَ سَنِينَ، ثُمَّ صُرِفَ عَنْ مَنْصِبِهِ، فَقَصَدَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْحَمْدَانِيَّ وَمَدَحَهُ، فَأَكْرَمَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ وَكَتَبَ إِلَى أُولَى الْأَمْرِ فِي بَغْدَادَ بِشَأْنِهِ، فَأُعِيدَ إِلَى عَمَلِهِ، وَزِيدَ فِي رُتْبَتِهِ، وَكَانَ

^١ المصدر السابق (٢/ ١٣٣).

رؤساء العراق -ومن بينهم الوزير المهلبى- يميلون إليه ويتعصبون له ويُعدُّونه
ريحانة الندماء، وكان يجتمع هو والمهلبى والقاضى أبو بكر ابن قريعة وابن
معروف، فى مجالس الأُنس والمنادمة، مات بالبصرة سنة (٣٤٢هـ/ ٩٥٣م)١
وللتنوخى شعر رقيق عذب، حسن السبك، سهل متعدد البحور، مليء بالصور
وبالتشبيهات، يدور حول أغراض المديح والإخوانيات والغزل، وله أوصاف شتى؛
حيث وصف الليل والنجوم والكواكب والقمر والرياض والأنهار، وقد بلغ فى
أوصافه إبداعاً، فأتى بقصائد جياذ، وخيال خصب، وصور بيانية رائعة، حتى
إنه كان يصف القصائد والكتب التى تصله، ومن شعره يصف الليل والنجوم:

رُبَّ لَيْلٍ قَطَعْتُهُ بِصُدُودٍ	وَفِرَاقٍ مَا كَانَ فِيهِ وَدَاعُ
مُوجِسٍ كَالثَّقِيلِ تَقْدَى بِهِ الْعَدَا	يُنْ وَتَأْبَى حَدِيثُهُ الْأَسْمَاعُ
وَكَأَنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهِ	سُنَنٌ لَاحَ بَيْنَهُنَّ ابْتِدَاعُ
مُشْرِقَاتٍ كَأَنَّهُنَّ حِجَابُ	تَقَطَّعَ الْخَصَمَ وَالظَّلَامُ انْقِطَاعُ
وَكَأَنَّ السَّمَاءَ خِيْمَةً وَشِي	وَكَأَنَّ الْجُوزَاءَ فِيهَا شِرَاعُ
كَانَ لَيْلًا فَصَيَّرْتُهُ نَهَارًا	كُتِبَتْ تَكْبِثُ الْعِدَى وَرِقَاعُ

وقال يصف الرياض:

ورِياضٍ حَاكَتْ لَهْنَ الثُّرَيَّا	خُلَا كَانَ غَزْلُهَا لِلرُّغُودِ
نَثَرَ الْغَيْثُ دُرَّ دَمْعٍ عَلَيْهَا	فَتَحَلَّتْ بِمِثْلِ دُرِّ الْغُثُودِ
أَقْحُوانٌ مُعَانِقٌ لِشَقِيقٍ	كَتُغُورٍ تَعَضُّ وَرْدَ الْخُدُودِ
وَعُيُونٌ مِنْ نَرْجِسٍ تَتَرَاءَى	كَعُيُونٍ مَوْضُوءَةٍ التَّسْهِيدِ
وَكَأَنَّ الشَّقِيقَ حِينَ تَبَدَّى	ظَلَمَهُ الصَّدْعُ فِي خُدُودِ الْغِيدِ
وَكَأَنَّ النَّدى عَلَيْهَا دُمُوعٌ	فِي جُفُونٍ مَفْجُوعَةٍ بِقَيْدِ

١ انظر: يتيمة الدهر، الثعالبي (٢/ ٢٧٦)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ٣٦٥ - ٣٦٩).

٢ يتيمة الدهر، الثعالبي (٢/ ٢٦٨).

٣ المصدر السابق (٢/ ٢٧٠).

ومن خفيف شعره يصف الخمر قوله!

دَهَبًا لِلَّهِمَّ مُذْهَبٌ	بَاتَ يَسْقِينِي وَيَشْرَبُ
فِيهِ نَارٌ تَلْهَبُ	شَادِنٌ يَحْمِلُ مَاءً
أَقْوَانٌ حِينَ يَقْطُبُ	ورْدَةٌ ضاحِكَةٌ عَنْ
لِئَلْكَانِ الْمَيْثُ يَطْرَبُ	لَوْ أَدْرَنَاهَا عَلَى مَيْ
أَمْ مُدَامًا بِتُّ أَشْرَبُ	لَيْتَ شِعْرِي أُسْرُورًا
كَالشَّهَابِ الْمُتَصَوِّبِ	صَبَّ فِي الْكَاسَاتِ مِنْهَا
وَرَأَيْتُ الْهَمَّ مُغْرِبُ	فَرَأَيْتُ الرَّاحَ شَرْقًا
وَنَهَارٌ تَحْتَ غَيْهَبِ	غُصْنٌ فَوْقَ كَثِيبِ
يَكُ إِنَّ شِئْتَ وَمَضْرَبِ	لَكَ مِنْهُ مَطْرَبٌ يُرِضُ
بِتَجَنٍّ وَتَجَنُّبِ	جَنَّةٌ عُذِّبَتْ فِيهَا
لِي بِالْجَنَّةِ عُذْبِ	هَلْ رَأَيْتُمْ أَحَدًا قَبْ

٤- الوزير المهلب:

هو أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون بن إبراهيم، من نسل قبيلة ابن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، كان وزيراً لمعز الدولة أبي الحسن أحمد بن بويه، وُلد نحو عام (٢٩١هـ / ٩٠٣م)، وَوَلَّى الوزارة لمعز الدولة البويهي عام (٣٣٩هـ / ٩٥٠م)، وكان جليل القدر، كريماً فيّاضاً عالي الهمة، وعلى قدر من التدبير والكفاءة، وكان محباً للأدب، وله أخبار مع نظرائه من الوزراء والكتّاب أمثال ابن العميد والصاحب بن عباد، ورويت له محاسن وفضائل كثيرة، مات سنة (٣٥٢هـ / ٩٦٣م).^١

^١ المصدر السابق.

^٢ انظر: بيتيمة الدهر، الثعالبي (٢ / ١٨٢ - ١٨٤)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢ / ١٢٤ - ١٢٧).

ويبدو أنه كان أول حياته شديد الفاقة؛ إذ سافر مرة فلقبي مشقة، واشتهى اللحم، فقال:

أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ فَهَذَا الْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ
أَلَا مَوْتُ لَذِيذُ الطَّعْمِ يَأْتِي يُخَلِّصُنِي مِنَ الْعَيْشِ الْكَرِيهِ
إِذَا أَبْصَرْتُ قَبْرًا مِنْ بَعِيدٍ وَدِدْتُ لَوْ أَنَّني مِمَّا يَلِيهِ
أَلَا رَحِمَ الْمُهْنِمِينَ نَفْسَ حُرٍّ تَصَدَّقَ بِالْوَفَاةِ عَلَى أَخِيهِ

فرق لحاله رفيق له، واشترى له بدرهم لحمًا، ثُمَّ تَفَارَقَا، وتبدلت الحال وابتسمت الدنيا للمهلبى حتى صار وزيرًا، بينما انقلبت الحال برفيقه ذاك، فقَصَدَهُ وبعث إليه رقعة كتب فيها:

أَلَا قُلْ لِلْوَزِيرِ قَدْ تُثَنِّى نَفْسِي مَقَالَ مُذَكِّرٍ مَا قَدْ نَسِيهِ
أَتَذَكِّرُ إِذْ تَقُولُ لِصَنكِ عَيْشٍ أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ
فأمر له بسبعمائة درهم،
ولمَّا بُذِلَتْ لَهُ الْوَزَارَةُ قَالَ:

لَقَدْ ظَفِرْتُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مُنْيَتِي بِمَا كُنْتُ أَهْوَى فِي الْجَهَارَةِ وَالنَّجْوَى
وَشَارَفْتُ مَجْرَى الشَّمْسِ فِيمَا مَلَكَتُهُ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَقَرَّرْتُ فِي الرَّتَبِ الْعُلْيَا
وَعَايَنْتُ مِنْ شَعْرِ الْعَيْنِيِّ حُلَّةً تَعَاوَنَ فِيهَا الطَّبَعُ وَالْمُهْجَةُ الْخُرَا
فَحَرَّكَني عِرْقُ الْوَشِيجَةِ وَالْهَوَى لِعَمِي وَأَطْيَبَ بِي إِلَى الرَّجَمِ الْقُرْبَى
فِيَا حَسْرَتَا إِنْ فَاتَ وَقْتِي وَقْتُهِ وَيَا حَسْرَةً تَمْضِي وَتَتْبَعُهَا أُخْرَى
وَيَا فَوْزَ نَفْسِي لَوْ بَلَغْتَ زَمَانَهُ وَبُعَيْتُهُ دُنْيَا وَفِي يَدِي الدُّنْيَا
فَمَكَّنْتُهُ مِنْ أَهْلِ دُنْيَا وَأَرْضِهَا فَفَازَ بِمَا يَهْوَى وَفَوْقَ الَّذِي يَهْوَى

^١ يتيمة الدهر، الثعالبي (١٨٢ / ٢).

^٢ المصدر السابق (١٨٣ / ٢).

^٣ المصدر السابق (١٨٤ / ٢).

٥- ابن نباتة السَّعدي:

هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة السَّعدي التَّميمي، من زيد مناة من تميم، وهو من فحول شعراء عصره، وُلد نحو عام (٣٢٧هـ / ٩٣٩م) في بغداد، وقد تنقَّل بين البلدان فمدح سيف الدولة الحمداني صاحب حلب، ومدح أبا الفضل ابن العميد الكاتب وزير ركن الدولة البويهري، ومات سنة (٤٠٥هـ / ١٠١٥م).^١

وشعره رائع عذب رقيق سلس، جمع بين حُسْن السَّبْكِ وجودة المعنى وبُعد المرام رغم قرب لفظه، وأما أغراضه فكانت تدور بين المديح والنسيب والغزل والشكوى وذم الزمان والفخر والحماسة والوصف والحكمة، وله غير الشعر رسائل ومقامات ومصنفات مختلفة، ومن شعره قوله يقرن بين الغزل والخمر:^٢

إِنْ كُنْتَ تَمْنَعُ سَعْدِي مِنْ مَطَالِبِهَا	فَلَسْتُ تَمْنَعُ سَعْدِي مِنْ تَمْنِيهَا
لِلَّهِ نَغْمَةٌ أَوْ تَارٍ وَمُسْمِعَةٌ	بِأَنَّ تَذُلَّ عَلَى شَوْقِي أَغَانِيهَا
وَقَهْوَةٌ كَشَاعِ الشَّمْسِ طَالِعَةٌ	أَفْنِيْتُ بِالْمَرْجِ فِيهَا رِيْقَ سَاقِيهَا
يَا لَذَّةَ بَيْمِينَ الدَّهْرِ أَدْفَعُهَا	فِي صَدْرِهِ وَهُوَ مِنْ أَحْشَائِهِ يُذْنِيهَا
لَوْ كَانَ يَعْلَمُ أَنِّي عَنْكَ أَخَذَعُهُ	تَنَّى أَنَامِلُهُ لِي حِينَ أَتْنِيهَا

وقال يشكو صروف الزمان:^٣

طِلَابُ الْمَعَالِي لِلْمُنُونِ صَدِيقُ	وَطُؤُ اللَّيَالِي لِلنُّفُوسِ عَشِيقُ
تَسْرِبَلُ ثِيَابِ الْمَوْتِ أَوْ حُلَّ الْغِنَى	تَعِشْ مَا جِدًّا أَوْ تَعْتَلِّقْ غُلُوقُ
وَمَا الْفَقْرُ إِلَّا لِلْمَذَلَّةِ صَاحِبُ	وَمَا النَّاسُ إِلَّا لِلْغِنَى صَدِيقُ
وَأَصْغُرُ عَيْبٌ فِي زَمَانِكَ أَنَّهُ	بِهِ الْعِلْمُ جَهْلٌ وَالْعَفَافُ فُسُوقُ

^١ انظر: بيتيمة الدهر، الثعالبي (٢/ ٣٠٢)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ١٩٠ - ١٩٣)؛ وهناك ثلاثة أدباء حملوا هذا اسم "ابن نباتة": الأول هو ابن نباتة السعدي الشاعر، والثاني ابن نباتة الفارقي الخطيب وهو معاصر له، والثالث ابن نباتة المصري الشاعر المعاصر لحكم المماليك.

^٢ بيتيمة الدهر، الثعالبي (٢/ ٣٠٤).

^٣ المصدر السابق (٢/ ٣٠٦).

وكيف يُسرُّ الحُرُّ فيه بِمَطْلَبٍ وما فيه شيءٌ بالسُّرُورِ حَقِيقُ
إِذَا لَمْ تَكُنْ هَـذِي الحَيَاةِ عَزِيزَةً فماذَا إِلَى طُولِ الحَيَاةِ يَشُوقُ
أَلَا إِنَّ خَوْفَ المَوْتِ مُرٌّ كَطْعَمِهِ وخوفُ الفَتَى سَيْفٌ عَلَيْهِ ذُلُوقُ^١
وإِنَّكَ لو تَسْتَشْعِرُ العِيشَ في الرَّدَى تَحَلَّيْتَ طَعَمَ المَوْتِ حِينَ تَذُوقُ

ومن مديحه لسيف الدولة الحمداني، ومنها ما قاله يصف أسرى الروم^٢:

يا أَيُّهَا الدَّهْرُ إِنَّ العِيَّ كَالْخَطَلِ ما دَهَرْنَا غَيْرُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ البَطَلِ
* * * * *

قَدْ كُنْتَ تَأْسِرُهُمْ بِالسَّيْفِ مُنْصَلِتًا فَصِرتَ تَأْسِرُهُمْ بِالْخَوْفِ وَالْوَهْلِ
مَنْ يَزْرَعِ الضَّرْبَ يَحْصُدُ طَاعَةً عَجَبًا وَمَنْ يُرَبِّي العُلَا يَأْمَنُ مِنَ الثَّكَلِ
كَأَنْتَ سَحَابُكَ فِيهِمْ كُلَّ بَارِقَةٍ حَمَرَاءَ تَهْطُلُ بِالأَيْدِي عَلَى القُلُلِ
فَالْيَوْمَ سُخْبُكَ فِيهِمْ كُلُّ بَارِقَةٍ غُرَاءَ تَهْطُلُ بِالأَمْوَالِ وَالْحُلُلِ
حَتَّى تَمْنَى مَلِيكَ الرُّومِ حَظَّهُمْ وَأَنْتَهُ مَعَهُمْ فِي الأَسْرِ لَمْ يَزَلِ

وقال يفخر بنفسه^٣:

تَضَاعَلِ الدَّهْرُ حَتَّى ضَاعَ فِي هِمَمِي وَاسْتَفْحَلَ الهَمُّ حَتَّى صَارَ مِنْ شِيمِي
وَلَوْ يَكُونُ سَوَادُ الشَّعْرِ فِي ذِمَمِي مَا كَانَ لِلشَّيْبِ سُلْطَانٌ عَلَى اللَّيْمِ
فَالْعِيشُ مِنْ نَعَمِي وَالمَوْتُ مِنْ نَقَمِي وَحِكْمَةُ الفَلَكِ الدَّوَّارِ مِنْ حِكْمِي
وَالْحَزْمُ وَالْعَزْمُ فِي الأَقْوَامِ مِنْ خُلُقِي كَمَا الفَصَاحَةُ فِي الأَقْوَالِ مِنْ كَلَمِي
لَوْ يَعْرِفُ النَّاسُ قَدْرِي فِي زَمَانِهِمْ صَلُّوا لِوَجْهِي أَوْ بَاسُوا ثَرَى قَدَمِي

١ السيف الذلوق: الحاد. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٠/ ١١٠).

٢ بيتمة الدهر، الثعالبي (٢/ ٣٠٩ - ٣١٠).

٣ المصدر السابق (٢/ ٣٠٨).

ثالث عشر: من أشعار النساء

(عُلَيَّة بنت المهدي - عريب جارية المأمون - فضل الشاعرة - نماذج أخرى)

١ - عُلَيَّة بنت المهدي:

هي عُلَيَّة بنت الخليفة المهدي، وأخت الهادي وهارون الرشيد، كانت أمها جارية مغنّية تُدعى مكنونة، اشْتُرِيتَ للمهدي بنحو مئة ألف درهم، فولدت له عُلَيَّة سنة (١٦٠هـ / ٧٧٥م)، وكانت عُلَيَّة من أحسن الناس وأظرفهم، وكانت تُجيد الشعر والغناء وصناعة الألحان، وكانت حسنة الدين، ورُويَ عنها أنها لا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة الصلاة، فإذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب، تزوّجها موسى بن عيسى بن موسى العباسي، وكان يكبرها في السن جدًّا، وكان أخوها هارون الرشيد يُعجب بشعرها وغنائها، وكان يبالغ في العناية والاهتمام بها حتى توفّي، فجزعت جزعًا شديدًا، وكادت تنصرف عن الغناء والشعر، حتى عادت إليه بطلب ولده الأمين، ورُويَ عنها قَصَصٌ شتى، وهي شاعرة وصاحبة صنعة في الغناء، وشعرها حسن خفيف سهل، ماتت سنة (٢١٠هـ / ٨٢٥م) في خلافة المأمون!

ومن شعرها قولها:

ليس خطبُ الهوى بِخطبٍ يسيرٍ ليس يُنبئكَ عنه مثْلُ خَبِيرٍ
ليس أمرُ الهوى يُدبِّرُ بالرأى ي ولا بالقياسِ والتّفكيرِ

١ انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٠ / ١٢٩ - ١٤٧)؛ نزهة الجلساء في أشعار النساء، جلال الدين السيوطي (ص ٦٨ - ٧٣)، مكتبة القرآن، القاهرة - مصر، د.ط، د.ت؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢ / ١٨٦ - ١٨٧).
٢ انظر: شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت (ص ٣٣١)، المكتبة الأهلية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م.



ورُويَ عنها قولها:

كُتِمْتُ اسْمَ الحَبِيبِ عَنِ العِبَادِ فَوَا شَوْقِي إِلَى نَادٍ خَلِيٍّ
وَرَدَّدْتُ الصَّابَةَ فِي فَوَادِي لَعَلِّي بِاسْمِ مَنْ أَهْوَى أُنَادِي

وقالت في الخمر:

أَلْبَسِ المَاءَ مُدَامًا وَأَقِضْ جُودَكَ فِي النَّأِ
وَأَسْقِنِي حَتَّى أَنَامَا لَعَنَ اللَّهُ أَخَا البُخْـ
سٍ تَكُنْ فِيهِمْ إِمَامَا لَ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَا

وقالت:

إِنِّي كَثُرْتُ عَلَيْهِ مِنْ زِيَارَتِهِ فَمَلَّ وَالشَّيْءُ مَمْلُوءٌ إِذَا كَثُرَا
وَرَابَنِي مِنْهُ أَتَيْ لَا أَزَالُ أَرَى فِي طَرْفِهِ قِصْرًا عَنِّي إِذَا نَظَرَا

وقالت في الحب:

أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ جُوزِيْـ تُّ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانَا
لَمَّا صَدَّ الَّذِي أَهْوَى وَلَا مَلَّ وَلَا خَانَا
رَأَيْتُ النَّاسَ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ هَانَا

٢- عَرِيب جَارِيَةِ المَأْمُون:

كانت عريب جارية عند المأمون، وكان مغنيّةً محسنة، وشاعرة مبدعة، مليحة الكلام، وغاية في الحُسن والظرف والكلام، حسنة الصورة، خفيفة الروح، على دراية برواية الشعر والأدب، وبصناعة الألحان والنغم والأوتار، كانت جارية لعبد الله بن إسماعيل صاحب مراكب الرشيد، وهو الذي ربّاها وأدّبها وعلمها

^١ نزهة الجلساء في أشعار النساء، ، جلال الدين السيوطي (ص ٧٠).

^٢ المصدر السابق.

^٣ المصدر السابق.

^٤ المصدر السابق.

الغناء والخط والنحو والشعر، ويقال: فرّت منه مع رجل عشقته، لكنه عثر عليها وردّها إليه، وقد سمع بخبرها الخليفة الأمين فأحضرها إلى بلاطه وطرب لغنائها، وهمّ بشرائها من مولاها المراكبي فلم يتمّ ذلك؛ إذ ما لبث أن قُتل في حروبه مع أخيه المأمون، فاشتراها المأمون من سيّدها بخمسين ألف درهم، وقد حظيت عنده، وكان يميل إليها، ويروى أنه انتهى إليه خبر عشقها لأحد أتباعه ويدعى محمد بن حامد، فزوّجها إيّاه، ومن أخبارها أنها حضرت بلاط الخليفة المتوكل، ولها أخبار مختلفة عند صاحب الأغاني ممّا لا نستطيع الثقة فيه تمام الثقة؛ نظرًا إلى اضطراب الروايات ووقوع الخلط.^١

ولها شعر جميل حسن السّبك، خفيف جميل النغم، وما انتهى إلينا ممّا نُسب إليها ينم بالفعل عن موهبة فذة، وأنها كانت شاعرة مفلقة مطبوعة ماهرة، يقال: إنها كتبت إلى محمد بن حامد تستزيره، فأجابها: أخاف على نفسي؛ فكتبت:

إِذَا كُنْتَ تَحْذَرُ مَا تَحْذَرُ وَتَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَجْسُرُ
فَمَا لِي أَقِيمُ عَلَى صَبَوَتِي وَيَوْمَ لِقَائِكَ لَا يُقْدَرُ

وقالت:

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ مَا أَلْقَى مِنَ الْكَمَدِ حَسْبِي بِرِّي وَلَا أَشْكُو إِلَى أَحَدٍ
أَيْنَ الزَّمَانِ الَّذِي قَدْ كُنْتُ نَاعِمَةً فِي ظِلِّهِ بِدُنُؤِي مِنْكَ يَا سَنَدِي
وَأَسْأَلُ اللَّهَ يَوْمًا مِنْكَ يُفْرِحَنِي فَقَدْ كَحَلْتُ جُفُونِ الْعَيْنِ بِالسَّهَدِ

وقالت:

مَنْ صَاحَبَ الدَّهْرَ لَمْ يَحْمَدْ تَصْرِفَهُ غَبًّا وَلِلدَّهْرِ إِحْلَاءٌ وَإِمْرَارُ

^١ الأغاني، الأصفهاني (٢١/٤٣ - ٧٠).

^٢ شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت (ص ٢٣٧).

^٣ المصدر السابق (ص ٢٣٧).

^٤ طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٣٨٧).

وكلُّ شيءٍ وإن طالَتْ إقامتهُ
وقالت في ابن حامد:

وَيْلِيَّ عَلَيْكَ وَمِنْكَأ
زَعَمْتَ أَلِّي خَوْوُنْ
فَأَبْدَلَ اللَّهُ مَا بِي
أَوْقَعْتَ فِي الْحَقِّ شَكًّا
جَوْرًا عَلَيَّ وَإِفْكَأ
مِنْ ذِلَّةِ الْخُبِّ نُسْكَأ

٣- فضل الشاعرة:

هي جارية مولّدة بصريّة المولد، كانت أمّها من مولدات اليمامة، ونشأت في دار رجل من عبد قيس، فاستولدها فضل، وقد أدّبها وعلمها حتى برعت في مختلف الفنون، فاشتريت وأهديت للخليفة المتوكل، وكانت هي تزعم أنّ أخاها هو من باعها بعدما جردها لأنّها ليست من أمّه، ولمّا دخلت على المتوكل قال لها: أشاعرة أنت؟ قالت: كذا زعم من باعني واشتراني؛ فضحك وقال: أنشدينا شيئاً من شعرك؛ فمدحته قائلة:

استَقْبَلَ الْمَلِكُ إِمَامَ الْهُدَى
خِلَافَةً أَفْضَتْ إِلَى جَعْفَرٍ
إِنَّا لَنَرْجُو يَا إِمَامَ الْهُدَى
لَا قَدَسَ اللَّهُ أَمْرًا لَمْ يَقُلْ
عَامَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ
وَهُوَ ابْنُ سَبْعٍ بَعْدَ عَشْرِينَ
أَنْ تَمْلِكَ النَّاسَ ثَمَانِينَ
عِنْدَ دُعَائِي لَكَ آمِينَ

فاستحسن المتوكل هذه الأبيات، ووصلها بخمسة آلاف درهم، ويروى أنه أمر عريبَ فغنّت بها.

وكانت تُعرف فضل العبدية، وكانت حسنة الوجه والجسم والقوام، مطبوعة على الشعر، أديبة فصيحة سريعة البديهة، في نهاية الجمال والكمال وجودة

^١ شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت (ص ٢٣٨).

^٢ انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٩ / ٢١٥ - ٢١٦).

الشعر، وكان يجتمع عندها الأدباء، ولها في الخلفاء عدة مدائح، وقد برعت في الشعر والنثر والترسل، وقال صاحب الأغاني: لم يكن في نساء زمانها أشعر منها. ويُروى أنها كانت تتشيع، ثم عشقت سعيد بن حميد الكاتب، وكان ناصبياً مبغضاً لآل البيت، فلما هويته غلب مذهبه عليها، ولم تنزل على ذلك حتى توفيت!

ويبدو أنه قد بلغها عشق ابن حميد لجارية من القيان فقالت:

يا حسنَ الوجهِ سيِّئِ الأدبِ شِيتَ وأنتَ الغُلامُ في الأدبِ
ويحكُ إنَّ القيانَ كالشُّركِ الـ منصوبِ بينَ الغُرورِ والكذبِ
لا يتَصَدِّقَ للفَقِيرِ ولا يثْبَغْنَ إلَّا مواضِعَ الذَّهَبِ
بيِّنًا تشكَّى إليك إذ خرجتُ منَ لحظاتِ الشَّكوى إلى الطَّلَبِ
فلحُظْ هذا وذا وذاك وذا لحظَ مُحِبٍّ بِعَيْنِ مُكْتَئِبِ

واعترم ابن حميد مرَّةً السفر فقالت:

كذَّبَتْنِي الوُدُّ إنَّ صافحتُ مرتحلاً كفَّ الفِرَاقِ بِكفِّ الصَّبْرِ والجَلَدِ
لا تَذْكُرِ الهوى والشَّوقَ لو فُجِعْتُ بالشَّوقِ نَفْسَكَ لَمْ نُصِيرِ عَلَى البُعْدِ

وقالت:

لأَكْتُمَنَّ الذي بالقلبِ مِنْ حُرْقٍ حتَّى أموتَ وَلَمْ يَعْلَمْ بِهِ النَّاسُ
ولا يُقالُ شكا مَنْ كانَ يَعشُّقُهُ إنَّ الشَّكاةَ لِمَنْ تَهوى هِيَ الياسُ
ولا أبوحُ بشيءٍ كنتُ أَكْتُمُهُ عندَ الجُلوسِ إذا ما دارَتِ الكاسُ

وكتب أحدهم إليها شعراً فأجابته:

الصَّيرُ يَنْقُصُ والسَّقامُ يَزِيدُ والذَّارُ دانيَةٌ وأنتَ بعيْدُ

١ انظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٣٨٨)؛ الأغاني، الأصفهاني (٢١٥/١٩ - ٢٢٣).

٢ طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٣٨٨).

٣ انظر: شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت (ص ٢٤٤).

٤ انظر: المصدر السابق (ص ٢٤٤ - ٢٤٥).

٥ انظر: المصدر السابق (ص ٢٤٧).

أَشْكُوكَ أَمْ أَشْكُو إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ سِوَاهُمَا الْمَجْهُودُ
إِنِّي أَغُودُ بِحُرْمَتِي بِكَ فِي الْهَوَى مِنْ أَنْ يُطَاعَ لَدَيْكَ فِي حَسُودُ

وكتب أحدهم متشوقاً إليها شعراً فأجابته:

نَعَمْ وَالْهَيِّ إِنَّنِي بِكَ صَبَّةٌ فَهَلْ أَنْتَ يَا مَنْ لَا عَدِمْتُ مُثِيبُ
لِمَنْ أَنْتَ مِنْهُ فِي الْفُؤَادِ مُصَوَّرُ وَفِي الْعَيْنِ نِصْبُ الْعَيْنِ حِينَ تَغِيبُ
فَتَقِ بِوُدَادٍ أَنْتَ مَظْهَرُ مِثْلِهِ عَلَى أَنْ بِي سُقْمًا وَأَنْتَ طَبِيبُ

وقد وردت لفضل نماذج شعرية رائعة، تنمُّ بالفعل عن موهبة فذة، وإبداع متناهي، وشعرها كله على هذا النحو من الرِّقَّة والعذوبة والسهولة، ولها في شعرها مديح وهجاء وغزل وشوق، ويظهر في شعرها طابع وجداني غاية في العمق.

٤- نماذج أخرى:

ومن أشعار النساء في العصر العباسي قول سكين جارية محمود الوراق، وقد همَّ ببيعها لشدة الفاقة، فقالت شعراً تسعطفه، حتى رقَّ لها فرجع عن بيعها وأعتقها وتزوجها:

مَا لِلرُّسُولِ أَتَانِي مِنْكَ بِالْيَاسِ أَحَدْتُ بَعْدَ وِدَادٍ جَفْوَةَ الْقَاسِي
فَهَبْكَ أَلْزَمْتَنِي ذَنْبًا بِظُلْمِكَ لِي مَاذَا دَعَاكَ إِلَى تَخْرِيقِ قِرْطَاسِي
يَا مُتْبِعَ الظُّلْمِ ظُلْمًا كَيْفَ شِئْتَ فُكُنْ عِنْدِي رِضَاكَ عَلَى الْعَيْنَيْنِ وَالرَّاسِ
إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبًّا لَا لِفَاحِشَةٍ وَالْحُبُّ لَيْسَ بِهِ فِي اللَّهِ مِنْ بَاسِ
قُلْ لِلْمُشَارِكِ فِي اللَّذَاتِ صَاحِبُهَا وَمُذْمِنِ الْكَأْسِ يَحْسُوهَا مَعَ الْحَاسِي
إِنَّ الْإِمَامَ إِذَا أَرْقَا إِلَى بَلَدٍ أَرْقَى إِلَيْهِ لِعُمُرَانٍ وَإِنْسَاسِ

١ انظر: المصدر السابق.

٢ طبقات الشعراء، ابن المعتز (ص ٣٨٨).

وقالت عائشة العثمانية، وكانت أهل مكة، ومن أشعر الناس وأفصحهم
وأحسنهم بياناً وشعراً، وبها ميل إلى التشيع!

أَرِقْتُ لِبَرْقٍ بَدَا ضَوْؤُهُ	بِمَكَّةَ يَبْدُو وَيَخْفَى مِرَارًا
فَبِتُّ أُمْلَمَلٌ فِي مَضْجَعِي	وَأُبْكِي جَهَارًا وَأُبْكِي سِرَارًا
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مَقَامَ الْعِدَا	بِمَكَّةَ قَدْ حَاصَرُوهَا حِصَارًا
وَأَسْرَى تُقَطِّعُ أَيْدِيهِمْ	فَمَاتُوا صُفُوفًا وَمَاتُوا حِذَارًا
فَمِنْ صَابِرٍ نَفْسُهُ فِي الْبَلَاءِ	وَمِنْ خَائِفٍ فَرَّ مِنْهَا فُطَارًا
وَمِنْ حَامِلٍ نَفْسُهُ فِي السَّفِينِ	يَجُوبُ الدُّجَى وَيَخُوضُ الْبَحَارَا
فِيَا قَرِيَّةً كُنْتُ مَأْوَى الضَّعِيفِ	إِذَا لَمْ يَجِدْ فِي سِوَاهَا قَرَارًا
وَمَأْوَى الْغَرِيبِ وَمَأْوَى الْقَرِيبِ	وَأَمْنَةً لِيَأْهُهَا وَالنَّهَارَا
سَأُبْكِي قُرَيْشًا لِمَا نَالَهَا	وَبَدَّلَهَا الْخَوْفَ دَارًا فَادَارَا

وقالت عنان جارية الناطقي، تذكر امتنان يحيى بن خالد البرمكي على أختين
لها، وتسأله إلحاقها بهما!

نَفَى النَّوْمَ مِنْ عَيْنِي حَوْكُ الْقَصَائِدِ	وَأَمَالَ نَفْسٍ هَمُّهَا غَيْرُ نَافِدِ
إِذَا مَا نَفَى عَنِّي الْكَرَى طُولَ لَيْلَةٍ	تَعَوَّدْتُ مِنْهَا بِاسْمِ يَحْيَى بْنِ خَالِدِ
وَزِيرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ لَهُ	فِعَالَانِ مِنْ حَمْدِ طَرِيفٍ وَتَالِدِ
مَنْ الْبَرْمَكِيِّينَ الَّذِينَ وَجُوهُهُمْ	مَصَابِيحُ يُطْفِئُ نُورُهَا كُلُّ وَاقِدِ
عَلَى وَجْهِ يَحْيَى غُرَّةً يُهْتَدَى بِهَا	كَمَا يَهْتَدِي سَارِي الدُّجَى بِالْفِرَاقِدِ
تَعَوَّدَ إِحْسَانًا فَأَصْلَحَ فَاسِدًا	وَمَا زَالَ يَحْيَى مُصْلِحًا كُلَّ فَاسِدِ
وَكَانَتْ رِقَابٌ مِنْ رِجَالٍ تَعَطَّلَتْ	فَقَلَّدَهَا يَحْيَى كِرَامَ الْقَلَائِدِ
عَلَى كُلِّ حَيٍّ مِنْ أَيْدِيهِ نِعْمَةٌ	وَأَثَارُهُ مَحْمُودَةٌ فِي الْمَشَاهِدِ
حِيَاضُكَ فِي الْمَعْرُوفِ لِلنَّاسِ جُمَّةٌ	فَمِنْ صَادِرٍ عَنْهَا وَآخِرَ وَارِدِ

١ المصدر السابق (ص ٣٨٥).

٢ المصدر السابق (ص ٣٨٣).

وَفِعْلَكَ مَحْمُودٌ وَكَفَّكَ رَحْمَةً وَوَجْهَكَ نُورٌ ضَوْؤُهُ غَيْرُ خَامِدٍ
بَلَغْتَ الَّذِي لَا يَبْلُغُ النَّاسُ مِثْلَهُ فَأَنْتَ مَكَانُ الْكَفِّ مِنْ كُلِّ سَاعِدٍ
فِيَا رَبِّ زِدْهُ نِعْمَةً وَكَرَامَةً عَلَى غَيْظِ أَعْدَائِهِ وَإِرْغَامِ جَاوِدٍ
مَنْنْتَ عَلَى أَخْتِي مِنْكَ عَلَيْهِمْ صَفَتْ لَهُمَا مِنْهَا عَذَابُ الْمَوَارِدِ
فَمَنْ لِي بِمَا أَنْعَمْتَ مِنْكَ عَلَيْهِمَا وَقَاكَ إِلَهُ النَّاسِ كَيْدَ الْمَكَايِدِ

ولا يخلو تراث الأدب العربي في العصر العباسي من أشعار النساء، وعلى الأخص الجواري، ولعل سبب انتشار شعر الجواري في العصر العباسي؛ ما كان يبذله مُلَّاكُهُنَّ مِنْ تَأْدِيهِنَّ وَتَثْقِيهِنَّ، وإمعانهم في تعليمهن مختلف الفنون وأساليب الغناء وقول الشعر والأدب، فظهرت من الجواري أعداد من الشاعرات وصواحب الأدب والرأي؛ نتيجة المبالغة في الاهتمام بتأديب وتعليم الجواري، وأشعارهن موجودة في طبقات الشعراء لابن المعتز، والأغاني، وبعض الدواوين المجموعة حديثاً، ولكن ما وصلنا من أشعار الجواري قليل إذا ما قورن بأشعار الرجال، ويبدو أن الرواة قصروا في رواية أخبار الجواري وأشعارهن، رغم ارتقاء منزلة المرأة في العصر العباسي، وتحضرها من كثير من القيود التي فُرِضَتْ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلُ، فَقَدْ فُقِدَ كَثِيرٌ مِنْ أَشْعَارِهِنَّ فِي يَدِ الزَّمَنِ، وَلَوْ وَصَلَتْ جَمِيعُ أَشْعَارِهِنَّ لَغَدَا تَرَاثُ الْأَدَبِ الْعَبَّاسِيِّ مَكْتَضاً بِهَا، حَافِلاً بِأَخْبَارِهَا كَمَا حَفَلَ بِأَخْبَارِ الشُّعْرَاءِ الرِّجَالِ.

النثر في العصر العباسي

(ازدهاره وتطوره ومدارسه وفنونه)

تطوره وازدهاره:

تطوّر النثر في العصر العباسي تطوُّراً عظيماً، وزهت فنونه في العصر العباسي زهواً واسعاً، مستفيداً من الازدهار العلمي والأثر المجتمعي في هذا العصر، وترجع أسباب ازدهار النثر في العصر العباسي إلى العوامل التالية:

١- ازدهار الحركة العلميّة وتطوُّر العلوم والمعارف: خصوصاً العلوم النظرية مثل علوم الفلسفة والحكمة والمنطق والأدب والنقد، فقد ألقت تلك المعارف بظلالها على النثر، وساهمت في تطوُّره وازدهاره، وأكسبت طوابع عقلية جديدة، حتى إن العلوم التطبيقية كالطب والهندسة والفلك والكيمياء رغم بعدها عن مجال الأدب؛ كان لها أثرٌ عظيم على النثر؛ لأنّها أكسبته آفاقاً جديدة، وفتحت أبواب موضوعات مختلفة يمكن تناولها تناولاً أدبياً.

٢- نشاط الترجمة والتدوين: حيث أدّى نشاط الترجمة إلى أن نقل المترجمون العرب علوم ومعارف شتّى، من الآداب الفارسية واليونانية والهندية وغيرها، وبعض تلك الأعمال كانت تُترجم بصياغة أدبيّة، ممّا أدّى إلى تطوُّر النثر سواء من الناحية الأسلوبية، أو الناحية الفكرية؛ حيث أطلع المترجمون وكذلك الأدباء على أفكار وموضوعات جديدة أثّرت إنتاجهم الفكري.

٣- كما مثّلت عناية العرب بالتدوين والتأليف عامل تطوُّر لصالح النثر؛ لأنها أدّت إلى حفظ جانب عظيم من التراث الأدبي القديم والإطّلاع عليه، وساهمت مع الترجمة في نشاط الكتابة بشكل عام.

٤- اختلاط وامتزاج العرب بالموالي: حيث عُنيَ الموالي الذين تعرَّبوا -وخصوصًا
الفرس- بنقل ثقافتهم وعلومهم إلى عالم الثقافة العربية، فأدخلوا في الأدب
العربي طوابعهم العقلية وأساليبهم الكتابية والفكرية، مثلما فعل البرامكة،
فاستفاد النثر من هذا الامتزاج الرائع بين العرب والفرس، سواء من الناحية
الفكرية التي تمثَّلت في إدخال العديد من الموضوعات والأغراض والأفكار
الجديدة، أو من الناحية الأسلوبية التي تمثَّلت في الجودة والتنميق والتدبيج
واستبعاد الألفاظ الوحشية والصعبة، فيما عُرف بالأسلوب المولَّد؛ الذي
عُدَّ وسطًا بين الجزالة والابتذال.

٥- نشاط الجدل والتيارات الكلامية: حيث أدَّى التَّشعُّب بين الفرق والمذاهب
الإسلامية إلى خلق حالة من المناظرات والبحث والتنقيب، ممَّا أدى إلى
اشتعال المناظرات الفكرية، وظهور المؤلفات العقائدية المختلفة، ولا ننكر
دور المعتزلة في هذا الجانب باعتبارهم أشهر الفرق الكلامية في العصر
العباسي، فقد عُرفت عنهم مناظرات عديدة أظهروا فيها عقائدهم وقدراتهم
على الجدل، وما قاموا به من جهود التدوين والترجمة، وتأثَّروا بما نقلوه
من ثقافات، وهذا كله قد أكسب النثر آفاقًا واسعة.

وعليه فقد امتزجت الثقافات الأجنبية -كالفارسية واليونانية والهندية- بالعقلية
العربية، ممَّا أدَّى إلى اتِّساع الفكر، وقد اكتسب الأدب سمات خاصة نتيجة
هذا الامتزاج الرائع، فضلًا عن نموِّ العلوم والمعارف الإسلامية؛ فقد صار النثر
قالبًا انصهرت فيه كل تلك الآداب والعلوم والثقافات، وقد تعرَّب أدباء الفرس
ونقلوا ثقافتهم إلى العربية، واستفاد العرب من هذا المزج واطَّلَعُوا على الآداب
المختلفة، فترقَّقت أساليبهم، وتهذَّبت ألفاظهم، وتغيَّرت أمزجتهم، وتولَّدت
معانيهم. ومنحهم نموُّ العلوم والمعارف قدرةً على البحث في أسس البلاغة
وتجويد نتائجهم الأدبي، وقد كان النثر أوسع صدرًا في استيعاب تلك العلوم
والثقافات المختلفة من الشعر؛ لعدم تقيُّد النثر بالأوزان والقوافي، فكان أكثر
مرونة في استيعاب تلك العلوم والثقافات.

مدارسه وأساليبه:

امتدَّ العصر العباسي منذ بدء الدولة العباسية عام (١٣٢هـ / ٧٥٠م) حتى انهيارها وسقوط بغداد عام (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) وهي مدَّة طويلة أُرِبت على خمسة قرون، ومن الصعب حصر أسلوب النثر في قالب واحد؛ إذ إنَّ هذا العصر قد مرَّ بمراحل عديدة، اختلفت فيها أساليب النثر وسماته، ولكن يسعُنَا إجمال بعض خصائص النثر وأساليبه فيما يلي:

- أدى امتزاج الثقافات الأجنبية بالثقافة العربية، ونمو العلوم والمعارف الإسلامية؛ إلى خلق أسلوب جديد للنثر، سواء من ناحية الألفاظ والعبارات، أو من ناحية المعاني والأفكار، وهو ما عُرف بالأسلوب المولَّد؛ الذي جمع بين عنصري الثقافة الأجنبية الجديدة، والأصالة العربية القديمة.

- أمَّا من ناحية الألفاظ والعبارات؛ فقد كان أسلوب النثر وسَطًا بين الجزالة والنعومة؛ إذ هُجرت الألفاظ الصعبة والوعرة، وصارت الألفاظ أقرب إلى ذوق الحضر، دون الإخلال بالفصاحة وطابع الجزالة أو النزول إلى مستوى الألفاظ العاميَّة والمبتذلة، مع العناية في الوقت نفسه بالتنميق والتدبيح وحسن الرصف؛ حتى تقع العبارات من أذن السامع موقعًا حسنًا يُضفي عليها قدرًا من اللَّذَّة والعذوبة.

- وأما من ناحية المعاني فقد ظهرت فيها ملامح العلوم المختلفة مثل الفلسفة، وظهر فيه أثر الحضارة والمدنية الحديثة، وصار يُرافقها قدرٌ من العمق ودقَّة الفكر وبُعد الأفق.

- تأثر النثر بالأدب الفارسي وبحالة الترف التي شاعت في العصر العباسي، خصوصًا في الكتابة، "فمالت إلى السهولة في العبارة، والتأنُّق في اللفظ، والجودة في الوصف، وإطالة المقدمات، وتنويع البدء والختام، والغلوّ والإكثار من الألقاب والدعاء، والتفصيل والإطناب، وظهر الأثر العربي أيضًا في الكتابة، فكانت جزلة متينة لا تخلو من إيجاز أحيانًا، وظهر الإيجاز



بنوع خاص في التوقيعات"؛ بالإضافة إلى الاقتباس من القرآن الكريم والسُّنة النبوية.

- كان النثر في مطلع العصر العباسي يعمد إلى الإيجاز والتنميق وعدم المبالغة في الزخرفة، مثلما نرى في كتابات عبد الله ابن المقفّع ومعاصريه من كتّاب الطبقة الأولى، لكن مع مرور الوقت، وزيادة حالة التّرف، بدأ النثر يميل إلى الإطناب، والخروج عن مذاهب القدماء؛ حيث كان الكتّاب يتفنّنون في إبراز المعنى الواحد بأساليب وصور مختلفة، وجُمَل متعاقبة؛ يرون ذلك أجلب للبلاغة، ويمنحهم نطاقاً أوسع في إبراز مواهب البلاغية والبيانية، ويرون أن الإطناب أوقع للنفس، وأقرب للذهن، وأبلغ في المعنى، ونرى جانباً من ذلك في كتابات الجاحظ والزيّات ومن معهم من رجال الطبقة الثانية من الكتّاب.
- مع تزايد مظاهر البذخ والتّرف وانقضاء العصر العباسي الأول؛ نرى الكتاب يميلون إلى مزيد من الزخرف والطلاء الخارجي، والمبالغة في الازدواج والسجع واستعمال المحسّنات البديعية مثل: الجناس والسجع، مع تضمين عباراتهم بالأمثال والشعر كصورة من صور المبالغة في التنميق والزخرفة، كما نرى في كتابات ابن العميد وبعض معاصريه من كتّاب القرن الرابع الهجري وما تلاه.

وقد كان مذهب الصنعة ذلك مقبولاً بادئ الأمر؛ نظراً إلى عدم بلوغها حدّ التّكلّف والافتعال، ولأنّها لم تكن على حساب المعنى، ولكنّها بدأت تتزايد مع مرور الوقت، حتى بلغت حدّاً ممقوتاً من التّكلّف والافتعال أواخر العصر العباسي؛ حيث مال الكتّاب إلى المحسّنات البديعية بإغراق، وهو ما أظهر في النثر قيوداً هائلة كبّلت المعنى، فتخلّف النثر وتراجع مستواه أواخر العصر العباسي. كان ذلك أسلوب النثر العباسي بشكلٍ عامٍّ، ونستطيع أن نستعرض مدارسه الأسلوبية خلال الأعصر العباسية التي مرّت في تلك الحقبة، وهي كما يلي:

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفخوري (١ / ٤٨٩).

أولاً: العصر العباسي الأول:

(١) أسلوب ابن المقفع:

وطريقته الميل إلى الإيجاز، مع الفصاحة والجزالة والفخامة، وتقطيع الجملة، والمزاوجة بين العبارات، مع العناية بالتنميق والتدبيح وتخثير اللفظ، والزهد في السجع إلا ما جاء عفواً، وابن المقفع إمام هذه المدرسة، وهو ممن عاصروا الدولتين؛ ومن أبرز من سار على نهجه في الترسُّل: سهل بن هارون وعمرو ابن مسعدة وأحمد بن يوسف، وقد ظلَّ هذا الأسلوب هو السائد بين الكتاب منذ بدء العصر العباسي حتى نهاية القرن الثاني الهجري.

ومن نماذج تلك المدرسة قول ابن المقفع في الأدب الكبير متحدثاً عن الزهد: "كلامُ اللَّيِّب - وإن كان نزرًا- أدبٌ عظيمٌ، ومقارفةُ المأثم - وإن كان مُحْتَقَرًا- مصيبةٌ جليلةٌ، ولقاءُ الإخوان - وإن كان يسيرًا- غنمٌ حسنٌ"، فهذا الكلام يغلب عليه الإيجاز، ويظهر عليه أثر اللفظ الفخم وعمق المعنى، وهو خالٍ من مظاهر التزيين والزخرفة، وهو أسلوب مدرسة ابن المقفع ومن ساروا على نهجه.

(٢) أسلوب الجاحظ:

وهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، رأس الطبقة الثانية من الكتَّاب، وقد سار على نمط ابن المقفع في الترسُّل والعناية بالمعنى واللفظ، لكنَّه بدأ يميل إلى الإطناب والإمعان في المزاوجة بين العبارات، مع الاستطراد وإبراز المعنى بمفاهيم مختلفة، وكانت ألفاظه أبسط وأرقَّ، وقد بلغت هذه المدرسة الفنيَّة قدرًا عظيمًا في نفوس الكتَّاب وكانت مصدر إلهامٍ لهم؛ كَوَّنَ الجاحظ أديبًا مَطلَعًا، فكان حريصًا على إدخال معارفه ومعتقداته في كتاباته بشكل مبسَّطٍ سهل، ومن رجال طبقة مدرسته: إبراهيم الصولي وابن قُتيبة والمبرِّد، وقد ظلَّ أسلوب الجاحظ سائدًا طوال القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع، وهو أسلوب

^١ انظر: الأدب الصغير والأدب الكبير، عبد الله ابن المقفع (ص ٣٤)، تحقيق: د. إنعام فؤال، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

عميقُ الأثر في نفوس كثير من الأدباء في العصور التالية، ومصدر إلهام لهم إنشاءً وفكرًا.

ومن نماذج تلك المدرسة قول الجاحظ في إحدى رسائله "وممَّا يُستدل به على تعظيم شأن النساء، أنَّ الرَّجُلَ يستحلف بالله الذي لا شيء أعظم منه، وبالمشي إلى بيت الله، وبصدقة ماله، وعتق رقيقه. فيسهل ذلك عليه، ولا يأنف منه. فإن استحلف بطلاق امرأته تربد وجهه، وطار الغضب في دماغه، ويمتنع ويعصي، ويغضب ويأبى، وإن كان المحلف سلطانًا مهيبًا، ولو لم يكن يحبُّها، ولا يستكثر منها، وكانت نفسها قبيحة المنظر، دقيقة الحسب، خفيفة الصداق، قليلة النسب، وليس ذلك إلا لما قد عظم الله من شأن الزوجات في صدور الأزواج." وهذه رسالة قريبة في أسلوبها من الأسلوب الأول من؛ حيث نهج الترسل، ولكن مع ميل أكثر إلى الإطناب وإبراز المعنى بأكثر من عبارة، مع لفظ أرق، وجُنُوح إلى الازدواج كخطوة من خطوات تزيين العبارة.

ورغم أن هذا التيار كان امتدادًا لتيار الترسل؛ فإن الميل فيه إلى المزاجية بين الكلمات مع الإطناب كان تمهيدًا لظهور مذهب الصنعة البديعية التي أخذت تقتحم أذواق الكتّاب فيما بعد.

ثانيا: العصر العباسي الثاني (وما تلاه):

وما إن نصل إلى العصر العباسي الثاني حتى نجد أنَّ الصنعة الأسلوبية قد بدأت تقتحم أذواق الكتّاب الذين بالغوا في العناية بالطلاء الخارجي والزُخرف اللفظي، واستعمال المحسِّنات البديعة كالسجع والجناس والطباق والمقابلة وما رافق ذلك من ألوان البديع، مع التوسُّع في الخيال والتشبيه والتصوير، وأسلوب السَّجع لم يكن جديدًا؛ بل إنه ظهر موازيًا مع أسلوب الترسل، ومال إليه بعض الكتّاب في العصر الأول، مثل جعفر بن يحيى البرمكي في توقيعاته، وأحمد ابن

١ انظر: رسائل الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ص ٧٨٣)، مكتبة التقوى، دار العلم والمعرفة، القاهرة- مصر، ١٤٤١هـ - ٢٠١٩م.

يوسف في رسائله، وربما ظهر عفواً في بعض كتابات ابن المقفع والجاحظ، ولكنه لم يكن ملزماً ولا مذهباً خاصاً، إلا أنه مع مرور الوقت وتزايد الترف، تزايد استعمال المحسنات البديعة من أجل الطلاء الخارجي والتفنن في الزخرفة، ويُعتبر الكاتب أبو الفضل ابن العميد هو إمام هذه المدرسة في القرن الرابع بلا مدافع؛ إذ التزم السجع التزاماً تاماً، وضمّنه ما وسعه من جناس وطباق وتصوير وحكم وأمثال وشعر، فظهر معه ما عرف بشعر الكتاب، وهو شعر أخفّ وأقلُّ أثراً من شعراء الفحول، ولا يُقارن به؛ إذ أن الكاتب لم يكن يهدف منه إلى الإبداع فيه لذاته، إنّما كان يعبر به عن بعض خواطره دون أن ينافس به الشعراء، ويستعمله في رسائله وسيلة للتنميق والتدبيح، وسار على نهجه من أعلام مدرسته كل من: صاحب ابن عباد، وأبو إسحاق الصابي، وقابوس بن وشمكير، وأبو بكر الخوارزمي، والثعالبي، وابن نباتة.

ومن نماذج تلك المدرسة قول أبي بكر الخوارزمي في رسالة له يخاطب بها صاحب ابن عباد الكاتب والوزير "كتابي إلى الوزير وأنا على بُعد الدار سالم في جُمْلته، مستظهرٌ على الإمام بدولته، والحمد لله على سلامتي، وصلى الله على سيّدنا محمّد وعترته" ويظهر في تلك الرسالة التزام الكاتب بالسجع الذي غلب على مذهب كتاب العصر في ذلك الحين.

وقد كان هذا المذهب هو السائد في القرن الرابع الهجري وما تلاه، وكان مذهب الصنعة ذلك مقبولاً بادئ الأمر، لأنه لم يصل إلى حد التكلف والافتعال، وبالقدر المناسب الذي يتفق مع الذوق السليم، ولم يأت على حساب المعنى؛ بل كان استعمال تلك المحسّنات اللفظية وسيلة لتنميق الأسلوب فحسب، إلا أنه مع مرور الوقت بدأت حدة استعمال المحسّنات البديعية تتزايد، حتى صارت هدفاً لذاتها؛ كما نرى في رسائل بديع الزمان الهمداني ومقاماته؛ حيث أكثر من استعمال الصنعة اللفظية من سجع وجناس وطباق ومقابلات، وقد بهرت تلك

١ انظر: النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك (١/ ١٣٥)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت- لبنان، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

الزخارف الكتاب فعمدوا إليها، ونراهم مع مرور الزمن ومع دخول القرن الخامس الهجري يبالغون في استعمال الصنعة اللفظية إلى حدٍ ممقوت، فصارت تلك المحسنات اللفظية تُستجلب لذاتها بقصد التزيين والزخرفة، دون الاهتمام بالفائدة أو المعنى، ومنهم من بدأ يظهر فيه الميل إلى التعقيد واستعمال الغريب من اللفظ من أجل إبراز قدراته اللغوية؛ كما نرى في كتابات أبي العلاء المعري والحري؛ حيث أصبح حينها التعقيد والتغريب مذهباً عاماً ومعيّاراً للتفاضل بين الكتاب، وليس المعنى، وأخذت حدة الصنعة في تزايد حتى بلغت حدّاً ممقوتاً من التكلّف والافتعال أواخر العصر العباسي، وبالعكس الكتاب في استعمالها حتى أتت على حساب المعنى، متجاوزين فيه الحد المقبول، فتخلّف النثر وتراجع بشكل عام، بحيث صار المعنى سطحياً مبتذلاً مكبّلاً بأغلال وقيود البديع في كثير من الأحيان؛ مثلما نرى في كتابات القاضي الفاضل ورجال طبقته كضياء الدين ابن الأثير الكاتب والعماد الأصفهاني، تماماً مثلما حدث مع الشعر من غلبة الصنعة اللفظية عليه في نفس التوقيت، ومن نماذج النثر في تلك الحقبة ما كتبه عماد الدين الأصفهاني يصف افتتاح صلاح الدين للقدس قائلاً: "ثم رحل من عسقلان للقدس طالباً، وبالعزم غالباً، وللنصر مصاحباً، ولذيل العز ساحباً، قد أصبحت ريش مناه، وأخصب روض غناه، وأصبح رائح الرجاء، سيب العزف، طيب العرف، ظاهر اليد، قاهر الأيد، سنا عسكره قد فاض بالفضاء فضاء، وملأ الملا فأفاض الألاء". وهذا نص سطحي المعنى، ركيك الأسلوب، مبتذل عقيم لا يخلو في سجعته من التكلّف والافتعال، اعتنى فيه الكاتب بالتنميق اللفظي، ولكن المعنى كان خاوياً ضحلاً.

ولم تكن المحسنات اللفظية وما رافقها من مظاهر الصنعة؛ هي سبب تخلّف النثر في تلك الحقبة؛ بل إنها بلا شك أسلوبٌ من أساليب البلاغة؛ ولكن سبب تخلّف النثر كان الميل المفرط إليها، والمبالغة في استعمالها إلى حدٍ يفوق المعقول،

١ انظر: تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٣/ ٣٧).

ويفسد الذوق، فيكبل المعنى ويقيدّه، والأفضل في مذهب الصنعة هو ما استعمل منها بقدر، دون أن يبلغ حدّ التكلّف والافتعال والتضييق على المعنى.

ومن هنا نستطيع تقسيم مذاهب الكتّاب في القرن الرابع الهجري وما تلاه إلى مذهبين رئيسيّين؛ هما:

(١) مذهب السجع والبديع: وهو مذهب العصر السائد، الذي اعتمد في كتاباته على التزام السجع والازدواج وألوان البديع من جناس وطباق وتورية، مع الميل إلى الإطناب، والحرص على تضمين الرسائل بفقرات من أطايب الشعر والأمثال والحكم، وقد غلب هذا المذهب على كتّاب الرسائل، وتفاوت لديهم قدر استعمال السجع والبديع؛ فمنهم من التزم السجع فعلاً ومال إلى البديع، ولكن بقدر دون تكلّف وافتعال؛ مثل: ابن العميد والصاحب والصابي، ومنهم من استكثر منه؛ كأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني، ومنهم من أغرق في التعقيد والتغريب؛ مثل أبي العلاء المعريّ والحريري.

(٢) مذهب الترسّل: ويمثّله الكتّاب الذين لم يخضعوا لإغراء العصر، واستمروا على نهج الترسّل، ولم يلجؤوا إلى الزخرفة، ولم يلتزموا السجع إلا عفواً، أو ربما مزجوا بين الترسّل والسجع؛ وهو مذهب المؤلفين وأهل التصنيف والنقد، ومن ظلّ متأثراً بأسلوب الجاحظ، ومن هؤلاء: أبو حيان التوحّيدي، وابن مسكويه، والجرجاني، والعسكري، والمرزباني، والأصفهاني، والقاضي التنوخي، وإخوان الصفاء؛ وهذا المذهب كان أقلّ أثراً وانتشاراً من مذهب السجع، ومع هذا فقد بقي حيّاً؛ والسبب في ذلك أن أهل المذاهب والآراء ومن غلب على كتابتهم التأليف والنقد، رأوا في التزام السجع تقييداً يحول بينهم وبين شرح أفكارهم، والإفصاح عن مذاهبهم وآرائهم، لذا كان السجع مذهب كتّاب النثر الأدبي المتضمّن الرسائل والمناظرات والقصص، بينما الترسّل مذهب أهل النثر التأليفي الذي لا يناسبه ذلك اللون من التنميق والزخرف.

ومن الجدير بالذكر أن النثر في العصر العباسي الثاني قد بدأ يتناول موضوعات وأغراض جديدة كان موطنها الشعر فقط؛ مثل المديح والهجاء والفخر والوصف والغزل؛ لأن كُتَّاب هذا العصر لم يكتفوا بتضمين كتاباتهم بالشعر فحسب؛ بل نقلوا أيضًا ما وسَّعهم من الأغراض الشعرية إلى عالم النثر الذي أثبت أنه ليس أقل قدرة من الشعر على استيعاب وتناول تلك الأغراض؛ بل لعله أسلس مادة وأوسع صدرًا؛ لخلوّه من قيود الوزن والقافية.

أقسام النثر:

ينقسم النثر في العصر العباسي إلى قسمين رئيسيّين وهما:

١- النثر الأدبي: وهو الذي يشمل فنون الخطابة والرسائل الديوانية والإخوانية والمناظرات والتوقيعات والقصص والمقامات، ويُعتبر أدبًا خالصًا.

٢- النثر التأليفي: وهو الذي يشمل كتب التصانيف والأخبار والتراجم والتاريخ والنقد الأدبي وشروحات البلاغة، فهو لا يُعتبر أدبًا خالصًا؛ ولكنه شرحٌ لموضوعات مختلفة بأسلوب أدبيٍّ ومن بينها الأدب، وقد استُحدث هذا الاتجاه ونشط في العصر العباسي مع بدء التدوين، ورائد هذا اللون الجديد هو الجاحظ؛ الذي -بجانب رسائله الأدبية- قام بتأليف عدّة كتب مهمّة؛ من بينها كتاب "الحيوان" الذي تحدّث عن علم الحيوان، وكتاب "البيان والتبيين" الذي جمع فيه عددًا من خطب ورسائل السابقين، فقام بشرحها ونقدها وتحدّث عن البلاغة وتعاريفها، ومن رُوّاد النثر التأليفي: ابن قُتيبة الدِّينوري، وأبو الفرج الأصفهاني، والمرزباني، وأبو حيّان التوحّيدي، وأبو هلال العسكري، وأبو منصور الثعالبي، وياقوت الحموي، وابن خلكان؛ ولهم مؤلفات عدّة تنوّعت بين النقد الأدبي والأخبار وتراجم الشعراء والتاريخ وسائر العلوم والمعارف، ولكن في سياقٍ فنيٍّ أدبيٍّ، وسنورد تراجم هؤلاء مع ذكر مؤلفاتهم وآثارهم.

فنون النثر الأدبي

(الخطابة- الرسائل الديوانية والإخوانية- المناظرات- التوقيعات- القصص- المقامات)

تعددت فنون النثر الأدبي في العصر العباسي؛ فمنها فنون واصلت ازدهارها كما كانت من قبل؛ وعلى رأسها الرسائل الديوانية، ومنها فنون تطوّرت وخطت خطوات واسعة نحو الازدهار؛ مثل التوقيعات والرسائل الإخوانية والمناظرات، وهناك فنون مستحدثة؛ مثل فنّ القصة؛ الذي ظهرت لأول مرة كفنّ أدبي مستقل، مترجمًا أولًا لدى ابن المقفّع، ثم مؤلفًا عند سهل بن هارون والجاحظ؛ وكذلك فنّ المقامة الذي استحدثه بديع الزمان الهمداني، أمّا الخطابة فقد كانت مزدهرة بادئ هذا العصر ثم أخذت في الضعف مع مرور الوقت، ونفصّل فنون النثر في العصر العباسي كما يلي:

(١) الخطابة:

شملت الخطابة في العصر العباسي ثلاثة فروع رئيسة؛ هي: الخطابة السياسية والدينية والمحفلية، أما الخطابة السياسية فقد واصلت ازدهارها مطلع العصر العباسي؛ إذ احتاج إليها الخلفاء العبّاسيون وكبار دعايتهم وقادتهم أول الدعوة؛ لبثّ دعوتهم الجديدة، وتثبيت دعائم مُلكهم، ومواجهة الثورات المناهضة لهم أول حُكمهم، فكانت لها أهمّيتها في توطيد الدولة، وتحميس الجند، واستقبال الوفود، وظهر عددٌ من الخطباء المفوّهين من الخلفاء والأمراء والقادة؛ مثل: أبي العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين، وأخيه أبي جعفر المنصور الذي لم يَعْرِف العبّاسيون مثله بيانًا وفصاحة ولا أبلغ منه ولا أخطب، وكذلك الأمير داود بن علي عم السقّاح والمنصور، وابن عمّهما عبد الملك ابن صالح بن علي، وقد حُفِظَ لهم عددٌ من الخطب البليغة، وامتازت الخطابة في ذلك الوقت بفخامة اللفظ وجزالته، وحُسن الرصف، وعدم الالتزام بالسجع، والاقتباس من القرآن الكريم والسُنّة النبوية، مع الوضوح وغلبة الإيجاز،

بالإضافة إلى جمال السِّبْك والصياغة، على أنَّه ما إن هدأت الثورات السياسية، وقام الموالي بسياسة الدولة، حتى بدأت ملامح الضعف تظهر في الخطابة السياسية؛ لعدم القدرة عليها ولضعف الداعي إليها، ومن المعروف أنَّ الثورات السياسية والصراعات الحزبية تمثِّل وقودًا هائلًا للخطابة السياسية، وهو ما أدَّى إلى ازدهارها في العصر الأموي بسبب الانقسام الحزبي بين الأمويين والزُّبيريين والخوارج والطلبيين، فلمَّا جاء العباسيون واجهوا أوَّل عهدهم ثورات سياسية عنيفة من قِبَلِ الطالبيين، ما لبث أن تمَّ القضاء عليها، وما لبث العباسيون بعدها أن بطشوا بكل خصومهم السياسيين، فضعفت الحياة الحزبيَّة، وانخفضت حدَّة الصراعات السياسية، فضعفت معها الخطابة السياسية إلى حدٍّ كبير، وحلَّت الكتابة محلها في إدارة الأزمات ومواجهة التَّمَرُّد، وانصرف الناس عن الإقناع بالقول إلى الإقناع بالكتابة، واستعاضوا عن الألسنة التي تخطب، بالقلم الذي يكتب، فانحسر نطاق الخطابة عمومًا في مناسبات الجُمُع والعيدين ومناسبات التهاني والتعازي والمناظرات الكلامية والمشاورات ووصايا الخلفاء والقادة.

وقد استعادت الخطابة السياسية بعضًا من بريقها حين اشتعل الصراع بين الأمين والمأمون على الخلافة، على نحو ما نرى في خُطب طاهر بن الحسين قائد المأمون، وداود بن عيسى بن موسى، والحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، غير أن تلك المدَّة القصيرة انتهت بمقتل الأمين ونهاية الفتنة، وخمد نشاط الخطابة السياسية من جديد.

ولكن رغم ملامح الضعف في الخطابة السياسية؛ فقد بقيت محتفظة بصورتها وهيبتها في العصر العباسي الأوَّل؛ بسبب قوَّة وهيبة مركز الخلافة والسلطة، ومن الخلفاء من بلغ بها الشأو والمنزلة؛ مثل هارون الرشيد وولده المأمون الذي كان خطيبًا مفوَّهاً وعلى قدرٍ من الفصاحة والبيان، وهو ما أجَّل انهيار الخطابة السياسية طوال العصر العباسي الأوَّل.

ولكن ما إن ضعفت سلطة الخلافة السياسية في العصر العباسي الثاني، وذهبت هيبة الخلفاء، وسيطر الجند الأتراك على مقاليد الأمور، واستعجم المسلمون وشاع فيهم اللحن؛ حتى ضعفت الخطابة السياسية ضعفاً شديداً، وصار من المعتاد ألا يُرى الخليفة يخطب في مناسبات الجمعة والعيد، باستثناء الخليفة المهتدي التقيّ الورع الذي كان يؤم الناس ويخطب بهم في المسجد الجامع بسامراء، وقد خطب الخليفة المعتضد أحياناً في بعض المناسبات، وكان حفيده الخليفة الراضي آخر من خطب من خلفاء بني العباس، قبل أن يسيطر بنو بويه ثم السلاجقة على الخلافة، وتحوّل الخلافة بعدها إلى منصب رمزي، فتنهار الخطابة السياسية حينها، لكن آخر من خطب بعد ذلك من الخلفاء العباسيين أواخر العصر العباسي هو الخليفة المسترشد.

أما الخطابة المحفليّة فقد تعرّضت كذلك لشيءٍ من الضعف؛ حيث ضعُف نفوذ القبائل العربيّة في العصر العباسي؛ بسبب استبعاد الخلفاء لهم واعتمادهم على الموالي، فاختفى وفود القبائل على قصور الخلفاء إلا في حالات قليلة، اقتصرت على التهاني والتعازي؛ مثلما نرى في خطب خالد بن صفوان أحد خطباء العصر الأموي، الذي شهد بدايات العصر العباسي، وقد بقيت الخطابة المحفليّة حيّةً من بعض الوجوه؛ إذ كان يفد بعض الخطباء على الخلفاء حال تولّهم فيخطبون مادحين إيّاهم، وربما ظهرت في بعض مناسبات التعازي والتهاني و التشاور، إلى أن سيطر بني بويه على الخلافة ففقدت حينها سلطانها الفعلي، واختفت الخطابة المحفلية إلا في القليل النادر.

ولكن إن كانت الخطابة السياسية والمحفليّة قد ضعفتا في العصر العباسي؛ فإنّ الخطابة الدينيّة والوعظيّة قد نشطت نشاطاً واسعاً، بسبب كثرة الفقهاء والوعّاظ، وإقبال الناس على دروسهم وحلقاتهم ووعظهم، وقد كان يتم تدريب الخطباء والوعّاظ على اللغة والقول والأخذ بأسباب الفصاحة، فزهت الخطابة الدينيّة، وامتألت ساحات المساجد بهؤلاء الوعّاظ والزُّهّاد والفقهاء وأصحاب الكلام، وكان الناس يقبلون عليهم، وكان بعض الخلفاء يستقدمون عدداً من

الوعاظ فيعظونهم فيتأثرون بكلامهم، ومن هؤلاء عمرو بن عبيد المعتزلي الذي كان يعظ أبا جعفر المنصور، وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدي، وابن السماك واعظ هارون الرشيد.

ومن الوعاظ من كان يمزج وعظه بالقصص الدينية؛ مثل: موسى بن سيار الأسواري، والقاسم بن يحيى، وأبي العباس الضير، ومالك بن عبد الحميد المكفوف، وأبي بشر صالح المُرِّي؛ وكان هؤلاء جميعًا يستمدُّون كلامهم من القرآن والسُّنة ويذكِّرون بالجنة والآخرة، ويحذِّرون من عقاب الله.

ورغم تراجع منزلة الخطابة في العصر العباسي الثاني، وتراجعها على ألسنة الخلفاء والقادة؛ فإن الخطابة الدينية بقيت نشطة مدَّة أطول على يد هؤلاء الوعاظ والفقهاء؛ ومنهم الخطباء الرسميون الذين تُعيِّنهم الدولة، ومنهم الخطباء الشَّعبيون الذين التَّفَّ حولهم جمهور كثير كان يُقبل على حلقاتهم ووعظهم، وكان هؤلاء يخطبون في الجُمع والأعياد، ومنهم من كان يرافق الجند من أجل التحميس والتَّحريض على أجر الجهاد؛ ومن هؤلاء: أبو العباس الطبري وأبو الحسن علي بن محمد المصري، وقد أدَّى نموُّ التَّيار الصوفي في تلك المدَّة وانتشاره بين الناس إلى ظهور عددٍ من الوعاظ الذين غلب عليهم التَّصوُّف، وكانوا يخطبون في المساجد والزَّوايا، ويظهر عليهم أثر التقوى والصَّلاح والورع، ومن هؤلاء: يحيى بن معاذ الرازي، وأبو حمزة الصوفي، والحسين بن منصور (الحلاج) الذي سبق ذكر ترجمته مع شعراء التَّصوُّف، وقد بدأ السَّجع يتسرَّب إلى الخطابة مع زيادة العناية بالمحسنات البديعية واللفظية^١.

وقد ضعفت الخطابة بشكل عام مع أواخر العصر العباسي؛ بسبب غلبة الصنعة اللفظية التي سيطرت على أسلوب الخطابة وعلى النَّثر بشكل عام، فتدهورت الخطابة السياسية والمحفليَّة حتى صارت شبة ميتة، وأما الخطابة الدينية فصارت قاصرةً على الجمع والأعياد، بهذا الأسلوب المزخرف الركيك،

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٤٥٣ - ٤٥٦).

^٢ انظر: المصدر السابق (٤/ ٥٢٦ - ٥٣٤).



بالإضافة إلى انعدام القدرة عليها مع غلبة دول الأتراك والكرد على العالم الإسلامي، فكان عدد من الخطباء يخطبون بخطب أسلافهم، فيأخذونها ويردّدونها فوق المنابر دون فهمٍ أو وعيٍ، وبقيت هذه الحال المخزية للخطابة من تدهور وانحطاط قرونًا طويلة حتى أدركتها عوامل النهضة مع القرن الرابع عشر الهجري/العشرين ميلادي.

(٢) الرسائل:

ازدهرت الكتابة في العصر العباسي ازدهارًا واسعًا؛ وذلك تبعًا لازدهار العلوم والمعارف ونشاط الترجمة والتدوين، بالإضافة إلى ضعف الخطابة؛ حيث حلّت الكتابة محلّها، وقد انقسمت إلى نوعين رئيسيّين؛ هما: الرسائل الديوانية: وهي الرسائل التي تصدر عن دواوين الحكم، والرسائل الإخوانية: وهي التي تكون بين الأدباء والرفاق وتتناول موضوعات مختلفة، ونفصّلها فيما يلي:

١- الرسائل الديوانية:

واصلت الرسائل الديوانية ازدهارها في العصر العباسي الأول؛ نظرًا إلى أهميّتها في إدارة شؤون الدولة، ولتطور الدواوين وتعلّقها؛ إذ توسّع العباسيون في اقتباس أنظمتها من الفرس، فكانت هناك دواوين للحكم وللجيش وللحروب وللتنفّقة وللولايات، بل كانت هناك دواوين خاصة للأمراء والوزراء والقادة، ومن لم يتّخذ لنفسه ديوانًا؛ اتخذ على الأقل كاتبًا يدير أمواله وضياعه ويكتب عنه. وعليه فقد كانت منزلة الكتابة عالية ومرموقة كما كانت أواخر العصر الأموي؛ بل لعلّها زادت أهميّتها مع ضعف الخطابة وحلول الكتابة مكانها، بالإضافة إلى ازدهار العلوم والمعارف؛ التي انعكست على الرسائل الديوانية، ولا أدلّ على تزايد مكانتها عمّا كانت عليه وأثر العلوم والمعارف فيها؛ من أنّ الكاتب كان عليه أن يكون مُلمًّا بمختلف العلوم والمعارف المختلفة؛ كعلوم اللسان والدّين والفلسفة والمنطق، حتى العلوم التطبيقية، وأن يكون على دراية واسعة بمادة اللغة، حتى يجودّ صناعته، ويروع ببيانه وبلاغته، وقد كثّر الوافدون الذين كانوا

يعرضون أنفسهم على أبواب الدَّواوين، فكان رؤساء الدواوين يأخذونهم ويمتحنونهم امتحاناً صعباً في مختلف العلوم والمعارف؛ حتى يختبروا قدراتهم الكتابية، ومهاراتهم الأدبية والعقلية، فمن اجتاز الامتحان تمَّ ضمُّه للكتابة في الدواوين، ومن برزت موهبته ارتقى في السُّلَّم الإداري حتى يصير رئيساً للديوان، وربما ارتقى ليصير وزيراً للخليفة أو مدبراً لشؤون الملك، وكانت رواتبهم جزيلة؛ مثلما حدث مع البراميكة وزراء هارون الرشيد، ومحمَّد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق، وابن العميد الكاتب والصاحب بن عباد من وزراء بني بويه، وكلُّها شواهد على أن وظيفة الكاتب كانت وظيفة مرموقة.

وقد امتاز أسلوب الرسائل الديوانية بالوضوح والجمال الفني، والعناية بالتدبيح والتنميق والعدوبة وتخير اللفظ وحسن السبك والرَّونق؛ ذلك لأنهم كانوا يكتبون عن الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة، فكانوا يرتقون بأسلوبهم ما يسعهم، وكان في أسلوبهم ميل إلى مزاجية العبارات كصورة من صور التنميق.

وقد عرف العصر العباسي الأول عدداً وافراً من الكتَّاب الذين حفلت بهم دواوين الخلافة، وسائر الإمارات والولايات؛ مثل: عبد الله ابن المقفَّع، وغسان ابن عبد الحميد، ويوسف بن القاسم زمن المنصور، ويحيى بن خالد البرمكي وولده جعفر زمن هارون الرشيد، وعرفت دواوين المأمون العديد من الكتبة المهرة كطاهر بن الحسين وولده عبد الله بن طاهر، والفضل بن سهل وأخيه الحسن، وعمرو بن مسعدة، وأحمد بن يوسف، ومحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق، بالإضافة إلى إبراهيم بن العباس الصولي، والحسن ابن وهب وأخيه سليمان؛ الذين عملوا في دواوين المأمون والمعتصم والوائق والمتوكل، وسعيد بن حميد وعُبيد الله بن يحيى بن خاقان وقد عاشا إلى زمن المعتمد.

^١ انظر: المصدر السابق (٣/ ٤٦٥ - ٤٩٠).

وقد عُرف كذلك بعض الخلفاء بإتقان الكتابة؛ مثل: أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون، وكذلك بعض الأمراء مثل إبراهيم بن المهدي! وكانت التحميدات والإسهاب فيها والاستهلال بها، من سمات الرسائل الديوانية، وهو مذهب بدأه عبد الحميد الكاتب أواخر العصر الأموي، وتبعه في ذلك عدد من الكتّاب الذين كانوا يجيدون التحميدات ويُسهّبون فيها مثل: ابن المقفع، وغسان بن عبد الحميد، وأبي عبيد الله معاوية بن يسار كاتب المهدي، وأحمد ابن يوسف، ومن أمثلة التحميدات ما كتبه خزيمة بن خازم قائلاً: "أما بعد: فالحمد لله ذي الملكوت والقدرة، والجبروت والعزّة، والسلطان والقوة، أهل المحامد كلّها، ومدبر الأمور ووليّها، وخالق الخلائق وبارئها، ومميّتها ومحبيها، وباعثها ووارثها، الذي أوجب على نفسه بما نفذ من مشيئته، وسبق من علمه، وثبّت في اللوح المحفوظ عنده إعزاز دينه، وإظهار حقّه، وإعلاء كلمته، وإبلاج حجّته، وإزهاق باطل أعدائه، الصادقين عن طاعته، والجاحدين لربوبيّته، المكذّبين بكتبه ورسله، بلغ بذلك أمره، ونطق به كتابه؛ فإنه يقول تبارك اسمه في المنزل من فرقانه: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)³.

وهذه التحميدة يتضح بها مدى عناية الكاتب بمزاوجة العبارات، وهو ما يشير إلى أن الازدواج كان سمة من سمات الكتابة الديوانية، ووسيلة من وسائل التنميق.

ومن أمثلة الرسائل الديوانية ما كتبه جعفر بن يحيى البرمكي في العفو والمسامحة لأحد عماله قائلاً: "عندنا الاعتذار لما اقترفت، وتصديق كلّ ما قلت واحتججت بذكره، واعتذرت بوصفه، والإسقاط لما جحدته، والإكذاب

١ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٣/ ٤٨٧ - ٤٨٩)، المكتبة العلمية، بيروت- لبنان، د.ط، د.ت.

٢ انظر: المصدر السابق (٣/ ٣٣٥ - ٣٣٦).

٣ سورة الأنبياء (١٨).

٤ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٣/ ١٦٤).

للجور الذي اقترفته، والرجوع عما أنكرته، والزيادة فيما اخترته؛ استدعاء لك وإن انصرفت، وحياطة لما قدّمت وإن ذممت، وإيثارًا للإغضاء والاحتمال؛ فإنّهما أبلغ في الإصلاح، وأنجع في الاستنجاح، وأسرع في التعليم، وأكبر في التقويم، إن احتيج إليه في مثلك ممّن تؤمّن عليه قريحته، وتردّه إلى الاستقامة تجربته".

ومن خلال تلك الرسائل الأخيرة نلمح أن السجع بدأ يتسرب باكرًا إلى الكتابة الديوانية؛ تماشيًا مع المبالغة في التنميق والتدبيح ومزاوجة العبارات؛ حيث ظهر في كتابات البرامكة، وفي بعض رسائل أحمد بن يوسف وآخرين، ولم يكن ملزمًا أوّل الأمر، حتى بدأ يتزايد مع مرور الوقت، وزاد عدد الكتّاب الذين كانوا يتأنّقون في كتابتهم، حتى جاء عصر الخليفة المقتدر؛ فصار السجع أسلوبًا عامًّا في الرسائل الديوانية كما نرى عند بعض وزرائه وكُتّابه؛ مثل علي بن الفرات وعلي بن عيسى وابن مقلّة؛ ولما استولى بنو بويه على الخلافة؛ نبغ عدد كبير من كتّاب الرسائل الذين اعتمدوا جميعًا على السجع، وعلى رأسهم ابن العميد أبرع كتّاب عصره، وكذلك صاحب ابن عباد وأبو إسحاق الصّابي وأبو بكر الخوارزمي، وقد كان التأنّق بالسجع مقبولًا أوّل الأمر؛ لجريانه مع المعنى، لكنّه تزايد مع مرور الوقت حتى وصل إلى الحد الممقوت والمبتذل أواخر العصر العباسي كما سبق توضيحه.

٢- الرسائل الإخوانية:

تطوّرت الرسائل الإخوانية في العصر العباسي، وهي عبارة عن الرسائل التي تكون بين الأدباء والرفاق والكتّاب، يعبرون فيها عن مشاعرهم المختلفة، وتنوّعت أغراضها بين التعازي والتهاني والشوق والعتاب والنصح والحكم، ومن المعروف أنّ الرسائل الإخوانية قد برزت أواخر العصر الأموي مع عبد الحميد الكاتب، فلمّا جاء العصر العباسي ظهر عبد الله ابن المقفع الذي حفظت له

^١ انظر: المصدر السابق (٤ / ٤٤٢ - ٤٤٤).



العديد من الرسائل الإخوانية، وكان كتاباه "الأدب الصغير" و"الأدب الكبير" نموذجين للرسائل المفعملة بالحكم والنصح والوعظ، وبرع في الكتابة الإخوانية عدد كبير من الكتّاب؛ مثل غسان بن عبد الحميد وأحمد بن يوسف، وكان لكلثوم بن عمرو العتابي رسائل بديعة غاية في الروعة وآية في البيان، ثم جاء الجاحظ فخطا بالكتابة الإخوانية خطوات واسعة، وحفظت عنه رسائل إخوانية عديدة في موضوعات مختلفة؛ منها رسائل سياسية وأدبية وكلامية، ومن أشهر رسائله رسالة "التربيع والتدوير" التي كان يهجو فيها أحد الأشخاص، وقد عبّر في رسائله عن معتقداته السياسية والفكرية؛ فهجا بني أمية، وعبّر عن الاعتزال، ودافع عن مسألة خلق القرآن؛ كونه أحد أرباب مذهب الاعتزال في ذلك الوقت، فخرجت الرسائل الإخوانية على يديه من إطار المراسلات بين الأشخاص إلى كونها رسال موضوعية أشبه بالمقال في العصر الحديث.

وكانت الرسائل الإخوانية تتحدّث عن التهماني والتعازي والعتاب، فجاء ابن العميد إمام الكتّاب في القرن الرابع الهجري، فطرق برسائله الإخوانية موضوعات أخرى كالحُبِّ والغزل والنَّسِيب والرَّثاء والهجاء، وهي أغراض كان موطنها الشعر، فأدخلها ابن العميد في نطاق النثر، فكان هذا تطوُّراً جديداً في الرسائل الإخوانية، ومن أعلام الكتابة الإخوانية في ذلك الوقت: أبو بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمداني.

ومن نماذج الإخوانيات في العصر العباسي؛ ما كتبه الخليفة المأمون إلى نائبه ووزيره الحسن بن سهل يعزّيه في أخيه؛ "وقد أبقى الله لأمير المؤمنين خلفاً من خير سلف؛ افتقاداً منك لأثر ذى الرياستين -نصر الله وجهه ورحمه- وسلوكاً منك لمذهبه وكفايته لأمير المؤمنين، وعائده عنه، واجتهاده في طاعته، ومعاونته على نيّته، وابتذالك نفسك في إعزاز دولته، وجهاد عدوّه، والمحاماة عن سلطانه، وحلولاً من قلب أمير المؤمنين محلّه في علوّه وارتفاع مكانه؛ إذ

١ انظر: المصدر السابق (٣/ ٣٥٦).

كنت شقيقه وشبيهه، والجارى عند أمير المؤمنين في الأُنس والثِّقة والتَّقديم مجراه".

ومن الرسائل الإخوانية ما كتبه كلثوم بن عمرو العتّابي في الشكر! "دُعيت إليك ونفسي رهينة بشكرك، ولساني عَلِقُ بالثناء عليك، والغالب على ضميري لائمة لنفسي في الإبطاء عنك، واستقلالٌ لجهدى في مكافأتك، وأنت - أعزّك الله- في عزّ الغنى عني، وأنا تحت ذلّ الفاقة إلى عطفك، وليس من متشابه أخلاقك أن تُولي جانب النّبوة منك؛ مَنْ هو عانٍ في الضّراعة إليك".

(٣) المناظرات:

تطوّرت المناظرات في العصر العباسي تطوُّراً ملحوظاً؛ تبعاً للنُموّ العلمي والفكري، وأيضاً بسبب تشعُّب الفرق والمذاهب الفقهيّة والكلاميّة، واختلاف آراء تلك الطوائف، فنشط الجدل بينها؛ حيث انقسم الناس إلى سُنّة وشيعة وخوارج ومعتزلة، بالإضافة إلى مللٍ أخرى كالمانوية التي آمن بها الزنادقة، فنشط بينهم الجدل في العديد من القضايا والآراء، وكان للمعتزلة دور عظيم في إثراء هذا الجانب؛ إذ اشتهروا بالجدل والمناظرة وقوّة الحجة، وذلك لإغراقهم في التفكير والاعتماد على العقل، وحُفِظَ لبعض أعلامهم العديد من المناظرات مع السُنّة والجهمية والخوارج، ومن أشهر مناظرتهم: أبو الهذيل العلاف وأبو إسحاق النّظام، بل إن مذهب أهل السُنّة نفسه انقسم إلى عدّة مذاهب؛ هي: الحنفيّة والمالكيّة والشافعيّة والحنبليّة والظاهرية، بالإضافة إلى مذاهب أخرى أقلّ شأنًا، وأثيرت بين تلك المذاهب النقاشات والجدل حول العديد من الأحكام والقضايا الدّينية الفرعية، وقد شجّع الخلفاء العبّاسيون هذا اللون من النقاشات والمناظرات والجدل، على نحو ما نرى لدى مجالس البرامكة وزارع هارون الرشيد، ومجالس الخليفة المأمون وابن أخيه الواثق.

١ انظر: المصدر السابق (٣/ ٣٩٧).

وقد حفظت الكتب التراثية العديد من المناظرات؛ مثل ما كان بين الخليفة أبي العباس السفّاح وأحد الطالبين؛ إذ ما إن ما فرغ أبو العباس من خطبته التي خطبها أوّل خلافته، حتى قام إليه رجل من الطالبين فقال: أذكرك بالله الذي ذكرته إلّا أنصفتني من خصمي، وحكمت بيني وبينه بما في هذا المصحف.

قال له: ومن ظلمك؟ قال: أبو بكر الذي منع فاطمة فدكا.

فقال له: وهل كان بعده من أحد؟ قال: نعم.

قال: من؟ قال: عمر؛ قال: أو أقام على ظلمكم؟ قال: نعم.

قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم.

قال: من؟ قال: عثمان؛ قال: و أقام على ظلمكم؟ قال: نعم.

قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: من؟ قال: أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب؛

قال: و أقام على ظلمكم؟ فبهت الطالب وأخذ يلتفت حتى يرى مخلصاً!

وكان الإمام محمد بن إدريس الشافعي مناظراً قوياً متفوّقاً، وله العديد من المناظرات مع أستاذه الإمام مالك، ومحمد بن الحسن الشيباني وإسحاق ابن راهويه وأحمد بن حنبل، وعددٍ من الملاحدة؛ منها مناظرة شهيرة بينه وبين صديقه الإمام أحمد بن حنبل حول حكم تارك الصلاة مع الإيمان بها، فكان الشافعي يراه فاسقاً، بينما يراه ابن حنبل كافراً، فقال له الشافعي: إذا كان كافراً فبِمَ يُسلم؟ فقال: يقول: لا إله إلا الله.

قال: فالرجل مستديم لهذا القول لم يتركه.

فقال ابن حنبل: يُسلم بأن يصلي.

فقال الشافعي: صلاة الكافر لا تصحّ، ولا يحكم بالإسلام بها.

فسكت الإمام أحمد.

ولما أشاع المعتزلة مسألة خلق القرآن وحاولوا فرضه على الناس؛ ناظرهم عددٌ من علماء السُّنة مثل أحمد بن حنبل؛ الذي أُتي به إلى الخليفة المعتصم، وسأله

^١ انظر: أصول المناظرة وروائع المناظرات، عبد الرحمن النجدي (ص ٣٣٤)، دار التقوى، القاهرة- مصر، ط١، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.

أحدهم: ما تقول في القرآن؟ فقال ابن حنبل: ما تقول في العلم؟ فسكت الرجل، فقال الإمام ابن حنبل: القرآن من علم الله، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله؛ فقال محاوره: كان الله ولا قرآن؛ فقال ابن حنبل: كان الله ولا علم! فسكت الرجل، ثم قال الإمام أحمد بن حنبل لمن حوله: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به؛ فقال ابن أبي دؤاد القاضي المعتزلي: أنت لا تقول إلا بهذا وهذا؟ فقال: وهل يقوم الإسلام إلا بهما؟!.

ويروى في هذا السياق أن أبا عبد الرحمن عبد الله بن محمد الأزدي دخل على الخليفة الواثق، فأمره بمناظرة أحمد بن أبي دؤاد القاضي، فسأله: يا أحمد؛ أخبرني عن هذه المقالة، هي داخلة في عقد الدين، فلا يكمل الدين حتى يقال بها؟ قال: نعم.

قال الشيخ: يا أحمد؛ فأخبرني عن رسول الله ﷺ لما بعثه الله إلى خلقه، ستر عليهم شيئاً مما أمره الله به في دينهم؟ قال: لا.

قال: أفأخذ رسول الله ﷺ بهذه المقالة؟ فسكت أحمد.

ثم قال: يا أحمد؛ فدع ذا، زعمت أن الدين لا يكون كاملاً حتى يقال فيه بهذه المقالة، فأخبرني عن الله -عز وجل- حين أنزل على رسوله ﷺ (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)؛ أكان الله -تبارك وتعالى- الصادق في كماله، أو أنت الصادق في نقصانه؟ فسكت.

وقال الشيخ: ودع ذا، أتقول: إن رسول الله ﷺ علم مقالته هذه فلم يطالب الأمة بها لأنه اتسع له الإمساك عنها؟ قال أحمد: نعم.

قال: وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعليُّ بعده؟ قال: نعم.

قال: فترك الشيخ ابن أبي دؤاد وأقبل بوجهه إلى الواثق فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن لم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة مما زعم ابن أبي دؤاد؛ أنه اتسع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ؛ فلا وسع الله عليك؛ فضحك

الواثق ثم قال: نعم؛ لا وسَّعَ اللهُ عليَّ إذًا! ثم أطلق الشيخ من قيده وكرَّمه، وأمر بِتَرْكِ امتحان الناس في تلك المسألة، وكان لتلك المناظرة الرائعة أثرٌ في إبطال مسألة خلق القرآن فيما بعد.

وناظر أبو الحسن الأشعري أستاذه أبا علي الجبائي المعتزلي؛ حيث سأله عن ثلاثة إخوة، أحدهم كان مؤمنًا والثاني كان كافرًا، والثالث كان صغيرًا؛ ماتوا كلهم، فكيف حالهم؟

فقال الجبائي: أما المؤمن ففي الدرجات، وأما الكافر ففي الدرجات، وأما الصغير فمن أهل السلامة.

فقال الأشعري: إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات المؤمن، هل يؤذن له فيها؟

فقال الجبائي: لا؛ لأنه يقال له: إن أخاك المؤمن إنما وصل إلى تلك الدرجات بسبب طاعته الكثيرة، وليس لك تلك الطاعة.

فقال أبو الحسن: فإن قال ذلك الصغير: التقصير ليس مني؛ لأنك لا أبقيتني ولا أقدرتني على الطاعة؟

فقال الجبائي: يقول الله تبارك وتعالى: كنت أعلم أنك لو بقيت وصرت مستحقًا للعقاب، فراعيت مصلحتك.

قال أبو الحسن: فإن قال الكافر: يا إله العالمين؛ كيف علمت حاله علمتَ حالي! فلم راعيت مصلحته دوني؟!!

فسكت الجبائي ورجحت كفة الأشعري.

وهناك الكثير من المناظرات من هذا اللون؛ التي ساهمت في إثراء الفكر وإنماء العقل، ولا تخلو من المنفعة والمتعة، وكان هذا النوع من الجدل يدفع صاحبه إلى إعمال عقله، والتَّمَعُّن فيما حوله، والبحث عن الحجج الدامغة، والأدلة والبراهين القويَّة؛ حتى يتمكَّن من إقحام خصمه وإبطال حُجَّتِهِ.

١ انظر: أصول المناظرة وروائع المناظرات، عبد الرحمن النجدي (ص ٢٣٤ - ٢٤٢).

٢ انظر: المصدر السابق (ص ٣٨٨).

كما ظهر لون جديد من المناظرات في بعض الكتب المؤلفة؛ حيث يتمُّ امتداح الشيء وذمُّه، كما نرى في كتاب "المحاسن والأضداد" المنسوب إلى الجاحظ؛ الذي عَرَض فيه مجموعة من المناظرات والشمائل، فأخذ يذكر محاسنها ثم عيوبها في الوقت نفسه، ومثله كتاب "المحاسن والمساوي" لإبراهيم بن محمد البيهقي؛ الذي سار على نفس منواله من ذكر محاسن الشيء وعيوبه.

(٤) التوقيعات:

هي عبارات موجزة بليغة يتمُّ الرد بها على الرسائل الواردة، وقد كثرت التوقيعات في العصر العباسي، ونُسبت توقيعات كثيرة إلى الخلفاء والأمراء والولاة والقادة؛ منها توقيع أبي العباس السفاح على كتاب وردّه من أهل الأنبار يشكون هدم منازلهم وعدم تعويضهم، قائلاً: "هذا بناء أُسِّسَ على غير تقوى"، ووقع في كتاب لأخيه أبي جعفر المنصور وهو يحارب ابن هبيرة في واسط قائلاً: "إنَّ حِلْمَكَ أَفْسَدَ عِلْمَكَ، وتراخيك أَثَّرَ في طاعتك، فَخُذْ لي منك، ولك من نفسك"، وشكا أهل الكوفة عاملهم لأبي جعفر المنصور، فوقع على كتابهم قائلاً: "كما تكونوا يُؤمَّر عليكم"، ووقع المهدي إلى أحد ولاته يشكو سوء طاعة رعاياه، متمثلاً بآية من القرآن: **(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)**.

ولهارون الرشيد توقيعات بليغة؛ منها توقيعهُ إلى صاحب خراسان "داو جرحك لا يَنْسَع"، ووقع في قصة البرامكة: "أَنْبَتَتْهُم الطاعة، وحصدتهم المعصية"، ووقع مرة على تهديد ملك الروم له: **(سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ)**، ووقع في مناسبة أخرى قائلاً له: "الجواب ما تراه لا ما تقرأه".

وكتب إبراهيم ابن المهدي إلى ابن أخيه الخليفة المأمون يعتذر له عن ثورته ضده قائلاً: "إنَّ غَفَرْتَ فَبِفَضْلِكَ، وإنَّ أَخَذْتَ فَبِحَقِّكَ"، فوقع المأمون على

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٤/ ٥٤٠ - ٥٤٩)، وقد شكَّك الدكتور شوقي ضيف في نسبة كتاب المحاسن والأضداد للجاحظ؛ إذ عثر فيه على عدة أخبار عن ابن المعتز؛ الذي عاش إلى ما بعد عصر الجاحظ.

٢ سورة الأعراف (١٩٩).

٣ سورة الرعد (٤٢).

كتابه قائلاً: "القدرة تُذهب الحفيظة، والنَّدَم جزءٌ من التَّوبة، وبينهما عفو الله"، وكتب إلى عامل له: "إن أثرتَ العدلَ حصلتَ على السَّلامة، فأُنصِفْ رعيَّتكَ من هذه الظُّلَّامة".

ووقع يحيى بن خالد البرمكي إلى رفيق له: "أجنحُ إليك بغالب الفضل، وأعتذرُ إليك بصادق النِّيَّة"، وكانت لجعفر بن يحيى البرمكي عدَّة توقيعات بليغة؛ حيث كان يقول: إن قدرتم أن تجعلوا كُتبكم كلّها توقيعات فافعلوا؛ ومن توقيعاته ما كتبه لعامل له شكته رعيّته: "يا هذا؛ قد كُتِرَ شاكوك، وقلَّ شاكُروك، فإمّا اعتدلتَ، وإمّا اعتزلتَ"، ووقع مرّةً قائلاً: "بعض الصِّدق قَبِيح"، ووقع في قصة محبوس: "العدل أوقعه، والتَّوبة تُطلقه"، ووقع أخوه الفضل قائلاً: "بئس الزَّاد إلى المعاد؛ التعديّ على العباد".

ووقع طاهر بن الحسين في رقعة انتهت إليه، متمثلاً بآية من القرآن: (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)؛ وفي رقعة أخرى وقّع قائلاً: (الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ)؛ ووقع عمرو بن مسعدة: "قليلٌ دائمٌ خيرٌ من كثيرٍ منقطع"، وهناك توقيعات عديدة للفضل بن سهل، وأخيه الحسن، ويوسف ابن القاسم وولده أحمد بن يوسف، وعبد الله بن طاهر بن الحسين وولده محمد بن عبد الله بن طاهر، وعبيد الله بن سليمان بن وهب وآخرين.^٣ وتمتاز توقيعاتهم جميعاً بالإيجاز والبلاغة وإصابة المعنى، وظهور بعض المحسنات البديعة كالسجع والجناس والطباق، ويظهر فيها أثر الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف.

(٥) القصص:

لم تكن القصة شيئاً طارئاً أو جديداً في حياة العرب؛ إذ تُشير الروايات والشواهد الكثيرة أن العرب كانوا شغوفين بالقصص منذ جاهليتهم، وشاعت

١ سورة النمل (٢٧).

٢ سورة النمل (٢٧).

٣ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٤/ ٣٦٧ - ٤٠١).

بينهم القصص التي كانوا يتناقلونها فيما بينهم؛ كأخبار عنترة والسموأل ويوم حليلة ويوم ذي قار، وكان يختلط فيها الواقع بالأسطورة، وربما شاعت بينهم بعض الأساطير، وقد جمع المفضل الضبي جانبًا كبيرًا منها في كتابه "الأمثال"، وبعد ظهور الإسلام صارت القصّة من ضمن وسائل الدعوة والوعظ والإرشاد؛ حيث حفل القرآن الكريم بالعديد من قصص وأخبار الأنبياء والمرسلين والأقوام السابقة، واعتنى المسلمون بعدها بأخبار السيرة النبوية والخلفاء الراشدين وأخبار الفتوحات.

على أن القصّة رغم شيوعها لم تظهر كفنٍ أدبيٍّ مُستقل له خصائصه وسماته إلا مع العصر العباسي، حينما نشطت عمليّة الترجمة، وشرع المترجمون العرب في نقل تراث الفرس والهند واليونان إلى العربية، فكان من أبرز القصص وأشهرها كتاب "كليلة ودمنة"؛ وهو كتاب من التراث الهندي نُقل إلى الفارسية، ثم إلى العربيّة على يد عبد الله ابن المقفع الذي ترجمه في سياق قويٍّ وأسلوب متين فخم، وكان يحوي مجموعة من القصص على ألسنة الحيوانات والطيور، وهي لا تخلو من الوعظ والعبر والمتعة، فكان هذا هو أوّل ظهور لفنّ القصّة كفنٍّ مستقل واضح الملامح، من قبيل الترجمة أوّلًا.

وما لبث أن شرع العرب في وضع وتأليف القصص والأخبار؛ مثلما نرى في أقاصيص سهل بن هارون؛ حيث حاكى فيها "كليلة ودمنة"، وكذلك الجاحظ؛ الذي أورد العديد من القصص في بعض كتبه؛ مثل "الحيوان" و"البخلاء"، فأخذ فنّ القصة يتطور تأليقيًا مع مرور الزمن في العصر العباسي حتى وصل إلى حد النضوج مع أواسط العصر العباسي، وانتشرت القصص في الأدب العربي، منها كان كان مؤلفًا موضوعًا، ومنها ما كان مترجمًا ومقتبسًا من التراث الأجنبي، وحفلت العديد من الكتب بالقصص والأخبار والروايات؛ مثل: "الأغاني"، و"عرائس المجالس"، و"المستطرف من كل فن مستظرف".^١

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفخوري (١ / ٥٥١).

ومن القصص المؤلفة التي عربية غير منقولة أو مترجمة: "سيرة عنترة" التي تحكي أخبار الشاعر والفارس الجاهلي عنترة بن شداد، و"قصة البراق" أو "مجموعة الجمهرة" لعمر بن شبة (ت: ٢٦٢هـ / ٨٧٥م)؛ التي تحكي عن فارس وشاعر بطل اسمه البراق، بالإضافة إلى قصة "حرب البسوس" التي كانت بين بكر وتغلب، وقصة "الملك سيف بن ذي يزن"، و"سيرة بني هلال"، وكتاب "جُحَا" الذي حوى العديد من الطرائف والنوادر، وكذلك العديد من القصص الغرامية كقصص قيس وليلى، وقيس ولبنى، وجميل وبثينة، وما رُوي عن غراميات عمر بن أبي ربيعة؛ وهي قصص من الواضح أنها مستمدة من الواقع، ولكن الرواة ضخموا أحداثها وأضافوا إليها من خيالهم أحداثاً موضوعية من أجل المتعة، وكان لأبي بكر ابن دريد وأبي حيان التوحيدي وابن الأنباري والبيغاء وأحمد بن يوسف المصري مجموعة من الأقاصيص والأحاديث والأخبار.

ولعلَّ أشهر تلك القصص على الإطلاق كانت "سيرة عنترة"؛ وهي قصّة حماسية مستمدة من الواقع؛ حيث إن أبطالها شخصيات حقيقية، ولكنَّ أحداثها أسطورية خيالية، وهي تحكي عن قصّة عنترة بن شداد الفارس الجاهلي والشاعر المشهور، ولم يكن واضعها شخصاً واحداً؛ بل ظل الرواة يتناقلون أخبارها، حتى تناولها القُصّاص والرواة في العصر العباسي وعلى رأسهم الأصمعي، فحكوا عن حروبه وبطولاته وغرامه، وقاموا بإضافة أحداث خيالية وأشعار منحوّلة في سيرته، ونسجوا حول عنترة العديد من الأساطير الخارقة، ثم تناولها يوسف بن إسماعيل المصري فدوّنّها وبوّهّا. وقد اختلفت رواياتها؛ فمنها الرواية الحجازية -وهي الأصل- ومنها الشامية والعراقية، وهي قصّة ذات قيمة فنيّة وتاريخية وخلقية رائعة، تصوّر لنا جوانب من قصص الفروسية والشجاعة وبعض ملامح البيئة الجاهلية، ولكن أخذ على أسلوبها ما يعتره من الركاكة أحياناً، وخلوّها من الوحدة التأليفية، وهو أمر طبيعي؛ نظراً إلى أن

١ تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ٣٢٢ - ٣٢٨).

قصة عنتره أُلِّفَت على مراحل تاريخية متعاقبة، واشترك في وضعها أكثر من راوٍ، وقد تُرجمت قصة عنتره إلى لغات مختلفة؛ لأهميّتها وأثرها وشهرتها! أما القصص التي تُرجمت إلى العربية، وأضاف إليها أدباء العرب من قرائهم وكتابتهم فكان منها: "أخبار السندباد البحري" ذلك المسافر البحري الذي شاهد في سفرياته العديد من غرائب البحر والأسماك، وقصّة "ألف ليلة وليلة" وهي قصّة ذاتة الشهرة، عظيمة الصيت، وتُعد من أشهر ما نقله العرب عن التراث الفارسي، واسمها الأصلي "هزار أفسانه"، وهي قصة تحكي عن ملك اسمه "شهریار" كان إذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد، حتى تزوّج فتاة اسمها "شهرزاد" كانت ذات عقلٍ ودراية، فأرادت أن تنجو من القتل، فأخذت تقصُّ له مجموعة القصص الخيالية والأساطير، يومًا إثر يوم، فبلغت معه ألف ليلة، رُزقت خلالها منه بوليدٍ أظهرته واعترفت بحيلتها، فاستعقلها الملك واستبقاها!.

وقد حفلت كتب الأدب بأسماء كثير من القصص المؤلفة والمنقولة، وقد ذهب أغلبها، فلم يبقَ منها غير القليل كسيرة عنتره وألف ليلة وليلة، وهي تدلُّ على مدى شغف العرب بهذا اللون من القصص التي تركت أثرًا قيّمًا في الأدب العربي، وخلفت منافع أدبيّة واجتماعيّة وفنيّة وتربويّة عظيمة.

(٦) المقامات:

المقامات جمع مقامة، وهي عبارة عن حكايات قصيرة لبطلٍ وهميٍّ، وراويّة خياليٍّ يحكي أخباره، وسُمّيت بالمقامة لأنَّ أحداثها تقع في مقام أو موضع أو مجلس ما، ومختَرع هذا الفن هو بديع الزمان الهمداني (ت: ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م)، وقيل بأنَّ بديع الزمان اشتقَّ هذا الفن من أحاديث ابن دُرَيْد، فنحلها وروى مقاماته؛ وإنَّ

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا فاخوري (١ / ٥٥١ - ٥٥٦).

٢ تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢ / ٣٢٧).

٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١ / ٥٥٦ - ٥٦٥).

صَحَّ هذا القول فإنَّه لا ينقص من حقيقة تأسيس بديع الزمان لهذا الفن؛ لأنَّ المقامات بصورتها وملامحها المعروفة لم تتشكَّل إلا على يديه.

ولسنا نبعد كثيرًا عن الصواب إن اعتبرنا المقامات لونًا من ألوان الفن القصصي، لكنَّها في الوقت نفسه تُعتبر فنًّا مستقلًّا عن القصَّة؛ فله خصائصها وسماتها التي تجعلها فنًّا مختلفًا عن القصَّة المعروفة؛ إذ إنَّ المقامة ما هي إلا ملحة أو حكاية في موقف، تتجسَّد فيها الصِّناعة اللفظية من سجع وجناس وطباق وتورية ومقابلة وغير ذلك من ألوان البديع، كشرطٍ أساسي في خصائصها، ولا يُشترط فيها التسلسل القصصي أو كمال البناء المعروف في القصَّة.

وقد جعل بديع الزمان الهمداني بطل مقاماته شخصيَّة خياليَّة تُدعى أبا الفتح الإسكندري، وهي شخصيَّة أديب فصيح واسع العلم، بارِع في الاحتيال، وجعل راويَّته الخيالي الذي يحدِّث أخباره هو عيسى بن هشام، ويُقال: إنَّ بديع الزمان أُملى نحو أربعمئة مقامة، ولكن لم يصلنا منها غير نيف وخمسين مقامة فقط، وتدور موضوعات أغلب مقاماته حول أهل الكدبة (الاستجداء) وطرق الحيل والخداع وأساليب الاحتيال، ولا تخلو من الظرف والفكاهة والمُلاح، وربَّما اتخذ بعضها من النقد الأدبي أو الوعظ الدِّيني موضوعًا له؛ كالتي تعرَّض فيها لنقد الجاحظ، وقد استعرض فيها بديع الزمان الهمداني على لسان بطلها أبي الفتح الإسكندري قدراته ومهارته اللُّغويَّة، وثقافته الأدبيَّة، وأما أسلوبها فقد كان معتمدًا على المحسِّنات البديعة من حيث التزام السجع طوال المقامة، مع العناية بتقصير السجعات، واختيار الألفاظ، واستعمال ألوان البديع الأخرى كالجناس والطباق والمقابلة والتورية، حتى صارت مقاماته صورةً لتلك المهارات اللفظية، كما بثَّ فيها الكثير من الأمثال والحكم وملامح الاقتباس من القرآن، بالإضافة إلى تضمين مقاماته بالشَّعر، ولم تخلُ أيضًا من غريب اللفظ، فكانت مقاماته صورةً لذلك النثر المنمَّق المزخرف، المليء بالتشبيهات والاستعارات والكنائيات، وقد ذاع صيت مقاماته وعلت شهرتها؛ نظرًا إلى شغف الناس ذلك

الوقت بالصناعة اللفظية؛ حيث كانت مقاماته -على كثرة قيود البديع فيها- لا تخلو من الرشاقة والخفة وحلاوة الطبع.

ثم جاء بعده أديب آخر هو أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري (ت: ٥١٦هـ / ١٢٢٢م)، فخطا بهذا الفن خطوة أخرى وقام بتأليف مقاماته التي بلغت خمسين مقامة، جاعلاً بطلها الخيالي أبا زيد السروجي؛ الذي كان على شاكلة أبي الفتح في مقامات البديع؛ أديباً فصيحاً له باع في المغامرات والاحتيال والألعاب اللغوية، وجعل راويته الخيالي الحارث بن همام، وكانت مقاماته أتمَّ نسجاً وحبكاً من مقامات البديع، وأقرب إلى روح القصة في كمالها وبنائها التسلسلي، ودارت موضوعات مقامات الحريري كذلك حول أهل الكدية وأساليب الاحتيال في معظمها، وربما تطرقت أيضاً إلى أغراض وعظية ونقدية، كما كانت مقامات البديع، وقد سار الحريري على نهج بديع الزمان الهمداني من حيث الأسلوب في التزام المحسنات البديعية، وحشو مقاماته بالحكم والأمثال والشعر والألغاز والأحاجي وضروب التشبيهات والاستعارات والكنيات، بالإضافة إلى الاقتباس من القرآن الكريم، في نفس الجو من روح الفكاهة والظرف، غير أنه فاق بديع الزمان في كثرة الغريب، وكانت مقامته أكثر تكلفاً وتصنعاً وإغراقاً في البديع والطباق والتورية، فكانت على درجة عالية من التعقيد والصعوبة والإيهام، وقد تُرجمت مقاماته إلى لغات عدة، ووقف عليها العديد من الأدباء والكتّاب، وصارت إلهاماً لمن جاء بعده؛ نظراً إلى تمام حبيكتها، وإغراقها في البديع والغريب، ومن الجدير بالذكر أن مقامات البديع ومقامات الحريري، قد انشغل مؤلفاها بالعناية بالصناعة اللفظية أكثر من العناية بروح المعاني؛ حيث إن المقامة فنُّ تصنيعٍ وتأنُّقٍ لفظيٍّ وإغراقٍ في البديع من الدرجة الأولى.

وقد عالجها طائفة من الكتّاب لم يبلغوا شأن الهمداني والحريري، ومن أمثلة ما كُتب فيها: المقامات السرقطية لابن الأشركوني القرطبي الأندلسي، ومقامات الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ / ١١٤٣م)، والمقامات المسيحية لأبي العباس يحيى ابن



سعيد النصراني الطبيب (ت: ٥٨٦هـ / ١١٩٠م)، ومقامات الرّازي لأحمد ابن الأعظم الرازي (ت: ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)؛ وظل فن المقامة نشطاً قرونًا طويلة بقيّة العصر العباسي وعصر الدولة التركية، حتى ضُغِفَ لاحقًا مع ضعف مذهب الصنعة البديعية وذهابها عن أذواق الكتّاب فيما بعدُ مع بدايات عصر النهضة الحديثة؛ إذ إن المقامات كانت وليدةً لعصر الزخرف والصناعة اللفظية، وُلدت في نشاطها وخمدت بخمودها، وقد ترك هذا الفن الرائع في عالم النثر الأدبي تراثًا عظيمًا جليلاً، لا يخلو من المتعة والفائدة الأدبيّة.

ومن نماذج المقامة ما جاء في المقامة القردية لبديع الزمان الهمذاني، وهي من أقصر مقاماته، وتتجسد فيها ملامح هذا الفن الممتع وخصائصه، يقول فيها: "حدّثنا عيسى بن هشام قال: بَيْنَا أنا بمدينة السلام، قافلًا من البلد الحرام، أميس ميس الرجلّة، على شاطئ الدجلة، أتأمل تلك الطرائف، وأتقصّي تلك الزخارف؛ إذ انتهيت إلى حلقة رجال مزدحمين، يلوي الطرب أعناقهم، ويشق الضحك أشداقهم، فساقني الحرص إلى ما ساقهم، حتى وقفت بمسمع صوت رجل دون مرأى وجهه؛ لشدة الهجمة وفرط الزحمة، فإذا هو قرّاد يُرَقِّص قِرْدَهُ، ويضحك من عنده، فرقصت رقص المخرج، وسرت سير الأعرج، فوق رقاب الناس، يلفظني عاتق هذا لسرّة ذاك، حتى افترشت لحية رجلين، وقعدت بعد الأين، وقد أشرقني الخجل بريقه، وأرهقني المكان بضيقه، فلمّا فرغ القرّاد من شغله، وانتفض المجلس عن أهله؛ قمت وقد كساني الدهش حُلَّتّه، ووقفت لأرى صورته، فإذا هو -والله- أبو الفتح الإسكندري، فقلت: ما هذه الدناءة ويحك؟! فأنشأ يقول:

الذَّنْبُ لِلْأَيَّامِ لَا لِي فَاغْتَبْ عَلَى صَرْفِ اللَّيَالِي
بِالْحُمُقِ أَدْرَكْتُ الْمُنَى وَرَفَلْتُ فِي حُلِّ الْجَمَالِ

١ تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص ٢٩٣).
٢ مقامات بديع الزمان الهمذاني (ص ١٢٠ - ١٢١)، شرح محمد عبده، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة- مصر، ط ٣، ٢٠١٩م.

أعلام الكتاب

١- ابن المقفع

ترجمته!

وُلد عبد الله ابن المقفّع في البصرة بالعراق عام (١٠٦هـ / ٧٢٤م) وهو فارسي الأصل، مجوسي، اسمه روزبه بن داذويه، كان أبوه عاملاً من عمّال خراج فارس للحجاج بن يوسف الثقفي زمن بني أميّة، فظهرت منه خيانة واختلس بعض الأموال، فضربه الحجاج وعذّبه تعذيباً شديداً حتى تقفّعت يداه (ت: يَبَسَتْ)، فعُرف بالمقفّع، وورث ولده لقبه فعُرف بابن المقفّع.

ونشأ ابن المقفّع في ولاء بني الأَهم، وهم أهل فصاحة وبلاغة، فنال من تلك النشأة قدراً رفيعاً من الأدب واللغة، واعتنى به أبوه وأحسن تنشئته، فأكبَّ على الثقافة الفارسية، واختلط بالعرب، فأتقن اللغتين العربية والفارسية، فارتقت بلاغته، وعُرفت موهبته، واستقامت له مفردات اللغة، فذاع بيانه، ولفت انتباه الناس، وعمل كاتباً في بعض دواوين وُلاة بني أميّة أواخر عهدهم، ومع إقبال الدولة العباسية عمل كاتباً لعيسى بن عليٍّ عمّ الخليفَتين السَّفَّاح والمنصور، وعلى يديه أسلم، ورُوي أنه قال لعيسى: لقد دخل الإسلام في قلبي، وأريد أن أسلم بين يديك؛ فقال له عيسى: ليكن ذلك بمحضٍ من القوَاد ووجوه الناس، فإذا كان الغد فاحضر؛ فلمّا حضر الطعام أخذ ابن المقفع يأكل ويزمزم على عادة المجوس، فقال له عيسى: أترمزم وأنت على عزم الإسلام؟! فقال: أكره أن أبيت على غير دين؛ فلمّا أصبح؛ أسلم وتسعّى بعبد الله، وتكئّى بأبي محمد.

^١ انظر: الأدب الصغير والأدب الكبير، ابن المقفع (ص ٧- ١٠)؛ كليله ودمنة، عبد الله ابن المقفع (ص ٧- ١٠)، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة- مصر، ط ٨، ٢٠٢٠م تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص ١٦٣ - ١٦٤)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٥١ - ٥٢).

وقد عُرف ابن المقفّع بِسعةِ عِلْمِهِ، ورُقِّي أدبه، وحُسْنِ خُلُقِهِ، وذكائه وبُعْدِ أَفْقِهِ، وفصاحةِ منطقة، ونُضجِ عقله، وكان نبيل الخُلُقِ وقورًا، جوادًا مترفعًا عن الدُّنْيا، سخيًّا ذا مروءة، وكان مبسوط الحال بسبب وظيفته، وتحصّل منها على أموال كثيرة، فكان يُطعم الطعام ويقوم لأصحاب الحاجات، وامْتَدَحَ مِنْ قِبَلِ معاصريه بالكرم والخلق والجود والذكاء، وكان دقيق الملاحظة بارعًا، وكان ذا سعة في المعرفة، وإصابة في الرأي، فقيل فيه: إِنَّهُ لم يكن من العرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد الفراهيدي، ولا من العجم من هو أذكى من ابن المقفّع؛ ويقال: إِنَّهُما التَّقْيَا وَتَحَادَّثَا ثم افترقا بعد ثلاث، فسُئِلَ الخليل: كيف رأيت عبد الله؟ قال: ما شئت من علم وأدب، إلا أَنَّ عِلْمَهُ أَكْثَرَ مِنْ عَقْلِهِ؛ وسُئِلَ ابن المقفّع: كيف رأيت الخليل؟ فقال: ما شئت من علم وأدب، إلا أَنَّ عَقْلَهُ أَكْثَرَ مِنْ عِلْمِهِ؛ ويقال: إِنَّ ابن المقفّع أدب نفسه بنفسه؛ إِذْ رَوَى عَنْهُ الْأَصْمَعِيُّ أَنَّهُ قَدْ سُئِلَ يَوْمًا: مَنْ أَدَبُكَ؟ فقال: نفسي؛ إِذَا رَأَيْتُ مِنْ غَيْرِي حَسَنًا أَتَيْتُهُ، وَإِنْ رَأَيْتُ قَبِيحًا أَبَيْتُهُ.

وقد عمل ابن المقفّع كاتبًا لدى عيسى بن عليٍّ، ثم لأخيه سليمان أثناء ولايته على البصرة، ولم يعيش ابن المقفّع طويلًا بعد إسلامه؛ إِذْ ما لبث أن قُتِلَ بِإِعَازٍ مِنْ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ؛ لِخِلَافٍ مَعَهُ، وَكَانَ سَبَبَ مَقْتَلِهِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَلِيٍّ قَدْ أَعْلَنَ الثُّورَةَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْمَنْصُورِ، مَعْتَرِضًا عَلَى خِلَافَتِهِ، فَلَمَّا مَالَتْ كَفَّةُ الْمَنْصُورِ؛ فَرَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى أَخِيهِ عَيْسَى وَسُلَيْمَانَ فِي الْبَصْرَةِ، فَطَلَبَهُ الْمَنْصُورُ مِنْهُمَا، فَعَرَضَا عَلَيْهِ أَنْ يَسْلِمَاهُ إِيَّاهُ مُقَابِلَ الْأَمَانِ، فَقَبِلَ، وَطَلَبَا مِنْ ابْنِ الْمَقْفَعِ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ صِيغَةَ الْأَمَانِ، وَيَبْدُو أَنَّ ابْنَ الْمَقْفَعِ تَشَدَّدَ فِي صِيَاغَةِ الْأَمَانِ الَّذِي كَتَبَهُ لِيَوْقَعَ عَلَيْهِ الْمَنْصُورُ؛ إِذْ جَاءَ فِيهِ: "وَإِنْ أَنَا نَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَلِيٍّ أَوْ أَحَدًا مِمَّنْ أَقْدَمَهُ مَعَهُ، بِصَغِيرٍ مِنَ الْمَكْرُوهِ أَوْ كَبِيرٍ، أَوْ أَوْصَلْتُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ ضَرَرًا، سَرًّا أَوْ عَلَانِيَةً، عَلَى الْوُجُوهِ وَالْأَسْبَابِ كُلِّهَا تَصْرِيحًا أَوْ كِنَايَةً أَوْ بِحِيلَةٍ مِنَ الْحِيلِ؛ فَأَنَا نَفِيٌّ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَمَوْلُودٌ لَغَيْرِ رَشْدَةٍ، وَلَقَدْ حَلَّ لِجَمِيعِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ خَلْعِي وَحَرْبِي وَالْبِرَاءَةَ مِنِّي، وَلَا بَيْعَةَ لِي فِي رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا عَهْدَ وَلَا ذِمَّةَ، وَقَدْ

وجب عليهم الخروج عن طاعتي، وإعانة من ناوأني من جميع الخلق"، فكان هذا النص شديداً على المنصور، وسأل عن كاتبه وقال: أما أحد يكفينيه؟ ثم كتب فيه لاحقاً لسفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب أمير البصرة، وتصادف أنه كان يضطغن على ابن المقفع، وكان ابن المقفع يسخر من أمه ويعيب كبر أنفه، فما لبث أن طلبه بأمر المنصور، وأحضره، ثم أحضر تنوراً، وملى وقوداً حتى حميت ناره، وأمر بابن المقفع فقطعت أطرافه عضواً عضواً، وأخذ يلقيها في التَّنُور وهو ينظر، حتى أتى على جميع جسده، ثم أطبق عليه التنور وقال: ليس عليّ في المثلة بك حرج؛ لأنك زنديق، وقد أفسدت الناس!! وبهذه الطريقة البشعة مات ابن المقفع عام (١٤٢هـ / ٧٥٩م) أو عام (١٤٥هـ / ٧٦٢م)، ولم يبلغ الأربعين.

ومن المعروف أن ابن المقفع هو أوّل من قُتِلَ بتهمة الزندقة، وقيل: إنّه زنديق مانوي، اتخذ من الاسلام ستاراً لقناعاته، وإن المنصور لم يأمر بقتله إلا لما تأكّدت عنه زندقته؛ وأكّد أمر زندقته كلٌّ من: البغدادي صاحب الخزانة، والأصفهاني صاحب الأغاني، وابن خلكان، والمسعودي وغيرهم، ورؤي أن الخليفة المهدي ابن المنصور قال: ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع؛ ولكن بمراجعة سيرته فإننا نشك فيما رُوي عن زندقته؛ فقد كان ابن المقفع سخياً، وقوراً، على خلق وعلم وأدبٍ جيّم، ولم يظهر عليه انحراف أو مجون، ولو كان زنديقاً لظهر من ذلك شيء في أخلاقه، ولدعا إلى ذلك في كتاباته، ولكن ما انتهى إلينا من كتاباته خالٍ تماماً من الزندقة، ولا يلمح فيها أي أثر فيها، صحيح أن بعض كتاباته سقط من يد الزمن، فلا نحكم من هذا الوجه بدقّة؛ ولكن ما انتهى إلينا منها نلمح فيه رفعة خلقه، وسموّ علمه، وسعة معرفته، وإعجابه بالقرآن الكريم، وهي صفات لا تتفق مع الزندقة، كما أن سياق الأحداث السياسية يؤكد بالفعل ان ابن المقفع قُتِلَ لأسباب سياسية وليس بسبب الزندقة، ومن المعروف أن الزندقة كانت تهمة شائعة، وكانت تُتخذ في كثير من الأحيان مبرراً ظاهرياً للتخلّص من الخصوم، وهو ما يجعلنا نشعر ببراءة ابن

المقفع من تهمة الزندقة، وأنها لم تكن غير مبرر ظاهري لقتله، أو ربّما كان في بعض ما ترجمه بعض أفكار المانوية فأخذ بها، والله أعلم.

نثره:

كان ابن المقفع مطلعًا على الأدب الفارسي، وكان مختلطًا بالعرب، فاستخلص من امتزاج الثقافتين أسلوبه الأدبي المولّد الخاص، وكان هو أوّل من أرساه بين الكتّاب، وكان هذا الأسلوب غاية في الرّوعة والفخامة؛ فقد كان ابن المقفع آيةً في البلاغة والبيان، وامتاز أسلوبه بالرصانة والسهولة، وفخامة اللفظ وجزالته دون اللجوء إلى الغريب، وبالميل إلى الإيجاز مع غزارة المعاني؛ حيث كان يصيب معاني عديدة في أقلّ عددٍ من الألفاظ، وامتاز بتسلسل الأفكار في سياق من الهدوء والمنطق، وبارتقاء الصور والأخيلة وانتقاء اللفظ وإصابة المعنى، ومثانة السبك وحُسن الرصف، وكان أسلوبه خاليًا من السجع والتراطف والتنميق اللفظي إلا ما جاء عفوًّا، وكان يُصقل عباراته ويُقسّم جملة إلى فقرات يمكن الوقوف عندها، ويظهر في كتاباته أثر الاقتباس من القرآن الكريم في مواضع عدّة؛ حيث كان معجبًا ببلاغة القرآن، وكان بارعًا في التحميدات، وهو بجانب أسلوبه في الإنشاء كان مترجمًا حاذقًا ماهرًا، لا تلمح في ترجمته أيّ خلل أو تعقيد.

آثاره ومؤلفاته:

ترك ابن المقفع بعض الآثار القيمة والمؤلفات المهمّة؛ منها: "الأدب الكبير" وهو رسالة طويلة عبارة عن فصول تتحدّث حول النصيح وبعض ما يتصل بالسلطان والسياسة والحكم وبعض صفات الصّديق، و"الأدب الصغير" وهو رسالة قصيرة على نمط الأدب الكبير، تتضمّن بعض الوصايا الخلقية والاجتماعية؛ وله بعض الرسائل مثل: "الرسالة اليتيمة"، و"رسالة الصحابة" ويُعنى فيها ببعض ما يخصّ أصحاب السلطان ومن يخصّهم بمناذمته، وقد كتبها إلى

المنصور، وقد احتفظ ابن طيفور في كتابه "اختيار المنظوم والمنثور" بعددٍ من رسائل ابن المقفع وتحميداته.

وقد ترجم العديد من الآثار عن الفرس، مثل كتاب "التاج في سيرة أنوشروان"، و"مزدك" من التراث الديني للفرس، و"خداي نامه" في سير ملوك الفرس، و"آيين نامه" وهو في أنظمة الملك الساساني، كما ترجم كتب أرسطو الثلاثة في المنطق، على أن أشهر ما ترجمه هو كتاب "كلیلة ودمنة" وهو كتاب هندي الأصل، تُرجم إلى الفارسية، ثم نقله ابن المقفع إلى العربية في سياق بليغ رصين عذب، غاية الدقة والمتانة، والكتاب عبارة عن مجموعة من القصص التي صيغت على ألسنة الحيوانات والطيور، وهو كتاب عظيم القدر والقيمة الفنيّة، مليءٌ بالحكم الرائعة، وله مذاق خاص وممتعة في قراءته؛ لروعة المحتوى وقوة الأسلوب، كما كان له أثره في إرساء قواعد الترجمة، وشيوع فن القصة الأدبية بين العرب، وقد طُبِعَ طبعات عديدة^١.

نماذج من نثره:

- قال في الأدب الصغير في "محاسبة النفس"؛ "وعلى العاقل أن يتفقّد محاسن الناس، ويحفظها على نفسه، ويتعهّدها بذلك مثل الذي وصفنا في إصلاح المساوي.

وعلى العاقل أن لا يخادن، ولا يصاحب، ولا يجاور من الناس -ما استطاع- إلا إذا فضل في العلم والدين والأخلاق فيأخذ عنه، أو موافقاً له على إصلاح ذلك فيؤيد ما عنده، وإن لم يكن له عليه فضل؛ فإن الخصال الصالحة من البر لا تحيا، ولا تُنمى إلا بالموافقين والمؤيدين، وليس لذي الفضل قريب ولا حميم أقرب إليه ممّن وافقه على صالح الخصال، فزاده وثبّته. ولذلك زعم بعض الأولين أن صحبة بليدٍ نشأ مع العلماء؛ أحبّ إليهم من صحبة لييبٍ نشأ مع الجهّال".

^١ انظر: كلیلة ودمنة، ابن المقفع (ص ١٠ - ١٥)؛ الفهرست، ابن النديم (ص ٣٦٨).

^٢ انظر: الأدب الصغير والأدب الكبير، ابن المقفع (ص ٢٥).

- وقال في الأدب الكبير في الحديث عن "نصح السلطان" "إذا كنت إنما تضبط أمورك، وتصول على عدوك بقومٍ لست منهم على ثقة من دينٍ ولا رأيٍ ولا حفاظٍ من نيّة؛ فلا تنفعنك نافعة حتى تحولهم -إن استطعت- إلى الرأي والأدب الذي بمثله تكون الثقة، أو تستبدل بهم إن لم تستطع نقلهم إلى ما تريد، ولا تغرنك قوّتك بهم على غيرهم؛ فإنّما أنت في ذلك كراكب الأسد الذي يها به مَنْ نظر إليه، وهو لمركبه أهيب".

- وممّا كتب في كلیلة ودمنة؟ "ثم إن الصيَّاد نصب شبكته، ونثر عليها الحَبَّ، وكمن قريبًا منها، فلم يلبث إلا قليلًا حتى مرَّت به حمامة يُقال لها المطوَّقة، وكانت سيِّدة الحمام ومعها حمام كثير؛ فعميت هي وصواحيها عن الشَّرْك، فوقعن على الحَبِّ يلتقطنه، فعلقن في الشبكة كلُّهن، وأقبل الصيَّاد فرحًا مسرورًا. فجعلت كل حمامة تضطرب في حبالها، وتلتمس الخلاص لنفسها، قالت المطوَّقة: لا تخاذلن في المعالجة، ولا تَكُنَّ نفس إحداكنَّ أهم إلها من نفس صاحبتها؛ ولكن نتعاون جميعًا فنقلع الشبكة، فينجو بعضنا ببعض؛ فقلعن الشبكة جميعهنَّ بتعاونهنَّ، وعلون في الجو، ولم يقطع الصياد رجاءه منهنَّ، وظنَّ أنَّهنَّ لا يجاوزن إلا قريبًا ويقعن".

- ومن رسائله؟ "أما بعد: فقد أتاني كتابك فيما أخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح ما قبَّلَكَ، وفي الذي ذكرت من ذلك نعمة مجلَّلة عظيمة، نحمد عليها وليَّها المنعم المُفضِّل المحمود، ونسأله أن يلهمنا وإياك من شكره وذكره ما به مزيدها، وتأدية حقِّها.

وسألت أن أكتب إليك بخبرنا، ونحن من عافية الله وكفايته ودفاعه على حال لو أطنبتُ في ذكرها؛ لم يكن في ذلك إحصاء للنعمة، ولا اعتراف؛ لكنَّه الحق، فنرغب إلى الذي تزداد نعمه علينا في كل يوم وليلة تظاهراً؛

١ انظر: المصدر السابق (ص ٧٩).

٢ انظر: كلیلة ودمنة، عبد الله ابن المقفع (ص ٢٢٤).

٣ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٣/ ٥٩).

أَلَّا يجعل شكرنا منقوصًا ولا مدخولًا، وأن يرزقنا مع كل نعمة كفاءها من المعرفة بفضله فيها، والعمل في أداء حقِّها، إنَّه وليُّ قدير".

- ومن رسالته اليتيمة! "فَمَنْ كان سائلًا عن حقِّ أمير المؤمنين في معدنه؛ فإنَّ أعظم حقوق الناس منزلة، وأكرمها نسبة، وأولاها بالفضل؛ حقُّ رسول الله ﷺ نبيِّ الرحمة، وإمام الهدى، ووارث الكتاب والنُّبوة، والمهيمن عليهما، وخاتم النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشَّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ، بعثه الله بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، ثم هو باعته يوم القيامة مقامًا محمودًا، شرع الله به دينه، وأتمَّ به نوره على عهده، ومَحَق رؤوس الضلالة وجبابرة الكفر، وخَوَّلَه الشفاعة، وجعله في الرِّفِيقِ الأعلى ﷺ".

^١ انظر: المصدر السابق (٣/ ٥٢).

٢- سهل بن هارون

ترجمته!

هو سهل بن هارون بن راهيون الدستميساني، فارسي الأصل، وُلد في دستميسان، أو في ميسان، أو واسط، أو البصرة، نحو عام (١٤٠هـ / ٧٥٨م) أو بعد ذلك بقليل، انتقل البصرة ودرس فيها حتى صار أديبًا بارعًا، وكاتبًا وشاعرًا، وقد أشاد الجاحظ ببراعته وفصاحته، وقد انتقل إلى بغداد فاتصل بهارون الرشيد والبرامكة؛ حيث ألحقه يحيى بن خالد البرمكي بالدواوين، ولما تأسست مكتبة بيت الحكمة؛ عُيِّن فيها للإشراف على عمليات الترجمة وبعض الكتب بها. وقد شهد سهل بن هارون نكبة البرامكة، وجعله هارون الرشيد صاحب ديوانه بدلًا من يحيى البرمكي، واتصل بالفضل بن سهل مستشار المأمون، وهو الذي قربته إليه، وقد اعتزل سهل الفتنة بين الأمين والمأمون، حتى إذا آلت الخلافة إلى المأمون عيَّنه خازنًا لبيت الحكمة.

وكان سهل بن هارون كاتبًا بليغًا، عُرف بالجلَم والحكمة وحُسن العشرة، ولكن كانت فيه شعوبية شديدة وتحاملٌ للعجم على العرب، وقد اشتهر بالبُخل، وقصة ذلك أنه كتب رسالة يمدح فيها البخل، وأرسلها إلى الحسن بن سهل وزير المأمون، فوقَّع عليها قائلاً: يا سهل؛ لقد مدحت ما ذمَّ الله، وحسَّنت ما قبح الله، وما يقوم صلاح لفظك بفساد معنالك، وقد جعلنا ثواب عملك سماع قولك، فما نعطيك شيئًا.

وقد مات سهل بن هارون نحو عام (٢١٥هـ / ٨٣٠م).

^١ انظر: الفهرست، ابن النديم (ص ١٢٠)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣/ ١٤٠٩)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٢١٢ - ٢١٣)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٥٢٦ - ٥٢٧).

نثره وآثاره:

سار سهل بن هارون من بعض الوجوه على نهج ابن المقفع في الرُّسُل، لكنه زاد في أسلوبه رَقَّةً وسلاسةً وميلاً إلى التَّرادف والازدواج، وامتاز نثره بغزارة في المعنى، وعذوبة في اللفظ، ووضوح في التعبير، لا تعوزه مظاهر الحُسن وجمال التَّعبير والصياغة ودقَّة التفكير، ولا يظهر في نثره سجعٌ إلا عفواً، وليس في نثره تكلفٌ أو افتعال، ويظهر في كلامه أثر الحكمة، وله شيءٌ من الشعر الوجداني. ومن مؤلفات سهل بن هارون بجانب ديوان رسائله: "ثعلبة وعفرة"، و"النمر والثعلب" - وهما على نفس فكرة "كليلة ودمنة" - و"شجرة العقل"، و"الهندلية والمخزومي"، و"الوامق والعذار"، وكتاب "الضرتين"، وكتاب "ندود وودود ولدود"، وكتاب "تدبير الملك والسياسة"، وكتاب إلى عيسى بن أبان في القضاء^١.

من رسائله:

- كتب إلى صديق له: "بلغني خبر الفَترَة في إمامها وانحسارها، والشَّكَاة في حلولها، وارتحالها، فكاد يشغل القلق بأوَّلَه عن السكون لآخره، وتُذهل الحيرة في ابتدائه عن المسرَّة في انتهائه، وكان تغيُّرى في الحالين بقدرهما؛ ارتباعاً للأولى، وارتباحتاً للآخرى".
- وكتب إلى صديق آخر: "أما بعد: فالسلام على عهدك، وداع ذي ودٍّ ضنين بك، في غير مقلية لك، ولا سلوة عنك؛ بل استسلام للبلوى في أمرك، وإقرار بالعجز عن استعطافك إلى أوان فيئتيك، أو يجعل الله لنا دولة من رملك".
- وكتب في رسالة طويلة يفضل الزجاج على الذهب: "الزجاج مجلُّو نوري، والذهب متاع سائر، والشَّراب في الزجاج أحسن منه في كلّ معدن، ولا

^١ انظر: الفهرست، ابن النديم (ص ٣٧٣ - ٣٧٤).

^٢ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٣/ ٣٩٤).

^٣ انظر: المصدر السابق (٣/ ٣٩٥).

^٤ انظر: المصدر السابق (٣/ ٣٩٥).



يُفَقِّدُ مَعَهُ وَجْهَ النَّدِيمِ، وَلَا يُثْقِلُ الْيَدَ، وَلَا يَرْتَفِعُ فِي السَّوْمِ، وَاسْمُ الذَّهَبِ
يُنْطَبِرُ مِنْهُ، وَمِنْ لَوْمِهِ سُرْعَتُهُ إِلَى اللَّثَامِ، وَهُوَ فَاتِنٌ فَاتِكٌ لِمَنْ صَانَهُ، وَهُوَ
أَيْضًا مِنْ مَصَايِدِ إِبْلِيسَ، وَلِذَلِكَ قَالُوا: أَهْلَكَ الرِّجَالُ الْأَحْمَرَانِ، وَالزَّجَاجُ
لَا يَحْمِلُ الْوَضْرَ، وَلَا يَدَاخِلُهُ الْغَمْرُ، وَمَتَى غُسِّلَ بِالْمَاءِ وَحْدَهُ عَادَ جَدِيدًا،
وَهُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْمَاءِ، وَصِفَتُهُ عَجِيبَةٌ، وَصِنَاعَتُهُ أَعْجَبُ....".

١ الوضر: الدَّرن والدَّسَم. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٥ / ٢٨٤).

٣- أحمد بن يوسف

ترجمته!

هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صُبَيْح، من موالى بني عجل، وهو لِأُسْرَةٍ مرموقة لها باعٌ في الأدب والكتابة؛ فأبوه يوسف كان كاتبًا لعبد الله بن عليٍّ عمِّ الخليفة المنصور، وله شعر وأدب، وأخوه القاسم شاعر وأديب، وقد ورث أحمد موهبة الكتابة عن أبيه كذلك، وله شعر حسن.

ولمَّا قُتِل الخليفة الأمين؛ طلب طاهر بن الحسين من الكتَّاب أن يكتبوا إلى الخليفة المأمون يبيِّثرونه بالنصر والخلافة، فأطالوا، لكنه طلب الإيجاز، فوصفوا له أحمد بن يوسف، فاستدعاه، وكتب له كتابًا أرضاه، ويقال: إنه لمَّا حُمِلَت رأس الأمين إلى أخيه المأمون وهو بمرو؛ أمر بإنشاء كتابٍ عن طاهر ابن الحسين ليُقرأ على الناس، فكُتِبَت عدة كتب لَمْ يَرْضَها المأمون ووزيره الفضل بن سهل، ثم كَتَبَ لهما أحمد بن يوسف، فلمَّا اطَّلَعَ الفضل على كتابه أُعْجِبَ به وجعله على ديوانه.

وعلا صِيتَه في دواوين الخلافة منذ ذلك الوقت، واستكتبه الخليفة المأمون بمشورة وزيره الحسن بن سهل أخي الفضل، بعد وفاة كاتبه أحمد بن أبي خالد، ويُروى أَنَّهُ أشار عليه برجلين؛ هما: أحمد بن يوسف وثابت بن يحيى الرازي، ثم قدَّم ابن يوسف؛ كونه أعرق في الكتابة، وأحسن بلاغة، وأكثر علمًا، فمكث في ديوان المأمون يردُّ على الرسائل ويوصل القصص والشكاوي إلى المأمون ويوقِّع عليها، وما لبث أن تُوِّفِّيَ عام (٢١٣هـ / ٨٢٨م).

وكان ابن يوسف معروفًا بالبلاغة والعلم واتِّساع الأدب ومروءة الخلق، متصفًا بالجود والكرم، وله أخبار شتى مع المأمون وعدد من القادة، يقال: إِنَّ عبد الله بن طاهر بن الحسين لمَّا خرج إلى خراسان واليًا عليها؛ قال لابنه محمد: إن عاشرتَ أحدًا بمدينة السلام؛ فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب؛ فإن له مروءة.

^١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٢/ ٥٦٠ - ٥٦٩).

نثره:

يُعتبر أحمد بن يوسف آية في البلاغة والبيان، وفي كتاباته تأثر بعبد الحميد ابن يحيى الكاتب، وكان أسلوبه غاية في العذوبة والسلاسة، فقد كان عذب اللفظ، رقيق الحاشية، واضح المعنى، يميل إلى مزاجية العبارات، والإيجاز على الأغلب، وربما لجأ أحياناً إلى الإطناب مثلما كان في رسالة الخميس التي كتبها للمأمون، وكانت تُقرأ على شيعة العباسيين في خراسان، وكذلك رسالة الشكر والتعزية التي كتبها عن المأمون إلى الحسن بن سهل يستوزه ويعزيه في مصرع أخيه الفضل؛ ويمتاز أحمد بن يوسف ببراعة التصوير، ودقّة التعبير، وروعة المعاني، وحُسن البيان، ورصانة القول، بالإضافة إلى الاقتباس من القرآن الكريم، وفي كتاباته ميلٌ إلى التّنميق والسّجع الذي ظهر في عباراته بوضوح، وإن لم يكن ملزماً، وكان بارعاً في التّحميدات والتّوقيعات.

نموذج من رسائله:

- كتب في رسالة عن طاهر بن الحسين إلى الخليفة المأمون يبشّره بالنصر، وهو أول علوّ شأنه؛ "أما بعد: فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النّسب واللّحمة، فقد فرّق حكم الكتاب والسّنة بينه وبينه في الولاية والحُرمة؛ بمفارقته عصمة الدّين، وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين، يقول الله -عزّ وجلّ- فيما اقتصّ علينا من نبأ نوح وابنه: (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) ولا صلة لأحدٍ في معصية الله، ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله.

وكتبْتُ إلى أمير المؤمنين، وقد قتل الله المخلوع وردّاه رداء نكثه، وأحصد لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظر من سابق وعده،

^١ جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٣/ ٣١٦-٣١٧).

^٢ سورة هود (٤٦).

فالأرض بأكنافها أوطأ مهادٍ لطاعته، وأتبع شئاً لمشيئته، وقد وجَّهَتْ إلى أمير المؤمنين بالدُّنيا وهو رأس المخلوع، وبالأخرة وهي البُرْدَة والقضيب. والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلومٌ حقُّه، والكائد له مَنْ خترَ عهده، ونقض عقده، حتى ردَّ به الألفة بعد فُرقتها، وجمع به الأمة بعد شتاتها، وأحيا به أعلام الدِّين بعد دروسها، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته".

- ومن أروعِ تجميداته عن الخليفة لولاته: "أما بعد: فالحمد لله ذي المنن الظاهرة، والحُجج القاهرة، الذي قطع بينه وبين عبادِه المعذرة، ورادف عليهم البَيِّنَة، ومهلة النَّظرة، وجعل ما آتاهم من حظوظ الدنيا بالقَسَم والمكتوب، وما ذخر لهم من ثواب الآخرة بالنُّجج المطلوب، فهم في العاجلة شركاء في النِّعمة، وفي الآجلة شتَّى في الرَّحمة يختصُّ بها أهلها المنتفعين بما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحال بعد الحال، المبادرين بأعمالهم إلى انقضاء مدد آجالهم، قبل حلول ما يُتوقَّع، وفوت ما لا يُرتَجع".

- ومن كتابه يهَيِّ صديقاً لمولودٍ له: "بارك الله في مولودك الذي آتاك، وهنَّاك نعمته بعطيَّته، وملاك كرامته بفائدته، وأدام سرورك بزيادته، وجعله باراً تقياً، ميموناً مباركاً زكياً، ممدوداً له في البقاء، مبلِّغاً غاية الأمل، مشدوداً به عضدك، مكثراً به ولدك، مُداماً به سرورك، مدفوعاً به الآفات عنك، مشفوعاً بأكثر العدد، من طيِّب الولد".

- ومن توقيعاته إلى عامل كثرت الشكايا ضده: "الحقُّ واضحٌ لمن طلبه، تهديده محجَّته، ولا تُخاف عثرته، وتؤمِّن في السِّرِّ مغبَّتَه، فلا تنتقلنَّ منه، ولا تعدلنَّ عنه؛ فقد بالغتُ في مُناصحتك، فلا تحوجني إلى معاودتك؛ فليس بعد التقدمة إليك، إلا سطوة الإنكار عليك".

^١ جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٣/ ٣٣٤).

^٢ المصدر السابق (٣/ ٣٦٧).

^٣ المصدر السابق (٤/ ٣٩٥).

٤- عمرو بن مسعدة

ترجمته:

هو أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صُول، تركي الأصل، أسلم جدُّه صول لما فتح يزيد بن المهلب جرجان في خلافة سليمان بن عبد الملك الأموي، وكان أبوه مسعدة مؤلّي لخالد بن عبد الله القسري أمير العراق زمن بني أمية، وعمل كاتبًا له، فلمّا قامت الدولة العباسية عمل كاتبًا في دواوين السَّقَّاح والمنصور، وكان يكتب بين يدي خالد بن برمك ثم أبي أيوب المرياني ويزري المنصور.

وأما ولده عمرو بن مسعدة فقد نشأ في بغداد، وكان نبيلًا بليغًا ذائع الصّيت، وكان يوقّع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي، فلمّا وقّع مرّة: "قليلٌ دائم خيرٌ من كثيرٍ منقطع"؛ ضرب بيده على ظهره وقال: أيُّ وزيرٍ في جلدك؟! كثير منقطع

وقد اتّصل عمرو أولًا بالفضل بن سهل وزير المأمون في خراسان، ثم علا قدره لدى المأمون وعمل كاتبًا في دواوينه أثناء خلافته، وكان ممدّحًا عالي القدر، جوادًا محبوبًا، وقد وُلّي للمأمون أعمالًا جليلة، وألحقه بذوي المراتب العليا، وكان يُعجب ببلاغته وبيانه، وقال عنه الفضل بن سهل وزير المأمون: هو أبلغ الناس، ومن بلاغته أنّ كل أحدٍ إذا سمع كلامه؛ ظنَّ أنّ يكتب مثله، فإذا رآه؛ بُعدَ عليه.

مات عمرو بن مسعدة بين عامي (٢١٤-٢١٧ هـ / ٨٢٩-٨٣٣ م)، ويُقال: إنه أثرى ثراءً عظيمًا قبل موته، حتى بلغ ماله ثمانين ألفَ ألفِ درهم، ورُفِعت بذلك المبلغ رقعةٌ إلى المأمون، فوقّع عليها: هذا قليل لمن اتّصل بنا، وطالت خدمته لنا، فبارك الله لولده فيه!

^١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٥/ ٢١٢٩ - ٢١٣١)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ٤٧٥ - ٤٧٨).

نثره:

كان عمرو بن مسعدة جزل العبارة، واضح المقاصد، جميل المعاني، يميل إلى الإيجاز من الدرجة الأولى، حتى إنَّ رسائله القصار في ردوده على الواردات تكاد تكون توقيعات، وكان إيجازه من أعظم ما يُمتدَّح به، وأسلوبه سهل التراكيب، حسن السبك، مرهف الذوق، يمتاز بتخيُّر اللفظ، وبدقَّتِه في التعبير عن المعنى، وربما لجأ إلى مزاججة العبارة لكن دون العمد إلى الإطناب، وربما لجأ إلى السجع عفوًا.

من رسائله:

- كتب إلى الحسن بن سهل وزير المأمون يهنئه بمولود: "أما بعد: فإنَّ هبة الله لك هبة لأمر المؤمنين، وزيادته إيَّاك في عددك زيادة له في عدده؛ لمحلك عنده، ومكانك من دولته، وقد بلغ أمير المؤمنين أنَّ الله وهب لك غلاما سرًّا، فبارك الله لك فيه، وجعله بارًّا تقياً، مباركاً سعيداً زكياً".
- ودخل أحمد بن يوسف الكاتب على المأمون وفي يده كتاب، وهو يمعن النظر فيه ويعيد قراءته، ثم قال له: يا أحمد؛ أراك متفكراً فيما تراه مني؛ قال: نعم، وفيَّ الله أمير المؤمنين من المكاره، وأعاده من المخاوف؛ قال: لا مكروه إن شاء الله؛ ولكي قرأت كتاباً وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله في البلاغة؛ فإني سمعته يقول: "البلاغة التَّباعِد من الإطالة، والتَّقرُّب من البُغْيَة، والدَّلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى"، وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة، حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو ابن مسعدة إلينا؛ ورَمَى به إليَّ، فقرأته، فإذا فيه؟

^١ جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٣/ ٤٢٩).

^٢ المصدر السابق (٣/ ٤٣١)



"كتابي إلى أمير المؤمنين، ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة، على أحسن ما تكون عليه طاعة جندٍ تأخّرت أرزاقهم، وانقياد كُفأةٍ تراخت أُعطيائهم، واختلّت لذلك أحوالهم، والتأثت معه أمورهم".

- ومن إخوانيّاته ما كتبه قائلاً: "وصل إليّ كتابك، على ظمإٍ مَيٍّ إليه، وتطلّع شديدٍ، وبعد عهد بعيدٍ، ولومٍ مَيٍّ على ما مَسَسْتَنِي به من جفائك، على كثرة ما تابعتُ من الكتب، وعدمتُ من الجواب، فكان أوّل ما سبق إليّ من كتابك السرور بالنظر إليه؛ أنسًا بما تجدد لي من رأيك، في المواصلّة بالمكاتبة، ثم تضاعف المسرّة بخبر السّلامة، وعلم الحال في الهيئّة، ورأيتك بما تظاهرت من الاحتجاج في ترك الكتاب، سالكًا سبيل التّخلّص ممّا أنا مغلّصك منه، بالإغضاء عن إلزامك الحُجّة في ترك الابتداء والإجابة، وذكرت شغلك بوجوه من الأشغال كثيرة متظاهرة ممكنة، لا أجشّمك متابعة الكتب، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب، ويقنعي منك في كل شهر كتاب، ولن تلزم من نفسك في البرّ قليلاً، إلّا ألزمتُ نفسي منه كثيرًا، وإن كنت لا أستكثر شيئًا منك، أدام الله مودّتك، وثبّت إخاءك، واستماح لي منك، فرأيك في متابعة الكتب ومحادثتي فيها بخبرك، موفّقًا إن شاء الله".

^١ الثالث: ضعفت وتلجلجت. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/ ١٨٦).

^٢ جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٣/ ٤٣٣).

٥- ابن الزيات

ترجمته!

هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، المعروف بابن الزيات، وزير الخليفة المعتصم وابنه الواثق، كان جدُّه أبان رجلاً من أهل قرية تُدعى الدسكرة، يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد، فعُرِفَ بالزَّيات، وأما أبوه عبد الملك فكان تاجراً موسراً، وأراد من ولده محمد أن يتعلَّق بالتجارة، لكنَّه كان به ميلٌ إلى الأدب والشعر، ويحلم أن يحقِّقَ بذلك منصباً رفيعاً، فخالط الكتَّاب، ولازم الدواوين، فقال له ذات يوم: والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك، وليضرَّكَ؛ لأنَّك تدع عاجل المنفعة وما أنت فيه مكفٍّ، ولأبيك مال وجاه، وتطلب الآجل الذي لا تدري كيف تكون فيه!! فقال له ولده: والله لتعلمنَّ أيُّنا ينتفع بما هو فيه، أنا أم أنت!! ثم ذهب ومدح بقصيدة له الحسن بن سهل وزير المأمون بقُم الصُّلح، فوصله عليها الحسن بعشرة آلاف درهم، فعاد يباهي بها أباه، فقال له أبوه: لا أُلَمِّك بعدها على ما أنت فيه!!

وكان ابن الزيات أول أمره في جملة الكتَّاب، ثم بدأت تظهر موهبته، ويتألَّق نجمه، فكان أديباً فاضلاً معروفاً القدر، وكان واسع العلم والاضطلاع باللغة والأدب، فإذا اختلف جلساء الخليفة المعتصم في مسألة بالنحو رجعوا إليه - وكان شاباً- فسألوه وعرفوا جوابه؛ ويروى أنَّ أحمد بن عمار بن شاذي البصري وزير المعتصم، قرأ عليه كتاباً ورده من بعض عمَّاله، فيه ذكر الكلا، فقال له المعتصم: ما الكلا؟ فقال: لا أعلم؛ فغضب المعتصم وقال: خليفة أمِّي ووزير عامي!! وكان المعتصم بخلاف أخويه، ضعيف الكتابة، غير متبحِّر في العلم، ثم قال: أبصروا من الباب من الكتَّاب؛ فدخل عليه ابن الزيات، فسأله: ما الكلا؟ فقال: العُشب على الإطلاق، فإن كان طريّاً فهو الخلا، فإذا يبس فهو الحشيش..

^١ انظر: الأغاني، الأصفهاني (٢٣/ ٥٢ - ٧٥)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٥/ ٩٤ - ١٠٣).

ثم شرع في تقسيم أنواع النبات، فعلم المعتصم فضله وعلمه وأدبه، فقرّبه واستوزره وفوّض إليه شؤون الإدارة.

وظلّ ابن الزيّات وزيراً للمعتصم طيلة خلافته، حتى إذا جاء الواثق كان مبغضاً له، وهمّ بعزله برّاً بيمين له، إلا أنه تصادف أنّه طلب من الكتّاب أن يكتبوا كتاباً يتعلّق بالبيعة، فكتبوه، فلم يرّض ما كتبوه، فكتب ابن الزيّات كتاباً أعجب الواثق، فرضي به وعفا عنه وأقرّه على وزارته بنفس السُلطات التي كانت له في عهد أبيه.

وعاش ابن الزيات زمن المعتصم ثم الواثق في عزّة ومنعة، وكان موضع ثقة لدى الخليفة، مفوّضة له شؤون الحكم، فأقبلت عليه الدنيا، وكان ممدّحاً؛ حيث قصده عددٌ من الشعراء كأبي تمام والبُحتري وإبراهيم الصولي، فكان يصلّهم ويكافئهم، وكان على صلة جيدة ببعض الأعلام والكتّاب؛ مثل الحسن بن وهب والجاحظ، لكنه كان على عداوة بآخرين كالقاضي المعتزلي أحمد بن أبي دؤاد، وكان ابن أبي دؤاد رفيع القدر عند المأمون والمعتصم والواثق، وبينه وبين ابن الزيات مشاحنات، ويقال: إنه هجاه بقصيدة طويلة بلغت خمسين أو سبعين بيتاً، فلما بلغ هجاؤه ابن أبي دؤاد؛ رد عليه بيتين فقط قائلاً:

أَحْسَنُ مِنْ خَمْسِينَ بَيْتًا سُدِّي جَمْعُكَ إِيَّاهُنَّ فِي بَيْتٍ
مَا أَحْوَجَ الدَّسْتِ إِلَى مَطَرَةٍ تُذْهَبُ عَنْهُمْ وَضَرَّ الزَّيْتِ

لكن ابن الزيات كان -على سعة علمه، وروعة بيانه وأدبه- غليظاً قليل الرحمة، شديد القسوة، صعب العريكة، وبلغ به الأمر من فرط قسوته أنّه اتخذ تنوّراً من حديد ومسامير، كان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدّواوين المطلوبين بالأموال، فيدخلهم فيه حتى تدخل المسامير جسد الواحد منهم فيتألّم أشدّ ألّلم، فيقول: أيها الوزير؛ ارحمني؛ فيقول: الرحمة خور في الطبيعة؛ وما سبقه أحد إلى تلك العقوبة القاسية، وهي تكشف عن جانب قاتم في حياة ابن الزيات.

^١ الأغاني: الأصفهاني (٢٣ / ٦٠).

وظل ابن الزيات على مكانه من العزة والمنعة والوزارة، حتى مات الواصل عام (٢٣٢هـ/ ٨٤٦م) دون أن يستخلف، فمال ابن الزيات ونفر معه إلى تولية ابن الواصل وكان طفلاً، ولكن القادة الأتراك ومعهم القاضي ابن أبي دؤاد أبوا ذلك ومالوا إلى أخيه جعفر المتوكل ابن المعتصم، فرجحت كفتهم، فحقد المتوكل ذلك على ابن الزيات، وزاد الأمر سوءاً أن ابن الزيات كان يُسيء معاملته ويزدريه أثناء خلافة الواصل، فلمَّا تولَّى المتوكل الخلافة؛ أقره على وزارته حيناً حتى يطمئن من جانبه، ثم ما لبث أن نكبه بإغراء من أبي دؤاد وقبض عليه، ثم أدخله في التَّوْر الذي كان يعدُّ به غيره، وقيدَه بخمسة عشر رطلاً من الحديد، فكان يصيح ويقول: ارحموني؟ فيقال له: اسكت، أنت كنت تقول: ما رحمتُ أحداً قطُّ، والرحمة ضعف في الطبيعة!! فظلَّ على حاله نحو أربعين يوماً حتى هلك عام (٢٣٣هـ/ ٨٤٧م)، فكانت نكبته شبيهة بنكبة البرامكة، وقد أذاقه المتوكل ما كان يذيقه لغيره من العذاب، ويقال: إن المتوكل فتَّش عن أملاكه فلم يجد غير مئة ألف دينار وبعض الأملاك من ورق وأثاث وضيعة، فندم المتوكل وقال لابن أبي دؤاد: أطمعتني في باطل، وحملتني على أمرٍ لم أجد منه عوضاً!! وما لبث أن فُلج القاضي ابن أبي دؤاد بعدها بزمنٍ يسير، فترك منصبه، ثم نُكب هو أيضاً، لكن نكبته كانت أخفَّ وطأة من نكبة ابن الزيات.

أدبه:

كان ابن الزيات عالماً باللغة والأدب والنحو، وكان بليغاً، حسن القول، رائق المعنى، يعتني بتخيُّر لفظه، ويمتاز بحُسن انتقائه وجزالته ومتانته، وكان فيه ميلٌ إلى مزاجية العبارات، وشيءٌ من السَّجَع أحياناً ولكن دون التَّزام، ويتَّصف أسلوبه إلى الإيجاز نوعاً ما، مع بعض البسط للمعنى، فكان يروع ببيانه، ويسحر الألباب بمعانيه وسياق عباراته.

ولابن الزيات بجانب رسائله شعر رقيق جميل حسن، فيه سلاسة وعذوبة وأناقة، وكان -بخلاف أقرانه من الكُتَّاب- يطيل في قصائده، ويبدع ويجيد، وقد

تنوّعت أغراضه بين المديح والهجاء والرثاء والغزل والمجون والعتاب، ومن شاعريته أنّ رُدُودَه في بعض رسائله كانت شعراً، وقد لا يبلغ شعره نفس قدر شعراء الفحول، لكنّه يعتبر من أروع ما انتهى إلينا من شعر الكتّاب، والكتاب ليس شاعراً متفرّغاً؛ إنما يكتب الشعر أحياناً من باب التعبير عن خواطره، ويُعتبر شعر ابن الزيات في رثاء زوجته من أروع شعره.

من رسائله:

- كتب ابن الزيات بالعهد للخليفة الواصل على مكة؛ "أما بعد: فإنّ أمير المؤمنين قلّك مكة وزمزم، تراث أبيك الأقدم، وجديّ الأكرم، وركضة جبريل، وسُقيا إسماعيل، وحفر عبد المطلب، وسقاية العباس؛ فعليك بتقوى الله تعالى، والتّوسعة على أهل بيته".
- كتب عن الخليفة إلى أحد عماله، من باب التحذير والوعيد؛ "أما بعد: فقد انتهى إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكره، ولا تخلو من إحدى منزلتين، ليس في واحدة منهما عذر يُوجب حُجّة، ولا يزيل لائمة: إمّا تقصير في عملك دعاك للإخلال بالحزم، والتفريط في الواجب، وإمّا مظاهره لأهل الفساد، ومداهنة لأهل الرّيب، وأيّة هاتين كانت منك؛ مُجَلّة النُّكربك، ومُوجِبّة العقوبة عليك، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنّظرة، والأخذ بالحُجّة، والتّقدّم في الإعذار والإنذار، وعلى حسب ما أقلّت من عظيم العثرة؛ يجب اجتهادك في تلافي التقصير والإضاعة، والسلام".
- توسّل رجل إلى رجل بمحمد بن عبد الملك الزّيات، وادّعى قرابته منه، وبلغ ذلك محمداً، فكتب إلى المتوسّل إليه؛ "بلغني أنّ رجلاً ادّعى قرابتي، وأوردَ

^١ جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٣٦ / ٤).

^٢ المصدر السابق (٤١ / ٤).

^٣ المصدر السابق (٤٢ / ٤).

عليك كتابًا ذكر أنه مِنِّي، وما أنكر أن ينتفع بي من توسّل بنسي، إلا أنه من ادّعى قرابة ولا قرابة له؛ كان استعمال الشفاعة في أمره أولى".

- ومن فصول كتاباته: "إنَّ حقَّ الأولياء على السلطان تنفيذ أمورهم، وتقويم أودهم، ورياضة أخلاقهم، وأن يميّز بينهم؛ فيقدّم محسنهم، ويؤخّر مسيئهم؛ ليزداد هؤلاء في إحسانهم، ويزدجر هؤلاء عن إساءتهم".

- ومنها: "إنَّ من أعظم الحقِّ حقَّ الدين، وأوجب الحرمة حرمة المسلمين، فحقيق لمن راعى ذلك الحقَّ، وحفظ تلك الحرمة؛ أن يراعى له، حسب ما رعاه الله، ويُحفظ له، حسب ما حفظ الله على يديه".

- ومنها: "إنَّ الله أوجب لخلفائه على عباده حقَّ الطاعة والنصيحة، ولعبيده على خلفائه بسط العدل والرأفة، وإحياء السنن الصالحة، فإذا أدّى كلُّ إلى كلّ حقّه؛ كان ذلك سببًا لتمام المعونة، واتّصال الزيادة، واتّساق الكلمة، ودوام الألفة".

^١ المصدر السابق.

^٢ المصدر السابق.

^٣ المصدر السابق.

٦- الجاحظ

ترجمته ومنزلته!

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، الليثي، قال بعضهم: إنَّه كناني الأصل؛ ولكن الأرجح أنه من موالي عمرو بن قلع الكناني، وقد غلب عليه لقب الجاحظ لجحوظ عينيه، والجحوظ يعني النُّتوء.

وُلد الجاحظ في البصرة، بين عامي (١٥٠هـ/ ٧٦٧م و١٦٥هـ/ ٧٨١م)، وقد نشأ نشأة فقيرة يبيع الخبز والسَّمك بسيحان، وكان أسودَ دميم الخِلقة قبيح المنظر، ولكنَّه كان على الجانب الآخر عظيم الذكاء، سريع الخاطر، قويِّ الملاحظة، واسع التفكير، بارع الحفظ، شغوفًا بالعلم وسعة الاطِّلاع، فأخذ يحضر الكتاتيب ومجالس العلم في المسجد، وقد أخذ الأدب عن الأصمعي وأبي عبيدة المثني وأبي زيد الأنصاري، وأخذ النَّحو عن الأخفش، وكان يعشق قراءة الكتب، فكان كثيرًا ما يتردَّد على الوراقين فيطَّلَع على ما بأيديهم من الكتب، فيستفيد منها، ويحفظ ما فيها، ويستتم قراءتها، وقد أخذ نصيبه من علم المتكلمين، فاتَّصل بأبي إسحاق النُّظام المعتزلي، فأخذ عنه مذهب الاعتزال وتأثر به، وكوَّن مدرسته الاعتزالية الخاصة المعروفة بالجاحظية.

وقد علا نجم الجاحظ في عصر الخليفة المأمون، الذي كان شغوفًا بالعلم، ومقرَّبًا للعلماء، ومشجِّعًا على الجدل والكلام، وقد أُعجب به فقدَّمه، وكان من رجاله وحاشيته، وقد ولَّاه المأمون على ديوان الرسائل، ولكنَّه استعفى بعد ثلاثة أيَّام؛ لأنَّه كان يريد أن يكون حُرًّا في كتابته، وكان وثيق الصِّلَة بالوزير محمد ابن عبد الملك بن الرِّيّات زمن المأمون والمعتصم والواثق، وكان صديقًا مقرَّبًا له، وكان تبعًا لذلك في خصومة مع القاضي أحمد بن أبي دؤاد خصم الزيات، وكان

^١ انظر: رسائل الجاحظ، المقدمة (ص ٥- ٦)؛ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ١٣٠- ١٣٣)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٥/ ٢١٠١- ٢١٢٢)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ٤٧٠- ٤٧٥)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٣٠٣- ٣٠٩)؛ تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/ ٥٠٩- ٥١٤).

مرعيّ الجانب، مكفيّ الحاجة، مكرّمًا لدى الخلفاء والأمراء والقادة، وظل على منزلته ومكانته زمن المأمون والمعتصم والواثق، إلى أن جاء المتوكل، فصرف المعتزلة عن مجلسه، ونكب الوزير ابن الزيات، ففرّ الجاحظ خشية من أن يلحق به ما لحق بصديقه، ويُروى أنه قيل له: لِمَ هربت؟ قال: خِفْتُ أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التَّنُور؛ وفي رواية أخرى أن القاضي ابن أبي دؤاد قبض عليه، وجيء به إليه مُقيّدًا، وجرى بينهما حوار، ثم عفا عنه وتركه.

ورغم هذا فإنَّ صلة الجاحظ لم تنقطع تمامًا ببلاط الخلافة في عصر المتوكل؛ إذ كان وثيق الصلة بالفتح بن خاقان نديم المتوكل، وسبق أن زار دمشق وأنطاكية وسامراء، ويُروى أن المتوكل استقدمه لتأديب بعض ولده، فلمّا رآه؛ استبشع منظره، فصرفه وأمر له بعشرة آلاف درهم.

وما لبثت أن اضطربت أوضاع الخلافة بعد مقتل المتوكل عام (٢٤٧هـ / ٨٦١م)، فانصرف الجاحظ إلى البصرة وأقام بها بقيّة حياته، منعزلًا عن بلاط الخلافة، عاكفًا على الكتابة والتأليف وتصنيف الكتب، وقد فُلِحَ في آخر حياته، وبقي مفلوجًا نحو سبع سنوات يطلي نصفه الأيمن بالصنّدل والكافور لشدة حرارته، والنصف الأيسر لو قُرض بالمقاريض لما أحسَّ به من خدره وشدة برده، واشتد عليه النقرس، حتى إنّه رُوِيَ عن المبرد أنه دخل عليه وهو عليل فقال له: كيف أنت؟ فقال: كيف يكون مَنْ نصفه مفلوج، ولو نُشِرَ بالمنشير لما أحس به، ونصفه الآخر مُنقرس لو طار الدُّباب بِقربه لآلمه؟! ومع هذا ظلَّ حاضر الدِّهن، قادرًا على التَّأليف، وظل على هذه الحال حتى مات عام (٢٥٥هـ / ٨٦٨م)؛ إذ وقع عليه صفٌّ من الكتب فأزدّته ميتًا، وكان عمره بين التسعين والمئة.

يُعتبر الجاحظ أبرز كتّاب عصره، وأحد ألمع الأدباء في تاريخ الثقافة العربية، فكان جليل القدر، عظيم المنزلة، وقد امتدحه أعلام عصره ومن تلاهم، فأقروا جميعًا بفضلِه ومنزلته وسعة علمه، وروى المرزباني عن أبي بكر أحمد بن عليّ؛ أن الجاحظ كان واسع العلم بالكلام، كثير التَّبَحُّر فيه، شديد الضبط لحدوده، أعلم النَّاس به وبغيره من علوم الدِّين والدنيا؛ وقال سهل بن هارون على

الجاحظ لما استعفى من عمل الديوان: لو ثبت الجاحظ في هذا الديوان لأفل نجم الكتّاب؛ وقال ابن الأنباري: كان الجاحظ عالماً بالأدب، فصيحاً بليغاً، مصنفًا في فنون العلوم؛ وقال أبو القاسم البلخي: كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث شاع ذكره، وعلا قدره، واستغنى عن الوصف، وقال أبو هقّان: لم أر قطُّ ولا سمعت من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ؛ وقال ثابت بن قرة: الجاحظ شيخ المتكلمين؛ وقال ابن العميد: إنّ الناس عيال عليه في البلاغة والفصاحة واللُّسُن والعارضة؛ وقال المسعودي: كُتِبَ الجاحظ -مع انحرافه المشهور- تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان؛ لأنّه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وقد روى عنه أبو العباس المبرّد وأبو سعيد الجنديسابوري والمرزباني، فكان مقدّمًا بين أدباء عصره سواء من قبل المعتزلة وغير المعتزلة؛ وقد تركت مصنّفاته وكتاباتهِ أثرًا جليلاً عظيمَ القدر في الثّراث الأدبي.

نثره:

نقل الجاحظ الكتابة إلى طور جديد؛ سواء من الناحية الأسلوبية ومن الناحية الفكرية؛ فأما من الناحية الأسلوبية فقد أرسى أصول مدرسة إنشائية جديدة اعتمدت على الميل إلى الإطناب، والازدواج بين العبارات، والازدواج أسلوب يقوم على موازنة العبارات في صفوف متقابلة، ومال كذلك إلى الاستطراد وهو الانحراف عن غرض الموضوع الرئيس إلى موضوع آخر قبل العودة إليه مجدّدًا؛ بهدف دفع الملل عن القارئ، مع رقّة العبارة، وحُسن اللفظ، ومتانة التركيب، وتوليد المعاني، وقوّة الاستدلال، ووضوح الفكرة، وبساطة الأسلوب والسياق، وسهولة الكلام وبُعده عن الغريب، ومزج الجد بالهزل، وواضح من خلال أسلوبه أنّه كان يؤثّر المعنى وسلامته، عن العناية البالغة باللفظ وفخامته، وقد امتاز أسلوب الجاحظ بالدقّة والوضوح وغزارة المادة، وسعة المعرفة، وانطلاق

الفكر، وإعمال العقل، وغلبة النزعة الواقعية، وربما جرّه ميله إلى الازدواج؛ إلى السّجع عفوًا بلا تكلف أو إلزام.

وأما من الناحية الفكرية، فقد طرق الجاحظ بأسلوبه الكتابي موضوعات جديدة، لم يألفها معاصروه ومن سبقوهم، فقد كانت الرسائل الإخوانية قبله عبارة عن مراسلات بين الأدباء والأشخاص، لكنّه طوّر من سياقها، فكانت رسائله تتحدث عن موضوعات مختلفة؛ منها الكلامية والاجتماعية والنقدية، وهو طور جديد لم يكن مألوفًا، شبيه بفنّ المقالة في العصور الحديثة.

وقد انتقده بديع الزمان الهمذاني قائلاً في إحدى مقاماته: إن كلامه بعيد الإشارات، قليل الاستعارات، قريب العبارات، منقاد لُغريان الكلام يستعمله، نفورٌ من مُعتاضه يُهمله؛ وهذا الكلام -على قسوته- يطابق الحق أحيانًا؛ فالجاحظ كان مُقلًا في استعاراته وتشبيهاته البيانية، ممّا يقرب أسلوبه من النمط التقريري العادي، ولكنّ الحُكم على الجاحظ من هذه الناحية فقط ظلم كبير؛ لأنّ الجاحظ في رسائله كان متأثرًا بأسلوب النثر التأليفي، فكان يهّمه أن تصل المعلومة إلى القارئ بوضوح، في أسلوب مبسّط وسياق سهل، أكثر من اهتمامه بالجوانب البيانية المتمثّلة في الاستعارات والتشبيهات، وهي نفسها خصائص أسلوب النثر التأليفي الذي يختلف من بعض الوجوه عن النثر الأدبي، وهو ما عبّر عنه ابن العميد الكاتب -وكان معجبًا به- قائلاً: تعلّم العلم أوّلاً والأدب ثانيًا.

ويجسّد مذهب الجاحظ في البلاغة قوله: "ومتى شاكل -أبقاك الله- اللفظ معناه، وكان ذلك الحال وفقًا، ولذلك القدر لبقًا، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التّكلف؛ كان قمنا بحسن الموقع، وحقيقًا بانتفاع المستمع، وجديرًا أن يمنع جانبه من تأوّل الطاعنين".

^١ مقامات بديع الزمان الهمذاني (ص ٩٨).

والخلاصة أن الجاحظ كان موسوعة من العلم والمعرفة، أسّس مدرسة جديدة في الإنشاء، لها ملامحها وسماتها الخاصة؛ التي كانت إلهامًا للعديد من الكتاب الذين جاؤوا بعده، وتأثروا بأسلوبه، وتعلموا على مدرسته.

آثاره ومؤلفاته:

أثرى الجاحظ المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات والمصنّفات المهمة، ذات المنفعة العظيمة، والمعارف المتنوعة، ويقال: إنها بلغت نحو ثلاثمائة وستين مصنّفًا في شتى العلوم والمعارف، وقد سقط كثير منها من يد الزمن، وبقي منها عددٌ آخر من مؤلفاته التي اعتنى النساخون والورّاقون بنسخها ونقلها حتى انتهت إلينا كاملة، ومن أشهر مؤلفاته:

١- **البيان والتبيين:** وهو من أروع كتب البلاغة، عبارة عن ثلاثة أجزاء، ويُعتبر أقدم كتاب أدب وبلاغة ونقد وصلنا؛ حيث جمع الجاحظ فيه عددًا من رسائل وخطب السابقين، مع شروحاتٍ للبلاغة وبعض النّقد لتلك الخطب والرسائل، وإيراد أسماء عددٍ من الكتاب والخطباء، وهذا الكتاب عظيم القيمة؛ لأنّه حفظ جانبًا من تراث الأدب العربي في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي من خطب ورسائل، وقد أراد الجاحظ من هذا الكتاب الكشف عن موهبة العرب البلاغية والبيانية في إطار ردّه على الشعوبية؛ حيث شمل كتابه بعض خطب النّبي ﷺ، وخطب عليّ بن أبي طالب وبعض الصحابة رضوان الله عليهم، وبعض كلام الحسن البصري، وخطب خلفاء بني أميّة وولاتهم كزياد بن أبيه والحجاج، وبعض خطب ومقالات الخوارج؛ ويُعتبر مصدر ثقة، وأحد أبرز المصادر الأدبيّة في تلك الحقبة.

٢- **الحيوان:** وهو كتاب من سبعة أجزاء، تحدّث فيه عن علم الحيوان وكل ما يتعلّق به، وقد تأثر في تأليفه بنزعة فلسفية واضحة، وببعض المصادر الأجنبيّة التي اطّلع عليها، فضلًا عن بعض مصادر الأدب العربي التي كانت

^١ انظر: رسائل الجاحظ، المقدمة (ص ٥- ٦)؛ تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ١٨٥- ١٨٦)؛ تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/ ٥١٦- ٥٣٠).

تحكي عن موضوعه، وكان لهذا الكتاب أيضًا دوره في الرد على الشعوبية، والانتصار للثقافة العربية.

٣- البخلاء: وقد أورد الجاحظ فيه عددًا من الأخبار والقصص الطريفة التي تتعلّق بالبخل، وهو كتاب لا يخلو من الفكاهة والظرف والمزج بين الجدل والهزل.

٤- رسائل الجاحظ: وهو مجموعة من رسائله ومصنّفاته المتنوّعة، التي تناولت موضوعات مختلفة؛ منها: رسائل سياسية تحدّث فيها عن العدل، وأدب الدّين والدُّنيا، والشجاعة، وأجناس النّاس، ومعاملة العدو، ورسائل تحدّث فيها عن الأوطان، وبعض الرسائل التي شرح فيها رأيه في مواقف بعض الصحابة، ورسائل أخرى عن مناقب التُّرك، وصفات الجوّاري والغلمان والنبذ وبعض المعارف والآثار، والمقارنة بين السُّودان والبيضان، وأخلاق الكتّاب، وبعض الرسائل الأدبية تحدّث بها عن الكتاب والعقل واللّسان والحسد وبعض الأخلاق، كذلك بعض الرسائل الكلامية التي أفصح فيها عن تأثّره بتيّار الجدل ومذهب المعتزلة، فدافع عن خلق القرآن، ونفّى التشبيه في سياق رده على من أسماهم بالمشيّهة، كما ردّ على معتقدات النصاري، وعمل مقارنات بين عليّ ومعاوية، مقدّمًا عليًا ومعترفًا بفضلته وصواب رأيه، بينما تحامل كثيرًا على خلفاء بني أميّة، وأسهب في ذمّهم وذكر مثاليهم.

ولعل أشهر رسالة من رسائله كانت رسالة "التربيع والتدوير"؛ وهي رسالة هجا بها أحمد بن عبد الوهاب الذي كان يخاصمه، وهي مليئة بأوصاف الدّم، ولا تخلو فصولها من أسلوب السُّخرية والتّهمك والتّندر والظرف. ومن مؤلفاته: "سحر البيان"، "كتاب التاج"، "سلوة الحريف في المناظرة بين الربيع والخريف"، بالإضافة إلى كتاب "المحاسن والأضداد" الذي تمّ التّشكيك في نسبته إليه لاحتوائه على أخبار تالية لعصره، وله غير ذلك بعض من الشعر، وهو شعر عادي لا رونق فيه ولا جمال، مبثوث في أخباره ورسائله.

من رسائله:

- قال في رسالة عن الحسد، يحذّر منه وينصح بكيفية معاملة الحسود: "وأنا أقول حقًا: ما خالط الحسد قلبًا إلّا لم يمكنه ضبطه، ولا قدر على تسجينه وكتمانه، حتى يتمرّد عليه بظهوره وإعلانه، فيستعبده ويستمليه، ويستنطقه لظهوره عليه، فهو أغلب على صاحبه من السيّد على عبده، ومن السلطان على رعيّته، ومن الرّجل على زوجته ومن الأسر على أسيره. وكان ابن الزّبير بالصبر موصوفًا، وبالدّهاء معروفًا، وبالعقل موسومًا، وبالمداواة منهومًا، فأظهر بلسانه حسدًا كان أضبّ عليه أربعين سنة لبني هاشم، فما اتّسع قلبه لكتمانه، ولا صبر على اكتتامه؛ لمّا طالت في قلبه طائلته أظهره وأعلنه، مع صبره على المكاره، وحمله نفسه على حتفها، وقلة أكرائه والتفاتة لأحجار المجانيق التي كانت تمرّ عليه فتذهب بطائفة من قومه ما يلتفت إليها..."

- ومنها: "إذا أحسست -رحمك الله- من صديقك بالحسد؛ فأقلل ما استطعت من مخالطته؛ فإنّه أعونُ الأشياء لك على مسالمته. وحصّن سرّك منه تسلم من شرّه وعوائق ضرّه. وإيّاك والرغبة في مشاورته، ولا يغرنك خدع ملّقه، وبيان ذلّقه؛ فإنّ ذلك من حبائل نفاقه. فإن أردت أن تعرف آية مصداقه فأدنين إليه من يهينك عنده، ويدمّك بحضرته؛ فإنّه سيظهر من شأنه لك ما أنت به جاهل، ومن خلاف المودّة ما أنت عنه غافل. وهو ألحّ في حسده لك من الدُّباب، وأسرع في تهريقك من السّيل إلى الحدود. وما أحبُّ أن تكون عن حاسدك غيبًا، وعن وهمك بما في ضميره نسيًا. إلّا أن تكون للذلّ محتملًا، وعلى الدناءة مشتملًا، ولأخلاق الكرام مجانبًا، وعن محمود شيمهم ذاهبًا، أو تكون بك إليه حاجة قد صيرتك لسهام الرّماة هدفًا، وعرضك لمن أراد غرضًا. وقد قيل على وجه الدّهر:

¹ رسائل الجاحظ (ص ٤٧٤ - ٤٧٦).

الحرّة تجوع ولا تأكل بشديهما؛ وربّما كان الحسود للمصطنع إليه المعروف
أكفرّ له وأشدّ احتقارًا، وأكثر تصغيرًا له من أعدائه."

- وقال متحدثًا عن العقل واللسان: "وليس الخطر فيما أسوّمك وأحاول
حَمَلَك عليه بسهلٍ ولا يسير. وكيف وأنا لا أعرف في دهري -على كثير عدد
أهله- رجلًا واحدًا ممّن ينتحل الخاصّة، ويُنسب إلى العلية، ويطلب
الرياسة ويخطب السيّادة، ويتحلّى بالأدب ويديم الثّخانة والزّمّانة،
والحلم والفخامة، أرضى ضبْطَه للسانه، وأحمدُ حيّاطته لسرّه؛ وذلك
أنّه لا شيء أصعب من مكابدة الطّبائع ومغالبة الأهواء؛ فإن الدّولة لم
تزل للهوى على الرّأي طول الدهر. والهوى هو الدّاعية إلى إذاعة السّرّ،
وإطلاق اللسان بفضل القول.

وإنّما سَمّيَ العقل عقلاً وحجراً، قال تعالى: (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي
حِجْرٍ)؛ لأنّه يزُمُّ اللسان ويخطمه، ويشكله ويربُّثه^٢، ويقيد الفضل
ويعقله عن أن يمضى فرطاً في سبيل الجهل والخطأ والمضرة، كما يعقل
البعير، ويحجر على اليتيم.

وإنّما اللسان ترجمان القلب، والقلب خزانة مستحفظة للخواطر
والأسرار، وكلّ ما يعيه من ذلك عن الحواسّ من خيرٍ وشرّ، وما تولّده
الشّهوات والأهواء، وتنتجه الحكمة والعلم."

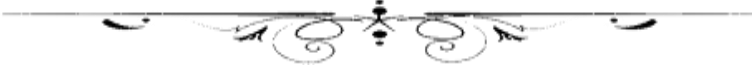
وقال في رسالة له متحدثًا عن حبّ السلطان: "وإنّما يملك المولى من عبده
بدنه، فأما قلبه فليس له عليه سلطان، والسلطان نفسه وإن ملك رقاب
الأمة؛ فالناس يختلفون في جهة الطاعة؛ فمنهم من يطيع بالرّغبة، ومنهم
من يطيع بالرّهبة، ومنهم من يطيع بالمحبّة، ومنهم من يطيع بالدّيانة؛

^١ رسائل الجاحظ (ص ٤٥٠).

^٢ سورة الفجر (٥).

^٣ يربُّثه: يحبسّه عن حاجته. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/ ١٥٠).

^٤ رسائل الجاحظ (ص ٧٨٢).



وهذه الأصناف، وإن كان أفضلها طاعة الديانة فإن تلك المحبة ما لم يمازجها هوى لم تقوَ على صاحبها قوة العشق؛ وفي الأثر المستفيض والمثل السائر: إن كان الهوى يُعمي ويصم؛ فالعشق يقتل.

٧- إبراهيم الصولي

ترجمته:

هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صُول تكين، ويُعرف بإبراهيم الصولي، تركي الأصل، من جرجان، وكُنيتُه أبو إسحاق، وهو من موالِي يزيد بن المهلب، وُلِدَ نحو (١٧٦هـ / ٧٩٢م) أو في العام الذي يليه، وهو ابن أخت العباس بن الأحنف شاعر الغزل المشهور، كان جدُّه صول وأخوه فيروز من ملوك جرجان، وقد تمجَّسا تبعًا للفرس، فلمَّا فتح يزيد بن المهلب جرجان أمَّهما، وأسلم صول على يديه، وقُتِلَ معه أثناء ثورته ضد بني أميَّة، وكان أبوه أبو عمارة محمد بن صول من رجال الدعوة العباسية، قتله عبد الله بن عليٍّ لما خالفه، وكان إبراهيم وأخوه عبد الله من وجوه الكتَّاب، وهما من صنائع الفضل بن سهل وزير المأمون، المعروف بذي الرئاستين، وكان عبد الله المقدَّم فيها، بينما كان إبراهيم أدبهما وأحسنهما شعرًا، وهو عمُّ أبي بكر محمد بن يحيى الصولي الأديب والمؤلف المشهور.

وقد كان إبراهيم من أعلام كتَّاب عصره منذ زمن المأمون، ومروًّا بالوائق، وكان كاتبًا حاذقًا ماهرًا، وبينه وبين ابن الزيات صداقة ما لبثت أن استحالت إلى مشاحنات ومماحكات، وكان ابن الزيات يتحامل عليه حتى عزله عن عمله في الأهواز، فلمَّا اطَّلَعَ الواثق على تحامل وزيره أمره بالكفِّ عنه، فتركه، فلمَّا أحسَّ إبراهيم بذلك بسط لسانه وهجاه.

وظلَّ إبراهيم يتقلَّد عدَّة مناصب في الدواوين والولايات ويتولَّى بعض أعمال السُّلطان، وعاش إلى زمن المتوكل، حتى مات في شعبان عام (٢٤٣هـ / ٨٥٧م)، وهو متولٍّ ديوان الضياع والنفقات في سامراء^١.

^١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (١/ ٧٠ - ٨٦)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٤٤ - ٤٧).

أدبه:

كان إبراهيم الصولي كاتبًا حاذقًا ماهرًا، ويظهر أثر الصنعة في كتابته؛ إذ يمتاز أسلوبه بحسن الديباجة، وجمال الصياغة، وجلال المعاني، واختياره للألفاظ الناصعة العذبة، واستصفاء الكلمات، في سياق من مزاجية العبارات، وتقطيع الكلام، والميل إلى الإطناب والمقابلة، ولكتابته جرس موسيقي جميل يسلب الذهن، ويستقرُّ في القلب، منبعه حسن السياق وتلاؤم العبارات، وفي كتابته ملامح من المبالغة في التأنُّق والاقتباس من القرآن، ويظهر السجع بوضوح في كثير من رسائله كأثرٍ لتلك المزاجية ولكن ليس ملزمًا، مع بعض ألوان البديع من جناس وطباقٍ كمظهر من مظاهر الازدواج، وله تحميدات غاية في الروعة والبلاغة.

وكان المتوكل قد أعجب برسالة من صياغته كانت موجَّهة لأهل حمص، فأومأ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان وقال له: أما تسمع؟! فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن إبراهيم فضيلة خبَّأها الله لك، وذخيرة ذخرها لدولتك!

ولإبراهيم شعر جميل حسن، عذب اللفظ، فائق الجودة، لكنَّه كان مُقلًّا، فكان ينقح شعره، ويحذف من القصيدة عدَّة أبيات، لذا كان شعره مقطوعات صغيرة، دارت أغراضه بين المديح والهجاء والاستعطاف والغزل والحماسة والأدب، فمدح المتوكل وعليَّ الرضا والفضل بن سهل والمعتز، وهجا ابن الزيات، وقد أغنته منزلته في الكتابة وعمل الدواوين عن التَّكسُّب بالشعر، حتى قال عنه دعبل بن عليَّ الخزاعي: لو تكسَّب إبراهيم بن العباس بالشعر لتركنا في غير شيء.^٢

^١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (١ / ٨١).
^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢ / ٢٧٩).

من رسائله:

- لما مات المعتصم وتولّى الخلافة ولده الواثق؛ كتب إليه إبراهيم الصولي يعزيّه بأبيه ويهنّئه بالخلافة قائلاً: "إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بالشُّكر من جاء به عن الله، وأولاهم بالصبر من كان سلفه رسول الله؛ وأمير المؤمنين -أعزّه الله- وآباؤه -نصرهم الله- أولو الكتاب الناطق عن الله بالشكر، وعتره رسوله المخصوصون بالصبر، وفي كتاب الله أعظم الشِّفاء، وفي رسوله أحسن العزاء.

وقد كان من وفاة أمير المؤمنين المعتصم بالله، ومن مشيئة الله في ولاية أمير المؤمنين الواثق بالله، ما عفا على أوّله آخره، وتلافت بدأته عاقبته، فحقُّ الله في الأولى الصبر، وفرضه في الأخرى الشكر، فإن رأى أمير المؤمنين أن يستنجز ثواب الله بصبره، ويستدعى زيادته بشكره؛ فعل إن شاء الله تعالى وحده".

- وكتب بعد أن عُزل عن الأهواز، إلى إبراهيم بن فرج قائلاً: "ولست -أعزّك الله- واحداً من عددٍ تحصّلهم وتقديّمهم، فتوسّع على نفسك في أمري، أنا -والله- واحدك، بالأسباب التي تجتمع لي فيك وبك، ولا تجتمع في غيري من أخٍ ولا ولدٍ ولا صاحبٍ، وقد كنت تدّخرني -أعزّك الله- لطاعتك والوفاء لك، فقد -والله- فعلتُ غير ممّتٍ بذلك، وقد كنت أرجو ألا أضام في جيرتك ومعك، فلا تخذلني؛ فإني في حالة إن أخليتني فيها من نصرتك؛ لم يرجع عليّ من ذلك مقدارٌ في نعمتي ونفسي، إلا رجع عليك أكثر منه في نعمتك وقدرك، والسلام".

^١ جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (٤ / ٣٦ - ٣٧)، المكتبة العلمية، بيروت- لبنان، دبط، دبت.

^٢ المصدر السابق (٤ / ٣٨).

- ومن رسالة له في قتل الناصر إسحاق بن إسماعيل: "وقسّم الله عدوّه أقسامًا ثلاثة: رُوحًا معجّلة إلى عذاب الله، وجثّة منسوبة لأولياء الله، ورأسًا منقولًا إلى دار خلافة الله، استنزّلوهم من معقل إلى عقال، وبدّلوه آجالًا من آمال، وقديمًا غدّت المعصية أبناءها، فحلبت عليهم من درّها مرضعة، وبسطت لهم من أمانتها مطمعة، وركبت بهم مخاطرها موضوعة، حتى إذا وثقوا فأمنوا، وركبوا فاطمأنوا، وانقضى رضاع وأن فطام؛ سقطت سُمًا، ففجّرت مجاري ألبانها منها دمًا. وأعقبتهم من حلو غذائها مرًا، ونقلتهم من عزّ إلى ذلّ، ومن فرحة إلى ترحة، ومن مسرة إلى حسرة؛ قتلاً وأسرًا، وغلبةً وقسرًا، وقلّ من أوضع في الفتنة مرهجًا، واقتحم لهما مؤجّجًا؛ إلا استلحمتة آخذةً بمخنقه، وموهنةً بالحق كيده، حتى جعلته لعاجله جزرًا، ولأجله حطبًا، وللحق موعظة، وعن الباطل مزجرة، أولئك لهم خزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر، وما ربك بظالم للعبيد".

- ومن تحميداته: "الحمد لله الذي أنجز وعده، ونصر عبده، وأيد جنده، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقًا وغربًا مشفوعةً بين إقامة حق وإدالة باطل، وإزالة عائد وإبادة عائد، وإقالة مستقيل، ويسأل الله أمير المؤمنين مسألة العبد سيّده ومولاه؛ رغبة إليه، متذللاً له؛ أن يصلي أفضل صلواته عنده، على أكرم أنبيائه".
وله:

لا يَمْنَعُكَ خَفْضُ الْعَيْشِ فِي دَعَا نُزُوعَ نَفْسٍ إِلَى أَهْلِ وَأَوْطَانِ
تَلْقَى بِكُلِّ بِلَادٍ إِنْ حَلَلْتَ بِهَا أَرْضًا بِأَرْضٍ وَجِيرَانًا بِجِيرَانِ

^١ المصدر السابق (٤ / ١٥٤).

^٢ المصدر السابق (٤ / ١٥٧).

٨- الحسن بن وهب

ترجمته:

هو أبو عليّ الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حُصَيْن بن قيس بن قنان ابن مَتَّى، أخوه الوزير والكاتب سليمان بن وهب، وُلِدَ الحسن نحو سنة (١٨٦هـ/ ٨٠٢م)، وهو من أسرة عريقة في الكتابة وأعمال الدواوين، ورث الكتابة أبا عن أب، فكان قنان وابنه قيس من كَتَّاب دواوين بني أمية، والتحق الحصين ابن قيس بخدمة مروان بن محمد آخر خلفائهم، فلمَّا قُتِل مروان أَمَّنَه العباسيون، وعمل في دواوين المنصور والمهدي، واستمرت مهنة الكتابة في عقبه؛ حيث عمل عمرو بن الحصين، ثم سعيد بن عمرو، ثم وهب بن سعيد بن عمرو في دواوين الخلفاء العباسيين، وخدموا في بلاط البرامكة وآل سهل في زمن الرشيد والمأمون، إلى أن جاء الحسن بن وهب وأخوه سليمان؛ فأما سليمان فقد كتب للمأمون وهو ابن أربع عشرة سنة، وكتب لبعض القادة الأتراك كإيتاخ وأشناس، وأما أخوه الحسن فكان يكتب أوَّلًا بين يدي محمد بن عبد الملك الزَيَّات أواخر عهد المأمون، ثم علا شأنه زمن المعتصم، وامتد به العمر حتى مات في أواخر خلافة المتوكل، بينما مات أخوه سليمان لاحقًا، محبوبًا بعدما نكبه وليُّ العهد أبو أحمد الموفق، في خلافة أخيه المعتمد!

نثره:

كان الحسن بن وهب بليغًا، وكاتبًا مبدعًا، عذب اللفظ، رقيق الحاشية، يميل في كتابته إلى الإطناب، ومزاوجة العبارات، وإلى السجع في عدَّة أحيان، يجيد اختيار ألفاظه الناصعة، ويلائم بين عباراته ملائمة رائعة، وقد حُفِظت له رسائل مختلفة تنوعت أغراضها بين التعازي والشكر والإخوانيات بجانب الرسائل الرسمية، وله كذلك شعر حسن.

^١ انظر: المصدر السابق (٣/ ١٠١٩ - ١٠٢٢).

من رسائله:

- كتب إلى محمد بن إسحاق يعزيه عن ابنه إسحاق قائلاً: "الأمير أعلم بالدين من أن يذكر به، وبالدين من أن يدل على ما خلقت له، وقد ورد - أعز الله الأمير - ما كان من النبا العظيم والخطب الجليل، في سيف الخلافة ودعامتها، وركنها في يومها وغدها، فلو أن حادثاً سبق بالنفوس آجالها، وأعجلها عن الأجل المقدرة؛ لكانت الرزية أحق الرزايا بذلك، فكنت أحق المنكوبين بمصابه أن ينالني ذلك منه".

- وفي كتاب تعزية له يقول: "قد نفذ كتابي إليك في التعزية عن السيد الذي لا نفجع بمثله، ولا نؤمل عوضاً منه إلا باتصال أيامك، وجميل حياة الله إياك، بما أرجو أن يكون قد وصل والحمد لله، وإليه أوجه الرغبة في إلهامك الصبر، وحسن المعاونة لك على قضاء الحق عليك، وقضاء الحق لك، وما أعتد به من مودتك، التي تقتصر على ما دونها الثقة، وتستحكم بأقل منها الأسباب والمقة".

- وكتب يرد على كتاب وصله من إبراهيم الصولي: "وصل كتابك، فما رأيت كتاباً أسهل فنوناً، ولا أملس متوناً، ولا أكثر عيوناً، ولا أحسن مقاطع ومطالع منه؛ أنجزت فيه عدة الرأي، وبُشِرى الفراسة، وعاد الظن يقيناً، والأمل مبلوغاً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات".

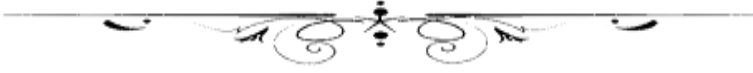
- وله: "لا ترص لي بيسير النظر؛ فإني لم أرض لك بيسير الشكر، وضع عني مؤنة التقاضي؛ ما وضعت عنك مؤنة الإلحاح، وأحضر قلبي من ذكرك

١ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٤/ ٢٥ - ٢٦).

٢ انظر: المصدر السابق (٤/ ٣١).

٣ انظر: المصدر السابق (٤/ ٣٣).

٤ انظر: المصدر السابق.



ما هو أكفَى من قعودي بصدد عينك؛ فَإِنِّي أَحَقُّ مَنْ فعلتَ ذاكَ به، كما
أنتَ أَحَقُّ مَنْ فعله بي، وحقَّق الظَّنَّ فليس وراءك مذهب، ولا عنك
مقصِّرٌ".

٩- ابن العميد

ترجمته!

هو أبو الفضل محمّد بن الحسين العميد ابن محمّد، والعميد هو لقب أبيه، وُلد نحو عام (٣٠٠هـ / ٩١٢م)، وكان أبوه أبو عبد الله الحسين العميد كاتباً للملك نوح بن نصر الساماني، ويبدو أنه اهتم بتنشئة ولده فشَبَّ متبحراً في علوم الفلسفة والنجوم والتاريخ والهندسة والمنطق، عالماً بالشعر والأدب واللغة والبلاغة، فعُرِفَ بلاغته، وارتقت منزلته، وكان معروفاً بالعلم والفضل والخلق والجود، فضلاً عن موهبته في كتابته، فكان يُلقَّب بالجاحظ الثاني، ونظراً إلى براعته في التَّرسُّل ومهارته في الكتابة كان يُلقَّب بالأستاذ الرئيس، وكان يُقال فيه: "بُدئت الكتابة بعبد الحميد، وانتهت بابن العميد".

وظلَّ ابن العميد في حياة أبيه وبعد وفاته يتنقَّل بين الرِّيِّ وبلاد الجبل وفارس، يتدرَّج في المعالي، ويرتقي في المناصب، حتى التحق بخدمة رُكن الدولة أبي علي الحسن بن بويه صاحب الرِّيِّ ثم استوزره عام (٣٢٨هـ / ٩٤٠م) مفوِّضاً إليه شؤون دولته، فكان قائداً بصيراً، وسائساً مدبراً؛ إذ قاد الجيوش، وقمع الفتن والثورات، وقام على أمر الدولة خير قيام، وساس مُلك سيِّده أحسن سياسة، وكان حسن السَّيرة، عظيم الجُود، عالي المنزلة، حسن المناقب، حتى إن رفيقه وصاحبه الصاحب ابن عباد لمَّا سافر بغداد وعاد منها سأله قائلاً: كيف وجدتَها؟ فقال: "بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد"، وهو الذي أدب عضد الدولة ابن ركن الدولة، فمرَّنه على السياسة والأدب وحُبِّ العلم والعلماء، وقد صار ابن العميد ممدَّحاً وقبلة للشعراء والكتَّاب الذين توافدوا على بابه فمدحوه؛ كالصاحب بن عباد وابن نباتة وأبي الطَّيِّب المتنبّي الذي وفد عليه بأرْجان ومدحه برائية شهيرة مطلعها:

١ انظر: بيتمة الدهر، الثعالبي (٣/ ١٢٨ - ١٤٧)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٥/ ١٠٣ - ١١٣)؛ النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك (ص ٢٣٥ - ٢٤٤).
٢ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٥/ ١٠٤).

بَادِ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَوْ لَمْ تَصْبِرْ وَبُكَاكِ إِنَّ لَمْ يَجِرْ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى
ومنها:

لَوْ كُنْتُ أَفْعَلُ مَا اسْتَهَيْتُ فِعَالَهُ مَا شَقَّ كَوَكْبُكَ الْعَبَاجَ الْأَكْدَرَا
أُمِّي أَبَا الْفَضْلِ الْمُبِرِّ أَلَيْتِي لِأَيِّمَنْ أَجَلٌ بَحْرِ جَوْهَرَا

وقد تدهورت صحّة ابن العميد في أواخر حياته، فاعتاده النقرس والقولنج، حتى إنّه سُئل: أيهما أصعب عليك وأشقُّ؟ فقال: إذا عارضني النقرس فكأنني بين فكيّ سبّع يمضغني، وإذا عتراني القولنج وددت لو استبدلت النقرس عنه؛ ورؤي أنه رأى إكارًا في بستان يأكل خبرًا ببصل ولبن، فقال: وددت لو كنت كهذا الإكار أكل ما أشتي!! وكذلك كانت العافية أنفع وأجمل من الملك والجاه والمال، وهل تبسم الدنيا لإنسان عليل؟! وهذه شيمة الدنيا؛ قلّ أن تصفو من الشوائب!! وما لبث أن توفّي في همدان نحو عام (٣٦٠هـ / ٩٧٠م) وهو على رأس جيشه برفقة ولده أبي الفتح، متوجّها لقتال أحد الثائرين على ركن الدولة. وقد خلفه على الوزارة ولده أبو الفتح عليّ، وكان جليلاً نبيلًا ذا فضائل، وكان ذكيّ القلب، قويّ الحس، ولكنّه لم يكن في حنكة أبيه وسياسته وفطنته، حتى قال عنه أبوه: ما يهلك آل العميد ولا يمحوا آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي!! وكان يقول قبل وفاته: ما قتلتني إلا جرع الغيظ التي تجرّعتها منه!! وقد كان ما ظنّه ابن العميد، فلم تطل مدّة ولده في الوزارة حتى قُتل ولحق بأبيه.

نثره:

كان عصرُ ابن العميد عصرَ زخرف وتأنّق وسجع، وهو إمام كتّاب عصره بلا مدافع، ولم يُعرف كاتب بعد الجاحظ غيره قدرًا ورفعةً ومنزلةً وروعةً ببيان، وكان يُضرب به المثل في البلاغة والبراعة، وكان متفوّقًا في فنون الكتابة والرسائل، وقد هداه طبعه إلى استحداث طريقة جديدة في الإنشاء، بناها على أصول مدرسة الجاحظ في الكتابة، وزاد عليها بما وسعه من وشي البديع، وكان عماد أسلوبه قائمًا على التزام السجع التزامًا تامًّا، بحيث لا يخرج عنه إلا قليلًا، مع

إضافة حلي البديع الأخرى من جناس وطباق ومقابلة وتورية، وتضمن عباراته بالأمثال والحكم والشعر، والتوسُّع في الخيال والصور البيانية والاستعارات والكنيات، مع ميلٍ إلى الإطناب، ومزاوجة العبارات، وقد أفضى اعتماده على السجع والازدواج إلى أن صارت كتابته ذات إيقاعٍ رقيق، وجرس أنيق، يؤثر في نفس القارئ، فيسلب الذهن، ويعبق في الصدر، مع حرصه على سلاسة وعذوبة اللفظ، وجمال السبك، وحُسن الرصف، وتقصير عباراته، حتى يحافظ مع قِصرها على ما تُحِدُّه من توازنات موسيقية رائعة.

ولم يغفل ابن العميد أهمية المعنى، فلم يكن نثره مجرد زخرف وطلاء خارجي فقط؛ بل امتاز إلى جانب ذلك بروعة المعاني ودقَّتْها ونفاستها وعمُّقها، وقد جسَّد روعة معانيه بإمعانه في الخيال والاستعارات والصور والتشبيهات البليغة، وأعانه على ذلك سعة علمه ودرايته بالعلوم والمعارف المختلفة؛ كاللغة والفلسفة والفلك والهندسة.

ولم يكن السَّجع وليد مدرسة ابن العميد؛ بل كان معروفًا قبله، ولكن الجديد الذي أرساه ابن العميد هو الاعتماد على سائر ألوان البديع الأخرى من طباق وجناس ومقابلة، وهو ما امتاز به عمَّن سبقه، ولم يكن معروفًا قبله على هذا النمط، وكان ابن العميد أرقى معاصريه طبعًا، وأحسنهم بيانًا وديباجة، وأقلَّهم سجعًا؛ حيث إنه رغم التزامه السجع فقد كان لا يُفْضي به إلى تكلفه؛ بل نراه يتخلَّى أحيانًا عن السجع إذا ما أحس بإفضاء ذلك إلى الافتعال وتكلف العبارة، ولكن دون أن يتخلَّى عن مزاجية العبارات وجرسها الموسيقي، وما يرافق ذلك من ألوان البديع، وقد صارت مدرسة ابن العميد مذهبًا وإلهامًا لكتَّاب عصره ومن تلاهم في قرون متوالية، لكنَّ أحدًا منهم لم يبلغ فيها ما بلغه ابن العميد من روعة وجلال، باستثناء بديع الزمان الهمذاني.

ولو قُدِّرَ لرسائل ابن العميد أن تبقى وتصل إلينا كاملة لصارت ذخراً للأدب ولِفَنِّ التراث العربي، ولكن ضاع ديوان رسائله فيما ضاع مع الغزو المغولي لبغداد، فلم يَبَقْ من رسائله غير نزر يسير مبثوث في كتب الأدب المختلفة؛ مثل

يتيمة الدهر للثعالبي، وزهر الآداب للقيرواني؛ وقد اجتهد بعض الدارسين حديثاً لجمع ما تبقى من رسائله في ديوان خاص.

ولابن العميد شعر رقيق حسن، على قدرٍ من رواء الطبع وبهاء الرّونق، ولكنّه لم يبلغ به قدرَ نثره؛ إذ إنّهُ من جُملة شعر الكتّاب؛ الذي لا يُضاهي شعر الفحول.

من رسائله:

- كتب في رسالة بليغة إلى ابن بلكا وقد أعلن عصيانه وثار على ركن الدولة ابن بويه واستعصى عليه، قائلاً: "كتابي وأنا مترجّح بين طمع فيك ويأسٍ منك، وإقبالٍ عليك وإعراضٍ عنك؛ فإنّك تدلُّ بسابق حرمة، وتمتُّ بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية، ويقتضي محافظة وعناية؛ ثم تشفعهما بحادثٍ غلول وخيانة، وتتبعهما بأنفٍ خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويمحق كلّ ما يُرعى لك. لا جرم أنّي وقفتُ بين ميلٍ إليك وميلٍ عنك، أقدم رجلاً لصديك، وأؤخّر أخرى عن قصدك، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك، وأثني ثانية نحو استبقائك واستصلاحك، وأتوقّف عن امتثال بعض المأمور فيك؛ ضناً بالنّعمة عندك، ومنافسة في الصّنيعة لديك، وتأميلاً لفيئتك وانصرافك، ورجاء لمراجعتك وانعطافك، فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللُّب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرّأي ثم يُستدرَك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو، وكلُّ ضيّقةٍ فإلى رخاء، وكل غمرة فإلى انجلاء. وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحسبه أولياؤك؛ فلا تدع أن تأتي من إحسانك بما لا يرتقبه أعداؤك. وكما استمرّت بك الغفلة حتى ركبتَ ما ركبتَ، واخترتَ ما اخترتَ، فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قُبْح ما صنعت، وسوء ما أثرت، وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماطلة ما صلح، وعلى الاستيناء والمطاولة ما أمكن؛

^١ انظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (١٣٥ / ٣ - ١٣٦).

طمعًا في إيناسك، وتحكيماً لحسن الظنِّ بك؛ فلست أعدم فيما أظاهره من إعذار، وأرادفه من إنذار؛ احتجاجاً عليك، واستدراجاً لك، فإن يشأ الله يرشدك، ويأخذ بك إلى حظِّك ويسدِّدك؛ فإنه على كل شيء قدير".

- ومنها: "وزعمت أنَّك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسِّطها، فإذا كنت كذلك فقد عرفتَ حالها، وحلبتَ شطريها، فنشدتك الله لما صدقت عما سألتك عنه: كيف وجدتَ ما زُلتَ عنه، وكيف وجدتَ ما صرتَ إليه؟ ألم تكن من الأوَّلين في ظلِّ ظليلٍ، ونسيمٍ عليلٍ، وريحٍ بليلٍ، وهواءٍ عذبيٍّ، وماءٍ رويٍّ، ومهادٍ وطيٍّ، وكنٍّ كنينٍ، ومكانٍ مكينٍ، وحصنٍ حصينٍ، يقيك المتآلف، ويؤمِّنك المخاوف، ويكفيك من نوائب الزَّمان، ويحفظك من طوارق الحدثان، عززتَ به بعد الدِّلة، وكثرتَ بعد القلَّة، وارتفعتَ بعد الضَّعة، وأيسرتَ بعد العسرة، وأثريتَ بعد المتربة، واتَّسعتَ بعد الضَّيقة، وأطافت بك الولاة، وخفقت فوقك الرِّايات، ووطئ عقبك الرِّجال، وتعلَّقت بك الآمال، وصرتَ تُكاثِّر ويُكاثِّر بك، وتشير ويشار إليك، ويذكِّر على المنابر اسمك، وفي المحاضر ذكرك؟ ففيم الآن أنت من الأمر؟ وما عَوْضٌ ممَّا عدَّدت؟ والخلف ممَّا وصفت؟ وما استعددت حين أخرجتَ من الطاعة نفسك، ونفضتَ منها كمَّك، وغمست في خلافها يدك؟ وما الذي أظَّلَّك بعد انحسار ظلِّها عنك؟ أظِلُّ ذو ثلاثِ شُعَب، لا ظليلٌ ولا يُغني مِنَ اللَّهب؟!!".

- ومنها: "تأمل حالك، وقد بلغت هذا الفصل من كتابي مستكرهاً، والمسَّ جسدي وانظر هل يحسُّ؟ واجسُس عِرْقَكَ هل ينبض؟ وفَتِّش ما حنيت عليه أضلاعك؛ هل تجد في عرضها قلبك؟ وهل حلا بصدرك أن تظفر بموتٍ سريع، أو بفوتٍ مريح؟ ثم قِسْ غائب أمرك بشاهده، وآخر شأنك بأوَّله".

وتعتبر هذه الرسالة غرَّة كلام ابن العميد وأجودَ رسائله، وقد وقعت في قلب ابن بلكا وأثَّرت فيه، حتى عاد إلى الطاعة وكفَّ عن العصيان، وقال: واللَّهِ ما كانت لي

حال عند قراءة هذا الفصل إلا كما أشار إليه الأستاذ الرئيس، ولقد ناب كتابه عن الكتاب في عرك أدبي واستصلاحي وردي إلى طاعة صاحبه.

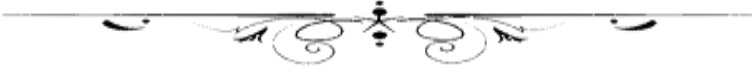
وهي بعد آية في البلاغة، وقد تضمنت في عباراتها شئ منحي البيان؛ من وشي البديع الذي نراه في السجع والجناس والطباق والمقابلة، وما رافق من ذلك من سبك حسن وإيقاع جميل وخيال خصب وصور بيانية غاية في الروعة والجلال.

- وكتب إلى أبي عبد الله الطبري في الشوق قائلاً: "كتابي وأنا بحال لو لم ينغص منها الشوق إليك، ولم يرق صفوها النزاع نحوك؛ لعدتها من الأحوال الجميلة، واعتدت حظي منها في النعم الجليلة؛ فقد جمعت لها بين سلامة عامة، ونعمة تامة، وحظيت منها في جسدي بصلاح، وفي سعيي بنجاح، لكن ما بقي أن يصفولي عيش مع بُعدي عنك، ويخلو ذرعي مع خلوي منك، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك، وكيف أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسي، وناظم لشملي أنسي، وقد حُرمت رؤيتك، وعدمت مشاهدتك، وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام، وينفع أنس متشتت بلا نظام، وقد قرأت كتابك -جعلني الله تعالى فداءك- فامتلأت سرورًا بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك في لفظك، وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندي، وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديري فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصري".

- وكتب إلى عضد الدولة ابن بويه يهنئه بولدين: "أطال الله بقاء الأمير الأجل عضد الدولة، دام عزه وتأييده، وعلوه وتمهيده، وبسطته وتوطيده، وظاهره من كل خير مزيده، وهناه ما اختصه به على قرب الميلاد؛ من توافر الأعداد، وتكثر الأمداد، وتثمر الأولاد، وأراه من النجابة في البنين

^١ انظر: زهر الآداب وثمر الألباب (٢/ ٤٢٠ - ٤٢١)، أبو إسحاق القيرواني، شرح: د. يوسف علي طویل، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت.

^٢ انظر: زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق القيرواني (٢/ ٤٢١).



والأسباط، ما أراه من الكرم في الآباء والأجداد، ولا أخلى عينه من قُرّة،
ونفسه من مسرّة، ومتجدّد نعمة، ومستأنف مكرمة، وزيادة في عدده،
وفسح في أمده، حتى يبلغ غاية مهله، ويستغرق نهاية أمله، ويستوفي ما
بعد حسن ظنّه؛ وعرفه الله السعادة فيما بشرّ عبده من طلوع بدرين هما
انبعاثا من نوره، واستنارا من دوره، وحُققا بسريره، وجعل وفودهما
متلائين، ووُرودهما توأمين، بشيرين بتظاهر النعم، وتواتر القسم،
ومؤذنين بترادف بنين يغصُّ بجمعهم منخرق الفضاء، ويشرق بنورهم
أفق العلاء، وينتهي بهم أمد النماء، إلى غاية تفوت غاية الإحصاء، ولا
زالت السبل عامرة، والمناهل غامرة، يصافح صادرهم بالبشر الوارد،
وأملهم بالنيل القاصد".

- وممّا يُستحسن من شعره:

أشكو إليك زمّناً ظلّ يعرّكني	عرّك الأديم ومنّ يُعدي على الزّمن
وصاحباً كنت مغبوطاً بصحبته	دهراً فقد ردّني فرداً بلا سكين
هبت له ريح إقبالٍ قطار بها	إلى السُّرورِ وألجاني إلى الحرّ
نأى بجانبه عني وصيرني	من الأسى ودواعي الشّوق في قرّن

^١ انظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (٣/ ١٤١).

١٠- الصَّاحِب ابن عباد

ترجمته!

هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العبَّاس بن عباد الوزير، من أهل الطالقان؛ وهي ولاية بين قزوين وأبهر، وُلد في ذي القعدة نحو عام (٣٢٦هـ/ ٩٣٨م)، وهو من بيت عِلْمٍ وأدبٍ، وقد نشأ ذكياً، وكان أبوه عبَّاد من أهل العلم والفضل، وكان وزيراً لركن الدولة ابن بويه، وقد أخذ إسماعيل العلم واللغة عن أبيه وعن أبي الحسين أحمد بن فارس، كما رافق ابن العميد منذ صباه، فقدَّمه وعرف فضله، وتتلذذ على يديه في فن الإنشاء، وعُرف بالصَّاحِب لمُصاحَبَتِهِ إِيَّاه، وقيل: بل عرف بالصَّاحِب لمُرافَقَتِهِ لمُؤيد الدولة ابن بويه.

وكان الصَّاحِب أوَّل أمره رقيق الحال، من صغار الكتَّاب، حتى قدَّمه ابن العميد لدى مؤيِّد الدولة ابن ركن الدولة بأصبهان وهو يومئذ أمير، فكتب بين يديه، وأحسن في خدمته، ولما مات ركن الدولة وَلِيَ ابنه مؤيد الدولة بلاد الريِّ وأصبهان، ووزيرُهُ حينها أبو الفتح عليُّ بن العميد، لكنَّه ما لبث أن قُتل لِخلاف مع عضد الدولة أخي مؤيد الدولة، فاستوزر مؤيِّد الدولة بعده الصَّاحِب ابن عباد وفوَّض إليه شُؤون دولته وأمواله، ولقَّبه بالصَّاحِب وبِكافي الكفاة، ولم يزل على ذلك حتى مات مؤيد الدولة، فاستدعى الصَّاحِب بعده أخاه فخر الدولة وملَّكه البلاد، وكان قد فرَّ من أخيه عضد الدولة، فأقرَّ الصَّاحِب على عمله ووزارته، ويُقال: إنه حاول أن يَسْتعْفِي فأبى عليه فخر الدولة قائلاً: لك في هذه الدولة مِن إرث الوزارة كما لنا مِن إرث الإمارة، فسبيل كلِّ واحدٍ مِنَّا أن يحتفظ بحقِّه؛ فاستمرَّ الصَّاحِب على وزارته، وكان مسموع الكلمة، نافذ الأمر، بصيراً حسن السَّيرة والسَّياسة، وكان ممدَّحاً يتوافد على مجلسه عدد غفير من

^١ انظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (٣/ ١٥٤ - ٢٢٨)؛ الفهرست، ابن النديم (ص ٤١٩)؛ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ١٩٧ - ١٩٩)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٢/ ٦٦٢ - ٧٢٠)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٢٢٨ - ٢٣٣)؛ النثر الفني في القرن الرابع الهجري، أحمد زكي صفوت (٢/ ٢٩٦ - ٣١٥).

الكتاب والأدباء والعلماء، فاجتمع حوله ما لم يجتمع لأحد منذ عصر هارون الرشيد؛ كأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني وأبي العلاء الأسدي، ومدحه كتابة الشريف الرضي وأبو إسحاق الصّابي وابن نباتة، واستزاره نوح ابن نصر الساماني ملك خراسان يعرض عليه الوزارة وإدارة شؤون مملكته، فاعتذر له، وظلّ على وزارته لفخر الدولة البويهي إلى أن توفّي نحو عام (٣٨٥هـ/ ٩٩٥م)، وقد بلغ من عظم قدره أنه لما توفّي أُغْلِقَتْ له مدينة الريّ، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته، في حضور سيّده فخر الدولة البويهي وسائر القادة، فلمّا خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحدة وقبّلوا الأرض، ورثاه كثيرون.

كان الصّاحب ابن عبّاد بليغاً حاضر الجواب، فصيح اللسان، حسن التّكوين، كريم الأخلاق، سمح القريحة، وكان أوفى الناس قدراً في براعة القول وسعة الاطّلاع، أما أخلاقه فكانت مذبذبة بين الحسن والقبيح؛ فهو من جهة كان كريماً فصيحاً عظيم الجود، محبّاً للعدل، إلا أنّه من جهة أخرى كان مفتوناً بنفسه، لا يُقر لغيره بالفضل أو التّفوّق عليه، وبه رغبة لإذلال الكتاب والشعراء، ممّا جعل بعض الكتاب يتحاشون لقاءه؛ رفضاً لفكرة التّبعية والانتساب إليه، ورُوِيَتْ له بعض المثالب الدّالة على ضعف رأيه واختلال خُلُقِه، ولكنّ جانباً من تلك الأخبار لا يخلو من المبالغة والاختلاق؛ إذ إنّ أكثر ما أُخذ عليه قد اختلقه أبو حيان التّوحيدي؛ وكان متعصّباً عليه وعلى أستاذه ابن العميد، فاختلف عليهما مجموعة من الأخبار الزائفة في كتابه "أخلاق الوزيرين".

وللصّاحب بن عباد عدة مؤلفات؛ منها: كتاب "الأعياد وفضائل النيروز"، و"الإمامة" يقرّ فيه بأفضليّة عليّ بن أبي طالب ويثبت إمامة من سبقه، وكتاب "الوزراء"، و"مختصر أسماء الله"، وكتاب "الكشف عن مساوئ المتنبي" وسبب تأليف هذا الكتاب أن الصّاحب قد استزار المتنبي؛ طلباً لمديحه، وحاول إغراءه بالصّلة، فترقّع الأخير عن زيارته، فكان ممّن حرّضوا عليه، وألّف هذا الكتاب محاولاً الكشف عن مساوئ وعيوب شعره، وقد اعتُبر كتابه هذا عظيم القدر

والقيمة ودليلاً على درايته بالشعر والنقد، ولكن يغلب عليه قدرٌ كبيرٌ من التَّحامل على المتنبي.

وقد مدحه الثُّعالبِي في يتيمة الداهر قائلًا: "ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علُوِّ مَحَلِّه في العلم والأدب، وجلالة شأنه في الجود والكرم؛ هو صدر المشرق، وتاريخ المجد، وغُرَّة الزَّمان، وينبوع العدل والإحسان"، وقد ساندته مكانته السياسية على إبراز شهرته العلمية والأدبية.

نثره:

مضى الصاحب ابن عباد على نهج أستاذه ابن العميد في السَّجع وألوان البديع، ولا سيَّما الجناس، ويمتاز نثره بقوة الأسلوب، ومتانة التراكيب، والميل إلى الازدواج، والجنوح إلى الإطناب، والعناية بجزالة اللفظ وانتخابه، مع دقَّة المعنى وروعة التصوير والأخيلة، وربَّما مال إلى الغريب في بعض الأحيان، كما حُفِظَتْ له عدَّة توقيعات بديعة.

وكان ابن عبَّاد شغوفًا بالسَّجع، حتى قيل في تكلفه إيَّاه: يبلغ به ذلك لو أنَّه رأى سجعة تنحلُّ بموقعها عروة المُلْك، ويضطرب بها حبل الدولة، ويحتاج من أجلها إلى غُرم ثَقِيل، وكُلْفَةٍ صعبة، وتجشُّمُ أمور وركوب أهوال؛ لما كان يخفُّ عليه أن يفرج عنها ويخليها؛ بل يأتي بها ويستعملها، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عقباتها. وفي هذا الرأي مبالغة واضحة؛ لأنَّ الصاحب لم يتكلَّف السجع إلى تلك الدرجة الممقوتة؛ بل ربما تخلَّى عن سجعه أحيانًا في بعض رسائله، دون أن يتخلَّى عن الازدواج ومزاوجة العبارات.

وهو رغم جودة نثره يأتي في المرتبة التالية لأستاذه ابن العميد؛ نظرًا إلى أن ابن العميد كان أعظم دراية منه بالعلوم والمعارف المختلفة، فجاءت رسائله أدقَّ معنًى وأبعدَ مرمًى.

وله بجوار رسائله البديعة، شعر رقيق يدل على سعة معرفته بالشعر ونقده، وهو شعر متوسط الجودة، تنوعت أغراضه بين المديح والغزل والثناء والحكم والإخوانيات.

من رسائله:

- كتب رقعة في الاعتذار: "سَيِّدِي أَعْرِفْ بِأَحْكَامِ الْمُرُوءَةِ مِنْ أَنْ يُهْدَى إِلَيْهَا، وَأَحْرَصْ عَلَى عِمَارَةِ سَبْلِ الْفُتُوَّةِ مِنْ أَنْ يُحَضَّ عَلَيْهَا، وَقَدِيمًا حُمِلَتْ أَوْزَارُ السُّكْرِ عَلَى ظُهُورِ الْخَمْرِ، وَطُويَ بِسَاطِ الشَّرَابِ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ خَطِإٍ وَصَوَابٍ، وَكُنْتُ الْبَارِحَةَ بِعَقَبِ شَكَاةٍ أَضْعَفْتَنِي، وَنَقَلْتَنِي عَنْ عَادَتِي، وَاسْتَعْفَيْتُ السُّقَاةَ غَيْرَ دَفْعَةٍ، فَأَبَوْا إِلَّا إِلْحَاحًا عَلَيَّ، وَإِتْرَاعًا إِلَيَّ، وَكَرِهْتُ الْامْتِنَاعَ خَشْيَةً أَنْ أَوْقَعَ الْكَسَادَ فِي سَوْقِ الْأَنْسِ، وَتَفَادِيًا مِنْ أَنْ يَقْعُدَ عَلَى خَنْصَرِ الثَّقِيلِ، فَلَمَّا بَلَغْتَ الْحَدَّ الَّذِي يُوجِبُ الْحَدَّ؛ بَدَرَمَنِي مَا يَبْدُرُ مِمَّنْ لَا يَصْحَبُهُ لُبُّهُ، وَلَا يَسَاعِدُهُ عَقْلُهُ وَقَلْبُهُ.
- ولا غرو فموالاة الأبطال تدع الشيوخ كالأطفال، فإن رأى أن يقبل عُذْرِي، فِيمَا جَنَاهُ سَكْرِي، وَيَهَبْ جُرْمِي لِمَعْرِفَتِهِ نَيْتِي فِي صَحْوِي، وَإِنْ أَبَى إِلَّا مَعَاقِبَتِي؛ جَعَلَهَا قَسَمِينَ بَيْنَ الْمُدَامِ وَبَيْنِي؛ فَعَلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى".
- وكتب رقعة مداعبة: "خَبَرِ سَيِّدِي عِنْدِي وَإِنْ كَتَمَهُ عَنِّي وَاسْتَأْثَرَهُ دُونِي، وَقَدْ عَرَفْتُ خَبْرَهُ الْبَارِحَةَ فِي شُرْبِهِ وَأُنْسِهِ، وَغَنَاءِ الضَّيْفِ الطَّارِقِ وَعَرْسِهِ، وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكَرُهُ، وَجَرَى مَا جَرَى مِمَّا لَسْتُ أَنْشُرُهُ، وَأَقُولُ: إِنَّ مَوْلَايَ امْتَطَى الْأَشْهَبَ، فَكَيْفَ وَجَدَ ظَهْرَهُ؟ وَرَكِبَ الطَّيَارَ فَكَيْفَ شَاهَدَ جَرِيَهُ؟ وَهَلْ سَلِمَ عَلَى حَزُونَةِ الطَّرِيقِ؟ وَكَيْفَ تَصْرَفُ؟ أَفِي سَعَةِ أَمٍ ضَيْقٍ؟ وَهَلْ أَفْرَدَ الْحَجَّ أَمْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ؟ وَقَالَ فِي الْحَمْلَةِ بِالْكُرَةِ؛ لِيَتَفَضَّلَ بِتَعْرِيفِي الْخَبْرَ، فَمَا يَنْفَعُهُ الْإِنْكَارُ، وَلَا يَغْنِي عَنْهُ إِلَّا الْإِقْرَارُ،

^١ انظر: بيتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (٣/ ١٩٦).

^٢ انظر: المصدر السابق (٣/ ١٩٨).

وأرجو أن يساعدنا الشيخ أبو مرة كما ساعده مرة؛ فنصلي للقبلة التي صلى إليها، ونتمكن من الدرجة التي خطب عليها، هذا وله فضل سبق إلى ذلك الميدان لكثير الفرسان".

- وكتب في رسالة له: "علقت هذه الأحرف، وأنا على حافة حوض ذي ماء أزرق كصفاء ودِّي لك، ورقة قولي في عتابك، ولورأيته لأنسيت أحواض مأرب ومشارب أمّ غالب، وقد قابلتني شقائق كالزُّنوج تجارحت فسالت دماؤها، وضعفت فبقِي دماؤها، وسامتني أشجار كأنّ الحور أعارتها أثوابها، وكسّتها أبرادها، وحضرتني نارنجات ككرات من سفن ذهبّت، أو ثدي أبكار خلقت، وقد تبرّم بي الحاضرون؛ لطول الكتاب، فوقفت وكففت، وصدفت عن كثير ممّا له تشوّفت".

- وله توقيعات بديعة: من بينها توقيعه لرقعة استحسناها: (أَفْسَحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ)؛^٢ ووقع في كتاب بعض مخالفه: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)؛^٣ ووقع في كتاب ورده قائلاً: "مَنْ نَظَرَ لِدِينِهِ؛ نَظَرْنَا لَدُنْيَاهُ، فَإِنْ ثَرَتْ الْعَدْلُ وَالتَّوْحِيدُ؛ بَسَطْنَا لَكَ الْفَضْلَ وَالتَّمْهِيدَ، وَإِنْ أَقَمْتَ عَلَى الْجَبْرِ؛ فَلَيْسَ لِكَسْرِكَ مِنْ جَبْرٍ".

- وله من الشعر:

هَذَا عَلَيَّ، عَلِيٌّ فِي مَحَاسِنِهِ كَأَنَّمَا وَضَعَهُ أَيُّي أَلْبَغُ الْأَمَلَا
وَكَمْ أَقُولُ وَقَدْ أَبْصَرْتُ طَلْعَتَهُ هَذَا الَّذِي فِي طِرَازِ اللَّهِ قَدْ عَمِلَا

^١ انظر: المصدر السابق (٣/ ١٩٦).

^٢ انظر: المصدر السابق (٣/ ١٦٠).

^٣ سورة الطور (١٥).

^٤ سورة البقرة (٧٩).

^٥ انظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (٣/ ٢٠٢).

١١- أبو إسحاق الصَّابِي

ترجمته!

هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون بن حبون، الحراني الصَّابِي، نشأ على دين الصابئة الحرَّانيِّين، وُلِدَ نحو عام (٣١٣هـ / ٩٢٥م) أو بعد ذلك، تقلَّد ديوان الرسائل في بغداد عام (٣٤٩هـ / ٩٦٠م)، فكان يكتب عن الخليفة العباسي، وعن عزِّ الدولة البويهي والوزير المهلبِّي، وكانت تصدر عنه مكاتبات إلى عضد الدولة البويهي بما يؤمله، فلمَّا استولى عضد الدولة على بغداد وقَتَلَ ابن عمِّه عز الدولة بختيار؛ قام باعتقال الصَّابِي وحبسه عام (٣٦٧هـ / ٩٧٨م)، ثم سأل عنه فعرف موهبته وبلاغته، وأمره أن يكتب كتابًا في فضائل بني بويه، فعكف في محبسه على تأليف كتاب "التَّاجِي في أخبار بني بويه"، ودخل عليه أحد رفاقه فسأله عمَّا يفعل، فقال: أباطيل أنمِّقُها، وأكاذيب ألِفِّقُها!! فانتَهى ذلك إلى عضد الدولة، فهَمَّ بقتله دهسًا تحت أقدام الفيلة، حتى شُفِعَ فيه، فعدل عن ذلك واكتفى باستصفاء ماله، وأبقاه في سجنه سنين، حتى مات عضد الدولة عام (٣٧٢هـ / ٩٨٣م)، وخلفه ولده صمام الدولة، فأطلقه وعفا عنه.

وكانت بينه وبين الصَّاحِب ابن عباد مراسلات ومكاتبات، لكنَّه كان يتحاشى لقاءه؛ رفضًا لصلَّة التَّابع والمتبوع، وبينه وبين الشريف الرضي صداقة غريبة من نوعها؛ لاختلاف الديانة والعقيدة، حتى إنَّ الشَّريف رثاه بعد موته؛ لارتفاع منزلته عنده، ويقال: إنَّه استزار أبا الطَّيِّب المتنبي طمعًا في مديحه، وراسله لأجل ذلك، فاعتذر له المتنبي قائلًا: "والله ما رأيتُ بالعراق من يستحقُّ المدح غيرك، ولا أوجبَ عليَّ في هذه البلاد أحدٌ من الحق ما أوجبتَه، وأنا إنْ مدحتُك؛ تنكر لي الوزير المهلبِّي، وتغيَّر عليك؛ لأنَّني لم أمدحه، فإن كنتَ لا تُبالي هذه الحال فأنا

^١ انظر: بيتيمة الدهر، الثعالبي (٢/ ١٩٥ - ١٩٦)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (١/ ١٣٠ - ١٥٨)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٥٢ - ٥٤).

أُجِيبُكَ إِلَى مَا التَّمَسْتِ، وَمَا أُرِيدُ مِنْكَ مَنَآلًا وَلَا عَنْ شِعْرِي عَوَضًا"، وَيَبْدُو أَنَّ الصَّابِي قَبْلَ عَذْرِهِ وَلَمْ يَغْضَبْ عَلَيْهِ، وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ دَلِيلٌ عَلَى عِظَمِ مَكَانَةِ الصَّابِي حِينَهَا وَتَقْدِيرِ الْمُتَنَبِّي لَهُ.

وَكَانَ فَاضِلًا حَسَنَ الْعَشْرَةِ وَالْخِلَالِ، كَرِيمَ الْمَنَاقِبِ وَالْفَضَائِلِ، نَبِيلَ الْأَخْلَاقِ، وَفِيًّا لِدِينِهِ، حَتَّى إِنَّهُ عُرِضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ وَعُرِضَ عَلَيْهِ عِزُّ الدَّوْلَةِ بِخِتَارِ الْوِزَارَةِ لِقَاءِ ذَلِكَ، لَكِنَّهُ أَبَى وَتَمَسَّكَ بِدِينِهِ، وَقَدْ حَضَرَ يَوْمًا مَائِدَةً لِلْوِزِيرِ الْمَهْلَبِيِّ، فَامْتَنَعَ عَنِ الطَّعَامِ لِإِبَاقَاءِ كَانَتْ عَلَيْهَا وَهِيَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الصَّابِنَةِ، فَلَمَّا دَعَاهُ الْوِزِيرُ؛ اعْتَذَرَ قَائِلًا: أَيُّهَا الْوِزِيرُ؛ لَا أُرِيدُ أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي مَأْكُولٍ!! فَاسْتَحْسَنَ الْوِزِيرُ الْمَهْلَبِيُّ ذَلِكَ، وَرُويَ أَنَّهُ كَانَ يَقْدِمُهُ وَيَعْظُمُ قَدْرَهُ. وَرُويَ أَنَّهُ مَعَ وَفَائِهِ لِدِينِهِ كَانَ حَسَنَ الْعَشْرَةِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ؛ إِذْ كَانَ يَصُومُ رَمَضَانَ، وَيَحْفَظُ الْقُرْآنَ حِفْظًا يَدُورُ عَلَى لِسَانِهِ وَقَلَمِهِ، وَيَجْتَهِدُ فِي عَمَلِهِ وَخِدْمَتِهِ، وَتَوَفِّيَ نَحْوَ عَامِ (٣٨٤هـ / ٩٩٤م) وَقَدْ جَاوَزَ السَّبْعِينَ.

نثره:

كَانَ الصَّابِي رَائِعَ الْبَيَانِ، عَالِي الْبَلَاغَةِ، بَارِعَ الْإِنْشَاءِ، سَلِيمَ الذَّوْقِ، وَقَدْ مَضَى عَلَى نَهْجِ ابْنِ الْعَمِيدِ فِي الْاعْتِمَادِ عَلَى السَّجْعِ وَالْمَحْسِّنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ، فَكَانَ نَثْرُهُ رَقِيقًا عَذْبَ اللَّفْظِ، رَائِعَ السَّبْكِ، مُتَنَاعِمَ الْأُسْلُوبِ، رَائِقَ الْمَعْنَى، سَلِسَ الْعِبَارَةِ، حَسَنَ الْمَوَازَنَةِ بَيْنَ الْأَلْفَافِظِ، وَفِي نَثْرِهِ آثَارٌ مِنَ الْاِقْتِبَاسِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَأَثَّرَ بِالثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَوَرَدَتْ لَهُ بَعْضُ التَّحْمِيدَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ، وَكَانَ يَضْمِنُ رِسَالَتَهُ أَبْيَاتًا مِنَ الشَّعْرِ، وَدِيَوَانَهُ مَلِيءٌ بِالرِّسَالِ الْبَدِيعِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ آيَةً فِي الْبَلَاغَةِ وَالنَّصَاعَةِ.

وَيَمْتَازُ الصَّابِي عَلَى مَعَاصِرِهِ الْكُتَّابُ بِرَقَّةِ شَعْرِهِ وَعَذُوبَتِهِ، حَتَّى يَكَادُ يُقَارَبُ فِي مَنَزَلَتِهِ شَعْرَ الْفُحُولِ، وَهُوَ يَدُورُ حَوْلَ بَعْضِ الْأَغْرَاضِ كَالْغَزْلِ وَالْخَمْرِ وَالْأَوْصَافِ وَالْفَخْرِ وَالْمَدِيحِ وَالْهَجَاءِ وَالْإِخْوَانِيَّاتِ وَالْمُنَاسِبَاتِ وَالتَّعَازِي وَالتَّهَانِي وَالْمَعَاتِبَاتِ وَالْحِكْمَةَ وَالشُّكُوى مِنَ الْحَبْسِ وَتَقَلُّبِ الدَّهْرِ وَوَصْفِ الشَّيْبِ.



من رسائله:

- كتب أبو إسحاق الصابي إلى عضد الدولة البوبهي في التهئة: "أسأل الله تعالى مبتهلاً لديه، ماداً يدي إليه؛ أن يُحيل على مولانا هذه السّنة وما يتلوها من أخواتها بالصالحات الباقيات، وبالزائدات الغامرات؛ ليكون كل دهر يستقبله، وأمدٍ يستأنفه؛ موفياً على المتقدم له، قاصراً عن المتأخر، ويوفيه من العمر أطوله وأبعده، ومن العيش أعذبه وأرغده، عزيزاً منصوراً موفوراً، باسطاً يده فلا يقبضها إلا على نواصي أعداء وحساد، سامياً طرفه فلا يغضّه إلا على لذة غمضي ورقاد، مستريحة ركابه فلا يُعملها إلا لاستضافة عزٍّ، وملك فائزة قِداحُه فلا يُجيلها إلا لحيازة مال ومُلك؛ حتى ينال أقصى ما تتوجّه إليه أمنيته جامعاً، وتسمو له همّته طامحاً".

- وكتب إلى صديق له في الشكوى والاستمache: "ولمّا صارت صروف الدّهر تنوء عليّ بعد التّطريف، وتجحف بي بعد التّحيف، وصادف ما يجدد عليّ في هذا الوقت منها أشلاء منّي منهوكة، وأعظمًا مبرية، وحشاشة مشفية، وبقية مودية؛ جعلت اختبار الجهات، واغتنام الجنبات؛ لأنحو منها ما لا يعاب سائله إذا سأل، ولا يخيب أمله إذا أمل، وكان سيدي أولها إذا عددت، وأولها إذا اعتمدت، وكتبت كتابي هذا بيد يكاد وجهي يتظلم منها إذا تخطّهُ؛ إشفاقاً على مائه ممّا يريقه، لولا الثقة أنه يحقن مياه الوجوه، ويحميها ويجمها ولا يقذمها".

- وفي رسالة في وصف الرمي والصيد^١: "مأرب الناس منزلة بحسب قربها من هزل أوجيدٍ، ومرتبة على قدر استحقاقها من ذمٍّ أو حميدٍ، وإذا وقع التأمّل

^١ انظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (١٩٩ / ٢).

^٢ انظر: المصدر السابق (٢٠٢ / ٢).

^٣ انظر: المصدر السابق (٢٠٦ / ٢).

عليها والتدبر لها؛ وجد أولاهها بأن تعدّه الخاصّة نزهة وملعبًا، والعامّة حرفةً ومكتسبًا.

الصَّيْدُ الذي فاتِحَتُهُ طِلابُ لَذَّةٍ ونظري، وخاتِمَتُهُ حصولُ مغنمٍ وظفرٍ، وقد اشتركت الملوك والسُّوقَة في استجماله، واتفقت الشرائع المختلفة على استحلاله، ونطقت الكتب المنزلة بالرخصة فيه، وبعثت المروءات على مزاولته وتعاطيه، وهو رائض الأبدان، وجامع شمل الإخوان، وداع إلى اتصال العشرة منهم والصحبة، وموجب لاستحكام الألفة بينهم والمحبة".

- وكتب فصلاً عن الخليفة في رعاية الآباء واصطناع الأولاد: "وأمر المؤمنين يذهب على آثار الأئمة المهديين، والولاء المجتهدين؛ في إقرار ودائعهم عند المترشحين لحفظها، والمضطلعين بحملها، من أولاد أوليائهم، وذرية نصائحهم؛ إذ كان لا بدّ للأسلاف أن تمضي، وللأخلاف أن تنمو؛ كالشجر الذي يغرس لدناً فيصير عظيمًا، والنبات الذي ينجم رطبًا فيعود دهشمًا؛ فالمصيب من تخير الغرس من حيث استنجب الشجر، واستحلي الثمر؛ وتعمّد بالعُرف من طاب عنه الخبر، وحسن منه الأثر".

- ومن شعره في الغزل:

تَوَرَّدَ دَمْعِي إِذْ جَرَى وَمُدَامَتِي فَمِنْ مِثْلِ مَا فِي الْكَأْسِ عَيْنِي تَسْكُبُ
فَوَاللَّهِ مَا أُدْرِي أَبَالْخَمْرِ أُسْبَلْتُ جُفُونِي أَمْ مِنْ عَبْرَتِي كُنْتُ أَشْرَبُ

- وقال يصف نكبته ويشكو:

قَدْ كُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ مَالِي وَكَثْرَتِهِ وَكَيْفَ تَغْفُلُ عَنْهُ حِرْفَةُ الْأَدَبِ
حَتَّى انْتَبَتْ وَهِيَ كَالْغَضْبَى ثَلَاحِظْنِي شَرُّرًا فَلَمْ تُبْقِ لِي شَيْئًا مِنَ النَّشَبِ
فَاسْتَيْقَنْتُ أَنَّهَا كَانَتْ عَلَى غَلِطٍ فَاسْتَدْرَكْتُهُ وَأَفْضْتُ بِي إِلَى الْحَرَبِ

^١ انظر: المصدر السابق (٢/ ٢٠٥).

^٢ انظر: المصدر السابق (٢/ ٢٠٦).

^٣ انظر: المصدر السابق (٢/ ٢٣٥).

١٢- أبو بكر الخوارزمي

ترجمته!

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، وأمُّه من طبرستان، فكان يقال له: "الطبرخزي"، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبري المؤرخ المشهور، كان عالماً فاضلاً أديباً، بارعاً في النثر والنظم، يجمع بين الفصاحة والبلاغة، عالماً باللغة والنحو والشعر والأنساب وبأخبار العرب، وُلِدَ نحو عام (٣٢٣هـ / ٩٣٥م)، وأخذ يطوف بين البلاد طلباً للعلم، فزار حلب ولقي حاكمها سيف الدولة الحمداني، ثم انتقل إلى بخارى فمدح أبا عليّ البعلبي وزير حاكمها منصور بن نوح الساماني، ثم هجاه وفارقه، وانتقل إلى نيسابور فاتَّصل بالأمير أبي نصر أحمد ابن عليّ الميكالي ومدحه، ثم قصد سجستان ومدح واليها أبا الحسين طاهر ابن محمد، فوصله، ولكنَّه عاد وهجاه، ثم سار إلى طبرستان، ثم عاود زيارة نيسابور، ثم قصد صاحب ابن عباد بأصبهان، فوفِّقَ للقاءه ومدحه ووصله، قبل أن ينقلب عليه ويهجمه بعد ذلك، وحاول الاتصال بالوزير أبي نصر العتبي فلم يَنْلُ حظوةً عنده، فهجاه، فاعتقله العتبي وألقاه في السجن وصادر أمواله، إلا أنَّه أفلت من محبسه وهرب إلى جرجان متنكِّراً، فتحسَّنت حاله، وأقام فيها إلى أن قُتِلَ العتبي وخلفه على الوزارة أبو الحسن المزني، وكان مُحَبِّباً للخوارزمي، فكتب إليه بالرجوع، وعوَّضه عمَّا صُوِّدَ من أمواله وممتلكاته، فأقام بقيَّة حياته في نيسابور حسن الحال، وافر النعمة، يلقي ما يلقيه من التَّجِيل والاحترام من ولاة نيسابور، إلى أن ابتلي في أواخر حياته بمناظرة الأديب الشَّابِّ بديع الزَّمان الهمداني، وأعان الهمداني عليه بعضُ الوجوه من خصومه، وقد جرت بينهما مناظرة يطول الحديث فيها، ولم يتَّفَق للخوارزمي ما اتَّفَق لبديع

^١ انظر: يَتِيْمَةُ الدَّهْرِ، الثَّعَالِبِيُّ (٤/ ١٥٣ - ١٦٣)؛ مَعْجَمُ الْأَدْبَاءِ، يَاقُوتُ الحَمَوي (٦/ ٢٥٤٣)؛ وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ، ابْنُ خُلْكَانٍ (٤/ ٤٠٠ - ٤٠٣)؛ النُّثْرُ الْفَنِيُّ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ، زَكِي مَبَارَك (٢/ ٣١٦ - ٣٣٦)؛ تَارِيخُ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، عَمْرُ فَرْوُخ (٢/ ٥٤٤ - ٥٤٥).

الزمان من رشاقة القول وخفة الروح، والتلاعب بمفردات اللغة، فانخذل الخوارزمي انخذالاً شديداً، وخسر المناظرة، ولم يحل عليه الحول حتى قضى نحبه عام (٣٨٣هـ/٩٩٣م) وقيل: بل عام (٣٩٣هـ/١٠٠٢م).

وكان الخوارزمي آيةً في البلاغة والمعرفة، معروفاً بقوة حفظه وسعة درايته بالشعر، حتى روي أنه لما وصل إلى باب الصحاح ابن عباد يستأذن عليه، ودخل عليه الحاجب وأعلمه، فقال الصحاح: قد ألزمت نفسي أن لا يدخل عليّ من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب؛ فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك، فقال له أبو بكر: ارجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فلما دخل عليه الحاجب وأعاد عليه قوله؛ قال: هذا يريد أن يكون أبا بكر الخوارزمي!! فأذن له في الدخول وبسط له.

وقد يكون العدد الذي ورد في تلك القصة شيء من المبالغة؛ لأن الرواة قد قصروا في رواية شعر النساء كما مرّ بنا في غير موضع، ويصعب أن يكون حظ ما روي عن النساء من الشعر يصل إلى هذا القدر، ولكنّها على كل حال قصة تدل على مهارة الخوارزمي في الحفظ ودرايته بشعر العرب، وكان أحد أبرز كتّاب وأدباء عصره، وكان فيه تعصّب لبني بويه، وميل إلى التشيع، وقد كتب رسالة مطوّلة عبّر فيها عن تشييعه وتعاطفه مع أهل البيت.

نثره:

كان الخوارزمي إماماً في اللغة، عارفاً بالشعر والأدب والأنساب، قويّ الحفظ، واسع المعرفة، وهو من طبقة ابن العميد في أسلوب كتابته؛ حيث التزم السجع في كتاباته، وشغف بالزخرف اللفظي، فقصد إلى المحسنات البديعية من طباق وجناس ومقابلة، مع الإطناب ومزاوجة العبارات وحسن التراكيب، مع عدم إغفاله للمعنى، ولا تخلو رسائله من بديع الوصف، وعذوبة اللفظ، وجمال الصور الفنيّة، ومن كلامه ما يجري مجرى الحكّم والأمثال، إلا أن حدة السجع والبديع قد زادت معه فوق ما نراها في كتابات ابن العميد والصحاح والصاهي؛

حيث نراه التزم السَّجْع التزامًا متزايدًا، وكان يتكلّفه في بعض الأحيان، فيصيب تارة ويحسن المعنى، ويضعف مستواه تارةً أخرى حتى يظهر عليه شيءٌ من الجفاف والجفاء والسطحية، كما في هذا النص: "أذكره وإن كنت لا أنساه، وألقاه بقلبي وإن كنت لا ألقاه، وأسأل الله تعالى أن يُرينا السلامة سليمة، واستقامة أحواله مستقيمة، فلا شيء أحوج من السلامة إلى السلامة، ولا إلى الاستقامة من الاستقامة"، وهذا السَّقْط سببه أن الخوارزمي كان يتكلّف أحيانًا السجع والزخرفة، محمّلًا قلمه ما لا يطيق، فهو دون ابن العميد في سموّه، ودون بديع الزمان الهمذاني في خفّة رُوحه وتلاعُبه بالمفردات، والحقُّ أن الخوارزمي كان من أنبّه كتّاب عصره عقلاً، وأوسعهم علمًا، لكنّه انساق إثر أسلوب العصر في كتابته، ولو تحرّر من قيود السَّجْع والصَّنعة لكان أحسن وأتمّ وأصوبَ لغرضه، كما حطّ من قدره قليلًا تردّد موقفه تجاه بعض الأعيان الذين مدحهم ثم انقلب عليهم فهجاهم.

وديان رسائله موجود، وهو مليء بالرسائل البديعة، وله بجانب رسائله شعر كثير؛ حيث يُستدل من أخباره وتنقّلاته وما حظي به من العطايا والصلّات أنه كان شاعرًا كثيرًا، ولكن ضاع أغلب شعره، وما وصلنا منه يدور بين أغراض المديح والرثاء والهجاء والغزل، وهو متوسّط الجودة، بين الرديء والجيد، وليس لشعره ذكر مع لمعان نجم بعض معاصريه كالمتنبي وأبي فراس والمعري والشريف الرضي.

من رسائله:

- كتب في فصل له يمدح الفقر: "وإنما يُكرّه الفقر لما فيه من الهوان، ويُستحب الغنى لما فيه من الصّوّان، فإذا نبغ الغم من تربة الغنى، فالغنى هو الفقر، واليسر هو العسر، لا بل الفقير على هذه القضية أحسن من الغني وأقل منه أشغالاً؛ لأن الفقير خفيف الظهر من كل حق، منكفئ

^١ انظر: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك (٢/ ٣٢٨).

^٢ انظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (٤/ ١٥٩).

الرَّقْبَةُ من كل رِقٍّ، فلا يستبطنه إخوانه، ولا يطمع فيه جيرانه، ولا تُنتظر في الفطر صدقته، ولا في النحر أضحيته، ولا في شهر رمضان مائدته، ولا في الربيع باكورته، ولا في الخريف فاكهته، ولا في وقت الغلة شعيره وبُره، ولا في وقت الجباية خواجه وعشره؛ وإنما هو مستجدٌ يُحمَل إليه ولا يُحمَل عنه، وعلوي يؤخذ بيده ولا يؤخذ عنه، تتجنَّبه الشرطُ نهائاً، ويتوقَّاه العَسَسُ ليلاً، فهو إما غانم وإما سالم، وأما الغني فإنما هو كالغنم، غنيمة لكل يد سالبة، وصيد لكل نفس طالبة، وطبق على شوارع النوائب، وعلم منصوب في مدرجة المطالب، تطمع فيه الإخوان، ويأخذ منه السلطان، ويُنتظر فيه الحدثان، ويحيف ملكه النُّقصان".

- وكتب في رسالة له يذكر الرمد: "صادف ورود الكتاب رمداً في عيني حتى حصرني في الظُّلْمَة، وحبسني بين الغمِّ والغُمَّة، وتركني أدرك بيدي ما كنت أدرك بعيني، كليل سلاح البصر، قصير خطو النظر، قد ثكلت مصباح وجهي، وعدمت بعضي الذي هو أثر عندي من كُلي؛ فالأبيض عندي أسود، والقريب مني مبعد، قد خاط الوجع أجفاني، وقبض عن التَّصَرُّفِ بناني، ففراغي شغل، ونهاري ليل، وطول الحاضي قصار، وأنا ضير وإن عُدِدْتُ في البصراء، وأمِّي وإن كنتُ من جملة الكتَّاب والقُرَّاء، قصرت العَلَّةُ خطوتي قلبي وبناني، وقامت بين يدي ولساني، قد كانت العرب تزواج بين كلمات تتجانس مبانها، وتتكافأ مقاطعها ومعانيها، فيقولون: القَلَّةُ ذَلَّةٌ، والوحدة وحشة، واللحظة لفظة، والهوى هوان، والأقارب عقارب، والمرض حرض، والرَّمْدُ كمد، والعَلَّةُ قَلَّةٌ، والقاعد مُقْعٌ".

- وله فصل في الاعتذار: "ذكر سيدي من شوقه إليَّ ما لم يتكلم فيه إلا عن لساني، ولم يترجم إلا عن شأني، وقد طويت بساط المدام، وصحيفة

^١ انظر: المصدر السابق.

^٢ انظر: المصدر السابق (١٥٨/٤).

المؤانسة والندام، وطلَّقتُ الرَّاحَ ثلاثاً، وفارقت الغناء بتاتاً، حتى شكتني
الأقداح، واستخفَّني الرَّاحُ، ونسي بناني الأترج والتُّفَّاح."

وله فصل في ذكر الآفات: "من آفات العلم خيانة الورَّاقين، وتخلُّف المتعلِّمين، كما أنَّ آفات الدِّين فسق المتكلمين، وجهل المتعبدِّين، وكما أنَّ من آفات الدنيا كثرة العامَّة، وقلة الخاصَّة، وكما أنَّ من آفة الكرم أنَّ الجود آفةٌ للمنع، وأنَّ البخل سببٌ للجمع، وأنَّ المال في أيدي البخلاء دون أيدي السمحاء، وكما أنَّ آفات الجِلْم أنَّ الحليم مأمون الجنبه، وأنَّ السفیه منيع الحوزة، وكما أنَّ من آفة المال أنك إذا صنَّته عرَّضته للفساد، وإذا أبرزته عرَّضته للنِّفاد، وكما أنَّ آفات الشُّكر أنك إذا قصرت عن غايته غشَّشت من اصطنعك، وإذا أبلغتها أو أبلغت فيه أوهمت من سمعك، وكما أنَّ من آفات الشُّراب أنك إذا أقللت منه حاربت شهوتك ولم تقضِ نهْمَتك، وإذا أكثرْتَ منه تعرَّضت للإثم والعار وأبرزت صفحتك للألم والنار، وكما أنَّ من آفات الممالِيك أنك إذا بسطتهم أفسدت أديهم وأذهانهم، وإذا قبضتهم أفسدت وجوههم وألوانهم، وكما أنَّ من آفات الأصدقاء أنك إذا استقللت منهم لم تُصِبْ حاجتك فيهم، وإذا استكثرْتَ منهم لزمْتَكَ حوائجهم وثقلت عليك نوائيمهم، وكسبت الأعداء من الأصدقاء، كما تكسب الداء من الغذاء، وكما أنَّ من آفات المغنِّين أنَّ الوسط منهم يميت الطَّرب، وأنَّ الحاذق منهم يُنسي الأدب".

^١ انظر: المصدر السابق.

١٣- بديع الزمان الهمذاني

ترجمته!

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر، الملقَّب ببديع الزمان، وُلد بهمذان نحو عام (٣٥٨هـ / ٩٦٩م)، وكان نجيباً نبياً، ما أخرجت همذان مثله بعده، أخذ العلم عن أحمد بن فارس وعيسى بن هشام الأخباري، وكان فصيحاً لا نظير له في الذكاء وسرعة الخاطر وصفاء الذهن، وكان جميل الصورة، خفيف الظلِّ، قويَّ الحافظة، سريع البديهة، ورُويت عنه عجائب كثيرة؛ منها أنه ينشد الشعر لم يسمعه قطُّ -وهو أكثر من خمسين بيتاً- إلا مرة واحدة فيحفظه، وينظر إلى الأربعة والخمسة من الكتب والأوراق فيحفظها من أوَّل مرة، وربَّما كتب الكتاب المُقترح عليه فيبتدئ بآخره ثم هلُمَّ جرّاً إلى أوَّله، وقد فارق همذان إلى حضرة صاحب ابن عباد في الريِّ، فلزمه حيناً ونال صِلته، ثم ارتحل إلى جرجان وأقام بها زمناً بين الإسماعيلية، واختصَّ بأبي سعد محمد ابن منصور أحد زعمائهم، ثم غادر جرجان إلى نيسابور وأملى هناك نحو أربعمائة مقامة، ضمَّنَّها ما تشبَّهه الأنفس وتلذُّ الأعين من سجع وزخرفة وتأنُّق ووشي بالبديع، فذاع صيته فيها وأقبلت عليه الدُّنيا بالرزق، ثم أخذ يسعى لمناظرة أبي بكر الخوارزمي إمام كتَّاب عصره وقتها، فجرت بينهما عدَّة مراسلات تطوَّرت إلى مناظرة شهيرة جمعت بينهما، لم تخلُ من المساجلات والمناظرات والمناوشات، وتباريا في التَّرسُّل والقصائد المتبادلة، ولم تتَّفَق للخوارزمي قدرات البديع في حلاوة حديثه وخفَّة رُوحه وعفويَّته، فتفوَّق عليه الهمذاني في الشُّعر والتَّرسُّل واللغة، وأعانه بعض أعيان البلد الذين شهدوا المناظرة، فأقروا بغلبة بديع الزمان وتفوُّقه، وهنا ذاع صيته، وعلت شهرته، وكانت تلك المناظرة سبباً في هبوب ريحه وعلوِّ أمره.

^١ انظر: يتيمة الدهر، الثعالبي (٤/ ٢٠١-٢٣٣)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (١/ ٢٣٤-٢٥٣)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ١٢٧-١٢٩).

وما لبث أن مات الخوارمي بعد أقل من عام على تلك المناظرة التي كانت وباءاً عليه، فخلا له الجو، وأخذ يتنقل بين بلاد سجستان وخراسان وغزنة، وما من بلد إلا وأحرز فيها صلة من حاكمها، وشهرةً بين جناباتها؛ حيث بهر الجميع بروعة أدبه وبهاء صنيعته، فاغتنى وصار في نعمة ووفرة، وألقى عصاه في بهرة فاستقر بها واتخذها داراً لإقامته، واقتنى فيها ضياعاً، وصاهر بها أحد أعلامها وهو أبو عليّ الحسين بن محمد الخشناني، إلا أنه ما لبث أن توفي شاباً في نحو الأربعين من عمره، وذلك نحو عام (٣٩٨هـ / ١٠٠٨م)، وقد اختلّف في موته؛ ف قيل: إنه مات مسموماً في هراة؛ وقيل: بل أصيب بسكتة قلبية وعُجل بدفنه، وأفاق من قبره وسُمع صوته بليلاً، فنُبش قبره، فوجدوه قابضاً لحيتته وقد مات من هول القبر، والله أعلم.

نثره:

نثر البديع جميل رقيق، خفيف أنيق، رشيق بديع الوشي، به تلذ الأعين، ويطيب المسمع، وتُسهمى الأفئدة، ويُمتلك الشعور، فيأض تام الملكة، وهو على نهج ابن العميد في البديع من سجع وجناس وطباق، لكنّه خطأ خطوة أخرى نحو مزيد من الاعتماد على المحسنات البديعية؛ فالتزم السجع التزاماً تاماً، واستكثر من الجناس استكثاراً ملحوظاً، بالإضافة إلى ألوان البديع الأخرى من طباق وتورية ومقابلة، بالإضافة إلى الاعتماد على الجمل القصيرة، والعبارات الرشيقة حتى يُظهر جرسه الإيقاعي، مع متانة اللفظ وحلاوته، والاقتباس من القرآن الكريم، وضرب الأمثال، وتضمين عباراته النثرية بالشعر.

وهو على فرط اهتمامه بالزخرفة لم يهمل المعنى، فجاءت معانيه رشيقة جميلة متوافقة مع إبداعه اللفظي، فلا يخلو نثره من التشبيهات البديعة، والاستعارات الرقيقة، والصور البيانية الرائعة، لكنّه لم يتعمّق في معانيه بنفس قدر تعمّق ابن العميد؛ لأنه كان يدرك أن أسلوبه المزخرف قد لا يحتمل مثلها، فيقع الاستكراه، فاكتمى بجعل معانيه رشيقة خفيفة تتفق مع سياق أسلوبه.

وقد بلغ نثره قمة الأنافة في التّفنّ والرُّخف اللفظي، وهو رغم تأثير الصنعة لا تشعر فيه بتكلّف ممقوت أو بتعقيد أو استكراه؛ لأنّ البديع كان مبدعاً متفنيّاً في التلاعب بالألفاظ وكيفية تخيُّرها، فلم يحمل نثره معاني يتعارض عمقها مع أسلوبه، فضلاً عن قدرته الفائقة في تقصير سجعاته حتى يظهر الأثر الجرس الموسيقي فيها؛ ليصير بحق فارس المدرسة العميدية وأفضل أعلامها بلا مدافع، والوحيد من كتّاب عصره الذي يجاري نثره في روعته نثر ابن العميد رائد هذه المدرسة؛ إذ اتّفق له فيها من القدرة الإبداعية والتّفنّ اللفظي ما لم يتّفق لأحد من كتّاب عصره، على أنّ بديع الزمان رغم إبداعه وتفنّنه فإن إغراقه في السّجع والزخرف إلى هذا الحدّ قد فتح باباً بعده لتوغّل الكتّاب في الصنعة، ومبالغتهم في التعقيد؛ كما نرى عند أبي العلاء المعريّ والحريري.

ومن شواهد إبداعه أنّ الخوارزمي لما أغشّي عليه في تلك المناظرة قيل له: يا أبا بكر؛ لم غشّي عليك؟ قال: لِحِمَى الطبع وحِمَى الغزو؛ فقال له البديع: أين أنت من السجع؟ هلاً قلت: حِمَى الطبع وحِمَى الصّفْع؟! وقال لشهود مناظرته تلك: لا تظلموه، ولا تُطعموه طعاماً يصير في بطنه مغصاً، وفي عينه رمصاً، وفي جلده برصاً، وفي حلقه غصصاً؛ فقال الخوارزمي: هذه أسجاع كنتُ أحفظها، فقل كما أقول: يصير في عينك قَدَى، وفي حَلِقِك أَدَى، وفي صدرك شَجَى؛ فقال البديع: يا أبا بكر؛ على الألف تريد؟ خُذِ الآن: بِفِيكَ البرا، وعلى هامتك التّرى، ولا أطعمك الخ..... إلا من ورا، كما ترى؛ ف قيل للبديع: أيها الأستاذ؛ أنت مع الجدّ والهزل تغلبه؛ وقيل للخوارزمي: أيها الأستاذ؛ السُّكوت أولى بك!! وهذه العبارات تدل فعلاً على موهبة البديع وقدرته الفائقة وامتلاكه مفردات اللّغة والتّلاعب بها!

ورسائل البديع كثيرة ومنتشرة، وهي رسائل إخوانية متعدّدة الأغراض من مديح وهجاء واستعطاف واعتذار ورثاء وتهنئة وتعزية، وانتهى إلينا منها قدرٌ كبيرٌ، نرى أمثلة كثيرة منها في يتيمة الدّهر للثعالبي، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي،

^١ انظر: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك (٢/ ٤٢٥).

ووفيات الأعيان لابن خلكان، وأورد زكي مبارك أمثلة منها في كتابه "النثر الفني في القرن الرابع"، وجمعت في ديوان خاص.

وله بجوار نثره شعر متعلِّد الأغراض، لم يبلغ به نفس جودة نثره؛ إذ قلَّ من تتَّفَق له القدرة في الشعر والنثر معًا، إلا أنَّه مع هذا رشيق حلو خفيف الظل، يفيض رقةً وسهولة، وقد ضمَّن رسائله ومقاماته كثيرًا من شعره.

مقاماته:

وأشهر ما عُرف عن البديع ما كان من مقاماته، وهي فنُّ مستحدثٌ على يديه، عبارة عن حكايات قصيرة، كان راويُّها الخيالي عيسى بن هشام، وأما بطلها فأبو الفتح الإسكندري؛ ذلك الأديب الشَّحَّاذ الذي كان يروع بأدبه وشعره، ويحتال من أجل الحصول على المال؛ وقد ضمَّن بديع الزَّمان مقاماته ما وسعه من زخرفٍ لفظيٍّ ومن ألوان البديع من سجع وجناس وتورية وطباق ومقابلة، مع الاقتباس من القرآن الكريم، وشعر وتراث وأمثال العرب، إلا أنَّ قِصَرَ معظمها يبعدها عن الكمال القصصي المعروف، ويُروى أنها بلغت نحو أربعمئة مقامة، ولكن لم يَصِلْنا منها غير نيف وخمسين، تدور حول الكدية وأساليب الاحتيال والكسب، وربَّما تطرقت إلى أغراض نقدية وأدبية ووعظية، ويقال: إنه اشتقَّ مقاماته تلك من أحاديث ابن دريد، وهذا يتعارض مع ما رُوِيَ عنه من أنه أَمَلَى أربعمئة مقامة، وعلى كل حال فإنه بلا شك مخترع هذا الفن الذي راج رواجًا عظيمًا في القرون التالية؛ لِما فيها من ذخائر الصَّنعة والزخرفة اللفظية وشئى أنواع البديع والمَلَح، وهي أغنى آثاره.

نماذج من رسائله:

- كتب البديع في رسالة إلى أبي عبد الله أحمد بن الحسين بن يحيى: "أما أبو فلان فلا شكَّ أنَّ كتابي يَرِد منه على صدرٍ محاسني من صحيفته، وقطع حظي من وظيفته، ونسي اجتماعنا على الحديث والغزل، وتصرَّفنا في

^١ انظر: زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق القيرواني (٢/ ٤٤٧ - ٤٤٨).

الجِدِّ والهزل، وتقلُّبنا في أعطاف العيش، بين الوقار والطَّيش، وارتضاعنا
ثدي العشرة، إذ الزَّمان رقيق القشرة، وتواعدنا أن يلحق أحدنا
بصاحبه، وتصافحنا مِن قَبْلُ أَلَّا نصرم الحبل، وتعاهدنا من بعد أَلَّا
ننْقُضَ العهد، وكأني به وقد اتَّخذ إخوانًا، فلا بأس، فإن كان للجديد لذَّة
فللقديم حُرمة، والأخوة بُردة لا تضيق بين اثنين، ولو شاء مُعاشِرُنَا في
البين، وكان سألني أن أرتاد له منزلًا ماؤه رويُّ، ومرعاه غَديُّ، وأكاتبه
لينهض إليه راحلته، فهناك نيسابور ضالَّته التي نشدتها وقد وجدتها،
وخراسان أمنيته التي طلبتها وقد أصبتها، وهذه الدَّولة بُغيته التي أرادها
وقد وردتها، فإن صدَّقني رائدًا؛ فليأتيني قاصدًا".

- وكتب في رسالة أخرى يعتب على رجل هنَّاه بمرض الخوارزمي، رافضًا
الشَّماتة فيه، قائلاً: "الحرُّ-أطال الله بقاءك- ولا سيِّما إذا عرف الدَّهر
معرفتي، ووصف أحواله صفتي؛ إذا نظر؛ علم أن نِعَم الدَّهر ما دامت
معدومة فهي أمان، وإن وُجدت فهي عواري، وأنَّ مَحَنَ الأيام وإن طالَت
فستنفد، وإن لم تُصب فكأنَّ قَدَّ، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها في
نفسه، ولا يعدمها في جنسه؟! والشَّامت إن أفلت فليس يفوت، وإن لم
يمت فسيموت، وما أقبح الشَّماتة بمن أَمِنَ الإمامة!! فكيف بمن يتوقَّعها
بعد كلِّ لحظة، وعقب كلِّ لفظة، والدَّهر غرثان طعمه الخيار، وظمَّان
شربه الأحرار، فهل يشمت المرء بأنياب أَكَلِه، أم يُسرُّ العاقل بسلاح
قاتله؟! وهذا الفاضل -شفاه الله- وإن ظاهرناه بالعداوة قليلاً؛ فَقَدْ
باطنَّاه ودًّا جميلاً، والحرُّ عند الحميَّة لا يصطاد؛ ولكنَّه عند الكرم ينقاد،
وعند الشَّدائد تذهب الأحقاد، فلا تتصوَّر حالتي إلا بصورتها من التَّوجُّع
لِعَلَّتِه، والتَّحزُّن لمرَضَتِه، وقاه الله المكروه، ووقاني سماع المحذور فيه،
بِمَنِّه وحَوْلِه، ولُطْفِه وطَوْلِه".

^١ انظر: المصدر السابق (١/ ٤١٥- ٤١٦).

- وكتب البديع إلى ابن أخته قائلاً: "وصل كتابك بما ضمّنته من تظاھرٍ نعم الله عليك وعلى أبويك، فسكنت إلى ذلك من حالك، وسألت الله بقاءك، وأن يرزقني لقاءك، وذكّرتُ مُصابك بأخيك، رحمه الله تعالى، فكأنّما فتّت عَضُدِي، وطُعِنْتَ في كبدي، فقد كنت معترضاً بمكانه، والقدر جارٍ لشانه، وكذلك المرء يدبّر، والقضاء يدبّر، والآمال تنقسم، والآجال تبتسم، فالله يجعله لك فرطاً، ولا يريني فيك سوءاً أبداً، وأنت -إن شاء الله تعالى- وارث عمره، وسدّادُ ثغره، ونعم العِوض بقاؤك.

إِنَّ الْأَشْيَاءَ إِذَا أَصَابَ مُشَدَّبًا مِنْهُ اِتْمَهَلْ ذُرّاً وَأَثَّ أَسَافِلَا

وأبوك سيّدي أيّده الله تعالى وألهمه الجميل وهو الصبر، وأناله الجزيل وهو الأجر، وأمتعته بك طويلاً، فما سؤّتَ بديلاً، وأنت ولدي ما دمت والعلم شانك، والمدرسة مكانك، والدّفتر نديمك، وإن قصّرت، ولا إخالك، فغيري خالك".

- وله فصل جميل في التهنئة بمولود: "حقاً لقد أنجز الإقبال وعده، ووافق الطالع سَعْدَه، والشأن فيما بعده، وحبّذا الأصل وفرعه، وبورك الغيث وصوّبه، والرّوض ونوّره، وسماء أطلعت فرقداً، وغابة أبرزت أسداً، وظهر ووافق سندا، وذكر يبقى أبداً، ومجد سيّي ولداً، وشرف لُحمة وسُدّي.

فصل كتابي من هراة، ولا هراة؛ فقد طحنتها هذه المحن كما يطحن الدّقيق، وقلّبتها كما يُقلّب الرّقيق، وبلعتها كما يُبلع الرّيق، والحمد لله على المكروه والمحبوب، وصلواته على نبيّه وآله، وقد خدمت الشّيخ سِنين، والله لا يُضِيع أجر المحسنين، ونادمته والمنادمة رضاعُ ثانٍ، ومالحتة والممالحة نسبُ دانٍ، وسافرت معه والسّفر والأخوة رضيعا

١ انظر: المصدر السابق (٢/ ٤٤٩ - ٤٥٠).

٢ الأشياء: صغار النخل. لسان العرب، ابن منظور (١/ ٢٤)، المشدّب: هو المقشّر. انظر: لسان العرب (١/ ٤٨٦)، اتمهَل: اعتدل وانتصب. انظر: لسان العرب (١١/ ٨٠)، أثّ: كثر والتفّ. انظر: لسان العرب (٢/ ١١٠).

٣ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (٤/ ٢٢٢).

لبان، وقمت بين يديه والقيام والصلاة شريكا عنان، وأثنت عليه والثناء
من الله -عز وجل- بمكان، وأخلصت له والإخلاص محمود بكل لسان،
أفبعد هذه الحرّمات أنا طعمة فلان وفلان، يتناولاني سبعا في ثمان؟!!

- ومن شعره يمدح أبا عامر عدنان بن محمد الضّبيّ!

لَيْلُ الصَّبَا وَنَهَارُهُ سَكْرَانُ	حَدَّثَانِ لَمْ يُدْرِكْهُمَا حَدَّثَانُ
يَا زَفْرَةَ لِي لَا يَكَادُ أَزِيْزُهَا	يَسْعُ الضُّلُوعَ إِلَيْكَ يَا هَمْدَانُ
قَسَمًا لَقَدْ فَقَدَ الْفِرَاقُ بِيْ امْرَأً	لَيْسَتْ تَجُودُ بِرَدِّهِ الْبُلْدَانُ
يَا دَهْرُ إِنَّكَ لَا مُحَالَةَ مُزْعِجِيْ	عَنْ خُطَّتِي وَلِكُلِّ دَهْرٍ شَانُ
فَاعْمِدْ بِرَاجِلَتِيْ هَرَاةً فَإِنَّهَا	عَدْنٌ وَأَنْتَ رَئِيسُهَا عَدْنَانُ

١٤ - قابوس بن وشمكير

ترجمته!

هو أبو الحسن قابوس بن أبي طاهر وشمكير بن زيار، أحد ملوك بلاد الديلم وجرجان وطبرستان، وكان عمُّه مرداويج أول ملوك الديلم من أسرته، وكان جبارًا، فقتله غلمانُه الأتراك، فخلفه على السلطة أخوه وشمكير، ثم ولده أبو منصور بهستون بن وشمكير، فلمَّا مات بهستون خلفه أخوه قابوس على السلطة نحو عام (٣٦٧هـ / ٩٧٧م)، وأنفذ إليه الخليفة الطائع العباسي الخلع والعهود على طبرستان وجرجان، ولقَّبه بـشمس المعالي.

وكانت بين البويهيين وأمراء الديلم وجرجان عدة معارك ونزاعات قديمة، استمرت إلى عهد قابوس، وكان فخر الدولة البويهية قد فرَّ من أخيه عضد الدولة والتجأ إلى قابوس؛ الذي أنزله عنده وأكرم مثواه، ممَّا أحفظ عليه عضد الدولة، فأنفذ إليه من اجتاحت مملكته، ممَّا أدَّى إلى فقدِ قابوس لملكه نحو عام (٣٧١هـ / ٩٨١م)، لكنَّه استعاد ملكه نحو عام (٣٨٨هـ / ٩٩٨م) بعد ثمانية عشر عامًا من النفي، وكان ملكًا جليل القدر، بعيد الهمة، حسن المناقب، بصيرًا بالأمور، وكان من محاسن الدنيا وزينتها، وكان مقرَّبًا للعلماء والأدباء، وبينه وبين صاحب ابن عباد مراسلات، لكنَّه كان على الجانب الآخر فظًّا غليظًا، مُرَّ السياسية، عديم العفو، شديد السطوة والبطش، يقابل الرِّلة بإراقة الدم، فسئمه عسكره وأزعموا على خلعه، وانتهزوا غيبته عن جرجان ببعض القلاع فأعلنوا خلعه ونهبوا أمواله وخيله، واستدعوا ولده أبا منصور منوجهر ليحلَّ محلَّ أبيه ويملِّكوه عليهم، فاضطر للقبول وأطاعهم على خلع أبيه خشية أن يخرج الحكم عن بيته، وقد لجأ قابوس إلى ناحية بسطام، فخرج إليه ولده منوجهر على رأس جنده بتحريض من العسكر الثائرين عليه، فلمَّا التقَّيا رأى

^١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٥ / ٢١٨١)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٤ / ٧٩-٨١)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٣ / ٥٤).



الوالد أنَّ الصراع لا يُجدي نفعًا، فرضي أن ينزل عن المُلْك لولده، على أن يقضي بقيَّة حياته في بعض القلاع، ولكن الجند لم يطمئنوا له، فما زالوا به حتى حبسوا عنه الغطاء والدِّنار، فهلك من شدة البرد نحو عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م).

نثره:

كان قابوس أديبًا بارعًا، على قدرٍ من العلوم والمعرفة، وكانت بينه وبين صاحب ابن عباد مراسلات، ومدحه الثعالي في يتيمة الدهر، وقد التزم صنعة البديع في رسائله من سجع وجناس وتصوير، في لفظ عذب، وسياق بديع، وأسلوب رقيقٍ سلس، فكانت كتابته على قدر عالٍ من الحسن والبلاغة، لا تخلو من الصور والأخيلة البديعة والحكم الرائعة؛ كقوله "حتى يثمر ما أزهر من القول، ويمطر ما أنشأ من سحب الفضل"، إلا أنَّه يصل إلى درجة ممقوتة من المبالغة والشَّطط أحيانًا، فيسيء التعبير؛ كقوله "الدُّنيا شجرة ثمرتها النَّوائب، وبيضة مضمئها العجائب"؛ وهو تعبير غير موفِّق، ولا تُوجد فيه درجة من التَّرابط.

وكانت رسائله منتشرة بين العامَّة، تروى من حُسن بلاغتها وصياغتها، وقد جُمِعت في كتاب "كمال البلاغة"، وله شعر حسن رقيق؛ حيث كان شاعرًا مُقلًّا، ولا يخلو شعره من ملامح الحكمة والعُمق، ولكنَّه دون نثره جودةً ومنزلةً وصناعةً.

نماذج من رسائله:

- من كتابته قوله: "ولم لا يستردُّ عازب الرأي؛ فيعلم أنه ما لم يعاود الصِّلة مأفون، ويستعيد غائب الفكر؛ فيفهم أنه ما دام على الفُرقة مغبون؟! أظنُّه يقدر الاستغناء عني هو الغنى والغناء، ولا يدري أن

١ النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك (٢/ ٣٤٣).

٢ المصدر السابق (٢/ ٣٤٤).



الالتواء عليّ هو البليّ والبلاء، ويخال أنّه مكتفٍ بجاهه وعرضه، ولا يشعر أنّي كلّ لبعضه، وطولٌ في عرضه، وأن قوة الجناح بالقوادم والخوافي، وعمل الرّماح بالأسنة والعوالي".

- من كتابته قوله: "بل كيف يهون من لو شاء عقد الهواء، وجسم الهباء، وفصل تراكيب السماء، وألف بين النّار والماء، وأكمد ضياء الشّمس والقمر، وكفاهما عناء السّير والسّفَر، وسدّ مناخر الرّياح الزعازع، وطبق أجفان البروق اللوامع، وقطع السنة الرعود بسيف الوعيد، ونظم صوب الغمام نظم الفريد، ورفع عن الأرض سطوة الزلازل، وقضى بما يراه على القضاء النازل، وعرض الشيطان بمعرض الإنسان، وكحل الحور العين بصور الغيلان، وأنبت العشب على البحار، وألبس اللّيل ضوء النّهار؟!"

- وكتب قائلاً: "كيف يُزهد فيمن ملك عنان الدّهر؛ فهو طوع قياده، وتبع مراده، ينظر أمره ليمثل، ويرقب نهيه فيعتزل؟! وكيف يهجر من تضاءلت الأرض تحت قدمه، وصارت في الانقياد له كخدمه، إذا رأت منه هشاشة أعشبت، وإن أحست منه بجفوة أجذبت؟! وكيف يُستغنى عمّن خيله العزمات والأوهام، وأنصاره الليالي والأيام، فمن هرب منه أدركه بمكايدها، ومن طلبه وجده في مراصدها؟! وكيف يُعرض عمّن تُعرض رفاهة العيش بإعراضه، وتنقبض الأرزاق بانقباضه، وأضاء نجم الإقبال إذا أقبل، وأهلّ هلال الجدّ إذا تهلّل؟! وكيف يُزهى على من تُحقّر في عينه الدنيا، ويرى تحته السّماء العلّيا، قد ركب عنق الفلك، واستوى على ذات الحُبك، فتبرّجت له البروج، وتكوكبت لعبادته الكواكب، واستجارت بعزّته المجرّة، وأثرت بمآثره أوضاع الثرى؟!"

^١ المصدر السابق.

^٢ انظر: المصدر السابق (٢/ ٣٤٦).

١٥- الحريري

ترجمته!

هو أبو محمّد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان بن الحريري، البصري، وُلد نحو عام (٤٤٦هـ / ١٠٥٤م)، في قرية المشان قرب البصرة، وكان فيها منشؤه، أخذ الأدب عن أبي القاسم الفضل بن محمد القصباني، وسكن البصرة في محلّة بني حرام، ويُروى أنه كان قصيرًا دميم الخلقة، بخيلًا مُبتلى بِتَنَفِّ لِحِيَّتِهِ، لكنّه كان على الجانب الآخر كان أديبًا فاضلاً، غاية في الذكاء والفطنة والبلاغة، فصيح الكلام، حسن العبارة، وتشهد تصانيفه بمدى علمه وسعة أدبه، ويُروى أنّ رجلاً قصده ليقراً عليه، واستدلّ على مسجده، فرآه ولم يعرفه واحتقر منظره، وانصرف عنه قائلاً: لعلّه ليس هو هذا!! ثم رجع وقال في نفسه: لعلّه يكون هذا!! ثم رجع مجدّداً، وأبصر الحريري تردّده، وأدرك بفراسته أنّه يبحث عنه، فلمّا التمس منه أن يُملّي عليه؛ قال له: اكتب:

ما أنتَ أوّلُ سارٍ غرّةَ قَمَرٍ ورائدٍ أعجَبَتْهُ خُضْرَةُ الدِّمَنِ
فاخْتَرَ لِنَفْسِكَ غَيْرِي إنَّني رَجُلٌ مِثْلُ الْمُعِيدِي فَاسْمَعْ بِي وَلَا تَرْنِي

فخجل الرجل من نفسه وانصرف.

وقد روى عن الحريري مقاماته كلّ من: شريف الدّين عليّ بن طراد الزّينبيّ الوزير، وقوام الدّين عليّ بن صدفة الوزير، وأحمد بن بختيار المائدايّ قاضي واسط، وابن المتوكّل، وابن النّقور، وكثيرٌ من أهل الأدب، وقد وفد على بغداد فقدّم مقاماته إلى الوزير أنوشروان بن خالد وزير الخليفة العباسي المسترشد، فأعجب به وبعمله، وعرف فضله، وأحسن إليه، وقد مات نحو عام (٥١٦هـ / ١١٢٢م).

^١ انظر: نزّهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (٢٢٣- ٢٢٥)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٢٢٠٢- ٢٢١٦)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٦٣- ٦٨).

نثره ومؤلفاته:

يُعد نثر الحريري على درجة عالية من التعقيد، وكان الكتاب في القرن الخامس الهجري قد زاد شغفهم بالتعقيد والإغراب، وقد سار الحريري على نهج الهمذاني في الاستكثار من البديع، والمبالغة في الصنعة، لكنه زاد عليه إغراقاً في التعقيد، وميلاً إلى الغريب، وأفراط في استعمال السجع والجناس والطباق والمقابلة، واعتنى بتدبيح اللفظ، ممّا أظهر فيه أثر التكلّف، لكنه تجاوز هذا بسعة علمه باللغة ومفرداتها، وقدرته الفائقة على التلاعب بالألفاظ وترتيب العبارات، وكان يُكثر من التورية، ولم يغفل المعنى الذي تراءى بين عباراته، لكنه صار مُكبّلاً بأغلال البديع والتكلّف المُفضي إلى الغموض.

وله يجوار نثره شعراً يغلب عليه التكلّف والمبالغة في الصنعة، وتكمن جودته فقط في استعراض قدراته في البديع والزخرف، ولم يهدف منه إلى التّفنّ في المعاني، وهو كثير في مقاماته.

وللحريري عدّة تصنيفات؛ من بينها: "درة الغواص في أوهام الخواص" بيّن فيه بعض أغلاط الكتاب فيما يستعملون من الألفاظ في غير موضعها، و"ملحة الأعراب في النحو" وهي أرجوزة، وقد سقطت رسائله من يد الزمن فلم يصل إلينا غير بعضها الموجود في معجم الأدباء، بالإضافة إلى كتاب "مقامات الحريري" وهو أجل وأروع آثاره.

المقامات:

يُعتبر كتاب "مقامات الحريري" من أروع ذخائر العربية، وأجمل كتب التراث؛ فقد حوى من نفائس اللغة ما يسترعي الانتباه، ويصيب بالدهشة، ويكشف بالفعل عن روعة اللغة العربية واتساع نطاق إبداعها، وهو يشير إلى مهارة الحريري وتفوّقه الأدبي، وكان فنّ المقامة قد ابتدعه بديع الزمان الهمذاني على نحو ما ذكرنا، ويروى في سبب تصنيفه أنه كان جالساً في مسجده ببني حرام،

^١ انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (٤٢ / ٣).



فدخل عليهم شيخ رثُ الحال، فصيح الكلام، فسأله: من أين الشيخ؟ فقال: من سروج؛ وسأله عن كنيته، فقال: أبو زيد؛ فألهم ذلك الحريري وكتب أول مقاماته المعروفة بالمقامة الحرامية، وجعل بطلها أبا زيد السروجي، وأمَّا رايتهُ الخيالي فهو الحارث بن همام، وقد عرضها على أنوشروان بن خالد وزير الخليفة المسترشد بالله العباسي، فأعجب بها، وطلب أن يضيف إليها، فانحدر إلى البصرة وعزم على تصنيف مثلها حتى بلغت أربعين مقامة، فلمَّا قدم بها إلى بغداد؛ طعن فيه بعض من اطلع عليها وأنكروا أن تكون من عمله وقالوا: لأنَّها لا تناسب رسائله، ولا تشاكل ألفاظه؛ وطلب منه أن يضيف إليها عشرًا؛ اختبأًا لصدقه، فلم تتفق له قريحته، وأمعن الناس في اتهامه والطعن فيه، فانحدر عائدًا إلى البصرة، فصفا ذهنه، وحضرت بديهته، وصنع عشر مقامات وأضافها إلى كتابه، فتمَّ بذلك الخمسين، وعاد إلى بغداد، فعلموا فضله وأنَّها من إنشائه!

وما إن انتهى من تصنيف مقاماته حتى تناولها الورَّاقون، فقاموا بنسخها، وانتشرت بين الناس انتشارًا عظيمًا، ولقيت استحسانًا وقبولًا؛ فقد سار فيها الحريري على نمط الهمداني في العناية بالبديع والزُخرف بجميع ألوانه من السجع والجناس والطباق والمقابلة، لكنَّه فاقه في كثرة حشوها بالغريب والتعقيد وأمثال العرب، وأكثر فيها من التورية كصورة من أساليب التعقيد، فهي على قدرٍ بالغٍ من الصعوبة.

وقد صارت مقامات الحريري ذخراً من الألفاظ الغريبة والنوادر وألوان الصنعة اللفظية، وهي أتمُّ حبكا ونسجًا، وأغزرَ مادة، وأقرب إلى روح كمال البناء القصصي من مقامات البديع، لذا فقد صارت هي المرجع الرئيس والإلهام لكل من اقتفى أثر هذا الفن وحاول تقليده، وهي في أغراضها كأغراض مقامات البديع؛ تدور في أغلبها حول الكدية وأساليب الكسب، مع تطرُّق أيضًا إلى بعض الأغراض الوعظية والأدبية والتَّقدية.

١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٥/ ٢٢٠٣ - ٢٢٠٤).

وَمِنْ فِرط شَهرَها تُرجمت إلى لَغات عَديدة؛ مَنها: الإنجِليزية عَلى يد ثيودور بريسَتين وآخِرين، كَما نَقلها إلى الفارسية مُحَمَّد شمس الدين، وتُرجمت أَيْضًا إلى التُركية والعِبرانية، ولَها شَروحات عَدَّة؛ كَشرح الشَريسي والمطرزي والطرائفي والزبيدي والعِكري والطبلي والباجي، وَكانت من مَناهج الدَراسة في جامعات أوربا!

وقد لَقِيَ بَعض النُقَد من قِبَل أدباء الفَرنجة؛ لِقِصَرِها ووحدَة مَغزاها، وانتقَدها بَعض أدباء العرب كَونها لا تَخرج عَن خيال مَكرر لا تَناسب طَبيعة البدوي الذي قَيلت عَلى لسانه. عَلى أَنَّ نَقْد أدباء الفَرنجة للمقامات أَمَر طَبيعي؛ لأنَّ الكاتِب وإن اقترَب من رُوح القِصة عَن مقامات البَديع؛ فَإِنَّه لَم يُعَنَّ فيها بالَتَسلسل القِصصي الذي يَلفه أدباء الفَرنجة؛ وَإِنما كان هُمُّه ما فيها الصَنعة والزُخرفة والعَناية باللفظ، وطَبيعي أَن تَفقَد المَقامات مَزيها اللفظية تَلك إذا تُرجمت إلى لَغة أُخرى، علَمًا بأنَّها عُنصرها الرَئيس.

من رسائله:

- كَتب الحَريري رسالة عَلى لسان بَعض أَصدقائه يَعاتِب صَديقًا لَه أَخلَّ بِهِ في دَعوة دَعا غَيره إِلَها، وَقَد عُرِفَت بِالرسالة السَّينِيَّة؛ لأنَّه التَزم حَرف السَّين في جَميع عَباراتها؛ "باسم القُدُّوس أَستَفتح، وبإِسعاده أَستَنتِج، سَجيَّة سَيدنا سَيف السُلطان، سَدة سَيدنا الإسفَهلار، السَّيد النَفيِس سَيد الرُؤساء؛ حُرِست نَفسه، واستَناَرت شَمسُه، وبَسَق غَرسُه، واتَّسَق أَنسُه؛ استَمالَة الجَليس، ومَساهمة الأَنيِس، ومَواساة السَّحيق والتَّسَيب، ومَساعدة الكَسير والسَّليب؛ والسَّيادة تَستدعي استِدامة السُّنن، والاستِحفاظ بِالرَّسم الحَسن؛ وسَمِعت بِالأمس تَدارُس الأَلسن سَلافة خَندريسِه، في سَلسال كَنُوسِه، ومَحاسن مَجلس مَسرَتِه، وإِحسان

١ انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (٤٢ / ٣).
٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص ١٧٨ - ١٧٩).
٣ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٢٢٠٩ / ٥).

سمعة سيادته؛ فاستسلفت الاستدعاء، وتوسّمت السّرّاء، وسوّفت نفسي بالاحتساء، ومؤانسة الجلساء، وجلست أستقري السُّبل، وأستطلع الرُّسل، وأستبعد تناسي اسمي، وأسامر الوسواس لاستحالة رسمي، وحسبنا السلام رسول الإسلام".

- وكتب الحريري رسالة إلى أبي محمد طلحة بن النعماني الشاعر، ممّا قصد البصرة؛ يمدحه ويشكره ويتأسّف على فراقه، في رسالة على نفس نمط الرسالة السابقة، عُرِفَت بالثَّينِيَّة؛ إذ التزم الثَّين في جميع كلماتها، قال فيها: "بإرشاد المنشئ أنشئ، شغفي بالشيخ شمس الشعراء، ريش معاشه، وفشا رياشه، وأشرق شهابه، واعشوشبت شعابه، يشاكل شغف المنتشي بالنَّشوة، والمرثي بالرَّشوة، والشَّادن بشرخ الشَّباب، والعطشان بشمِّ الشراب. وشكري لتجشُّمه ومشقَّته، وشواهد شفقتة؛ يشابه شكر الناشد للمنشد، والمسترشد للمرشد، والمستبشر للمبشِّر، والمستجيش للجيش المشمِّر؛ وشعاري إنشاد شعره، وإشجاء المكاشر والمكاشح بنشره. وشغلي إشاعة وشائعه، وتشديد شوافعه، والإشارة بشذوره وشفوفه، والمشورة بتشييعه وتشريفه؛ وأشهد شهادة تشده المقشر المكاشف، والمشنع الكاشف؛ لإنشاؤه ومشاهدته تدهش الشَّائب والناشئ، ومُشافهته تباشير الرُّشد، واستشيار الشَّهد، ومُشاحنته تُشقي المُشاحن، وتُشين المشاين، ومُشاغبته تُشْطِي الأُشطان، وتشيط الشيطان؛ فشرفاً للشيخ شرفاً، وشغفاً بشنشنته شغفاً.

وأشهد شاهد الأشياء، ومشبع الأحشاء؛ ليشعلن شواظ اشتياقي في شحطه، وليشعثنَّ شمل نشاطي نشطه؛ فناشدت الشيخ أيشعر باستيحاشي لشسوعه، وإجهاشي لتشييعه، ووشايتي بنشيدته الموشّي، وتشكل شخصه بالإشراق والعثي؛ حاشاه تعتيشه شبهة وتغشاه، فليستشف شرح شجوي بشطونه، وليرشحي لمشاركة شجونه،

وليشغلي بتمشية شؤونه، وليشيد جاشي، ويشارف انكماشه؛ عاش
منتعش الحشاشة، مستشري البشاشة، مشحوذ الشفار، منتشر
الشرار، شتّامًا للأشرار، شحّاذًا بالأشعار، يشرخ ويحوش، ويقنفش
المنفوش الشديد البطش، الشامخ العرش، وتشريفه لبشير البشر،
وشفيح المحشر".

وقد ضمّن الحريري هاتين الرسالتين أبياتًا من الشعر جرت على نفس
النمط من الصّنعَة والتّكلّف والتّزام السّين في الأولى والسّين في الثانية،
حذفناها للصّعوبة وتجنّبًا للإطالة، وتصوّر هاتان الرسالتان شغف
الحريري بالصّنعَة والتّعقيد والإغراب، وهو ما فرض قيودًا كبيرة على
المعنى، ولكن رغم ما فيها من تكلف؛ فقد كانت تلك الرسائل تنال إعجاب
أهل عصره؛ نظرًا إلى شغفهم بالصّنعَة اللفظية، وتساّب الأدياء على
قدراتهم اللغوية في الإغراب والتّعقيد، ممّا أنساهم أهمية المعنى، وكان
الحريري مبدعًا في تلك الصّنعَة أيما إبداع، لكنّ أسلوبه هذا فرض قدرًا
كبيرًا من القيود على المعنى، فكان نثره شديد التّكلّف والتّعقيد وإن لم يخلُ
من الإبداع.

- وكتب جوابًا لأبي الفتح هبة الله الكاتب بخصوص كتابه "درة الغواص"
قائلًا: "وصل من حضرة سيدنا -أطال الله بقاءه ومدّته، وحرس عزّه
ونعمته، وضاعف سعادته وكبّت حسدته- كتاب كريم، مودعه طول
جسيم، وفي ضمنه درّ نظيم؛ فابتهجتُ بتناوله، وقررتُ عينًا بتأمّله،
وتذكّرتُ الأوقات التي أسعد الدّهر فيها برؤيته، وأحظي باجتلاء فضله
وروايته، وشكرت الله على ما يوليه من حُسن صُنعه، وسألته -جلّت
عظمته- أن يجعل النّعمة راهنة بربعه، والسعادة جاذبة أبدًا بضبعه،
وسرّرتُ بما بشرني به من نجابة السيّد الرئيس، الولد النّفيس -أمتع الله



ببقائه، وأتاح لي تجدد الأنس ببقائه- ولم أستبعد أن يقمر هلاله بل
يبدر، ولا استبدعت أن يورق غصن دوحته الزكيّة ويثمر، والله تعالى
يمليه أطول الأعمار، في رفاهة الأسرار، ومواتاة الأقدار، حتى يعاين
أسباطه، ويضاعف باجتماعهم وتضاعفهم بحوزته اغتباطه. فأما الملحة
إن أمكن تنفيذها مع أحد المترددين إلى هذا المكان لألحق بها الزيادة
وأهديها كما يطابق الإرادة أوعز به، وأما «درة الغوّاص في أوهام
الخواص» فأرجو أن ينسأ الأصعاد إلى بغداد لتصفّحها من البدء وكأنّ
قد، وإلى أن يسهل المأمول من الالتقاء؛ فما أولى همّته الكريمة بإتحافي
بالأنباء، وإنهاضي بما يسنح من الأوطار والأهواء، ورأيه أعلى إن شاء
الله".

١٦ - القاضي الفاضل

ترجمته!

هو عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد ابن القاضي السعيد أبي محمد الحسن بن الحسن البيساني العسقلاني، المعروف بالقاضي الفاضل، ولقبه مجير الدين، وُلد بعسقلان نحو عام (٥٢٩هـ / ١١٣٥م)، وعُرف بالبيساني لأنَّ أباه وَلِيَ القضاء فيها، حتى نُكِب على يد حاكم مصر، فانتقل ولده عبد الرحيم إلى الاسكندرية وقصد فيها القاضي ابن حديد، وكان فيه فاقة وحال مضطربة، فاخبره القاضي، فوجده على درجة من الفصاحة والبلاغة وحُسن المقاصد، فاستكتبه، وكانت تردُّ عنه الكُتب التي تصل إلى القاهرة، فحسده كُتَّاب الدواوين الذين رأوا صناعته، وهابوه على مكانتهم، فسعوا به إلى الخليفة الفاطمي الظافر، فطلبه وهمَّ بمعاقبته والبطش به، فأُتِيَ به إليه، فلمَّا رآه؛ اختبره في بلاغته وطلب منه أن يُنشئ كتابًا عنه، فأنشأه وهو قائم على رجله، ثم تلا عليه، فأعجب ببلاغته واستحسن خطَّه، وعرف فضله وأدرك براءته، فاستكتبه، ولم يزل في الديوان مدَّة خلافة الظافر ثم الفائز ثم العاضد.

ولمَّا تدهورت هيبة الخلافة الفاطمية، واشتعل الصراع بين شاور وضرغام على الوزارة، ومالت كِفَّة ضرغام أول الأمر وفرَّ شاور؛ خدمه القاضي الفاضل مدَّة، ثم تنكَّر له فحبسه مع الكامل ولد شاور الوزير السابق، حتَّى إذا قُتل ضرغام وعاد شاور إلى منصبه؛ أطلقه من محبسه مع ولده، فكتب بين يديه أثناء وزارته. ولما قُتل شاور، واستحوذ على الوزارة أسدُ الدِّين شيركوه؛ نقم على الفاضل الرسائل التي كان يكتبها بين يديه، فطلبه، لولا شفاعاة الخليفة الفاطمي العاضد، فقَرَّبَه واستكتبه وأنس به، ولما مات شيركوه؛ لزم القاضي الفاضل ابن أخيه صلاح الدِّين الأيوبي، وكانت له يدٌ في خلافته لعمِّه على وزارة العاضد، وظلَّ

^١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٤/ ١٥٦٢)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ١٥٨- ١٦٣)؛ تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص ١٨٠- ١٨١)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٣/ ٤١١- ٤١٢).

مرافقًا لصلاح الدِّين أثناء وزارته للخليفة الفاطمي، فعظمت منزلته عنده، ولما قامت الدولة الأيوبية، وبسط صلاح الدِّين سلطانه على مصر والشام؛ استوزر القاضي الفاضل، فاستنابه عن أمور دولته، وكان لا يُصدِر إلا عن رأيه ومشورته، وكان تردُّ منه جميع الرسائل الصادرة عنه، وشهد معه شطرًا من الحروب الصليبية ومعارك حطّين وفتح بيت المقدس، وظلَّ على منزلته السامية عنده حتى توفّي صلاح الدِّين عام (٥٨٩هـ / ١١٩٣م)، وجرى نزاع بين ولديه الأفضل صاحب الشام والعزیز صاحب مصر؛ فاصطفَّ مع العزیز، لكنَّه سعى إلى الصُّلح بين الأخوين، والتحق بخدمة العزیز، وبقي على حاله من الرِّفعة والمكانة إلى أن مات العزیز ولحق بأبيه، وتجدَّد النزاع بعده على الملك، وما لبث أن توفّي في الليلة التي استحوذ فيها الملك العادل أخو صلاح الدِّين على الديار المصرية عام (٥٩٦هـ / ١٢٠٠م).

نثره:

كان بسبب طبيعة عمل القاضي الفاضل، وتنقلاته ومخالطته للكتّاب؛ أن اهتدى بفضل خبرته وثقافته إلى استحداث أسلوبٍ جديدٍ في الكتابة، عُرف بالطريقة الفاضلية، وقد بنى مدرسته على أصول المدرسة العميدية؛ فكان عماد طريقته القصد إلى البديع والسَّجع، والإغراق في التَّنميق والإطناب والجناس والطباق والتورية، والتَّوسُّع في أساليب الصَّناعة والزَّخرفة والتَّلعب بالألفاظ. وقد اتَّصفت رسائله بالسَّلاسة واللُّيونة والفصاحة، وسهولة التَّراكيب ووضوح المعنى، والبُعد عن الغريب والتَّعقيد الذي أغرق فيه المعريّ والحري، ولكنَّه في الوقت نفسه أغفل المعنى وعمقه، فكان يغلب على رسائله السياق التقريري الخالي من الأخيلة والإبداع وعمق المعنى، وكانت كتابته زخرفًا وطلاءً خارجيًا على قدرٍ من سطحيَّة المعنى، وهو انحراف عن نهج ابن العميد ورجال طبقته؛ إذ إن هؤلاء وإن عمدوا إلى الصَّنعة كالمصاحب والصابي، وحتى مَن بالغ في الزخرف والتنميق كالهمداني؛ فإنهم قد اعتنوا كذلك بالمعنى والأخيلة، أما القاضي

الفاضل فقد صرف اهتمامه إلى الصنعة البديعية والزخرف اللفظي الخارجي، ولم يعتنِ بالمعنى، فنرى معناه في بعض الأحيان سقيمًا خاويًا، تظهر عليه آثار التَّكُلُّف والافتعال.

وقد اكتسبت رسائل القاضي الفاضل أهميّة سياسية وتاريخية؛ إذ كان يكتب بين يدي صلاح الدّين جميع الرسائل الصادرة منه، فيذكر الأحداث والوقائع، ويصف الأخبار والتواريخ والفتوحات، وعلت شهرتها كذلك لشغف الذّوق العام آنذاك بهذا اللون من الصنعة، لذا فإنّ مَنْ آثر الصنعة، ومهره البديع والتّلاعب اللفظي؛ أُعجب بالقاضي الفاضل وقدّمه وأحسّ فيه جودة نثره، ولكن من يقدر قيمة المعنى وعمقه وأساليب البلاغة المعنوية؛ فقد رأى نثر الفاضل مجرد مزخرفات ومنمّقات خاوية لا قيمة لها، ويقال: "إنّ مُسَوّدات رسائله في المجلّدات والتعليقات في الأوراق إذا جُمعت ما تقصر عن مئة مجلد"؛ ولكن ما وصلنا منها أقلّ من هذا القدر بكثير، وقد جُمع في ديوان خاص، وله يجوار نثره شعر متعدّد الأغراض، وهو أقلّ أثرًا من نثره.

وقد صارت طريقة القاضي الفاضل هي الأسلوب العام للإنشاء قرونًا طويلة؛ إذ اقتفاها غالبية الكتّاب ومن شُغف منهم بالصنعة والزخرف، وكان هذا سببًا لانحطاط النثر وتخلّف أغلب كتاباته في العصر التالي بعد سقوط الخلافة العبّاسية في بغداد؛ لأنّ شغف الكتّاب بالسّجع والصنعة، وتكلّفهم الرّخرفة وأساليب السجع، وعدم اكتراثهم بالمعنى؛ قد نتج عنه أسلوب عقيم في الكتابة، ظل غاشيًا على القرائح والعيون زمنًا طويلًا، وتحوّلت الصنعة من وسيلة للتّعميق إلى قيود وأغلال قيّدت النثر وكبّلت المعنى، فأفرغت النثر من مضمونه.

من رسائله:

- كتب رسالة على يد خطيب عيذاب، إلى صلاح الدّين الأيوبي يتشفّع له في توليته خطابة الكرك، قال فيها: "أدام الله السلطان الملك الناصر وثبّته،

^١ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣- ١٥٨).

^٢ المصدر السابق (٣/ ١٥٩).

وتقبَّل عمله بقبول صالح وأنبته، وأخذ عدوّه قائلاً أو بيّته، وأرغم أنفه
بسيفه وكتبته.

خدمة المملوك هذه واردةٌ على يد خطيب عيذاب، ولما نبا به المنزل عنها،
وقلَّ عليه المرفق منها، وسمع هذه الفتوحات التي طبق الأرضَ ذكرُها،
ووجب على أهلها شكرُها؛ هاجر من هجير عيذاب وملحها، ساريًا في ليلة
أملٍ كُلِّها نهارًا، فلا يسأل عن صُبْحِها، قد رغب في خطابة الكرك وهو
خطيب، وتوسَّل بالمملوك في هذا المتلمس وهو قريب، ونزع من مصر إلى
الشام وعن عيذاب إلى الكرك وهذا عجيب، والفقر سائق عنيف،
والمذكور عائل ضعيف، ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف،
والسَّلام".

وهي رسالة رقيقة سلسلة، ولا سيَّما في مطلعها، ولكنها لا تخلو في أواخر
عباراتها من تكلف وافتعال للسجع ملحوظ.

- ومن إنشائه: "وقد رُفِعت على قلعتها أعلامنا، ونفذت في مدينتها أحكامنا،
ونال صاحبها صلحنا، وعمَّ أهلها صفحنا، ووفِّي فيها موعدنا، ونجح -
والحمد لله- مقصدنا، وألآن الله صعبها، وحطَّم في ثلاثة أيَّام صعدتها،
ونحن نستعيد الله من أن يظن أن لنا في هذا الصَّنْع صنعًا، وأن نعتقد أننا
نملك لأنفسنا ضرًّا أو نفعًا".

- وكتب رسالة إلى عماد الدِّين الاصفهاني الكاتب: "كلَّما تباعدت الدِّيار،
وتنازعت المقار، بيني وبين الحضرة؛ لا زالت صفاتها عمدة المادح، وتعلَّة
الغادي والرائح، ولا أخلَى الله العيون والقلوب من سطور وتمثُّل ما لها في
السَّجَايا السَّمَائِع، قرَّبَتْها الأشواق وأدَّتْها، وأجزلت الحظوظ من لقاءها
وأستنَّها، وأنوف النَّوى راغمة، وصروف الأيام واجمة، فما يستطيع

١ انظر: رسائل القاضي الفاضل (ص ١٩٢)، دراسة وتحقيق: د. علي نجم عيسى، دار الكتب
العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٢ المصدر السابق (١٢٥).



الدهر أن يحدث بيننا بُعدًا، كما لا يستطيع أن يغيّر لنا عهدًا، ولا أخلو
من أمانى لقاءها التي أُسقى بها على ظمأٍ بَرَدًا، والسَّلام، وحسبه الله ونعم
الوكيل".

- ومن كلامه يصف قلعة شاهقة، ويقال: إنّها قلعة كوكب؛ "وهذه القلعة
عُقاب في عُقاب، ونجمٌ في سحاب، وهامة لها الغامة عمامة، وأنملة إذا
خضبها الأصيل؛ كان الهلال لها قُلامة".

نماذج من النثر

أولاً: الخطابة:

- خطب أبو العباس السَّفاح بعدما صعد المنبر حين بويع له بالخلافة كأول خليفة عباسي، فقال: "الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تَكْرمة، وشرَّفه وعظَّمه، واختار لنا وأَيَّده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به، والذَّائِبِينَ عنه، والنَّاصِرِينَ له، وألزمنا كلمة التَّقوى، وجعلنا أحقَّ بها وأهلها، وخصَّنا بِرَحِمِ رسول الله ﷺ وقرابته، وأنشأنا من آبائه وأنبئنا من شجرته، واشتَقْنَا مِنْ نَبْعته، جعله من أنفسنا عزيزًا عليه ما عَنِتْنَا، حريصًا علينا، بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابًا يُتلى عليهم، فقال عزَّ مِنْ قائل فيما أنزل من محكم القرآن: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)^١ وقال: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)^٢ وقال: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)^٣ وقال: (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى)^٤ وقال: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى)^٥ فأعلمهم -جلَّ ثناؤه- فضَّلنا، وأوجب عليهم حقَّنا ومودَّتنا،

^١ جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (٣/ ٦ - ٨).

^٢ سورة الأحزاب (٣٣).

^٣ سورة الشورى (٢٣).

^٤ سورة الشعراء (٢١٤).

^٥ سورة الحشر (٧).

^٦ سورة الأنفال (٤١).

وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا؛ تكربة لنا، وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السَّبئية الضُّلالُ أنَّ غيرنا أحقُّ بالرياسة والخلافة منَّا، فشاهت وجوههم!! يَمْ وَلَمْ أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالهم، وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة، وأتمَّ بنا النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهلَ تَعاطُفٍ وبرٍّ، ومواساةٍ في دينهم ودنياهم، إخواناً على سُرُرٍ متقابلين في آخرتهم، فتح الله ذلك منَّةً ومنحةً لمحمدٍ ﷺ، فلَمَّا قبضه الله إليه؛ قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحوَّوا مواريث الأمم، فعدلوا فيها، ووضعوها مواضعها؛ أعطوها أهلها، وخرجوا خماصاً منها، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزُّوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلَمَّا آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وردَّ علينا حقَّنا، وتدارك بنا أُمَّتَنا، ووَلَّى نصرنا والقيام بأمرنا؛ ليُمنَّ بنا على الذين استضعِفُوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وإني لأرجو ألا يأتاكم الجور من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله.

يا أهل الكوفة؛ أنتم محلُّ محبَّتِنا، ومَنْزِلُ مودَّتِنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يئنكم عن ذلك تحامُلُ أهل الجور عليكم، حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا؛ فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، وقد زدُّكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدُّوا، فأنا السَّفَّاح المبيح، والثَّائر المبير."

- وخطب الخليفة أبو جعفر المنصور بمكة قائلاً: "أيها الناس؛ إنَّما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوقيقه وتسديده وتأيبده، وحارسه على

^١ جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (٢٧ / ٣).

ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه؛ فقد جعلني الله عليه قُفْلاً، إن شاء أن يفتحني فتحي لإعطائكم، وقسم أرزاقكم، فإن شاء أن يقفلني عليها أقفلني، فارغبوا إلى الله وسلّوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضله ما أعلمكم به إذ يقول: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) أن يوفّيقي للرشاد والصواب، وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم".

- وخطب بعد قتله أبا مسلم الخراساني قائلاً: "أيها الناس؛ لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تُسرُّوا غشَّ الأئمة؛ فإنه لم يُسرَّ أحد قطُّ منكراً إلا ظهرت في آثاره وفلتات لسانه وصفحات وجهه، وأبداها الله لإمامه، بإعزاز دينه وإعلاء حقّه؛ إنّنا لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الدين حقّه عليكم، إنّّه من نازعنا عروة هذا القميص أجزرناه خبيّ هذا الغمد، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع النَّاسَ لنا، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه، ثم نكث بنا، فحكّمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحقّ له من إقامة الحقّ عليه".

- وخطب في بغداد قائلاً: "يا عباد الله؛ لا تظالموا؛ فإنّها مظلمة يوم القيامة، والله لولا يدُ خاطئة، وظلم ظالم؛ لمشيّت بين أظهركم في أسواقكم، ولو علمتُ مكان من هو أحقُّ بهذا الأمر ممّي لأتيته حتى أدفعه إليه".

١ سورة المائدة (٣).
٢ جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (٣ / ٣١).
٣ المصدر السابق (٣ / ٢٨).

- وخطب داود بن عليِّ عمُّ السَّقَّاح والمنصور، بمكة، في أول موسم بعد قيام دولة بني العباس، قائلاً: "شكرًا شكرًا، إِنَّا -والله- ما خرجنا لنحضر فيكم نهراً، ولا لنبني فيكم قصرًا، أَظَنَّ عدوُّ الله أن لن نقدر عليه؛ أن رُوحي له من خطامه، حتى عثر في فضل زمامه؟! فالآن؛ حيث أخذ القوسَ باربها، وعادت النَّبْل إلى النَّزعة، ورجع الملك في نصابه من أهل بيت النَّبْوة والرحمة، والله لقد كُنَّا نتوجَّع لكم ونحن في فُرْشنا؛ أَمِنَ الْأَسْوَدُ وَالْأَحْمَرُ، ولكم ذمَّة الله، لكم ذمَّة رسول الله ﷺ، لكم ذمَّة العباس، لا ورب هذه البنية -وأوماً بيده إلى الكعبة- لا نهيج منكم أحداً".

- وخطب في مناسبة أخرى قائلاً: "أما بعدُ: فقد يجد المعسر، ويعسر الموسر، وَيُقْلُ الحديد، ويقطع الكليل، وإِنَّمَا الكلام بعد الإفحام؛ كالإشراق بعد الإظلام، وقد يعزب البيان، ويعقم الصواب، وإنما اللسان مضغة من الإنسان، يفتربفتوره إذا نكل، ويثوب بانبساطه إذا ارتجل، ونحن بعد أمراء القول لا ننطق بطراً، ولا نسكت حصراً؛ بل نسكت معتبرين، وننطق مرشدين، ونحن بعدُ أمراء القول، فينا وشجت أعراقه، وعلينا عطفت أغصانه، ولنا تهدلت ثمرته، فنتخيَّر منه ما احلولى وعذَّب، ونطرح منه ما املولج وخبُث، ومن بعد مقامنا هذا مقام، وبعد أَيْامنا أيام، ويُعرف فيها فضلُ البيان، وفصل الخطاب، والله أفضل مستعان".

- ووصَّى عبد الله بن الحسن بن الحسن ابنَه محمداً النَّفس الزكية (أو إبراهيم) قائلاً: "أَيُّ بُنَيٍّ؛ إِنِّي مؤدِّ حقَّ الله في تأديبك، فأدِّ إِلَيَّ حقَّ الله في

١ المصدر السابق (٣/ ١٤).

٢ المصدر السابق (٣/ ١٧).

٣ المصدر السابق (٣/ ٣٨).



الاستماع مِنِّي، أَيُّ بُنْيٍّ؛ كُفَّ الأذى، وارْفُضِ البَذَا، واستعن على الكلام بطول الفكر، في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلى الكلام؛ فَإِنَّ للقول ساعات يضر فيها الخطأ، ولا ينفع فيها الصواب؛ واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحًا، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشًّا؛ لَأَنَّهُ يُرْدِيكَ بمشورته؛ واعلم يا بُنْيَّ أَنَّ رأيكَ إذا احتجَّتْ إليه وجدته نائمًا، ووجدتَ هواكَ يقظانَ، فَإِيَّاكَ أَنْ تستبدَّ برأيكَ؛ فإنه حينئذٍ هواك، ولا تفعل فعلًا إلا وأنت على يقينٍ أَنْ عاقِبَتَهُ لا تُرْدِيكَ، وَأَنَّ نَتِيجَتَهُ لا تَجْنِي عليك".

- وفي أثناء الفتنة واشتعال الصراع بين الأمين والمؤمن على الخلافة؛ خطب طاهر بن الحسين قائد الخليفة المؤمنون في جنده محمَّدًا إِيَّاهم قبل المعركة المرتقبة، قائلاً: "يا أولياء الله، وأهل الوفاء والشكر؛ إِنَّكُمْ لستم كهؤلاء الذين ترون من أهل النَّكَث والغدر؛ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيَّعُوا ما حفظتم، وصَغَّرُوا ما عَظَّمْتُمْ، ونَكثُوا الأيمان التي رَعَيْتُمْ، وَإِنَّمَا يطلبون الباطل، ويقاثلون على الغدر والجهل، أصحاب سلبٍ ونهبٍ، فلو قد غَضَضْتُمْ الأبصار، وأُثْبِتُّمُ الأقدام؛ قد أنجز الله وعده، وفتح عليكم أبواب عِزِّهِ ونصره؛ فجالِدُوا طواغيت الفتنة وَيَعَاسِبِيب النار عن دينكم، ودافعوا بحَقِّكم باطلهم؛ فَإِنَّمَا هي ساعة واحدة، حتى يحكم الله بينكم (وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)".

- وخطب بعد انتصاره ومقتل الأمين، قائلاً: "الحمد لله مالِكِ المُلْك، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممَّن يشاء، ويعزُّزُ من يشاء ويذلُّ من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، لا يُصْلِحُ عمل المفسدين، ولا يهدي

١ المصدر السابق (١٠٨/٣).

٢ سورة يونس (١٠٩)

٣ جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١١٩/٣).

كيد الخائنين؛ إِنَّ ظُهُورَ غَلَبَتِنَا لم يكن من أيدينا ولا كيدنا؛ بل اختار الله للخلافة؛ إذ جعلها عمادًا لِدِينِهِ، وقوامًا لعباده، وضبط الأطراف، وسدَّ الثغور، وإعدادِ العُدَّة، وجمعِ الفيء، وإنفاذِ الحكم، ونشر العدل، وإحياء السُّنَّة بعد إزبال البطالات، والتَّلَذُّذُ بِمُوقِ الشَّهَوَاتِ؛ والمُخْلِذُ إِلَى الدُّنْيَا مستَحْسِنٌ لِدَاعِي غُرُورِهَا، محتلبُ دَرَّةِ نِعْمِهَا، وأَلْفُ لُزْهَرَةٍ رَوْضَتِهَا، كَلِفُ بَرُونِقٍ بِهَجَّتِهَا، وقد رأيتُم من وفاء موعود الله -عزَّ وجلَّ- لمن بغى عليه، وما أحلَّ به من بأسه ونقمته، لما نكَبَ عن عهده، وارتكب معصيته، وخالف أمره، وَغَيَّرُهُ نَاهِيَةً، وَعِظْتُهُ مُؤَدِّبَةً، فتمسَّكوا بدقائق عَصْمِ الطَّاعَةِ، واسلكوا مناجي سبيل الجماعة، واحذروا مصارع أهل الخلاف والمعصية، الذين قدحوا زناد الفتنة، وصدعوا شعب الألفة، فأعقبهم الله خَسَارَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ".

- وخطب المأمون بعدما وزَّده نعي الرَّشِيد، قائلاً: "إِنَّ ثَمَرَةَ الصَّبْرِ الْأَجْرُ، وَثَمَرَةُ الْجَزَعِ الْوِزْرُ، وَالتَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ عِزٌّ، فَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ، وَتِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ؛ فَاَلْمُوتُ حَوْضٌ مُورُودٌ، وَكَأْسٌ مُشْرُوبٌ، وَقَدْ أَتَى عَلَى خَلِيفَتِكُمْ مَا أَتَى عَلَى نَبِيِّكُمْ ﷺ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَمَا كَانَ إِلَّا عَبْدًا دُعي فَأَجَابَ، وَأَمَرَ فَأَطَاعَ، وَقَدْ سَدَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ثَلَمَهُ، وَقَامَ مَقَامَهُ، وَفِي أَعْنَاقِكُمْ مِنَ الْعَهْدِ مَا قَدْ عَرَفْتُمْ، فَأَحْسِنُوا الْعِزَاءَ عَلَى إِمَامِكُمُ الْمَاضِي، وَاغْتَبِطُوا بِالنَّعْمَاءِ وَالْوَفَاءِ فِي خَلِيفَتِكُمُ الْبَاقِي، يَا أَهْلَ الدُّنْيَا؛ الْمَوْتُ نَازِلٌ، وَالْأَجَلُ طَالِبٌ، وَأَمْسِ وَاعْظُ، وَالْيَوْمُ مَغْتَنَمٌ، وَغَدٌ مُنْتَظَرٌ".

- وخطب المأمون بعدما سلَّم الناس عليه بالخلافة، قائلاً: أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنِّي جَعَلْتُ اللَّهَ عَلَى نَفْسِي، إِنْ اسْتَرَعَانِي أُمُورُكُمْ؛ أَنْ أُطِيعَهُ فَيْكُمْ، وَلَا أَسْفَكَ

١ المصدر السابق (٣/ ١٢٠).

٢ المصدر السابق.

دَمًا عَمْدًا لَا تُحِلُّهُ حَدُودُهُ وَتَسْفِكُهُ فَرَائِضُهُ، وَلَا أَخْذَ لِأَحَدٍ مَالًا وَلَا أَثَاثًا وَلَا نَحْلَةَ تَحْرُمُ عَلَيَّ، وَلَا أَحْكَمَ يَهْوَايَ، فِي غَضَبِي وَلَا رِضَايَ، وَأَلَا مَا كَانَ فِي اللَّهِ وَلَهُ؛ جَعَلْتُ كُلَّهُ لِلَّهِ عَهْدًا مُؤَكَّدًا، وَمِيثَاقًا مُشَدَّدًا، إِنِّي أَفِي رَغْبَةً فِي زِيَادَتِهِ إِيَّايَ فِي نِعْمَتِي، وَرَهْبَةً مِنْ مَسْأَلَتِهِ إِيَّايَ عَنْ حَقِّهِ وَخَلْقِهِ؛ فَإِنْ غَيَّرْتُ أَوْ بَدَّلْتُ؛ كُنْتُ لِلْغَيْرِ مُسْتَأْهِلًا، وَلِلنَّكَالِ مُعَرَّضًا، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ، وَأَرْغَبُ إِلَيْهِ فِي الْمَعُونَةِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَنْ يَحُولَ بَيْنِي وَبَيْنَ مَعْصِيَتِهِ".

- وقال الحسن بن سهل يمدح المأمون: "الحمدُ لله يا أمير المؤمنين على جَزِيلٍ مَا آتَاكَ، وَسَيِّئٍ مَا أَعْطَاكَ؛ إِذْ قَسَمَ لَكَ الْخِلَافَةَ، وَوَهَبَ لَكَ مَعَهَا الْحُجَّةَ، وَمَكَّنَكَ بِالسُّلْطَانِ، وَحَلَّاهُ لَكَ بِالْعَدْلِ، وَأَيَّدَكَ بِالظَّفَرِ، وَشَفَّعَهُ لَكَ بِالْعَفْوِ، وَأَوْجَبَ لَكَ السَّعَادَةَ، وَقَرَّنَهَا بِالسَّيَادَةِ، فَمَنْ فُسِّحَ لَهُ فِي مِثْلِ عَطِيَّةِ اللَّهِ لَكَ؟! أَمْ مَنْ أَلْبَسَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ زِينَةِ الْمَوَاهِبِ مَا أَلْبَسَكَ؟! أَمْ مَنْ تَرَادَفَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ تَرَادُفَهَا عَلَيْكَ؟! أَمْ هَلْ حَاوَلَهَا أَحَدٌ وَارْتَبَطَهَا بِمِثْلِ مُحَاوَلَتِكَ؟! أَمْ أَيُّ حَاجَةٍ بَقِيَتْ لِرَعِيَّتِكَ لَمْ يَجِدُوهَا عِنْدَكَ؟! أَمْ أَيُّ قِيَمٍ لِلْإِسْلَامِ انْتَهَى إِلَى عِنَايَتِكَ وَدَرَجَتِكَ؟! تَعَالَى اللَّهُ تَعَالَى!! مَا أَعْظَمَ مَا خَصَّ الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْتَ نَاصِرُهُ!! وَسَبْحَانَ اللَّهِ!! أَيُّ نِعْمَةٍ طَبَقَتْ الْأَرْضُ بِكَ إِنَّ أُدْيِي شُكْرَهَا إِلَى بَارِئِهَا وَالْمَنْعَمَ عَلَى الْعِبَادِ بِهَا؟! إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ السَّمَاءَ فِي فَلَكِهَا ضِيَاءَ يَسْتَنِيرُ بِهَا جَمِيعَ الْخَلَائِقِ، فَكُلُّ جَوْهَرٍ زَاهٍ حَسَنُهُ وَنُورُهُ؛ فَهَلْ لِبِسْتِهِ زِينَتُهُ إِلَّا بِمَا اتَّصَلَ بِهِ مِنْ نُورِكَ؟! وَكَذَلِكَ كُلُّ وَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَائِكَ؛ سَعِدَ بِأَفْعَالِهِ فِي دَوْلَتِكَ، وَحَسُنَتْ صِنَائِعُهُ عِنْدَ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّمَا نَالَهَا بِمَا أَيْدَتْهُ مِنْ رَأْيِكَ وَتَدْبِيرِكَ، وَأَسْعَدَتْهُ مِنْ حُسْنِكَ وَتَقْوِيمِكَ".

- وخطب عبد الله بن طاهر بن الحسين أحد قادة المأمون وأمير خراسان، قائلاً: "إِنَّكُمْ فِتْنَةُ اللَّهِ، الْمُجَاهِدُونَ عَنْ حَقِّهِ، الدَّائِبُونَ عَنْ دِينِهِ، وَالذَّائِدُونَ عَنْ مُحَارَمِهِ، الدَّاعُونَ إِلَى مَا أَمَرَهُ مِنَ الْإِعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَالطَّاعَةُ لَوْلَا أَمْرُهُ الَّذِينَ جَعَلَهُمْ رِعَاةَ الدِّينِ وَنِظَامِ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْتَنْجَزُوا مَوْعِدَ اللَّهِ وَنَصْرَهُ، بِمُجَاهِدَةِ عَدُوِّهِ وَأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ؛ الَّذِينَ أَشْرَوْا وَتَمَرَّدُوا، وَشَقُّوا الْعَصَا، وَفَارَقُوا الْجَمَاعَةَ، وَمَرَقُوا مِنَ الدِّينِ، وَسَعَوْا فِي الْأَرْضِ فُسَادًا؛ فَإِنَّهُ يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)^١، فليكن الصبر مَعْقِلَكُمْ الذي إليه تلجؤون، وَعُدَّتْكُمْ التي بها تستظهرون؛ فَإِنَّهُ الْوَزَرُ الْمُنِيعُ الذي دَلَّكُمْ اللَّهُ عليه، وَالْجُنَّةُ الْحَصِينَةُ التي أَمَرَكُمْ اللَّهُ بلباسها؛ غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَاخْفَتُوا أَصْوَاتَكُمْ فِي مَصَافِكُمْ، وَامْضُوا قُدُمًا عَلَى بَصَائِرِكُمْ، فَارْغِبُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ كَمَا أَمَرَكُمْ اللَّهُ؛ فَإِنَّهُ يَقُولُ: (إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^٢؛ أَيْدِكُمْ اللَّهُ بِعِزِّ الصَّبْرِ، وَوَلِيَّكُمْ بِالْحَيَاةِ وَالنَّصْرِ".

ثانيًا: الرسائل:

- كتب أبو جعفر المنصور إلى محمد النفس الزكية، إثر ثورته عليه في المدينة، يدعوه إلى الطاعة ويؤمِّنه؛ "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ عَبْدِ اللَّهِ؛ عَبْدُ اللَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَمَا بَعْدُ: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ

١ المصدر السابق (٣/ ١٤٤).

٢ سورة محمد (٧).

٣ سورة الأنفال (٤٥).

٤ جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٣/ ٧٨).

يُصَلِّبُوا أَوْ تَقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِّنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) ، ولك عليَّ عهد الله وميثاقه ودمته ودمّة رسوله ﷺ؛ إن ثبتت ورجعت من قبل أن أقدر عليك؛ أن أؤمّنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتّبعكم؛ على دماءكم وأموالكم، وأسوِّغك ما أصبت من دم أو مالٍ، وأعطيك ألفَ ألفِ درهم، وما سألت من الحوائج، وأنزلك من البلاد حيث شئت، وأن أطلق من في حبسي من أهل بيتك، وأن أؤمّن كلّ من جاءك وبائعك واتّبعك، أو دخل معك في شيء من أمرك، ثم لا اتّبع أحداً منه بشيء كان منه أبداً، فإن أردت أن تتوثّق لنفسك فوجّه إليّ من أحببت أن يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثقّ به".

- وكتب سعيد بن حميد يردُّ على كتابٍ وصلّه من رفيقٍ له، قائلاً: "وصل كتابك -أكرمك الله تعالى- الحاضر سروره، اللّطيف موقعه، الجميل صدوره ومورده، الشاهد ظاهره على صدق باطنه، ونحن -أعزّك الله- نجعل عزاءك الاعتراف بفضلك، ومجازاتك التقصير دونك، ونرى أن لا عذر في التخلّف عنك، وإن حال الاشتغال بيننا وبينك؛ فإن كنت سامحت على العذر قبل الاعتذار، وسبقت إلى فضيلة الاعتذار؛ فلا زلت على كل خير دليلاً، وإليه داعياً، وبه آمراً، وقد التقينا قبل وصول كتابك لقاء أحدث قطراً، وهاج شوقاً، وأرجو أن تتّسع لنا الجمعة بما فاضت به الأيام، فننال حظاً من محادثتك والأنس بك".

- وكتب عبد الله ابن المعتز في وصف البيان: "البيان ترجمان القلوب، وصيقل العقول، ومجلّي الشُّبهة، وموجب الحُجّة، والحاكم عند اختصام الظُّنون، والمفرّق بين الشكّ واليقين، وهو من سلطان الرُّسل

١ سورة المائدة (٣٣).

٢ جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٤ / ٢٦٠).

٣ المصدر السابق.

الذي انقاد به المستصعب، واستقام الأصيل؛ وُهِت الكافر، وسَلَّم الممتنع، حتى أشب الحقُّ بأنصاره، وخلا رُبُعُ الباطل من عمّاره. وخير البيان ما كان مصرّحاً عن المعنى؛ ليسرع إلى الفهم تلقّيه، وموجزاً ليخفَّ على اللَّفظ تعاطيه؛ وفضل القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول، وظاهر غير خفيٍّ، يشهد بذلك عجز المتعاطين، ووهن المتكلِّفين، وتحير الكذّابين؛ وهو المبلِّغ الذي لا يُملُّ، والجديد الذي لا يَخْلُق، والحق الصّادع، والنُّور الساطع، والمّاحي لِظُلُم الضَّلَال، ولسانُ الصّديق النّافي للكذب، ونذيرُ قَدَمَتِهِ الرَّحمة قبل الهلاك، وفاعِي الدُّنيا المنقولة، وبشير الآخرة المخلّدة، ومفتاح الخيرة، ودليل الجنّة، إن أوجز كان كافياً، وإن أكثر كان مذكّراً، وإن أوماً كان مقنعاً، وإن أطال كان مُفهِماً، وإن أمر فناصحاً، وإن حكّم فعادلاً، وإن أخبر فصادقاً، وإن بيّن فشافياً، سهلٌ على الفهم، صعبٌ على المتعاطي، قريبُ المأخذ، بعيدُ المرام، سراج تستضيء به القلوب، حلوّ إذا تذوّقته العقول، بحر العلوم، وديوان الحُكَم، وجوهر الكَلِم، ونزهة المتوسّمين، وروح قلوب المؤمنين، نزل به الرُّوح الأمين، على محمد خاتم النّبِيِّين، صلّى الله عليه وعلى آله الطيّبين، فخصم الباطل، وصدع بالحق، وتألّف من النّفرة، وأنقذ من الهلكة، فوصل الله له النصر، وأضرع به خدَّ الكفر".

- وكتب أبو الفضل الميكالي (ت: ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م) في رسالة إلى صديق له؛ "إنّما أشكو إليك زماناً سلبَ ضِعْفَ ما وهب، وفجع بأكثر ممّا أمتّع، وأوحش فوق ما آنس، وعنف في نزع ما ألبس؛ فإنّه لم يُذِقْنَا حلاوة الاجتماع؛ حتى جرّعنا مرارة الفراق، ولم يُمتعنا بأنس الالتقاء؛ حتّى غادَرْنَا رهنَ التَّلُفّ والاشتياق، والحمد لله تعالى على كل حالٍ يسيء وَيَسُرُّ، ويحلّو ويمرُّ، ولا أياْسُ من روح الله في إباحة صنع يجعل ربّعه

١ الأصيل: الذي لا يستطيع الالتفات. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣/ ٢٦٢).

٢ زهر الآداب، وثمر الألباب، القيرواني (٢/ ٣٣٠).



مناخي، ويقصّر مدة البعاد والتراخي؛ فألاحظ الزّمان بعينٍ راضٍ، ويُقبل
إليّ حظّي بعد إعراض، وأستأنف بعزّته عيشًا سابغ الدُّيُول والأعطاف،
رقيق المعاني والأوصاف، عذب الموارد والمناهل، مأمون الآفات
والغوائل".

- وله فصلٌ من التّعزية قال فيه: "لئن كانت الرّزّيّة مُمضّة مؤلمة، وطرق
العزاء والسّلوّة مهمّة؛ لقد حلّت بساحة من لا تنتقض بأمثالها مرائره،
ولا تضعف عن احتمالها بصائره، قد يتلقّاها بصدْرِ فسيح، يُحمي أن
يبيح الحزن جنابه، وصبرٍ مشيح، يُحمي أن يُحبِط الجزعُ أجره وثوابه؛
كيف لا وآداب الدّين من عنده تُلتَمَس، وأحكام الشرع من لسانه ويده
تُستفاد وتُقتَبَس، والعيون ترمقه في هذه الحال لتجري على سنّنه، وتأخذ
بآدابه وسنّنه، فإن تعزّت القلوب فبحسب تماسكه عزّاؤها، وإن حسّنت
الأفعال فالإ حميد أفعاله ومذاهبه اعتزّاؤها".

أعلام الأدباء

أولاً: الرواة

(أبو عمرو ابن العلاء- حماد الراوية- المفضل الضبي- خلف الأحمر- أبو عمرو الشيباني- أبو عبيدة الراوي- الأصمعي- أبو زيد الأنصاري- أبو زيد القرشي- محمد بن سلام الجمحي- ابن الأعرابي- ابن السكيت- السجستاني- السكري)

عرّف العصر العباسي وجودَ عددٍ من الرواة المحترفين؛ الذين كانوا لهم فضل في نقل ما انتهى إليهم من التراث الجاهلي والإسلامي من الشعر والخطب والأخبار، وحقًا كان الرواة موجودين من العصر الجاهلي، ولكن رواية الشعر ضعفت نوعًا مع ظهور الإسلام؛ لانشغال المسلمين بالدعوة والفتوحات، فلما استقر الناس واطمأنوا في العصر الأموي ثم العصر العباسي؛ برز من جديد عددٌ من الرواة الذين انتهى إليهم قدرٌ كبير من الشعر الجاهلي والإسلامي، فحفظوه ثم نقلوه، ولكن الفارق هنا في العصر العباسي مع بدء عصور التدوين؛ أنّ الرواة انتقلوا من مرحلة الرواية أو النقل الشفهي، إلى التدوين وحفظ التراث في كتب ومجلّدات، على نحو ما نرى في "المعلقات" لحمّاد الراوية، و"المفضليّات" للمفضل الضبي، و"الأصمعيّات" للأصمعي، و"جمهرة أشعار العرب" لأبي زيد القرشي، وما تركه السكري من آثار، بالإضافة إلى مجموعات شعرية عديدة كحماسة أبي تمام والبحري ومختارات ابن الشجري، والدواوين الخاصة للشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين، فتمّ بذلك حفظ التراث الجاهلي من الضياع، صحيح أن بعض رواياتهم لم تخلُ من الانتحال والكذب، من قبل بعض الرواة غير الثقات أمثال حمّاد الراوية، وتلميذه خلف الأحمر، والشرقي ابن القطامي؛ حيث قاموا بنظم بعض القصائد ونسبوها زورًا لشعراء جاهليّين

ومخضرمين؛ لأسباب سياسيّة وتكسُّبيّة، فحدث في الأدب الجاهلي خلط كبير، ولم يُمكن تمييز تلك القصائد المنحولة عن القصائد الصحيحة، ومنهم من أخذ القصائد الصحيحة فأضاف إليها أبياتاً من عنده، وقد نَبَّهنا سابقاً إلى ضرورة الحذر عند رواية الشعر الجاهلي، وعدم الوقوف عند الدواوين الخاصة بالشعراء الجاهليّين، التي لم يروها الثّقات، ولكنّنا من جهة نستطيع الاطمئنان إلى ما رواه الرواة المشهود لهم بالصدق والأمانة؛ أمثال المفضّل الضبي والأصمعي وأبي عمرو ابن العلاء ومحمد بن سلام الجمحي وأبي زيد القرشي وأبي زيد الأنصاري وابن السكّيت والسكّري، ومَن على شاكلتهم، صحيحٌ أن الرّواة الثّقات أنفسهم قد وقع اختلافٌ أحياناً في رواياتهم، ولكنّها اختلافات فرعيّة؛ كإبدال كلمة مكان أخرى، أو اختلاف في ترتيب الأبيات، لا تضرُّ كثيراً بصميم الشعر الجاهلي، ولا يبلغ ضررها ما بلغه من انتحال بعض الرّواة غير الثّقاة، ومن أبرر الرّواة في العصر العباسي:

١- أبو عمرو ابن العلاء:

هو أبو عمرو زبّان بن العلاء بن عمّار بن العريان التميمي، المُضَرّي، البصري، اختُلِف في اسمه والأرجح أنّ زبّان هو اسمه الحقيقي، وهو أحد القُرّاء السبعة، وُلِدَ بمكة المكرمة نحو عام (٦٥هـ / ٦٨٤م)، وأخذ العلم عن الصحابي أنس ابن مالك، والحسن البصري وسعيد بن جبّير وعكرمة ومجاهد، وأخذ النحو عن نصر بن عاصم الليثي، وأخذ القراءة عن عبد الله بن المبارك. وتلمذ على يديه الخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب البصري، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، والأصمعي، وروى عنه سيبويه.

وكان أبو عمر ابن العلاء أعلم الناس بالعربيّة والقرآن وأيام العرب، ويقال: إنّ دفاثره كانت ملء بيته إلى السَّقَف، ثم تنسك وأحرقها، وله عدّة أخبار، وهو من أهل الثّقّة في الحديث والرواية، مات سنة (١٥٤هـ / ٧٧٠م).

١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣/ ١٣١٦ - ١٣٢١).

٢- حمّاد الراوية:

هو أبو القاسم حمّاد بن أبي ليلى سابور -وقيل ميسرة- بن المبارك بن عبيد الدّيلي، الكوفي، من موالي بني بكر بن وائل، وقد اشتهر باسم حمّاد الراوية، كان أعلم الناس بالأشعار والأخبار وأيام العرب، وهو أوّل مَنْ رُوِيَ عنه المعلقات السبع، وُلِدَ نحو عام (٧١٣هـ/٧١٣م)، ونشأ بالكوفة، وقد ذاع صيته وعُرفَ بقوة حافظته، وكان النَّاس يسألونه عمّا خَفِيَ عنهم من شعر العرب وأخبارهم، قال عنه الهيثم بن عدي: ما رأيتُ رجلاً أعلم بكلام العرب من حمّاد؛ وقال الأصمعي: كان حمّاد أعلم الناس إذا نصح؛ وله أخبار مع بعض خلفاء بني أميّة؛ حيث يُروى أنه استدعاه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وقال له: كيف أنت يا حمّاد؟ قال: بخير يا أمير المؤمنين؟ فقال: أتدري فيم بعثت إليك؟ فقال: لا؛ فقال: بعثت إليك بسبب بيتٍ خطر ببالي، لا أعرف قائله؛ قال: ما هو؟ قال:

وَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا فَجَاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقٌ

فقال: يقوله: عدي بن زيد العبادي.. ثم أنشده كامل القصيدة، فطرب هشام ووصله بمئة ألف درهم ووهبه جارتين كانتا له.

وسأله الخليفة الوليد بن يزيد يومًا وقد حضر مجلسه: بِمَ استحققتَ هذا الاسم فقيل لك الراوية؟ فقال: بأنّي أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعتَ به، ثم أروي لأكثر منهم ممّن تعترف أنّك لا تعرفه ولا سمعتَ به، ثم لا ينشدني أحدٌ شعرًا قديمًا أو محدثًا إلا ميّزت القديم من المحدث؛ فسأله: فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟ فقال: كثير، ولكيّ أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة، سوى المقطّعات من شعراء الجاهلية، دون شعراء الإسلام؛ فأمره بالإنشاد امتحانًا له، فأنشد، حتى ضجر الوليد، فوكلَّ له من يسمع عنه، فأنشده نحو ألفين وتسعمائة قصيدة جاهلية، فأمر له الوليد بمئة ألف درهم.

لكن حمّادًا مع شهرته كان مطعونًا في روايته، معروفًا بعدم الأمانة؛ حيث نحل على شعراء الجاهلية قصائد لم يقولوها، وانتبه لزيّف روايته بعض معاصريه من الرّواة؛ كالمفضّل الضّبيّ؛ الذي قال فيه: قد سُلّط على الشعر من حمّاد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدًا؛ فقل له: وكيف ذلك، أخطئ في رواية أم يلحن؟ قال: ليته كان كذلك؛ فإنّ أهل العلم يردّون من أخطأ إلى الصواب؛ ولكنّه رجلٌ عالمٌ بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره، ويحمّل ذلك عنه في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميّز منها إلا عند عالمٍ ناقد، وأين ذلك؟! وقال ابن سلام عنه: كان أوّل من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حمّاد الراوية، وكان غير موثوق به؛ كان ينحل شعر الرّجل ويزيد في الأشعار. ولهذا لا يُعتدُّ بما رواه حماد من شعر الجاهلية؛ لما أحدث فيه من إضافات وخلط.

وقد مات حماد عام (١٥٥هـ / ٧٧١م) في خلافة أبي جعفر المنصور، وهناك من آخر وفاته إلى عهد المهدي، ورُوِيَ أن المهدي وصله لجودة شعره بعشرين ألف درهم، ولكنّه أبطل روايته لزيادته بأشعار الناس ما ليس فيها، وأنّه اعترف له بأبيات أضافها إلى شعر زهير بن أبي سلمى.

وتُعتبر روايته للقصائد السّبع الطوال المعروفة بالمعلّقات أجلّ آثاره، ورغم انعدام ثقة روايته؛ فإن تلك القصائد التي أوردها؛ لها من الشهرة بين العرب ما يعجزه عن افتعال انتحال كبير فيها، والجدير بالذكر أنّه تُنسب إليه أيضًا رواية تعليقها في الكعبة، ونقل عنه ذلك آخرون، بينما أنكر تلك الرواية عددٌ آخر وطعن فيها، ويقال: إنه جمع أشعار القبائل في الجاهلية في كتبٍ، بواقع كتابٍ لكل قبيلة، وجمع أشعار أغلب شعراء عصر بني أميّة، ولكن ذلك لم يصل إلينا!

١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣/ ١٢٠١ - ١٢٠٥)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٢٠٦ - ٢١٠)؛ تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ١١٢ - ١١٣)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٨١ - ٨٢).

٣- المفضل الضبي:

هو أبو عبد الرحمن المفضل بن محمد بن يعلى، وُلد بالكوفة نحو عام (١٠٠هـ/ ٧١٨م)، كان من أكابر علماء الكوفة وأشهر رواتها، وكان عالماً بالأخبار والأشعار، راويةً وأخبارياً ولغوياً ونحوياً وأديباً وناقداً ومقرئاً، أخذ عنه أبو عبد الله ابن الأعرابي وأبو زيد الأنصاري وخلف الأحمر، وهو -بخلاف حماد- كان ثقة في روايته.

وقد عاصر المفضل المدّة الأخيرة من العصر الأموي، وأدرك العصر العباسي، وأيد ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن العلوي ضد الخليفة أبي جعفر المنصور، فقتل إبراهيم ووقع المفضل في الأسر، ولكن المنصور عفا عنه لعلمه وفضله، وعهد إليه بتأديب ولده المهدي، فاختر له مجموعةً من أشعار الجاهليين والمخضرمين عُرفت بـ"المفضليات" لكي يحفظها ويتأدّب بها، وكان المهدي يأنس به ويقدمه على حماد لثقة روايته، مات سنة (١٦٨هـ/ ٧٨٤م)، وقيل: إنّه وفد على هارون الرشيد، وإنّه مات عام (١٧٨هـ/ ٧٩٤م).

وللمفضل عدّة تصانيف مهمّة، على رأسها كتاب "المفضليات" وهو مجموعة مختارة عبارة عن مئة وثلاثين قصيدة من قصائد الشعر الجاهلي والإسلامي، وتُعتبر "المفضليات" من أوثق وأفضل مصادر الشعر الجاهلي والإسلامي، وكتاب "الأمثال" وهو أول كتاب عن الأمثال الجاهلية، وقد أورد فيه بعض الأمثال الجاهلية مع بعض القصص المروية، وكتاب "معاني الشعر"، وكتاب "الألفاظ".

٤- خلف الأحمر:

هو أبو محرز خلف بن حيّان الأحمر، البصري، من موالي أبي بردة بلال بن أبي بردة ابن أبي موسى الأشعري، من سبي قتيبة بن مسلم الباهلي أثناء ولايته على

١ انظر: الفهرست، ابن النديم (ص ٢٠٥ - ٢٠٦)؛ نزهة الألباء في طبقات الأدباء (٥٥ - ٥٧)؛ معجم الأدباء ياقوت الحموي (٦ / ٢٧١٠ - ٢٧١٢)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢ / ١١٩ - ١٢٠).



خراسان زمن بني أمية، وقد أعتق بلال أبويه، وكان من تلاميذ حماد الراوية والمفضل الضبي، وكان عالماً بأشعار العرب وأخبارهم، قال عنه أبو عبيدة ابن المثنى: خلف الأحمر معلّم الأصمعي ومعلّم أهل البصرة؛ وقال الأخفش: لم أدرك أحداً أعلم بالشعر من خلف الأحمر والأصمعي؛ وقال ابن سلام: أجمع أصحابنا أنّ الأحمر كان أفرس الناس ببیت شعر، وأصدق لساناً، وكُنّا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً؛ أن نسمعه من صاحبه.

وكان خلف الأحمر شاعراً حاذقاً، ويُعتبر شعره من أجود وأحسن الشعر، لكنّه سار في روايته على نمط حماد في الانتحال، فاستغل علمه باللغة وألفاظ العرب القديمة، وحذاقته في الشعر، وكان يعمل القصيدة بنفس أسلوب وألفاظ العرب القدامى، ثم ينحلها على بعض الشعراء الجاهليين كأبي داود الإيادي وتأبّط شراً والنابعة الذبياني، وهو الذي نحل ما نحلّه في القصيدة المعروفة بلامية العرب المنسوبة إلى الشنفرى، وقال أبو الطيّب اللّغوي: كان خلف يصنع الشعر وينسبه إلى العرب فلا يُعرّف؛ ويقال: إن خلفاً تنسك في أواخر حياته، وكفّ عن الانتحال وندم على ذلك، واعترف بما نحلّه على شعراء الجاهلية، وخرج على الناس ليعرّفهم بما نحلّه، فقالوا له: أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة!! فلم يتمكّن من تخلص دواوين شعراء الجاهلية ممّا نحلّه خلف عليهم، وبقي الأمر على حاله، لذا فهو لا يُعتدّ بروايته، مثل حماد، ويعتبر هو وحماد ممّن أفسدوا الشعر الجاهلي بما نحلّوه على شعراء الجاهلية، ولا ندري سبباً مقنعاً لذلك الفعل الذي لا يجلب لهم نفعاً، ولو كان حماد وخلف نسباً ذلك الشعر لنفسيهما لكان أفضل لهما وأتمّ، ولصارا في عداد الشعراء الفحول؛ لأنهما يمتلكان من اللغة والموهبة والدراية بالشعر وألفاظ العرب ما يؤهلّهما لتلك المنزلة، ولكن كان ما كان، وقد مات خلف الأحمر نحو عام (١٨٠هـ/ ٧٩٦م)، وربّما قبل هذا التاريخ، ورثاه أبو نواس^١.

^١ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ٥٦ - ٥٧)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣/ ١٢٥٤ - ١٢٥٨)، تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ١٢٢ - ١٢٤).

٥- أبو عمرو الشيباني:

هو أبو عمرو إسحاق بن مرار الشَّيباني، الكوفي، من موالى بني شيبان، كان مؤدِّبًا لأولاد أناسٍ منهم فنُسِبَ إليهم، وُلِدَ نحو عام (١٠٠هـ / ٧١٨م) وربَّما بعد ذلك، كان واسع المعرفة والعلم باللغة والشعر والحديث، نبيلًا فاضلًا، عالمًا بكلام العرب وحافظًا للغاتها، مات في خلافة المأمون عام (٢٠٦هـ / ٨٢١م)، وهناك من أحرَّ وفاته حتى عام (٢١٣هـ / ٨٢٨م)، وقد نيَّفَ على التَّسعين سنة، وقيل: بل جاوز المئة؛ ويقال: إنه جمع أشعار القبائل، وكانت نيْفًا وثمانين قبيلة!

٦- أبو عُبَيْدة الرَّاوي:

هو أبو عُبَيْدة معمر بن المثنَّى البصري، من موالى بني تيم من قريش، كان أعلم الناس باللغة والأخبار والأنساب والأشعار، كانت ولادته عام (١١٠هـ / ٧٢٨م)، أخذ العلم عن يونس بن حبيب وأبي عمرو ابن العلاء، وهو أستاذ كلِّ من أبي عبيدة القاسم بن سلام، وعليِّ بن المغيرة، وأبي عثمان المازني، وأبي حاتم السجستاني وغيرهم. وكان الأصمعي أعلم منه بالنحو، وكان هو أعلم من الأصمعي وأبي زيد بالأنساب، وكان أبو نواس يتعلَّم منه ويمدحه، وله أخبار مع هارون الرشيد، وقد رُوِيَتْ عنه أخبار متردِّدة؛ من بينها ميله لرأي الخوارج الإباضية، وأنَّه كان شعوبيًّا متحاملاً على العرب، ولا نهتمُّ كثيرًا بتلك الأخبار المتردِّدة؛ وإنَّما ما يعنيننا ما تركه من علمٍ ورواية، مات سنة (٢٠٨هـ / ٨٢٣م).

وله تصانيف عديدة، يقال: إنها قاربت المائتين؛ منها: "غريب القرآن"، "مجاز القرآن"، "غريب الحديث"، "الجمع والتثنية"، "الإبدال"، "اللغات"، "الأضداد"، "القبائل"، "مآثر العرب"، "مثالب العرب"، "الأعيان"، "أشعار القبائل"، وله بعض المؤلفات التاريخية مثل: "الأوس والخزرج"، "مقتل عثمان"، "الجمال وصفين"، "أخبار الحجاج"، ولكن أشهر ما تركه كان كتاب "نقائص جرير

١ انظر: نزهة الألباء، ابن الأنباري (ص ٧٦-٧٩)؛ معجم الأدباء، ياقوت (٢/ ٦٢٥-٦٢٨)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ١٧٥).

والفرزدق" الذي جمع فيه أشعار النَّقائض بين الفرزدق وجريز، مرفقًا إياها بالقصص والأخبار، وهو كتاب في غاية الرَّوعة والأهميَّة!

٧- أبو سعيد الأصمعي:

هو أبو سعيد عبد الملك بن عاصم (قريب) بن عبد الله بن أصمع، وقيل: ابن عبد الملك بن علي بن أصمع؛ وُلد في البصرة نحو عام (١٢٣هـ / ٧٤٠م)، أخذ العلم عن عبد الله بن عون، وشعبة بن الحجاج، وحماد بن سلمة، وحمّاد ابن زيد، والخليل بن أحمد، ويقال: إنّه حاول أن يأخذ عن الخليل عِلْم العروض فلم يتسَنَّ له، فطلب الخليل منه تقطيع هذا البيت:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ عِلْمًا فَدَعُهُ وَجَاوِزُهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

ففهم الأصمعي غايته، فانصرف عنه.

وكان الأصمعي إمامًا في اللغة والنحو، وعلى دراية واسعة بأشعار العرب وأخبارهم وأيامهم، بارعًا في النوادر والمَلَح والغرائب، جيّد الحفظ، حسن العبارة، يُروى أنه كان يحفظ سِتَّ عشرة ألفَ أرجوزةٍ، أخذ عنه ابن أخيه عبد الرحمن بن عبد الله، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو حاتم السجستاني، وأبو الفضل الرياشي، وأحمد بن محمد اليزيدي، ونصر بن عليّ الجهمضي؛ وكان ذا حظوة عند الخلفاء العباسيين، وقد على هارون الرشيد وله مع أخبار، وكان يسمّيه بشيطان الشعر، وقد عُمِر الأصمعي طويلاً حتى أدرك خلافة المأمون، وكان يجلّه ويحترمه، وقد استدعاه إلى بلاطه في بغداد، ولكنَّ الأصمعي اعتذر عن قبول دعوته لِكِبَر سنّهِ، ومع هذا فقد كان يرأسله، ويبعث إليه بالمسائل، فيردُّ ويحيب عليها.

مات الأصمعي نحو عام (٢١٣هـ / ٨٢٨م) في البصرة، وقيل: بل عام (٢١٧هـ / ٨٢٣م)، وقد ترك مؤلفات عدّة؛ من أشهرها مجموعة "الأصمعيّات" وهي قصائد مختارة من الشعر الجاهلي والمخضرم، وهي على نفس درجة المفضّليات من

١ انظر: معجم الأدباء: ياقوت الحموي (٥ / ٢٧٠٤ - ٢٧٠٩).

الدِّقَّة والثِّقَّة، ولكن العلماء كانوا يقدِّمون "المفضَّلِيَّات" كونها أغزر مادة وأوفرها بغريب اللغة، وله غير الأصمعيَّات تصانيف عديدة؛ مثل: كتاب "الأوقات"، "الأمثال"، "الأضداد"، "الألفاظ"، "النوادر"، "اللغات"، "القرب والإبدال"، "جزيرة العرب"، "ما اختلف لفظه واتفق معناه"، "ما اتفق لفظه واختلف معناه"، "نوادير العرب"، "الأصوات"، بالإضافة إلى تصانيف أخرى عديدة، وبلغت مصنَّفاته نيِّقًا وأربعين في موضوعات مختلفة!

٨- أبوزيد الأنصاري:

هو سعيد بن أوس بن ثابت بن بشير بن قيس الخزرجي الأنصاري، كان مولده نحو عام (١٢٥هـ / ٧٤٣م) أو قُبِيل ذلك بقليل، كان إمامًا في الأدب والنحو، وغلب عليه علمه باللغة والغريب والنوادر، أخذ العلم عن أبي عمرو ابن العلاء، وتلمذ على يديه أبو عبيدة القاسم بن سلام، وعمرو بن عبيد، وأبو العيَّناء، وأبو حاتم السجستاني؛ وهو من الرُّوَاة الثِّقَّات، وقد أشاد بعلمه جميع أهل العلم واللغة، مات عام (٢١٥هـ / ٨٣٠م) وقد نيَّف على التِّسعين، وقد ترك عدَّة مصنَّفات؛ منها: "بيوتات العرب"، "تخفيف الهمزة"، "المقتضب"، "غريب الأسماء"، "المنطق"، و"التصارييف".

٩- أبوزيد القرشي:

هو أبو زيد محمد بن أبي الخطَّاب القرشي، مؤلف كتاب "جمهرة أشعار العرب"، ولم نقف له على ترجمة ثابتة، وهناك تضارب كبير في زمن حياته وتاريخ وفاته، ولعلَّه عاش في القرن الثاني للهجرة أو القرن الثالث، ويُعتبر كتابه "جمهرة أشعار العرب" من أوثق ما رُوِيَ من الشعر الجاهلي والمخضرم

١ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ٨٨- ٩٦)، تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/ ١٠٨- ١٠٩)، تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٢٠٥)، وانظر مؤلفاته في: الفهرست، ابن النديم (١٥٥- ١٥٧).
٢ انظر: معجم الأدباء، ياقوت (٣/ ١٣٥٩- ١٣٦٣).

والإسلامي؛ حيث أتى فيه بتسعة وأربعين قصيدة من أطايب الشعر لتسعة وأربعين شاعرًا، وجعلها في سبعة مجاميع، أسماها أصحاب المعلقات، والمجمهرات، والمنتقيات، والمذهبات، والمراثي، والمشوبات، والملحمات؛ وهناك اختلاف بين روايته وبين روايات آخرين حول أسماء أصحاب المعلقات وأسماء بعض قصائدهم؛ إذ جعلهم ثمانية، وحذف وأضاف شعراء آخرين وقصائد أخرى.

١٠ - محمد بن سلام الجُمحي:

هو أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبد الله بن سالم، الجُمحي، البصري، أحد الرواة الثقات، أخذ العلم عن حماد بن سلمة ومبارك بن فضالة، وروى عنه الإمام أحمد بن حنبل وابنه عبد الله، وأبو العباس ثعلب، وأحمد بن عليّ الأتبار، وكان له علم بالشعر والأخبار، مات نحو عام (٢٣٢هـ / ٨٤٦م).

وترك محمد بن سلام عدة آثار مهمة؛ من بينها "الفاضل في ملح الأخبار والأشعار"، "بيوتات العرب"، "غريب القرآن"، و"الجلاب وإجراء الخيل"، ولكن أهم وأبرز ما تركه ابن سلام الجُمحي كان كتاب "طبقات الشعراء" وهو من أفضل وأوثق مصادر رواية الشعر الجاهلي والإسلامي؛ حيث قسّم كتابه إلى بابين، فاختص بالباب الأول الشعراء الجاهلين والمخضرمين، بينما اختص بالباب الثاني الشعراء الإسلاميين الذين لم يدركوا الجاهلية، مقسّمًا إيّاهم إلى عشر طبقات، وفق معايير الإجادة والمستوى وكثرة الرواية، بالإضافة إلى أصحاب المراثي وشعراء القرى، وأورد لكلٍ من هؤلاء الشعراء مقطوعات قصيرة واختصّها بشيء من النقد، وترجع أهمية هذا الكتاب، رغم قِلّة ما ورد فيه من أشعار مقارنة بالمفضّليات؛ إلى أنّه أول كتاب في النّقد الأدبي؛ حيث تناول ابن سلام تلك الأشعار بشيءٍ من النقد، وقد أخذ على كتابه بعض الأمور؛ مثل

١ انظر: الفهرست، ابن النديم (ص ٣٥٠)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦ / ٢٥٤٠ - ٢٥٤١).

وضعه الشَّاعرَ الجاهليَّ بشامةً بن الغدير خطأً بين رجال الطبقة الثامنة من الشعراء الإسلاميين، فضلاً عن أنَّ معاييرَه في المفاضلة بين الشعراء كانت بدائية تخضع لاختلاف الذائقة والرأي، ورغم ما أُخذ على كتابه؛ فإنَّه يُعد من أوثق ما وصلنا عن الشعر الجاهلي والإسلامي، ويكفيه أهميَّة أنه كان أول محاولة في النقد الأدبي، وإن كان بدائيًّا ولكنه كان سبباً رئيساً من أسباب تطوُّر النقد الأدبي في العصر التالية.

١١- ابن الأعرابي:

هو أبو عبد الله؛ محمد بن زياد، الكوفي، المعروف بابن الأعرابي، وُلد نحو عام (١٥٠هـ/ ٧٦٧م)، كان من موالى بني هاشم، وكان أبوه عبداً سندياً، وهو من أكابر أئمة اللغة والنحو ورواية الشعر، ومن أحفظ الناس لِلُّغات وأيام العرب وأنسابهم، ويقال: إنه لم يكن للكوفيِّين أشبه برواية البصريين منه، راوياً لأشعار القبائل، ناسباً، وهو ربيب المفضل الضبي، أخذ العلم عنه وعن الكسائي، وأبي معاوية الضَّرير النحوي، وأخذ عنه أبو العباس ثعلب، وابن السِّكِّيت وآخرون، قال عنه ثعلب: انتهى علم اللُّغة والحفظ إلى ابن الأعرابي. ولابن الأعرابي تصانيف عدَّة؛ منها: "النوادر"، "تاريخ القبائل"، "تفسير الأمثال"، "معاني الشعر"، "الألفاظ"، وعدَّة كتب أخرى في موضوعات مختلفة، مات سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) في خلافة الواثق، وقد بلغ من العمر نحو إحدى وثمانين سنة، وصلى عليه قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد!

١٢- ابن السِّكِّيت:

هو يعقوب بن إسحاق السِّكِّيت، والسِّكِّيت لقب أبيه، وكان أبوه من أصحاب الكسائي، وكان عالماً باللغة والنحو والشعر ومؤدِّباً للصِّبيان في درب القنطرة

^١ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ١١٠ - ١١٢)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٢٥٣٠ - ٢٥٣٤).

بمدينة السلام، وكان ولدُهُ يعقوب مؤدِّبًا معه على شاكلته، وكان يقول: أنا أعلم من أبي بالنحو، وأبي أعلم مِنِّي بالشعر واللغة؛ وحُكي أَنَّ أباه طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة، وسأل الله أن يعلم ولده النُّحو، وأقبل ولده على تعلُّم النحو من البصريين والكوفيين، فأخذ العلم عن أبي عمرو الشيباني، والفراء، وابن الأعرابي، والأثرم، وروى عن الأصمعي، وأبي عُبَيْدة الراوي، وأخذ عنه أبو سعيد السُّكَّري، وأبو عكرمة الضُّبِّي وآخرون.

وكان ابن السِّكِّيت مِن أعلم الناس باللغة والشعر، وكان راوية ثقةً لم يكن بعد ابن الأعرابي مثله، اتَّصل بمحمد بن طاهر أمير خراسان وعمل مؤدِّبًا لبعض ولده، فقطع له ابن طاهر خمسمائة درهم ثم جعلها ألقًا، ثم انتقل إلى سامراء، واتَّصل بعبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير الخليفة المتوكل، فقدَّمه إلى المتوكل، فأُسند إليه تأديب ولده، وكان فيه تشيُّعٌ لآل البيت، يُروى أن المتوكل -وكان مبغضًا للطالبيين وآل البيت- طلبه للمنادمة يومًا ثم سأله: يا يعقوب؛ أيُّما أحبُّ إليك: ابناي هذان -أي المعتز والمؤيد- أم الحسن والحسين؟ فترَضَّى عن الحسن والحسين، وسكت عن ولديه، وقيل: بل قال له: إِنَّ قنبر خادم عليٍّ أحبُّ إليَّ مِن ابنيك؛ فأمر المتوكل بضربه، فحُمِلَ إلى بيته، وعاش يومًا وبعض آخر، وما لبث أن مات نحو عام (٢٤٦هـ / ٨٦٠م)، ووجَّه المتوكل بعد مقتله عشرة آلاف درهم ديةً إلى أهله، فلمَّا بلغ مقتله صاحبه عبد الله بن عبد العزيز، وكان قد نهاه عن منادمة المتوكل؛ قال:

نَهِيتُكَ يَا يَعْقُوبُ عَنْ قُرْبِ شَادِنٍ إِذَا مَا سَطَا أَرْبَى عَلَى كُلِّ ضَيْغَمٍ
فَنُقِّ وَاحْسٌ إِنِّي لَا أَقُولُ الْغَدَاةَ إِذْ عَثَرْتُ لَعَا بَلَّ لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ

ولابن السِّكِّيت تصانيف عدَّة؛ من بينها: "إصلاح المنطق"، "القلب والإبدال"، "النوادر"، "الألفاظ"، "فعل وأفعل"، "الأضداد"، "الأجناس الكبير"، "الأمثال"،

"سرقات الشعراء وما توارَدُوا عليه"، "معاني الشَّعر الكبير"، و"معاني الشعر الصغير" وغير ذلك^١.

١٣- أبو حاتم السَّجستاني:

هو سهل بن محمد بن عثمان بن القاسم؛ أبو حاتم، السَّجستاني، وُلِدَ نحو (١٦٥هـ/ ٢٥٥م)، أصله من تُسْتَرٍ وانتقل إلى سجستان وكرمان، وقد اتَّجر أهله فحسُنَت حالهم، وأصابوا مالاً عظيماً، وكان أبو حاتم يؤمُّ النَّاسَ بمسجد البصرة الجامع، ويقرأ الكتب على المنبر، وكان حسن الصوت، حافظاً للقرآن الكريم، عالماً بالتفسير والقراءات وغريب القرآن، إماماً في اللغة والشعر والعروض وأخبار العرب، تتلمذ على يد أبي زيد الأنصاري، والأصمعي، وأبي عُبَيْدة الرَّأوي وآخرين، وقرأ كتاب سيبويه مرَّتين على الأخفش، وأخذ عن المبرِّد وابن دُرَيْد وغيرهما.

وكان السَّجستاني شغوفاً بجمع الكتب، مُولِياً عنايته بالتأليف والتصنيف، وأتلف ماله في طلب العلم والعلماء، وكان يُقال: لأهل البصرة ثلاثة كتب يفتخرون بها على أهل الأرض: كتاب النحو لسيبويه، وكتاب الحيوان للجاحظ، وكتاب أبي حاتم في القراءات.

وله عدَّة تصانيف في اللغة والنحو والقراءة؛ من بينها: كتاب "النَّحو" على مذهب سيبويه والأخفش، "المذكَّر والمؤنث"، "المقصود والممدود"، "القراءات"، "الفصاحة"، "الأضداد"، "اختلاف المصاحف"، "إعراب القرآن"، وقد مات السَّجستاني نحو عام (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، ويقال: إن كتبه بلغت قيمتها أربعة عشر ألف دينار، اشتراها يعقوب بن اللَّيث الصَّفَّار أمير سجستان ونُقِلَت إليه^٢.

^١ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (١٢٣-١٢٥)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٢٨٤٠-٢٨٤١/٦).

^٢ انظر: نزهة الألباء، ابن الأنباري (ص ١٢٩-١٣٠)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣/ ١٤٠٦-١٤٠٨).

١٤- أبو سعيد السُّكَّري:

هو أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبد الرحمن -وقيل: ابن عبيد الله بن عبد الرحمن- بن العلاء بن أبي صُفْرة، وكان يُلقَّب بالسُّكَّري، وُلِدَ نحو عام (٢١٢هـ/ ٨٢٧م)، كان إمامًا في النحو واللغة، وأحد الرُّواة الثِّقات، سمع عن يحيى ابن معين، وأبي حاتم السَّجِسْتاني، والعبَّاس بن الفرج الرِّياشي، ومحمد بن حبيب، والحاتر بن أبي أسامة، وأحمد بن الحارث الخراز، وانتشر عنه في كتب الأدب ما لم ينتشر عن أحد من نظرائه؛ حيث اعتنى برواية الشعر ونقله وتدوينه، ورُوِيَ عنه شعرٌ كثيرٌ عن شعراء جاهليِّين وإسلاميِّين؛ فقد عمل أشعار جماعة من الشعراء؛ منهم: المهلهل، وامرؤ القيس، والنابغة الذبياني، وزهير، ولبيد، ودريد بن الصمة، والأعشى، وقيس بن الخطيم، و متمم بن نويرة، والنابغة الجعدي، وبشر بن أبي خازم، وذو الرُّمة، والفرزدق، والأخطل، وهذبة ابن خشرم، والكميت، وعمل كذلك شعر أبي نواس، وتكلم عن معانيه وغريبه، كما جمع أشعار بعض القبائل؛ كأشعار بني هذيل، وبني شيبان، وبني طيء، وبني كنانة، وبني يشكر، وبني حنيفة، والأزد، ومُزينة وغيرها، ولكن ذهب أغلب دواوين شعر تلك القبائل، فلم يصل إلينا غير ما وراه عن هذيل.

وله غير دواوين الشعراء وشعر القبائل عدَّة تصانيف أخرى؛ من بينها: "النَّقائض"، "المناهل والقرى"، "الأبيات السائرة"، وقد مات أبو سعيد السُّكَّري نحو عام (٢٧٥هـ/ ٨٨٨م).

^١ انظر: نزهة الألباء، ابن الأنباري (١٤٠)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٢/ ٨٥٤-٨٥٧).

ثانيًا: المؤلفون

(القاسم بن سلام- ابن قتيبة- المبرد- المفضل بن سلمة- أبو بكر الصولي- الأصفهاني- المرزباني- ابن النديم- ابن جني- العسكري- التوحيدي- الثعالبي- التبريزي- الميداني- الجواليقي- ابن الأنباري- ياقوت الحموي)

نشط التأليف في العصر العباسي نشاطًا واسعًا؛ بفضل توفر أدوات التدوين، وانتشار مهنة الورّاقين؛ حيث كان بعض الأدباء يذهبون إلى الورّاقين من أجل الاطلاع على ما لديهم من كتبٍ لنقلها ونسخها، فجادوا بقرائهم، وأفاضوا من علمهم، فضلًا عن ازدهار الحركة العلميّة في العصر العباسي، فصار العلماء حريصين على كتابة علومهم، وتدوين أفكارهم ومحاضراتهم، وظهر نوع من الأدباء كانوا شغوفين بالتأليف إلى حدٍّ بعيدٍ، فدوّنوا آثارهم، ومنهم من جمع ما وسعه من الثّراث القديم؛ من قصص وخطب وأشعار، ولهم مؤلفات عديدة، ومن بين هؤلاء المؤلفين:

١- أبو عبيد القاسم بن سلام:

ولد أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، نحو عام (١٥٦هـ/ ٧٧٢م) في مدينة هراة، كان أبوه مملوكًا روميًا لرجلٍ من أهل هراة، وأما أبو عبيد فكان إمامًا من أئمة عصره في العلم، وعلى دراية بالأدب والحديث والفقه، أخذ الأدب عن أبي زيد الأنصاري، وأبي عبيدة الرّاوي، والأصمعي، واليزيدي من البصريّين، وأخذ أيضًا عن ابن الأعرابي، وأبي زياد الكلابي، وأبي عمرو الشّيباني، والكسائي، والفرّاء، وتولّى القضاء زمنا في طرسوس.

وكان أبو عبيد تقياً ورعاً جواداً، قال عنه الجاحظ: كان مؤدّباً، لم يكتب الناس أصحّ من كتبه ولا أكثر فائدة؛ ومدحه يحيى بن معين، وإسحاق بن راهويه، وقد

جعل له عبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان رزقًا راتبًا لما صَنَّفَ كتاب "غريب الأحاديث"، وهو من رواة الأشعار، ولكنَّه قليل الرواية؛ إنَّما غلب عليه التَّصنيف، وله تصانيف عديدة بلغت نيفًا وعشرين مصنَّفًا في القرآن والفقه؛ منها: "غريب الحديث"، "غريب القرآن"، "معاني القرآن"، "الشعراء"، "المقصود والممدود"، "القراءات"، "المذكر والمؤنث"، "الأحداث"، "الأمثال السائرة"، "أدب القاضي"، "الناسخ والمنسوخ"، "الأيمن والنذور"، "فضائل القرآن"، ومات أبو عُبَيْد نحو عام (٢٢٤ / ٨٣٩م) في مكة!

٢- ابن قُتَيْبَةَ الدِّينُورِي:

هو أبو محمَّد عبد الله بن مسلم بن قُتَيْبَةَ الدِّينُورِي، وُلِدَ في الكوفة عام (٢١٣هـ / ٨٢٨م)، وسكن بغداد، وأخذ العلم عن شيوخ عصره مثل: إسحاق ابن راهويه، وأبي حاتم السجستاني وغيرهما، وقد توسَّع ابن قُتَيْبَةَ في الاطِّلاع على العلوم المختلفة، فنال حظًّا وافرًا من علوم القرآن والتَّفسير والحديث واللغة والنحو والشعر، وقد رَوَى عنه ولده أحمد، وأبو محمَّد عبد الله بن جعفر ابن درستويه، وتولَّى القضاء في دينور مدَّة من الزمن، قبل أن يعود إلى بغداد، فنُسِبَ إليها.

وكان ابن قُتَيْبَةَ فاضلًا في اللغة والأدب والشعر، متبحِّرًا في مختلف الثقافات والفنون، وكان عاشقًا للتصنيف والتأليف، ومن أوائل من تجرَّدوا للنقد الأدبي؛ حيث تطوَّر معه فنُّ النقد بصورة أتمَّ ممَّا كانت مع ابن سَلَام الجمحي، وكان إمام التأليف في عصره، وكان محافظًا سُنِّيًّا، لذا فقد كان شديدًا على المعتزلة والشعوبية، وله على أنصار الفريقين فصول من الهجوم والنقد، ومؤلفاته عظيمة المنفعة، كثيرة الفائدة، غزيرة العلم، مات ابن قُتَيْبَةَ عام (٢٧٦هـ / ٨٨٩م).

١ انظر: نزهة الألباء، ابن الأنباري (ص ١٠٢ - ١٠٦)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٥ / ٢١٩٨ - ٢٢٠٢).

وله تصانيف كثيرة، نذكر منها:

١- **الشُّعر والشُّعراء**: وهو كتاب جمع فيه تراجم مختصرة للشُّعراء، منذ العصر الجاهلي، مرورًا بالشُّعراء المخضرمين والإسلاميين، وانتهاءً بأوائل الشعراء العباسيين، والكتاب رغم كونه مختصرًا فهو غنيٌّ بالمعلومات والأخبار؛ إذ أتى فيه بتراجم وافية، ومعلوماتٍ غزيرة، فيُعتبر بحقٍّ -بجوار كتاب "الأغاني" للأصبهاني- أفضل مصدر لاستطلاع أخبار الشُّعر والشُّعراء، فضلًا عن دقته فيما أورد من أخبار، باستثناء بعض الأخطاء الطفيفة، كما أرفق تراجم الشعراء بنماذج من أشعارهم، وتناولها بشيءٍ من النقد والرأي، مما عدَّ تطورًا ملحوظًا في علم النقد، وهو على الجملة كتاب عظيم المنفعة، فائق الأهمية.

٢- **أدب الكاتب**: وهو كتاب جمع فيه ما يحتاج الأديب في صناعة الكتابة؛ من الأدوات والعلوم والمعارف، ونَبَّه فيه على بعض الأخطاء التي يقع فيها الكاتب.

٣- **عيون الأخبار**: وهو كتاب في عشرة أجزاء، غنيٌّ بالثقافات المختلفة، والمعلومات المتعدِّدة، يُعتبر من أمهات الكتب، وقد كان له دور في الرَّد على الشعبية؛ حيث أتى فيه بما عضد الثقافة العربية.

وله غير ما تقدم ذكره: "غريب القرآن"، "مشكل القرآن"، "إعراب القرآن"، "مختلف الحديث"، "كتاب المعارف"، "دلائل النبوة من الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السَّلام"، "خلق الإنسان"، "القراءات"، "معاني الشعر الكبير"، "عيون الشعر"، "الخیل"، "جامع النحو"، "جامع الفقه"، "حكم الأمثال"، "الأشربة"، "التسوية بين العرب والعجم"!

١ انظر: الفهرست، ابن النديم (٢٣٥-٢٣٧)؛ نزهة الألباء، ابن الأنباري (ص١٣٩-١٤٠)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٤٢/٣-٤٤)؛ تاريخ آداب العرب، جرجي زيدان (٢/١٨٨-١٩٠)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/٣٢٩-٣٣٠).

٣- أبو العباس المبرّد:

هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن غسان، الأزدي البصري، وُلِدَ في البصرة عام (٢١٠هـ / ٨٢٦م)، وكان يُعرَف بالمبرّد، وقصّة ذلك أن المازني سأله يومًا عن مسألة، فأجاب، فقال له: قم فأنت المبرّد؛ أي: المثبت للحق.

وقد أخذ المبرّد العلم عن أبي عمر الجرمي وأبي عثمان المازني، وقرأ عليهما كتاب سيبويه، وأخذ كذلك عن أبي حاتم السجستاني، وروى عنه كلٌّ من: أبي بكر الصولي ونفطويه والزجاج، وكان المبرّد حسنَ المحاضرة، فصيحًا بليغًا ثقة، مليح الأخبار، كثير التّوادر، قال عنه إسماعيل بن إسحاق القاضي الفقيه المالكي: ما رأى محمد بن يزيد مثل نفسه؛ وقال عنه أبو بكر بن مجاهد: ما رأيت أحسن جوابًا من المبرّد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول مُتقدِّم؛ وكان يقول: لقد فاتني منه عِلْمٌ كثير لِقضاء زمام ثعلب؛ وقال عنه نفطويه: ما رأيت أحفظ لِأخبارٍ بغير أسانيد منه ومن أبي العباس أسد بن الفرات.

وكان المبرّد يحب الاجتماع بثعلب للمناظرة، وثعلب يكره ذلك؛ كون المبرّد حلو الإشارة، حسن العبارة؛ ويروى أنَّ الزجاج -وكان يقرأ على ثعلب- حاول مناظرة المبرّد، معترّمًا إعناته، فعجز عن ذلك، فاعترف بفضله، قائلاً: فتيقّنت بفضله، واسترجحت عقله، وأخذت في ملازمته؛ مات المبرّد نحو سنة (٢٨٥هـ / ٨٩٩م)، ورثاه كثيرون؛ في مقدّمهم أبو العباس ثعلب.

وله مؤلّفات عدّة؛ منها: "المدخل في كتاب سيبويه"، "الاشتقاق"، "المقصود والممدود"، "المذكر والمؤنث"، "معاني القرآن"، "صفات الله جلّ وعلا"، "قحطان وعدنان"، "المدخل في النحو"، "الإعراب"، "العروض"، "التصريف"، "القوافي"، "إعراب القرآن"، "البلاغة"، "ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه في القرآن"؛ على أن الأشهر والأبرز على الإطلاق كانت كتاب "الكامل في اللّغة والأدب"؛ وهو كتاب جمع فيه قدرًا من خُطب السّابقين وبعض رسائلهم وأخبارهم وأشعارهم، وتناولها بشيء من الشرح والنقد، وهو يكافئ كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ في

جودة تأليفه ودقّة أخباره؛ باعتباره مصدر ثقة، ومرجعاً مهمّاً من مصادر التراث القديم!

٤- المفضّل بن سلمة:

هو أبو طالب؛ المفضّل بن سلمة بن عاصم، كان من علماء اللغة والنحو، كوفي المذهب، أخذ عن أبيه وابن الأعرابي وثعلب وابن السكّيت، وهو ممّن نظروا في كتاب العين للخليل بن أحمد، وكان منقطعاً إلى الفتح بن خاقان نديم الخليفة المتوكّل، وهناك بعض الخلط بينه وبين المفضّل الضبّي الراوي؛ حيث يلقّب به البعض خطأ بالضبّي.

تُوفّي المفضّل بن سلمة نحو عام (٢٩١هـ / ٩٠٣م) أو بُعيد ذلك، وترك كتباً كثيرة؛ مثل: "الخط والقلم"، "الاشتقاق"، "البارع في اللغة"، "المقصود والممدود"، "ضياء القلوب في معاني القرآن"، "جماهير القبائل"، "المدخل إلى علم النحو"، "الفاخر فما يلحن فيه العامة"!

٥- أبو بكر الصولي:

هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العبّاس بن محمد بن صول، وُلد نحو عام (٢٦٠هـ / ٨٧٤م)، وهو من ابن أخي إبراهيم الصّولي، المتقدّم ذكره، كان حسن العقيدة، جميل الطريقة، عالماً بفنون الآداب، وأخبار الملوك والخلفاء، تتلمذ على يد ثعلب والمبرّد وأبي العيّن والسجستاني، وروى عنه جماعة؛ منهم المرزباني.

كان الصولي أديباً كاتباً، نديماً للخلفاء؛ حيث نادى المكتفي والراضي والمقتدر، وكان بجانب أدبه مؤلفاً بارعاً، وله عناية بالتّصنيف؛ حيث جمع بعض الأخبار

١ انظر: نزهة الألباء، ابن الأنباري (ص ١٥٦-١٥٧)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (١/ ٥١-٦٣).

٢ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٢٧٠٩)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٣٧٢-٣٧٣).

والرسائل من الثُّراث، ومن مصنفاته في ذلك: "أخبار ابن هرمة الشاعر"، "أخبار أبي تمام"، "أخبار أبي عمرو ابن العلاء"، "أخبار السيد الحميري"، "أخبار القرامطة"، "أدب الكاتب"، "الوزراء"، "العبادلة"، وكتاب "الأوراق" الذي أورد فيه بعض الرسائل.

وكان فيه ميل إلى آل البيت، وقد ضاقت به الحال ببغداد، فانصرف إلى البصرة، ومات فيها نحو عام (٣٣٥هـ / ٩٦٤م).

٦- أبو الفرج الأصفهاني:

هو أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن الهيثم الأصفهاني، يرجع نسبه إلى الخليفة الأموي مروان بن الحكم، فهو أموي قرشي، وُلد في أصفهان نحو عام (٢٨٤هـ / ٩٨٧م)، ونشأ في بغداد، وتلقَّى العلم فيها على يد أبي بكر ابن دريد، وأبي بكر ابن الأنباري، وعلي بن سليمان (الأخفش الصغير)، وإبراهيم نفطويه، والطَّبري، وكان من أعيان أدباء أصفهان، عالماً بالرواية والأغاني والشعر والأخبار والأحاديث والأنساب، وعلى دراية باللغة والنحو والطب والنجوم، وله شعر حسن، ومصنَّفات عدة، ورغم انتمائه لبني أمية فقد كان ميَّالاً إلى التَّشييع، وقيل: بل تشييع تقيَّةً فقط لمدارة أُولي الأمر المتشييعين.

وقد اشتهر أبو الفرج الأصفهاني بمؤلفاته؛ حيث يتَّضح فيها مدى ثقافته وإطلاعه وعلمه بالأخبار والثُّراث، ومن مؤلفاته: كتاب "القيان"، "الإماء الشواعر"، "مقاتل الطالبين"، "آداب الغرباء"، "الحانات"، وقد اتَّصل به ملوك الأندلس من بني أمية سرّاً، فصنَّف لهم كُتباً مختلفة؛ منها: "أيَّام العرب"، "نسب بني عبد شمس"، "التعديل والإنصاف في محاسن ومثالب العرب"، "جمهرة النسب"، وكان يبذل لهم تلك الكتب، ويصلونه عليها سرّاً.

١ انظر: نزهة الألباء، ابن الأنباري (١٧١-١٧٢)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٢٦٧٧-٢٦٧٨)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٤٣٨-٤٣٩).

ويُعد أبرز ما اشتهر به الأصفهاني كتابه "الأغاني"؛ وهو كتاب عملاق ضخم، جمع فيه قدرًا هائلًا من التراث والأخبار والتواريخ والأشعار، وأتى بذكر العديد من الشعراء والأدباء والأعيان، منذ العصر الجاهلي حتى قريب من زمانه، وهو أضخم كتاب عن التراث القديم، بحيث جمع فيه الأصفهاني من الأخبار ما لم يُجمع في مثله، ووقع الاتفاق على أنه لم يُعمل في بابيه مثله، ويُروى أنه مكث في تأليفه نحو خمسين سنة، وقد أهداه إلى سيف الدولة الحمداني، فوصله بألف دينار فقط، واعتذر إليه، وقال الصَّاحِب ابن عَبَّاد: لقد قصرَّ سيف الدولة، وإنَّه يستأهل أضعافها؛ ورُوي عن فضل هذا الكتاب أن الصَّاحِب ابن عباد في أسفاره وتنقُّلاته كان يستصحب حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها، فلمَّا وصله كتاب "الأغاني" استغنى به عنها، فلم يكن يستصحب بعد ذلك غيره، ورُوي أيضًا أن عضد الدولة البويهري كان يأنس بهذا الكتاب ولا يفارقه.

وكتاب "الأغاني" كتاب ضخم طُبِع حديثًا في أربعة وعشرين جزءًا، ويُعد أكبر كتب التراث، وهو عظيم القيمة والمنفعة والفائدة، وفيه أخبار كثيرة ووافية، ونظرًا إلى ضياع قدرٍ كبيرٍ من كتب التراث، ومنها معظم الكتب التي أخذ منها الأصفهاني؛ فقد صار كتاب "الأغاني" أهمَّ مصدر من مصادر التراث القديم؛ إذ حوى من أخبار الشعر والشعراء وأيام العرب وطبائعهم وحياتهم ما لم نجده بغيره، ولولاه لضاعت معظم أخبار التُّراث، ولكن يؤخذ على كتاب "الأغاني" عدم التدقيق فيما أورده صاحبه فيها من أخبار وأشعار؛ فقد حوى أحيانًا بعض الأخبار الشاذَّة، وربَّما عدل عن الخبر الأصح إلى الخير الأضعف؛ طلبًا للمتعة والتَّسلية، لذا فإنه -على عِظَم المنفعة منه- ينبغي الاحتراس فيما يُنقل عنه، وعدم الوقوف على بعض أخباره الشاذَّة والضعيفة؛ لعدم تدقيق الكاتب في كل ما يصل إليه من أخبار، بخلاف كتاب "الشعر والشعراء" لابن قتيبة؛ الذي كان كتاب الأغاني أغزر مادة وتفصيلًا منه، ولكن "الشعر والشعراء" -على اختصاره- فاقه دقَّةً وضبطًا، فكان أقلَّ خطأً وأحسن تنظيماً!

١ هذا الرأي خاص بمؤلف الكتاب.

فضلاً عن عدم تنظيم "الأغاني" أخباره وسيره؛ فربّما ترك الخبر وذهب إلى غيره، ثم عاد إلى الخبر الأول، أو وعد بذكره في موضع آخر ثم لا يذكره، أو يقول: "تقدّم ذكره" دون أن يكون قد تقدّم، ورغم تلك الأخطاء فإن هذا يبدو أمراً طبيعياً؛ نظراً إلى ضخامة الكتاب، وكثرة أخباره، ممّا يصعب على الكاتب فرصة تنظيم معلوماته بشكل جيد، والتدقيق في كل خبر يأتيه بالقدر الكافي، وهو على الجملة كتاب عظيم، ويُعد أهم مصدر للتراث، لولاه لضاع قدر هائل من الأخبار والتراث؛ نظراً إلى فقد ضياع كثيرٍ من الكتب التي نقل عنها الأصفهاني في كتابه هذا.

وقد خلط الأصفهاني آخر عمره، وما لبث أن مات عام (٣٥٦هـ / ٩٦٧م)¹.

٧- المرزباني:

هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد بن عبد الله المرزباني، وُلد نحو عام (٢٩٧هـ / ٩١٠م)، كان راوية ثقة، واسع المعرفة بالروايات والأشعار، وهو من أشهر المصنّفين في تاريخ الأدب العربي؛ فقد صنّف كتباً كثيرة في أخبار الشعراء والأمم والنوادر، وكان حسن الترتيب والتصنيف، وفيه ميل إلى الاعتزال، مات عام (٣٧٨هـ / ٩٩٤م).

وقد اختص المرزباني بأخبار الشعراء، فيما عُرف بـ "معجم الشعراء"، كما اهتم بجمع أشعار النساء في نحو ستمائة ورقة، وشرح ديوان الحماسة لأبي تمام، وله من التصانيف كذلك: "الرياض في أخبار المتيّمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين"، "الشباب والشيب"، و"المغازي"².

١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٤/ ١٧٠٧ - ١٧٢٣)، وفيات الأعيان، ابن خلكان

(٣/ ٣٠٧ - ٣٠٩)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٤٩٠ - ٤٩٥).

٢ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٢٥٨٢ - ٢٥٨٥).

٨- ابن النديم:

هو أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق النديم، وُلد في بغداد عام (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م)، ورث مهنة الوراقة عن أبيه، وكان فيه ميلٌ إلى الاعتزال والتشيع، وتقوم شهرته على كتابه "الفهرست" الشهير؛ الذي جمع فيه أسماء الأعلام من الشعراء والأدباء والكتاب والمؤلفين، ذاكراً أسماء كتبهم ومؤلفاتهم، مع نبذة مختصرة من أخبارهم، وقد انتهى من تأليفه عام (٣٧٧هـ/ ٩٨٧م)، ونعلم أن معظم أسماء الكتب التي دَوَّن ابن النديم أسماءها قد ضاعت، ولكنَّ ذكرها يكشف -على الأقل- جانباً مهماً من الحياة العقلية والاجتماعية والعلمية، وقد مات ابن النديم سنة (٣٨٥هـ/ ٩٩٥م)!

٩- ابن جني:

هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي، كان مولده قبل (٣٣٠هـ/ ٩٤١م)، وكان أبوه مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد الأزدي، وكان ابن جني عالماً ذكياً فطناً، من أحذق أهل زمانه في الأدب، وأعلمهم بالنحو والصرف، وكانت مصنفاته في غاية الدقة والحسن، تنقل بين بلاد الشام والعراق طلباً للعلم، وجرت بينه وبين أبي عليّ الفارسي مباحكة، ولم يكن يعرفه، فلما سأل عنه وعرفه؛ نهض إليه وطلبه وأخذ عنه، فاستحال هذا العداء إلى صداقة استمرت نحو أربعين سنة، وقد لقي المتنبّي وكان معجباً بشعره، وكانت بينهما مودة وصحبة واحترام، وكانا يتفاوضان في مسائل النحو.

وله من المصنّفات التي أبدع فيها: "سر الصناعة"، "العروض"، "القوافي"، "المذكّر والمؤنث"، و"التمام في تفسير أشعار هذيل مما أغفله السُّكّري"، بالإضافة إلى كتاب "الخصائص" الشهير أحد أبرز كتب اللغة، وقد شرح ديوان

١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٢٤٢٧)، تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٥٦٦-٥٦٩).

المتنبي. وله يجوار مصنفاته رسائل مختلفة، وشعر حسن، منه ما رثى به أبا إسحاق الصَّابي والصاحب بن عباد، ومات ابن جني عام (٣٩٢هـ / ١٠٠١م)!

١٠- أبو هلال العسكري:

هو أبو هلال؛ الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، كان موصوفاً بالعلم والفقه، وهو من المؤلّفين المشهورين، ولا نعرف تاريخ مولده أو تاريخ وفاته، ولكن ورد في أحد كتبه عبارة "فرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء، لعشر خلون من شعبان سنة (٣٩٥هـ / ١٠٠٥م)"، وعليه فالأرجح أنه عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وربما امتدت حياته إلى القرن الذي يليه.

وكان العسكري لغوياً وناثراً وشاعراً، ولكن غلب عليه التأليف والنقد، وله عدة مؤلفات مهمّة، عظيمة القيمة، غنيّة بالعلوم والمعارف؛ منها:

١- فنّ الصناعتين في الكتابة والشعر: وفيه أورد بعض عناصر البلاغة في البيان والمعاني والبدیع، وأرفق معها شواهد من النثر والشعر، ويُعتبر من أفضل كتب النقد، وأروع ما صيّف في البلاغة.

٢- ديوان المعاني -أو معاني الأدب: وأتى فيه بنماذج مختلفة من الشعر مبوَّبة حسب المعاني.

٣- جمهرة الأمثال: وهو كتاب جمع فيه قدرًا هائلاً من الأمثال العربيّة القديمة، مع شرح مناسباتها وما تعلّق بها من قصص، ويُعتبر من أفضل الكتب الجامعة للأمثال؛ بحيث لا يفوقه غير كتاب "مجمع الأمثال" للميداني.

وله غير تلك الكتب: "المحاسن في تفسير القرآن"، "التلخيص" في اللغة، "ما تلحن فيه العامة والخاصة"، "التبصرة"، وكتاب "الأوائل".

١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٢٤٢٧)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٥٦٦-٥٦٩).

١١ - أبو حيان التوحيدي:

هو أبو حيان علي بن محمد بن العباس التَّوْحِيدِي، أصله من شيراز -أو نيسابور- صوفيُّ الهَيْئَةِ، ولا يُعرَفُ عام مولده، ولكنَّه على الأرجح في أواسط القرن الرابع الهجري، وقد نشأ فقيرًا محرومًا، إلا أنَّه كان نبِيًّا عالمًا واسع المعرفة والإطِّلاع، أعانه عمله في الوراقة على الإطِّلاع على الكتب والمصنَّفات المختلفة، وتلقَّى العلم على يد بعض أعلام زمانه؛ مثل: أبي حامد المروزي، والفقيه أبي بكر محمد الشاشي، والنحوي أبي سعيد السيرافي، واللغوي علي بن عيسى الرماني، فنشأ متفنيًّا في جميع العلوم من نحو ولغة وشعر وأدب، فكانت في كتاباته نزعة فلسفيَّة وصوفية واضحة، سلك في كتاباته ورسائله نهج أسلوب الجاحظ، فلم يَغترَّ بأسلوب العصر من التزام السجع والبديع، وكان يرقِّح بين السجع والاكتفاء بمزاوجة العبارة، وكان بليغًا بارعًا، امتاز أسلوبه بالمتانة والسهولة والوضوح والبعد عن التَّكُلُّف، ولكن كان في قلبه حقدٌ على من سبقوه في المنزلة من كتَّاب الدَّواوين، وحظوا دونه لدى الحكام والأمراء، فقد قصَّد ابن العميد ولزمة مدَّة، فلم يجد عنده بُغيَّتَه، فانصرف إلى صاحب ابن عباد، فلم يحظَ عنده كذلك، فألَّف بشأنهما كتابًا أسماه "مثالب الوزيرين" تحدَّث فيه عن مساوئ ابن العميد والصاحب، ونال منهما نيلًا فادحًا، لم يخلُ من التَّحامل والتَّعصُّب، فلا يُعتدُّ كثيرًا بما ذكره.

وللتَّوْحِيدِي عدة مؤلفات؛ مثل: "الامتناع والمؤانسة"، "المقاييسات"، "رياض العارفين"، "البصائر"، وله رسائل مختلفة مثل: "الصديق والصدّاقه"، و"الرسالة الصوفية"، و"الحنين إلى الأوطان".

مات التوحيدي نحو عام (٤١٤هـ / ١٠٢٣م)، ويقال: إنه أحرق كتبه في آخر عمره؛ لما رآه من قلة جدواها، وضنًا بها على من لا يعرف قدرها، ولعلَّه أصابه اليأس والإحباط من فرط شعوره بتأخُّره وتقدُّم غيره عليه، فأقدم على ذلك

١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٤/ ١٥٨٥ - ١٦٠١).

الفعل، ولم يَبْقَ من آثاره غير بعض الرسائل، والحق أن أبا حيان التوحيدي من الناحية العلمية والأدبية يُعتبر من أنبغ أدباء عصره، ولكن حظاً من قدره ما كان يَكُنُّه من كرهٍ وحقدٍ لكثيرٍ من معاصريه الذين رأهم تقدّموه عند أولي الأمر، ولو أنّه تخلّص من حقه وانشغل بتصانيفه ومؤلفاته؛ لكان خيرًا له وأحسن لمكانته؛ فقد كان عظيم المعرفة، عميق الفكر، فلسفي النزعة، لكن حقه شغله عن استثمار موهبته، وقد عرف الأدب كتّابًا وأدباء لم يحظوا عند الخلفاء وأولي الأمر، ولكنهم تركوا آثارًا أدبيّة جليّة، وحقّقوا بين الأوساط الأدبية نجاحًا ملموسًا وشهرة لما كتبوه من علمٍ.

ويُظن أن التوحيدي كان من أنصار إخوان الصفاء؛ وهي رسائل ظهرت في القرن الرابع لِكُتّاب مجهولين، وأسلوبها الكتابي كان متحرّراً من قيود البديع والسجع، وخالف ذائقة العصر التي كان يُسيطر عليها الزخرف اللفظي!

١٢ - أبو منصور الثعالبي:

هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، كان أديبًا بارعًا فاضلاً، على قدرٍ واسع من العلم والبلاغة والفصاحة والشعر والنقد، وُلد نحو عام (٣٥٠هـ / ٩٦١م)، وكان أديبًا له ذائقة في الشعر والنثر، وكان متأنقًا في كتاباته، يلتزم السجع بين عباراته، وقد ترك عدّة مصنّفات؛ من بينها: "سحر البلاغة"، "فرائد القلائد"، "سر الأدب"، غير أن أكثر ما اشتهر عنه هو كتابه الرائع "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر"، وهو كتاب جمع فيه ذكر عددٍ من أدباء وكُتّاب وبلغاء القرن الرابع الهجري؛ كالمتنبيّ وأبي فراس والشريف الرضي وشعراء بني بويه والشام والعراق، وبعض الكُتّاب المعروفين كابن العميد والصاحب والصّابي والخوارزمي وبديع الزمان وأبي الفضل الميكالي، مع طائفة مختارة بعناية من أطايب الشّعر والرسائل الممتازة البليغة في تلك الحقبة؛ ليُعَدَّ

^١ انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٥/ ١٩٢٣ - ١٩٤٦)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٣/ ٧٠ - ٧١)؛ النثر الفني في القرن الرابع الهجري، فالح الربيعي (٢/ ١٦١ - ١٧٥).



بحقِّ أفضل مرجع للأدب في هذا القرن، ولم تخلُ فصوله من النقد والشرح، وكان ممَّن أخذوا على المتنِّي بعض العيوب والسَّلبيَّات، وأوضح ذلك في كتابه، ولكنَّه عاد وأنصفه، فذكر مواطن الحسن والإبداع في شعره، وأخذ يرُدِّدها ويُشير إليها، وقد مات الثَّعالبي نحو عام (٤٢٩هـ / ١٠٣٨م)!

١٣- أبوزكريا التبريزي:

هو يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن محمد الشيباني، أبو زكريا ابن الخطيب التبريزي، وربَّما ذُكر بالخطيب التبريزي وهو خطأ، وليَّ تدريس الأدب بالمدرسة النظاميَّة ببغداد، وخزانة الكتب بها، وكان أحد أئمة النحو واللغة والأدب، وكان الناس يرحلون إليه للأخذ عنه؛ إذ كان حُجَّةً صدوقاً وأحد الرُّواة الثِّقات، أخذ عن أبي العلاء المعري، وأبي عبيد الله بن علي الرِّقي، وأبي محمد الدهان اللغوي، وعبد القادر الجرجاني، سمع الحديث وقرأه على خلق من العلماء؛ منهم: أبو الطيب الطبري، وأبو القاسم التنوخي، والخطيب البغدادي؛ وسمع عنه أبو منصور الجواليقي، وأبو الحسن سعد الخير الأنصاري، وأبو الفضل ابن ناصر، ودخل مصر في عنفوان شبابه، فقرأ عليه بها أبو الحسن طاهر بن بابشباذ النحوي، ثم رجع إلى بغداد ومات بها عام (٥٠٢هـ / ١١٠٩م). وقد صَنَّف التبريزي العديد من المصنَّفات النافعة؛ مثل: "غريب القرآن"، "مقاتل الفرسان"، "الكافي في علمي العروض والقوافي"، "شرح اللمع لابن جني"، كما قام بشرح حماسة أبي تمام، وديوان المتنبي، والمفضليات، والسبع الطوال، ومقصورة ابن دريد، وديوان سقط الزند لأبي العلاء المعري!

١ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأديباء، ابن الأنباري (ص ٢١٥- ٢١٦)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٣/ ١٠٠- ١٠١).

٢ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأديباء، ابن الأنباري (ص ٢١٩- ٢٢١)؛ معجم الأديباء، ياقوت الحموي (٦/ ٢٨٢٣- ٢٨٢٥).

١٤- أبو الفضل الميداني:

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري، المعروف بأبي الفضل الميداني، جاءت نسبته إلى ميدان زياد، وهو محلّة في نيسابور، كان الميداني عالماً فاضلاً في النحو واللغة، عارفاً بالأخبار وأمثال العرب، وله شعر حسن، اشتهر بكتابه الشهير "مجمع الأمثال"؛ الذي جمع فيه شتى ما انتهى إليه من أمثال الجاهلية، مضيفاً إليها أمثال العجم والمولّدين وما قيل في الإسلام، مرتّبة ترتيباً أبجدياً دقيقاً، وهو أجمعُ كتابٍ عن الأمثال العربية على الإطلاق، جمع فيه ما زاد عن أربعة آلاف وسبعمائة مثل، وطالع كتباً شتّى، حتى إن معاصره أبا القاسم الرّمخشري -وكان عالماً له قدره- قد ألّف كتاباً مشابهاً سمّاه "المستقصى في الأمثال"، فلمّا اطّلع على كتاب الميداني؛ وجده أجمع منه وأحسن تنظيماً، فندم على تأليف كتابه، توفّي الميداني في رمضان عام (٥١٨هـ / ١١٢٤م). وله من المصنّفات غير "مجمع الأمثال": "السّامي في الأسامي"، "الأنموذج في النحو"، "النحو الميداني"، "نزهة الطرف في علم الصرف"، "شرح المفضليات"، و"منية الراضي في رسائل القاضي".^١

١٥- أبو منصور الجواليقي:

هو أبو منصور؛ موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي، وُلد عام (٤٦٦هـ / ١٠٧٤م)، كان من كبار أهل العلم واللغة ومن الرّواة الثّقات، أخذ العلم عن أبي زكريّا التبريزي، وسمع عن أبي القاسم ابن اليسري، وأبي طاهر ابن أبي الصقر؛ وروى عنه الكندي، وأبو الفرج ابن الجوزي، وأبو بركات عبدالرحمن الأنباري، درس الجواليقي الأدب في المدرسة النظاميّة ببغداد، وكان يصلّي إماماً بالخليفة العباسي المقتفي، وكان سنيّ المذهب، طويل الصّمت، لا

١ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ٢٢٩ - ٢٣٠)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٢/ ٥١١ - ٥١٣).

يقول شيئاً إلا بعد التحقيق، ويكثر من قول "لا أدري" فيما لا يعلم، مات عام (٥٣٩هـ/١١٤٤م).

وله من التّصانيف: "شرح أدب الكاتب"، "كتاب العروض"، "التكملة فيما يلحن فيه العامة" أكمل به "دُرّة الغواص" للحريري، و"المعرب من الكلام الأعجمي" وغير ذلك!

١٦- ابن الأنباري:

هو أبو البركات كمال الدّين عبد الرحمن بن محمد بن عبّيد الله الأنباري، وُلد في الأنبار نحو عام (٥١٣هـ/١١١٩م)، وربّما = حدث التباس أحياناً في نسبه؛ نظراً إلى وجود عددٍ من الأدباء كانوا من الأنبار، وأخذوا نفس اللّقب، كان ابن الأنباري من أئمة عصره في النحو والعربيّة، وكان من المعلّمين في المدرسة النظامية في بغداد، أخذ الفقه الشافعي عن سعيد بن الرزاز، والأدب عن الجواليقي، ولازم ابن الشّجري حتى برع في علم النحو، وكان مناظراً قوياً، غزير العلم، زاهداً عابداً تقيّاً عفيفاً، مترفعاً عن عطايا الخليفة، مات في بغداد عام (٥٧٧هـ/١١٨١م).

وله مصنّفات عديدة؛ منها: "أصول الفصول في التّصوّف"، "ديوان اللغة"، "ميزان العربيّة"، "النوادر"، "عقود الإعراب"، "غريب إعراب القرآن"، بالإضافة إلى "نزهة الألباء في طبقات الأدباء" وهو كتاب صغيرٌ جمع فيه تراجمٌ مختصرةً لعددٍ من الأدباء والشّعراء والمؤلّفين، وهو -على اختصاره- جليل القدر، عظيم النّفع، كما له عدة شروحات؛ حيث شرح الحماسة، والسبع الطوال، وشعر المتنبي، ومقصورة ابن دريد.

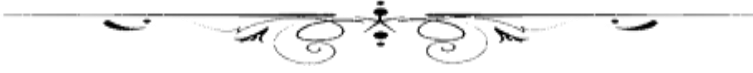
١ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ٢٣٣- ٢٣٤)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٢٧٣٥- ٢٧٣٧).

٢ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ١٣- ١٦).

١٧- ياقوت الحموي:

هو أبو عبد الله؛ ياقوت بن عبد الله الرومي الأصل والمولد، الحموي الموالي، والبغدادى الدار، ولُقِّبَ بشهاب الدِّين، وُلِدَ في بلاد الروم نحو عام (٥٧٥هـ/ ١١٧٩م)، أُسِرَ في بلاده صغيرًا، وبيِعَ ببغداد لرجل تاجر يُعرَف بعسكر ابن أبي نصر إبراهيم الحموي، فضمَّه إلى كتَّابه لينتفع به ويضبط تجارته؛ لأنَّه كان أُمِّيًّا لا يَعرف غير التجارة، وسكن ياقوت ببغداد، وتزوَّج ووُلِدَ له بها، وقرأ شيئًا من النُّحو واللغة، وشغله مولاه بالأسفار في متاجره، فكان يتردَّد بين مختلف النواحي والبلاد، ثم جرت بينهما نبوة فأعتقه عام (٥٩٦هـ/ ١١٩٩م)، اشتغل مع الوراقين بالأجرة، فأخذ يطلِّع على ما بأيديهم، وأفاد من مطالعته، وقد اصطلح مع مولاه فعمل له في تجارته وسافر، فلمَّا عاد وجد مولاه قد توفِّي، فحصل شيئًا ممَّا كان في يده، وأعطى أولاد مولاه وزوجته ما أرضاهم، وكان متعصِّبًا على عليِّ ابن أبي طالب رضي الله عنه، وجرت مناظرة بينه وبين رجلٍ لمَّا كان في دمشق، نال فيها من عليٍّ، فكاد يفتك به أهل البلد، وطلبه الوالي، فأمعن في الفرار، وأخذ يتنقَّل بين حلب والموصل وخراسان وإربل، متحاشيًا بغداد؛ لأنَّ مُناظره كان بغداديًا، واستوطن الحموي بلدة مرو، ثم مضى إلى خوارزم، وكان يعمل بالتجارة، وحينها بدأ المغول يغيرون على بلاد خراسان والمشرق، واجتاحوا بخارى وسمرقند، وأكثروا في تلك البلاد من الفساد والدمار، فهرب بنفسه غربًا إلى الموصل، ثم سنجار، واستقرَّ بحلب، وقد تقطَّعت الأسباب، وضاق به الحال، وظلَّ بها حتى توفِّيَ عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م).

وقد تتبَّع ياقوت التواريخ، وأفاد من كثرة أسفاره وتنقُّلاته، فاطَّلَعَ على البلدان، ونظر في أحوال الشعراء والأدباء، فصنَّف في ذلك كتِّبًا عديدة؛ منها: كتاب "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" -أو "معجم الأدباء"، وكتاب "معجم البلدان"، و"أخبار الشعراء" وهي من أمَّهات الكتب النافعة، وأخذ في تعديد أسماء الأدباء والبلدان والشعراء بترتيب الحروف، بالإضافة إلى كتب أخرى مثل: "المشترك وضعًا والمختلف صنعًا"، "المبدأ والمآل" في التاريخ، "الدول"، "مجموع كلام أبي



علي الفارسي"، "المقتضب في النَّسب" ذكر فيه أنساب العرب"، و"أخبار
المتنبي"!

١ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ١٢٧ - ١٣٩).

ثالثاً: النُّحاة

(الخليل بن أحمد- سيبويه- الكسائي- اليزيدي- قطرب- الفراء-
الأخفش- ثعلب- الزجاج- نفطويه- ابن خالويه- الفارسي- الجوهري)

١- الخليل بن أحمد الفراهيدي:

هو أبو عبد الرحمن؛ الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي البصري، إمام علم النحو، ومستنبط علم العروض، وُلد نحو عام (١٠٠هـ/ ٧١٨م)، كان صالحاً عاقلاً حليماً وقوراً، وكان أعلم الناس وأذكاهم، أخذ العلم عن أبي عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر الثقفي، وتلمذ على يديه: سيبويه، والأخفش، والنضر بن شميل، وعلي بن نصر الجهمي، والأصمعي وغيرهم. ويُروى عن سفيان الثوري الفقيه قوله: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ خُلِقَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْمَسْكِ؛ فليُنْظَرِ إِلَى الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ.

كان الخليل بن أحمد إمام علم النحو، وله على علم النحو والشعر واللغة أيادٍ بيضاء؛ فهو من جهةٍ مكتشف علم العروض؛ وهو العلم المنظم لتفاعلات الشعر؛ حيث جمع أشعار الجاهليين والمخضرمين، فعمل على تقطيعها، وقسمها إلى خمسة عشر وزناً أطلق عليها اسم البحور، ورتب تفاعلاته وزحافات، وفي سبب وضعه لهذا العلم يقال: إِنَّهُ مَرَّ فِي سَكَةِ الْقَصَّارِينَ فِي الْبَصْرَةِ، فَسَمِعَ دَقَّ الْكَوَادِينِ بِأَصْوَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَوَقَفَ يَسْمَعُ اخْتِلَافَهَا، وَفَطِنَ مِنْ هُنَا إِلَى عِلْمِ الْعَرُوضِ؛ وَيُقَالُ فِي هَذَا: إِنَّهُ دَعَا اللَّهَ بِمَكَّةَ أَنْ يَرْزُقَهُ عِلْماً لَمْ يُسَبِّقْ إِلَيْهِ، فَكَانَ هَذَا الْعِلْمُ هُوَ عِلْمُ الْعَرُوضِ، وَمِنْ طَرِيفٍ مَا رُوِيَ عَنْهُ أَنَّ وَلَدَهُ دَخَلَ عَلَيْهِ، فَرَأَاهُ يَقْطَعُ أُبْيَاتاً، فَخَرَجَ إِلَى النَّاسِ قَائِلاً: إِنَّ أَبِي قَدْ جُنَّ؛ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَرَأَوْهُ يَقْطَعُ الْعَرُوضَ، وَذَكَرُوا لَهُ مَا قَالَ وَلَدُهُ؛ قَالَ:

لَوْ كُنْتُ تَعَلَّمْتُ مَا أَقُولُ عَذَرْتَنِي أَوْ كُنْتُ تَعَلَّمْتُ مَا تَقُولُ عَذَلْتُكَ
لَكِنْ جَهِلْتُ مَقَالَتِي فَعَذَلْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ جَاهِلٌ فَعَذَرْتُكَ

والخليل بن أحمد هو صاحب أوّل معجم في اللغة العربية؛ وهو المعروف بكتاب "العين"، وقيل: مات قبل إتمامه، فاستدركه عليه تلاميذه؛ وهو من وضع علامات التشكيل بالفتح والضم والكسر، وكان الناس يعرفونها بوضع النّقاط، وبهذا يكون للخليل فضل كبير في استمرار الشعر وعدم اندثاره؛ باستنباطه لعلم العروض، وله فضل في إنشاء المعاجم اللغوية؛ كونه صاحب الفكرة الأولى ومؤلف أوّل معجم، وله أثر كذلك في النحو بوضعه علامات التشكيل المعروفة، وله غير "العين" وكتاب "العروض" عدّة مصنّفات مهمّة؛ مثل: كتاب "الإيقاع"، "الشواهد"، "النغم"، قيل: توفّي نحو عام (١٧٠هـ / ٧٨٦م) وهو الأرجح، وقال ابن الأنباري: مات عام (١٦٠هـ).

٢ - سيبويه:

هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، المعروف بلقب سيبويه؛ ويعني رائحة التفّاح، وهو مولى بني الحارث بن كعب -وقيل: آل الربيع بن زياد الحارثي- وكان من أئمة النحو واللغة، وُلِدَ نحو عام (١٤٠هـ / ٧٥٧م) في البيضاء قرب شيراز، ثم وفد على البصرة، فأخذ النّحو عن الخليل بن أحمد وعيسى بن عمر ويونس ابن حبيب وآخرين، وأخذ اللغة عن أبي الخطاب عبد الحميد المعروف بالأخفش الأكبر وغيره. ويُعتبر سيبويه أشهر تلامذة الخليل وأبرعهم في النحو، وكان الخليل يقول له إذا زاره: مرحبًا بزائرٍ لا يُملُّ؛ قال أحد جلسائه: ما سمعت الخليل يقولها لأحد إلا لسيبويه.

يُقال: إنه جرت مناظرة بينه وبين الكسائي في إحدى مسائل اللغة، وكانا في حضرة الأمين ابن هارون الرشيد، وكان الأمين تلميذًا للكسائي، واتّفقا على تحكيم رجل من أهل البدو، لكن الأمين تحامل على سيبويه، وصيّر الشهادة

^١ انظر: نزهة الألباء في طبقات الألباء، ابن الأنباري (ص ٥٠ - ٥٢)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣/ ١٢٦٠ - ١٢٧١)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٢٤٤ - ٢٤٨)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ١١١ - ١١٢)؛ تهذيب البداية والنهاية لابن كثير، إعداد: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم (٣/ ١٢٨٣ - ١٢٨٤).

لصالح أستاذه الكسائي، فعلم سيبويه أنهم قد تحاملوا عليه وتعضّبوا للكسائي، فخرج من بغداد مكسور النَّفس، وقصد فارس، وما لبث أن توفّي بعدها، واختُلف في محلِّ موته وعام وفاته، فكانت وفق اختلاف الروايات بين عامي (١٦١-١٩٤هـ/ ٧٧٧-٨٠٩م).

وهو صاحب كتاب النَّحو الشهير المعروف بـ"كتاب سيبويه" الذي جمع فيه مسائل النحو، فلم يترك شيئاً إلا وضعه فيه، ويبدو أنه توفّي قبل تهذيبه، فتناوله بعض تلامذته بالشرح والتوضيح، وقرأه الأخفش على تلامذته^١.

٣- الكسائي:

هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن عثمان الكسائي، من ولد بهمن ابن فيروز، مولى بني أسد، وهو أحد أئمة النحو واللغة، وأحد الفُراء المشهورين، وُلد نحو عام (١٢٢هـ/ ٧٣٩م)، وهو من أهل الكوفة، استوطن بغداد، وأخذ العلم عن أبي بكر ابن عياش وابن عييني، ولزم معاذاً الهراء حتى أنفذ ما عنده، وانتقل إلى البصرة وشهد حلقات الخليل بن أحمد الفراهيدي، ثم غادرها وعاش بالبادية زمناً لتعلّم الفصاحة، ولما عاد إلى البصرة وجد الخليل قد توفّي وحلّ محله تلميذه يونس النحوي، فجرت بينهما مسائل، وقد استقرّ به المقام في الكوفة، فروى الحديث وصنّف الكتب.

وقد روى عنه الفراء وأبو عُبيد القاسم بن سلام، وكان أثيراً عند الخليفة هارون الرشيد، وعمل مؤدّباً لولده، واصطحبه هارون الرشيد في إحدى رحلاته، فمات في قرية رنبويه عام (١٨٩هـ/ ٨٠٥م)، ويقال: بل مات في طوس نحو عام (١٨٢هـ/ ٧٩٨م)، وهناك مَنْ أحرّ موته إلى عام (١٩٢هـ/ ٨٠٧م).

وكان الكسائي إماماً في اللغة النحو، إلا أنه بالغ في القياس، ولقي أعراب الحطمة فأخذ عنهم، ولم يكونوا على درجة فائقة من الفصاحة، فأجاز من

^١ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأثيري (ص ٥٧- ٦١)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ٤٦٣- ٤٦٥).

الشَّاذَّ ما سمعه من اللَّحْنِ ممَّا لا يجوز، فجعل ذلك أصلاً يقيس عليه، ورأى البعض أنَّه أفسد النحو بمبالغته في القياس.

وله من التصانيف: "معاني القرآن"، "القراءات"، "العدد"، "مقطوع القرآن وموصوله"، "الهجاء"، "المصادر"، وكتاب مختصر في النحو، وكتب في النوادر^١.

٤- أبو محمد اليزيدي:

هو أبو محمَّد يحيى بن المبارك بن المغيرة المقرئ، صاحب أبي عمرو ابن العلاء البصري، من موالى بني عدي بن عبد مناة، وسُيِّى باليزيدي لمرافقته يزيد ابن منصور خال الخليفة المهدي، اتَّصل بالخليفة هارون الرشيد، وكان مؤدِّباً لولده المأمون، وكان مقرئاً مع الكسائي.

كان عالماً باللغة والنحو والأخبار، وأخذ العلم عن أبي عمرو ابن العلاء، والخليل بن أحمد؛ وأخذ عنه أبو عبيد القاسم بن سلام، وإسحاق بن إبراهيم الموصلي؛ وقد ألَّف من الكتب: "النوادر"، "المقصود والممدود"، "النقط والشكل"، ولديه كتاب مختصر في النحو، ورُوي له شعر حسن، مات عام (٢٠٢هـ/٨١٧م)^٢.

٥- قُطْرُب:

هو أبو علي محمد بن المستنير البصري، عُرف بِقُطْرُب، وهو أحد علماء البصرة في اللغة والنحو، أخذ النحو عن عددٍ من العلماء؛ منهم سيبويه، وهو الذي سمَّاه بقطرب؛ إذ كان يراه بالأسحار على بابه، فيقول: إنما أنت قطرب الليل؛ والقطرب دُويبة تسير ولا تهدأ، وكان به ميلٌ إلى الاعتزال.

^١ انظر: نزهة الألباء في طبقات الألباء، ابن الأنباري (ص ٦١-٦٧)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٤/ ١٧٣٧- ١٧٥٢)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ٢٩٥- ٢٩٧).

^٢ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ٧٠-٧٢).

له من التصانيف: "معاني القرآن"، "غريب الحديث"، "الصفات"، "الاشتقاق"،
"النوادر"، "القوافي"، "العلل في النحو"؛ ومات نحو عام (٢٠٦هـ / ٨٢١م)!

٦- أبوزكريا الفراء:

هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور بن مروان الأسلمي، الديلمي،
الكوفي، وُلِدَ نحو (١٤٤هـ / ٧٦١م)، أخذ عن عددٍ من العلماء؛ منهم الكسائي،
وكان أشهر أصحابه وأعلم أهل الكوفة بالنحو بعده، وكان أستاذ سلمة ابن
عاصم ومحمد بن الجهم السمرى، وكان أبو العباس ثعلب يقول: لولا الفراء ما
كانت اللغة؛ لأنَّه حصَّلها وضبطها، ولولاه لسقطت العربية؛ لأنَّها كانت تُتنازع
ويدَّعيها كل من أراد، ويتكلَّم الناس على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب.

كان الفراء عالماً بالأخبار وأيام العرب وأشعارهم، عارفاً بالطب والنجوم واللغة
والكلام، وكان يقال له: أمير المؤمنين في النحو؛ وكان على اتصال بالخليفة
المأمون؛ حيث أمره أن يؤلِّف مؤلِّفاً يجمع فيه أصول النحو، وجعل له حجرةً
ووكَّلَ خدماً له، فصنَّف "كتاب الحدود"، ووضعه المأمون في خزائنه، وكلفه
بتأديب ابنه، وتُروى في ذلك قصَّة طريفة تدل على فضله؛ أنَّه نهض للقيام
ببعض حوائجه، فابتدرا إلى نعليه ليقديهما له، فتنازعا، ثم اتَّفقا على أن
يقدم كل واحد منهم نعلًا، فبلغ ذلك المأمون، فاستدعاه وقال له: مَنْ أعزُّ
الناس؟ فقال: لا أعرف أعزَّ من أمير المؤمنين؛ فقال: بلى؛ مَنْ إذا نهض؛ تَقَاتَلَ
على تقديم نعله وليًّا عهد المسلمين؛ حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له
واحدة!! فقال الفراء: يا أمير المؤمنين؛ لقد أردت منعهما، ولكن خشيتُ أن
أدفعهما عن مكْرمةٍ سَبَقا إليها، وأكسر نفوسهما عن شريفة حَرَصا عليها.

ومن تصانيفه غير كتاب "الحدود": "كتاب المعاني"، "المصادر في القرآن"،
"اللغات"، "النوادر"، "المقصود والممدود"، "الوقف والابتداء"، "المذكر
والمؤنث"، "الواو"، "مشكل اللغة الكبير"، و"المشكل الصغير".

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٧٦).

ومات الفراء في طريق مكة عام (٢٠٧هـ / ٨٢٢م)!

٧- الأخفش الأوسط:

هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة البلخي، المجاشعي بالولاء، أحد نحاة البصرة، كان يُعرف بالأخفش الأوسط تمييزاً عن الأخفش الأكبر أبي الخطّاب عبد الحميد ابن عبد المجيد، وعن الأخفش الصغير أبي الحسن علي بن سليمان تلميذ ثعلب والمبرد؛ والأخفش يعني: الصغير العينين، مع سوء بصرهما.

وقد أخذ الأخفش النّحو والعلم عن أساتذة سيبويه، وعن سيبويه، رغم أنه كان أسنّ منه، وهو أعلم من أخذ النحو عن سيبويه، وهو من قرأ كتابه؛ فإن سيبويه مات ولم يُقرأ كتابه عليه أو يقرؤه على أحد، فقرأه الأخفش على تلامذته، وكان الأخفش يستحسن كتابه ويقول: ما وضع سيبويه في كتابه شيئاً إلا وعرضه عليّ، وكان يرى أنه أعلم به منّي، وأنا اليوم أعلم به منه. وحكي عن أبي العباس ثعلب أنّ الفراء دخل على سعيد الأخفش، فقال لنا: قد جاءكم سيّد أهل اللغة وسيّد أهل العربية؛ فقال الفراء: ما دام الأخفش يعيش فلا؛ وكان ثعلب يفضّله ويقول: هو أوسع النّاس علماً.

والأخفش هو من زاد على الخليل في العروض بحر الخبب؛ فإن الخليل قد أهمله، فاستدركه عليه الأخفش، وله عدّة مصنّفات مهمّة؛ من بينها: "الأربعة"، "الأوسط" في النحو، "تفسير معاني القرآن"، "المقاييس" في النحو، "الاشتقاق"، "العروض"، "القوافي"، "الأصوات"، "معاني الشعر"، "الملوك"، كتاب "المسائل" الكبير، وكتاب "المسائل" الصغير.

ومات الأخفش الأوسط سنة (٢١٥هـ / ٨٣٠م) أو (٢٢١هـ / ٨٣٥م)!

^١ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ٧٩-٨٣)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٢٨١٢-٢٨١٥).

^٢ انظر: نزهة الألباء في طبقات الألباء، ابن الأنباري (ص ١٠٠-١٠١)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (١٣٧٤-١٣٧٦)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣٨٠-٣٨١).

٨- أبو العباس ثعلب:

هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيّار الشَّيباني، الشهير بثعلب، إمام الكوفيّين في النحو واللغة، وُلد نحو عام (٢٠٠هـ / ٨١٥م) في خلافة المأمون، وقد فضل أهل عصره بالحفظ ووفرة العلم، تتلمذ على كتب الفراء، وسمع عن محمد بن سَلَام الجمحي، وابن الأعرابي، وسلمة بن عاصم؛ ورَوَى عنه نفطويه، ومحمد بن العباس اليزيدي، وأبو عمر الزَّاهد، وابن الأنباري ونفر كثير. قال عنه أبو بكر بن محمد التاريخي: أحمد بن يحيى ثعلب أصدق أهل العربية لسانًا، وأعظمهم شأنًا، وأبعدهم ذكرًا، وأرفعهم قدرًا، وأوضحهم علمًا، وأرفعهم حِلْمًا، وأثبتهم حفظًا، وأوفرهم حظًا في الدِّين والدُّنيا؛ وقال المبرِّد: أعلم الكوفيّين ثعلب؛ وقال علي بن جمعة بن زهير عن أبيه: لا يرد عرصات يوم القيامة أحدٌ أعلمُ بالنحو من أبي العباس ثعلب.

وقد حُفِظَ عن ثعلب علمٌ كثيرٌ، وآراء وأخبار عدّة، وقد عُمرَ طويلاً حتى ثقل سمعه قبل موته، ويُروى أنه كان منصرفًا من صلاة العصر في المسجد، واضطربت دابةٌ قريبة منه، فابتعد عنها الجميع، ولم ينتبه لها لِضَعْفِ سمعه، فأصيب وحُمِلَ إلى داره، وما لبث أن مات سنة (٢٩١هـ / ٩٠٣م) في خلافة المكتفي^١.

٩- الزَّجَّاج:

هو أبو إسحاق إبراهيم بن السَّري بن سهل النحوي، كان من أهل الدِّين والفضل وحُسن الاعتقاد والمذهب، وُلد نحو عام (٢٤٠هـ / ٨٥٤م)، وكان يخرط الزُّجاج في صِغَرِه، فنُسِبَ إلى ذلك.

لزم أبا العباس المبرِّد، وأخذ عنه النحو، وكان يخدمه في أموره، ويعطيه بكل يوم درهماً مقابل تعليمه، كان قد تعهَّد بِدَفْعِهَا حتى وفاته حتى إذا استقلَّ بعلمه،

١ انظر: نزهة الألباء، ابن الأنباري (ص ١٤٩ - ١٥١)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٢/ ٥٣٦ - ٥٥٤).

جاء المبرّد كتابٌ من بعض الناس يلتمسون أن يبعث إليهم معلّمًا لأولادهم، فبعث به، وعمل الزّجاج مؤدّبًا من ذلك الحين، واختاره عبّيد الله بن سليمان وزير الخليفة المعتضد مؤدّبًا لولده القاسم، وتكسّب من مهنة التعليم حتى حسّنت حاله، وظلّ رغم افتراقه عن أستاذه المبرّد موفّيًا بعهده، يدفع كل يوم درهم له حتى وفاته، ولمّا خلف القاسم أباه على الوزارة؛ فوّض له النظر في رقايع أصحاب الحاجات في الدولة، فكان ينجزها له، فيكافئه الوزير، وحصل من ذلك مألًا وفيرًا، بلغ حين وفاة القاسم نحو أربعين ألف دينار، وهو الذي أوصله إلى الخليفة المعتضد حينما طلب من وزيره القاسم عمل تفسيرٍ لكتاب "جامع النطق" لمحمد بن يحيى بن أبي عباد؛ حيث اعتذر ثعلب والمبرّد، وأشار الثاني بتلميذه الزّجاج، فأنجز ذلك مستعينًا بكتب اللغة لثعلب والسُّكّري، وقدمه إلى الوزير، الذي قدّمه بدوره إلى المعتضد، فاستحسنه، وجعل له رزقًا في النّدماء وفي الفقهاء وفي العلماء، فبلغ راتبه نحو ثلاثمائة دينار.

وقد مات أبو إسحاق الزجاج عام (٣١١هـ / ٩٢٣م)، وله من الكتب: "معاني القرآن"، "الاشتقاق"، "القوافي"، "العروض"، "مختصر النحو"، و"النوادر". ومن أروع تلاميذه: أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزّجاجي.

١٠ - أبو عبد الله نفطويه:

هو أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان بن المغيرة بن حبيب ابن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، من أهل واسط، وُلد عام (٢٤٤هـ / ٨٥٨م)، ولُقّب بنفطويه تشبيهاً بإياه بالنفط؛ لدمايته وأدميته، وجُعِل لقبه على وزن سيبويه؛ إذ كان من تلاميذ مدرسته.

كان نفطويه عالمًا باللغة والحديث، قارئًا للقرآن حافظًا له، على دراية بالسّير والتواريخ، وكان على قدرٍ من طهارة الخُلق والصدق وحسن المجالسة، وفيه

١ انظر: نزهة الألباء، ابن الأنباري (١٤٢ - ١٤٨)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (١/ ٥١ - ٦٣).

مروءة وظرف، أخذ عن مجموعة من العلماء؛ منهم: ثعلب والمبرّد، ورؤى عنه أبو عبد الله المرزباني، وأبو الفرج الأصفهاني وكثيرون. وله من التصانيف: كتاب "التاريخ"، "غريب القرآن"، "المقنع في النحو"، "الملح"، "الأمثال"، "القوافي"، و"أمثال القرآن"، وله تصنيف في الردّ على مقولة خلق القرآن، ومات عام (٣٢٣هـ / ٩٣٤م)!

١١ - ابن خالويه:

هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان، من أئمة أهل اللغة والنحو والحديث، وفد على بغداد طلباً للعلم عام (٣١٤هـ / ٩٢٦م)، وقرأ القرآن على الإمام ابن مجاهد، وأخذ الأدب والنحو واللغة عن ابن دُرَيْد، ونفطويه، وأبي بكر ابن الأنباري، وابن أبي عمر الزاهد؛ ثم انتقل إلى الشام، واستوطن حلب، وأقام في بلاط سيف الدولة الحمداني، فحظي عنده وأغدق عليه، وكان عموم بني حمدان يقدّمونه ويجلّونه، وكانت بينه وبين المتنبي وغيره مناظرات ومطارحات، مات سنة (٣٧١هـ / ٩٢٩م).

وله تصانيف عدّة؛ منها: "البديع في القراءات"، "الاشتقاق"، "المبتدأ"، "المقصود" والممدود"، "الأفق فيما تلحن فيه العامة"، و"شرح الفصيح"، "إعراب سور من القرآن"، كما شرح مقصورة ابن دريد والسبع الطوال، وجمع ديوان أبي فراس الحمداني، وله كتاب في غريب القرآن، بالإضافة إلى كتاب "ليس" وهو كتاب نفيس من كتب اللغة، ورؤيت له بعض الأشعار!

١ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ١٦٤ - ١٦٥)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (١/ ١١٤ - ١٢٢).

٢ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ١٩٠ - ١٩١)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٣/ ١٠٣٠ - ١٠٣٧).

١٢- أبو عليّ الفارسي:

هو أبو عليّ الحسن بن أحمد بن عبد الغفّار الفارسي النحوي، وُلِدَ عام (٢٨٨هـ/ ٩٠٠م)، وهو من أئمة النّحويين، أخذ عن أبي بكر بن السراج، وأبي إسحاق الرّجّاج، وعلت منزلته في النحو حتى قدّمه البعض على المبرّد، وأخذ عنه جماعة؛ منهم أبو الفتح ابن جنّي، ولقي عضد الدولة البويهّي في شيراز، فحظي عنده وعمل مؤدّباً لأبناء أخيه، وكان يقول عنه: أنا غلام أبي عليّ الفارسي في النّحو، وغلام أبي الحسين الصّوفيّ في النّجوم؛ وله مع أخبار. تنقّل بين بلدان مختلفة، وكان ممن شهد بلاط الأمير سيف الدولة الحمداني في حلب، وقد صنّف كتباً كثيرة؛ منها: "الإيضاح في النحو"، "الحجّة في علل القراءات السبعة"، و"المقصود والممدود"؛ وكانت وفاته عام (٣٧٧هـ/ ٩٨٧م)١.

١٣- أبو نصر الجوهري:

هو أبو نصر إسماعيل بن حمّاد بن نصر الجوهري، وُلِدَ أوائل القرن الرابع الهجري، وكان من أعاجيب عصره ذكاء وعلمًا وفطنة، وكان أديبًا فاضلاً وإمامًا من أئمة اللغة والأدب، وخطّه فائق الجودة على غرار خط أبي عبد الله ابن مقلة الوزير، أخذ عن أبي عليّ الفارسي، وعن خاله أبي إبراهيم الفارابي، كان يطوف بالبلدان طلباً للعلم؛ فزار العراق، وقرأ علم العربية عليّ أبي عليّ الفارسي، وأبي سعيد السّيرافي؛ وسافر إلى الحجاز وخالط العرب العاربة، وقفل راجعاً إلى خراسان، وأقام في نيسابور عاكفاً على التدريس والتأليف وتعليم الخط وكتابة الدفاتر والمصحف، وقد اعترته وسوسة آخر حياته، ويقال: إنه صعد إلى سطح المسجد القديم في نيسابور وقال: أيها الناس؛ إني قد عملت في الدُّنيا شيئاً لم يغلب عليّ، فسأعمل في الآخرة أمراً لم أُسبَق إليه!! ووُثِبَ من فوق المسجد محاولاً الطيران، فسقط ومات، وذلك عام (٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م).

١ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأثيري (ص ١٩٢- ١٩٣)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢/ ٥٣٦- ٥٣٧).



والجوهري هو مؤلف المعجم اللغوي الشهير المعروف بـ"تاج اللغة وصحاح العربية"، اقتصر فيه على الألفاظ التي ثبتت صحتها عنده، ورتبها على الحرف الأخير في الكلمة، وهو من أشهر وأفضل المعاجم اللغوية جودةً وتصنيفاً؛ فهو أجمع من "الجمهرة" و"تهذيب اللغة" و"مجل اللغة"، ولكنّه غلط فيه بعض الأغلاط، ولم يخل المعجم من التصحيف، وقد مات قبل إتمامه وتهذيبه، فاستدركه عليه عددٌ من تلامذته، فصحّحوا خطأه، وقاموا بتبييضه وترتيبه، واختصره الإمام محمد بن أبي بكر الرازي في كتابه "مختار الصحاح".

^١ انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص ٢٠٦ - ٢٠٧)، معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦٥٦ - ٦٦١)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٦١٥ - ٦١٧).

رابعًا: المؤرِّخون

(الطبري- المسعودي- ابن الأثير- ابن خلكان)

١- ابن جرير الطُّبري:

هو أبو جعفر محمَّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أحد أبرز علماء عصره، كان إمامًا في الفقه والحديث والقراءة والتفسير والتاريخ، وُلد نحو عام (٢٢٥هـ / ٨٣٩م) ببلدة أمل في طبرستان، وقد تبحَّر في العلوم والمعارف والفقه إلى درجة لم يبلغها غيره؛ فكان حافظًا للقرآن، عارفًا بمعانيه، عالمًا بالسُّنَّة، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين، إمامًا في النَّحو والشَّعر واللغة والفقه، على دراية بالأحكام والمسائل وأصول الفقه وفروعه؛ أخذ الحديث عن شيوخ أجلاء، وأخذ الفقه الشافعي والمالكي عن شيوخ المذهبين، وله مذهب في الفقه استقلَّ به عن المذاهب الفقهية المعروفة، فكان جليل القدر، عالي المنزلة، محفوظ المكانة، وتلمذ على يديه كثيرون.

وقد تنقَّل بين البلدان طلبًا للعلم وسماع الأخبار؛ فزار الرِّيَّ وبغداد والبصرة والشَّام ومصر، وكان أثناء زيارته يكتب ما يسمعه من العلماء ويأخذ عنهم، واستقر أخيرًا في بغداد يقضي وقته في التدريس والإملاء والمناظرات والتأليف، وتوفيَّ عام (٣١٠هـ / ٩٢٣م)، ويروى أنه اجتمع على جنازته خلقٌ كثيرٌ، وصُلِّيَ على قبره شهورًا؛ ليلاً ونهارًا، ورثاه كثيرون.

وللإمام الطبري عدَّة آثار جليلة مهمَّة؛ تدلُّ على سعة عِلِّمه، وعلوِّ منزلته؛ أبرزها: كتاب "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" المعروف اختصارًا بتفسير الطبري؛ وهو كتاب ضخْم، ويعتبر مرجعًا رئيسًا للمفسِّرين الذين جاؤوا بعده، بالإضافة إلى كتاب آخر هو "تاريخ الأمم والملوك" المعروف اختصارًا باسم تاريخ الطبري؛ وهو أشهر وأوثق كتاب جامع للتاريخ الإسلامي، اعتنى فيه بجمع روايات المؤرخين السابقين، وافتتحه ببدء الخليقة وأخبار الأنبياء والرسل والأمم

السابقة، مرورًا بالتاريخ الإسلامي، وتابَّع في تأريخه النظام الحولي؛ وهو أن يذكر كلَّ سنةٍ بأحداثها، ثم التي تليها، انتهاءً بعام (٢٠٣ هـ)، وقد جمع فيه ما انتهى إليه من الخطب والمكاتبات السياسية، ويعتبر أيضًا مرجعًا للمؤرخين الذين أتوا بعده، ويقال: إن الكتابين بلغ الواحد منهما نحو ثلاثين ألف ورقة، فاختصر العدد لطلَّابه إلى ثلاثة آلاف ورقة فقط.

وللطَّبري غير هذين الكتابين المهمَّين عدَّة كتب أخرى؛ مثل: "كتاب اللطيف في الفقه"، و"أدب القاضي"، وبعض كتب الفقه عن الصلاة والزكاة والطهارة^١.

٢- المسعودي:

هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المؤرخ، من ولد الصحابي عبد الله بن مسعود، وهو أحد المؤرِّخين المشهورين، درس النحو على يد نفطويه، وكان شغوفًا بالأسفار والتَّنقُّل بين البلدان؛ فزار في رحلته الأولى عام (٣٠٥ هـ / ٩١٧ م) المناطق الشرقية والجنوبية، ومَرَّ على عمان وفارس والهند وسرنديب والصين ومدغشقر وزنجبار، وفي رحلته الثانية عام (٣١٤ هـ / ٩٢٦ م) زار المناطق الشمالية الغربية، فمرَّ على أذربيجان وجرجان وقزوين والشام، وجعل يتنقَّل بين بلدان مصر والشام حتى توفِّي في الفسطاط عام (٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م).

وكان المسعودي رحَّالة وجغرافيًا ومؤرِّخًا شهيرًا، وله عدَّة مصنَّفات؛ منها: "ذخائر العلوم وما كان في سائر الدهور"، "الاستدكار لما مرَّ في سالف الأعمار"، "كتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم"، فضلًا عن رسائله، على أن أشهر مؤلفاته على الإطلاق كان كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر"؛ وهو من أمَّهات كتب التاريخ، بدأه بذكر الأنبياء وسير الأمم القديمة، مرورًا بظهور الإسلام، حتى خلافة المطيع العباسي، ويُعدُّها الكتاب مصدر ثقةٍ من الناحية التاريخية،

^١ انظر: الفهرست، ابن النديم (١/ ٢٣٤ - ٢٣٥)، تحقيق: محمد عوني- إيمان السعيد؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٢٤٤١ - ٢٤٦٨)؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٤/ ١٩١ - ١٩٢).

وقد اتَّبَعَ فيه نهجًا مخالفًا للطَّبري في كتابه؛ إذ قام بتصنيف الأحداث وفق طبيعتها، لكنَّه وقع أحيانًا في بعض الوهم فيما كان يحكيه من الأخبار والقصص!

٣- ابن الأثير:

هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبدالواحد الشَّيباني، المعروف بابن الأثير، والأثير لقب عائلي اشتهر به ثلاثة أشقَّاء، أكبرهم مجد الدين، وأصغرهم ضياء الدين الأديب الكاتب، وُلِدَ نحو عام (٥٥٥هـ / ١١٦٠م) بالجزيرة فُئِسِبَ إليها، وعُرفَ بابن الأثير الجزري، وانتقل إلى الموصل مع أبيه وأخويه، ووفد على بغداد، فسمع من عدد من العلماء، ثم استقر بالموصل عاكفًا على العلم والتصنيف، ومها توفيَّ عام (٦٣٠هـ / ١٢٣٣م). كان ابن الأثير إمامًا في الحديث، حافظًا للتَّوَارِيخ، عالمًا بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم، وترجع شهرته إلى كتابين عظيمين؛ هما: "الكامل في التاريخ" وهو كتاب تاريخي جامع، على نفس نمط تاريخ الطبري في المنهج الحولي؛ حيث بدأه من بدء الخليقة، مرورًا بأخبار الأنبياء والأمم القديمة، ثم بالتاريخ الإسلامي حتى قريبٍ من وفاته، وقد اختصر تاريخ الطبري؛ فحذف كثيرًا من الخطب والرسائل الطويلة، وزاد عليه من الأحداث السياسية حتى زمانه، ويُعتبر "الكامل في التاريخ" مصدرًا رئيسًا مهمًّا من مراجع كتب التاريخ الإسلامي، وزاد من قيمته أن ابن الأثير عاصر ذروة الحروب الصليبية فأرَّخ أحداثها كأحد معاصريها؛ وأمَّا الكتاب الثاني فكان "أسد الغابة في معرفة الصحابة" وقد جمع فيه تراجم الصحابة مرتَّبًا على الحروف الهجائية!

١ انظر: الفهرست، ابن النديم (٤٧٤-٤٧٥)؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٤ / ١٧٠٥-١٧٠٦)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٢ / ٤٥٠-٤٥١).
٢ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣ / ٣٤٨-٣٥٠)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٣ / ٥١٠-٥١١).

٤- ابن خَلِّكان:

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خَلِّكان؛ قاضي القضاة، شمس الدين البرمكي، وُلِدَ يتيماً عام (٦٠٨هـ / ١٢١١م) في أربل شرق الموصل، كان فاضلاً بارعاً عالماً، كثير الاطِّلاع، جيّد القريحة، كريماً ممدّحاً جواداً، فيه حلم وعفو، سمع صحيح البخاري، وأجاز روايته عدد من شيوخ عصره، ورَوَى عنه عدد من العلماء، طلب العلم وانتقل إلى حلب، ثم إلى دمشق، ثم إلى القاهرة عاصمة الدولة الأيوبية التي كانت تحكم مصر والشام والحجاز، وقد لقي في تلك البلدان عدداً من علمائها وأخذ عنهم، وقد عاصر ابن خلكان سقوط الخلافة العباسية عام (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، وقيام دولة المماليك في مصر، وموقعة عين جالوت عام (٦٥٨هـ / ١٢٥٩م) ضد المغول، وصحب السلطان المملوكي بيبرس فولَّاه قضاء دمشق على فترات متقطعة، وظل متنقلاً بين دمشق والقاهرة إلى أن قضى نحبه في دمشق عام (٦٨١هـ / ١٢٨٢م)¹.

ويُعتبر كتابه "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" من أروع كتب التراجم التاريخية التي ترجمت للمشاهير، وهو كتاب ضخمة مُقسَّم إلى أجزاء، رتَّب فيها تراجم الأعلام وفق ترتيب الحروف، على نمطٍ مشابه لمعجم الأدباء والمؤلفين لياقوت الحموي، ويُعتبر مرجعاً مهماً لمن أراد البحث في تراجم مشاهير العصر العباسي، ولا سيَّما أنَّ ابن خَلِّكان قد أدرك نهاية العصر العباسي، وأوَّل العصر الذي يليه، فيكون قد أرخ له تاريخاً كاملاً دون أن تفوته مدَّة من مُدَّه.

¹ انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، مقدمة الكتاب (١ / ٥)؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٣ / ٦٤٧).

الخاتمة

وبهذا نكون قد انتهينا من الجزء الثالث من كتابنا "تاريخ الآداب العربية"؛ الذي تناولنا فيه العصر العباسي برُمّته، تلك الحقبة التي بدأت منذ قيام الدولة العباسية عام (١٣٢هـ / ٧٥٠م)، وانتهت بسقوط بغداد على يد المغول (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، وقد تطلّب تأليفنا لهذا الجزء عناية خاصة، تختلف عن الجزء الأول والثاني؛ نظرًا إلى طول هذه الحقبة الزمنية التي أربت على خمسة قرون، فضلًا عن أنها كانت حقبة ثريّة، غنيّة بالكثير من التطورات والتغيرات على مختلف الأصعدة، من الناحية السياسية والاجتماعية والعلمية والثقافية، وكلها عوامل فرضت نفسها على الحياة الأدبية في تلك الحقبة الطويلة، وتطلّبت منّا التطرق نحو جوانب فكرية جديدة، لم تكن موجودة في العصور السابقة؛ حيث لم يُعد الأمر مقصورًا على الشّعْر والخُطْب والرسائل فقط.

وقد بدأ كتابنا بالفصل الأول الذي حوى نبذةً مختصرةً عن العصر العباسي، شرحنا فيه جوانبه السياسية، وقسّمناه إلى عدّة أعصُر ومراحل، وبيّنّا في كل مرحلة خصائصها السياسية، ثم شرحنا الأحوال الاجتماعية في هذا العصر، وما أصابها من تغيير وتطوُّر، سواء أكان ذلك من حيث التّمُدّن، أم من حيث انطلاق الحرية الفكرية والعقائدية التي شهدها العصر العباسي، أم من حيث انتشار مظاهر اللّهُو والمجون والرقيق والجواري والشعوبيّة والزندقة، بالإضافة إلى مظاهر الزُّهد والتّصوّف، ثم خصصنا الفصل الثاني عن الحياة الثقافية في العصر العباسي، وشرحنا مظاهر وأسباب تطوُّر النهضة العلمية، ومررنا على تطوُّر العلوم والمعارف المختلفة، سواء أكانت في العلوم الدينية من فقه وتفسير وحديث، أم في العلوم اللغوية والأدبية من شعر ولغة وأدب ونقد، أم في العلوم العقلية والنظرية كالفلسفة والتاريخ، ومثل ذلك أيضًا كذلك العلوم التطبيقية كالطب والهندسة والفلك والجغرافيا والصيدلة والفيزياء والكيمياء وجميع المعارف، وما حصّله المسلمون من الترجمة، وكذلك فيما يتعلق باختلاط العرب

بالموالي، وما حدث من تنوع ثقافي، نتيجة اطلاع كل أمة على ما لدى غيرها من علوم ومعارف وثقافة، ممّا أحدث امتزاجاً رائعاً، وشكّل طفرةً ثقافيّة وعلميّة هائلة في التاريخ الإسلامي، وربّما تناولنا الحالة الثقافية في فصلٍ خاص، وبشيء من التفصيل؛ نظرًا إلى أنّ ذلك التطوُّر العلمي والثقافي كان مرتبطاً بالحياة الأدبية بشكل كبير، وشكّل عنصرًا مهمًّا من عناصر الكتابة الأدبية، وأثر فيها شعراً ونثرًا وتأليفًا؛ وقد حاولنا ربط الأحوال الاجتماعية والثقافية بالأدب في هذا العصر؛ لما كان من أثرها العظيم على الحياة الأدبية.

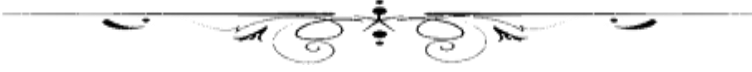
ثم تناولنا في الفصل الثالث: الشعر وازدهاره في العصر العباسي؛ فتحدّثنا عن عوامل تطوّره وخصائصه، مع بعض الخصائص المعنويّة واللّفظيّة، وكذلك مذاهب الشعراء، وتناولنا الأغراض التّقليديّة من مديح ورثاء وهجاء ووصفٍ وغزل وزهد وفخر، وبيّنا محاولات الشعراء العباسيّين في التّجديد فيها، ثم تناولنا ملامح التّجديد الحديثة في الشعر العباسي؛ من نَبذ المقدمة الطللية، والتّغيير في الأوزان والقوافي، والصنعة الأسلوبية، ونمو الاتجاه العقلي، وأثره الواضح في أوصاف الشعراء ومراثيم وفكرهم، فضلًا عن نمو شعر التّصوّف، والشعر التعليمي، وبعض الموضوعات الأخرى غير المألوفة.

ثم تحدّثنا في الفصل الرابع عن أبرز الشعراء الفحول، بتراجمهم وخصائص شعرهم مع نماذج منه، وهم: بشّار، أبو نُوّاس، أبو العتاهية، مسلم بن الوليد، أبو تَمّام، علي بن الجهم، البحري، ابن الرومي، ابن المعتز، المتنبّي، أبو فراس الحمداني، أبو العلاء المعري؛ ثم خصصنا الفصل الخامس بسائر الشعراء، متحدّثين عنهم باختصار، مقسّمين طوائفهم بين شعراء البلاط، وشعراء البرامكة، وشعراء الاعتزال، وشعراء الغزل، وشعراء اللّهُو والمجون، وشعراء الزُّهد والتّصوّف، وشعراء آل البيت، وشعراء التّشيع، وشعراء البادية، والشعراء الشعبيّين، وشعراء العراق، وشعراء الشام، مع بعض النماذج لأشعار النساء، وقد حرصنا في ذلك على ذكر أكبر قدر ممكن من الشعراء الذين تقصر أحيانًا بعض كتب تاريخ الأدب عن ذكرهم.

ثم تناولنا في الفصل السادس: النثر في العصر العباسي، وما فيه من ملامح وخصائص وتطور، بالإضافة إلى تشعب فنونه، وشرحنا كيف أنه وثب وثبات هائلة، وتطور تطوراً عظيماً في هذا العصر، ومررنا على فنونه المختلفة؛ من خطب، ورسائل ديوانية وإخوانية، وتوقيعات، وقصص، ومناظرات، ومقامات؛ ثم تناولنا في الفصل السابع: أبرز أعلام كتاب العصر العباسي، وكان عددهم كبيراً، يصعب أن نوفي بهم جميعاً في هذا الكتاب، فاخترنا أشهرهم، ومن وجدنا له تراجم وافية، وتركوا أثراً في كتاباتهم ورسائلهم؛ وهم: ابن المقفع، سهل ابن هارون، أحمد بن يوسف، عمرو بن مسعدة، ابن الزيت، الجاحظ، إبراهيم الصولي، الحسن بن وهب، ابن العميد، صاحب ابن عباد، الصابي، الخوارزمي، بديع الزمان، قابوس بن وشمكير، الحريري، ختاماً بالقاضي الفاضل؛ ثم أوردنا في الفصل الثامن بعض النماذج من الخطب والرسائل المتفرقة.

ورأينا أن نخصّص الفصل التاسع عن سائر الأدباء؛ من مؤلفين ولغويين ومؤرخين ورواة للشعر؛ حيث إن تطور التأليف، وبروز معالم النثر التأليفي، وتطور الجوانب الثقافية والأدبية بشكل عام، وما أحدثه أهل اللغة والأدب ورواية الأشعار في الحياة الأدبية، وما تركه المؤلفون من مؤلفات وكتب ومصنّفات عديدة ممّا أثرى الفكر، وانعكس على الشعر والأدب؛ كان دافعاً لنا إلى أن نخصّص فصلاً عنهم، ذاكرين تراجمهم باختصار، مع إيراد بعض أسماء شيوخهم وتلامذتهم، وبعض أسماء مؤلفاتهم ومنجزاتهم الفكرية، ممّا يُعدّ جزءاً أصيلاً من الأدب وتاريخه في العصر العباسي.

وربّما يلاحظ القارئ أننا لم نأت على ذكر شعراء الحقبة الأخيرة في العصر العباسي من شعراء القرن السادس والسابع الهجري، ومن عاصر الحروب الصليبية؛ والسبب في ذلك أن هذا الجزء -نظراً إلى كثرة معلوماته- لم يتسع للحديث عن تلك الحقبة، التي تستوجب فصلاً مستقلاً للحديث عن شعرائها، ولامح الشعر فيها، وما رافقه من أثر التصوّف والحروب الصليبية؛ مراعاة

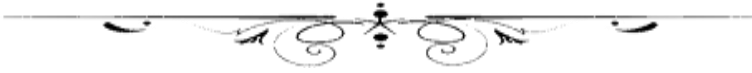


للجانب الزمني، لذا قرّرنا تأجيل هذا الفصل الخاص إلى الجزء الرابع من سلسلة كتابتنا "عصر الدول والإمارات"، بجانب الأدب الأندلسي، وأدب المغرب العربي، وأدب الدولة التركية.

وبهذا نكون قد ألممنا بشتّى الجوانب الثقافية والأدبية في هذا العصر، وأحطنا بكل نواحي الشّعـر وتطوّره، والنثر بجميع فنونه وملامحه، ورسمنا صورة متكاملة وواقعية عن أدب هذا العصر، الذي كان بحقّ يمثّل الحقبة الذهبية للحضارة الإسلامية، وللأدب العربي بشتّى جوانبه وفنونه.

ملحق بمعاني الكلمات الغربية

ص	الكلمة	المعنى
١٠٠	اللغاديد تربا الشم مرعش	جمع لغدود: لحمة في عروق الحلق. صاحبا مكافئا الجياذ الشَّمَاء بلدة بين الشام وبلاد الروم
١٠٣	الصوب الغادية	المطر الغيمة تمطر عند الصباح
١٢١	عصائبه	الجماعات: اراد بها ظلمة الليل
١٢٦	يفتر رهج	يبتسم من قلة مبالاته للحرب غبار الحرب
١٣١	اللداث والأتراب	الأصحاب
145	الزق	الخمير
١٥٠	حوب ديم العواد أو العوائد الوصب الذاعرية تبغيل الموارد	إثم اسم المرة من دام الزوار المرض المخيفة نوع من السير السحرة
١٥١	خود مجلودي الخرائد الولائد الزبن الخروج الحواشد	فتاة حسناء من الجلد الفتاة الجميلة الجواري دفع الناقة عند الحلب الناقة طويلة العنق جمع حاشد: الناقة الكثيرة اللبن
١٥٧	لآلاء	ضياء
١٧٢	الجوامع نقارط شتى	الأغلال تتقدم وتتابع شيئا بعد شيء
١٨٠	الهن متزع	كثيرة الانصباب ممتلئ

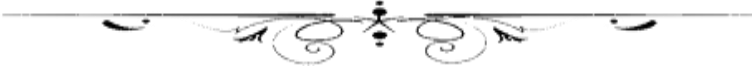


النجبان اللين الأكام الجميل الذي لم يركب حتى صار صعبا. المشددود	النكس اللدن النباج المصعب المعقول	
الذل جمع بلغة وهي ما يكفي الانسان من غير فضله بقيته أنقصتها	النكس بلغ صباية العيش طففتها	١٩١
مناولي الذي يرد فيه الماء الخصب الشرب كره بعد كره	معاطي الوارد الرفه العلل	١٩٢
الفجوة الجبل الكثير النتوء الجبل القائم الشديد من الظن صروفه وآلامه مستقر	الجوب الأرعن الجلس يتظني كلاكل الدهر مرسي	
ارتعاد	زمع	٢١٩
الجبناء	الرعاديد	٢٢١
يعني الليل	الأسود	٢٣٨
الإبل تكثر آخر الشهر معدول على الكفة من ذهب ماله الشام جمع أرب، أي حاجة الأصحاب صوت البعير صوت الشيء الساقط البحر المضطرب موجه	الناجيات تجم سرارا كفاف المسيف المستاف الاراب الألاف الرغاء الهدة الرجاف	٢٣٩

دع واترك جمع فوف اي البياض في أظفار الأحداث البراءة من المرض	بله الأفواف الإخطاف	
الذهب	العسجد	٢٤٠
رفعت أنفها واستكبرت لثيم	اخرنطمت لكع	243
الرماح العطشان	الأسل التهال	٢٤٦
السهل اللين	الوطنى	٢٤٩
قطع الذهب الصغيرة ذلّه وحبسه تتردد	الشندر خيسه تخيسا تحوس	٢٥٢
العقول الغوص والعمق	الأحلام السبر	٢٧٢
ذكر الضباع شبيه الوعل ولد الأربة وهي الأروى من إناث الوعل الثعلب الماكر صغار النمل طائر صغير بطيء الطيران صغار الغنم	الذبيخ الثيتل الغفر التتفل الذرا أبغث اليعر	٢٧٣
عاقل	معقل	٢٨٧
الذي أعيا أهله ومؤدبيه وهو يطلق على أهل الفساد والبطالة. قرية مشهورة بالحمور الجاف الشديد من الرجال الوثبة نوع من الفراء الثمين	شاطري غمي العلاج السورة الفنك	٣٠٥
استزرتها	استبريتها	335
حسبك مني النوق الغائرة العينين التي تجلب من بلاد الغير وانتزعت من بلاد الغرباء	قصرك مني خوص المطي التزائع	٣٤٠
ولد الظبي الأحمر أو الذي خالط بياضه سواد	الخشف الخليس	٣٤٣

عشب طويل له وردة حمراء أقوى قواه صوّت صوتا خفيفا ولد الظبي تتوقف العظام الشاخصة بجوار العين الضامر اليابس	الأمهقان أمر قواه ناب نبأة الطلا تربع النواحق الشاسب	
المبدد المفرق	المذدع	٣٤٤
الثواب القليل	المبترض	٣٥٠
اللباس ويعني هنا السواد طائر في الهند يقال أنه لا يحترق بالنار	الغلال السمند	٣٥٣
التجافي والتباعد	النبوة	٣٩٧
يتبختر في المشي الكلب المقلد بالخرج بطن الإعياء	ميس الرجل المخرج سرة الأين	٤٠٨
الضعف من الكراهية	الفترة مقلية	٤١٧
المساومة الذهب والزعفران	السوم الأحمران	٤١٨
سيدا شريفا	سريا	٤٢٣
ظن أننا لا نقدر عليه العجم	روخي له الأحمر	٤٩٢
الفُحش جمع يعسوب وهو: الرئيس الكبير	البذا اليعاسيب	٤٩٣

تم أخذ معاني الكلمات الغريبة من هوامش المصادر المأخوذة منها تلك القصائد
والمقطوعات النثرية.



تم بحمد الله
الجزء الثالث من كتاب
"تاريخ الآداب العربية"
الخاص
بالعصر العباسي

المراجع

- الأدب الصغير والأدب الكبير، ابن المقفع؛ عبد الله، تحقيق: د. إنعام فوّال، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- أصول المناظرة وروائع المناظرات، النجدي؛ عبد الرحمن، دار التقوى، القاهرة-مصر، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
- الأغاني، الأصفهاني؛ أبو الفرج، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت-لبنان، ط٣، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- الأوراق، الصولي؛ أبو بكر محمد بن يحيى، مطبعة الصاوي، ط١، ١٩٣٤م.
- تاريخ آداب العرب، زيدان؛ جرجي، دار الفكر، بيروت-لبنان، ١٤٢٢هـ-٢٠١١م.
- تاريخ آداب العرب، الرافعي؛ مصطفى صادق، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٢، ٢٠٠٩م.
- تاريخ الأدب العربي، الزيات؛ أحمد حسن، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط٧، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- تاريخ الأدب العربي، فروخ؛ عمر، نور القلم، ١٤٤٤هـ-٢٠٢٣م.
- تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، الفاخوري؛ حنا، دار التقوى، القاهرة-مصر، ٢٠١٩م.
- تاريخ الأدب العربي ج(٣)، ضيف؛ شوقي، دار المعارف، القاهرة-مصر، ط٢٥، ٢٠١٩م.
- تاريخ الأدب العربي ج(٤)، ضيف؛ شوقي، دار المعارف، القاهرة-مصر، ط١٨، ٢٠١٩م.
- تاريخ الأدب العربي ج(٥)، ضيف؛ شوقي، دار المعارف، القاهرة-مصر، ط٣.
- تاريخ الأدب العربي ج(٦)، ضيف؛ شوقي، دار المعارف، القاهرة-مصر، ط٥، ٢٠١٥م.



- تاريخ التصوف الإسلامي، بدوي؛ عبد الرحمن، وكالة دار المطبوعات، ط ١، ١٩٧٥ م.
- التاريخ السياسي للمعتزلة، سالم؛ عبد الرحمن، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت-لبنان، ٢٠١٨ م.
- تاريخ المعتزلة.. فكرهم وعقائدهم، الربيعي؛ فالج، الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٠ م.
- تهذيب البداية والنهاية لابن كثير، إعداد: عبد الحليم؛ إبراهيم عبد الحليم، دار السلام، السعودية، ط ٢، ١٤٤٢ هـ- ٢٠٢١ م.
- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، صفوت؛ أحمد زكي، المكتبة العلمية، بيروت-لبنان، د.ط، د.ت.
- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، صفوت؛ أحمد زكي، المكتبة العلمية، بيروت-لبنان، د.ط، د.ت.
- الحضارة الإسلامية، أبو عبيدة؛ طه عبد المقصود، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٤ هـ- ٢٠٠٤ م.
- ديوان ابن دريد، دراسة وتحقيق: عمر بن سالم، مؤسسة سلطان بن علي العميبي الثقافية، دبي-الإمارات، ط ١، ٢٠١٢ م.
- ديوان ابن الرومي، دار الكتب العلمية، لبنان-بيروت، ط ٤، ٢٠٠٩ م.
- ديوان ابن المعتز، دار صادر، بيروت-لبنان، ١٤٣١ هـ- ٢٠١٠ م.
- ديوان الإمام المجاهد ابن المبارك، تحقيق: مجاهد مصطفى بهجت، مجلة البيان، الرياض، السعودية، ١٤٣٢ هـ.
- ديوان أبي تمام، شرح: شاهين عطية، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط ٤، ٢٠٠٩ م.
- ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق: يوسف البقاعي، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ٢٠١٤ م.



- ديوان أبي العتاهية، شرح: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
- ديوان أبي العلاء المعري، سقط الزند، شرح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- ديوان أبي العلاء المعري، اللزوميات، شرح: غريد الشيخ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
- ديوان أبي فراس الحمداني، شرح ومراجعة: عبد القادر محمد مايو، أحمد. عبدالله فرهود، دار القلم العربي، حلب- سوريا، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
- ديوان أبي نواس، شرح: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٥، ١٤٤٣هـ- ٢٠٢١م.
- ديوان البحتري، شرح: محمد التونجي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
- ديوان الشريف الرضي، شرح: محمود مصطفى حلاوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.
- ديوان الصنوبري، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٨م.
- ديوان العباس بن الأحنف، تحقيق: عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، ط١، د.ت.
- ديوان عبد الله ابن المعتز، دار صادر، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.
- ديوان علي بن الجهم، تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت- لبنان، ط٣، ٢٠١٠م.
- ديوان كشاجم، شرح: مجيد طراد، دار صادر، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٧م.

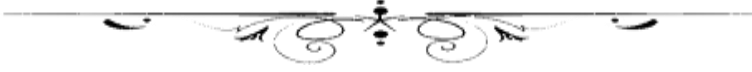
- ديوان محمود الوراق شاعر الحكمة والموعظة الحسنة، تحقيق: وليد قصاب، مؤسسة الفنون، عجمان- الإمارات، ط ١، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.
- ديوان مسلم بن الوليد، تحقيق: سامي الدهان، دار المعارف، القاهرة، ط ٣.
- رسائل الجاحظ، الجاحظ؛ أبو عثمان عمرو بن بحر، مكتبة التقوى، دار العلم والمعرفة، القاهرة- مصر، ١٤٤١هـ- ٢٠١٩م.
- رسائل القاضي الفاضل، دراسة وتحقيق: د. علي نجم عيسى، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
- زهر الآداب وثمر الألباب، القيرواني؛ أبو الحسن الخُصَري، دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠١١م.
- شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، يموت؛ بشير، المكتبة الأهلية، بيروت- لبنان، ط ١، ١٣٥٣هـ- ١٩٣٤م.
- طبقات الشعراء، ابن المعتز؛ عبد الله بن محمد، تقديم وشرح: صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان، ط ١، ٢٠٠٢م.
- طبقات الصوفية، السلمي؛ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
- الفهرست، ابن النديم؛ أبو الفرج محمد بن إسحاق، شرح: د. ايمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، د.ط، د.ت.
- كلیلة ودمنة، ابن المقفع؛ عبد الله، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة- مصر، ط ٨، ٢٠٢٠م.
- لسان العرب، الأنصاري؛ ابن منظور محمد بن مكرم، دار صادر- بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ.
- مدخل إلى مذهب المعتزلة، إعداد: السالمي؛ ياسين السالمي. مارس ٢٠٢٠، كتاب الكتروني.
- معجم الأدباء، الحموي؛ ياقوت، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م.



- مقامات بديع الزمان الهمداني، شرح: محمد عبده، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة- مصر، ط ٣، ٢٠١٩ م.
- الملل والنحل، الشهرستاني؛ أبو الفتح محمد عبد الكريم، تحقيق: عبد الأمير علي مهنا- علي حسن ناعور، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط ٣، ١٤١٤ هـ- ١٩٣٣ م.
- النثر الفني في القرن الرابع، مبارك؛ زكي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت- لبنان، ١٤٢٧ هـ- ٢٠٠٦ م.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري؛ أبو البركات عبد الرحمن ابن محمد، تحقيق: رياض مصطفى عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط ١، ١٤٣٥ هـ- ٢٠١٤ م.
- نزهة الجلساء في أشعار النساء، جلال الدين السيوطي، مكتبة القران، القاهرة- مصر، د.ط، د.ت.
- وفيات الأعيان، ابن خلكان؛ أبو العباس أحمد بن محمد، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، لبنان- بيروت، د.ط، د.ت.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي؛ أبو منصور عبد الملك من محمد، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان، ط ١، ١٤٣٣ هـ- ٢٠١٢ م.

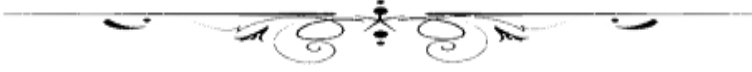
المحتوى

الباب الرابع.....	٥
الأدب في العصر العباسي.....	٥
العصر العباسي.....	٦
تعريفه:.....	٦
الأحوال السياسية:.....	٧
أولاً: العصر العباسي الأول:.....	٧
ثانياً: العصر العباسي الثاني:.....	١٥
الأحوال الاجتماعية:.....	٢٦
١- التمدُّن واختلاط العرب بالموالي:.....	٢٧
٢- الحرية العقائدية وانطلاق الفكر:.....	٢٨
٣- مظاهر اللهب والمجون:.....	٢٩
٤- الجواري والرقيق:.....	٣١
٥- الشعوبية:.....	٣٢
٦- الزندقة:.....	٣٣
٧- طبقات المجتمع:.....	٣٥
٨- الزهد والتصوُّف:.....	٣٧
مظاهر الحضارة الإسلامية.....	٤١
عوامل إزدهار الحضارة الإسلامية:.....	٤١
أولاً: العلوم الدينية والشرعية:.....	٥٢
ثانياً: العلوم الأدبية واللغوية:.....	٥٧

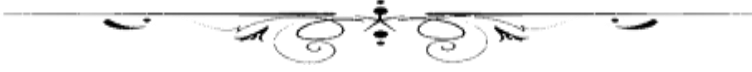


- ثالثًا: العلوم العقلية والنظرية: ٦٤
- رابعًا: العلوم التطبيقية: ٦٧
- أثر التطور الثقافي والعلمي على الحياة الأدبية: ٧٣
- الشعر في العصر العباسي ٧٧
- ازدهار الشعر في العصر العباسي: ٧٧
- مذاهب الشعر في العصر العباسي: ٧٩
- مراحل العصر العباسي وشعره: ٨٢
- خصائص الشعر العباسي: ٨٥
- التجديد في الأغراض التقليدية: ٨٩
- مظاهر التجديد في الشعر العباسي: ١١٨
- شعراء العصر العباسي ١٤٣
- ١- بشار بن بُرد ١٤٣
- ٢- أبو نؤاس ١٥٢
- ٣- أبو العتاهية ١٥٩
- ٤- مسلم بن الوليد ١٦٧
- ٥- أبو تمام ١٧٣
- ٦- علي بن الجهم ١٨٢
- ٧- البُحتري ١٨٨
- ٨- ابن الرومي ١٩٤
- ٩- ابن المعتز ٢٠١
- ١٠- أبو الطيّب المتنبي ٢٠٨
- ١١- أبو فراس الحمداني ٢٢٢

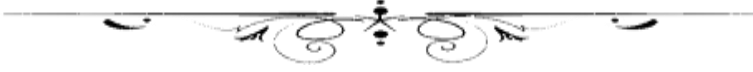
- ١٢- أبو العلاء المعري ٢٢٩
- طوائف من الشعراء ٢٤١
- أولاً: شعراء البلاط ٢٤١
- (أبو دلامة- مروان بن أبي حفصة- سلم الخاسر- أبو الشيص الخزاعي- علي ابن يحيى المنجم) ٢٤١
- ثانياً: شعراء البرامكة ٢٥٥
- (نصيب الأصغر- أشجع بن عمرو السلمي- أبان بن عبد الحميد اللاحقي- الفضل ابن عبد الصمد الرقاشي) ٢٥٥
- ثالثاً: شعراء الاعتزال ٢٦٧
- (بشر بن المعتمر- كلثوم بن عمرو العتابي- النظام) ٢٦٧
- رابعاً: شعراء الغزل ٢٨١
- (العباس بن الأنحف- ربعة الرقي- خالد بن يزيد الكاتب- محمد بن داود الظاهري) ٢٨١
- خامساً: شعراء اللهو والمجون والزندقة ٢٩١
- (حماد عجرد- مطيع بن إياس- والبة بن الحباب- صالح بن عبد القدوس- آدم ابن عبد العزيز- الحسين بن الضحاك) ٢٩١
- سادساً: شعراء الزهد والتصوف ٣٠٦
- (عبد الله بن المبارك- محمد بن كناسة- محمود الوراق- الحلاج- الشبلي) ٣٠٦
- سابعاً: شعراء آل البيت ٣١٧
- (الشريف الرضي- الشريف المرتضى) ٣١٧
- ثامناً: شعراء التشيع ٣٢٤
- (السيد الحميري- منصور النّمري- دعل الخزاعي- ديك الجن- مهيار الديلمي) ٣٢٤



- تاسعاً: شعراء البداية ٣٣٦
- (ابن ميادة- ابن الدُّمينة- عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي) ٣٣٦
- عاشراً: الشعراء الشعبيون ٣٤٣
- (أبو الشمقمق- جحظة البرمكي- الخبز أرزي) ٣٤٣
- حادي عشر: شعراء الشام ٣٤٨
- (الصنوبري- كشاجم- الوأواء الدمشقي- البيغاء- أبو العباس النامي) ٣٤٨
- ثاني عشر: شعراء العراق ٣٥٩
- (ابن دُرَيْد- السَّري الرَّقَاء- الوزير المهلي- القاضي التوخي- ابن نباتة السعدي) ٣٥٩
- ثالث عشر: من أشعار النساء ٣٧٠
- (عُلَيَّة بنت المهدي- عريب جارية المأمون- فضل الشاعرة- نماذج أخرى) ٣٧٠
- النثر في العصر العباسي ٣٧٨
- تطوره وازدهاره: ٣٧٨
- مدارسه وأساليبه: ٣٨٠
- أقسام النثر: ٣٨٧
- فنون النثر الأدبي ٣٨٨
- (الخطابة- الرسائل الديوانية والإخوانية- المناظرات- التوقيعات- القصص- المقامات) ٣٨٨
- أعلام الكتّاب ٤٠٩
- ١- ابن المقفّع ٤٠٩
- ٢- سهل بن هارون ٤١٦
- ٣- أحمد بن يوسف ٤١٩
- ٤- عمرو بن مسعدة ٤٢٢



- ٥- ابن الزيّات ٤٢٥
- ٦- الجاحظ ٤٣٠
- ٧- إبراهيم الصولي ٤٣٩
- ٨- الحسن بن وهب ٤٤٣
- ٩- ابن العميد ٤٤٦
- ١٠- الصّاحب ابن عباد ٤٥٣
- ١١- أبو إسحاق الصّابي .. ٤٥٨
- ١٢- أبو بكر الخوارزمي .. ٤٦٢
- ١٣- بديع الزمان الهمذاني ٤٦٧
- ١٤- قابوس بن وشمكير ٤٧٤
- ١٥- الحريري ٤٧٧
- ١٦- القاضي الفاضل ٤٨٤
- نماذج من النثر ٤٨٩
- أولا: الخطابة ٤٨٩
- ثانيا: الرسائل ٤٩٦
- أعلام الأدباء ٥٠٠
- أولا: الرّواة ٥٠٠
- (أبو عمرو ابن العلاء- حماد الراوية- المفضل الضبي- خلف الأحمر- أبو عمرو الشيباني- أبو عبيدة الراوي- الأصمعي- أبو زيد الانصاري- أبو زيد القرشي- محمد ابن سلام الجمعي- ابن الأعرابي- ابن السكيت- السجستاني- السكري) ٥٠٠
- ثانيا: المؤلّفون ٥١٤



- (القاسم بن سلام- ابن قتيبة- المبرد- المفضل بن سلمة- أبو بكر الصولي- الأصفهاني-
المرزباني- ابن النديم- ابن جني- العسكري- التوحيدي- الثعالبي- التبريزي- الميداني-
الجواليقي- ابن الأنباري- ياقوت الحموي) ٥١٤
- ثالثاً: النحاة..... ٥٣١
- (الخليل بن أحمد- سيبويه- الكسائي- اليزيدي- قطرب- الفراء- الأخفش- ثعلب-
الزجاج- نفطويه- ابن خالويه- الفارسي- الجوهري) ٥٣١
- رابعاً: المؤرخون..... ٥٤٢
- (الطبري- المسعودي- ابن الأثير- ابن خلكان) ٥٤٢
- الخاتمة..... ٥٤٦